نشر المحاسن الغالية

في

فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية

تأليف
أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي
المتوفى سنة ٧٦٨هـ

وضع حواشيه
خليل عمران المنصور

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

نشر المحاسن الغالية

في

فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية

تأليف
أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي
المتوفى سنة ٧٦٨ هـ

وضع حواشيه
خليل عمران المنصور

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان: رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
هاتف و فاكس: ٣٦٤٣٩٨ . ٣٦٦١٣٥ . ٣٧٨٥٤١ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق البريد: ٩٤٢٤ . ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address: Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floor
Tel + Fax: 00 (961 1) 378541 - 366135 - 364398
P.O.Box: 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2908-2

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم الأنبياء أجمعين وعلى آله وسلم تسليماً وبعد:

هذا كتاب نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية والملقب كفاية المعتقد ونكاية المنتقد لمؤلفه أبي محمد عبد اللّه بن أسعد المعروف باليافعي حيث يعتبر هذا الكتاب درة من درر تراثنا العربي الإسلامي الزاخر بالمآثر والمفاخر العالية وخصوصاً تراثنا الإسلامي الصوفي يتحدث عن الفقهاء والأولياء وكراماتهم وحكايا ظريفة وممتعة تتحف قارئها بأبهى الأفكار وأجمل الصور عن الإيمان بالله تعالى والتسليم بقدرته والتوكل عليه أثناء الأزمات وفي المحن والفرج الذي يحدث لهؤلاء الذين وقفوا أنفسهم للعبادة والتفكر بخلق الله وقدرته وحمده وثناءه على الدوام فقد وفقهم الله تعالى لاتباع الحق في العلم والعمل وحفظهم من الزيغ والزلل كذلك تحدث اليافعي في كتابه هذا عن سبب تأليف الكتاب وأنه رفع سؤال يتضمن أسئلة عشرة أجاب عنها في عشرة فصول حيث بدأ في الفصل الأول في الجواب عن السؤال الأول المتضمن إثبات كرامات الأولياء وأنها حق ثم تعرض لشرح المقامات العشرة التي هي التوبة والزهد والورع والصبر والفقر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا وبما أن اليافعي كان شاعراً بارعاً فقد ضَمَّن الكتاب قصيدة مدح بها النبي عليه السلام.

لهذا فقد كان الكتاب دليلاً وافياً وشرحاً كافياً للأولياء والصالحين وكراماتهم وبرهاناً لعقيدتهم وإيمانهم بالله سبحانه وتعالى فالعزة لله ولرسوله والمؤمنين.

خليل عمران المنصور

١٩٩٩/٨/٢١

ترجمة المؤلف[1]

هو عبد اللّٰه بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني الشافعي صوفي شاعر مشارك في الفقه والعربية والأصلين واللغة والفرائض والحساب.

كانت ولادته سنة ٦٩٨ هـ ورحل إلى عدن وجاور بمكة وتوفي بها في ٢٠ جمادى الآخرة ودفن بمقبرة باب المعلىٰ سنة ٧٦٨ هـ.

مؤلفاته: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، وروض الرياحين في حكايات الصالحين، مرهم العلل المعضلة في أصول الدين، الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز وديوان شعر ونشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية ومؤلفات أخرى.

---

(١) انظر معجم المؤلفين ج ٢/ ٢٢٩.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي أحيا بذكره قلوب أوليائه، ونورها بأنوار قمر التوحيد الساطعات من سرادقات[1] الجلال، وجعلها مطالع شموس المعارف، فأنار الوجود بأنوارها الطالعات من حضرة قدس الجمال، ونشر على ساحاتها أعلام الولاية معلمات بأنوار المعارف وجواهر الأسرار ويواقيت الحكم، كاشفاً لها الحجاب عن جمال صفات الكمال، وحلاهم بمحاسن الحلي وجلا قلوبهم من صدأ أكدار الأغيار، مرقيا لهم إلى المقامات الكريمات الغوال، وأكرمهم بالكرامات العظيمات الشاهدات لهم بالصدق وحسن الاستقامة والولاية والقرب والنوال، التي ملأ وجودها المشهور جميع الوجود السهل منه والوعر، والفيافي[2] والجبال، فلا ينكرها إلا أعمى البصيرة، محروم قد عدل عن جانب التوفيق والهدى إلى جانب الخذلان والضلال، ومال عن سنن عقيدة أهل السنة والجماعة إلى اعوجاج عقيدة أهل البدع والاعتزال، وطعن في طريق الصوفية أهل الصفاء السالكين من السنة الغراء معالي عزائمها الغزيرة العارفين بالله تعالى الرجال وإذا سمع أن أقواماً قرّبوا إلى الحضرة القدسية وفتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب وشاهدوا جمالاً ليس له مثال، وخلع عليهم خلع الولايات، وصرّفوا في المملكة في جميع الجهات، وخرقت لهم العادات، وأنيلوا عظيم النوال وسقوا في حضرة القدس على بساط الأنس راح المحبة في كؤوس الوصال، لم يدر ما فتح الباب وما كشف الحجاب، وما الحضرة والخلع والتصريف، وما ذلك الجمال وما الراح، والقرب والقدس والمحبة والوصال والأنس وغير ذلك من المواهب الجلال، وبادر إلى الاستهزاء وإلى دفع ذلك بما يدري من القياس وكثرة المماراة والجدال، فكيف به لو سمعهم وقد سكروا مما شربوا، وغنوا لما طربوا، وأنشد لسان حالهم معبراً عنهم نائباً عن لسان المقال، معرّضاً بذكر سلمى ونجد والحمى[3] تورية وتستراً، وترنم وقال هذه القصيدة المسماة «بالراح المختوم والدر المنظوم، في مدح المشايخ أصحاب السرّ المكتوم وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم»:

سلا عن حِمى سلمى وعنْ أهلِهِ الغرّ ... عسى خبر يلقاكُما طِيب الذكرِ
يجيءُ به من نحوها عذب منطق ... يفوحُ به من ريحها فائق النشر
يُخبر عن سَلْمى وعن ذلكَ الحِمى ... وقول لسان الحال في نظمِه الدّر

---

(١) سرادقات: (ج) سرادق: ما يُمدّ فوق صحن الدار وهو ستر الدار أو هو الخيمة الواسعة.
(٢) الفيافي: (ج) الفيفاء: الصحراء الواسعة المستوية.
(٣) الحِمَى: الموضع فيه كلأ، يمنع الناس من رعيه.

رعى الله عهداً مر مع جيرة الحمى … يُباهي رياض ناضرات به زهر
سقتنا بها سلمى من الرَّاح عندما … بَدَتْ فأضاءَ الكونُ من جانِب الخدرِ[1]
أمَاطَتْ حجاباً عن بهاءِ جمالها … فهِمنا سُكارى في المهامه والقفر
نرومُ التَّسلي عن هواها بعدنا … وكل جمال في الوجود بها يغري[2]
خليليّ ما سلمى ونجد وما الحمى … وما راحُها ما كأسها ما الهوى العذري
شربنا حُميا الحب في قدسِ حضرة … وأكرم بها في حضرة القدس من خمرِ
لنا عصرت من كَرْمِ نور جمال من … سقانا وقد غبنا وحرنا فما ندري
سَكرنا بها من شمها قبل شُربها … نَشاوَى بريّاها إلى آخرِ الدهرِ
أو السكر ذا من رؤيةِ الكأس أو أتتْ … به رؤية الساقي إلينا ذوي السكر
تجلى بأوصافِ الجمال فشاهدت … عيون قلوب ما به حار ذو الفكرِ
فيا ليلة فيها السَّعادات والمُنى … لقد صغرت في جنبها ليلةَ القدرِ
فلما شربنا الراحَ في ساعةِ الرضى … أتانا أغر السعد بالخلعِ الخضرِ
رسولُ عنايات برسم ولاية … وتصريفنا في الملك في البَر والبحر
وضاءتْ لنا أنوار غيب وشوهدت … أمور وأعلمنا بها أنها تجري
وحلت بوادي طور قلب معارف … زهَت فيه كم حسناء في داخل الخدرِ[3]
وكم حكم تجلى ملاح كأنها … عرائس أبكار على منطقِ الدرِ
وكم يدفع الله البلايا بسادةٍ … عن الخلق في كشف الشدائد والضرِ
فمن لم بذا يومن فقولوا لهُ إذا … تجرّا على الغر المشايخ بالنكرِ
تجلى فضولا في فضائل سادة … لهم في سما مجد المفاخر كم قصرِ
مقامات أحباب نرى الشهب دونها … بنوها بياقوت المواهب والدرِ
تضيء الدياجي من بهاء جمالها … بها يهتدي من للعُلا نحوها يسري
وما تلك من أشباه عشك فادرجي … إلى جوقِ عش في الغيابات أو جحر
أيا مَنْ له مصحوب نفس وهمة … تجولان حولَ الحش والفرن والقدرِ[4]
دع الخوضَ فيمَن فيه روح وهمة … تجولانِ حولَ العرشِ والفكر والذكرِ
سَكَارى بمولاهم وأنت بجيفة … أسيان؟ لا والله ما السكر كالسكرِ
ولا رخم فوق المزابل جاثم … على جيفٍ كالبازِ والنتنِ كالعطرِ[5]

---

(١) الراح: الخمر. الخِدر: ستر يُمدّ للمرأة في ناحية البيت.

(٢) رام الشيء: أراده وطلبه.

(٣) الطور: الجبل المشرف على نابلس (معجم البلدان ٤/ ٤٧).

(٤) الحشّ: البستان.

(٥) الرّخم: (ج) الرَّخمة: طائر من الفصيلة النسرية ورتبة الصقريات، غزير الريش على شكل النسر، مبقع بسواد وبياض، له منقار طويل التقوس وجناح طويل، يوصف بالغدر والحمق. =

ولا زُحَل كالبدرِ في النُّور والبها ... ولا صدف كالدر في الحسن والقدرِ
ولا ثعلب صاد الدجاج بخفية ... كليث هجوم في العظائم بالجهرِ
بسطو اجتراء منه يفترس الورى ... ولا أحد يسطو على الليث في الدهر
كذا الأوليا يلقى العظائم واحد ... ويعلو إذا ما قامَ بالله في أمر
فيا أيها الغر المُبادر جاهلاً ... إلى الطعنِ في السادات يوم الوغا تدري
لمن شرف العليا إذا ما انْجَلى به ... عجاج وطعن القوم للقرن في الظهر
وخرَّ صريعاً عند ما انكسَر العدا ... وقد مَاجَتْ الهيجاء بالبيضِ والسمرِ
وما هذه الهيجا سوى حنق به ... أكنى بذي عنها على جهةِ السترِ
وأعنى بها حرباً بها الله موعد ... مُعادي وليّ والوليّ واعد النصر
فقدْ قالَ منْ عادى الحديث صحيحة ... أسانيدنا فيه عن المُصطفى البدرِ
وآذنتهُ بالحرب أعلمت أنني ... مُحاربه والهلك في ذاكَ لو يدري
به سخط من ربنا عز ناصراً ... تعالى شديد البطش ذو العز والقهرِ
ويحتمل الإهلاك أيضاً بجسمه ... مع الدين عن قربٍ وذلك قد يجري
وأعظم بإهلاك بحرب عظيمة ... على مشهد الأشهاد في الحشر والنشر
هنالك حرب لا يطاق نضالها ... ومن ذا الحرب الله يثبت بالصبرِ
هُناك جيوش يهدم الكون ضربهم ... غلاظٌ شداد خارجونَ عن الحصرِ
بيوم عظيم الهول والجيش رميهم ... بنارٍ وترمى النار بالجمر كالقصر
وسُلْسل أقوام هُناك وجُرْجِروا ... نعوذُ بوجه الله من ذلكَ الخسر
وقد ركبَ السَّادات نجبا من البها ... وفود إلى الرَّحمن في موقفِ الحشرِ
هُناك يبينُ الحق حقاً وأهله ... ومن بابتداع باء أو باء بالكفر
إلهي توسلنا إليك بسادة ... صفوا فاصطفوا أهل التصوف والفقرِ(1)
على حبهم كلا أمتنا وأحينا ... وفي قُربك أجمعنا مع السادة الغر
وجوف رياض القدس نزه قلوبنا ... بجنات عرفان وأطعم من الثمر
ثمار الرضى والحب والأنس والحيا ... معَ القربِ والوصل المزيح شقا الهجر
وبهج بأنوارِ الجمال وجوهنا ... وطيب وطهرنا من الرّجس والشر
ولطفك في الدَّارين والعفو أولنا ... ونيل المُنى من فيضِ فضلك والستر
وأحبابنا والمسلمين وكن لنا ... ولياً وأوزعنا نواليك بالشكر
وصل على بدر الهُدى معدن الندا ... مُحمد الممدوح أعلى ذوي الفخر

= الجيف: (ج) الجيفة) جثة الميت إذا أنتنت.
الباز: أحد الكواسر من الطير، من الفصيلة الصقرية ورتبة الجوارح يستخدم في [illegible]
(1) التصوف: هو علم تُعرف به أحوال تزكية النفس، وتصفية الأخلاق، وتعمير [illegible]
السعادة الأبدية، فموضوعه: (التزكية والتصفية والتعمير).

غياثُ الورى مولى البرايا الذي علا | بجسم شريف للعلى إذْ بهِ أسري
ويعلو مقاماً يحمد الخلق فضله | يفوق على كل المقامات في الحشرِ
صلاة زكا في الآل والصحب نشرها | أولي المجد في العلياء كالأنجم الزهرِ
ويا أيُها الإخوان من كل مُنتم | إلى القوم في بدو من الأرض أو مصرِ
على منهجِ القوم اثبتوا لا يرُعْكم | أراجيف تخذيل المخاذيل في العصر[١]
وجدوا مع الصدق الذي كل سالك | بلا شك محتاج إليه مع الصبر
وذو الجذب يستسقي سحائب خاطر | خصيب بغيث الجودُ منهمل القطرِ
فلليافعي العبد المُسيء مُحبكم | إلى الله فادعو بالإنابةِ والغفر
سلامٌ عليكمُ لا برحتم بربعكُم | يهب نسيم القرب بالطيب والنشر[٢]
ثنت بعد ما أثنتْ عليهم عنانها | وجادتْ بحمدِ لله بالذب والنصرِ
ومن راحها المختوم تسقي أولي الهوى | ومن درها المنظوم تجلى أولي الفقرِ
بمدحٍ وقدحٍ في علاهم وفي العدا | أولي النفع والحرمان والعرف والنكرِ
ومسك الختام الحمدُ للهِ ربنا | وأبياتها سبعونَ منظومةَ الدر

أحمده سبحانه على عوائده الجميلة، وفوائده الجليلة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتصف بصفات الكمال ذو الجلال والإكرام، المنزه عن جميع النقائص الملك المنان، ذو المواهب العظام، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده المجتبى، ورسوله المصطفى المختار من جميع الأنام، المبعوث إلى كافة الخلق، والهادي من ظلام الكفر إلى نور الإسلام ودار السلام، صلى الله وسلم عليه وعلى آله الغر الأمجاد، وأصحابه النجباء الكرام.

أما بعد: فقد سألني فيما تقدم من الزمان بعض المشتغلين بالعلم من الإخوان في فتوى جاءني بها لأضع خطي فيها، فإذا بالسؤال يتعلق بكرامات الأولياء رضي الله تعالى عنهم، وكان قد وقع في ذلك كلام من بعض المنتسبين لأحد المذاهب الأربعة، فقلت للسائل: سبحان الله، وهذه المسألة غريبة بين أهل السنة حتى يحتاج فيها إلى فتوى وإنما كلامنا فيها مع المعتزلة[٣]، وامتنعت من وضع خطي فيها، وقلت: كتب أهل السنة من المشرق إلى المغرب ناطقة بجوازها ووقوعها، ومحتجون عليها في كتب الأصول بالمعقول والمنقول، وذلك أيضاً فيما بين الناس مشهور، فلا حاجة إلى فتوى

---

(١) الأراجيف: (ج) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

(٢) الرّبْع: الموضع ينزل فيه زمن الربيع، أو هو المنزل.
الطيب: كل ما يُتطيب به من عطر وبخور وعود وغير ذلك.
النّشر: الرائحة الطيبة أو الرائحة عموماً.

(٣) المعتزلة: فرقة من المتكلمين، تؤمن بالعقل، وتحاول التوفيق بينه وبين النقل، وتلجأ إلى التأويل ما وسعها، وفي هذا ما باعد بينها وبين السلف وأهل السنة. أسسها واصل بن عطاء الذي اعتزل بأصحابه حلقه الحسن البصري، ومن أكبر رجالها إبراهيم النظام وأبو هذيل.

ثم أقمت بعد ذلك مدة طويلة وإذا بجماعة من الفقهاء والفقراء ذكروا لي أنه وقع كلام كثير وخصام شديد فيما يتعلق بالكرامات حتى أدى ذلك إلى شر كثير، وكتب بعض الناس في ذلك سؤالاً، وكتب بعضهم أسئلة، فلم ينشرح صدري للجواب أيضاً، حتى انقضت مدة أخرى، فانشرح صدري لوضع هذا الكلام فيما يتعلق بالأسئلة المذكورة والجواب عنها، وهذا لفظها:

ما تقول السادة الفقهاء: أئمة الدين ومصابيح المسلمين، وفقهم الله تعالى لاتباع الحق في العلم والعمل، وحفظهم من الزيغ والزلل، في كرامات الأولياء رضي الله تعالى عنهم، هل هي حق أم لا؟ فإن قلتم هي حق، فهل يجوز أن تبلغ الكرامة مبلغ المعجزة في حسنها وعظمها؟ وما الفرق بين الكرامة والمعجزة؟ وكذلك ما الفرق بينها وبين السحر؟ وهل ظهرت الكرامات وكثرت في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كما ظهرت وكثرت فيما بعد؟ فإن قلتم ظهورها فيما بعد أكثر فلم ذلك والصحابة رضي الله تعالى عنهم أفضل الأمة؟ وهل يقال بكفر من قال المؤمن يعلم الغيب، أم لا يقال به حتى يسأل ماذا أراد بذلك؟ فإن قلتم يسأل فسئل، ففسر ذلك بشيء يقولون بجوازه، فما الجواب عن قوله عز وجل ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النمل: ٦٥] وهل أصحاب الكرامات من الأولياء أفضل، أم بقية الأولياء أفضل، أم بقية الأولياء الذين ليس لهم كرامات؟ وهل علماء الباطن العارفون بالله تعالى أفضل، أم علماء الظاهر؟ أعني علماء الشرع، وهل بين الشريعة والحقيقة[١] فرق أم لا؟ أفتونا مأجورين إن شاء الله تعالى.

قال العبد الفقير إلى عفو الله الكريم عبد اللّه بن أسعد اليافعي الشافعي[٢]، عفا الله تعالى عنه: هذه الأسئلة يحتاج في جوابها إلى شيء من البسط، فإن ذلك مما اختلف فيه الأنام، وكثر فيه الكلام ودخل في الخوض فيه حتى العوام؛ ومن ليس له معرفة بالبراهين العقلية القواطع، ولا علم بالأدلة النقلية المخبرة عن الوقائع، ولا ذوق للمواجيد الذوقية ومخالطة الشيوخ أرباب الأحوال والأنوار السواطع، مما برهنه من علماء السنة أئمة أهل الأصول، ومما ورد به القرآن والأخبار والآثار، مما ذكر اليسير منه يطول بالنصوص الصريحة الصحيحة التي لا يتطرق إليها التأويل ولا تحيلها العقول، ومما شوهد من المشايخ أصحاب المقامات والكرامات والمعارف والوصول، وها أنا أشرع في إيضاح ذلك مستعيناً بالله تعالى ومفصله في عشرة فصول، ومسميه كتاب:

---

(١) انظر حديث القشيري عن الشريعة والحقيقة برسالته ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) هو عبد اللّه بن أسعد بن علي اليافعي عفيف الدين (٦٩٨ ـ ٧٦٨ هـ = ١٢٩٨ ـ ١٣٦٧ م) مؤرخ باحث، متصوف من شافعية اليمن. نسبته إلى يافع من حمير. ومولده ومنشأه في عدن. حج سنة ٧١٢ هـ، وعاد إلى اليمن. ثم رجع إلى مكة سنة ٧١٨ فأقام، وتوفي بها. من كتبه «مرآة الجنان، وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان» و«نشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية» وغير ذلك. الأعلام ٤/ ٧٢، وشذرات الذهب ٦/ ٢١٠، وطبقات الشافعية ٦/ ١٠٣ وفيه وفاته سنة ٧٦٧ ومثله في مفتاح السعادة ١/ ٢١٧.

نشر المحاسن الغالية

فــي

فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية

وإيضاح الأدلة على جواز عظام كرامات الأولياء ذوي الأحوال الحالية وشهرتها، وكثرة وقوعها في الأزمنة الخالية، وفي فضل سلوك الطريقة والجمع بين الشريعة والحقيقة، وملقبه: «بكفاية المعتقد ونكاية المنتقد».

الفصل الأول

في الجواب عن السؤال الأول

أقول وبالله التوفيق: ظهور الكرامات على الأولياء[1] رضي الله تعالى عنهم جائز عقلاً وواقع نقلاً. أما جوازه في العقل فلأنه ليس بمستحيل في قدرة الله تعالى، بل هو من قبيل الممكنات كظهور معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين والنظار الأصوليين والفقهاء والمحدثين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وتصانيفهم ناطقة بذلك شرقاً وغرباً عجماً وعرباً، وسيأتي في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى تمام الاستدلال بالعقل على المخالفين المانعين من جوازها مطلقاً، والمانعين من جواز عظامها. وأما وقوع ذلك بالنقل، أعني ظهور الكرامات، فقد جاء في القرآن الكريم والأخبار والآثار بالإسناد ما يخرج عن الحصر والتعداد، فمن ذلك في القرآن العظيم ما أخبر الله تعالى عن مريم رضوان الله تعالى عليها بقوله عز وجل: ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال: يا مريم أنى لك هذا قالت: هو من عند الله**﴾ [آل عمران: ٣٧] وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، هكذا جاء في التفسير، وقوله سبحانه وتعالى في مريم: ﴿**وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً**﴾ [مريم: ٢٥] وكان في غير أوان الرطب كما جاء في التفسير، وكذلك إلهام أم موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام في أمرها ما هو معروف؛ وكذلك ما أخبر الله تعالى من العجائب على يد الخضر رضوان الله تعالى عليه مع موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام؛ وكذلك قصة ذي القرنين رضوان الله تعالى عليه، وتمكين الله تعالى له ما لم يمكنه لغيره؛ وكذلك قصة أصحاب الكهف رضي الله تعالى عنهم، والأعاجيب التي ظهرت عليهم من كلام الكلب معهم وغير ذلك؛ وكذلك قصة آصف بن برخيا رضي الله تعالى عنه مع سليمان على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام في عرش بلقيس في قوله تعالى: ﴿**قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ [النمل: ٤٠] وكل هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء بل أولياء. ومن ذلك في الأخبار حديث جريج الراهب[2] الذي كلمه الطفل في المهد، وهو حديث صحيح أخرجاه في الصحيحين؛ وحديث أصحاب الغار[3] الذي انطبقت عليهم الصخرة ثم انفرجت عنهم، وهو حديث متفق على صحته مذكور في الصحيحين؛ وحديث البقرة التي كلمت صاحبها، وهو حديث صحيح مشهور؛ والحديث المشهور المتفق على صحته المذكور في الصحيحين في أبي

---

(١) انظر حديث القشيري عن كرامات الأولياء برسالته ص ٣٥٣.

(٢) انظر حديث القشيري عن جريج الراهب برسالته ص ٣٥٧.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ (حديث النار).

بكر رضي الله تعالى عنه مع ضيفه، وبركة الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله بثلاث مرات؛ وكذلك ما اشتهر عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أيضاً أنه أخبر أن حمل امرأته أنثى، فكان كذلك؛ وحديث الصحيحين المتفق على صحته في عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان من المحدثين بفتح الدال؛ وكذلك ما صح عنه أنه قال[1]: يا سارية[2] الجبل في حال خطبته في يوم الجمعة فبلغ صوته إلى سارية، فكان لعمر رضي الله تعالى عنه في ذلك كرامتان ثنتان: إحداهما ما كشف له عن حال سارية وأصحابه المسلمين وحال العدوّ، والثانية بلوغ صوته إلى بلاد بعيدة؛ والحديثان المتفق على صحتهما في سعد وسعيد رضي الله تعالى عنهما في إجابة دعوة كل واحد منهما؛ والحديث الصحيح في البخاري في خبيب رضي الله تعالى عنه في قطف العنب الذي وجد في يده يأكله في غير أوان الثمار؛ والحديث الصحيح حديث البخاري أيضاً في أسيد بن حضير[3] وعباد بن بشر[4] رضي الله تعالى عنهما للذين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما؛ والحديث الصحيح حديث الرجل الذي سمع صوتاً في السحاب يقول: اسق حديقة فلان، وما جاء أن ابن عمر[5] رضي الله تعالى عنهما قال للأسد الذي منع الناس الطريق: تنح فبصبص[6] بذنبه وذهب؛ وما جاء أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي[7] رضي الله تعالى عنه في غزاة،

---

(١) قال ذلك على منبر المسجد في المدينة المنورة موجهاً الكلام إلى سارية حيث كان يفتح بلاد فارس ٢٣ هـ.

(٢) سارية بن زنيم (توفي ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م) كناني دئلي صحابي، من الشعراء القادة الفاتحين (الرسالة القشيرية ص ٣٥٦). ومعنى هذا القول أي إلزم الجبل واصعده، ففي ذلك نجاتك من أعدائك الذين أحاطوا بك.

(٣) هو أسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك الأوسي (توفي ٢٠ هـ/ ٦٤١ م) أبو يحيى صحابي. كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، يُعد من العقلاء وذوي الرأي، وكان يسمى الكامل. شهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر، وشهد أحداً فجرح سبع جراحات وثبت مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناس عنه، وشهد الخندق والمشاهد كلها، وفي الحديث: «نعم الرجل أسيد بن الحضير». توفي في المدينة. له ١٨ حديثاً. الأعلام ١/ ٣٣١، وطبقات ابن سعد ٣/ ١٣٥، وتهذيب التهذيب ١/٣٤٧، وصفة الصفوة ١/ ٢٠١.

(٤) هو عباد بن بشر بن وقش الأشهلي الخزرجي الأنصاري (٣٣ ق هـ ـ ١٢ هـ = ٥٩١ ـ ٦٣٣ م) صحابي، من أبطالهم أسلم في المدينة، وشهد المشاهد كلها، وكان رسول الله ﷺ يبعثه إلى القبائل يصدّقها (يجمع الصدقات) وجعله على مقاسم حنين، واستعمله على حرسه بتبوك استشهد يوم اليمامة. الأعلام (٣/ ٢٥٧)، وتهذيب التهذيب ٥/ ٩٠، والمحبر ٢٨٢.

(٥) ابن عمر: هو عبد الله بن عمر بن الخطاب (انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ١٠٨، وتهذيب الأسماء ١/ ٢٧٨).

(٦) بصبص: حرك ذنبه طمعاً أو ملقاً أو خوفاً.

(٧) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ٢٤٥، وفي البدء والتاريخ ٥/ ١٠٢، والإصابة ت ٥٦٤٤، وصفة الصفوة ١/ ٢٩٠.

فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر، فدعا الله سبحانه باسمه الأعظم ومشوا على الماء؛ وما جاء أنه كان بين سلمان وأبي الدرداء(١) رضي الله تعالى عنهما قصعة(٢) فسبحت حتى سمعا التسبيح، وكذلك ما اشتهر أن عمران بن حصين(٣) رضي الله تعالى عنه كان يسمع تسليم الملائكة عليه، حتى اكتوى فانحبس عنه ذلك، ثم أعاده الله تعالى عليه؛ والحديث الصحيح حديث مسلم قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»(٤).

قلت: ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكفى دليلاً، وقد ورد عن السلف والخلف من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المشايخ العارفين، والفقراء الصادقين، وسائر الأولياء والصالحين رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين، من الكرامات المستفيضات الصادرات عن العيان والمشاهدات ما طبق الآفاق وملأ جميع البلاد، وعجزت الدفاتر عن اليسير منه في الحصر والتعداد، وقد ذكرت نبذة من ذلك في كتاب [روض الرياحين في حكايات الصالحين](٥) وفي كتاب [الإرشاد]، وسأذكر شيئاً من ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وقد صنف الناس في ذلك كتباً كثيرة وكرامة واحدة تكفي من له بصيرة، فكيف وقد ملأت الوجود وتشعشعت أنوارها فشامت أبصار المؤمنين بها بوارقها اللامعة، وفاحت أخبارها فتعطرت بنشرها الزاكي مسامعهم السامعة، وعميت عن رؤية أنوارها أبصار المكذبين بها من كل محروم، وصمت مسامعهم عن سماع أخبارها، وكل منهم عن شم طيبها مزكوم، وفي هذا المعنى أقول:

بدا النورُ من ربعِ الأحبا بنُعمـى ... فضاءَ به القاصي من الكونِ والداني(٦)

---

(١) هو عويمر بن مالك الأنصاري الخزرجي (توفي ٣٢ هـ ـ ٦٥٢ م) صحابي من الحكماء الفرسان القضاة تاجر ثم انقطع للعبادة. تولى قضاء دمشق، وهو أول قاض بها. (الرسالة القشيرية ص ٣٦٥).

(٢) القصعة: الصحفة الضخمة تتخذ للأكل (ج) قصاع، وقصع، وقصعات.

(٣) هو عمران بن حصين بن عبيد (توفي ٥٢ هـ/ ٦٧٢ م) أبو نجيد الخزاعي، من علماء الصحابة. أسلم عام خيبر (٧ هـ) وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة، وبعثه عمر إلى أهل البصر ليفقههم. وولاه زياد قضاءها. وتوفي بها. وهو ممن اعتزل حرب صفين. له في كتب الحديث ١٣٠ حديثاً. الأعلام ٥/ ٧٠، وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٨، وتهذيب التهذيب ٨/ ١٢٥، وصفة الصفوة ١/ ٢٨٣، وطبقات ابن سعد ٧/ ٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (البر والصلة ب ٤٠ رقم ١٣٠)، (الجنة ب ١٣ رقم ٤٨)، والبغوي في (شرح السنة ١٤/ ٢٦٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ١٥٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٩٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٢٥).

(٥) كتاب لعبد الله بن أسعد اليافعي اليمني المتوفى سنة ٧٦٨. جمع فيه خمسمائة حكاية وقيل: سماه نزهة العيون النواظر وتحفة القلوب والخواطر. وترجمه بالتركية المولى مصطفى بن شبان المتخلص بسروري المتوفى سنة ٩٦٩. (كشف الظنون ١/ ٩١٨ ـ ٩١٩).

(٦) قصا المكان: بَعُد. ودنا: قَرُب.

وفـاحَ بـه مـن خِـدر نُعمـى مُعطـراً | لـهُ طيـب ريـاهـا مُثيـراً لأشجـانـي
ولـم يـر ذاك النـور أعشـى بصيـرة | ولا شـم ذاك الطيـب مزكـوم حـرمـانِ
ومـن قَـدْ رأى أو شـم أصبـحَ مغـرمـاً | بنعمـى وحـالـى عيشهـا النـاعـم الهـانـي
فـإن أنعمـت نعمي سقـت راح وصلهـا | لأهـل الهـوى ممـن بهـا مغـرم عـانـي
جنـوا مـن جنـان الـوصـل تفـاح تحفـة | بـروضـاتِ رضـوان ورَوْح وريحـانِ
وعيشـاً هنيـاً فـي حمـى ظـل نعمـة | تـراهـم ملـوكـاً جـوف جنـات عـرفـانِ
فـآهـا علـى تلـك العطيـات والمُنـى | على تلك فابكوا يا صحابي وإخواني

الفصل الثاني

في الجواب عن السؤال الثاني

أقـول وبالله سبحانه التوفيق: يجوز أن تبلغ الكرامة مبلغ المعجزة في جنسها وعظمها على القول الصحيح المحقق المختار، وأستدل على ذلك بالمعقول والمنقول عن أئمة الأصول، وبوقوع ذلك من كثير من الأولياء بالإسناد الصحيح الموصول، أما المعقول فأقول: لا يخلو إما أن يكون المنع من ذلك من جهة النقل، أو من جهة العقل، والأول باطل إذ ليس في منع ذلك نقل يوجد، بل النقل متظاهر في جوازه كما سيأتي، والثاني، إما أن يمتنع لذاته أو لغيره، والأول باطل إذ خرق العادة مطلقاً في الصغير والكبير للنبي والولي وغيرهما من الشريف والحقير لا يحيله العقل في قدرة الرب القدير، والثاني إما أن يكون لالتباس النبي بالمتنبي أو غيره. والثاني باطل إذ ليس فيه دافع الأصل ولا قادح في معجزة، والأول إما أن لا يكون مقروناً بدعوى النبوة أو يكون، والأول باطل إذ ليس فيه التباس فتعين الثاني، وهو حصر الالتباس المحصور فيه المنع في الخارق المقرون بدعوى النبوة فلا التباس في غير الخارق، المقرون بالدعوى المذكورة، فلا منع من كل خارق ليس مقروناً بدعوى النبوة وهو المطلوب والحمد لله.

قلت: وهذا التقرير الذي قررته في جواز عظام الكرامات يلزم منه بطلان مذهب المعتزلة في منعهم جواز مطلق الكرامات، إذ جواز عظيمها يلزم منه جواز صغيرها، ويلزم منه أيضاً بطلان أقوال ضعيفة لبعض القائلين بجواز الكرامات، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

وأما المنقول: فالدليل على المعتزلة المانعين لجملة الكرامات قد قدمناه في الفصل الأول من القرآن والأخبار والآثار، والدليل على أصحاب الأقوال الضعيفة من المجوزين لها سأذكره من أقوال أئمة الأصول المحققين النظار المدققين.

قال الإمام النجيب ابن النجيب أبو المعالي إمام الحرمين رضي الله تعالى عنه في كتابه [الإرشاد]: ما صار إليه أهل الحق انخراق العادات في حق الأولياء، وأطبقت المعتزلة على منع ذلك. والأستاذ أبو إسحاق رحمه الله تعالى يميل إلى قريب من مذاهبهم ثم مجوزو الكرامات تحزبوا

أحزاباً، فمن صائرين إلى أن شرط الكرامة الخارقة للعادة أن تجري من غير إيثار واختيار من الولي، وصار هؤلاء إلى أن الكرامة تقارن المعجزة من هذا الوجه، وهذا غير صحيح لما سنذكره، وصار صائرون إلى تجويز وقوع الكرامة على حكم الاختيار، ولكنهم منعوا وقوعها على قضية الدعوى وقالوا: لو ادعى الولي الولاية واعتضد في إثبات دعواه بما خرق العادة. فإن ذلك ممنوع، وهؤلاء يعدون ذلك مميزاً بين الكرامة والمعجزة، وهذه الطريقة غير مرضية أيضاً، ولا يمتنع عندنا ظهور خوارق العوائد مع الدعوى المفروضة، وصار بعض أصحابنا إلى أن ما وقع معجزة لنبي لا يجوز تقدير وقوعه كرامة لولي، فيمتنع عند هؤلاء أن ينفلق البحر وتنقلب العصا ثعبانا وتحيا الموتى كرامة لولي، إلى غير ذلك من آيات الأنبياء؛ وهذه الطريقة غير سديدة أيضاً، والمرضي عندنا تجويز جملة خوارق العوائد في معارض الكرامات هذا نصه بحروفه ثم قال بعد ذلك:

فإن قيل: ما دليلكم على جوازها؟ يعني الكرامة:

قلنا ما من أمر يخرق العوائد إلا وهو مقدور الرب سبحانه ابتداء، ولا يمتنع وقوع شيء لتقبيح عقلي لما مهدناه فيما سبق، وليس في وقوع الكرامة ما يقدح في المعجزة، فإن المعجزة لا تدل لعينها وإنما تدل لتعلقها بدعوى النبي ونزولها منزلة التصديق بالقول، والملك الذي يصدق بدعوى الرسالة بما يوافقه ويطابق دعواه لا يمتنع أن يصدر منه مثله إكراماً لبعض أوليائه، ولا يقدح مرام الإكرام في قصد التصديق إذا أراد التصديق، ولا خفاء بذلك على من تأمل. انتهى كلامه وهو نصه بحروفه أيضاً.

قلت: ولا يخفى على من له بعض إدراك ما جمع كلامه الأول والثاني من الحسن والتحقيق والبلاغة، ثم ذكر بعد ذلك أن الكرامة والمعجزة ليس بينهما فرق إلا وقوع المعجزة على حسب دعوى النبوة، والكرامة دون ادعاء النبوة كما سيأتي في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى، وهذا الذي ذهب إليه من يجوز جميع خوارق العادات في الكرامات كالمعجزات، وكونهما لا يفترقان إلا في تحدي النبوة هو الذي ذهب إليه أئمة الأصول المحققون المعتمدون المشهورون.

قال الإمام أوحد وقته في فنه، القاضي أبو بكر الباقلاني(١) رضي الله تعالى عنه فيما صنف مما روى عنه العلماء رضي الله تعالى عنهم، ورويناه عنهم: إن المعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء، ولا تكون للأولياء معجزة، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها، والولي لا يدعي النبوة، فالذي يظهر عليه لا يكون معجزة.

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر (٣٣٨ ـ ٤٠٣هـ/ ٩٥٠ ـ ١٠١٣ م) أبو بكر، قاض، من كبار علماء الكلام. انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. من كتبه «إعجاز القرآن» و«الإنصاف» و«مناقب الأئمة» و«الملل النحل» و«هداية المرشدين» وغير ذلك. الأعلام ١٧٦/٦، ووفيات الأعيان ٢٦٩/٤، وتاريخ بغداده ٣٧٩/٥، وقضاة الأندلس ٣٧ ـ ٤٠.

وقال الإمام أبو بكر بن فورك[1] رضي الله تعالى عنه فيما رواه العلماء عنه ورويناه عنهم: المعجزات دلالات الصدق، ثم إن ادعى صاحبها النبوة فالمعجزة تدل على صدقه في مقالته، وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت المعجزة على صدقه في حالته فتسمى كرامة ولا تسمى معجزة وإن كانت من جنس المعجزات.

وكذلك شرط الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي[2] رضي الله تعالى عنه في الرسالة القدسية في الفعل الخارق للعادة في كونه معجزة أن يكون مقروناً بتحدي النبي، مشيراً باشتراط التحدي المذكور إلى أنه الفارق بين الكرامة والمعجزة، وكذلك في كتابه [الاقتصاد في الاعتقاد] لما ذكر خرق العادات في الكرامات قال: وذلك مما لا يستحيل في نفسه لأنه ممكن، ولا يؤدي إلى محال آخر فإنه لا يؤدي إلى بطلان المعجزة، لأن الكرامة عبارة عما يظهر من غير اقتران التحدي، وإن كان معه فإنا نسميه معجزة.

وقال الإمام فخر الدين الرازي رضي الله تعالى عنه في كتابه [المحصل][3] ثم تتميز الكرامة من المعجزة بتحدي النبوة.

وقال الإمام ناصر الدين البيضاوي رضي الله عنه في كتابه [المصباح] الكرامات جائزة خلافاً للمعتزلة والأستاذ، وتتميز عن المعجزة بعدم التحدي.

وقال الإمام محمد بن عبد الملك السلمي الطبري رضي الله تعالى عنه في كتابه [المعين على مقتضى الدين][4]: والكرامات من جنس المعجزات، لأن كليهما دلالات الصدق، وإنما يختلفان من

---

(١) هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني (توفي ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م) أبو بكر، واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية، سمع بالبصرة وبغداد، وحدث بنيسابور وبنى فيها مدرسة وتوفي على مقربة منها فنقل إليها. من تصانيفه «مشكل الحديث وغريبه» و«النظامي» في أصول الدين، و«الحدود» و«التفسير» وغير ذلك. الأعلام ٦/ ٨٣، والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٠، ووفيات الأعيان ٤/ ٢٧٢، والسبكي في الطبقات الكبرى ٣/ ٥٢.

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ/١٠٥٨ ـ ١١١١ م) أبو حامد، حجة الإسلام فيلسوف متصوف، له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته في الطابران. رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. من كتبه «إحياء علوم الدين» و«تهافت الفلاسفة» و«الاقتصاد في الاعتقاد» و«مقاصد الفلاسفة» وغير ذلك. الأعلام ٧/ ٢٢ ـ ٢٣، ووفيات الأعيان ٤/ ٢١٦ ـ ٢١٩، وشذرات الذهب ٤/ ١٠، وطبقات الشافعية ٤/ ١٠١.

(٣) كتاب «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين» للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي. مختصر في علم الكلام مشتمل على أحكام الأصول والقواعد دون التفاريع والزوائد. رتبه على أربعة أركان. الأول: في المقدمات. الثاني: في تقسيم المعلومات الثالث: في الإلهيات: الرابع: في السمعيات وعليه تعليقه لعز الدين عبد الحميد (كشف الظنون ٢/ ١٦١٤).

(٤) كتاب «المعين على مقتضى الدين» لأبي خلف محمد بن عبد الملك الطبري المتوفى سنة ٤٨٠ توجد منه نسخة موقوفة لرباط السدرة بمكة وعليها خطه. (كشف الظنون ٢/ ١٧٤٥).

حيث التسمية، فمن ادعى النبوة دلت المعجزة على صدقه وصحة دعواه: وتسمى حينئذٍ معجزة لأنها دالة على صدق مدعي النبوة في مقالته، ومن أشار إلى الولاية دل جنس المعجزة على صدقه في حالته، وتسمى كرامة ولا تسمى معجزة.

وقال الإمام نصر الدين الطوسي رضي الله تعالى عنه في كتابه في [قواعد العقائد] والفعل الخارق الذي يظهر على أحد من غير تحدٍ يسمى بالكرامة ويختص بالأولياء.

وقال الإمام حافظ الدين النسفي رضي الله تعالى عنه في عقيدته: كرامات الأولياء جائزة خلافاً للمعتزلة للمشهور من الأخبار والمستفيض من حكايات الأخيار، ولا يقال لو جاز ذلك لانسد طريق الوصول إلى معرفة النبي، لأن المعجزة تقارن دعوة النبوة، ولو ادعاها الولي لكفر من ساعته.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه في رسالته[1]: وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله، ثم قال بعد هذا فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها يوجد في الكرامة إلا دعوى النبوة.

قلت: فهؤلاء عشرة أئمة ممن له تصنيف محقق وكلام معتبر في العقائد من أهل السنة اقتصرت عليه، ولا حاجة إلى كثرة التعداد، فبعض هؤلاء المذكورين فيه الكفاية، لا سيما الستة الأولين، وقد اتفقوا على أن الفارق بين الكرامة والمعجزة هو تحدي النبوة فقط، ولم يشترط أحد منهم كون الكرامة مغايرة للمعجزة في جنسها وعظمها، فدل ذلك على جواز استوائهما فيما عدا التحدي المذكور كما صرح به إمام الحرمين المشهور.

وفي تقرير ذلك. أقول: حصر وجوب افتراق الشيئين في وصف يلزم منه جواز اجتماعهما فيما سواه، فيلزم من ذلك جواز اجتماع الكرامة والمعجزة فيما سوى التحدي المذكور، فيجوز اجتماعهما في إحياء الموتى وغيره من سائر الخوارق وهو المطلوب.

قلت: ومما يشهد لصحة هذا قوله ﷺ في الحديث الصحيح «لو أقسم على الله لأبره» فإن الإبرار المذكور عام في كل مقسم فيه عن إحياء الموتى وغيره، وأما وقوع ذلك من كثير من الأولياء، أعني عظام الكرامات، فذلك خارج عن الحصر، وها أنا أقتصر على التنبيه على ذلك بذكر عشرة أنواع:

النوع الأول: إحياء الموتى

من ذلك ما روينا عن الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه في رسالته المشهورة بإسناده فيها: أن أبا عبيد البسري[2] رضي الله تعالى عنه غزا سنة من السنين، فخرج في

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٥٣.

(٢) هو أبو عبيد البسري من قدماء المشايخ صحب أبا تراب النخشبي. (الرسالة القشيرية ص ٣٩٥).

السرية، فمات المهر الذي كان تحته وهو في البرية: فقال يا رب أعرناه حتى نرجع إلى بسر[1]، يعني قريته، فإذا المهر قائم، فلما غزا ورجع إلى بسر قال لابنه: يا بني خذ السرج عن المهر، قال ابنه: فقلت له إنه عرق، فإن أخذت السرج داخله الريح، فقال: يا بني إنه عارية، قال؛ فلما أخذت السرج وقع المهر ميتاً.

قلت: وأبو عبيد هذا أحد شيوخ الرسالة الكبار رضي الله تعالى عنهم.

وروينا عن الأستاذ المذكور أيضاً في رسالته بإسناده فيها، أنه انطلق رجل من اليمن، فلما كان في بعض الطريق نفق حماره، فقام فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال: اللهم إني جئت مجاهداً في سبيلك ابتغاء مرضاتك، وإني أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث من في القبور، لا تجعل لأحد عليّ منة، اليوم أطلب إليك أن تبعث حماري، فقام الحمار ينفض أذنيه.

قلت: وقد نقل بعض أهل العلم في بعض التصانيف هذا عن الإمام الشعبي رضي الله تعالى عنه، وقال فيه: أقبل قوم من اليمن متطوعون في سبيل الله، فهلك حمار رجل منهم ثم ذكر ذلك.

وروينا أيضاً عنه في رسالته بإسناده فيها، أن محمد بن سعيد البصري قال: بينما أنا أمشي في بعض طريق البصرة إذ رأيت أعرابياً يسوق جملاً، فالتفت فإذا الجمل وقع ميتاً ووقع الرجل والقتب[2]، فمشيت ثم التفت فإذا الأعرابي يقول: يا مسبب كل سبب ويا مأمول من طلب، ردّ عليّ ما ذهب يحمل الرحل والقتب، وإذا الجمل قائم والرحل والقتب فوقه.

وروينا عنه أيضاً في رسالته بإسناده فيها إلى الشيخ الكبير حجة الله تعالى على العارفين، قطب المقامات وصاحب الكرامات سهل بن عبد اللَّه[3] رضي الله تعالى عنه أنه قال: الذاكر لله تعالى على الحقيقة لو همّ أن يحيي الموتى لفعل، يعني بإذن الله، ومسح يده على عليل بين يديه فبرأ وقام.

وقال الشيخ الجليل العارف صفي الدين بن أبي المنصور رضي الله تعالى عنه في رسالته: كان الشيخ مفرج الدماميلي رضي الله تعالى عنه ولياً عظيم الشأن، وكان عبداً حبشياً اصطفاه الله تعالى، فلما تكاثرت كراماته أحضرت عنده فراخ مشوية، فقال لها طيري، فطارت أحياء بإذن الله تعالى.

قلت: وأخبرني بعض الصالحين من أهل اليمن أن هرة كانت تأتي الشيخ الكبير العارف بالله تعالى المعروف بالأهدل، بالدال المهملة، شيخ الشيخ أبي الغيث رضي الله تعالى عنهما، فيطعمها

---

(١) بُسْر: اسم قرية من أعمال حوران من أراضي دمشق بموضع يقال له: اللحا، وهو صعب المسلك إلى جنب زُرّة التي تسميها العامة زُرْع. (معجم البلدان ١/ ٤٢٠).

(٢) القَتَب: الرَّحل الصغير على قدر سنام البعير (ج) أقتاب.

(٣) هو سهل بن عبد اللَّه بن يونس التستري (٢٠٠ ـ ٢٨٣ هـ/ ٨١٥ ـ ٨٩٦ م) أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. له كتاب في «تفسير القرآن» مختصر وكتاب «رقائق المحبين» وغير ذلك. الأعلام ٣/ ١٤٣، وطبقات الصوفية ٢٠٦، والوفيات ١/ ٢١٨، وحلية الأولياء ١٠/ ١٨٩، والرسالة القشيرية ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

من عشائه، وكان اسمها لؤلؤة، فضربها خادم الشيخ ذات ليلة فماتت، فرمى بها الخادم في مكان، أو قال في خرابة لئلا يعلم الشيخ بذلك، فلما جاء الشيخ سكت عنه ليلتين أو ثلاثاً ثم قال له: أين لؤلؤة؟ فقال له: ما أدري، فقال له الشيخ: ما تدري؟ ثم ناداها الشيخ لؤلؤة لؤلؤة، فجاءت إليه تجري فأطعمها.

وأخبرني بعض أهل العلم والصلاح ممن أعتقده من بلاد المغرب بإسناده أنه توفي بعض أصحاب الشيخ الكبير العارف بالله يوسف الدهماني رضي الله تعالى عنه، فجزع عليه أهله، فلما رأى الشيخ المذكور شدة جزعهم جاء إلى الميت وقال له: قم بإذن الله تعالى، فقام وعاش بعد ذلك ما شاء الله من الزمان. وسمعت من غير واحد وقوع مثل هذه القصة من شيخين من شيوخ اليمن في اثنين من الناس ماتا ثم عاشا بإذن الله تعالى القادر على كل شيء سبحانه وتعالى.

قلت: فأحد الشخصين المذكورين رأى ميتاً محمولاً يعرفه، فقال: من هذا الميت؟ فقيل فلان، وكان بين يديه طعام فأقسم بالله إنه لا يأكل من ذلك الطعام حتى يأتي ذلك الميت ويأكل منه، فحيي بإذن الله، ثم أتى إليه فأكل. والشيخ الثاني وقف على ميت في مسجد وكانت قد جرت له معه قضية، فقال: وعزتك يا رب لئن لم تحيه لأكونن جباراً في الأرض، فأحياه الله عز وجل.

قلت: وهذا مختصر ما سمعت من غير واحد كما ذكرت ممن أثق به، والله تعالى أعلم؟

قلت: وأما قوله: لأكونن جباراً في الأرض، فهذه الكلمة وإن عظمت فقد روى العلماء ما هو أعظم منها من قول الإمام الكبير والولي الشهير سفيان الثوري[1] رضي الله تعالى عنه في قضية أبي جعفر المنصور لما قرب من مكة وكان قد توعده بالقتل، فتعلق سفيان بأستار الكعبة وأقسم إنه لا يدخلها، فقيل إنه مات ولم يدخلها، وذكر في قسمه كلمة عظيمة مشهورة، وسيأتي قضيته في أثناء الكتاب مع عدولي عن كلمته التي قال إلى كلمة أخرى.

وأما إحياء الموتى كرامة لهم، فهو وإن كان عظيماً فهو جائز على القول الصحيح المختار عند المحققين من النظار المدققين، كما قدمناه عن أئمة الأصول المشهورين المعتمدين، أن ما جاز أن يكون معجزة لنبي، جاز أن يكون كرامة لولي بشرط أن لا يدعي النبوة.

قلت: ومن المشهور ما روي مسنداً من خمس طرق عن جماعة من الشيوخ الأجلاء أولي الفضائل والمفاخر في كتاب مناقب شيخ الإسلام قطب العارفين قدوة السالكين، الذي خضعت لقدمه

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧ ـ ١٦١ هـ/ ٧١٦ ـ ٧٧٨ م) من بني ثور بن عبد مناة من مضر، أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة. وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى وخرج من الكوفة ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً. له من الكتب «الجامع الكبير والصغير» في الحديث، وكتاب في «الفرائض». الأعلام ٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥، وطبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٧. وحلية ٦/ ٣٥٦ ثم ٧/ ٣، وتهذيب التهذيب ٤/ ١١١ ـ ١١٥.

رقاب الأولياء الأكابر، أستاذ الطريقة عالم الشريعة والحقيقة، الذي تواترت كراماته أو قربت من التواتر وخرجت عن حصر الحاصر، سلالة الشرف الحسيب النسيب محيي الدين أبي محمد عبد القادر قدس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه، قال: وجاءت إليه امرأة بولدها وقالت له: إني رأيت قلب ابني هذا شديد التعلق بك، وقد خرجت عن حقي فيه لله عز وجل ولك، فقبله الشيخ وأمره بالمجاهدة وسلوك الطريق، وقد دخلت أمه عليه يوماً فوجدته نحيلاً مصفراً من آثار الجوع والسهر، ووجدته يأكل قرصاً من شعير، فدخلت إلى الشيخ فوجدت بين يديه إناء فيه عظام دجاجة مسلوقة قد أكلها، فقالت له: يا سيدي تأكل لحم الدجاج ويأكل ابني خبز الشعير؟ فوضع يده على تلك العظام وقال: قومي بإذن الله الذي يحيي العظام وهي رميم، فقامت دجاجة سوية وصاحت، فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا فليأكل ما شاء.

قالوا: ومرت على مجلسه حدأة[١] طائرة في يوم شديد الريح، فصاحت فشوشت على الحاضرين، فقال: يا ريح خذي رأس هذه الحدأة، فوقعت لوقتها في ناحية ورأسها في ناحية، فنزل الشيخ عن الكرسي وأخذها في يده وأمرّ يده الأخرى عليها وقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فحييت وطارت والناس يشاهدون ذلك.

النوع الثاني: كلام الموتى

من ذلك ما أخبرنا الفقيه العالم السيد الجليل القاضي نجم الدين الطبري المكي، عن جده الفقيه الإمام العلامة الولي الكبير العارف بالله تعالى إسماعيل الحضرمي[٢] رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فقال له: يا محب الدين تؤمن بكلام الموتى؟ قال: فقلت له نعم يا سيدي منك، فقال: إن صاحب هذا القبر يقول لي: أنا فلان ابن فلان من حشو الجنة.

قلت: قوله «منك» أي إذا كان الإخبار بذلك صادراً منك آمنت، ومفهوم ذلك منك أو ممن هو مثلك في جلالة القدر وعظم الكرامات.

وأخبرني بعض الشيوخ الصالحين من أهل اليمن عن الفقيه إسماعيل المذكور أيضاً، أنه مر يوماً على مقبرة ومعه ناس كثيرون، فبكى بكاء شديداً ثم ضحك في الحال، فسئل عن ذلك فقال: رأيت أهل هذه المقبرة يعذبون، فحزنت لذلك ثم سألت الله أن يشفعني فيهم فشفعني، فقالت صاحبة هذا القبر، وأشار إلى قبر قريب العهد بالحفر. وأنا معهم يا فقيه إسماعيل، أنا فلانة المغنية، فضحكت وقلت: وأنت معهم، قال: ثم أرسل إلى الحفار وقال له: هذا قبر من؟ فقال قبر فلانة المغنية.

---

(١) الحِدَأةُ: طائر من الجوارح من فصيلة الصقور ورتبة الصقريات. جسمه متوسط رشيق، وأجنحته كبيرة طويلة، له ذنب طويل ينقضّ على الدواجن والجرذان والأطعمة ونحوها (ج) حدأ، وحدآن. وحداء.

(٢) انظر ترجمته في الأعلام ١/ ٣٢٤، وفي نزهة الجليس ٢/ ٣٠٣، وشذرات الذهب ٥/ ٣٦١ وطبقات الشافعية ٥/ ٥٠.

قلت: وهذه القضية فيها لهذا السيد المذكور أربع كرامات: إحداها ما كشف له عن حال الموتى، والثانية كلام الموتى له، أعني ما قالت له المغنية المذكورة، والثالثة قبول شفاعته فيهم؛ والرابعة علمه بقبول شفاعته. وناهيك بهذه الأربع الكرامات في قضية واحدة، وخصوصاً الثالثة وهي قبول شفاعته في الجمّ الغفير، ورفع العذاب عنهم ببركته.

وروينا في رسالة[١] الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه أن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبا سعيد الخراز[٢] رضي الله تعالى عنه قال: كنت مجاوراً بمكة حرسها الله تعالى، فجزت يوماً بباب بني شيبة، فرأيت شاباً حسن الوجه ميتاً، فنظرت في وجهه فتبسم في وجهي وقال لي: يا أبا سعيد، أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا وإنما ينقلون من دار إلى دار.

وأخبرني بعض الأولياء من شيوخ اليمن، أنه كلمه السيد الجليل الولي الكبير الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن أبي بكر الحليمي قدس الله تعالى روحه بعد أن انشق قبره وخرج إليه منه وهو مشدود الوسط، قال: فقلت له يا سيدي أراك مشدود الوسط فقال: نحن بعد في الطلب، من زعم أنه قد وصل فقد كذب، لأنه لا يوصل إلا إلى محدود، والله سبحانه يتعالى عن النهايات والحدود.

قلت: قول هذا السيد من زعم أنه قد وصل فقد كذب صحيح، وقول غيره من الشيوخ فلان قد وصل وذكرهم الوصال والوصل والوصول والاتصال صحيح أيضاً، والجمع بين ذلك أن مراد الشيخ المذكور من توهم أنه قد وصل إلى مقام ليس فوقه مقام، أو إلى نهاية ليس فوقها مطلب فقد كذب، لأن فضل الله تعالى ليس له نهاية فما من مقام إلا وفوقه مقام يمكن أن يصل إليه العبد بفضل الله سبحانه، ومراد من أطلق من الشيوخ لفظ الوصول وما في معناه من الألفاظ المذكورة الوصول إلى مقام معلوم عندهم يصل الولي فيه إلى أشياء من المشاهدات للصفات، والاطلاع على عالم الملكوت والمعارف والأسرار وغير ذلك، ومما لا يطلع عليه غيرهم، مع اعتقادهم أن فوق ذلك مقامات ليس لها نهاية، وهذا كما نقول في جماعة من الأئمة إنهم بلغوا رتبة الاجتهاد، مع علمنا أن ذلك ليس هو نهاية العلم، فمن بلغ تلك الرتبة يقال له مجتهد، ومن تعداها أيضاً يقال له مجتهد، مع التفاوت وعدم البلوغ إلى نهاية لا يستفيد المجتهد بعدها علماً؛ وهذا الذي ذكرته في الوصول مما ظهر لي، ولما كتبته وجدت بحمد الله تعالى ما يؤيده من كلام السيد الكبير العارف بالله تعالى الإمام السالك المحقق شيخ الإسلام شهاب الدين السهروردي قدس الله تعالى روحه، قال فيما رويناه عنه في كتاب العوارف[٣]: وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو في رتبة من الوصول، ثم

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣١١.

(٢) هو أحمد بن عيسى الخراز، أبو سعيد (توفي ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م) من مشايخ الصوفية. بغدادي نسبته إلى خرز الجلود. قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. له تصانيف في علوم القوم. منها «كتاب الصدق، أو الطريق إلى الله» ومن كلامه: إذا بكت أعين الخائفين، فقد كاتبوا الله بدموعهم. الأعلام ١/ ١٩١، وشذرات ٢/ ١٩٢، واللباب ١/ ٣٥١، والرسالة القشيرية ص ٤٠٩.

(٣) كتاب «عوارف المعارف» في التصوف للشيخ شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد اللّه =

يتفاوتون. فمنهم من يجد الله تعالى بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلي فينفي فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله سبحانه، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة في الوصول؛ ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس[1] بما يكاشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال، وهذا تجلّ بطريق الصفات وهو رتبة في الوصول، ومنهم من يرقي إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهد، مغيباً في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين، وهذا المقام رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول، وإذا تحققت الحقائق بعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنازل وأين الوصول؟ هيهات منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدنياوي، انتهى كلامه. وهو نصه بحروفه، وهو كلام عزيز نفيس من إمام محقق عارف أحببت نقله في هذا المكان ليقف عليه كل من وقف على هذا الكتاب ممن يعرف الوصول ويجهله، ويصدق به ويكذبه من معتقد ومنتقد؛ وكلام الشيوخ في ذلك كثير، من ذلك قول الشيخ الكبير السيد الجليل أبي الحسين[2] النوري رضي الله تعالى عنه: الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار، وقول بعضهم: هو وصول السر إلى مقام الذهول.

قلت: ومن المشهور ما روي مسنداً من ثلاث طرق عن جماعة من الشيوخ الأكابر في مناقب قطب الأولياء الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه قالوا: زار شيخنا محيي الدين عبد القادر الكيلاني[3] قدس الله تعالى روحه الشونيزي يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة ومعه جمع كثير من الفقهاء والفقراء، ووقف عند قبر الشيخ حماد الدباس رضي الله تعالى عنه زمناً طويلاً حتى اشتد الحر والناس واقفون خلفه، ثم انصرف والسرور بين في وجهه، فسئل عن

= السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ وهو مشتمل على ثلاثة وستين باباً كلها في سير القوم وأحوال سلوكهم وأعمالهم (كشف الظنون ٢/١١٧٧).

(١) انظر حديث القشيري عن الهيبة والأنس في رسالته ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري (توفي ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م) ولد ونشأ في بغداد، بغوي الأصل صحب سري السقطي وابن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد، وكان كبير الشأن حسن المعاملة واللسان (الرسالة القشيرية ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٣) هو ع. القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني (٤٧١ ـ ٥٦١ هـ/١٠٧٨ ـ ١١٦٦ م) أبو محمد محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين ولد في جيلان وانتقل إلى بغداد شاباً، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ وتفقه وسمع الحديث، وقرأ الأدب واشتهر، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة ٥٢٨ هـ، وتوفي بها له كتب منها «الغنية لطالب طريق الحق» و«الفتح الرباني» و«فتوح الغيب» وغير ذلك. الأعلام ٤/٤٧، والنجوم الزاهرة ٥/٣٧١، وطبقات الشعراني ١/١٠٨ ـ ١١٤، وشذرات ٤/١٩٨.

سبب طول قيامه، فقال: كنت خرجت من بغداد في يوم الجمعة منتصف شعبان سنة تسع وتسعين وأربعمائة مع جماعة من أصحاب الشيخ حماد رضي الله تعالى عنه لنصلي الجمعة في جامع الرصافة والشيخ معنا فلما كنا عند قنطرة النهر، دفعني فرماني في الماء، وكان في شدة البرد في كوانين، فقلت: بسم الله غسل الجمعة، وكان عليّ جبة[1] صوف وفي كمي أجزاء، فرفعت يدي لئلا تبتل وتركوني وانصرفوا فخرجت من الماء وعصرت الجبة وتبعتهم، وقد تأذيت من البرد أذى كثيراً، فطمع فيّ أصحابه، فنهرهم وقال: إنما أوذيه لأمتحنه فأراه جبلاً لا يتحرك. وإني رأيته اليوم في قبره وعليه حلة من جوهر، وعلى رأسه تاج من ياقوت، وفي يده أساورة من ذهب، وفي رجليه نعلان من ذهب، ويده اليمنى لا تطيعه، فقلت: ما هذا؟ قال: هذه اليد التي رميتك بها، فهل أنت غافر لي ذلك؟ قلت: نعم، قال: فاسأل الله تعالى أن يردها عليّ؛ فوقفت أسأل الله تعالى في ذلك، وقام خمسة آلاف من أولياء الله تعالى في قبورهم يسألون الله عز وجل أن يقبل مسألتي فيه ويشفعون عندي، في تمام المسألة فما زلت أسأل الله سبحانه في مقامي ذلك حتى رد الله تعالى يده وصافحني بها وقد تمّ سروره.

قالوا: فلما اشتهر هذا القول ببغداد اجتمع المشايخ والصوفية من أهل بغداد من أصحاب الشيخ حماد ليطالبوا الشيخ عبد القادر بتحقيق ما قال في الشيخ حماد، وتبعهم خلق كثير من الفقراء، وأتوا إلى المدرسة فلم يتكلم منه أحد إجلالاً للشيخ، فبدأهم بمرادهم وقال لهم: اختاروا رجلين من المشايخ يتبين لكم ما ذكرته على لسانهما، فأجمعوا على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني[2]، وكان يومئذٍ قد ورد إلى بغداد والشيخ أبي محمد عبد الرحمٰن بن شعيب الكردي وكان مقيماً ببغداد، وكان رضي الله تعالى عنهما من ذوي الكشف الخارق والأحوال الفاخرة، وقالوا له: أمهلناك في بيان ذلك على لسانهما جمعة، فقال لهم: بل ما تقومون من مقامكم هذا حتى يتحقق لكم هذا الأمر وأطرق وأطرقوا، فصاح الفقراء من خارج المدرسة وإذا الشيخ يوسف قد جاء حافياً يشتد في عدوه حتى دخل المدرسة وقال: أشهدني الله عز وجل الساعة الشيخ حماداً وقال لي: يا يوسف أسرع إلى مدرسة الشيخ عبد القادر وقل للمشايخ الذين فيها: صدق الشيخ عبد القادر فيما أخبر به عني فلم يتم كلام الشيخ يوسف حتى جاء الشيخ عبد الرحمٰن وقال مثل قول الشيخ يوسف، فقام المشايخ كلهم يستغفرون للشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

قلت: وأخبرنا بعض أصحابنا الأخيار عن بعض الصالحين أنه يأتي قبر والده في بعض الأوقات ويتحدث معه.

---

(١) الجُبَّة: ثوب طويل واسع الكمين، مشقوق المقدم، يُلبس فوق الثياب.

(٢) هو يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسن الهمداني (٤٤١ ـ ٥٣٥ هـ/ ١٠٥٠ ـ ١١٤٠ م) أبو يعقوب زاهد متصوف، تفقه ببغداد، وجاءها ثانية سنة (٥٠٦) فوعظ بها، وأقبل عليه الناس، وعاد فسكن بمرو. وبها قبره. ووفاته في إحدى قرىٰ هراة. له كتب منها «منازل السالكين» و«زينة الحياة» كلاهما في التصوف. الأعلام ٨/ ٢١٩ ـ ٢٢٠، وهدية العارفين ٢/ ٥٥٢، ومرآة الزمان ٨/ ١٨٠، وطبقات الشعراني ١/ ١٥٩.

ومن المشهور أن الفقيه الكبير الولي الشهير أحمد بن موسى بن عجيل رضي الله تعالى عنه سمعه بعض الفقهاء الصلحاء الصالحين من قرابته يقرأ في سورة النور في قبره.

وروينا أن السيد الجليل الشيخ العارف بالله تعالى نجم الدين الأصبهاني رضي الله تعالى عنه طلع في جنازة بعض الصالحين، فلما جلس بعض الناس من أهل العلم يلقن الميت ضحك الشيخ نجم الدين، ولم يكن الضحك عادته، فسئل عن ذلك فقال: سمعت صوت قائل يقول: ألا تعجبون من ميت يلقن حياً؛ وغير ذلك مما يطول ذكره من كلام الموتى للأولياء رضي الله تعالى عنهم.

النوع الثالث: انفلاق البحر وجفافه

من ذلك ما روي في بعض التصانيف أنه مات بعض الفقراء في سفينة، قال الراوي: فأردنا إلقاءه في البحر، فرأيت البحر قد انشق نصفين ونزلت السفينة إلى الأرض، فخرجت وحفرنا له قبراً ودفناه، فلما فرغنا استوى الماء وارتفعت السفينة وسرنا.

وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه في رسالته عن بعضهم قال: كنا في مركب فمات رجل عليل كان معنا، فأخذنا في جهازه وأردنا أن نلقيه في البحر، فصار البحر جافاً، فنزلت السفينة فخرجنا وحفرنا له قبراً ودفناه، فلما فرغنا استوى الماء وارتفع المركب وسرنا.

النوع الرابع: انقلاب الأعيان

اعلم أن هذا النوع مما كثر وقوعه لهم واشتهر عنهم، كانقلاب الحصى جواهر وذهباً لكثير منهم، وانقلاب ماء البحر عذباً، ولبعضهم سمناً. ولبعضهم مع الرمل سويقاً[1] وسكراً، ولبعضهم الأسطوانة ذهباً وفضة، ولبعضهم حبة الباذنجان ذهباً، ولبعضهم نشارة الخشب دقيقاً، ولبعضهم الحطب ذهباً وغير ذلك مما يتعذر حصره وهذه الأشياء مشهورة مذكورة في الكتب المشتملة على بعض كرامات الأولياء كالرسالة وغيرها.

وأعجب من ذلك كله انقلاب الخمر سمناً، كما اشتهر ذلك ورواه الكبار من الشيوخ وغيرهم عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى عيسى المعروف بالهتار، بالتاء المثناة من فوق والراء في آخره وكسر الهاء مخففاً اليمنى قدس الله تعالى روحه، في حكاية عجيبة ذكرتها في كتاب [روض الرياحين] وكتاب [الإرشاد]، ومختصرها: أن الشيخ عيسى المذكور مرّ على امرأة بغى، فقال لها: بعد العشاء آتيك. ففرحت بذلك وتزينت، فلما كان بعد العشاء دخل عليها البيت، فصلى ركعتين ثم خرج، فقالت: أراك خرجت، فقال حصل المقصود، فورد عليها وارد أزعجها عما كانت عليه، وخرجت بعد الشيخ وتابت على يديه، فزوّجها من بعض الفقراء وقال: اعملوا الوليمة عصيدة[2] ولا تشتروا لها

---

(١) السَّويق: طعام يُتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير(ج) أسوقة.

(٢) العصيدة: دقيق يُخلط بالسمن ثم يُطبخ (ج) عصائد.

إداماً، ففعلوا ذلك وأحضروه، وحضر الفقراء والشيخ معهم كالمنتظر لشيء يؤتى به، فوصل الخبر إلى أمير رفيق لتلك المرأة، فأخرج قارورتين مملوءتين خمراً وأرسل بهما إلى الشيخ وأراد أن يستهزىء بالفقراء ويفضحهم وقال للرسول: قل للشيخ قد سرني ما سمعته، وبلغني أن ما عندكم إدام، فخذوا هذا تأدموا به، فلما أقبل الرسول قال له الشيخ: أبطأت ثم تناول إحداهما فخاضها ثم صبها، ثم كذلك الأخرى، ثم قال للرسول: اجلس فكل، فأكل فطعم سمناً لم ير مثله طعماً وريحاً ولوناً. فرجع وأخبر الأمير بذلك، فجاء الأمير فأكل وتحير مما رأى فتاب أيضاً على يد الشيخ، والحمد لله الذي جعل هؤلاء السادة سبباً للسعادة.

وأحسن ما اتفق من قلب الأعيان وأفضل ما اشتهر عن كثير منهم أنهم شوهدوا يأكلون طعاماً طيباً لم يتغير عن حاله المعهود من سماطات[1] شوهدت كلها دماً عبيطاً[2]، ما عدا الذي يأكلون منه، وهذه الكرامة من أتم الكرامات؛ وأعظم من ذلك كله وأعز وقوعاً، ما روينا عن جماعة من الصالحين ورووا عن بعض الأولياء الكبار أنه طلب من بعض الناس أن يدعوا له الله تعالى أن يرزقه ولداً ذكراً، فقال له: إن أحببت ذلك فسلم للفقراء مائة دينار، فسلم إليه ذلك، ثم جاء بعد ذلك بمدة وقال له: يا سيدي وعدتني بولد ذكر وما وضعت امرأتي إلا أنثى، فقال له الشيخ: الدنانير التي سلمتها ناقصة؛ قال: يا سيدي ما هي ناقصة إلا شيئاً يسيراً؛ فقال له الشيخ: ونحن أيضاً ما نقصناك إلا شيئاً يسيراً، فإن أحببت أن نوفي لك فأوف لنا، فقال: نعم يا سيدي ثم ذهب وعاد إليه بتوفية ذلك النقصان، فقال له الشيخ: اذهب فقد أوفينا لك كما أوفيت، فرجع إلى منزله فوجد الولد غلاماً بقدرة الله تعالى وإكرامه لأوليائه عز وجل.

قلت: ومن انقلاب الأعيان ما روي مسنداً في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني المتقدم ذكره في النوع الأول والثاني، أنه رضي الله تعالى عنه خرج يوماً إلى صلاة الجمعة، فمرّ به في الطريق ثلاثة أحمال خمر للسلطان قد فاحت رائحتها واشتدت ومعها صاحب الشرطة وأعوان الديوان، فقال لهم الشيخ: قفوا فلم يقفوا وأسرعوا في سوق الدواب، فقال الشيخ للدواب: قفي فوقفت مكانها كأنها جمادات فضربوها ضرباً عنيفاً فلم تتحرك من مواضعها وأخذهم كلهم القولنج وجعلوا يتقلبون على الأرض يميناً وشمالاً من شدة ألمهم، وضجوا بالشيخ وأعلنوا التوبة والاستغفار، فزال عنهم ألمهم وانقلبت رائحة الخمر برائحة الخل، ففتحوا الأواني فإذا هي خل، ومشت الدواب فعلت أصوات الناس بالضجيج، وذهب الشيخ إلى الجامع، وانتهى الخبر إلى السلطان فبكى رعباً وارتدع عن فعل كثير من المحرمات، وجاء إلى الشيخ زائراً وكان بعد ذلك يجلس بين يديه متواضعاً متصاغراً.

وروى عن بعضهم: قال بينما أنا أسير في فلاة من الأرض إذا برجل يدور بشجرة شوك ويأكل منها رطباً، فسلمت عليه، فقال: وعليك السلام تقدم فكل، فتقدمت إلى الشجرة فكلما أخذت منها

---

(١) السماط: سماط الطعام: ما يبسط ليوضع عليه الطعام.

(٢) العبيط: يقال: لحم عبيط؛ أي طري.

رطباً عاد شوكاً، فتبسم الرجل وقال: هيهات لو أطعته في الخلوات أطعمك الرطب في الجلوات.

النوع الخامس:

علمهم ببعض الحوادث قبل وجودها والاطلاع على ضمائر الخلق

اعلم أن هذا النوع واسع، وسيأتي ذكر نبذة منه في الفصل السادس إن شاء الله تعالى، لأنه لا بد من ذكره هناك لأجل السؤال السادس.

النوع السادس: زوى وجه الأرض لهم من غير حركة منهم

اعلم أن هذا الزوى المذكور مشهور عنهم، وهو أفضل من الطيران في الهواء والمشي على الماء والخطوة للدنيا.

من ذلك ما روينا أن بعضهم كان في جامع طرسوس(١) فاشتاق إلى زيارة الحرم، فأدخل رأسه في جيبه ثم أخرجه وهو في الحرم.

وكذلك اجتمع جماعة في بعض البلدان البعيدة في يوم عرفة(٢)، فاغتسلوا وصلوا وأحرموا، ثم سجدوا سجدة مكثوا فيها ما شاء الله ثم رفعوا رؤوسهم، فإذا هم ينظرون الجمال سائرة من منى إلى عرفة.

وعن سهل بن عبد اللَّه رضي الله تعالى عنه قال: توضأت في يوم جمعة، فمضيت إلى الجامع في أيام البداية، فوجدته قد امتلأ بالناس، وهم الخطيب أن يرقى المنبر، فأسأت الأدب ولم أزل أتخطى رقاب الناس حتى وصلت إلى الصف الأول، فجلست وإذا عن يميني شاب حسن المنظر طيب الرائحة عليه أطمار(٣) الصوف، فلما نظر إليَّ قال: كيف تجدك يا سهل؟ قلت: بخير أصلحك الله تعالى، وبقيت متفكراً في معرفته لي وأنا لم أعرفه، فبينما أنا كذلك إذ أخذني حرقان بول فأكربني؛ فبقيت على وجل خوفاً أن أتخطى رقاب الناس، وإن جلست لم تكن لي صلاة، فالتفت إليَّ وقال: يا سهل أخذك حرقان بول؟ قلت: أجل، فنزع حرامه عن منكبه فغشاني به ثم قال: اقض حاجتك وأسرع تلحق الصلاة، قال: فغمي عليَّ وفتحت عيني وإذا بباب مفتوح، فسمعت قائلاً يقول: لج الباب يرحمك الله، فولجت وإذا بقصر مشيد عالي البنيان شامخ الأركان، وإذا بنخلة قائمة وإذا جهتها مطهرة مملوءة ماء أحلى من الشهد، ومنزل إراقة الماء، ومنشفة معلقة وسواك. فحللت لباسي وأرقت الماء ثم اغتسلت وتنشفت بالمنشفة، فسمعته يناديني ويقول: إن كنت قضيت أربك

---

(١) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكيه وحلب وبلاد الروم. (معجم البلدان ٤/ ٢٨).
(٢) عرفة: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة، ويوم عرفة غير منون ولا تدخله الألف واللام.
(٣) الأطمار: (ج) الطِّمَر: الثوب الخلق البالي.

فقل نعم، فقلت نعم، فنزع الحرام عني فإذا أنا جالس في مكاني ولم يشعر بي أحد، فبقيت متفكراً في نفسي وأنا مكذب نفسي فيما جرى، فقامت الصلاة وصلى الناس، فصليت معهم ولم يكن لي شغل إلا الفتى لأعرفه؛ فلما فرغ تبعت أثره فإذا به قد دخل إلى درب، فالتفت إليَّ وقال: يا سهل كأنك ما أيقنت بما رأيت؟ قلت: كلا، قال لج الباب يرحمك الله، فنظرت الباب بعينه، فولجت القصر، فنظرت النخلة والمطهرة والحال بعينه والمنشفة مبلولة، فقلت: آمنت بالله، فقال: يا سهل من أطاع الله أطاعه كل شيء، يا سهل اطلبه تجده، فتغرغرت عيناي بالدموع فمسحتهما وفتحتهما فلم أرى الفتى ولا القصر، فبقيت متحسراً على ما فاتني منه ثم أخذت في العبادة.

قلت: وهذه الحكاية قد طولت الكلام بها لأنها من جملة الحكايات العجيبات عند غيرهم، ولا يكاد يؤمن بها كثير من الناس أو أكثرهم، ولها احتمالات: منها أنه يحتمل أنه نقل من مكانه لما أغمي عليه إلى حيث شاء الله تعالى من غير شعور منه كالذين قبله في أول هذا النوع، ثم أعيد كذلك إلى مكانه لطفاً من الله تعالى وكرامة لأوليائه والله على كل شيء قدير، ويحتمل وجوهاً غير ذلك؛ وليس ذلك بأبعد في العقل من حكاية الشيخ الكبير العارف بالله تعالى مفرج الدماميني المتقدم ذكره في النوع الأول من هذا الفصل من المشهور أنه رآه بعض أصحابه بعرفة يوم عرفة، ورآه آخر مع أصحابه في مكانه لم يفارقه في جميع ذلك اليوم، فذكر كل واحد منهما ذلك لصاحبه، ثم تنازعا وحلف كل منهما بالطلاق من زوجته أنه كما ذكر، فاختصما إلى الشيخ وذكر كل منهما يمينه، فأقرهما الشيخ على حاليهما وأبقى كلا منهما على الزوجية. قال الشيخ الجليل الشهير صفي الدين بن أبي المنصور رضي الله تعالى عنه: فسألت الشيخ مفرّجاً رضي الله تعالى عنه عن حكمه في هذه القضية بعدم حنث الاثنين مع كون صدق أحدهما يوجب حنث[1] الآخر، وكان معنا في وقت سؤالي له جماعة فيهم رجال معتبرون لهم معرفة بالعلم، فقال لنا الشيخ: قولوا يعني تكلموا في هذه المسألة، وكان ذلك إذناً منه بأن نتحدث في سرّ هذا الحكم، فتحدث كل منا بوجه غير كاف، وكانت المسألة قد اتضحت لي، فأشار الشيخ إلي بإيضاحها، فقلت: الولي إذا تحقق في ولايته، ومكن من التصور في روحانيته، يعطى من القدرة في التصور في صور عديدة في وقت واحد في جهات متعددة على حكم إرادته، فالصورة التي ظهرت لمن رآها بعرفة حق، والصورة التي رآها الآخر في مكانه في ذلك الوقت حق، فكل واحد منهما صادق في يمينه، فقال الشيخ مفرج: هذا هو الصحيح، يشير إلى صحة ما أوضحته في صورة ما حكم به بين المتنازعين في أمره، انتهى كلامه.

قلت: وهذا أشد إشكالاً من الأولى، ولا سبيل إلى أن يسلم الفقيه ذلك، ولا يسوغ في عقله أبداً، ولا يصح الحكم عنده بعدم حنث الاثنين معاً، إذ وجود شخص في مكانين في وقت واحد محال في العقل.

فالجواب عن هذا، هو ما أجاب به الشيخ صفي الدين المذكور، وليس ذلك بمحال، لأنه

---

(١) حنث في يمينه: لم يف بها. والحنث: الإثم والذنب العظيم.

أشار إلى تعدد الصور الروحانية، وليس ذلك بصورة واحدة حتى يلزم منه المحال.

قلت: فإن قيل: فالإشكال باق في تعدد الصور من شخص واحد.

فالجواب: أن ذلك وقع وشوهد ولا يمكن جحده وإن تحير فيه العقل، من ذلك ما اشتهر عند كثير من الفقهاء وغيرهم أن الكعبة المعظمة شوهدت تطوف بجماعة من الأولياء في أوقات في أمكنة غير مكانها، ومعلوم أنها في مكانها لم تفارقه في تلك الأوقات، فعلم من هذا أن وراء طور العقل طوراً آخر.

ومن ذلك قضية قضيب البان رضي الله تعالى عنه حين شوهد وقد صلى أربع ركعات في أربع صور، فلما سلم الإمام ضحك في وجه الفقيه الذي بجنبه وقال له: أي الأربعة صلى معكم هذه الصلاة؟

وكذلك قيل: إنما سمي الأبدال[1] أبدالاً لأنهم إذا غابوا تبدل في مكانهم صور روحانية تخلفهم، وهذا أحد القولين في سبب تسميتهم أبدالاً.

قلت: ويؤيد ما ذكرته عن الشيخ سهل بن عبد اللّه عن الولي الذي ستره بحرامه حتى قضى حاجته، وما ذكرته عن الشيخ صفي الدين، وعن الشيخ مفرج، وعن الشيخ قضيب البان في تعدد الصور الروحانية من الولي ما روي بالإسناد المتعدد برواته جماعة من الشيوخ، أن الشيخ عبد القادر الجيلاني حضر في مجلسه أبو المعالي محمد بن أحمد البغدادي التاجر، فأخذته حقنة شديدة منعته من الحركة وبلغت منه الجهد، فنظر الشيخ عبد القادر نظر المستغيث، فنزل الشيخ مرقاة من الكرسي الذي يتكلم عليه فظهر على تلك المرقاة رأس كرأس الآدمي، ثم نزل أخرى فظهر كتفان وظهر صدر، وما زال ينزل مرقاة مرقاة حتى تكملت على الكرسي صورة كصورته تتكلم على الناس بصوت مثل صوته وكلام مثل كلامه ولا يرى ذلك إلا هو ومن شاء الله من الحاضرين وجاء يشق الناس حتى وقف عليه وغطى رأسه بكمه، وفي رواية بمنديله، فإذا هو في صحراء متسعة فيها نهر عنده شجرة، فعلق فيها مفاتيح كانت في كمه، وأزال حقنته وتوضأ من ذلك النهر وصلى ركعتين، فلما سلم منهما رفع الشيخ الغطاء عنه فإذا هو في المجلس، وأعضاؤه مبتلة بالماء ولا حقنة به، والشيخ على الكرسي يتكلم كأن لم ينزل منه، فتفقد مفاتيحه فلم يجدها معه، ثم بعد مدة جهز قافلة إلى بلاد العجم وساروا من بغداد أربعة عشر يوماً، فنزلوا منزلاً في برية فيها نهر، فذهب ليزيل حقنة به، فقال: ما أشبه هذه الصحراء بتلك الصحراء، وذكر شأنه في ذلك اليوم فإذا هو بذلك النهر وتلك الشجرة ومفاتيحه معلقة عليها، فلما رجعوا أتى إلى الشيخ ليخبره بذلك، فأمسك بأذنه قبل أن يخبره وقال له: يا أبا المعالي لا تذكر لأحد وأنا حي، فلازم خدمته إلى أن مات رضي الله تعالى عنه. وغير ذلك مما يطول ذكره ولا يحتمله هذا المختصر، فلنترك الخوض في هذا البحر الذي لسنا من أهل الغوص في لججه والعلم بنهاية مدده، ولنعد إلى ما نحن بصدده.

---

(١) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، فإذا مات واحد أبدل الله تعالى مكانه آخر.

روينا عن بعض الأكابر أنه قال: ما الشأن في الطيران، إنما الشأن في أخوين أحدهما في المشرق والآخر في المغرب، فيشتاق كل واحد منهما إلى زيارة الآخر، فيجتمعان وكل واحد منهما على سجادته، ويتحادثان ثم يعودان إلى مكانهما من غير حركة منهما، قال بعض السادات منهم: هذا المقام الذي أشار إليه هذا القائل هو مقامه.

قلت: ومن زوى البحر لهم ما روي مسنداً في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه عن الشيخ محمد بن الأزهر رحمه الله تعالى قال: مكثت مدة أسأل الله أن يريني أحد رجال الغيب، فرأيت ليلة في المنام أني أزور قبر الإمام أحمد بن حنبل[١] رضي الله تعالى عنه، وعند قبره رجل وقع في نفسي أنه من رجال الغيب، فاستيقظت ورجوت أن أراه في اليقظة، فأتيت قبر الإمام أحمد في وقتي، فوجدت الرجل الذي رأيته في المنام بعينه، فخرج قدامي وتعجلت في الزيارة وتبعته إلى أن وصل إلى دجلة، فالتقى له طرفاها حتى صارت قدر خطوة الرجل فعبرها إلى الجانب الآخر فأقسمت عليه أن يقف ليكلمني، فوقف فقلت له: ما مذهبك؟ فقال حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين؛ فوقع عندي أنه حنفي المذهب وانصرف، فقلت في نفسي: آتي الشيخ عبد القادر وأذكر له ما رأيت، فأتيت مدرسته وقمت على بابه، فناداني من داخل داره: يا محمد ما في الأرض من المشرق إلى المغرب في هذا الوقت وليّ لله سبحانه حنفي سواه.

قال: وحكاياتهم في هذا كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

النوع السابع: انفجار الماء لهم

من ذلك ما روينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه في رسالته بإسناده فيها؛ أن أبا تراب النخشبي[٢] رضي الله تعالى عنه قال له بعض أصحابه في طريق مكة: أنا عطشان، فضرب الأرض برجله فإذا عين ماء زلال[٣]، فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدح، فضرب بيده الأرض

---

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) أبو عبد الله الشيباني الوائلي، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو. وولد ببغداد فنشأ منكباً على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفاراً كبيرة، صنف «المسند» وله كتب في «التاريخ» و«الناسخ والمنسوخ»، و«التفسير» و«فضائل الصحابة» و«الزهد» و«المناسك» وغير ذلك. الأعلام ١/ ٢٠٣، وحلية ٩/ ١٦١، وتاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، والبداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥ ـ ٣٤٣.

(٢) هو عسكر بن الحصين (أو ابن محمد بن الحسين) النخشبي (توفي ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م) أبو تراب، شيخ عصره في الزهد والتصوف. اشتهر بكنيته حتى لا يكاد يعرف إلا بها، وهو من أهل «نخشب» من بلاد ما وراء النهر، كتب كثيراً من الحديث، وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل وآخرون. وقف (٥٥) وقفة بعرفة ومات بالبادية. قيل: نهشته السباع. الأعلام ٤/ ٢٣٣، والكواكب الدرية ١/ ٢٠٢، ومفتاح السعادة ٢/ ١٧٤، والرسالة القشيرية ص ٤٣٦.

(٣) الزُّلالُ: من الماء أو الشراب: العذب البارد الصافي السهل المرور في الحلق.

فناوله قدحاً من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب وسقانا وما زال القدح معنا إلى مكة.

وروينا عن الشيخ الجليل الولي الكبير العارف بالله تعالى، عالي المقامات وصاحب الكرامات أبي عبد اللّٰه القرشي قدس الله تعالى روحه، أنه جاء إلى بئر من آبار منى بركوة يطلب ماء وهو عطشان، فضربه بعض من كان على البئر ورمى بركوته بعيداً، قال الشيخ: فمضيت إليها لآخذها وأنا منكسر النفس، فوجدتها في بركة ماء حلو، فاستقيت وشربت وجئت بها إلى أصحابي فشربوا، وأعلمتهم بالقصة فمضوا إلى المكان ليستقوا منه فلم يجدوا ماء ولا أثر الماء، فعلمت أنها آية.

وحكي: عن غير واحد من أهل العلم وغيرهم عن بعض الأخيار، أنه عطش في طريق الحج، فدار في الركب من أوله إلى آخره في طلب الماء فلم يحصل له شيء، وإذا هو بفقير قد ركز عكازه في ساقية بركة والماء ينبع من تحت العكاز ويجري إلى البركة فملأ قربته، وأعلم الحاج فاستقوا منها وتركوها وهي تطفح. وهذا بعض الحكايات، وحكاياتهم من هذا النوع لا يمكن حصرها، وقصدنا التنبيه عليها والإشارة إليها.

النوع الثامن: كلام الجمادات والحيوانات لهم

من ذلك الحكاية المشهورة عن محمد بن المبارك رضي الله تعالى عنه في مخاطبة شجرة الرمان لإبراهيم بن أدهم[1] رضي الله تعالى عنه في طريق بيت المقدس وقولها له: يا أبا إسحاق أكرمنا بأن تأكل منا شيئاً، قالت ذلك ثلاث مرات، وكانت شجرة قصيرة ورمانها حامضاً وتحمل في السنة مرة، فلما أكل منها صارت طويلة ورمانها حلواً وتحمل في السنة مرتين، فسموها رمانة العابدين ويأوي إلى ظلها العابدون، وهذا مختصر الحكاية.

وقال الشبلي[2] رضي الله تعالى عنه: عقدت وقتاً أن لا آكل إلا من الحلال، فكنت أدور في البراري، فرأيت شجرة تين فمددت يدي إليها لآكل، فنادتني الشجرة احفظ عليك عقدك ولا تأكل مني فإني ليهودي.

---

(١) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور (توفي ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م) التميمي البلخي أبو إسحاق، زاهد مشهور تفقه ورحل إلى بغداد. وجال من العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة مات ودفن في سوفنن (حصن من بلاد الروم). الأعلام ١/ ٣١، وتهذيب ابن عساكر ٢/ ١٦٧، والبداية والنهاية ١٠/ ١٣٥، وحلية ٧/ ٣٦٧ ثم ٨/ ٣، والرسالة القشيرية ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٢) هو دلف بن جحدر الشبلي (٢٤٧ ـ ٣٣٤ هـ = ٨٦١ ـ ٩٤٦ م) ناسك كان في مبدأ أمره والياً في دنباوند، وولي الحجابة للموفق العباسي، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة. أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية «شبلة»، ومولده بسر من رأى، ووفاته ببغداد اشتهر بكنيته. واختلف في اسمه ونسبه. الأعلام ٢/ ٣٤١، ووفيات الأعيان ١/ ١٨٠، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٨٩، والرسالة القشيرية ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

وقال الشيخ أبو عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه: بينما أنا أسير على بعض السواحل إذ خاطبتني حشيشة أنا شفاء هذا المرض الذي بك، فلم أتناول منها ولم أستعملها.

وروينا عن بعضهم أنه قال: كلمني جمل في طريق مكة، رأيت الجمال والمحامل عليها، وقد مدت أعناقها في الليل فقلت: سبحان من يحمل عنها ما هي فيه، فالتفت إليَّ جمل فقال لي: قل جل الله، فقلت جل الله.

وروينا عن بعضهم أنه كان يضرب رأس حمار تحته، فرفع الحمار رأسه وقال لي: اضرب أو لا تضرب فإنما تضرب على رأسك.

قلت: ولا يستكثر هذا فقد أخبر ﷺ في الحديث الصحيح بكلام البقرة التي كلمت صاحبها وقالت: «إنما خلقت للحرث»[1] الحديث، وقوله ﷺ في آخره: «آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر»[2] فشهد لهما ﷺ بالإيمان بذلك وهما غائبان حينئذ لما قال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم وناهيك بذلك شرفاً لهما رضي الله تعالى عنهما.

وكذلك روينا الحكاية المشهورة عن الشيخ الشهير الولي الكبير أبي الربيع المالقي رضي الله تعالى عنه قال: قيض الله تعالى لي طيراً في بعض الأسفار يبيت يسامرني، فكنت أسمعه الليل كله ينطق يا قدوس يا قدوس، فإذا أصبح صفق بجناحيه وقال: سبحان الرزاق وطار.

وكذلك روينا أنه كان بعضهم يأتيه طير بمكة ويحادثه، فلما كان ذات يوم أتاه وقال له: موعدي وموعدك الشام، فاجتمع به بعد ذلك في الشام.

وكذلك الحكاية المشهورة التي رويناها في الطير الذي بشر أبا مسلم بسلامة السرية وقدومها في وقت عينه له في بعض الغزوات، فقال له: من أنت يرحمك الله، فقال الطير: أنا مذهب الحزن عن قلوب المؤمنين، فقدمت السرية كما ذكر. وغير ذلك مما يخرج عن الحصر مما قد علم واشتهر.

النوع التاسع: إبراء العلل ببركتهم

من ذلك ما روينا أنه ظهرت ليعقوب بن الليث[3] علة أعيت الأطباء، فقيل له: في ولايتك رجل صالح يقال له سهل بن عبد اللّه، فلو استحضرته لعله يدعو لك، فأحضره وسأله الدعاء، فقال: كيف يستجاب دعائي لك وفي سجنك محبوسون؟ فأطلق كل من كان في السجن، فقال سهل: اللهم

---

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٥)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ١٣)، والترمذي (مناقب ١٦).

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ٣٦٧٧ ـ ٣٦٩٥)، والقرطبي في (التفسير ١٦/٦٦).

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٨/٢٠١، وابن خلكان ٢/٣١٢، والنجوم ٣/٤٠، ومطالع البدور ٢/١٣٥.

كما أريته ذل المعصية فأره عز الطاعة وفرج عنه، فعوفي، فعرض مالاً على سهل فأبى أن يقبل، فقيل له: لو قبلته وفرقته على الفقراء، فنظر إلى الحصباء في الصحراء فإذا هي جواهر، فقال: من أعطي مثل هذا يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟

وعن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى السري السقطي[1] رضي الله تعالى عنه قال: كنت أطلب رجلاً صديقاً مدة من الأوقات، فمررت في بغض الجبال فإذا أنا بجماعة زمنى وعميان ومرضى، فسألت عنهم، فقالوا: هاهنا رجل يخرج في السنة مرة يدعو لهم فيجدون الشفاء، فصبرت له حتى خرج ودعا لهم فوجدوا الشفاء، فقفوت أثره وتعلقت به وقلت له: بي علة باطنة فما دواؤها. فقال: يا سريّ خل عني، فإنه غيور لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه.

وكذلك الحكاية المشهورة عن البنت الزمنة[2] التي قالت: يا رب أسألك بحرمة ضيفنا أن تعافيني، فقامت تمشي في الليل، فلما رأى أهلها ذلك طلبوا الضيف وكان صبياً حمالاً في السوق بات عندهم، فلم يجدوه والأبواب على حالهم مغلقة، وهذا بعض الحكاية.

قلت: وروي مسنداً في كتاب مناقب الإمام شيخ الإسلام قدوة الأنام قطب الأولياء الكرام الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه، أنه جاء فضل الله بن إسماعيل البغدادي التاجر فقال له: يا سيدي قال جدك رسول الله ﷺ: «من دعي فليجب»[3] وقد دعوتك إلى منزلي، فقال: إن أذن لي جئت، ثم أطرق ملياً ثم قال: نعم، فركب بغلته، وكان عنده شيخان من الشيوخ الكبار، فأخذ أحدهما بركابه الأيمن والآخر بركابه الأيسر حتى أتوا داره، فإذا فيها مشايخ بغداد وعلماؤها وأعيانها ومد سماط فيه من كل حلو وحامض، وأتى بسلة كبيرة مختومة يحملها اثنان ووضعت في آخر السماط، وقال فضل الله الصلاة، والشيخ مطرق فما أكل ولا أذن في الأكل ولا أكل أحد من أهل المجلس كأن على رؤوسهم الطير[4] من هيبته، فأشار إلى الشيخين اللذين جاء معه أن قدما إليّ تلك السلة، فقاما وحملاها حتى وضعاها بين يديه، وأمرهما ففتحاها فإذا فيها ولد للذي دعاهم أكمه[5]

---

(١) هو السَّريّ بن المغلس السقطي (توفي ٢٥٣ هـ/٨٦٧ م) أبو الحسن، من كبار المتصوفة. بغدادي المولد والوفاة. وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته وهو خال الجنيد. الأعلام ٣/٨٢، وطبقات الصوفية ٤٨ ـ ٥٥، والوفيات ١/٢٠٠، وتهذيب ابن عساكر ٦/٧١ ـ ٧٩، وصفة الصفوة ٢/٢٠٩، وحلية ١٠/١١٦، والرسالة القشيرية ص ٤١٧ ـ ٤١٩.

(٢) زَمِنَ زمانة وزمنة: مرض مرضاً يدوم زماناً طويلاً، وضعف بكبر سن أو مطاولة علة.

(٣) أخرجه مسلم (نكاح ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٦)، وأبو داود (صوم ٧٤)، (أطعمة ١)، وابن ماجه (نكاح ٢٥)، والترمذي (صوم ٦٣)، والدارمي (صلاة ١٦٨)، (نكاح ٢٣)، و(أحمد بن حنبل ٣، ٣٩٢).

(٤) يقال: كأن على رؤوسهم الطير؛ أي: ساكتون هيبةً ليست فيهم طيش ولا خفة.

(٥) الأكمه: من ولد أعمى، أو من فقد بصره.

معقد مجذوم[١] مفلوج[٢]، فقال له الشيخ: قم بإذن الله معافى، فإذا الصبي يعدو وهو بصير ولا عاهة به، فضج الحاضرون، وخرج الشيخ في غلبات الناس ولم يأكل شيئاً. قال الراوي وهو أحد الشيخين المذكورين: فأتاه بعد ذلك جمع من الرافضة بقفتين مخيطتين وقالوا له: قل لنا ما في هاتين القفتين، فنزل من الكرسي الذي يتكلم عليه ووضع يده على إحداهما وقال: في هذه صبي مقعد وأمر بفتحها ففتحت فإذا فيها صبي مقعد، فأمسك بيده وقال له: قم، فقام يعدو بإذن الله تعالى، ووضع يده على الأخرى وقال: وفي هذه صبي لا عاهة به، وأمر بفتحها وإذا فيها صبي فقام يمشي، فأمسك بناصيته وقال له اقعد فأقعد، فتابوا عن الرفض على يديه، ومات في المجلس يومئذ من الحاضرين ثلاثة. وروي أنه مات في مجلسه في بعض الأيام سبعة رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به وبجميع الصالحين.

قلت: وكذلك أخبرنا بعض أهل العلم أن الفقيه العلامة السيد الجليل الولي الكبير العارف بالله تعالى الشهير أحمد بن موسى بن عجيل اليمني رضي الله تعالى عنه، جاءه بعض الناس وفي يده سلعة، فقال له: ادع الله تعالى أن يزيل عني هذه السلعة وإلا ما بقيت أحسن ظني بأحد من الصالحين، فقال له: لا حول ولا قوة إلا بالله، ومسح على يده وربط عليها بخرقة وقال: لا تفتحها حتى تصل إلى منزلك، فخرج من عنده فلما كان في بعض الطريق أراد أن يتغدى، ففتح يده ليأكل وكانت في كفه اليمنى فلم ير لها أثراً.

قلت: والظاهر والله تعالى أعلم أن السيد المذكور أراد أن يستر هذه الكرامة بستر اليد بالخرقة لئلا تظهر في الحال، وربما كان عنده في ذلك الوقت أناس، فرأى ظهورها بعد تراخي الوقت أهون وأقل شهرة، وله الكرامات المشهورة الجلية والسيرة المحمودة الجميلة. والكلام في هذا النوع واسع أيضاً جداً، ولسنا إلى تتبعه عن هذا الكلام نتعدى.

النوع العاشر: طاعة الأشياء لهم

من المشهور أن كثيراً منهم كانت السباع تحرسهم، وقد ركب كثير منهم على ظهورها، وبعضهم حمل عليها زاده وبعضهم حطباً.

منهم الشيخ الكبير الولي الشهير السيد الكبير العارف بالله تعالى أبو الغيث بن جميل قدس الله تعالى روحه حمل حطباً على ظهر أسد افترس حماره، فقال له: وعزة المعبود ما أحمل حطباً إلا على ظهرك، فخضع له فحمل الخطب على ظهره وساقه إلى باب البلد ثم حط عنه وخلاه.

وعن بعض الصالحات هي الولية العارفة بالله تعالى شعوانة رضي الله تعالى عنها، أنها رزقت ولداً فربته أحسن تربية، فلما كبر ونشأ قال لها: سألتك بالله يا أماه إلا ما وهبتني لله سبحانه، فقالت له: يا بني إنه لا يصلح أن يكون للملوك والرؤساء إلا أهل الأدب والتقى، وأنت يا ولدي غرّ ما

---

(١) جذمت يده: قُطعت أو ذهبت أصابعها فهو أجذم وهي جذماء (ج) جذمى.
(٢) فُلج الرجل: أصيب بالفالج. فهو مفلوج (ج) مفاليج.

تعرف ما يراد بك، ولم يأن لك ذلك، فأمسك عنها ولم يقل لها شيئاً، فلما كان ذات يوم خرج إلى الجبل ليحتطب ومعه دابة فنزل عنها ليجمع حطباً، فلما جمع ورجع وجد السبع قد افترسها، فجعل يده في رقبة السبع وقال له: يا كلب الله وحق سيدي لأحملنك الحطب كما تعديت على دابتي، فحمل على ظهره الحطب وهو طائع لأمره حتى وصل إلى دار أمه، فقرع عليها الباب ففتحت له، وقالت لما رأت ذلك: يا بني أما الآن فقد صلحت لخدمة الملوك، اذهب فقد وهبتك لله عز وجل، فودعها وذهب.

وروي أن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى شاه بن شجاع الكرماني[1] رضي الله تعالى عنه، خرج للصيد وهو ملك كرمان، فأمعن في الطلب حتى وقع في برية مقفرة وحده فإذا هو بشاب راكب على سبع وحوله سباع، فلما رأته ابتدرت نحوه، فزجرها الشاب عنه، وخرجت عجوز بيدها شربة ماء، فناولتها الشاب فشرب ودفع باقيه إلى شاه، فشرب وقال: ما شربت شيئاً ألذ منه ولا أعذب، ثم غابت العجوز فقال الشاب: هذه الدنيا وكلها الله تعالى إلى خدمتي، فما احتجت إلى شيء إلا أحضرته إليّ حين يخطر ببالي، أما بلغك أن الله تبارك وتعالى لما خلق الدنيا قال لها: يا دنيا من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه؟ ووعظه وعظاً حسناً، فكان ذلك سبب توبته وخروجه من الملك ودخوله في طريق القوم حتى كان من أمره ما كان.

وروي أن جماعة من أهل العلم قصدوا زيارة بعض الشيوخ، فلما أتوه وجدوه يلحن في قراءته في الصلاة فتغير اعتقادهم فيه، فلما ناموا تلك الليلة جنبوا كلهم، فخرجوا ليغتسلوا في بركة ماء، فوضعوا ثيابهم ودخلوا في الماء فجاء الأسد وجلس على ثيابهم فلم يقدروا يخرجون، فلاقوا شدة من شدة البرد، ، فجاء الشيخ وزجر الأسد وقال له: ما قلت لك لا تتعرض لضيفاني، فبصبص وذهب، ثم قال لهم الشيخ: أنتم اشتغلتم بإصلاح الظاهر فخفتم الأسد، ونحن اشتغلنا بإصلاح الباطن فخافنا الأسد.

ومن المشهور أن السباع كانت تأتي إلى سهل بن عبد اللّٰه رضي الله تعالى عنه، وكان يدخلها بيتاً ويضيفها ويطعمها اللحم ثم يخليها، وكان الناس يسمون ذلك البيت بيت السباع. قال الشيخ أبو نصر السراج[2] رضي الله تعالى عنه: ورأيت أهل تستر كلهم متفقين على هذا لا ينكرونه وهم الجم الكثير الغفير.

وكذلك الحكاية المشهورة عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى إبراهيم[3] الخواص رضي الله

---

(١) هو أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني (توفي قبل ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م) كان من أولاد الملوك صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البسري. (الرسالة القشيرية ص ٤٢٨).

(٢) هو عبد اللّٰه بن علي الطوسي (توفي ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م) أبو نصر السراج زاهد، كان شيخ الصوفية على طريق السنّة. له كتاب «اللمع» في التصوف. الأعلام ٤/ ١٠٤، وشذرات الذهب ٣/ ٩١، وكشف الظنون ١٥٦٢، وهدية العارفين ١/ ٤٤٧.

(٣) هو إبراهيم بن أحمد بن أحمد إسماعيل (توفي ٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م) أبو إسحاق الخواص، صوفي، كان=

تعالى عنه مع الأسد الذي جاء يعرج، فوضع يده في حجره فرآها وارمة، فنكشها بعود وأخرج منها قيحاً، فذهب الأسد وجاء بعد ساعة ومعه شبلان[1]، فبصبصا[2] له وحملا إليه رغيفين وذلك في البرية.

قلت: وهذه الكرامة قد جمعت آيات كثيرة، منها قصد الأسد إليه واستئناسه به ومد يده إليه ووضعها في حجره والتماسه منه نكشها وإخراج القيح منها، وعوده إليه وإتيانه بولديه كالمتودّد إليه والشاكر له على جميله، وحمله إليه الرغيفين كالمجازي له، وإحضار الخبز في موضع لا يوجد فيه مع كون محضره ليس من أهل الخبز، فهذه عشر آيات ظاهرة من الآيات الباهرة نبهت عليها للاعتبار بها.

وفيهم قلت في بعض القصائد:

هـمُ الأسـدُ مـا الأسـد الأسـود تهـابهُـم ... ومـا النَّمـر مـا أظفـارُ فهـد ونـابُـه
ومـا الرمـي بـالنّشـابِ مـا الطعـن بـالقنـا ... ومـا الضرب بالماضي الكمي ما ذبابه[3]
لهـم همـمٌ للقـاطعـاتِ قـواطـع ... لهـم قلـب أعيـان المـراد انقـلابـه
لهـم كـل شـيء طـائـع ومُسَخـر ... فـلا قـط يعصيهـم بـل الطـوعِ دابـه
مـن الله خـافـوا لا سـواه فخـافهُـم ... سـواه جمـادات الـورى ودوابـه
لقـد شمـروا فـي نيـل كـل عـزيـزة ... ومكـرمـة ممـا يطـول حسـابـه
إلى أنْ جنوا ثمر الهوى بعد ما جنى ... عليهـم صـار الحـب عـذبـاً عـذابـه

وكذلك الحية التي شوهدت تروح على السيد الجليل الولي الكبير العارف بالله تعالى ابراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه بالنرجس وهو نائم في البستان، والظبية التي كانت تأتي بعضهم فيشرب لبنها في بعض البراري: والطيور التي كانت تؤانسهم في الجبال والقفار وتحمل إليهم أنواع الثمار، وغير ذلك مما امتلأت باليسير منه كتب الحقيقة. وإنما نبهت على قطرة من بحر عسيقة. وعلى الجملة فالدنيا كلها تتصور لهم في صورة عجوز تخدمهم، وأعظم من ذلك وأفضل طواف الكعبة المعظمة بكثير منهم، وكل ذلك مشهور مذكور بالأسانيد الصحيحات، والمشاهدات الواقعات المستفيضات في جميع الجهات.

ومن جملة المستفيضات ما اشتهر في بلاد اليمن بين الفقهاء وغيرهم، وربما تواتر عن الفقيه إسماعيل الحضرمي المتقدم ذكره في النوع الثاني رضي الله تعالى عنه، أنه قال يوماً لخادمه وهو في

= أوحد المشايخ في وقته. من أقران الجنيد. ولد في سر من رأى ومات في جمع الري له كتب مصنفة. الأعلام ١/ ٢٨، وتاريخ بغداد ٦/ ٧، وطبقات الشعراني ١/ ٨٣، والرسالة القشيرية ص ٢١١

(١) الشِّبْل: ولد الأسد إذا أدرك الصيد.

(٢) بصبص الكلب: حرّك ذنبه طمعاً أو ملقاً أو خوفاً.

(٣) النُّشَاب: النَّبل. القنا: الرماح الجوفاء. الكمّي: الشجاع المقدام الجريء، أو هو لابس السلاح

سفر: يقول للشمس تقف له حتى يصل إلى منزله. وكان في مكان بعيد وقد قرب غروبها، فقال لها الخادم: قال لك الفقيه إسماعيل قفي له فوقفت حتى بلغ مكانه، ثم قال للخادم: ما تطلق ذلك المحبوس، فأمرها الخادم بالغروب فغربت وأظلم الليل في الحال.

قلت: فالمرجوع في هذا كله إلى أصل يجب الإيمان به، وهو أن الله على كل شيء قدير، وليس الخارق للعوائد بمستحيل في العقل كما تقدم ولا ملتبس بالمعجزات والسحر للفرق بين ذلك كما سيأتي.

ومن طاعة الجان لهم ما روي مسنداً في كتاب مناقب القطب عبد القادر الجيلاني[1] رضي الله تعالى عنه، أنه جاءه بعض أهل بغداد وذكر له أن ابنة له اختطفت من سطح داره، وهي بكر عمرها ستة عشر سنة، فقال له الشيخ: اذهب هذه الليلة إلى خراب الكرخ واجلس عند التل الخامس وخط عليك دائرة في الأرض وقل وأنت تخطها: بسم الله على نية عبد القادر الجيلاني، فإذا كانت فحمة العشاء مرت بك طوائف من الجن على صور شتى، فلا يروعنك منظرهم، فإذا كان السحر مر بك ملكهم في محفل منهم، فسيسألك عن حاجتك، فقل له: قد بعثني عبد القادر إليك، واذكر له شأن ابنتك، قال: فذهبت وفعلت ما أمرني به، فمر بي صور مزعجة المنظر ولا يقدر أحد منهم يدنو من الدائرة التي أنا فيها، وما زالوا يمرون زمراً زمراً إلى أن جاء ملكهم راكبا فرساً وبين يديه أمم، فوقف بإزاء الدائرة وقال: يا إنسي ما حاجتك؟ فقلت: قد بعثني الشيخ عبد القادر إليك، فنزل عن فرسه وقبل الأرض وجلس خارج الدائرة وجلس من معه وقال: ما شأنك؟ فذكرت له قصة ابنتي، فقال لمن معه: من فعل هذا؟ فلم يعلموا من فعله، فأتي بمارد وهي معه، وقيل له هذا من مردة[2] الصين، فقال له: ما حملك على أن اختطفت من تحت ركاب القطب، قال: إنها وقعت في نفسي، فأمر به فضربت عنقه وأعطاني ابنتي، فقلت: ما رأيت كالليلة في امتثالك أمر الشيخ عبد القادر، قال: نعم إنه لينظر من داره إلى من المردة منا وهم بأقصى الأرض فيفرون من هيبته إلى مساكنهم، وإن الله تعالى إذا أقام قطباً مكّنه من الجن والإنس[3].

قلت: وقد خرجنا في هذا الفصل عن الاعتدال اللائق بهذا المختصر: إما للحاجة إلى ذلك لأجل المنكر، أو للعادة الجارية فيمن وجد الجواهر أن يحمل ما لا يطيق منها ويستكثر، ولنقتصر على هذا القدر فالقليل منه يبصر المستبصر ويهدي المتحير.

---

(١) كتاب: «مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني» لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٦ ذكر فيها أنه لما اختصر تاريخ مرآة الزمان لابن الجوزي رأى أنه قد اختصر في ترجمة الشيخ فأفردها وزاد عليها من كتب عديدة. (كشف الظنون ٢/١٨٤٣).

(٢) المردة: (ج) المارد: العاتي الشديد العتو والطاغية.

(٣) الجن: خلقهم الله من مارج من نار، وقد سموا بذلك لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار والإنس: البشر وواحده إنسي، والجمع أناسي.

الفصل الثالث

في الجواب عن السؤال الثالث

أقول وبالله التوفيق: أما الفرق بين الكرامة والمعجزة[1] فقد قدمت في الفصل الذي قبله أقوال أئمة الأصول إن الفرق بينهما إنما هو تحدي النبوة، فدل ذلك على جواز استوائهما في جميع خوارق العوائد، وقد صرح بذلك إمام الحرمين كما ذكرت في الفصل المذكور.

قلت: ولا يرد على ذلك القرآن لوجود التحدي المذكور فيه، وقولهم تحدي النبوة فيه احتراز من تحدي الولاية، فإنه لو اقترن الخارق بدعوى الولاية جاز على الصحيح عند المحققين، خلافاً للقول الضعيف المتقدم ذكره في الفصل الثاني.

ومن ذلك ما اشتهر ورويناه أنه لما أكثر أهل الرحبة الإنكار في باب الكرامات، ركب الشيخ الكبير الولي الشهير جابر الرحبي رضي الله تعالى عنه أسداً ودخل الرحبة وقال: أين الذين يكذبون أولياء الله تعالى؟ فكفوا بعد ذلك.

واعلم أنهم لا يتظاهرون بالكرامات إلا لأمور مهمة ذكرتها في كتاب [روض الرياحين في حكايات الصالحين]، وفي كتاب [المناقب العلية في مدح المصطفى ﷺ ومدح الصوفية].

قلت: هنالك المعجزة يجب على النبي أن يتحدى بها ويظهرها، والكرامة يجب على الولي أن يخفيها ويسترها إلا عند ضرورة أو إذن أو حال غالب لا يكون له فيه اختيار، أو لتقوية يقين بعض المريدين، وهذا الاستثناء لا بد منه، فما يجب عليه أن يخفيها مطلقاً، ولا يجوز له أن يظهرها مطلقاً؛ وإطلاق المحققين أنه يجوز له أن يظهرها وأنها لا تفارق المعجزة من هذا الوجه يحمل على ما إذا وجد بعض هذه الأشياء التي استثنيناها.

فإن قيل: إطلاقهم يقتضي العموم والأصل عدم التخصيص فلم خصصته؟

قلت: القيام الدليل على إرادة التخصيص وهو العلم بأن إظهار الكرامة بغير غرض صحيح لا يجوز، فتعين حمله على ما إذا عرض لهم غرض صحيح.

فإن قيل: سلمنا التخصيص، لكن لا نسلم حصر التخصيص فيما ذكرت من هذه الأشياء لجواز أن يدخل معها في التخصيص غيرها أو يخرج عنه بعضها.

قلت: أما خروج بعضها عنه فلا، لاشتمال جميعها على الغرض الصحيح، وأما دخول غيرها معها فلم يظهر لي ذلك نهاية ما ثم أن يقال: إذا وجدت مصلحة فذلك داخل تحت قولي أو لتقويته يقين بعض المريدين.

وها أنا أحصر ذلك بالتقسيم فأقول: لا يخلو إما أن يكون إظهار الكرامة بإذن أو بغيره، والأول

---

(١) انظر الفرق بينهما في الرسالة القشيرية ص ٣٥٣ ـ ٣٥٦.

جائز، والثاني لا يخلو إما أن يكون باختيار أو بغيره، والثاني جائز، والأول لا يخلو إما أن لا يكون الضرورة أو لغيرها، والأول جائز، والثاني لا يخلو إما أن يكون لمصلحة أو يكون، والثاني جائز، والأول لا يجوز، فانحصر ذلك فيما ذكرت.

وأما مثال هذه الأربعة المستثناة وهي: الإذن، وعدم الاختيار، والضرورة، والمصلحة؛ فاثنان منها ظاهران وهما الإذن وعدم الاختيار، والمصلحة قد فسرتها بتقوية يقين بعض المريدين، بقيت الضرورة. ومثالها ما روي أن بعض ملوك الكفار قال لبعض الشيوخ: إما أن تظهر لي آية وإلا قتلت الفقراء، فأظهر له آيات وهي أنه بقربه كان بعر الجمال فإذا هي ذهب، وعنده كوز ليس فيه ماء، فرمى به الشيخ في الهواء فامتلأ ماء وانتكس رأسه إلى تحت ولم يخرج منه قطرة ماء، فتحير الملك من ذلك، فقال له جلساء السوء: هذا سحر، فقال للشيخ، أرني آية أخرى، فأمر الفقراء فأوقدوا ناراً عظيمة ثم أمرهم بالسماع، فلما دار فيهم الوجد دخل هو وهم فيها، ثم خطف ابن الملك فأدخله معهم، ثم غاب الشيخ به ساعة، فافتجع الملك على ولده ثم ظهرا وفي إحدى يدي ولد الملك تفاحة وفي الأخرى رمانة، فقال له الملك: يا ولدي أين كنت؟ قال كنت في بستان فأخذت منه هاتين الحبتين، فعظم عجب الملك من ذلك، فقال له أيضاً أهل الشؤم والحرمان: هذا أيضاً فعله بصنعة باطلة، فعند ذلك قال الملك: كل ما تظهره لي لا أصدق به حتى تشرب ما في هذا الكأس، وأخرج له كأساً مملوءة سماً، فأمر الشيخ الفقراء بالسماع، فلما دار فيه نشوة الحال دخل السماع وشربه، فتمزقت الثياب التي عليه فألقوا عليه ثياباً غيرها فتمزقت أيضاً فألقوا عليه أخرى فتمزقت، فلم يزالوا يلقون عليه ثياباً بعد ثياب إلى أن ثبتت الثياب عليه ولم يصبه سوء أكثر من أن ترشح عرقاً فآمن الملك عند ذلك بذلك، فهذا مثال الضرورة المذكورة.

مثال آخر: روي أيضاً أن بعض ملوك المسلمين امتحن بعض المشايخ بأن أمر أن يطبخ له لحم مذكى ولحم ميتة، ويجعل كل واحد منهما في آنية معروفة، بإحضار ذلك في سماط مده، واستدعى بالشيخ والفقراء، فلما حضروا أمرهم بالأكل: فقال الشيخ للفقراء: يا فقراء أنا اليوم خادمكم، ثم قام وشد وسطه وميز بين اللحمين، فجعل المذكى إلى جهة الفقراء والميتة إلى جهة الملك وأصحابه وقال: الخبيث للخبيث والطيب للطيب.

مثال آخر: ذكر بعض العلماء الصالحين في تصنيفه، أن الشيخ الكبير الولي الشهير العارف بالله تعالى أبا العباس المرسي رضي الله تعالى عنه أضافه بعض الناس يوماً وقدم إليه طعاماً غير طيب ممتحناً له بذلك، فقال له الشيخ المذكور: إن كان على يد الحرث بن أسد المحاسبي[1] عرق يضرب

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبي (توفي ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م) أبو عبد اللّه، من أكابر الصوفية. كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ في البصرة، ومات ببغداد. وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كتبه «آداب النفوس» و«شرح المعرفة» و«البعث والنشور» و«الخلوة والتنقل في العبادة» وغير ذلك. الأعلام ٢/ ١٥٣، وتهذيب التهذيب ٢/ ١٣٤، وصفة الصفوة ٢/ ٢٠٧، وحلية ١٠/ ٧٣، وابن خلكان ١/ ١٢٦ وتاريخ بغداد =

عليه إذا لم يكن الطعام طيباً فعلى يدي ستون عرقاً كذلك، فاستغفر الله صاحب الطعام من ذلك. ومن هذا كثير ولا حاجة إلى التطويل.

أما الفرق بين الكرامة والسحر، فهو أن السحر لا يظهر إلا على يد الكفار والزنادقة[1] والفساق، والكرامة لا تظهر على يد هؤلاء. قال إمام الحرمين: وليس ذلك مقتضى العقل، ولكنه متلقى من إجماع العلماء.

قلت: وقد فصلت بين من هو معروف بالدين، وبين من هو معروف بالفسق ومن هو مجهول الحال وغير ذلك، وقسمته عشرة أقسام في خاتمة كتاب روض الرياحين، وذكرت أنه ليس يخفي الصالح والصديق من الفاسق والزنديق، فلا السمات كالسمات، ولا الحركات كالحركات، ولا الأدب كالأدب، ولا البركات كالبركات ولو لبس بما عسى أن يلبس الساحر، فلا بد أن يترشح من نتن فجوره ما يميز بينه وبين صاحب الطيب الفاخر، وفي هذا المعنى أنشد الخاطر:

لعمرك ما شوها بحلي تزينت كحسناء وإن كانت عن الحلي عاطلةْ
إذا ما ادعت حسناء تزوير حليها شهود فدعوى صاحب الزور باطلةْ

قلت: وقد ناظر جماعة من الكفار البراهمة جماعة من مشايخ الصوفية، وتوهموا أنهم يظهرون عليهم بتمويهات حصلت لهم بمداومة الرياضة ومعاناة الحكمة، وحزب الله هم الغالبون، حاولوا بذلك ظهور دينهم الباطل، وإظهار كونه الدين الحق الكامل، فأبى الله سبحانه وتعالى إلا أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. من ذلك القضية المشهورة للشيخ الكبير العارف بالله تعالى فريد الدين رضي الله تعالى عنه مع البرهمي الذي ارتفع في الهواء، فارتفعت إليه نعل الشيخ المذكور ولم تزل تضرب رأسه وتصفعه حتى وقع على الأرض منكساً على رأسه بين يدي الشيخ والحاضرين الناظرين. وقضية الشيخ الكبير العارف بالله تعالى بهاء الدين السندي صاحب شيخ الشيوخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنهما مع البرهمي الذي جاء إليه وارتفع في هواء مجلسه، فارتفع الشيخ حينئذٍ في الهواء ودار في جوانب المجلس، فأسلم ذلك البرهمي لعجزه عن ذلك لكونهم لا يقدرون على الدوران في الهواء بل يرتفع الواحد منهم مستوياً لا غير. وقضية الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي عبد اللّٰه ابن خفيف[2] رضي الله تعالى عنه مع البرهمي الذي ناظره وقال: إن كان دين نبينا حقاً فتعال نصبر أنا وأنت عن الطعام أربعين يوماً، فأجابه الشيخ إلى ذلك، فعجز البرهمي عن إكمال المدة المذكورة وأكملها الشيخ وهو طيب مسرور يعلوه النور غير متغير ولا مضرور. وقضية الشيخ المذكور أيضاً مع البرهمي الآخر الذي دعاه إلى المكث معه تحت الماء مدة معلومة، فأجابه

= ٨/ ٢١١، والرسالة القشيرية ص ٤٢٩.

(١) زنادقة: (ج) زنديق: الكلمة فارسية. وهي تعني الكفر باطناً مع التظاهر بالإيمان.

(٢) هو محمد بن خفيف (٢٧٦ ـ ٣٧١ هـ/ ٨٩٠ ـ ٩٨٢ م) أبو عبد اللّٰه الشيرازي، صوفي، شافعي. كان شيخ إقليم فارس، وهو من أولاد الأمراء تزهد وسافر في سياحات كثيرة. وصنف كتباً. الأعلام ٦/ ١١٤، وشذرات ٣/ ٧٦، والرسالة القشيرية ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

الشيخ إلى ذلك، فمات البرهمي في الماء قبل تمامها ولم يعلم الناس بموته حتى ظهرت جيفته فوق الماء، ومكث الشيخ حتى وفي تلك المدة ثم خرج، رضي الله تعالى عنه، وعن سائر الصالحين، ونفعنا بهم آمين. وغير ذلك ما يطول فيه الكلام مما ظهرت فيه الكرامات العظام الشاهدات بالحق لدين الإسلام على أيدي الأولياء الكرام الداعين إلى الله على بصيرة نيابة عن سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

واعلم أن دلالة المعجزة على النبوة قطعية، والأنبياء معصومون، ويعلمون أنهم أنبياء، ودلالة الكرامة على الولاية ليست بقطعية بل ظنية، وليس الأولياء معصومون؛ نعم قد يكون بعضهم محفوظاً من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها، وهذا نادر عزيز فيهم. وأما الغالب فقد يقع من بعضهم الصغائر مع عدم الإصرار على ذلك. قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: فإن قيل هل يكون الولي معصوماً؟ قيل إما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظاً حتى لا يصرّ على الذنوب وإن حصلت هنات أو آفات فلا يمتنع ذلك في وصفهم، ولا يعلمون أنهم أولياء على أحد القولين، لأن ذلك يخرجهم عن الخوف. واختار الأستاذان أبو علي الدقاق، وأبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنهما أنه يجوز أن يعلم بعضهم أنه ولي، والذي يجدون في قلوبهم من الهيبة والتعظيم والإجلال للحق سبحانه يزيد ويدلي على كثير من الخوف، ولنقتصر على هذا القدر في الفصل.

الفصل الرابع

في الجواب عن السؤال الرابع

أقول وبالله تعالى التوفيق: لا شك أن الكرامات قد ظهرت في زمن الصحابة رضي الله عنهم وكثرت، ولكن ظهورها فيما بعد أكثر، وقد قدمت في الفصل الأول بعض ما ظهر منها في زمنهم على جماعة: منهم أبو بكر وعمر وعلي وسعد وسعيد وعبد اللّٰه بن عمر[١] وسلمان وأبو الدرداء[٢]

---

(١) هو عبد اللّٰه بن عمر بن الخطاب العدوي (١٠ ق هـ - ٧٣ هـ/ ٦١٣ - ٦٩٢ م)أبو عبد الرحمٰن صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. كان جرئياً جهيراً. نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة. ومولده ووفاته فيها. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، وغزا إفريقية مرتين وكف بصره في آخر حياته. وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة. له في كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثاً. الأعلام ٤/١٠٨، والإصابة ت ٤٨٢٥، وطبقات ابن سعد ٤/١٠٥ - ١٣٨، وحلية ١/ ٢٩٢، وصفة الصفوة ١/ ٢٢٨.

(٢) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي (توفي ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م) أبو الدرداء صحابي من الحكماء الفرسان القضاة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاض بها. مات بالشام، وروى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثاً الأعلام ٥/ ٩٨، والإصابة ت ٦١١٩، وحلية ١/ ٢٠٨، والكواكب الدرية ١/ ٤٥.

وخبيب وعمران بن الحصين وأسيد[1] بن حضير وعباد بن بشر والعلاء بن الحضرمي رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وقد ذكرت في مقدمة كتاب [روض الرياحين] أن كثيراً من المنكرين لكرامات الأولياء والصالحين لو رأوهم يطيرون في الهواء لقالوا هذا سحر، وقالوا هؤلاء شياطين، ولا شك أن من حرم التوفيق فكذب بالحق غيباً وحدساً كذب به عياناً وحساً، كما قال الله العظيم وهو أصدق القائلين: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ [الأنعام: ٧] وليس العجب ممن ينكر الكرامات من المعتزلة، فليس ذلك بمستنكر ولا مستكثر منهم، فقد خالفوا أهل السنة بما هو أنكر وأكثر، وإنما العجب من قوم ينكرونها وهم ينتمون إلى أهل السنة وهم أقسام: فقسم منهم ينكرون على مشايخ الصوفية ومن ينتمي إليهم ويسيئون الظن بهم ويطعنون فيهم وينكرون كراماتهم، وسيأتي الكلام معهم إن شاء الله تعالى في الفصل العاشر عند ذكر الشريعة والحقيقة والجمع بينهما، وإبطال قول من يقول إن بينهما فرقاً ومخالفة، فالكلام مع أولئك أراه أليق هنالك. وقد بلغني أن ابن الجوزي عفا الله تعالى عنا وعنه صنف كتاباً سماه [تلبيس إبليس][2]، تكلم فيه على شيوخ الصوفية وطريقتهم، وزعم أن إبليس لبس عليهم، ولم يدر أنه هو الذي لبس عليه في كلامه هذا واعتقاده فيهم وهو لا يشعر، والعجب كل العجب منه في إنكاره على سادات ما بين أوتاد وأبدال وصديقين عارفين بالله تعالى محققين قد ملؤوا الوجود كرامات وأنواراً ومعارف وحكماء وأسراراً، يعدون إقبال عليهم ليلاً وإدبارهم عنهم نهاراً، يفرون طول دهرهم من نفوسهم ومن الخلق والشيطان والدنيا إلى الله تعالى فراراً، قد صفوا بواطنهم من شوائب الكدر، واستوى عندهم الذهب والمدر والمدح والذم والشدائد والنعم، بل يعدون نعمة الدنيا منعاً وبلاءً، والشدة عطاء ورخاء، أعرضوا في بدايتهم عما سوى الله؛ فحصلوا في نهايتهم من فضل الله ما لا يعلمه إلا الله، فما ظنه بقوم ضبطوا أنفاسهم مع الله سبحانه وتعالى، فشغلهم طول دهرهم مراقبته، يقول الصغير منهم؛ وقفت على باب قلبي عشرين سنة ما جاز به شيء لغير الله إلا رددته، فلو أنه لاقى واحداً من تلامذتهم الصغار في ميدان حرب الإنكار لكان يدري إذا ما انكشف الغبار أتحته فرس أم حمار، هذا وهو يطرز كلامه بحكاياتهم، وينفق بضاعته بمحاسن صفاتهم، فهلا أخلي كتبه من ذكرهم إخلاء عاماً، ولا يكون ممن يحل ذلك عاماً ويحرمه عاماً، أما علم أن أعلام العلماء الصالحين الحلماء لم يزالوا قديماً وحديثاً يعتقدون طائفة الصوفية ويزورونهم ويتبركون بمجالستهم ودعائهم وآثارهم، ويحترمونهم ويجلسون بين يدي الواحد منهم كما يجلس الصبي بين يدي المعلم، ويتأدبون معهم كالإمام الشافعي والإمام أحمد والإمام سفيان الثوري والإمام ابن سريج والإمام ابن فورك وإمام

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، وطبقات ابن سعد ٣/ ١٣٥، وتهذيب التهذيب ١/ ٣٤٧ وصفة الصفوة ١/ ٢٠١.

(٢) كتاب «تلبيس إبليس» للشيخ أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي المعروف بابن الجوزي المتوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة. قال: الأنبياء جاؤوا بالبيان الكافي فأقبل الشيطان يخلط بالبيان شبهاً فرأيت أن أحذر من مكائده وقسمته ثلاثة عشر باباً ينكشف بمجموعها تلبيسه وتدليسه (كشف الظنون ١/ ٤٧١).

الحرمين والإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي والإمام عز الدين بن عبد السلام والإمام تقي الدين بن دقيق العيد والإمام محيي الدين النووي[١] رضي الله تعالى عنهم وغيرهم، ممن لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين، في حكايات مشهورات قد ذكرت بعضها في غير هذا الموضع.

ولقد بلغني أن بعض المتأخرين، وهو الإمام تقي الدين بن دقيق العيد المذكور المشهور رضي الله تعالى عنه، كان يزور بعض الفقراء ويطلب منه الدعاء، ويخضع ويتذلل بين يديه حتى أنه قال في وقت: لهو عندي خير من مائة فقيه، أو قال ألف فقيه، أخبرني بذلك عنه بعض المشتغلين بالعلم الأخيار، وبلغني أيضاً أنه كان يدخل على بعض من كان يعتقده بطاقية على رأسه ويترك العمامة الكبيرة وغيرها من فاخر لباسه.

وكذلك: الإمام محيي الدين المذكور السيد المشكور رضي الله تعالى عنه، كان يجتمع وينتفع بالشيخ يس المزين رضي الله تعالى عنه، ويستمع كلامه ويقبل إشارته حتى أنه أمره بالسفر ورد ما عنده من الكتب المستعارة قبل موته بقليل، فامتثل أمره وقبل إشارته، وسافر راجعاً إلى بلدته، فمرض وتوفي بين أهله وإخوانه.

وكذلك: الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام رضي الله تعالى عنه، كان كما ذكرت يعتقد المشايخ ويقول بفضلهم، حتى أنه إذا سئل عن الخضر رضوان الله وسلامه عليه أحيّ هو؟ فقال: ما تقولون لو أخبركم ابن دقيق العيد أنه رآه بعينه أكنتم تصدقونه؟ قالوا: إي والله نصدقه، قال: فوالله لقد أخبر عنه سبعون صديقاً أنهم رأوه كل واحد منهم خير من ابن دقيق العيد. وقوله هذا يرد قول ابن الجوزي في زعمه أيضاً الخضر ليس بحيّ.

قلت: بل قول ابن الجوزي ينقض بعضه بعضاً، فإنه قد روي بإسناده المتصل أربع روايات أن الخضر عليه السلام حيّ: إحداها عن عليّ كرم الله تعالى وجهه أنه رآه متعلقاً بأستار الكعبة وهو يدعو بهذا الدعاء: يا من لا يشغله سمع عن سمع: الدعاء المشهور، وخاطبه وعرفه أنه الخضر. والثانية عن ابن عباس[٢] رضي الله تعالى عنهما قال الراوي: لا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «يلتقي

---

(١) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني. النووي الشافعي (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ/ ١٢٣٣ ـ ١٢٧٧ م) أبو زكريا، محيي الدين، علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران بسورية). تعلم في دمشق وأقام بها زمناً طويلاً. من كتبه «منهاج الطالبين» و«الدقائق» و«التقريب والتيسير» و«حلية الأبرار» يعرف بـ«الأذكار النووية» و«بستان العارفين» وغير ذلك. الأعلام ٨/ ١٤٩ ـ ١٥٠، وطبقات الشافعية للسبكي ٥/ ١٦٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٨٧، ومفتاح السعادة ١/ ٣٩٨.

(٢) هو عبد اللَّه بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي (٣ ق هـ ـ ٦٨ هـ/ ٦١٩ ـ ٦٨٧ م) أبو العباس، حبر الأمة، الصحابي الجليل. ولد بمكة ونشأ في عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة. وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف وتوفي بها. له في الصحيحين وغيرها ١٦٦٠ حديثاً. الأعلام ٤/ ٩٥، والإصابة ت ٤٧٧٢، =

الخضر وإلياس في كل عام في الموسم، فيلحق كل واحد منهما رأس صاحبه ويفترقان عن هؤلاء الكلمات: بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله»[١]. والثالثة عن علي رضي الله تعالى عنه أنه يجتمع يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر عليهم السلام، وذكر أنهم يتحادثون بنحو هذا الذكر المذكور ثم يفترقون فلا يجتمعون إلى قابل. والرابعة عن إلياس عليه السلام أن عيسى وإدريس في السماء وهو والخضر في الأرض كلهم أحياء، على الجميع السلام ورحمة الله وبركاته. وروي هذه الروايات الأربعة بإسناده المتصل كما ذكرت في كتاب [مثير الغرام الساكن]. قال ابن عباس في الكلمات التي يقولهن الخضر وإلياس عليهما السلام: من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات أمنه الله من الغرق والحرق والسرق. قال الراوي: وأحسبه قال: ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب.

قلت: وحكاية الإمام تاج الدين الفركاح رضي الله تعالى عنه مع بعض المشايخ في الشام مشهورة. وكذلك الإمامان الوليان الكبيران زين الزمن في بلاد اليمن الفقيه إسماعيل الحضرمي والفقيه أحمد بن موسى بن عجيل المتقدم ذكرهما في الفصل الثاني رضي الله تعالى عنهما مع الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبي الغيث بن جميل المتقدم ذكره أيضاً رضي الله تعالى عنه الذي قلت فيه:

لنا سيدكم سادَ بالفضلِ سيدا ... بكل زمانٍ ثم كل مكانِ
إذا أهلُ أرضٍ فاخروا بشيوخهم ... أبو الغيث فينا فخرُ كل يمانِ

قلت: وكم قد وقع للمشايخ من وقائع مع الفقهاء ومع الملوك والأمراء في سائر البلدان الدانيات والقاصيات، وظهرت لهم فيها آيات عظيمات وعجائب كثيرات، تضيق الكتب في سطرها عن مدادها، وتعجز الألسن في حصرها عن تعدادها، ولولا كراهية التطويل وفوت مقصود الاختصار الذي أنا له طالب، لكنت أذكر من ذلك كثير العجائب، وها أنا أنبه عليها ببعض حكايات هي بلل من بحارها، وغبار من قفارها.

من ذلك: ما أخبرني بعض أهل العلم والصلاح، أنه كان في بعض البلاد التي يعرفها بعض المشايخ يكثر من السماع مع فقرائه، فاجتمع جماعة من أهل البلد وأجمع رأيهم على مكيدة يكيدونهم بها، فصنعوا لهم طعاماً وجعلوه في دار هي خراب، ودعوهم بعد صلاة العشاء إلى تلك الدار

= وصفة الصفوة ١/ ٣١٤، وحلية ١/ ٣١٤.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٦٩، ١١٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٣٢)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/ ٧٤٠)، وابن كثير في (البداية والنهاية ١/ ٣٣٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٤٠٥٢)، والبغوي في (شرح السنة ٨١، ٤٤٣) وصاحب (ميزان الاعتدال ١٨٤٥)، وابن حجر في (لسان الميزان ٢/ ٩٢٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/ ٢٤٠)، والعقيلي في (الضعفاء ١/ ٢٢٥)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ١٥٥)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٠٨)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١/ ١٩٥ و١٩٦).

يوهمونهم الإكرام بذلك الطعام، ومرادهم إهلاكهم بوقوع الدار عليهم بالانهدام، فلما دخلوها تباعد عنهم أهل البلد ولم يقربهم أحد لكيلا يهلكوا معهم، فأكلوا الطعام وباتوا يسمعون إلى الصبح وأصحاب الكيد متطلعون إلى وقوع الدار عليهم، فلما صلوا الصبح جلسوا يذكرون الله تعالى إلى أن طلعت الشمس ثم ركعوا وخرجوا، فلما تكامل خروجهم التفت الشيخ إلى الدار وقال لها: هذا وقتك، فوقعت الدار بعد خروج الأخيار على رغم أهل الكيد والأشرار، وأثمر لهم كيدهم الخائب ثلاث مصائب: خسران طعام اللئام بأكل السادة الكرام، وخسران دارهم بالانهدام، وخسران دينهم بعظائم الآثام.

ومن ذلك: ما جرى لبعض الأمراء مع بعض الشيوخ في بعض بلاد اليمن، وذلك أن الأمير استأذنته امرأته ذات ليلة في الخروج من بيته فأذن لها، ثم تبعها ولم يزل يمشي بعدها إلى أن جاءت إلى موضع سماع[1] الشيخ وفقرائه، فرأى النساء وقربها من الفقراء، فأنكر عليه بقلبه وقال: هؤلاء الفاعلون التاركون يسمعون والنساء عندهم، ثم إنه أخذه حرقان بول، فتنحى إلى مكان ليبول فيه، فوجد فرجه فرج امرأة فعرف من أين أتى، ثم وقف حتى تفرق الناس وهو محزون متحير في أمره، فوقف على الشيخ وقال له: هكذا يكون الفقراء إذا جلس عندهم النساء، فاستغفر الله تعالى من ذلك الخاطر، ودعا له الشيخ فعاد إلى حاله الأول.

قلت: وأصل هذا السماع المذكور لا يباح إلا لمثل هذا الشيخ المذكور المشكور، الذي يحفظ جميع الحاضرين ببركته، مع أن السماع الخالي من المحرمات الظاهرة فيه اختلاف وتفصيل أذكره في غير هذا الموضع.

ومن ذلك: ما اشتهر في بلاد اليمن أن غلمان السلطان جاؤوا إلى أرض لبعض الشيوخ ليمسحوها لأجل الخراج الذي يأخذه السلطان من الناس، فخرجت عليهم ثعابين من تلك الأرض فولوا هاربين، ولم يزالوا هائبين لذلك تاركين ذلك الخراج حتى انقرض الشيخ ثم انقرض أولاده وبقي أولاد أولاده، فجاؤوا في بعض السنين إلى تلك الأرض ليمسحوها، فخرجت عليهم الثعابين فهربوا ولم يعودوا بعدها، وأنا ممن رأى تلك الأرض والمكان الذي خرجت منه الثعابين.

وأخبرني بعض المباركين من أهل تلك الجهة: أن الحرامية أخذوا بقرة لذرية الشيخ، فلما وصلوا بها مكانهم أرادوا أن يحلبوها، فالتوت الثعابين على رجل الذي يحلبها فردوها، وهذه حماية عظيمة من قبل الحق سبحانه، وعناية بهذا الشيخ حتى أخلفته في ذريته.

ومن ذلك: ما وقع لبعض الشيوخ مع بعض الملوك. وذلك أن الملك خرج إلى خارج البلد، فأشاع بعض الناس عن الشيخ أنه قال السلطان قد مات، فلما رجع السلطان نقل إليه ذلك عن الشيخ، فاستدعى به، فلما حضر قال له كيف تقول إني قد مت وأنا حي؟ فقال الشيخ: أنا ما قلت هذا إنما قال الشيخ فلان وهو كما قال، ثم خرج فوقعت الدار على السلطات ومات، وقيل قتل في الحال،

---

(١) انظر حديث القشيري عن السماع في رسالته ص ٣٣٥ ـ ٣٥٠.

أخبرني بهذا بعض الأخيار من أهل البلاد التي وقع فيها ذلك واشتهر عندهم.

ومن ذلك: حكاية الشيخ أبي الغيث رضي الله تعالى عنه مع بعض ملوك اليمن، وذلك أن خادم الشيخ جرى بينه وبين بعض غلمان السلطان شيء، فضربه الخادم، فعلم السلطان بذلك فأمر بقتل الخادم فقتل، فعلم الشيخ أبو الغيث فقال: مالي وللحراسة أنا أنزل عن المشباب وأترك الزرع، فقتل السلطان في الحال فجاء ولد السلطان إلى الشيخ وهو الملقب بالملك المظفر مستغفراً جاعلاً نعله على رأسه، فقال له الشيخ: ما تطلب؟ قال الملك، قال وليتك، فصار هو السلطان بعد أبيه. والمشباب المذكور هو بكسر الميم وسكون الشين المعجمة وبالباء والموحدة مكررة: خشب تنصب في الأرض ويجعل فوقها عريش يجلس عليه حارس الزرع، فاستعار الشيخ استعارة حسنة في تشبيه السلطان بالزرع ونفسه بالحارس الذي يحفظ الزرع، فإذا ترك حراسة الزرع أتلف، فلما ترك هو حراسة السلطان نزل به التلف في الحال رضي الله تعالى عنه وعن جميع المشايخ ونفعنا ببركاتهم.

ومن ذلك: ما وقع للشيخ الكبير العارف بالله تعالى محمد بن عمر النهاري اليمني رضي الله تعالى عنه مع بعض شيوخ العرب، وذلك أن الشيخ حصل لبعض أصحابه إهانة من بعض شيوخ العرب وعدوان، فاستغاث بالشيخ، فكتب إلى شيخ العرب المذكور وهو يقول في أثناء كلامه موبخاً له ومهدداً: ما تدري إلا وأنت بأول النحل وآخر صاد.

قلت: يعني قوله عز وجل: ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل: ١] وقوله تعالى: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٨] ثم أنشد قول حسان[1] رضي الله تعالى عنه:

عـدمنـا خيلنـا إنْ لـم تـروهـا ... تثيـرُ النَّقـع مـوعـدهـا كـداءُ

فما دارت عليه جمعة حتى مات.

من ذلك: ما وقع لشيخنا الكبير العارف بالله تعالى علي بن عبد اللّه الطواشي اليمني نسباً وبلداً رضي الله تعالى عنه مع بعض الناس، وذلك أن الشيخ المذكور توجه إلى صلاة الجمعة ومعه بعض أصحابه، فمر على إنسان فسبه ذلك الإنسان وطعن فيه، فهمّ بعض من يلوذ بالشيخ أن يبطش بذلك الإنسان، فقال الشيخ: دعوه معه ما يكفيه، فاشتعلت فيه نار في الحال، وغير ذلك من الواقعات التي لا تسعها مجلدات ولنقتصر من ذلك على هذا القدر، فليس لنا قدرة على نزف البحر.

وقد ذكرت في الفصل الثالث حكاية الفقهاء الذين جلس على ثيابهم الأسد ولم يزالوا في البركة حتى جاء الشيخ وطرد الأسد عنهم وقال لهم ما قال، وكذلك حكاية الذي امتحنه السلطان بالسم،

---

(١) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري (توفي ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م) أبو الوليد، الصحابي. شاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، اشتهرت مدائحه في الغسانيين وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته. لم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً لعلة أصابته توفي في المدينة. الأعلام ٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦، وتهذيب التهذيب ٢/ ٢٤٧، والإصابة ١/ ٣٢٦، ومعاهد ١/ ٢٠٩، وخزانة البغدادي ١/ ١١١، والشعر والشعراء ص ١٠٤، وحسن الصحابة ١٧.

والذي امتحنه السلطان بلحم الميتة وذكرت في غير هذا الكتاب قضية الأمير الذي كان يفتض الأبكار، فجاءت عجوز إلى بعض الشيوخ وقد أرسل إليها الأمير يطلب منها تهيء بنتها له، فاستغاثت بالشيخ فصاح صيحة وقد ركب الأمير إلى بيت العجوز، فسقط الأمير واندقت عنقه ومات في الحال وقضية الشيخ أبي الحسن بنان الجمال[1] لما طرحه بعض الملوك بين يدي بعض الأسود. والشيخ أبي الحسن النوري مع الخليفة والقاضي لما سعى بالصوفية. والشيخ ذي النون المصري[2] مع بعض الخلفاء لما سعى به الفقهاء. وغير ذلك مما ملأ الوجود وأذعن له كل جبار عنيد وحسود، لما شهروا السيوف والقواطع، وأضاءوا دياجي ظلام الظلم بالأنوار السواطع، ولم يمس كل جبار إلا وهو لهم خاضع، ولما حكموا به من طاعة الله تعالى طائع.

والقسم الثاني من أقسام المنكرين: قوم يكذبون بكرامات أولياء زمانهم، ويصدقون بكرامات الذين ليسوا في زمانهم، فهؤلاء كما قال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو الحسن علي الشاذلي[3] رضي الله تعالى عنه: والله ما هي إلا إسرائيلية صدقوا بموسى عليه الصلاة والسلام وكذبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمنه.

والقسم الثالث: قوم يصدقون بأن لله تعالى أولياء لهم كرامات، ولكن لا يصدقون بواحد معين من أهل زمانهم، فهؤلاء محرومون أيضاً، لأن من لم يسلم لواحد معين لم ينتفع بأحد، ومن أنكر على الصالحين حرم بركتهم، قال الشيوخ رضي الله تعالى عنهم: وذلك أقل عقوبته ويخشى عليه سوء الخاتمة، نعوذ بالله من سوء القضاء، ونسأله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، لنا ولأجبابنا والمسلمين آمين.

---

(١) هو أبو الحسن بُنان بن محمد الجمال (توفي ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م) واسطي الأصل، أقام بمصر، كان عظيم الشأن وصاحب كرامات. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٤).

(٢) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري (توفي ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م) أبو الفياض، أو أبو الفيض أحد الزهاد العباد المشهورين، من أهل مصر، نوبيّ الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر وهو أول من تكلم بمصر في «ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية» فأنكر عليه عبد اللّه بن عبد الحكم واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة فاستحضره إليه وسمع كلامه، ثم أطلقه فعاد إلى مصر وتوفي بجيزتها الأعلام ٢/ ١٠٢، ووفيات الأعيان ١/ ١٠١، وميزان الاعتدال ١/ ٣٣١، ولسان الميزان ٢/ ٤٣٧، وحلية ٩/ ٣٣١ والرسالة القشيرية ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(٣) هو علي بن عبد اللّه بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلي المغربي (٥٩١ ـ ٦٥٦ هـ/ ١١٩٥ ـ ١٢٥٨ م) أبو الحسن، رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة «حزب الشاذلي» ولد في بلاد «غمارة» ونشأ في بني زرويل، وتفقه وتصوف بتونس، وسكن شاذلة فنسب إليها ورحل إلى بلاد المشرق فحج ودخل العراق، ثم سكن الإسكندرية، وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج، وكان ضريراً. له غير «الحزب» رسالة «الأمين» و«نزهة القلوب وبغية المطلوب» الأعلام ٤/ ٣٠٥، وطبقات الشعراني ٢/ ٤، وخطط مبارك ١٤/ ٥٧، ونكت الهميان ٢١٣.

الفصل الخامس

في الجواب عن السؤال الخامس

أقول وبالله التوفيق: أما كثرة ظهور الكرامات واشتهارها بعد زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم وزيادتها على ما كان في زمانهم؟

فالجواب: عن ذلك ما أجاب به الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه، لما قيل له: يا أبا عبد اللَّه إن لم يرو عنهم مثل ما قد روي عن الأولياء والصالحين، فكيف هذا؟ فقال: أولئك كان إيمانهم قوياً فما احتاجوا إلى زيادة شيء يقوون به وغيرهم كان إيمانهم ضعيفاً لم يبلغوا إيمان أولئك، فقووا بإظهار الكرامات لهم. وكذلك شيخ الطريقة ولسان الحقيقة الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه قال: وخرق العادة إنما يكاشف به لموضع ضعف يقين المكاشف رحمة من الله تعالى لعباده العباد ثواباً معجلاً لهم، وفوق هؤلاء قوم ارتفعت الحجب عن قلوبهم، وباشر بواطنهم روح اليقين وصرف المعرفة، فلا حاجة لهم إلى مدد من المخرقات، ورؤية القدرة والآيات، ولهذا ما نقل عن أصحاب رسول الله ﷺ كثير من ذلك إلا القليل، ونقل عن المتأخرين من المشايخ والصادقين أكثر، لأن أصحاب رسول الله ﷺ لبركة صحبة النبي ﷺ ومجاورة نزول الوحي وتردد الملائكة وهبوطها، تنورت بواطنهم وعاينوا الآخرة وزهدوا في الدنيا وتزكت نفوسهم وانخلعت عاداتهم وانصقلت مرايا قلوبهم، فاستغنوا بما أعطوا عن رؤية الكرامة واستلماع أنوار القدرة هذا بعض كلامه.

قلت: ويظهر لي جوابان مع الجواب الذي أجاب به الإمامان المذكوران. الجواب الأول منهما فإن هذه الكرامات من الكشف وغيره أنوار وزين، والأنوار إنما يظهر حسن بهائها في الظلمة، والزين إنما يظهر كمال حسنه بجنب الشين، ألا ترى الحسناء إذا جالست الشوهاء كيف يزهى حسنها ويبهج جمالها، ولو جالست حسناء أخرى لم تبهج تلك البهجة، ثم الظلمة والشين إنما وجدا بعد الصحابة أما الصحابة رضي الله تعالى عنهم فكلهم نور وزين، ليس منهم ظلمة ولا شين، لتوهج ضياء شمس النبوة عليهم وكمال محاسنهم، ثم إن الشمس إذا غربت لا تظهر الظلمة عقب غروبها ولا تظهر إلا الكواكب الكبار، وكلما بعدت عن الأفق كثرت الظلمة وازداد ظهور النجوم الصغار وحسن نورها.

فإن قال قائل: فيلزم على هذا أن يكون النجوم في زماننا هذا أكثر وأنور لكثرة ازدياد بعد الشمس عن الأفق.

قلت له: أنت غالط إن الشمس قد قرب طلوعها من أفق المغرب، لأنا في القرن الثامن، وقد ذهب ليل الأعمار واقترب صبح الأجل، وأخشى أن يكون قد طلع فجر يوم الوعيد ونحن نائمون، وما بان لنا ضوء النهار لتراكم سحاب الذنوب في جو سماء القلوب، وتراكب موج بحر فتن الدنيا وموج ظلمات الظلم، فكنا في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرجنا أيدينا من تحت لباس الغفلة لم نكد نراها من شدة ظلمات الذنوب والعيوب

والفتن المفسدة للقلوب، ونحن أيضاً مع عدم النور موتى القلوب، فنسأل الله الكريم أن يحيينا ويجعل لنا نوراً نمشي به في الناس. الجواب الثاني: أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا أهل حق وسنة وطاعة وعدل ومعروف، ثم ظهر بعدهم عكس ذلك من الباطل والبدع والمعاصي والظلم والمنكر، فبث الله تعالى في سائر البلدان رجالاً قلدهم سيوفاً ماضيات لا تزال بأكفهم بالليل والنهار مشهورات أول ما شهروها على نفوسهم الكافرة حتى أسلمت وتركت المخالفات لما سمعوا قوله عز وجل: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [التوبة: ١٢٣] وغير ذلك من الآيات، وولاهم ملكاً عظيماً ونصرهم نصراً عزيزاً وفتح لهم فتحاً مبيناً، فخافهم الناس وأطاعوهم في إقامة الحق وترك المظالم والمنكرات، وفعل المعروف والاهتمام بأمر الدين وإغاثة الملهوف ودفع ضرورات المسلمين، ونفع بهم من أراد تعالى هدايته من المريدين، وغير ذلك مما ألهمهم من المصالح وأرشدهم إليها وأعانهم عليها، كل ذلك عناية منه ولطف بعباده، وهو اللطيف المنان المعروف بالمعروف والفضل والإحسان، جميل العوائد وكشاف الشدائد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، فله الحمد والشكر والنعمة والفضل والثناء الحسن الجميل.

واعلم أن كرامات الأولياء من تتمة معجزات الأنبياء معدودة منها، هكذا قاله العلماء وهو واضح، وها أنا أزيده إيضاحاً وأقرره فأقول: الكرامة تشهد للولي بالصدق، وذلك يستلزم كونه محموداً في دينه، وكونه محموداً في دينه يستلزم كون دينه حقاً، وكل ولي تابع لنبيه في دينه، وكون دين التابع حقاً يستلزم كون دين المتبوع حقاً كذلك، وكون دين المتبوع يستلزم صدقه فيما أخبر به من الرسالة، فاستلزمت كرامة الولي صدق نبيه فيما ادعى من الرسالة، وهي فعل خارق للعادة، وكل فعل خارق للعادة مستلزم صدق النبي فيما ادعاه من الرسالة معجزة له فالكرامة معجزة له فهي من جملة معجزاته وهو المطلوب.

وأقول أيضاً: الشريعة شجرة ذات أغصان مثمرة، لكل واحد من الأمة غصن منها، وثمارها أعمالهم الصالحات يجتنونها، ومن لا يبرز منه عمل صالح لا تبرز له ثمرة فمنها ما قد بدا فيه الصلاح وطاب أكله، ومنها ما لم يطب أكله، ومنها من لم تطلع ثمرته بعد؛ فالثمار التي قد بدا فيها الصلاح فهي أعمال الصالحين، وكراماتهم تشهد لهم بزكاوة ثمارهم وطيبها وتفضيلها تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل وطيب الثمرة دليل على طيب الشجرة التي هي أصلها، وطيب الشجرة التي هي الشريعة يدل على أنها حق لأن الباطل خبيث، وكونها حقاً دليل على صدق مشرعها فيما ادعاه، من الرسالة المشتملة على التشريع وإلا لكانت باطلاً، لأن الكاذب في الدعوى مبطل فيما ادعاه، وقد شهد البرهان بأنها حق فتكون حقاً باطلاً هذا خلف فيكون المشرع صادقاً فيما ادعاه، فلزم من ذلك دلالة كرامة الولي على صدق نبيه المشروع فيما ادعاه من الرسالة المشتملة على التشريع إنشاء واستصحاباً للشرع المتقدم، وهي فعل خارق للعادة وكل فعل خارق للعادة دال على صدق النبي معجزة له، فكرامات سائر الأولياء معجزات الأنبياء وهو المطلوب.

وأقول أيضاً: الشريعة بحر يسقي أراضي دين الأمة في نهرين: نهر باطن يجري في أودية ذهب

مواهب الفضل من علا معالي عزائم الشريعة بيواقيت معارف الحقيقة في قلوب العارفين، ونهر ظاهر يجري في فيافي فضة مكاسب العقل من رياض قيعان الحنيفية السمحة بدرر علوم الشريعة في قلوب العلماء ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ [البقرة: ٦٠] ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ [الأعراف: ٥٨] وظهور كرامة الولي تشهد له بخروج نبات أرض دينه وحسن نشو نباته، وذلك يدل على طيب أرضه وعذوبة ماء النهر وطيبه، ثم طيبه وعذوبته دليل على طيب البحر المستمد منه وعذوبته، وطيب البحر المذكور الذي هو الشريعة يدل على طيب مشرعها، لأن الطيب لا يصدر عن الخبيث، فكل إناء بالذي فيه ينضح[1]، وطيب المشرع يستلزم نفي الكذب عنه لأن الكذب خبيث، ويلزم من ذلك صدقه فيما ادعى من الرسالة المشتملة على التشريع ابتداء واستصحاباً، فلزم من ظهور كرامة الولي صدق نبيه المشرع في دعوى الرسالة المذكورة، وهي فعل خارق للعادة دال على صدق النبي معجزة له، فكرامات الأولياء معجزات الأنبياء وهو المطلوب.

الفصل السادس

في الجواب عن السؤال السادس

أقول وبالله تعالى التوفيق: الصواب أنه لا يستعجل بتكفير من قال المؤمن يعلم الغيب حتى يسأل ماذا أراد بالمؤمن وبالعلم وبالغيب؟ فإن أراد بالمؤمن المؤمن الخاص وهو الولي دون المؤمن العام وهو كل مؤمن، وبالعلم بأنه بإعلام الله تعالى له لا يعلمه بنفسه استقلالاً، وبالغيب بعض الغيوب لا جميعها، فإنه لا يكفر بذلك لأنه جائز في كرامات الأولياء بل واقع، وقد دل على جوازه العقل وشهد بوقوعه النقل.

أما العقل فإن ذلك ليس يستحيل في قدرة الله تعالى، بل هو من قبيل الممكنات ولا قادح في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما قدمناه من الفرق بين الكرامات والمعجزات.

وأما النقل فهو خارج عن الحصر، إذ لا يمكن تعداد ما نقل عن الأولياء في الكشف في كل عصر ومصر، أعني ما كشفه الله تعالى لهم بعد أن كان عنهم مستوراً، وأشهدهم إياه بعد أن كان عنهم غائباً عن مشاهدتهم، فأصبح طي علمه لهم منشوراً، فبعضهم أعلم وقوعه بخطاب، وبعضهم كشف له ما حال دونه من حجاب، وبعضهم أشهده في اللوح المحفوظ مستوراً، فأضحى علمه المجهول معروفاً فيما بينهم مشهوراً:

وفي بعض القصائد قلت في فضلهم الذي ما زال عند الأخيار مشكوراً:

رجالٌ لهم علم بما جهلَ الورَى ... لهمُ صار مكشوفاً فانمحى حجابهُ
فأسرار غيب عندهُم علم كشفها ... وقد سكروا مما يطيب شرابُه

---

(١) يقال: نضح الإناء بما فيه، أي رشح.

أولئكَ هُم أهلُ الولايةِ نالُهم ... من الله فيها فضلُه وثوابُه
وقربٌ وأنسٌ واجتلاءُ معارفٍ ... ووارد تكليمٍ لذيذٌ خطابُه
بتركِ الهوى أمسوا يطيرون في الهوى ... ويمشون فوقَ الماءِ أمنٌ جنابُه
ملوكٌ على التحقيق ليس لغيرهم ... من الملكِ إلّا اسمُه وعقابُه

قلت: ولو أمكن جمع ما وقع لهم من المكاشفات في جميع الأشياء في كل زمان ومكان لاحتيج في ذلك إلى كتب يطول عدها أو يتعذر حصرها، فكيف يحصر المكتوب فيها، فليس يمكن جمع ذلك ولا يقدر أحد يحصيه إلا الله سبحانه، ويكفي من ذلك ما أخبر الله عز وجل عن الخضر عليه السلام موسى ﷺ، مع كون الخضر ولياً لا نبياً عند جمهور العلماء وعند جميع العارفين بالله تعالى؛ وكذلك ما قدمناه عن أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فيما كشف لأبي بكر من حال الحمل في بطن امرأته، وما كشف لعمر من حال سارية ومن معه من المسلمين وحال العدو، وما أخبر عنه ﷺ من كونه من المحدثين، وما ورد عن السلف والخلف مما رواه خلائق في كتب الحقائق والدقائق وصحت فيه الروايات وأخبر به الأولياء والعلماء والثقات.

من ذلك: ما رويناه ورواه خلائق لا يحصون من الأولياء والعلماء والثقات الأنقياء في رسالة الإمام الأستاذ أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه، وفي كلام السيد الكبير الشيخ العارف بالله تعالى أبي عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه، وفي العوارف لشيخ الطريقة ولسان الحقيقة شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه وغيرهم مما لا نطول بذكره.

فمما رويناه في الرسالة المذكورة بالإسناد عن الشيخ أبي يعقوب السوسي رضي الله تعالى عنه قال: جاءني مريد بمكة فقال: يا أستاذ أنا غداً أموت وقت الظهر، فخذ هذا الدينار فاحفر بنصفه وكفني بالنصف الآخر، ثم لما كان الغد وقت الظهر جاء وطاف ثم تباعد ومات، فغسلته ووضعته في اللحد، ففتح عينه فقلت: أحياة بعد موت؟ فقال: أنا حي وكل محب لله تعالى حي.

قلت: وفي هذا كرامتان ثنتان لهذا المريد المذكور: اطلاعه على وقت موته، وكلامه بعد الموت.

وقال الشيخ أبو سعيد الخراز[1] رضي الله تعالى عنه: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان يسأل شيئاً فقلت في نفسي: مثل هذا كلٌّ[2] على الناس، نظر إليّ وقال: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ [البقرة: ٢٣٥] قال: فاستغفرت الله تعالى في سري، فناداني: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال خير النساج[3] رضي الله تعالى عنه: كنت جالساً في بيتي، فوقع لي أن

(١) انظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص ٢٣٨
(٢) الكَل: العالة على الناس.
(٣) هو خير بن عبد اللّه النساج (٢٠٢ ـ ٣٢٢ هـ/ ٨١٧ ـ ٩٣٤ م) متصوف معمّر، من كبار الزهاد. أصله=

الجنيد[1] بالباب، فنفيت عن قلبي ذلك، فوقع ثانياً وثالثاً، فخرجت فإذا أنا بالجنيد فقال: لم لم تخرج بالخاطر الأول[2]؟

وقال الشيخ أبو العباس بن مسروق رضي الله تعالى عنه: دخلت على شيخ من أصحابنا أعوده[3]، فوجدته على حالة رثة، فقلت في نفسي: من أين يرتفق[4] هذا؟ فقال: يا أبا العباس دع عنك هذه الخواطر الدنية، فإن لله ألطافاً خفية[5]. كل هذا رويناه في الرسالة مع غيره مما لا نطول بذكره.

ومما رويناه عن الشيخ أبي عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه قال: هجم أهل الشرك ببلاد الأندلس على قرية من قراها، فدخلوها غرة فسبوا أهلها، وأخذوا في طريقهم أسارى عديدة، فانزعج أهل الأندلس بذلك، وبلغ الخبر أن الأسارى يرمى لهم الحشيش مع الخيل وهم مكتفون: فيأكلون بأفواههم كما ترعى البهائم، قال: فبت في بعض تلك الليالي عند الشيخ أبي إسحاق بن طريف رضي الله تعالى عنه فوضع الطعام بيننا ثم تنفس بعد أن قال: بسم الله، ثم قال: يا محمد أما بلغك ما طرأ على المسلمين؟ فقلت نعم، فجعل يقص الخبر ويبكي حتى علا بكاؤه، ثم قال: والله لا أكلت طعاماً ولا شربت شراباً حتى يفرج الله سبحانه عن المسلمين، ثم اعتزل عن الطعام ثم جلس ساعة؛ فسمعته يقول: الحمد لله الحمد لله، ثم دنا إلى الطعام وقال: كل، فأكل وأكلت معه وعجبت منه كيف تركه ثم عاد إليه بعد قسمه في ساعته، ثم إن الخبر وصل إلينا بعد ذلك أن الوقت الذي تكلم فيه الشيخ صادف أن النصارى[6] سمعوا رجفة عظيمة اعتقدوا أن عسكر المسلمين دهمهم، فركبوا خيولهم ونجوا بأنفسهم وتركوا الغنيمة والأسارى، فخلص الله تعالى المسلمين، انتهى كلامه.

قلت: وهذه القضية فيما كرامتان ثنتان: إحداهما إبرار قسمه، وناهيك بها كرامة تخلص بها

= من سر من رأى، نزل ببغداد وصحب الجنيد والخواص والسهلي وكثيرين، ثم كان أستاذ الجماعة. أخباره كثيرة وله كلمات مأثورة، قيل: كان اسمه محمد بن إسماعيل من سامراء. الأعلام ٢/ ٣٢٦، والرسالة القشيرية ص ٤٣٧.

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي (توفي ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م) الخزاز، أبو القاسم، صوفي من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. عُرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخز، وهو أول من تكلم بعلم التوحيد ببغداد. له «رسائل» و«دواء الأرواح» وغير ذلك. الأعلام ٢/ ١٤١، ووفيات الأعيان ١/ ١١٧، وحلية ١٠/ ٢٥٥، وصفة الصفوة ٢/ ٢٣٥، وتاريخ بغداد ٧/ ٢٤١، والرسالة القشيرية ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٢) انظر هذا القول في الرسالة القشرية ص ٢٤٠.

(٣) في الرسالة القشيرية ص ٢٣٥: أدعوه.

(٤) يرتفق: يستعين وينتفع.

(٥) انظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص ٢٣٥.

(٦) النصارى: أهل النصرانية والنصرانية أتباع المسيح عليه السلام.

الأسارى المسلمون من الشدة العظيمة في أيدي المشركين، وفرج بها الكرب الشديد عن سائر المسلمين العالمين بذلك، وأظهر بها العناية بالدين. والثانية أطلاع الشيخ المذكور على ذلك مع وقوع الكرامتين معاً في الحال.

وروينا عنه أيضاً قال: سألني الشيخ أبو الربيع عن بعض ما كنت أرى، فأخفيت عنه شيئاً، فقال: أعليّ تتستر؟ والله لقد رأيتك في ظهر أبيك قبل ظهورك.

وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو زيد القرطبي رضي الله تعالى عنه: سمعت في بعض الآثار: من قال لا إلٰه إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار، فعملت على ذلك رجاء بركة الوعد، فعملت منها لأهلي، وعملت منها أعمالاً ادخرتها لنفسي، وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب يقال إنه يكاشف بعض الأوقات بالجنة والنار، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنه، وكان في قلبي منه شيء، فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله، فنحن نتناول الطعام والشاب معنا، إذا صاح صيحة منكرة واجتمع في نفسه وهو يقول: يا عم هذه أمي في النار، وهو يصيح بصياح عظيم لا يشكه من سمعه أنه عن أمر، فلما رأيت ما من الانزعاج قلت في نفسي: اليوم أجرب صدقه، فألهمني الله سبحانه السبعين الألف ولم يطلع على ذلك أحد إلا الله تعالى، فقلت في نفسي الأثر حق والذين رووه لنا صادقون، اللهم إن السبعين الألف فداء هذه المرأة أم هذا الشاب، فما استتممت الخاطر في نفسي إلا أن قال: يا عم ها هي أخرجت الحمد لله الحمد لله، فحصلت لي فائدتان: إيماني بصدق الأثر، وسلامتي من الشاب وعلمي بصدقه.

ومما رويناه عن الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه في العوارف، ما سمع به عن الشريف الحسيب النسيب ذي المجد والمفاخر، الشيخ الكبير العارف بالله تعالى عبد القادر رضي الله تعالى عنه، أنه بعث إليّ شخصاً وقال: لفلان عندك طعام وذهب اثنتي من ذلك بكذا ذهب وكذا طعام، فقال الرجل: كيف أتصرف في وديعة عندي، ولو استفتيتك ما أفتيتني بالتصرف، فألزمه الشيخ بذلك، فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذي طلب، فلما وقع التصرف منه جاء مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب في بعض نواحي العراق أن أحمل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا القدر الذي عينه الشيخ عبد القادر، فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقفه وقال: ظننت بالفقراء أن إشارتهم تكون على غير صحة.

قلت: وكذلك روى مسنداً من ثلاث طرق عن جماعة من الشيوخ في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر المذكور، أنه أرسل إليه بعض الشيوخ جماعة من أصحابه وقال لهم: اذهبوا إلى بغداد وقولوا للشيخ عبد القادر يسلم عليك عبد الرحمٰن ويقول لك: إن له أربعين سنة في دركات باب القدرة فما يراك ثم لا داخلاً ولا خارجاً، فقال الشيخ عبد القادر في ذلك الوقت لجماعة من أصحابه: اذهبوا إلى الشيخ فلان وستجدون في طريقكم جماعة من أصحابه بعثهم إليّ بكذا وكذا، فإذا لقيتموهم فردوهم معكم، فإذا أتيتموه فقولوا له: يسلم عليك عبد القادر ويقول لك: أنت في الدركات، ومن هو في الدركات لا يرى بعض من في الحضرة، ومن هو في الحضرة لا يرى من في المخدع، وأنا في المخدع أدخل

وأخرج من باب السر من حيث لا تراني بأمارة أن خرجت لك الخلعة الفلانية في الوقت الفلاني على يدي خرجت لك وهي خلعة الرضا، وبأمارة خروج التشريف الفلاني في الليلة الفلانية لك على يدي خرج وهو تشريف الفتح، وبأمارة أن خلع عليك في الدركات بمحضر اثني عشر ألف ولي لله تعالى خلعة الولاية، وهو فرجية خضراء طرازها سورة الإخلاص على يدي خرجت لك، فانتهوا إلى نصف الطريق فوجدوا أصحاب الشيخ عبد الرحمٰن، فردوهم وأتوا إليه وبلغوه رسالة الشيخ عبد القادر، فقال: صدق الشيخ عبد القادر سلطان الوقت وصاحب التصريف فيه.

قلت: وكذلك قد اشتهر عن الشيخ الكبير أبي الغيث الشهير رضي الله تعالى عنه أنه قال له الفقراء ذات يوم: نشتهي اللحم، فقال اصبروا إلى اليوم الفلاني، وكان يوم سوق يأتيه القوافل، فلما جاء ذلك اليوم جاء الخبر أن قطاع الطريق أخذوا القافلة، ثم جاء بعض القطاع الحرمية بحب وجاء آخر منهم بثور، فقال الشيخ للفقراء تصرفوا فيه وخلوا رأس الثور على حاله، فتصرفوا وأحضروا العيش، فتنحى الفقهاء فدعاهم الفقراء إلى الأكل فامتنعوا، فقال الشيخ للفقراء: كلوا، الفقهاء ما يأكلون الحرام، فلما فرغوا من الأكل جاء إنسان إلى الشيخ وقال: يا سيدي، نذرت للفقراء كذا وكذا من الحب فأخذه الحرمية، وجاء آخر أيضاً وقال: نذرت للفقراء ثوراً فنهب، فقال لهما الشيخ: قد وصل إلى الفقراء متاعهم، وقال لصاحب الثور: تعرف ثورك إذا رأيت رأسه؟ قال نعم، فأمر الفقراء بإحضاره، فلما رآه قال: هذا رأس ثوري بعينه، فبقي الفقهاء يضربون يداً على يد ندماً على ترك موافقة الفقراء.

قلت: ومن أمثال ما ذكرناه مما رأيناه من الشيوخ وما رويناه عنهم وما رآه غيرنا أو رواه عنهم قديماً وحديثاً ما لا يحصى، هيهات كيف يحصى ما صدر عن جميع الشيوخ وتلامذتهم وسائر الأولياء والصالحين في جميع البلدان وفي جميع الأزمان، وفرد شيخ تلامذته الصغار أربعمائة تلميذ كلهم مكاشفون وعمر كل واحد منهم نحو من خمس عشرة سنة، روى ذلك الشيخ الجليل العارف بالله تعالى صفي الدين بن أبي المنصور رضي الله تعالى عنه في رسالته عن شيخه السيد الجليل الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي العباس الحرار بالحاء المهملة والراء المكررة قال: دخلنا على الشيخ أبي أحمد الأندلسي رضي الله تعالى عنه، ونحن جماعة من المريدين قصدنا زيارته، فرأينا خلقاً عظيماً حوله ونقباء كل نقيب تحت يده جمع كثير، فنظر الشيخ إلينا ثم قال: إذا جاء الصغير إلى المعلم ولحه ممحو كتب له المعلم، وإذا جاء لوحه مملوء أين يكتب له المعلم؟ بالذي جاء يرجع، ثم نظر إلينا نظرة أخرى فقال: من شرب من مياه مختلفة دخل مزاجه التغير، ومن اقتصر على ماء واحد سلم مزاجه من التغير.

قال أبو العباس المذكور: ورأيت من أصحاب الشيخ أبي أحمد أربعمائة شاب كلهم في سنّ خمس عشرة سنة أو نحوها وكلهم مكاشفون، فلما كان بعض الأيام بعث الشيخ خادمه إليّ، فمشيت إليه فوجدت عنده جماعة وهو يتكلم، فلما جلست أخذت وشهدت الشيخ قائماً على رأسي ومعه قدوم وهو يهدم فيّ وأنا أشهد أعضائي تتفرق على الأرض إلى أن وصل إلى كعبي ولم يبق فيّ شيء إلا شمله الهدم، ثم أخذ يبنيني بناء جديداً من كعبي صاعدا إلى أن بلغ دماغي، ثم قال لي. قد استغنيت فسافر إلى بلدك، فسافرت، فلما خرجت من بين يدي الشيخ انكشف لي العالم العلوي كشفاً بحيث لا يحتجب عني منه شيء رضي الله تعالى عنهما.

قلت: قوله أُخذت هو بضم الهمزة وكسر الخاء وسكون الذال المعجمتين وضم التاء المثناة من فوق؛ ومعناه: غيبت عن نفسي وعن هذا العالم وكشف لي عالم الملكوت.

قلت: ومن اطلاع الله سبحانه لهم على ما شاء من الحوادث قبل حدوثها، ما روي مسنداً في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه قال بعض أصحابه: كنت أشتغل على سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر وكنت أسهر أكثر الليل أترقب حاجة له، فخرج من داره ليلة فناولته إبريقاً فلم يأخذه، وقصد باب المدرسة فانفتح له الباب، فخرج وخرجت خلفه ثم عاد الباب مغلقاً، ومشى إلى أن قرب من باب بغداد فانفتح له الباب، فخرج وخرجت معه ثم عاد الباب مغلقاً، ومشى غير بعيد فإذا نحن في بلد لا أعرفه، فدخل فيه مكاناً شبيهاً بالرباط، وإذا فيه ستة نفر، فبادروا إلى السلام عليه، والتجأت إلى سارية هناك وسمعت من جانب ذلك المكان أنيناً، فلم يلبث إلا يسيراً حتى سكت الأنين ودخل رجل وذهب إلى الجهة التي سمعت منها الأنين، ثم خرج يحمل شخصاً على عاتقه، ودخل آخر مكشوف الرأس طويل شعر الشارب وجلس بين يدي الشيخ، فأخذ عليه الشيخ الشهادتين وقص شعر رأسه وشاربه وألبسه طاقية وسماه محمداً، وقال لأولئك النفر: قد أمرت أن يكون هذا بدلاً عن الميت، قالوا سمعاً وطاعة، ثم خرج الشيخ وتركهم وخرجت خلفه ومشينا غير بعيد، وإذا نحن عند باب بغداد، فانفتح كأول مرة ثم أتى إلى المدرسة فانفتح له بابها أيضاً ودخل داره، فلما كان الغد جلست بين يديه أقرأ على عادتي فلم أستطع من هيبته، فقال لي: أبنيّ اقرأ ولا عليك، فأقسمت عليه أن يبين لي ما رأيت، فقال: أما البلد فنهاوند[1]، وأما الستة نفر فهم الأبدال، وصاحب الأنين سابعهم كان مريضاً، فلما حضرت وفاته جئت أحضره، وأما الرجل الذي خرج يحمل شخصاً فأبو العباس الخضر عليه السلام ذهب به ليتولى أمره، وأما الرجل الذي أخذت عليه الشهادتين فرجل من أهل القسطنطينية كان نصرانياً وأمرت أن يكون بدلاً عن المتوفى، فأتي به وأسلم على يديّ وهو الآن منهم، وأخذ عليّ أن لا أحدث أحداً بذلك وهو حيّ.

قلت: وقد أخبر خلائق منهم بموتهم وموت كثير من الناس في أزمنة وأمكنة معينات، وبأشياء تقع بعد موتهم، فوقع جميع ذلك على وفق ما أخبروا.

من ذلك: ما أخبرني بعض أهل العلم والصلاح من أهل اليمن أن الشيخ أبا الغيث وقفت بين يديه مغنية فغشيت ووقعت، فلما أفاقت طلبت التوبة وصحبة الفقراء، وكانت من المترفات وأهل الرعونات، فقال لها الشيخ: إنا نذبحك أتصبرين على الذبح؟ فقالت نعم، فأمرها أن تسقي الماء للفقراء، فمكثت ستة أشهر تحمل الماء على ظهرها قد تبذلت وتبدلت عن حالها الأول، ثم قالت للشيخ: إني قد اشتقت إلى ربي، فقال لها الشيخ: الخميس تلقين ربك، فماتت يوم الخميس رحمها الله تعالى.

وعن الفقيه إسماعيل الحضرمي رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنا أموت في الضحى بفتح الضاد المعجمة وكسر الحاء المهملة: موضع في اليمن فمات فيه.

---

(١) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام (معجم البلدان ٥/ ٣١٣).

وقد تقدمت في هذا الفصل الحكاية المشهورة في الكتب المشهورات عن الفقير الذي قال: أنا غدا أموت وقت الظهر.

وقال بعضهم: صحبت خيراً النساج فقال لي قبل موته بثمانية أيام: أنا أموت يوم الخميس وقت المغرب، وأدفن يوم الجمعة قبل الصلاة وستنسى هذا، قال: فأنسيته إلى يوم الجمعة، فلقيني من خبرني بموته، فخرجت لأحضر جنازته فوجدت الجنازة قد أخرجت قبل الصلاة كما ذكر.

والمشهور: أن الشيخ سهل بن عبد اللَّه رضي الله تعالى عنه قال: مات شاه بن شجاع الكرماني رضي الله تعالى عنه في وقت وافق وقت موته، وغير ذلك مما هو خارج عن الحصر.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ [الحجر: ٧٥] أي المتفرسين[١]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[٢].

وقد روينا عن الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه في رسالة الأستاذ أبي القاسم القشيريّ رضي الله تعالى عنه أنه وقف عليه غلام نصراني متنكر وهو يتكلم على الناس في الجامع، فقال: أيها الشيخ ما معنى قول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه فقال: أسلم قد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام[٣].

وسئل بعضهم عن الفراسة[٤] فقال: أرواح[٥] تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب فتنطق عن أسرار الخلق نطق مشاهدة وعيان لا نطق ظن وحسبان[٦].

وقال الشيخ الجليل العارف بالله تعالى أبو عثمان المغربي رضي الله عنه: العارف يضيء له أنوار العلم فيبصر به عجائب الغيب.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الفراسة برسالته ص ٢٣١ ـ ٢٤١.

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/ ١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٩٤، ٦/ ١١٨)، والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ١٢١)، (والبغوي ١٤/ ٣١)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٩، ٤/ ٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٤٤ ٧/ ٢٥٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٢/ ٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/ ١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/ ١٢٩).

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٤١.

(٤) الفِراسة: مأخوذة من التفرس وهو التثبت والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال، وقد تكون وهبية إلهامية يخلقها الله في القلب وهي المراد غالباً عند القوم.

(٥) أرواح: تعبير صوفي دقيق عن رفعة المستوى النوراني القلبي وشفافية حاسة النظر القلبي والروحي.

(٦) انظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص ٢٣٣.

وقال السيد الكبير الشيخ العارف بالله تعالى أبو عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه: العالم من نطق عن سرك واطلع على عواقب أمرك. وقال أيضاً: الولي يرى الأشياء من وراء حجاب الشرع.

وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو محمد الجريري[١] بضم الجيم وبالراءين المهملتين والياءين المثناتين من تحت رضي الله تعالى عنه لجلسائه من الفقراء: هل فيكم من إذا أراد الحق سبحانه أن يحدث في المملكة حدثاً أعلمه قبل أن يبديه؟ قال الراوي: قلنا لا، فقال ابكوا على قلوب لم تجد من الله شيئاً.

وقال الشيخ العارف ابن البرقي رضي الله تعالى عنه ذات يوم: وقع اليوم في المملكة حدث لا آكل ولا أشرب حتى أعلم ما هو؟ فورد الخبر بعد أيام أن القرمطي دخل مكة في ذلك اليوم وقتل بها المقتلة العظيمة.

وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه لما ذكر كرامات الأولياء: قد يعلمون بعض الحوادث قبل تكوينها.

قلت: وجميع هذه الأقوال مما رويناها عنهم وهي مشهورة مروية عند أهل العلم في تصانيف مشهورة كالرسالة والعوارف وغيرهما، وليس القصد حصر ما قال الشيوخ في ذلك ولا ما وقع لهم منه، فإن ذلك مما لا سبيل إلى نزف بحره التيار العميق الزخار[٢]، وإنما القصد التنبيه على ذلك، مع أنه لا حاجة أيضاً إلى التنبيه عليه، فقد قام البرهان القطعي على جواز كرامات الأولياء من حيث الجملة وهذا من جملتها، وقد تقدم الدليل على جواز بلوغ الكرامة مبلغ المعجزة في جنسها وعظمها، وإنما قلنا لا يستعجل بالتكفير المذكور في أول هذا الفصل، لأن المبادرة إلى دون ذلك غير محمودة، فصاحبها راكب متن الخطر فكيف بالمبادرة إلى تكفير المسلمين مع عدم الاطلاع على قلوب الخلق واحتمال إرادة التخصيص وغيره، وحرمة عظم المؤمن الذي قتله بغير حق أعظم عند الله من زوال الدنيا، وقد صرح الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه بأن ترك قتل ألف نفس استحقوا القتل أهون من سفك محجمة[٣] دم مسلم بغير حق.

قلت: ولعظم حرمة المؤمن أنه إذا صدر منه كفر صريح تعمده وارتد عن الإسلام لا يبادر إلى قتله، بل يستتاب وجوباً أو استحباباً على خلاف في ذلك، فكيف بمن لا يعلم أنه تعمد الكفر ولفظه يحتمل وجوهاً من إرادة التخصيص وغيره ويحتمل أيضاً السهو وسبق اللسان وغير ذلك، فينبغي التثبت والتأني في التكفير وسفك دماء المسلمين، فليس ذلك بالهين؛ وينبغي إذا نقل عن أحد لفظ

---

(١) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري (الجريري نسبة إلى جرير بن عباد من بني بكر بن وائل)، من كبار أصحاب الجنيد أقعد بعد الجنيد في مكانه، وقد صحب سهل بن عبد اللّه وكان عالماً بعلوم هذه الطائفة. الرسالة القشيرية ص ٤٠٢.

(٢) زخر البحر: امتلأ وارتفعت أمواجه فهو زاخر وزخار.

(٣) المحجمة: ما يحجم به.

ظاهره الكفر أن يتأمل ويمعن النظر فيه، فإن احتمل ما يخرج اللفظ عن ظاهره من إرادة التخصيص أو المجاز أو غير ذلك مما قد عرف في القاعدة الأصولية سئل اللافظ عن مراده، وإن كان الأصل في الكلام هو الحقيقة والعموم وعدم الإضمار وغير ذلك، لأن الضرورة ماسة إلى الاحتياط في هذا الأمر، واللفظ محتمل، فإن ذكر ما ينفي عنه الكفر مما يحتمله اللفظ ترك، وإن لم يحتمل اللفظ خلاف ظاهره أو ذكر غير ما يحتمل أو لم يذكر شيئاً استتيب، فإن تاب قبلت توبته، وإن لم يتب وأصر على ذلك، فإن كان مدلول ذلك الظاهر كفرا مجمعاً عليه حكم بكفره وقتل مرتداً وترتبت عليه أحكام المرتدين، وإن كان في محل الخلاف نظر في الراجح من الأدلة فإن لم يكن في الناظر أهلية النظر في الأدلة نظر في الراجح عند أكثر المحققين من أهل النظر، فإن كان الراجح عندهم عدم التكفير ترك، وإن تعادل الخلاف أخذ بالأجود وهو عدم التكفير، وينبغي أن يستتاب ويهدد إن لم يتب وإن رجحوا التكثر، فالحكم ما حكم به الجم الغفير، ولكني أقول في هذه الصورة كما قيل: ول حارها وتقهقر تقهقر الجبان ودع المقدم لشجعان طلباً لسلامة العواقب وهرباً من الوقوع في المعاطب، وإن كان في ظاهر ذلك السلامة راجحة والتجارة رابحة، وفي هذا المعنى المذكور أنشد وأقول:

وإنـي جبـانٌ حيـث أخشـى عـواقبـا ... وإنْ كـانَ فـي ذلـكَ السـلامـة راجحـه
أقـدمُ غيـري طـالبـاً لسـلامتـي ... وإنْ ظـن فـي ذاكَ التجـارة رابحـه

وأقول أيضاً: في هذا المعنى المذكور وفي تباعدي عن كثير من الأمور:

وقـائلـة مـا لـي أراكَ مُجـانبـاً ... أمـوراً وفيهـا للتجـارةِ مـربـحُ
فقلتُ لهـا مـالـي بـربحـك حـاجـة ... فنحـنُ أنـاسٌ بـالسـلامـةِ نفـرحُ

وقلت: وهذا مذهبي الذي أميل إليه وأقول به وأعتمد عليه، وقد صرحت به لك في كتاب روض الرياحين حيث قلت: وأما من اختلف في تكفيره فمذهبي فيه بتوقيف ووكول الأمر فيه إلى الله سبحانه، وهذه الجبانة التي ذكرت إنما أراها محمودة في الأخطار الدينية، وأما الأخطار الدنيوية المفضية إلى سلامة الدين وسعادة الأبد وشرف الدارين فإني أرى الجبانة فيها مذمومة، وأندب إلى الشجاعة فيها غيري وإن لم أزل جباناً في كل شيء معروفاً ومعترفاً بتخلفي وتقصيري، كما قلت في بعض القصائد:

فمجـدُ العُلـى مـا نـالـهُ غيـرُ مـاجـدٍ ... يُخـاطـر بـالـروح الخطيـر فيظفـرُ
إذا ذُكـرت جنـاتُ عـدن وأهلهـا ... يـذوبُ اشتيـاقـاً نحـوهـا ويشمـرُ
ويعلـو جـواد العـزم أدهـم سـابقـاً ... وأبيـض مجنـونـاً عـن النـورِ يسفـرُ
فـأدهـم يسقـى مـاء عيـن وأبيضـا ... لصبـر علـى قطـعِ الفيـافـي يضمـرُ
ويـركـضَ فـي ميدان سبق إلى العُلى ... ويسـري إلـى نيـل المعـالـي ويسهـرُ
وإنـي إلـى أمـر أنـا فيـه آمـن ... لأحـوج مـن غيـري إليـه وأفقـر

وقلت في أخرى في هذا المعنى:

فما فازَ بالمجدِ الأثيل من الوَرَى   سوى من لدى الأهوال بالنفسِ يسمح[1]
فأما جبان عَزَّت النفس عندهُ   فذاك الذي بالذلِ يُمسي ويصبحُ
تعرض لنفحات الإلٰه وبابه   أدم قرعه فالباب يوشك يفتحُ

وقلت في هذا المعنى أيضاً في أخرى:

وصابر فما نالَ العُلى غير صابر   وقل واعظاً للنفسِ عندَ التململِ
مع الصبرِ إحدى حسنيين مناك أو   مَنَايا كرام فَاصْبري وتَحمَّلي[2]
ولازم وداومْ قرعَ باب مؤملا   فما خَيَّبَ المولى رجاء مؤملِ

ولنثن العنان عن الاسترسال في هذا الميدان، فقد خرجنا عما كنا فيه من مقصود البيان، ولنعد إلى ما نحن بصدده الآن.

الفصل السابع

في الجواب عن السؤال السابع

أقول وبالله تعالى التوفيق: أما الجواب عن الآية المذكورة في الأسئلة قبل الفصل الأول، فالعلم من حيث الجملة على قسمين: قسم علمه العالم به بغيره، وقسم علمه بنفسه، والقسم الثاني منهما أيضاً على قسمين: قسم شاركه في علمه غيره من الخلق، وقسم لم يشاركه فيه مخلوق. والقسم الثاني من هذا التقسيم الثاني أيضاً على قسمين: قسم يجوز فيه الشركة، وقسم يمتنع الشركة فيه، فهذه أربعة أقسام في العلم: علم علمه بغيره، وعلم علمه بنفسه هو وغيره، وعلم علمه بنفسه لم يشاركه في علمه مخلوق مع جواز الشركة فيه، وعلم علمه بنفسه مع امتناع الشركة فيه. مثال القسم الأول: علم الأنبياء والأولياء بإعلام الله تعالى لهم، وعلمنا بإعلامهم لنا. ومثال القسم الثاني: علم المعتبرين في الوجود قبل بعثة الأنبياء بأن له صانعاً متصفاً بصفات الكمال. ومثال القسم الثالث: علم الواحد من الخلق دون سائرهم ببعض الأشياء كموت زيد مثلاً. والقسم الرابع: هو علم الله عز وجل، وهو العلم الذي تفرد به واستحال فيه شريك يوجد، وعلمه لا بإعلام أحد بل هو صفة من صفاته القديمة الأزلية الدائمة الأبدية المتنزهة عن التغير والبطلان وسمات الحدوث والنقصان، وهو علم واحد علم به جميع المعلومات الكليات منها والجزئيات ما كان منها وما سيكون وما لا يكون مما جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون ليس بضروري ولا كسبي ولا حادث، خلافاً لعلم سائر الخلق المعرضين للحوادث.

إذا علم هذا فاعلم أن علم الله سبحانه وتعالى المذكور المنزه عن النقص والعيب هو العلم

---

(١) المجد الأثيل: أي الأصيل.
(٢) الصبر: هو حبس النفس على شيء مزعج تتحمله، أو شيء لذيذ تفارقه، وهو ممدوح ومطلوب.

الذي تمدح به سبحانه، حيث أخبر في الآية الكريمة المذكورة بتفرده بعلم الغيب إذ هو صفة كمال لا يجوز أن يتصف بها غيره.

فأما علم الأنبياء والأولياء فذلك بإعلامه لهم لا بصفة لهم اقتدروا بها على الاطلاع على الغيب استقلالاً، فإذا امتنعت مشاركتهم له في العلم المذكور فلا يعلم الغيب إلا هو، وإذا أعلمهم بغيب لا يقال إنهم يعملون الغيب إذ ذلك ممتنع لوجوه: أحدها أنه ليس لهم صفة يقتدرون بها على الاستقلال بعلم الغيب كما تقدم. والثاني أنهم ما علموا بل علموا. والثالث أنهم ما علموا غيباً غائباً عن كل أحد، إذ ليس ذلك غائباً عن الله تعالى ولا عمن أطلعه الله تعالى عليه من عباده، وليس شيء من هذه الموانع الثلاثة في علم الله عز وجل، إذ علم كل ما غاب عن كل ما سواه ومن غير إعلام غير له تعالى عن ذلك وبصفة اقتدر بها على جميع المعلومات استقلالاً؛ إذا تقرر هذا فإعلام الله تعالى الأنبياء والأولياء ببعض الغيوب ليس بممتنع، إذ ليس بمستحيل في العقل خرق العادة بذلك، ولا يؤدي إلى مشاركتهم له تعالى فيما تفرد به من العلم المذكور الذي تمدح واتصف في أزل الآزال ومدح ووصف به وبسائر صفات الكمال، ولا يؤدي أيضاً إلى التباس كرامات الأولياء بمعجزات الأنبياء لما قدمناه من الفرق بينهما في الفصل الثالث، وقد أخبرني خلائق عن الأولياء بموتهم في أمكنة وأزمنة معينات وغير ذلك من الأمور المغيبات، ووقع ذلك على وفق أخبارهم كما قدمناه في الفصل الذي قبله مما هو مشهور عنهم وثابت بالأسانيد الصحيحات في الكتب العديدات المرويات ومعلوم بالعيان والمشاهدات على وجه لا يمكن جحده ولا دفعه بتأويل وغيره من سائر الاحتمالات، وذلك معدود من جملة الكرامات التي هي من تتمة المعجزات، وقد قال الإمام محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في فتاويه في معنى الآية المذكورة: أي لا يعلم ذلك استقلالاً وعلم إحاطة بكل المعلومات إلا الله تعالى. وأما المعجزات والكرامات فبإعلام الله سبحانه لهم علمت، وكذا ما علم بإجراء العادة. انتهى كلامه وفيه الكفاية، والله تعالى أعلم وهو ولي التوفيق والهداية.

الفصل الثامن

في الجواب عن السؤال الثامن

أقول وبالله تعالى التوفيق: لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم، بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة، لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها ودليلاً على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته، وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين وكمال المعرفة بالله تعالى فكل من كان أقوى يقيناً وأكمل معرفة كان أفضل، ولهذا قال قطب العلوم وتاج العارفين سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: قد مشى رجال باليقين على الماء، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً. وقال أيضاً: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير في القلب. وقال أيضاً: اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب. وقال قطب مقامات اليقين وحجة الله تعالى على العارفين أبو محمد سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه في

فضل اليقين: ابتداء اليقين المكاشفة. وكذلك قال بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ثم المعاينة والمشاهدة. وقال أيضاً: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى.

قلت: ولأن الكرامة قد تقع لكثير من المحبين والزهاد ولا تقع لكثير من العارفين والمعرفة أفضل من المحبة عند الأكثرين، وأفضل من الزهد عند الكل، لأن الزهد من أوائل المقامات، والمحبة أول الأحوال التي هي بعد مجاوزة المقامات، وفي فضل المعرفة على الزهد قال قطب الأحوال كبير الشأن أبو يزيد البسطامي[1] رضي الله تعالى عنه: العارف طيار والزاهد سيار وزاد غيره: وأنى يلحق السيار بالطيار. وقال معدن المعارف ولسان الحكمة صاحب الكرامات الجمة ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: الزهاد ملوك الآخرة وهم فقراء العارفين. وقال أيضاً: ركضت أرواح الأنبياء في ميدان المعرفة فسبقت روح نبينا ﷺ أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى رياض الوصال. وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو تراب النخشبي رضي الله تعالى عنه: العارف لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء. وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: العارف من نطق الحق عن سره وهو ساكت. وقيل: المعرفة توجب الحياء والتعظيم كما أن التوحيد[2] يوجب الرضا والتسليم وقال بعضهم: المعرفة اطلاع العبد على الأسرار بمواصلة الأنوار، وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه: العارف لا يكون لغيره لاحظاً ولا بكلام غيره لافظاً، ولا يرى لنفسه غير الله تعالى حافظاً. وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو العباس أحمد بن أبي الخير اليمني المعروف بالصياد رضي الله تعالى عنه: المعرفة وجود تعظيم في القلب يمنع الشخص عن الانقياد لغير معروفه.

قلت: وكلام الشيوخ في المعرفة وفضلها كثير مشهور، وسيأتي ذكر شيء من وصفها وفضلها وفضل العارفين في الفصل التاسع والعاشر إن شاء الله تعالى.

وقد روينا عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير بسمنون[3] المحب رضي الله تعالى عنه،

---

(١) هو طيفور بن عيسى البسطامي (١٨٨ ـ ٢٦١ هـ = ٨٠٤ ـ ٨٧٥ م) أبو يزيد، ويقال: بايزيد، زاهد مشهور له أخبار كثيرة. كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر نسبته إلى بسطام أصله منها، ووفاته فيها، وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء، ويُعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية. الأعلام ٣/ ٢٣٥، وطبقات الصوفية ٦٧ ـ ٧٤، ووفيات الأعيان ١/ ٢٤٠، وميزان الاعتدال ١/ ٤٨١ وحلية ١٠/ ٣٣، والشعراني ١/ ٦٥، والرسالة القشيرية ص ٣٩٥ ـ ٣٩٧.

(٢) انظر حديث القشيري عن التوحيد بالرسالة ص ٢٩٨ ـ ٣٠٣.

(٣) هو سمنون بن حمزة الخواص (توفي ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م) أبو الحسن، أو أبو بكر، صوفي ناسك من الشعراء. له مقطوعات في غاية الجودة، وهو من أهل البصرة. سكن بغداد وتوفي بها. أكثر كلامه في المحبة، الأعلام ٣/ ١٤٠، وحلية ١٠/ ٣٠٩، وتاريخ بغداد ٩/ ٢٣٤، والرسالة القشيرية ص ٤٠٧.

أنه كان يقدم المحبة[1] على المعرفة خلافاً للجمهور منهم. وروينا عنه أيضاً أنه قال[2]: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة لقوله ﷺ «المرء مع من أحب»[3].

قلت: وليس العارف بالله تعالى يخلو عن المحبة الخاصة، ولعلهم أرادوا التفريق بين المحبة والمعرفة في التفضيل بينهما أن بعضهم يغلب عليه سكر المحبة وشدة الهيمان والوله بمحبوبه، وبعضهم لا يغلب عليه ذلك بل يغلب عليه المشاهدات وظهور الأسرار والمعارف وكثرة التجليات، مع اعتدال حالة المحبة في غالب الحالات، فيكون أكثر معارف من الأول، والأول أشد ولها وسكراً واصفراراً، ولهذا قال بعضهم: المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه[4]. وقال المحققون منهم: المحبة استهلاك في لذة، والمعرفة شهود في حيرة وفناء في هيبة. وأنشد بعضهم وهو في سياق الموت:

أنـا إن مـت فـالهـوى حشـو قلبـي ... وبـداء الهـوى يمـوت الكـرامُ

ثم مات رضي الله تعالى عنه. وفي وصف المحب قلت في بعض القصائد على لسان حاله بطريق النيابة عن لسان مقاله على جهة الغزل الساتر لحاله:

بتذكـار سعدى أسعداني فليـس لـي ... إلـى الصبـرِ عنهـا والسلـو سبيـلُ
ولا تـذكـرا لـي العـامـريـة إنهـا ... يـولـه قلبـي ذكـرهـا ويـزيـلُ
ولكـن بـذكـري عـرضـاً عنهـا فـإنْ ... تقـل كيـفَ هـو قـولـوا فـذاكَ عليـلُ
عـلاه اصفـرار مُـدنـف والـهٍ لـه ... أنيـن سقيـم جسمـهُ ونحيـلُ
فـإنْ تعطفـي يشفـي وإنْ تتلفـي ففـي ... هـواك المعنـى المستهـان قتيـلُ

وقال[5] أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: دفع إلى السري رضي الله تعالى عنه رقعة وقال: هذه خير لك من سبعمائة فضة وكذا وكذا[6]، فإذا فيها مكتوب:

---

(١) قال الأستاذ القشيري: المحبة حالة شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد وأخبر عن محبته للعبد، والمحبة على لسان العلماء هي الإرادة (للتوسع انظر حديثه عنها في الرسالة ص ٣١٧ ـ ٣٢٩.

(٢) انظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص ٣٢٢.

(٣) أخرجه البخاري (أدب ٩٦)، ومسلم (بر ١٦٥)، والترمذي (زهد ٥٠)، (دعوات ٩٨)، والدارمي (رقاق ٧١)، وأحمد بن حنبل ١/ ٣٩٢، ٣/ ١٠٤ ، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٩٤، ٤/ ١٠٧، ١٦٠، ٢٣٩، ٢٤٩، ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٥.

(٤) انظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص ٣٢٥.

(٥) انظر القول في الرسالة القشيرية ص ٣٢٤.

(٦) في الرسالة القشيرية ص ٣٢٤: سبعمائة قصة أو حديث.

ولما ادعيت الحبُ قالتْ كذبتني | فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحبُ حتى يلصق الجلد[1] بالحشا | وتذبل حتى لا تجيب المُناديا
وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى | سوى مقلة تبكي بها وتُناجيا

وقال الشيخ العارف أبو بكر الكتاني[2] رضي الله تعالى عنه: جرت مسألة في المحبة بمكة حرسها الله تعالى أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته[3]، وصفي شربه من كأس ورده[4]، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله[5]، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد[6]، جبرك الله يا تاج العارفين[7].

قلت: وكلام الشيوخ أيضاً في المحبة كثير، وليس القصد تتبع ما قالوا فيها، ولا هذا أيضاً موضع ذكرها، ولا موضع ذكر المعرفة واليقين، وإنما جر الكلام ذلك من أجل بيان أن صاحب الكرامة ليس بأفضل ممن ليس له كرامة من الأولياء، وإنما الفضيلة بكمال كل المعرفة واليقين، ثم انجر الكلام إلى المحبة من أجل الخلاف في الأفضل من المعرفة والمحبة. وحاصل الأمر أن المعرفة أفضل من المحبة عند الأكثرين منهم كما تقدم.

وأما المعرفة واليقين فقد ذكر بعضهم أن اليقين[8] يحصل عند كمال المعرفة، فعلى هذا تفاوت المعرفة، لأن اليقين متفاوت على ثلاث مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين؛ فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستدلال، وعين اليقين ما كان من طريق الكشف والنوال، وحق اليقين أن تشاهد الغيوب كما تشاهد المرئيات مشاهدة عيان. وقال بعضهم: اليقين اسم ورسم وعلم عين وحق؛ فالاسم والرسم للعوام، وعلم اليقين للأولياء، وعين اليقين لخواص الأولياء، وحق

---

(١) في الرسالة القشيرية ص ٣٢٤: القلب.
(٢) هو أبو بكر محمد بن علي الكتاني (توفي ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م) بغدادي الأصل، صحب الجنيد والخرّاز والنوري، وجاور بمكة المكرمة إلى أن مات. الرسالة القشيرية ص ٤٢٧.
(٣) في الرسالة القشيرية ص ٣٢٧: هويته.
(٤) في الرسالة القشيرية ص ٣٢٧: وده.
(٥) في الرسالة القشيرية ص ٣٢٧: فعن.
(٦) في الرسالة القشيرية ص ٣٢٧: كلامك.
(٧) انظر القول بكامله في الرسالة القشيرية ص ٣٢٧.
(٨) اليقين: هو العلم الذي لا يداخل صاحبه ريب على مطلق العُرف، ولا يُطلق في وصف الحق سبحانه لعدم التوفيق. وعلم اليقين هو اليقين، وكذلك عين اليقين هو اليقين نفسه، وحق اليقين هو اليقين نفسه أيضاً. فعلم اليقين لأرباب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف. (الرسالة القشيرية ص ٨٥). وللتوسع انظر حديث القشيري عن اليقين برسالته ص ١٧٨ ـ ١٨٢.

اليقين للأنبياء، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا ﷺ. وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى السري السقطي رضي الله تعالى عنه: اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن جزعك منها لا ينفعك ولا يرد عنك مقضياً، وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ترضين أحداً بسخط الله تعالى، ولا تحسدن أحداً على فضل الله، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص، ولا يرد عنك كراهة كاره، وإنَّ الله بعد له وقسطه جعل الروح والفرج في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط[1]» روى هذا الحديث الإمام أبو القاسم القشيري في رسالته بإسناده.

قلت: ومما يدل على فضل اليقين، ما ذكر بعض الشيوخ الكبار في مريم بنت عمران رضوان الله وسلامه عليها أنها كانت في بدايتها يتعرف إليها بخرق العادات بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلاً ليقينها، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، فلما قوي إيمانها وكمل يقينها ردت إلى السبب وقيل لها: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ [مريم: ٢٥].

قلت: وفي السبب قال القائل:

ألـم تَـر أنَّ الله قـال لمـريـم وهُـزي ... إليـكِ الجـذعَ تسـاقـط الـرطـبُ

ولـو شـاء أدنـى الجـذع مـن غيـرِ هـزهِ ... إليهـا ولكـن كُـل شـيء لـهُ سببُ

قلت: قوله هذا ينقض عليه بخرق العادات من غير سبب، كما في بداية مريم عليها السلام وما ذكرته من قول بعض المشايخ في ذلك، ولكني أقول:

ألـم تـرَ أنَّ الله يخـرقُ عـادة ... لتكميـل إيقـان الأحبـاب بـلا سببْ

وعنـد كمـال فـي اليقيـن يـردهـم ... إلـى سبـبٍ مـا عـن مسُببـه حجـبْ

كـرزق أتـى مـن قبـل محـراب مريـم ... بـلا تعـب يلقـى وجـاء بعـد بـالتعـبْ

ففـي هـزهـا للجـذع بعـض مشقـة ... ولو لـم تهز الجذع ما ساقط الرطبْ

ولا نقـص فـي ذا بـل كمـال وقبلـه ... يرى بعض نقص في مريدٍ وذي طلبْ

وعن الشيخ الكبير العارف أبي جعفر الحداد رضي الله تعالى عنه قال: رآني أبو تراب النَّخشبي رضي الله تعالى عنه وأنا في البادية جالس على بركة ماء ولي ستة عشر يوماً لم آكل ولم أشرب، فقال لي: ما جلوسك فقلت: أنا بين العلم واليقين أنتظر ما يغلب فأكون معه، يعني إن غلب العلم شربت وإن غلب اليقين مررت، فقال سيكون لك شأن.

وقال الشيخ العارف أبو إسحاق إبراهيم الخواص[2] رضي الله تعالى عنه: لقيت غلاماً في

---

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ١٠/ ٢٦٦)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٤/ ٧١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٤٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٩٦١)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ١٢١، ٧/ ١٣٠)، والقشيري في الرسالة القشيرية ص ١٧٨.

(٢) انظر القول بكامله في الرسالة القشيرية ص ١٨١ ـ ١٨٢.

التيه[١] كأنه سبيكة[٢] فضة، فقلت إلى أين يا غلام؟ فقال إلى مكة حرسها الله تعالى، فقلت بلا زاد ولا راحلة؟ فقال لي يا ضعيف اليقين الذي يقدر على حفظ السموات والأرض لا يقدر أنْ يوصلني إلى مكة بلا علاقة؟ قال: فلما دخلت مكة إذا أنا به في الطواف وهو يقول:

يـــا عيـــن سُحــي أبــــدا يــا نفــسُ مــوتـــي كَمَـــدا
ولا تحبــــــي أحــــــدا إلاّ الجليــــل الصَّمـــــدا

فلما رآني قال لي: يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعف من اليقين[٣].

وقال أبو تراب النخشبي رضي الله تعالى عنه: رأيت غلاماً في البادية وهو يمشي بلا زاد فقلت إن لم يكن معه يقين فقد هلك، وقلت في نفسي يا غلام في مثل هذا الموضع بلا زاد؟ فقال: يا شيخ ارفع رأسك، هل ترى غير الله عز وجل؟ فقلت: الآن اذهب حيث شئت.

وقال بعضهم: إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة، والرضى مصيبة. وأقوالهم في اليقين المعرفة خارجة عن الحصر، ولنقتصر منها في هذا الفصل على هذا القدر.

الفصل التاسع

في الجواب عن السؤال التاسع

أقول وبالله سبحانه التوفيق: أفضل العلماء هم العلماء بالله الذين كشف لهم الغطاء فشاهدوا الجمال الأسنى، وسكروا بمحبة المولى، وعرفوه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وتحلوا من صفاته بمحاسن الحلى، وشاهدوا عجائب ملكوته وغرائب حكمته وعظائم آياته الكبرى، وقرّبهم في حضرة قدسه وأجلسهم على بساط أنسه، ولقلوبهم بصفات الجمال والجمال تجلى، وجعلها مطالع أنواره وخزائن أسراره ومعادن المعارف والحكم، وهم مصابيح الهدي، ووفقهم لصالح الأعمال وحفظهم في الأقوال والأفعال، وصفى لهم الأحوال، وقلوبهم بذكره أحيا، ومن الأرجاس والأكدار طهر وجلا، ونشر لهم أعلام ولايته، وكلأهم بحسن كلاءته، وصرفهم في المملكة وولى، وشوقهم إلى النظر إلى وجهه الكريم، فزهدوا في الدنيا والأخرى، وأحيا بهم الدين ونفع المريدين، وجلا بهم عن القلوب الصدا، وأغاث بهم العباد وأصلح البلاد، وكشف بهم البلاء، وكما قال بعض العارفين: هم الناطقون بالحق عن الحقيقة، والمرشدون إلى سلوك الطريقة، نطقوا بالحكم من بحور تلاطمت أمواجها وثار عجاجها، فاستقرت درر التوحيد في مروجها، ولاحت الأنوار على ساحاتها، وانبسطت

---

(١) التيه: اسم الصحراء الواقعة على الحدود المصرية الفلسطينية، داخل شبه جزيرة سيناء، وهو الموضع الذي ضل فيه موسى عليه السلام مع قومه، وهي أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة.
(٢) سبيكة: جمع سبائك، وهي القطعة من الفضة ونحوها، ذوبت وأفرغت في قالب.
(٣) في الرسالة القشيرية ص ١٨٢: ألا تزال على ذلك الضعف من اليقين.

في الأقطار وتشعشعت في الأمصار، فاستخرج منها اللآليء الكبار، أودعوا من العلوم اللدنية[1] جواهر الأسرار، وخرقت لهم الحجب العلوية فارتفعوا إلى معادن الأنوار، واستقروا على بساط الأنس وكشفوا عن سر الأزلية بالأخبار، علت هممهم إلى المراتب العلوية والعلوم الإلٰهية والأنفاس الروحانية، فاتضح لهم العلم المصون، وانكشف لهم السر المكنون، شربت أرواحهم راح المحبة في حضرة القدس فسكرت عند مشاهدة الجمال على بساط الأنس، وحارت في بحار معارف الأسرار، وتنزهت في رياض مطالع الأنوار، فهم الأصفياء المحبوبون والجلساء المقربون، فافهم هذا أيها السائل واصغ إلى ما قال فيهم القائل:

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه	وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري
فما عرسوا إلاَّ بقرب حبيبهم	وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضرِ
همومهم جوالة بمعسكرٍ	بهِ أهل ودّ الله كالأنجمِ الزهرِ

فإن اكتفيت بهذا الجواب ففي مختصره نهاية الإطناب، وإن نحوت إلى المماراة واللجاج وملت إلى البحث والاحتجاج وطلبت زيادة على هذا الجواب المذكور، فعليك بمطالعة كتابي المسمى سراج التوحيد الباهج النور، ففي خاتمته تجد ذلك بعد تقسيم العلوم المحمود منها والمذموم، وها أنا أشير هاهنا إلى شيء مما ذكرته من ذلك هناك.

اعلم: أن العلماء إنما يشرفون على قدر شرف علومهم، وشرف العلوم على قدر شرف متعلقاتها؛ فعلوم المعارف المتعلقة بالله تعالى وأسمائه وصفاته أشرف العلوم وأصحابها أشرف العلماء، وبعدها علم الفقه لتعلقه بأحكام الله تعالى وشرعه الذي تعبد به عباده.

واعلم أن جميع العلوم وسيلة إلى هذين العلمين المشتملين على معرفة الله تعالى ومعرفة عبادته، لأن الخلق إنما خلقوا لمعرفة الله وعبادته، كما قال عز وجل: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: ٥٦] ثم العابد مفتقر إلى معرفة المعبود ومعرفة كيف يعبده؟ وقول بعض المفسرين: معنى يعبدون يعرفون، فلذلك أيضاً يتضمن العبادة، لأن من عرف الله تبارك وتعالى عرف وجوب عبادته وطاعته.

إذا علم هذا فاعلم أن معرفة كثير من العلوم وسيلة إلى معرفة علم الله تعالى ومعرفة علم الفقه وسيلة إلى معرفة العمل، ومعرفة العمل وسيلة إلى العمل، والعمل وسيلة إلى طاعة الله تعالى والقرب منه سبحانه، وذلك هو المقصود، فمن استعمل هذه الوسائل على وجهها المراد منها وصل بها إلى المقصود، فظفر بغاية المراد ونهاية الشرف المحمود، ومن جعل مقصوده بعض الوسائل كمن اتخذ علماً ليماري به ويجادل واشتغل به عن المقصود فهو الجاهل لأن العالم في الحقيقة هو العامل، فيا خسارة من باع منا آخرته بدنياه بادلاً الجواهر بالنحاس ويا ويح من ضيع منا أوقاته وأنفاسه النفاس، ويا خيبة من أفنى منا عمره في التشدق بكثرة الفضول والمراء والجدل، خالياً من خوف الله تعالى

(١) العلم اللدني: علم رباني يصل لصاحبه عن طريق الإلهام.

والعلم النافع والعمل، ويا مصيبة من عد منا نفسه من جملة العلماء أولي الألباب، وليس يدري هو معدود منهم أو من المشبهين بالحمار والكلب في فص الكتاب، القانعين من العلم بالقشر الخالي عن اللباب، المعرضين عن اكتساب الخيرات المتعرضين للمقت والعقاب، نعوذ بوجه الله الكريم من مكره وسخطه وعذابه الأليم.

واعلم أن علوم المعارف التي ذكرت أنها أشرف العلوم، هي علوم لا تنال بالكسب، وإنما تنال بالوهب؛ فهي أفضل العلوم وأصحابها أفضل العلماء، فإن كنت ممن ينكر ذلك وتقول لا نسلم، وما الدليل على ذلك؛ وكيف صفة هذه العلوم؟ فاعلم أنني وأنت ممن لم تلح له أنوار تلك الحضرة، ولم نشرب من راح الهوى ولم نشم هنالك رائحة الخمرة، وممن لم يكن لمشاهدة تلك المشاهد حضر، واستغنى بالعيان عن الخبر، وممن يحق له أن يعظم أسفه ويطول؛ وينشد طول دهره ما أقول:

فيا أسفا يا حسرتنا يا مُصيبتا ... ويا ضيعة الأعمار سوق المواسمِ
كما لم نكُن كالغير أهلا لقربه ... لقد فاتنا كل المنى والمكارمِ
نموتُ ولم ننظر جمال جلالهِ ... ولم ندر طعم الحب مثل البهائمِ
فلو شاهدتْ ذاكَ الجمال عيوننا ... سكرنا وغبنا عن جميع العوالمِ
وملنا نَشَاوى من شرابِ محبةٍ ... وباحَ بمكتومِ الهوى كلَ كاتمِ
ونحي حجاباً عن عجائب قدرة ... ونور وأسرار وطيب تنادمِ
فما العيشُ إلآ ذاك لا عيش عزة ... وسلمى ولا ليلى ولا أم سالمِ
وذلكَ فضلُ الله يؤتيهِ من يشا ... ويرجى لعبدٍ قارع الباب لازمِ

فأما ما طلبت من الدليل فأقول وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل: الأدلة على ذلك كثيرة، وأقتصر منها على ستة: ثلاثة من المعقول، وثلاثة من المنقول. الدليل الأول من المعقول: أن العلوم والمعارف اللدنية يخص بها الولي والصديق، والعلوم الظاهرة ينالها الصالح والزنديق. قال الإمام شيخ الإسلام أستاذ الطريقة الجامع بين علمي الشريعة والحقيقة السيد الجليل الإمام الحفيل العارف بالله تعالى شهاب الدين السهروردي قدس الله تعالى روحه في كتابه العوارف: وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يبعد تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى، وربما كان محبته الدنيا عوناً على اكتسابها، لأن الاشتغال بها شاق على النفوس، فجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة، حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم، أجابت إلى تحمل الكلف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعذر الملاذ والشهوات، وعلوم هؤلاء القوم: يعني الصوفية لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى، ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى، قال الله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [البقرة: ٢٨٢] انتهى كلامه. والدليل الثاني: أن فضل العلم عن قدر انتفاع صاحبه ونفعه الغير به، ولا شك أن العارفين بالله تعالى هم الذين انتفعوا ونفعوا حقاً وصدقاً، وبيان انتفاعهم ونفعهم إذا بسطناه احتجنا إلى تصنيف كتب كثيرة، ويكفي من ذلك نبذة يسيرة؛ فيكفي من انتفاعهم تطهير قلوبهم وتزكية نفوسهم، حتى امتلأت قلوبهم بمحبة الله تعالى،

فأقبلوا على الله وأعرضوا عما سوى الله، وسلموا نفوسهم لله، ولم يختاروا غير ما اختار لهم الله، وتلذذوا ببلاء الله، وسكروا بمحبة الله، وغابوا عما سوى الله، ونحن سكرنا بمحبة الدنيا، وغفلنا عن المولى تعالى. وأما نفعهم للغير فبهم يغيث الله تعالى العباد في جميع البلاد ويدفع بهم، وإلا لفسدت الأرض لظهور الفساد، ويوجد بهم إقامة الدين وقضاء حوائج المسلمين، ويرشد بهم المريدين إلى السلوك في مقامات الدين والقرب من رب العالمين، والبعد عن الغفلة والفسوق واستحواذ الشياطين، وصدور النفع عنهم قد بلغ في الكثرة والشهرة مبلغاً خارجاً عن الحصر والتعداد، مغنياً عن الاستدلال والاستشهاد، ويكفي مما جاء عنهم من الحكايات بصحيح الروايات الصادرات عن العيان والمشاهدات، والمستفيضات في الكثير من الجهات، ما أخبرني الشيخ الصالح محمد بن سعيد النجار رحمه الله تعالى في أرض اليمن، أنه مر يوماً في بعض شوارع زبيد في أيام بدايته، فوقع بصره على امرأة عند بابها، فافتتن بها واستزله الشيطان، فدخل إليها وهمّ بها، فسمع شيخه الشيخ العارف بالله تعالى الولي الكبير الفقيه العالم شيخ شيوخنا أبا محمد بن عبد اللّه بن أبي بكر الخطيب قدس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه، يقول له وهو في عدن: هكذا تفعل يا محمد، فذهب عنه رجز الشيطان وخرج هارباً عاقلاً بعد أن كان كالسكران، وأدركه الله تعالى بلطفه وسلمه من المهالك، وجعل الشيخ المذكور سبباً في ذلك. وكذا جرى لبعض أصحاب السيد الجليل الفقيه الحفيل الشيخ العارف بالله تعالى سفيان اليمني قدس الله تعالى روحه مع امرأة بغيّ في عدن، فلما دنا منها وهمّ بها ما يشعر إلا وقد لطمه الشيخ المذكور على عينه، فرجع عنها يزحف إلى خلفه وهو لا يبصر، ثم أخذ معه من يقوده إلى الشيخ، فلما وصل إليه تكلم الشيخ عليه فقال له: يا سيدي ادع الله تعالى لي أن يرد عليّ بصري وأنا تائب إلى الله تعالى، فقال له الشيخ: أنا أدعو لك برد بصرك، ولكنك ما تموت إلا أعمى، فقال رضيت، فدعا له فرد الله تعالى عليه بصره إلى أن بقي من عمره ثلاثة أيام ثم عاد إليه العمى، فمات أعمى رحمه الله تعالى.

قلت: وهذه القضية تضمنت خمس كرامات للشيخ المذكور: الأولى إطلاع الله تعالى له على حال المريد في وقت المعصية. والثانية لطمه له مع البعد عنه. والثالثة حفظ الله تعالى له ببركته. والرابعة قبول شفاعته فيه في قبول توبته وردّ بصره.

والخامسة إطلاع الله تعالى له على عود العمى إليه قبل موته. وفي القضية التي قبلها ثلاث كرامات: الاطلاع، والحفظ، وبلوغ الصوت نحو عشر مراحل.

وكذلك جرى لبعض أصحاب شيخ الشيوخ أبي الغيث اليمني المتقدم ذكره في الفصل السادس، وذلك أن صحبه بعض الفقراء من بعض بلاد العجم البعيدة فأقام عنده مدة ثم أمره الشيخ بالعود إلى بلاده فعاد، فلما كان بعض الأيام أزله الشيطان فدخل إلى امرأة وهمّ بها. وكان ذلك بعد صلاة العصر، فضربه الشيخ أبو الغيث بقبقابه بعد زجر وغضب وهو في مكانه في اليمن وأصحابه يسمعون كلامه وينظرون ضربه ولا يدرون من كلم وضرب، فترخوا ذلك الوقت وفقدوا قبقاب[1]

(١) القَبْقاب: نعل من خشب لها سير من جلد ونحوه، يشدها في القدم (ج) قباقيب.

الشيخ الذي ضرب به فوقع الضرب في ظهر الفقير فارتدع عن المعصية وسلمه الله تعالى منها ببركة الشيخ، فعرف قبقاب الشيخ وجاء به بعد مدة من مسيرة أشهر إلى الشيخ قدس الله تعالى روحه تائباً من ذلك، وأخبر بما جرى له مع المرأة والضرب بالقبقاب، فوافق ذلك الوقت الذي ضرب الشيخ بقبقابه.

قلت: وفي هذه القضية أيضاً ثلاث كرامات: اطلاع الشيخ، وبلوغ ضربه إلى مسيرة أشهر، وحفظ صاحبه.

وكذلك روي مسنداً في كتاب مناقب القطب شيخ الشيوخ الأكابر إمام الطريقين ومقدم الفريقين، الجامع بين علمي الباطن والظاهر وشر في الولاية والنسب الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه، أنه توضأ في قبقاب له وصلى ركعتين في بعض الأيام فلما سلم صرخ صرخة عظيمة ورمى بفردة من قبقابه في الهواء فغابت عن أبصار الحاضرين، ثم صرخ صرخة أخرى ورمى بالأخرى كذلك، ولم يجسر أحد يسأله عن ذلك، ثم بعد ثلاثة وعشرين يوماً قدمت قافلة من بلاد العجم وجاؤوا بنذر للشيخ حرير وثياب خزٍ وذهب، وبقبقاب الشيخ الذي رمى به، فسألهم أصحاب الشيخ عن خبر القبقاب فقالوا: بينما نحن سائرون في اليوم الفلاني وذكروا اليوم الذي رمى الشيخ فيه بالقبقاب، إذ خرج علينا عرب لهم مقدمان، فانتهبوا أموالنا وقتلوا منا ونزلوا وادياً يقتسمون أموالنا، ونزلنا على شفير[1] الوادي فقلنا: لو ذكرنا الشيخ عبد القادر فنذرنا له شيئاً من أموالنا إن سلمنا، فما هو إلا أن ذكرناه فسمعنا صرختين ملأتا الوادي ورأيناهم مذعورين، فظننا أن قد جاءهم عرب، فجاء إلينا بعضهم وقالوا: تعالوا خذوا أموالكم وانظروا ما قد دهمنا، فأتوا بنا إلى مقدميهم فوجدناهما ميتين، وعند كل واحد منهما فردة من هذا القبقاب مبتلة بماء، فردوا علينا أموالنا وقالوا: إن لهذا الأمر نبأ عظيماً.

وكذلك روي أن المولى الكبير الفقيه الشهير ذا المناقب الحميدة والكرامات العديدة إمام اليمن وشمس الزمن، ذا المجد الأثيل، أحمد بن موسى بن عجيل رضي الله تعالى عنه رمى يوماً بفردة من قبقابه، فجاء بها بعض أصحابه من بلاد بعيدة، وذكر أنه كان نوى نية غير صالحة فرمى بها، فعرفها السيد المذكور فاستغفر الله تعالى وتاب عن تلك النية، وجاء بالفردة إليه.

وكذلك القضية المشهورة للأستاذ سيد الطائفة الجنيد رضي الله تعالى عنه في توبته عن المريد الذي اسود جسمه بمجرد نظر وحديث نفس صدر منه في الصلاة، فابيض جسمه لما تاب عنه، وكان المريد في بلاد بعيدة، فلما قدم على الجنيد قال له: لولا أني تبت عنك لبقيت بذلك السواد إلى أن تلقى الله. ومن أمثال هذا ما يطول ذكره بل يتعذر حصره لتعذر الإحاطة بما صدر عنهم في جميع الآفاق، وقد قال بعضهم: لا يكون الشيخ شيخاً حتى يمحو خطيئة تلميذه من اللوح المحفوظ. وقال آخر منهم منكراً لهذا القول المذكور: لو كان شيخاً ما غفل عن تلميذه حتى وقع في الخطيئة.

---

(١) شفير الوادي: جانبه وحرفه وناحيته من أعلاه.

قلت: وقد كان بعض الكبار لا يصحب أحداً حتى يعرف حاله من اللوح المحفوظ فجاء إنسان يطلب منه الصحبة وخدمة الفقراء في بعض الوظائف، فأطرق الشيخ ساعة ثم رفع رأسه وقال له: ما بقي عندنا وظيفة، فقال: يا سيدي لا بد أن تفكر لي في خدمة، فقال ما عندنا خدمة إلا إن كنت تقدر تذهب كل يوم تأتي بحزمة من الحلفاء فقال نعم يا سيدي، فصار كل يوم يأخذ محشار ويأتي بحزمة منها، فلما كان بعد مدة أوجعته يده فرمى بالمحش وترك الفقراء وذهب، فبينما هو في بعض الطريق رأى في منامه كأن القيامة قد قامت والناس يجوزون على الصراط، فمنهم الناجي ومنهم الواقع في النار نسأل الله تعالى السلامة، فلم يقدر يجوز وبقي في خطر عظيم يكاد يقع فيها، فطلب شيئاً يستمسك به فلم يجد، فبقي متحيراً مشرفاً على الهلاك وإذا بحزمة من حزم الحلفاء تحته في النار مارة عليها فرمى بنفسه فوقها فمرت به حتى أخرجته منها ناجياً بلطف الله تعالى، فاستيقظ مرعوباً من هول ما رأى، فرجع إلى الشيخ فلما وقع بصر الشيخ عليه قال له: ما قلنا لك ما عندنا خدمة تصلح لك سوى الحلفاء، فاستغفر الله سبحانه وعاد إلى ما كان عليه وصبر على ذلك رضي الله تعالى عن جميع الصالحين ونفعنا بهم، فنفعهم اللازم صار متعدياً إلى هذا النفع العظيم الذي نفع غيرهم بالنسبة إليه حقير. فكم أصلح الله تعالى بالواحد منهم من فساد، وكم أغاث به من العباد، وكم أحيا ببركته من البلاد، وكم كشف به عن الخلق من بلاء وكم أنالهم به من عطاء، فنفع غيرهم إذا صحت فيه النية كالمثقال، ونفعهم كأمثال الجبال.

والدليل الثالث أن معرفة العبادة ليس فضلها كفضل معرفة المعبود، ولست أعني بمعرفة المعبود المعرفة العامة المشتركة التي هي العلم في لسان علماء الظاهر، إذ عندهم كل علم معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم عارف، وكل عارف عالم ولكني أعني المعرفة الخاصة المختص بها الخواص أرباب المشاهدة، وهي عند القوم اجتماع أوصاف عزيزة في عبد اصطفاه الحق سبحانه وتعالى، ثم تكلموا فيها وأشاروا إليها بعبارات مختلفة، ومعاني مؤتلفة.

وإلى ذلك أشار الإمام الأستاذ القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه حيث قال[1]: المعرفة عند القوم من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله تعالى في معاملاته، ثم تنقي عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم أطال بالباب وقوفه، وأدام بالقلب عكوفه، فحظي من الله تعالى بجميل إقباله، وصدق الله تعالى في جميع أحواله، وانقطع عن هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الحق أجنبياً، ومن آفات نفسه برياً، ومن المساكنات والملاحظات نقياً، ودام في السر مع الله تعالى مناجاته، وحق في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثاً من قبل الحق سبحانه بتعريفه أسراره فيما يجري من تصاريف أقداره، سمي عند ذلك عارفاً، وتسمى حالته معرفة.

وقال أيضاً: المعرفة اتصال بصائر التعريف بيقين العلم، فإذا اتصل بيقين العلم دوام المناجاة مع الله تعالى بالقلب، وحصل من الله سبحانه التعريف على دوام الأوقات باختلاف الحالات، فعند

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣١١ ـ ٣١٢.

ذلك تظهر أنوار المعرفة، وإذا تجرد العلم واتضحت البراهين وانتفت الشكوك بالكلية، وحصل ثلج الفؤاد وبرد اليقين لا يسمى العبد في هذه الطريقة عارفاً حتى يحصل بينه وبين الله تعالى أحوال زائدة على العلم من فنون الكشوفات وصنوف التعريفات وتحديث الحق تعالى مع العبد من غير سماع نطق بالجهر، والعارف يبدو في قلبه في ابتداء التعريف لوائح ثم لوامع ثم كشوفات وبصائر أنوار وطوالع، فالعارف كأنه يخاطبه الحق سبحانه بكل شيء، ويلقي إليه كل خطاب، ويعوده في كل وقت بنوع تعريف ومكاشفة، وفي كل حال يسر، ثم من صفة العارف أنه لا يخلو من أحوال معلومات منها المحبة، ومنها التعظيم والهيبة، ومنها الأنس والقربة، ومنها الحياء والغيبة. وإذا تحقق في ابتداء طلبه بدوام المراقبة وصل إلى المشاهدة والمراقبة علمه بأن الله يراه ويعلمه على دوام الأوقات، ثم أنوار تلوح في القلب، والمشاهدة غلبة نور الحق على القلب، وانتفاء إحساسك بك، وذكرك لك وخبرك عنك، فتكون مختلفاً عن جملتك باستيلائه عليك، فكلما زاد شهودك له زادت أجنبيتك عنك وعن الكون بالجملة، وإذا طلعت شموس العرفان استهلك في ضيائها نجوم العلوم كما قيل:

ولمـا استنـار الصبـحُ أدرجَ ضـوءُه ... بـأسفـارهِ أنـوار ضـوء الكـواكـبِ

انتهى كلامه.

قلت: فلما استولى على قلوبهم سلطان المعرفة خضعوا لصفات الربوبية، وتحلوا بصفات العبودية، وخرجوا لله تعالى عن نفوسهم بالكلية، فرضوا بكل مقدور، وصبروا على كل بلية، بل تلذذوا بأنواع البلاء وعدوه من جملة العطايا السنية.

والدليل الرابع وهو الأول من المنقول قوله عز وجل: ﴿**وعلمناه من لدنا علماً**﴾ [الكهف: ٦٥] وقول موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿**هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً**﴾ [الكهف: ٦٦] و﴿**ستجدني إن شاء الله صابراً**﴾ [الكهف: ٦٩] الآية، مع كون الخضر عليه السلام ولياً لا نبياً على الصحيح الذي اختاره جمهور العلماء، وقطع به جميع الأولياء العارفين بالله تعالى وكون موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام أفضل منه بلا خلاف، ومفضلاً عليه بالنبوة والرسالة والتكليم، ومع هذا رحل إليه والتمس منه الصحبة والتعليم، فأطلعه الله تعالى على علوم غامضات وأمور عجيبات، في ضمنها آيات باهرات وكرامات ظاهرات.

والدليل الخامس وهو الثاني من المنقول، ما ورد في فضل أويس القرني(١) رضي الله تعالى عنه وكونه أفضل التابعين في بعض روايات صحيح مسلم، مع ما في التابعين من العلماء الكبار، وهو

---

(١) هو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني (توفي ٣٧ هـ/ ٦٥٧ م) من بني قرن بن ردمان بن ناجية بن مراد، أحد النساك العباد المقدمين، من سادات التابعين. أصله من اليمن يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي ﷺ ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة، وشهد وقعة صفين مع علي، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها. الأعلام ٢/ ٣٢، وابن سعد ٦/ ١١١، وتاج العروس ٤/ ١٠٢، وابن عساكر ٣/ ١٥٧، وميزان الاعتدال ١٢٩، وحلية ٢/ ٧٩.

لشغله بالله وولهه بمحبة ينسبه إلى الجنون كثير من الأشرار وقد نوه بشرفه وفضله ﷺ في الأخبار المشهورات في جميع الأمصار.

والدليل السادس وهو الثالث من المنقول: ما روي عن جماعة من كبار علماء الظاهر أنهم وافقوا علماء الباطن على تفضيل علم العارفين بالله تعالى وهو علم الباطن على علم الظاهر، ومن جملة الجماعة المذكورين الفقيه الإمام مفتي الأنام رفيع المقام عز الدين بن عبد السلام رضي الله تعالى عنه، صرح بذلك في بعض تصانيفه، أعني تفضيل العارفين بالله تعالى.

وكذلك ما اشتهر عنه أنه حضر هو والشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه وجماعة من العلماء في بعض المجامع، فتكلم جماعة العلماء في حال قراءة رسالة الشيخ الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه والشيخ أبو الحسن المذكور ساكت، فالتمسوا منه الكلام فتكلم بالحكم والمعارف المشتملة على الأسرار واللطائف، فقال الشيخ عز الدين المذكور: إسمعوا إلى هذا الكلام العجيب الغريب القريب العهد بربه، وصار يزحف إلى خلفه حتى بعد عن صدر المجلس إلى الباب.

وكذلك ما اشتهر عن جماعة من علماء الباطن العارفين أنه امتحنهم علماء الظاهر بمسائل دقيقة، فأجابوا عنها بأجوبة فائضة من بحر علوم الحقيقة، في قلوب فاضت عليها الأنوار، فصارت معادن الأسرار، فتحير من تلك الأجوبة أصحاب السؤال واعترفوا لهم بعلو الشأن وعظيم النوال، وثنوا العنان عن ميدان الانتقاد إلى ميدان الاعتقاد، من ذلك قضية الأستاذ أبي القاسم الجنيد مع عبد اللّٰه بن سعيد بن كلاب[1] لما سأله عن التوحيد، وقضية الشيخ أبي بكر الشبلي لما سأله الفقهاء أصحاب الفقيه أبي عمران عن مسألة في الحيض، وقصدوا إخجاله؛ وقضية الشيخ أبي الحسين النوري لما ألقى عليه القاضي مسائل فقهية، وغير ذلك مما هو في التصانيف مسطور وعنهم مشهور، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وكذلك ما اشتهر في بعض بلاد اليمن أنه لما غاب الفقيه محمد بن حسين البجلي في بعض الأيام درس أصحابه الشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي رضي الله تعالى عنهما مع كون الحكمي أمياً؛ فشرح لهم شرحاً شارحاً للصدور، ظاهراً في خلاله النور؛ وإلى شرف علمهم المشكور، أشار الأستاذ الإمام المشهور، سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه حيث قال: لو علمت أن تحت أديم السماء علماً أشرف من علمنا هذا لسعيت إليه وقصدته.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله تعالى شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه وقد ورد

---

(١) هو عبد اللّٰه بن سعيد بن كلاب (توفي ٢٤٥ هـ/ نحو ٨٦٠ م) أبو محمد القطان، متكلم من العلماء. يقال له: ابن كلاب. قيل: لقب بها لأنه كان يجتذب الناس إلى معتقده إذا ناظر عليه كما يجتذب الكُلاب الشيء. له كتب منها «الصفات» و«خلق الأفعال» و«الرد على المعتزلة» الأعلام ٤/ ٩٠، والطبقات الصغرى للسبكي. وابن النديم ١٨٠

في الخبر «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي»[1] والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين، وقد يكون العبد عالماً بالله سبحانه ذا يقين وليس عنده علم من فروض الكفايات؛ وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم، يعني من بعض الصحابة. قال: والعلماء الزاهدون بعد الأخذ مما لا بد لهم منه، يعني فرض العين، أقبلوا على الله تعالى وانقطعوا إليه. وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنواراً تهيأت بها لإدراك العلوم، وصار العلم الرباني راسخاً في العالم.

قلت: ومن فضل العلم بالله تعالى الذي هو علم الباطن على علم الظاهر قال بعضهم كم ممن يشق الشعرة بعقله لو اختل من مزاجه ذرة اضطرب إيمانه، وآخر رأسه بين ركبتيه لو وقعت السماء على الأرض لم يرفع رأسه، يعني لقوة يقينه وكمال معرفته بالله تعالى، وصدق توكله على الله، وعلمه بأن مصرفات الحق في جميع مقاديره كلها حق متحققاً بقول الله تعالى: ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ [التوبة: ٥١] وبقوله ﷺ: «ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»[2] وقوله ﷺ «جف القلم بما هو كائن»[3] وقال بعضهم: العالم به يقتدي؛ والعارف به يهتدي.

وقال الشيخ الكبير السيد الجليل بحر الحقائق أبو الغيث بن جميل رضي الله تعالى عنه: إن الغرباء أهل العلم والإيمان في السموات والأرض حمالة علم الله المضنون به على غير أهله كبار خلق الله أينما كانوا. قال ولم يزل العقل يوافق الأشباح بعلمه وعلمه، فإذا ما ارتعى من ثمار جنة المأوى، وشرب من ماء عين اليقين المصفى بنار الفقر، رد العقل روحاً يصول بطبع الحياة فرضاً، وحينئذٍ يفارق الأشباح وأوصافها قطعاً، ويسجد الوجه عند رؤيته نعمة الله شكراً، ولم يزل سبحانه يبدىء ويعيد ويحيي الموتى حقيقة وشرعاً. وقال: من ذاق طعم الأنس بالله تعالى نسي إساءته وإحسانه، ومهما بقي الحس ومدركات الحس فالعقل هنا مخبول[4]، وإذا لم يبق حس ولا محسوس صحا

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٦٨٥)، والدارمي في (السنن الكبرى ١/ ٧٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ٢٧٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ٢٥١)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٥٣٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ١٠١)، والشجري في (الأمالي ١/ ٥٣، ٥٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٧٩، ٧/ ٢٥٧، ٨/ ٤٠١، ٤٠٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧، ٣/ ٢٢٠)، والقرطبي في (التفسير ٨/ ٢٩٦)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢١)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ١/ ٦٩)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ٥٢٦).

(٢) أخرجه البغدادي في (موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ١٨٤).

(٣) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ١١/ ٢٢٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٢٢٦، ١٠/ ٥٢١)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٦٦)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٧٦)، وابن كثير في (التفسير ٧/ ٦٣، ٥٢٢).

(٤) الخَبَلُ: فساد العقل.

العقل من خباله حقاً، وبرأ من خسة علة اختباله، ولا شك أن سلطان العقل يقاتل حزب الشيطان في ليل طبع الغافلين ظاهراً بعلم الشريعة فرضاً، وسلطان القلب يقاتل حزب الشيطان في ليل طبع الغافلين، أو قال العاقلين بالقاف، باطناً بنور على اليقين فرضاً، وخواص جنود حزب الله تعالى يقاتلون جنود الأحزاب كل بنور شمس العلوم إلى أن يبقى الله سبحانه كما لم يزل، وهم كما لم يكونوا سرمداً[1] بحكم الصورة. وقال إن الحس والمحسوس حجاب عن الله تعالى، فإذا ظهر سلطان حب الله بنور نار حياة القلب بالله أحرق حراريق الهوى بنار سلطانه الذي لا يقدر أحد منا يتقيه بحال. وقال: كل خيال نقاب لوجه الأمر الغريزي، والأمر الغريزي نقاب بحلال جمال سبحات وجه الله الكريم فرضاً، لئلا يبرز من ذلك الجلال ذرة، فلا يبقى أحد من الثقلين[2] ولا من سواهما يعرف لله طاعة ولا عصياناً.

قلت: هذا الكلام والذي قبله كلام عظيم عزيز شريف في غاية الحسن والتحقيق والمعنى الدقيق، وقوله لا يعرف لله طاعة ولا عصياناً يظهر لي فيه احتمالات: أحدها الإشارة إلى الفناء الكلي، واصطلام[3] الحس والمحسوس، وفقدان وجود جميع الوجود لاستيلاء سلطان جلال الجمال في حالة الشهود، فلا يشعر حينئذٍ بطاعة ولا معصية، ولا مطيع ولا عاص. والاحتمال الثاني إن شهد القدر سائقاً للمقدور بسوط القضاء المبرم، وقائداً له العلم السابق بزمام الحكم المحكم، فصار مزعجاً بالخروج إلى حيز الوجود من حيز العدم، واقعاً لا محالة بقدرة الملك القادر، وإيجاد خالق كل شيء العزيز القاهر المهروب منه إليه، المستعاذ به منه سبحانه وتعالى إليه.

قلت: وإذا فهم هذا فهم قوله: إذا طلعت شمس من أفق قبلية الغيب إلى الأفق الأعلى أخذ كل من الأفق الأدنى نصيبه من شعاعها، وليس كل مدرك بالحس هو هي، فأما إذا طلعت من كل مكان، وانتفت رؤية التعاقب عنا يقيناً، لم يبق ليل ونهار، ولم يبق كفر ولم يبق إسلام قطعاً، ووجب حينئذٍ ظهور الشيء الذي حالت بيننا وبينه الأحوال، وكثرة المقالات والأفعال، كما يحول السحاب يقينا، فإذا لم يبق ثم حائل ظهر الشيء الذي لا يشبهه شيء، وغبنا عنا وصرنا كالنجوم عند طلوع الشمس، لا غياب بشرط الفناء، ولا حضور بشرط البقاء، فإن كنت هاهنا رأيت ما رأينا، وإن لم تر شيئاً فكن حجراً صماً يدق بك النوى.

وقال: كل عالم معلمه اللّه سبحانه يجب عليه تعليم الخلق مما علمه الله تعالى بلا علة ويعمل لله لا بعلة ولا لعلة إجلالاً وتعظيماً لجلال جمال سبحات وجه الله العلي الكبير. قال وإذا اختلط ماء الأمطار بماء البحر كان منه الدر واللؤلؤ والياقوت الأحمر قطعاً.

قلت: يحتمل أنه إذا اختلط ماء أمطار غيث الفضل المنهمل من سحائب الجود عند مشاهدة

---

(١) السَّرْمَدُ: الدائم الذي لا ينقطع.
(٢) الثَّقَلان: الإنس والجنّ.
(٣) اصطلم: استؤصل.

الجمال، وشرب كؤوس الوصل بماء بحر توحيد القلوب المنورة الطيبة الزكية المطهرة، يكون من ذلك المطر والمعارف ولؤلؤ العلوم وياقوت الحكم الأحمر، ويحتمل إذا اختلط ماء أمطار العلوم الباطنة بماء بحر العلوم الظاهرة في ظروف القلوب الطاهرة.

وقال: إن عبيد الهوى حلالاً وحراماً عبيد لمن يملك الهوى يقيناً في صحيح الفقر قطعاً.

قلت: يعني أن من صار حراً من رق الهوى ملك الهوى وملك جميع مماليكه، سواء كان ذلك الهوى حلالاً في الشرع أو حراماً لأن العبد وما ملك ملك لمالكيه؛ ومعنى ذلك أن الأحرار من رق هوى نفوسهم، نسيت موتها وحيت قلوبهم، سادات لكل من لم يتخلص من رق هوى نفسه التي ملكته بشهواتها، فمهما بقي عليه من صفاتها بقية فهو ملك لها لأن المكاتب قن ما بقي عليه درهم، فالحر من رقها من جميع الوجوه المتخلص من أسر شهواتها حلالاً وحراماً عزيز جداً، ولهذا قال قائلهم:

أتمنى على الزمانِ محالاً   أنْ ترى مقلتاي طلعةَ حرِ

قلت: فجميع هذه الأوصاف المشكورة في هذه الأقوال المذكورة إنما هي أوصاف علماء الباطن العارفين بالله تعالى، ومما يدل أيضاً على فضلهم وفضل علمهم وطريقتهم ما ثبت بالروايات الصحيحات الإسناد في سيرة الشيخ الكبير العارف بالله تعالى اليمني الصياد رضي الله تعالى عنه أنه قال: كان الفقهاء يقولون لي في أيام البداية يا صياد لو عبد الجاهل ربه حتى يتقطع إرباً إرباً[(١)] لم يزدد من الله إلا بعداً، فأبكي بكاء شديداً. فأرى الخضر عليه السلام فيقول لي: يا صياد إن الله تعالى يقول: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] فالعلماء كل من يخشى الله سبحانه.

قال: كانوا يقولون لي: اقرأ في الفقه وارقد الليل وكل بالنهار، فهو خير لك مما أنت عليه، فأبكي بكاء شديداً فأرى الخضر عليه السلام فيقول لي: يا صياد إن الله تعالى قال: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ [آل عمران: ٧٤] ولم يقل من قرأ وقال تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال: وأعطوني مرة ثوباً أبيض وأمروني أن أغتسل غسلاً نقياً زائداً، وقالوا سبع مشعلك يعنون الركوة، اغسلها سبع مرات بالماء، ففعلت ذلك فرأيت الخضر عليه السلام فقال: يا صياد دع هذا والبس خرقك وتخرق، فإنهم لا يعرفون الطريق إلى الله تعالى؛ فرميت الثوب ولبست خرقي وتغبر بالتراب، فضحكوا عليّ ثم ذكر كلاماً كثيراً ومراجعات طويلة بينه وبينهم، وأن الخضر عليه السلام قال له لما أكثروا عليه الحق بالخبث، يعني البرية، ودع عنك قول قطاع الطريق عن الله تعالى، يا صياد جاهد في الله تعالى، فإن الله سبحانه يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ [العنكبوت: ٦٩] قال: فلما فتح الله تعالى عليَّ بالفتوح، استوفيت من جميع أصحابي؛ يعني الذين كانوا يضحكون عليه، وذكر أن الفقهاء سلموا له العلم وقالوا: يا صياد لقد غلبتنا عامياً وعالماً، وسلم له المشايخ؛ وتبعه أكثر الذين كانوا يرمونه بالحجارة من الصبيان، وكشف للعامة

---

(١) الإرْبُ: العضو الكامل. يقال: قطعه إرباً إرباً، أي: عضواً عضواً (ج) آراب، وأرآب.

الذين كانوا يستخرون منه عن أحوالهم: فقالوا: والله يا صياد لقد فضحتنا وبينت عيوبنا ما كان لنا لك.

قال ثم أمرت بصحبة المريدين، فصحبني جمع كثير قدر ألفين أو ثلاثة آلاف رجل، ونالوا خيرات كثيرة، وكنت إذا وصلت إلى قرية مطرت مطراً شديداً ونزل بأهلها البركة والرحمة، وتبعني أكثرهم، ولما حججت دخلت مسجد الخيف[1] فإذا بشاب يتكلم ويقول: من أحب أن يسأل عن المعرفة فليتقدم، فلقد رأيت الشاب جاز المسجد وهاب الخلق منه وأنا قاعد على أطمار رثة، فنظرت إلى الشاب فإذا هو غير عارف، فتقدمت إليه فقلت له: هل الأماكن مستوية عندك؟ فقال: لا، فقلت له: استحي من الله تعالى وتب. ثم ذكر أن الشاب سأله عن مسائل فأجابه، فقام الشاب إليه وقبل رأسه، ثم التفت إليه الفقيه الإمام العالم ابن أبي الضيف رضي الله تعالى عنه ومعه جماعة وقالوا: أحسنت يا صياد، والله ما علمنا أن معك هذه المعرفة وهذا العلم كله.

قال: ووفد علينا في مكة رجلان من سادات العارفين عليهما هيبة وجمال فسألني أحدهما عن أشياء فأجبته، فقال: صدقت، ثم قال: يا شيخ أخبرنا عن المعرفة، فقلت: المعرفة وجود تعظيم في القلب يمنع الشخص عن الانقياد لغير معروفه، فصاحا عند ذلك وخرا مغشياً عليهما ساعة طويلة ثم أفاقا.

وقال تلميذه الشيخ العارف إبراهيم بن بشارة رضي الله تعالى عنهما: بينما نحن ذات يوم مع الشيخ العارف أبي العباس أحمد بن أبي الخير الصياد، إذ دخل علينا القاضي الأجل أبو بكر بن أبي عقامة، فتحدث مع الشيخ ثم أقبل بوجهه على الجماعة، ثم ذكر كلاماً مختصراً أنه قال: اشهدوا على شهادتي أن هذا الشيخ مر عليَّ وأنا في جماعة، فقام الجماعة له وقمت موافقة لهم، ثم ذهب فقلت لهم: أتقومون لرجل عامي لا يعرف شيئاً من العلم والقيام لا يكون إلا للعلماء؟ ولو سئل هذا عن مسألة الغزالي في البسيط والوسيط في الطهارة لم يعرفها ولا قدر يجيب عنها، فرجع الشيخ بعد أن غاب عنا ولم يقم منا أحد، فلما وصل إلينا قمنا له، فقال اقعدوا، ثم قال: يا قاضي كأني ببعض الناس يقول: أتقومون لرجل لا يعرف شيئاً من العلم، وذكر الكلام المتقدم في ذكر المسألة ثم قال: والله إني لأفهمها وهي كذا وكذا، وقرأها من أولها إلى آخرها قال القاضي: اشهدوا عليّ بهذه الشهادة. قال الراوي: فتبسم الشيخ.

قال: وأخبرني بعض الصالحين أنه دخل هو وجماعة مسجد الفازة. قلت: هو بالفاء والزاي مسجد مبارك مشهور بساحل زبيد[2]. قال: فوجدوا الشيخ الصياد قاعداً فيه وشاب قاعد معه في أول ما أمر بصحبة المريدين، قال: فقلنا له يا صياد هذا تلميذ لك، فسكت، فقلنا للشاب هذا شيخك؟

---

(١) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من مِنىً. (معجم البلدان ٢/ ٤١٢).

(٢) زبيد: اسم واد به مدينة يقال لها: الحُصيب ثم غلب عليها اسم الوادي فلا تُعرف إلا به، وهي مدينة مشهورة باليمن. (معجم البلدان ٣/ ١٣١).

فقال: نعم، فقلنا له من طريق الإدلال عليه وقد صار لك يا صياد مريدون، فغضب غضباً شديداً ثم قال: نعم هو تلميذ لي فقال بعضنا: إن كان لك تلميذ فمره يمشي على هذا البحر بحالك فيأتينا من الجبل الفلاني بحجر وبيننا وبين الجبل مسيرة نصف يوم في البحر إذا طابت الريح، قال: فهاج الشيخ وخرج إلى حجرة المسجد وقال للشاب: اخرج وامش على هذا الماء وائتني بحجر من الجبل في هذه الساعة، قال: فسار الشاب على البحر مسرعاً كأنه على الأرض، فتبعته في البحر أسبح وهو يسير، وأقسمت عليه أن يرجع فلم يرجع، ثم أقسمت عليه بحرمة الشيخ إلا ما رجعت فاستقام قائماً، فناداه الشيخ ارجع، فرجع فندم الجماعة عند ذلك ندماً شديداً، وقبلوا رأس الشيخ واسترضوه، فرضي عنهم رضي الله تعالى عنه.

وقال في وقت: الله إنني لأعرف الجنة قصراً قصراً. وأعرف النار حانوتاً حانوناً، وأعرف أصحابها في الدنيا واحداً واحداً.

وقال أيضاً: كشف لي عن الشمس فرأيت ملكين عظيمين يجرانها على العجلة في الفلك من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق. قال الراوي: فقلت له صف لي الملكين، فقال: ملكان عظيمان لهما كذا وكذا من مخلب لو نظر إليهما أهل الأرض لماتوا، قال: ولم أسأله عن كيفية جريان القمر في الفلك وقال لي: يا أبا إسحاق والله إني لأعرف سدرة المنتهى(١) كما تعرف سدرة بيتكم، وفيها نهران يثجان(٢) بالماء وهو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وذكر أشياء من الآيات والعبر مما لا يحتملها هذا المختصر، وله كرامات عظيمات وأحوال سنيات ومجاهدات شديدات وفضائل عديدات، وسيرة مشتملة على عجائب وغرائب وغوامض علوم من كل سر عن علماء الظاهر غائب قد أسبل عليهم من دونه الحجاب، وكشف للأولياء علماء الباطن العارفين أولي الألباب، كما قدمنا عن الشيخ القرشي رضي الله تعالى عنه أنه قال: العالم من نطق عن سرك، واطلع على عواقب أمرك. وقال أيضاً: الولي يرى الأشياء من وراء حجاب الشرع، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم آمين.

قلت: وقد اقتصرت من فضلهم على هذا القدر، وهو قطرة من بحر، ولله در القائل:

قلـــوبُ العـــارفيـــن لهـــا عيـــونٌ ... تـــرى مـــا لا يـــراهُ النـــاظـــرونَ
وألسنـــة بســـرٍ قـــد تنـــاجـــي ... تغيـــب عـــن الكـــرامِ الكـــاتبينـــا
وأجنحـــة تطيـــرُ بغيـــرِ ريـــش ... فتـــأوي عنـــدَ ربِّ العـــالمينـــا
فتـــرعـــى فـــي رياض القـــدس طـــوراً ... وتشـــرب مـــن بحـــار العـــارفينـــا
عبـــاد قـــاصـــدوا بـــالســـرِ حتـــى ... دنـــوا منـــهُ وصـــاروا واصِلْيِنَـــا

---

(١) سدرة المنتهى: شجرة في الجنة.
(٢) ثج الماء: أساله، وثج الماء ثجوجاً: انصب.

الفصل العاشر

في الجواب عن السؤال العاشر

أقول وبالله تعالى التوفيق: اعلم وفقنا الله تعالى وإياك للزوم قرع باب الملك القدوس، وفتح ومنح الوصول إلى حضرة الجناب المقدس المحروس، الذي قال فيه المشتاق لمشاهدة الجمال وشرب راح المحبة في كؤوس الوصال:

فديتُك حدثني عن الجانب الذي ... تقدس أنْ يحظى بهِ كل طالبِ

إن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية، ولها طريقة هي عزائم الشريعة، فمن سلك تلك الطريقة وصل إلى الحقيقة، فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ونهاية الشيء غير مخالف له، فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة.

قلت: وقد ضربت للشريعة والحقيقة أربعة أمثلة في القصيدة المسماة: عذبة المعاني الدقيقة في التغزل في الشريعة والحقيقة، وبيان كون الشريعة هي الأصل كالبحر والمعدن واللبن والشجرة، والحقيقة مستخرجة منها كالدر والتبر والزبد والثمرة، وهي هذه:

فؤادي بعذباتِ المعاني معذبٌ ... وقلبي بنارٍ من قلاها مُقلب
تعوضُ عن سلمى بسعدى ووصلها ... عزيز ومن لم يمنحِ الوصلَ يتعبُ
معنى فلا من ذي ولا ذي مواصل ... فبينَ هوى سلمى وسعدى مذبذبُ
لعز معالي الفقهِ من قبل خاطبِ ... وبيض العُلا في الفقرِ من بعد يخطب
ولم ترضَ إلاَّ صادقاً مصدقاً لها ... بماضٍ به في معركِ الحرب يضربُ
منَ الصدقِ سيف قاطع به قاتل ... لمن عن جمالِ للأحبة يحجبُ
من النفس بل تلك الحجاب بعينهِ ... وشيطانها كيما يموتُ ويهربُ
يلاقي العنا في حبها كي يرى الهنا ... ومن دونها الأهوال بالعزمِ يركبُ
وفي وصلها بالنفسِ يسمح طيباً ... يرى ذا قليلاً في هواها ويرغبُ
ويسلو ويغني عن سواها ونحوها ... ينجي سالكاً في مذهبِ الحبُ يذهبُ
ومن بالأماني والدعاوي يرومُها ... ولم يفن نفساً في هواها ويذهب
وأصبح مثلي قائلاً غير فاعل ... ولا عامل بالعلمِ ذلك يكذبُ
ولكنني مع ذاك أغري أولي الهوى ... وأدعو إليها كل خال وأندبُ
أحب مُحبيها وأرتاحُ نحوها ... وفي مدحها بالنظمِ والنثر أطنبُ
وإنْ يأخذ العُشاق في ذلك غيرة ... فلهجي بها عن واضح العذِر يعربُ
أخا الحب نافس في هواها ومُت بها ... لتحيا ففيها الموتُ يحلو ويعذبُ
بنفسك رد هيجاً هواها ورح ومن ... دمائك سيف الحبُ حال مُخضَّبُ
فما وصلها الغالي بنفسك غالياً ... ولا ذا على أهلِ المحبة يصعبُ

وإنـي وإنْ أصبحـتُ عـن ذاكَ عـاجـزاً ... ونـاء فمحـض الفضـل أرجـوهُ يجـذبُ
فكـم مـن إشـاراتِ لسُعـدى يضمهـا ... بشـاراتِ إسعـاد لهـا أتـرقـب
بهـا كـم مهنـى كـم معنـى فمسعـد ... بـوصـل ومشقـي بـالصـدود مُعـذبُ
فمـا كـل مشغـوفٍ بسعـدى من الـورى ... أتـى خـاطبـاً عـن رغبـة فيـه تـرغـبُ
فكـم خـاطـبٍ يسعـى لغـالـي جمـالهـا ... يـرد ومخطـوب لـديهـا يقـربُ
عسى عـن قـريـب قطـع شغلـي بغيـرهـا ... وتـركـي لتلـويـن بـه أتقلـبُ
فـإمـا بـوصـلٍ فـزتُ أو مـت طـالبـاً ... غـريبـاً يلـذُّ المـوت لـي والتغـربُ
فـإن أسعـدت سعـدى بـوصـل وأنطقتْ ... بسـرِ لأبـدي مـا يُشجـي ويطـربُ
ومـن حكـم الأسـرار أجمـل معـارفـاً ... محـاسنهـا تُسبـي العقـولُ وتسلـبُ
وأثني علـى سعـدى بغـالـي جمـالهـا ... ليمسـي إليهـا ذو النَّـوى يتقـرب
ويلقـى الهـوى الجـافي طـريحـاً ببـابهـا ... وذو النـأي يضحـى وهـو دان مُقـربُ
يسقي كـؤوس الوصل من خمرةِ الهوى ... ويحلـو لـهُ فـي حضـرةِ القـدسِ مشـربُ
شـراب لـهُ التنـزيـه لـم يـأتِ حـانـه ... ولـم يسقـه هنـد ودعـد وزينـبُ
ومدحي حلى سعدى الحقيقة مدحتي ... لسلمـى الشـريعـة والتمـاثيـل أضـربُ
فمستخـرج درّ الحقيقـة غـائـض ... ببحـرِ الشـريعـة فـالشـريعـة مطلـبُ
ومـن شجـر تمـر جنـى ذاكَ ملقـح ... ومـن معـدن تبـر مُصفـى مُطيـب
وكـم نصـب فـي حفـرهِ ثـم سبكـهِ ... كـذلـك فـي استخـلاصـه المـرء ينصـبُ
ومـن لبـن زبـد بـه فـازَ مـا خـض ... كـذا رائـض نفسـا مـربّ مـؤدّب
بـآدابْ شـرعِ منـهُ درّ معـارف ... ويـاقـوت أسـرار ستبـدو وتعجـبُ
ولكـن بتـوفيـق وعـون عنـايـة ... لـه خطبـت مـن قبـل مـا جـاءَ يخطـبْ
فيـا ربّ أصلحنـا وطَهّـر قلـوبنـا ... وطَيّـب ووفقهـا لمـا هـو أصـوب
وزك نفـوسـاً جـامحـات غـدت بنـا ... بوادي الهوى في جانب الغي تلعبُ
وللقلـبِ أيـد كـي بحـقِ يـردهـا ... بعسكـر نـور الـرّوح يعلـو ويغلـبُ
بـوصفـك قـابـل وصفنـا يـا إلهنـا ... فـوصـف الإلـه العفـو والعبـد يـذنـبُ
وسـامـح بـأقـوالِ بهـا صـرت عـامـراً ... لسـانـي مـدى عُمـري وقلبـي مخـربُ
أحسـن قـولاً والفعـال قبيحـة ... فمـا صـدق قـول والفعـال تكـذبُ
فيـا ليـت شِعـري مـا أقـول بمـوقـف ... إذا قيـل كـم يـا يـافعـي النّحس تكـذبُ
فـإنْ وفـق الرَّحمـن قلـت مـدحـت مـن ... بحبـك هـم مـع نهجهـم فيـك أحبـبُ
وقـد صـحَ أنَّ المـرء مـع مـن أحبـه ... عـن الصَّـادق المُختـار يـروي ويكتـبُ
عليـهِ صـلاةُ الله ثـمَّ سـلامـه ... مـع الآلِ والغـرِ الألـي كـان يصحـبُ
فهـا هـي بَـدَتْ فـي حلـةٍ معنـويـة ... لمن عن معاني ذي المحاسن يعربُ
وعـن غيـره مـرخـى عليهـا خمـارهـا ... فعلـم معـانيهـا عـن الغيـرِ يعـزبُ

تسقى حمياً حُب سعدى مُحبها بستين بيتاً للمُحبين تطربُ
تَنَاهنْ وفي قلبي رجا ما بضمنها وإن كان مثلي ليس يُدني ويوهب
أؤمل من ذا الفضل ما هو أهله وإنْ لم أكن أهلاً لما منهُ أطلب
عسى سيل فضل منه يغسل كل ما بأوساخه كم قد تلطخ مذنبُ
كما قال نور الدين شيخي وسيدي وقدْ مالَ من حالٍ بهِ الرّاح يشربُ
إذا جاءَ سيلُ الفضل يغسلُ كل ما يلاقي من الأوساخ في الحال يذهبُ
إلهي بجاهِ المُصطفى سيد الورَى ومُلجئهم من ما منه يرهبُ
وتاج العُلى بدر الهوى معدن النّدى طراز جمال الكون ينهج مذهبُ
أنلني منك يا غاية المُنى لأضحى ولي شغل بحبُك مذهبُ
وحقق رَجَاي يا جَوَاداً ومُنعماً كريماً تعالى للرجا لا تخيبُ

وأقول أيضاً: الشريعة والحقيقة ليس بينهما اختلاف في مجاري أحكام العبودية وإنما يختلفان في مشاهدة أسرار الربوبية، ولا شك أن أهلهما متفاوتون في الاعتناء والاهتمام بعلم صفات القلب والأخذ بعزائم الأحكام وليس ذلك اختلافاً فيهما وإنما هو تقصير ممن يهملهما كما سيأتي ذكره ووفاء بمن يقيني بهما، وها أنا أفصل لك ذلك وأوضحه إن شاء الله تعالى.

اعلم أن الشريعة الشريفة المطهرة المنيفة مشتملة على قسمين: علم، وعمل؛ ثم العلم من حيث الجملة على قسمين: ظاهر، وباطن؛ والظاهر على قسمين: شرعي وغير شرعي؛ والشرعي على قسمين: فرض، ومندوب؛ والفرض على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية. وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم صفات القلب، وعلم أصل، وعلم فرع. وقد مثلت هذه الأقسام وغيرها من أقسام العلوم وبينت المحمود منها والمذموم، وأوضحت ذلك في خاتمة كتاب [سراج التوحيد]. والقسم الثاني من التقسيم الأول وهو العمل على قسمين: عزائم، ورخص. إذا علم هذا فاعلم أن الحقيقة ذات المعاني الرقيقة والعلوم الدقيقة مشتملة أيضاً على قسمين: علم وعمل؛ والأول منهما على قسمين: وهبي، وكسبي؛ فالوهبي علم المكاشفة، والكسبي على قسمين: فرض، وغيره؛ والفرض على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية؛ وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم قلب، وعلم أصل، وعلم فرع كما تقدم في العلم الشرعي؛ فهذا القسم الكسبي الذي هو أحد قسمي علم الحقيقة هو علم الشريعة. والقسم الثاني من القسمين الأولين وهو العمل هو القسم الأول من قسمي علم الشريعة الذي هو العزائم، وهو مشتمل على سلوك طريقة الحقيقة، والطريقة مشتملة على منازل السالكين تسمى مقامات اليقين، فالحقيقة موافقة للشريعة في جميع علمها وعملها، أصولها وفروعها، فرضها ومندوبها، ليس بينهما مخالفة أصلاً. نعم هنا شيئان من العلم والعمل: أحدهما علم صفات القلب، فأهل الحقيقة لهم به اعتناء واهتمام جداً، وسلوك طريقتهم موقوف على معرفته وتبديل صفاته الذميمة، وأكثر أهل الشريعة مهملون ذلك، ومتهاونون به، مع كونه فرض عين في الشريعة والحقيقة بلا خوف وأما القسم الثاني من قسمي عمل الشريعة وهو الرخص، فأهل الحقيقة من حيث العمل والاعتقاد لا يشكون بأن ذلك حق والعمل به جائز لطفاً من الله تعالى بعباده ورحمة لهم في التخفيف

ورفع الحرج عنهم. وأما من حيث عملهم فلهم في العمل طريق في شواهق على شوامخ جبال عزائم الشريعة الغراء، يسلكون فيها إلى الله تعالى بتوفيقه وعنايته وجميل لطفه وصيانته وعرة العقاب صعبة الذهاب، منهم من يقيم فيها سبعين سنة، ومنهم من يقطعها بتوفيق الله تعالى في سنة، وبعضهم في شهر، وبعضهم في جمعة، وبعضهم في ساعة على حسب معونة الله الكريم، وتقدير حكمة العزيز العليم، وفي صعوبتها قال قائلهم:

على مثل حَد السيّف تسري إلى العُلى ... فمــن زاغَ لا أرض تقــل ولا سِمَــا
ومـنْ فــازَ بـالتـوفيـقِ فــالله صـانـَه ... فلـولا جميـل اللطـفِ والله مـا نجـا

وقلت فيها في بعض القصائد:

ألا أيُهـــا السَّـــادات إنَّ طـــريقكُــم ... علـى غيـركـم وعـر صعـاب عقـابـهُ
طـــريــق كحـــدِ السيـــف لله درّ مـــنْ ... يكـونُ علـى حـدِ السيـوف ذهـابـهُ

وقلت في أخرى:

على مثل حد السيف يسعونَ للعُلى ... لتجلـى لهـم بيـض هُنـاك صبـاحُ
أتـوا تلك والخطى في الحظ خاطر ... لــه الصبـرُ تـرس والـدُعـاء سـلاح
بمـــذهبهـــم قتــل الغــرام شهـــادة ... وشهـــد ومحقـــون الـــدمـــاء مُبــاح

فهذه الطريقة التي يسلكونها يهون عليهم ما يقاسونه من صعوبتها، ويسمحون بنفوسهم في رجاء حصول المطلوب من مشاهدة جمال المحبوب كما قال قائلهم:

إنْ كـانَ سفـكُ دمـي أقصـى مـرادكُـم ... فمـا غلـت نظـرة منكُـم بسفـكِ دمـي

وفي هذا المعنى قلت على طريق النيابة عن لسان حالهم:

يـــا داتـــي إنْ قلتـــم مهجتـــي ودمـــي ... بنظـرة فـي الجمـال الغـالـي العـالـي
فقـد أنلتُـم جميـل الفضـل عبـدكـم ... وقـد ربحـت ببيـعِ الـدون بـالغـالـي

ولا يسلكون طريقاً في سهل قيعان حضيض رخص مسامحة الحنيفية السمحة، يسلك فيها إلى الجنة برحمة اللطيف الخبير، وتجاوزه عن التخلف والتقصير، وكلا الطريقين منهج في الشريعة مسلوك له أهل ليس هو عندهم بمتروك، جاء بكلتيهما الكتاب والسنة وانقسمت في سلوكهما الأمة، فمما جاء في الطريقة الأولى وأهليها من مفهوم آيات الكتاب العزيز ومنطوقيها ﴿رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [النور: ٣٧] ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿يا أيها الذي آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ـ الصابرين والصادقين﴾ [التوبة: ١١٩] الآية ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم﴾ [القصص: ٨٠] ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ﴿والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦] ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ [العنكبوت: ٦٩] ﴿إن الله مع المتقين﴾ [التوبة: ١٢٣] ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وإنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: ٢٧]

﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨] ﴿إن الله يحب المتقين﴾ [التوبة: ٤] ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿والله يحب الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٦] ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [البقرة: ٢٢٢] وعباد الرحمٰن الآيات الكريمات ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ [الذاريات: ١٧] الآيات ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآيات ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ [البقرة: ٢٧٣] ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ [الأنعام: ٥٢] ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ [آل عمران: ١٩١] ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ [الأحزاب: ٤١] ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٤٥] ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة: ١٥٢] ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [البقرة: ٢٦٩] ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ [آل عمران: ٣٠] ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾ [الزمر: ٩] ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩] ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير﴾ [القصص: ٨٠] ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ [الحج: ٣٥] ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿والذين جادوا فينا لنديهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [التوبة: ١١١] الآيات ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ [النحل: ٤٢] ﴿وعلى الله فتوكلوا﴾ [المائدة: ٢٣] ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١١] سابقوا ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ [البقرة: ١٤٨] سارعوا ﴿كانوا يسارعون في الخيرات﴾ [الأنبياء: ٩٠] ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات: ٦٥] ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [المطففين: ٢٦] ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ [يونس: ٢٤] ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ [محمد: ٣٦] ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ [الأحقاف: ٣٠] ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ [طه: ١٣١] ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ [النساء: ٧٧] ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ [آل عمران: ١٥٢] ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ [القصص: ٦٠] الآيتان ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ [النازعات: ٤٠] ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف: ٥٣] ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ١٠] ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ [القيامة: ٢] ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾ [الفجر: ٢٧] ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾ [النازعات: ٤٠].

قلت: فهذه الآيات وغيرها مما يتعذر حصره نادبات إلى الجد والتشمير والأخذ بالعزائم واحتمال المشاق في الله تعالى، والصبر على العظائم. ومن الآيات الصريحات في الندب إلى الأخذ بالعزائم قوله عز وجل: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ [الزمر: ١٨] وقوله تعالى: ﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ [الأعراف: ١٤٥] جاء في التفسير أن المراد بالأحسن الأشد الأغلظ. ومن السنة قوله ﷺ: «الذين لا يرقون ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[١] الحديث المخرج في الصحيحين وقوله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق

---

(١) أخرجه مسلم (إيمان ٣٧٤).

الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[١] حديث الترمذي الحسن، وقوله ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[٢] حديث مسلم، وقوله ﷺ: «ثم رجل يعتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه»[٣] حديث الصحيحين؛ وقوله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[٤] حديث البخاري أي لا تتخذها وطناً ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله، وقوله ﷺ «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[٥] حديث الترمذي الحسن الصحيح، وقوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه متعلق المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه[٦]» حديث الصحيحين؛ وقوله ﷺ «الكيس من دان نفسه

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٢٩٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٦٨٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٨٨)، وابن المبارك في (الزهد ١٩٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٢٣٤)، (بغوي ١/ ٤٤٠)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٣١٠)، وابن كثير في (التفسير ٨/ ٢٠٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٢٣٩، ٢٦٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (الإمارة ١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١١٠)، والترمذي في (السنن ٢٣٣٣)، وابن ماجه في (السنن الكبرى ٤١١٤)، والبغوي في (شرح السنة ١٤/ ٢٣١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٢٧٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٣٦، ٤٢٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٢/ ٣٩٩، ٤١٨) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦١٢٧، ٦٢٩٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٢٤٢)، والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ٣٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٣٣)، والشجري في (الأمالي ٢/ ١٩٣)، وابن المبارك في (الزهد، ٥)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ١٧٤)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١١٥٧، ١٤٧٣، ٣/ ١٤٧)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/ ٣١٣، ٣/ ٣٠١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ٩٦، ١٣/ ٤٧٣)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ١٩٤)، وأبو الخطاب البستي في (العزلة ٣٩).

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٩٦، ٤٥١، ٥/ ٣٣٦)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٤٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٢٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٦٢٦ ـ ١٦٦٢٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٢١٢)، وابن كثير في (التفسير ٥/ ٤٣٧).

(٦) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/ ١٦٨، ٢/ ١٣٨، ٨/ ١٢٦)، ومسلم في صحيحه (الزكاة ب ٣ رقم ٩١) والترمذي في (السنن ٢٣٩١)، والنسائي في (السنن ٨/ ٢٢٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٤٣٩)، وابن عبد البر في (التمهيد ٢/ ٢٨٠، ٢٨١)، وابن خزيمة في (الصحيح ٣٥٨)، والبغوي في (شرح السنة ٢/ ٣٥٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٢١٧)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/ ١٤٣، ١٢/ ١١٢)، وابن المبارك في (الزهد ٤٧٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة =

وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[1] حديث الترمذي الحسن؛ وقوله ﷺ حاكياً عن الله عز وجل: «وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني أو قال استعاذ بي ـ روي بالنون والياء ـ لأعيذنه»[2] حديث البخاري وأوله «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه»[3] ومعنى آذنته بالحرب: أعلمته بأني محارب له؛ وقوله ﷺ «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[4] حديث الصحيحين في الرجلين اللذين قيل له هذا من أشراف الناس وهذا من

= المتقين ٤/ ١١٢، ٥/ ٦،٧/ ١٧٥، ٩/ ٢١٤)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٣/ ١١٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٧٠١)، وابن الجوزي في (زاد المسير ١/ ٣٢٥)، (بغوي ١/ ٢٩٣)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٧، ٤/ ٣١٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٢٩٦، ٢/ ١٥٧، ٣/ ١٠١، ٢٨٧)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٤٥٢، ٦/ ٢٥٠)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/ ٢٣٩)، وابن عبد البر في (تجريد التمهيد ٤٨)، والربيع بن حبيب في (المسند ١/ ١٥، ٥٣، ٦٩)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٧١).

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ٣٦٩) والحاكم في (المستدرك ١/ ٥٧، ٤/ ٢٥١)، والطبراني في (المعجم الكبير ٧/ ٣٣٨، ٣٤١) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٤، ٨/ ٤٢٨، ٤٤١، ٩/ ١٨، ٣٩، ١٦٦، ١٠/ ٩٣، ١٥١، ٢٢١)، والبغوي في (شرح السنة ١٤/ ٣٠٨، ٣٠٩)، والطبراني في (المعجم الصغير ٢/ ٣٦) (بغوي ٢/ ٣٠٥)، والقرطبي في (التفسير ١/ ١٤٤، ١٦/ ١٦٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٢٨٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٩/ ٣٤٢)، المنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٢٥٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/ ٢٦٧، ٨/ ١٧٤)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/ ٥٠)، وابن المبارك في (الزهد ٥٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٣٢٦، ٣/ ٣٦٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ١٥٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٧٢)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٢٧).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٧٧، ٩/ ٦١٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٣٤١).

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١٣١)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ٣٤٦، ١٠/ ٢١٩) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢١٣٢٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٠٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٢٦٦)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٤٨٩٢)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٦٤٠)، والبغوي في (شرح السنة ٥/ ١٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٣٤٠، ٣٤١)، وصاحب (الإتحافات السنية ١٣٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٣/ ١١٧) والقرطبي في (التفسير ٦/ ١٣٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٩١)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٢٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٧/ ١٠، ٨/ ١١٩)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٢٢) وابن حجر في (فتح الباري ٩/ ١٣٢، ١١/ ٢٧٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٦) =

فقراء المسلمين، وقوله ﷺ: «إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وعن خلفه»[1] حديث الصحيحين؛ وكذلك حديث البخاري: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير» وقوله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[2] حديث الترمذي الحسن، وأدلج بإسكان الدال، معناه: سار من أول الليل، والمراد التشمير في طاعته تعالى؛ وقوله ﷺ: «قال الله تعالى: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[3] حديث الترمذي الحسن الصحيح؛ وقوله ﷺ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[4] حديث الترمذي الحسن، وقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[5] حديث الترمذي الحسن وابن ماجه، وقوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[6] حديث الصحيحين؛ وقوله ﷺ: «إن البذاذة من الإيمان»[7] حديث أبي داود، والبذاذة: رثاثة الهيئة وترك فاخر اللباس، وهي بالباء الموحدة والذال المعجمة مكررة؛ وقوله ﷺ «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم وبأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[8] حديث الترمذي الحسن الصحيح؛ وقوله ﷺ: «أمسك عليك

والقرطبي في (التفسير ١٦/٢٤٧)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/٢٥٧)، والعقيلي في (الضعفاء ٣/٦٩).

(١) أخرجه أحمد بن حنبل ٢/٣٥٨، ٣٩١، ٥٢٥، ٥/ ١٨١.

(٢) أخرجه الترمذي (قيامة ١٨).

(٣) أخرجه مسلم (برّ ٣٨)، والترمذي (زهد ٥٣)، والدارمي (رقاق ٤٤)، والموطأ (شعر ١٣) وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٧، ٣٢٨، ٣٣٨، ٣٧٠، ٥٣٣، ٥٣٥، ٣/ ٨٧، ٤/ ١٢٨، ٣٨٦.

(٤) أخرجه الترمذي (زهد، ٤٥).

(٥) أخرجه الترمذي (زهد، ١١)، وابن ماجة (فتن ١٢)، والموطأ (حسن الخلق، ٣) وأحمد بن حنبل ١، ٢٠١.

(٦) أخرجه مسلم في الصحيح (البر والصلة ٣٣، ٣٤)، والطبراني في (المعجم الكبير ٣/٣٣٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣١)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٧٩)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ١٣٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٤٩، ١٠/ ٦) وابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٤٨٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٤٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٥٨).

(٧) أخرجه أبو داود في السنن (الترجل ب ١)، والحميدي في (المسند ٣٥٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٤٦، ٢٤٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/١٠٨)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١/ ٦٠٢).

(٨) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٧٦)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦٠) والدارمي في (السنن ٢/ ٥٠، ٣٠٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٤١)، (بغوي ٢/ ٣١٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٤٤، ١٤٥، ٢٣٨، ٩/ ٣٢)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٤٠، ٣/ ٥٤٨، ٤/ ١٧٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٨١)، =

لسانك وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[١] حديث الترمذي الحسن؛ وقوله ﷺ: «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله تعالى»[٢] «حديث الترمذي وابن ماجه وقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[٣] حديث الصحيحين، وقوله ﷺ: «وقفت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون»[٤] حديث الصحيحين، وأصحاب الجد بفتح الجيم: الأغنياء؛ وقوله ﷺ لما سئل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٥]، حديث مسلم؛ وقوله عليه الصلاة والسلام: «سبق المفردون»[٦] فسرهم بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات، حديث مسلم؛ وقوله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى، قال ذكر الله»[٧] حديث الترمذي،

= والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/٢٢٦، ٤/١٠٣).

(١) أخرجه الترمذي (زهد ٦١).

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٤١٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٢٧٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/٥٣٨)، وابن السني في (عمل اليوم والليلة، ٥) وصاحب (الأذكار النووية ٢٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (أدب ٣١، ٨٥)، (رقاق ٢٣)، ومسلم (إيمان ٧٤)، (لقطة ١٤) وأبو داود (أدب ١٢٣)، والترمذي (قيامة ٥٠)، والموطأ (صفة النبي ٢٢)، وأحمد بن حنبل ٢/ ١٧٤، ٢٦٧، ٤٣٣، ٤/ ٣١، ٥/ ٢٤٧، ٦/ ٦٩، ٣٨٤، ٣٨٥.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف ٢٠٦١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٦٦٢) والشجري في (الأمالي ٢/ ١٨٢).

(٥) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/ ٢٠)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ١، ٥)، والنسائي في (السنن ٨/ ٩٩، ١٠٢)، والترمذي في (السنن ٢٦١٠)، وأبو داود في السنن (السنة ب ١٦). وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٥١، ٢/ ٤٢٦، ٤/ ١٢٩، ١٦٤)، والألباني في (إرواء الغليل ١/ ٣٢، ٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ١١٤، ١٠/ ٢٧١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٣٦٤) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٩٤)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٨/ ٣٣٨).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (الذكر والدعاء ب ١ رقم ٤)، والترمذي في (السنن ٣٥٩٩) وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٢٣، ٤١١)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٤٩٥)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٧٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٥٣، ٨/ ٥٩٤)، والبغوي في (شرح السنة ٥/ ١٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ١٤٣، ٢٠٥) والألباني في (الـ الصحيحة ١٣١٧)، وابن كثير في (التفسير ٥/ ١٩٥، ٦/ ٤١٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٠، ٤/ ٤٣) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٣٣، ١١٧٧٣)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٦/ ٣٩٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٢٦٢)، (بغوي ٥/ ١٩٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٣٩٩)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٨/ ٤٤٨)، وابن تيمية في(الكلم الطيب ٢).

(٧) أخرجه الترمذي في (السنن ٣٣٧٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ١٩٥)، وابن ماجه في (السنن ٣٧٩٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٦/ ٣٩٧)، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٦) وصاحب =

وحديث المستدرك على الصحيحين، قال الحاكم أبو عبد اللَّه: هذا حديث صحيح الإسناد.

قلت: فهذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث الصحيحات والمشهورات الواردات في الأخذ بالعزائم لا تنحصر، ومنها حديث التجافي عن دار الغرور، وحديث «دعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون» لما على مصعب بن عمير[1] إهاب كبش، وتقريره لأبي بكر رضي الله تعالى عنه لما جاءه بماله كله لما شهد فيه من قوة اليقين والثقة برب العالمين، وما ورد في سيرة أويس وغيره من السلف الصالحين، وقوله ﷺ في الحديث المتقدم «سبق المفردون» اختلف فيه أئمة اللغة فقال ابن الأعرابي: يقال فرد الرجل بشد الراء إذا تفقه واعتزل الناس وخلا بنفسه وحده مراعياً لأمر ربه ونهيه. وقال ابن قتيبة: هم الذين هلك أقرانهم وبقوا هم يذكرون الله تعالى. وقال الأزهري هم المتخلون عن الناس بذكر الله تعالى لا يخلطون به غيره، وقيل غير ذلك. وقد فسره ﷺ بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات. وقال الشيوخ رضي الله تعالى عنهم: لا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر.

وأنشد بعضهم:

تَشَاغَلَ قومٌ بدنُياهم ... وقوم تخلوا لمولاهُم
فألزمُهم باب مرضاته ... وعن سائرِ الخلق أغناهُمُ

وأنشد آخر:

كانتْ لقلبي أهواء مُفرقة ... فاستجمعت إذ رأتكِ العينُ أهوائي
تركت للخلقِ دُنياهم ودينهم ... شغلاً بحبُك يا ديني ودنيائي

وأنشد آخر:

أنستُ بوحدتي ولزمت بيتي ... فطابَ الأنس لي وصفا السرورُ
وأدبني الزمان فلا أبالي ... هجرت فلا أزار ولا أزورُ

= (الأذكار النووية ١٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/٢٩٦)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٢٦٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٦٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/٧)، والبغوي في (شرح السنة ٥/١٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٦/٥٨) (بغوي ٥/١٩٥)، وابن كثير في (التفسير ٦/٤٢٢)، وابن تيمية في (الكلم الطيب، ١) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/٣٩٥)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢/١٢)، والسيوطي في (الحاوي للفتاوي ٢/١٠٠)

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي (توفي ٣ هـ/ ٦٢٥ م) من بني عبد الدار، صحابي شجاع، من السابقين إلى الإسلام، أسلم وكتم إسلامه فعلم به أهله فحبسوه فهرب مع من هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة وهاجر إلى المدينة، فكان أول من جمع الجمعة فيها، وعرف فيها بالمقرىء، وشهد بدراً، وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد، وكان يلقب «مصعب الخير» الأعلام ٧/٢٤٨، وطبقات ابن سعد ٣/٨٢، والإصابة ت ٨٠٠٤، وصفة الصفوة ١/١٥٢، وأسد الغابة ٤/٣٦٨، وحلية ١/١٠٦

وقال بعض الشيوخ: لو خرج مني نفس بغير ذكر الله تعالى لذبحت نفسي. وقال بعضهم: ذكرت الله تعالى ثلاثين سنة فكنت أسمع الذكر عشر سنين من لساني وعشر سنين من قلبي، وعشر سنين من الكون. وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: الذكر منشور الولاية، فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل.

قلت: قد تقدم أن الحقيقة موافقة للشريعة في جميع العلم والعمل، وسأذكر ذلك أيضاً فيما بعد إن شاء الله تعالى من كلام المشايخ رضي الله تعالى عنهم. وأما ما قدمت ذكره من كون الحقيقة لها طريقة في علا عزائم الشريعة دون رخصها، فليس ذلك بمخالفة لها، لأن عزائم الشريعة ليست خلاف الشريعة بل هي رأسها المقدم وعزيزها المكرم، وما قدمت أيضاً من كون الحقيقة مشتملة على علم مكاشفة انفردت به غير علم المعاملة الذي وافقت الشريعة فيه فليس ذلك بمخالفة لها أيضاً لأن علم المكاشفات ليس هو من قبيل التكليفات حتى يتطرق إليه المخالفات، وإنما هو من قبيل المواهب السنية والكرامات المرضية وثمرات المقامات العلية، وها أنا أذكر المقامات العاليات والأحوال الغاليات التي اختص بالسمو إلى سلوكها والوصول إلى مراتب ملوكها العلماء بالله تعالى العارفون أولو الألباب أهل الأسرار والأنوار والمعارف والحكم والمشاهدة وسماع الخطاب دون العلماء بأحكام الله الفضلاء النجباء أولو الحجاب، وأذكر أيضاً ما اختصوا به من التخلي عن الصفات الذميمات مع التحلي بالصفات الحميدات، ثم أشير إلى شيء من كلام الشيوخ العارفين في بعض المقامات والأحوال في النهايات، وبعض الرياضات والمجاهدات في البدايات، وقد ذكرت شيئاً من الكرامات في الفصول المتقدمات، ثم أذكر في آخر هذا الفصل شيئاً من الأجوبة، والعذر عما وقع من بعضهم في حال السكر من الشطحات المستنكرات، وما صدر عنهم من التخريبات، وسماع القول والحركات، والتمزق في البدايات. ثم أختم الكتاب بشيء من كلام علماء الحقيقة العارفين الصديقين المقربين في موافقة الحقيقة للشريعة في الأصول والفروع من الفروض والسنن وكل مشروع، وفي شيء من المعارف والحكم والآداب، والمحبة والأسرار والخطاب، وشيء من صفات الصوفية أولي الصفاء والتقريب والاصطفاء، حتى إذا طلعت على مضمون جميع هذا الكتاب تحققت أنه لاتق بأوليك الرجال قول القائل الذي قال:

هـمُ القـوم كـل القـوم يـا أمُ سـالـم

وقولي في صفاتهم السنيات في بعض القصيدات:

تجـابُ فتيـة غـر كـرام	مـن العليـاءِ فـي أعلـى مكـانِ
بحـارُ العلـم أوتـاد لأرضٍ	ملـوك الخلـق أقمـار الـزَّمـانِ

وقولي في أخرى:

دعـاوى الهـوى دعِ للـذينَ ارتيـاحهـم	إلـى الحـقِ يـا مُـرتـاح نحـوَ المعـالـفِ
سُكـارى بمـولاهـم وأنـت بجيفـة	فقـس رخمـا بـالبـازِ عنـد التنـاصـفَ
ملـوكُ البـرايـا ليـسَ يشقـى جليسُهـم	لهم بيض رايـاتِ العلى في المواقفِ

حبوا وحظوا حضوا اصطفوا ثم قربوا ... وولـوا وعلـوا فـوق كـل الطـوائـفِ
كما جاهدوا للنفس في معرك الهوى ... وجـادوا بهـا مهـرا لبيـضِ المعـارفِ
أنيلوا المُنى صافي الهنا عندما اجتلى ... بسمـرِ القنـا بيـض العلـى كـل عـارف
عــرائــس أنـــوار بـــدا مـــن بهـــائهـــا ... لمـن يجتليهـا كـالبـروقِ الخـواطـفِ
شموساً بَدَتْ من مشرقِ الحُسن والبَها ... بنـورِ جمـال للمُحبيـن شـاغـف
وحَلَّـت بـوادي طـور قلـب مُقـدس ... خيـام نـديـم بـالمعـانـي اللطـائـف[1]
سُكـارى ولـم يُسقـوا مـدامـا وإنمـا ... سقوا حُب حُسن جل عن وصفِ واصفِ

وقولي في أخرى:

شمـسُ الهُـدى قـوم كـرام تـدرعـوا ... دروع الـرضّـى والصبـر فـي كُـل شـدةِ
ولاقوا طعان النفس في معركِ الهوى ... وراحـوا وقـدروا مـواضـي الأسنـةِ
وسـاقـوا جيـادَ الجـدّ عنـد استبـاقهـم ... وأرخـوا لهـا نحـو العُلـى لـلأعنـة
سمـوا فـاجتلـوا بيـض المعَـالَي غـواليـا ... ببيـضِ العـوالـي فـي القصـور العليـة
مقامات قوم أتعبوا النفس في السرى ... فـأضحـوا ملـوك الـدّهـر فـوقَ الأسـرَة
بـذل أنيلـوا العـز والجهـدِ راحـة ... وفقـر غنـى والحـزن كُـل مَسـرَّة
وطيـب عيـش بـالطَّـوى ثـم بـالظمـا ... شـراب كـؤوس حـاليـات هنيـة[2]
بجنـاتِ وصـل فـي ريـاضِ معـارفِ ... لهـم ذلـك منهـا قطـوف تـدلـت
جنـوا مـن جنـاهـا زاكيـاً لا يـذوقـهُ ... مـن الخلـقِ إلّا كـل نفـس زَكيـة
تسلَّت عن الدُنيا ومَاتَت عن الهوى ... وغسلهـا فـي مـوتهـا مـاء دمعـة
وصلـت عليهـا صـالحـات فعـالهـا ... وقـد كفنـت فـي بيـض أثـواب تـوبـة
وشيلـت علـى نعشِ انتعـاش إلـى الفنـا ... بقبـرِ خمـول شـق فـي أرض غـربـة
وقـومهـا فـي البعـث بـاعـث عقلهـا ... وحـاسبهـا فـي كـل مثقـال ذرة
وألـزمهـا تمشـي صـراط استقـامـة ... دقيقـاً كحـد السَّيـف إن عنـهُ زلـت
هَوَتْ جوف نار الهجر والبعد والقَلَى ... وإنْ ثبتـت سـارتْ بجنـاتِ وصلـة
ونـالـتْ منُـاهـا والسَّعـادات كلهـا ... فيـا سعـد نفـس أدركـت مـا تمنـتِ
إلهي تَفَضَّـل بـالعطـا واكشـف الغطـا ... وكـل الخطـا فـاغفـره وامنـن بجنـةِ
وصـلِّ علـى خيـرِ الأنـامِ وآلـهِ ... وأصحـابـه والحمـد لله تمـتِ

وقولي في أخرى:

سـلامٌ علـى السَّـادات مـن كـل صـادق ... لـه مسـرح فـي معـركِ ومـراحِ

---

(١) المقصود طور سيناء: الطور بلدة في سيناء، جنوبي غربي جبل موسى على خليج السويس، تمر بها القوافل إلى دير كترينا، (الرسالة القشيرية ص ١٤٧).

(٢) الطَّوىٰ: الجوع.

صفا ثم صوفي فهو صوفي مخيم — على بابِ سعدى ليسَ عنهُ براحِ
يلاقي طعان النفس في نيل وصلها — ومن دونها بيض حمت ورماحِ
فإنْ ساعدت سعدى كستهُ سعادة — وراح وقدْ رَاحَتْ بروحهِ راحُ
سَقَتْ حميا الوصلِ من كرمِ حُسنها — إذا شمها أهل الصبابة صاحوا
وناحوا وصاحُوا ثم فاحوا بنشرها — عبيراً ومكتوم المحبة باحوا

وقولي في أخرى:

رَعَى الله قوماً جاهدوا في سبيلِ — هوى أنفس كل الكماة تهابُه
يهونُ عليهم والدِّماء خضابُهم — وفي نحرهم طعن الهوى وضرابه
إلى الله بالله احتساب نفوسهم — ولله من في الله كان احتسابه
أماتوا فأحيوا ما أهانوا فأكرموا — بذبحٍ إلى فعلِ الكرام انتسابُه
لهم تعرف الهيجاء في كل معرك — من الصدق ما لا يستطاع اغتلابُه
لقد شَمَّروا في نيلِ كل عزيزةٍ — ومكرمةٍ مما يطولُ حسابه
إلى أنْ جنوا ثمرَ الهوى بعد ما جنى — عليهم وصار الحُبِ عِذباً عذابه
وحتى استحالَ المُر في الحالِ حالياً — وحتى دنا النأي وهَانَت صعابه
عليهم من الرَّحمٰن أزكى تحية — وأفضل رضوان ولا زالَ بابه
مدى الدَّهر مفتوحاً لإكرام وافد — بهِ أقبلتْ تفري[1] الفيافي ركابه
ولا زال ذاك القرب والأنس والصَّفا — ولا حالَ من دون الحبيب حجابه

فمن المقامات[2]: التوبة، والزهد، والورع، والصبر، والفقر، والشكر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرضى، فهذه عشرة من المقامات اقتصر على ذكرها بعضهم، وبعضهم عد منها سبعين مقاماً، وبعضهم قال هي ألف مقام، والمراد بهذه المقامات منازل السالكين في طريقة الحقيقة كما تقدم، ومما اشتملت عليه الطريقة: العزلة ، والصمت، والمراقبة، والتقوى، والحزن، والمحاسبة، والتواضع، والخشوع، والخضوع، والجوع، وترك الشهوات، ومجاهدة النفس بأنواع المخالفات بحملها على الطاعات، وترك المنهيات والحظوظ المباحات سوى الضرورات، والتيقظ من الغفلات، وعمارة الأوقات بحضور القلب، وحفظ الأنفاس والخطرات، والقناعة، الفتوة، والإيثار، والجود، والسخاء، واليقين والصدق، والإخلاص، وحسن الخلق، والأدب، والاستقامة، والغيرة في الدين والتصوف، والعبادة، والعبودية، والعبودة، والافتقار، والتوحيد، وحسن الاستماع، والإرادة، والتفويض، والتسليم، وترك الاختيار، وحسن الطاعة وحسن النية، وحسن الظن، والإحسان، ورؤية المنة، والاحتساب، والخشية، والحرية، وسلامة الصدر، وحسن الصحبة، والشفقة على المسلمين

---

(١) فرىٰ الشيء: شقّه وقطَعه.
(٢) انظر حديث القشيري عن هذه المقامات في الرسالة.

والدعاء لهم، والنصيحة، فهذه وغيرها مما تحلوا به من محاسن الصفات التي هي عدة السفر المعينة عليه، واهبة سلوك الطريقة الموصلة بتوفيق الله الكريم إليه.

وما تخلوا عنه من مساوي الصفات التي هي في سلوك الطريق قاطعات للسالكين شديدات التعويق. الحقد، والحسد، والرياء، والسمعة، والعجب، والخيلاء، والكبر، والغش، والغل، وخوف الفقر، وسخط المقدور، وطلب العلو والرئاسة والمحمدة، وحب الجاه في الدنيا، والغضب، والحمية، والأنفة، والعداوة، والطمع، والبخل، والجبن، والشح، والرغبة، والرهبة من قبل المخلوق، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، وحب الدنيا، والفخر، والمباهاة، والتنافس فيها، والإعراض عن الخلق استكباراً، والخوض فيما لا يعني، وكثرة الكلام، والصلف، واختبار الأحوال، والتذلل للمخلوقين، والتملق والمداهنة، والمدح، والذم، والتزين لهم، وحب المدح بما لا يفعل، والاشتغال بعيوب الناس، ونسيان المنعم، وخلو القلب من الحزن، والانقياد للهوى، والمشاركة له في تدبير أمور الله تعالى، والاقتدار في أمر الله، والاتكال على الطاعة، والمكر، والخيانة، والمخادعة، والحرص وطول الأمل، والتبختر، وعزة النفس حيث تحمد الذلة والمغالبة لأمر الله تعالى، والأنس بالخلق والسكون إليهم والثقة بهم، والخوف منهم، والطيش، والعجلة، وقلة الحياء، وقلة الرحمة، والأمن من مكر الله تعالى، والغيبة، والنميمة، والكذب، والتصنع، والنفاق، وخشية الإملاق وغيرها من الأوصاف الرذائل المبعدة عن الله عز وجل وعن نيل الفضائل، فجميع ذلك عرفوا علم علاجه فعالجوه، حتى تطهروا بتوفيق الله تعالى منه، وعرفوا علم التحلي بالصفات الحميدات المتقدمات فتحلوا بها وزكوا بذلك، فشكروا الله سبحانه بما من به عليهم حيث قال إذ هدى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً﴾ [النور: ٢١] وعرفوا علم الخواطر وعلم الأحوال التي سيأتي ذكرها، وعلم عقيدة أهل السنة والطهارة والصلاة والصوم، وجميع ما يحتاج إليه في معاملة الله تعالى ومعاملة الخلق في الحج والجهاد، والزكاة والعقود، من البيوع وغيرها، والحلال، والحرام، والمكروه والواجب، والمندوب والمباح، والصحيح والباطل، وكثير منهم عرفوا جميع أنواع العلوم الشرعية فلما تحلوا بالمحاسن وتخلوا عن المساوي، وعملوا بما علموا علمهم الله سبحانه ما لم يعلموا من غرائب العلوم وعجائب الأسرار وجواهر المعارف ويواقيت الحكم، ونور قلوبهم بأنوار مشاهدات الجمال، وكشف لهم الغطاء فانكشف لهم من العالم العلوي والسفلي ما أطلعهم عليه من علم الحال والماضي والمآل، فأخبروا بما جاز لهم كشفه من علم الغيوب، ونطقوا بما جاز النطق به مما في ضمائر القلوب، وعاينوا الآخرة ونعيمها وعذابها وثوابها وعقابها، وعرفوا العلم الأعظم المقصود الأهم، وهو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته، علم مشاهدة وعيان، لا علم نظر واستدلال، وأطلعهم على ما شاء من الأسرار فسموا علماء الحقيقة وعلماء الباطن، لما أعلمهم المولى بحقائق بواطن الأمور، وعلمهم علماً لدنياً، وأودع قلوبهم أسراراً من كل مصون لديهم مستور، قال فيه عند استخبار السائل قائلهم لله دره من قائل:

ومستخبرٍ عنْ سرِ ليلى رددتهُ ... بعمياء من ليلى بغيرِ يقينِ
يقولون أخبرنا فأنتَ أمينُها ... وما أنا إنْ أخبرتُهم بأمينِ

وسقاهم كؤوس الوصل من راح الهوى فسلبت العقول العقار، فسكروا لما شربوا وهاموا في الفيافي والقفار، وتهتكوا في الحب ولم يبالوا بخلع العذار[١]. ومما قلت في ذلك من الأشعار:

سقاهُم كؤوسَ الوصل من خمرةِ الهوى ... إذا شمها في الغربِ من في المشارقِ
تَمايلَ نشواناً بها طول دهره ... فكيفَ بمن منها بكاساتها سقى
يُلاقي المنا في حضرةِ القدسِ والهنا ... فيهنيه ما يلقي هُناك وما لقى

وفاضت عليهم من فيض فضله العظيم أحوال سنيات، مشتملات على عظام المواهب من عطايا الكريم، ومن الأحوال[٢] المذكورة: المحبة، والشوق والهيبة، والأنس، والحياء، والقرب، والاتصال، والغيبة، والحضور، والسكر، والذوق والشرب، والري، والتجلي، والمحاضرة، والمكاشفة، والمشاهدة، واللوائح، واللوامع، والطوالع، والعبودة، والبوادة، والهجوم، والنجوم، والتلوين، والتمكين، والقبض، والبسط، والفناء، والبقاء، وعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

قلت: وهذه الأحوال والمقامات المتقدم ذكرها لها شرح عند أهلها، العالمين بحقائقها، العاملين بها، السالكين لطرائقها، المتصفين بها والمصنفين فيها، الواردين إلى مواردها العذبة، والصادرين بالري عنها، والداعين إليها من توسموا فيه الفلاح والمعتمدين في السلوك عليها، والجانين منها زواكي فواكه جنان الوصل التي قلت فيها شعرا:

جنوا ثمر خوخ الخوف في روضة الرِّضى ... وإنجاص إخلاص وتين التوكلِ
وإرطاب حب قد جنتها يد الهوى ... وأعناب أشواق بها القلب ممتلىء
ورمان إجلال وتفاح هيبة ... وموز الحيا مُبدى رجا السّفرجل[٣]
جنان جنان عارف بمعارفٍ ... جنى من جناها كُل دانٍ مُدللِ

قلت: فقد تقرر ذلك بالتقرير الذي قررته أن الحقيقة موافقة للشريعة ليس بينهما مخالفة؛ وأن الحقيقة مشتملة على علم وعمل، فالعمل متعلق بعزائم الشريعة، والعلم بعضه متعلق بالعمل المذكور، وبعضه متعلق بصفات القلب، وبعضه بالاعتقاد، وبعضه متعلق بالخواطر، وبعضه وهو علم الحقائق متعلق بالمكاشفات والأحوال؛ فيا ليت شعري ما الذي ينكره كل أعمى البصيرة عديم السعادة على هؤلاء القوم الأصفياء السادة؟ أينكر عليهم التحلي بمحاسن الصفات، والتخلي عن مساويها، وطهارة القلب وجلاه من الصدإ، أم مخالفة النفس الأمارة بالسوء وتزكيتها ونهيها عن الهوى؟ أو الجد والاجتهاد ومواصلة الأوراد واستغراق الأوقات بالذكر ومراقبة المولى؟ أم حضور

---

(١) خلع فلان عذاره؛ أي انهمك في الغيّ ولم يستح منه واتبع هواه.
(٢) انظر حديث القشيري عن هذه الأحوال في رسالته.
(٣) السَّفَرْجَل: شجر مثمر من الفصيلة الوردية، ثمره غني بالفيتامين، رائحته طيبة وطعمه لذيذ يؤكل نيئاً وتُصنع منه مربيات وبزوره طبية. يكثر في سورية وغيرها.

القلب ونفي الغفلة عنه ومذموم الخطرات؟ أم الإقبال على الله والإعراض عما سواه من جميع المخلوقات، أم العمل بعزائم الشريعة المشتملة على مقامات اليقين التي هي عندهم التوبة عن الغفلة عن الله تعالى، والورع عن كل ما لا يقرب من الله، والزهد فيما سوى الله، والصبر انتظار الفرج من المولى، والسكون تحت موارد القضاء، والفقر الاستغناء بالله ومحو الحاجة إلى ما سوى الله، والشكر دوام مشاهدة المنة ودؤوب الطاعة في الظاهر والباطن لله، وعدم الاستعانة بنعم الله تعالى على معاصي الله، والحزن خوف الهجر والقلى، وأن لا يخاف غير المولى، والرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المولى مع عدم أنس مكره تعالى، والتوكل ترك الحركة والتدبير اكتفاء بعلم اللطيف الخبير في جميع الأشياء، كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء، والرضا سرور القلب؛ بمر القضاء أينكر عليهم هذه المقامات المذكورات، أم الأحوال الفائضة عليهم من فيض الفضل والمواهب السنيات؟ كالمحبة لله، والشوق إلى الله، والأنس بالله، والهيبة لله، والحياء من الله وغيرها من مواهب الله، الذي ليس لفضله منتهى، جل ربنا وعلا؛ أينكر هذه المذكورات أم ينكر المكاشفات وسائر الكرامات ومشاهدة الجمال، أم القرب من الحضرة القدسية، وشرب راح المحبة في كؤوس الوصال، فليس ينكر شيئاً من جميع هذه المذكورات إلا محروم النوال، عن طريق الخير، جامد غير ذائق ولا معتقد، مصدق بما خص به الرجال، ولا متأسف على ضياع عمره بغير نصيب من الراح التي قال فيها قائلهم:

هنيئاً لأهلِ الدير كم سكروا بها ... وما شربوا منها ولكنُهم هموا
على نفسِه فليبك من ضاع عمره ... وليسَ لهُ منها نصيبٌ ولا سهم

قلت: وها أنا أشرع في ذكر شيء من شرح بعض المقامات والأحوال، مختصراً المشروح والشرح من كلام الرجال، شرح المقامات والأحوال على سبيل الإيجاز والاختصار، من كلام العارفين أولي الأسرار، مصدراً بمقدمة لتعريف حال المؤلف الكاذب المتخلف.

اعلم أيها الواقف على هذا الكتاب، وفقنا الله سبحانه وإياك للصواب في العقيدات والنيات والخطرات والإرادات والحركات والسكنات، وحفظنا في الأقوال والأفعال، وسلمنا في سائر الأحوال، ووقانا سوء الخاتمة والأهوال، ووفقنا لصالح الأعمال، وختم لنا بالحسنى وبلغنا نهاية الآمال؛ وأحبابنا والمسلمين آمين، أني لا أصلح أن أكون خادماً لخادم السادات المذكورين، ولا صحت لي إلى الآن التوبة التي هي أول مقامات السالكين، وإنما ذكرى لهم ولطريقتهم وما أنا إليه من الحب لهم ذاهب لكونهم أهل الاشتغال بالله سبحانه وأرباب المواهب، فلهذا كان ارتياحي إلى ذكرهم، والتأليف في طريقهم وعلمهم دون سائر العلوم، مع أني أحب سائر المتقين والعلوم المحمودة على العموم، لكني أجد في قلبي تمييزاً وتخصيصاً لهذه الطائفة وطريقهم، فحداني ذلك إلى بغض عدوهم وحب صديقهم، لا جرم ألفت هذا الكتاب في الثناء عليهم والذب عنهم، ثم تطرق ذلك إلى ذكر مقاماتهم المشتملة على الطريقة وأحوالهم المتضمنة للحقيقة لبيان كونها غير مخالفة للشريعة؛ وذلك بطريق تطفلي على حكايات فضل أولي الفضائل، وعيشهم الناعم الطائل، على مقتضى ما أنا في بعض قصائدي قائل:

ويا طيبَ عيشٍ ناعمٍ من رآك لم يرَ عيشَ غير عيش مكتلِ
وما ذاقكَ الحاكي ولا شم أو رأى ولكن بإخبارِ الصدوق المُعدلِ
طفيلي حال لي زرى فضوله حكى فضل حال الأولياء بالطفلِ

وعلى الجملة فذكرى لهم محبة واعتقاداً فيهم، وتلذذاً بذكرهم وارتياحاً إلى نشر أخبارهم الزكية، وذكر أحوالهم الرضية، الفائح نشرها من نعمان الأحبة بالغدو والأصائل، مستدعياً لتحدث بها استدعاء قول للقائل شعرا:

إيه أحاديث نُعمان وساكنيه إنَّ الحديثَ عن الأحبابِ إسمارِ
أستنشقُ الريح عنكُم كلما نفحت منْ نحو أرضكم نكباء معطارِ

وأستغفر الله العظيم الرحمن الرحيم من كلامي في شيء لست من أهله، لا علماً ولا عملاً، ولا مقاماً ولا حالاً، ومن جميع ذنوبي، وأسأله التوبة والمغفرة لي ولأحبابي والمسلمين آمين، إنه هو الغفور الرحيم التواب الكريم.

فصل

في فضل مقامات السالكين وأهلها، وفي الرمز إلى شيء من قولهم في شرحها على جهة التنبيه، والإشارة إلى فضلهم وعلو شأنهم وشرف هممهم العاليات، مشتملة على عشرة من المقامات الحميدات، وعشرة من الأحوال السنيات، من غير التزام ترتيب بين المقامات الكسبيات، ولا بين الأحوال الوهبيات، وسميتها «جواهر معارف أهل السلوك التي لا تلقى في خزائن الملوك، المنقلبة من نحاس الضلالات بإكسير هدى عقاقير المقامات»، وهي هذه:

إذا رمت إكسير الهُدى قالباً به نحاس ضلال جوهر خذه منعوتا[1]
عقاقير من فقرٍ وزهد وتوبة ومع ورع صبر يكن مرة قوتا
وشكر وخوف مع رجا وتوكل وحُسن رضي فيما بِه منْ قضاتوتى
فضعها معاً في بوطِة الصدق موقداً بنارِ الشَّجي تأتيك دراً وياقوتا
جواهرُ لا تلقى بكل خزانة ترى من رآها واله العقلِ مبهوتا
فلو ملك ينظر لها كابن أدهم رأى ملك كل الأرض في الحال ممقوتا
وخلى جميع الملك بالزهدِ سائحاً ولو أنهُ بالملكِ يشبهُ طالوتا
وصارَ على الأيام أشعث ضامراً براً النّسك جسماً منهُ كالعودِ منحوتا
وأضحى يسلكُ للمقاماتِ راقياً إلى خير ملك ليس يبلى له يوتى

---

(١) الإكسير: مادة كان الأقدمون يزعمون أنها تحوّل المعدن الرخيص إلى ذهب. أو هو شراب في زعمهم يطيل الحياة (مع).

وألقى ملوكُ الأرض والوحش في الفلا وطير الهوى طوعاً وفي اللججِ الحوتا
وكل الوجود انقاد طوعاً لهُ كما أطاعَ بقلب صارَ بالخوفِ مفتوتا
وقد رَمت رمزاً في مقامات سالك ولا قدم لي قط في السلك مثبوتا
كفاني انتسابي للكرام ومدحهم كما جاهدوا في الله طاغ وطاغوتا
فثانيهما ما قط يمكن قتله ولكن جهاد لا يرى عنه مسكوتا
وفي القتلِ للطاغي عظيم مشقة عدو حبيب أي ما حيله توتى
فجاؤوا به في القيدِ من معركِ الوَغَى وكم في هوى الطغيان يقوهُ مفلوتا
ورامُوهُ تهديداً على صدق توبة فما تابَ مكبولاً مهاناً ومبكوتا
فحلوه كي في الحرب يجمل قتله فعادَ لقطعِ السبل بالسوء منعوتا
فرووا قنا عندَ اللقا من دمائهِ كقتل ببدرٍ أو كقتل لجالوتا
فَأَضحَى طريق القوم بالنَّصر آمناً كأن لديهم للسكينة تابوتا
وقد هربَ الطاغوتُ في قتل طاغي كبدرٍ وكم من شامت صار مشموتا
وما كانَ حيزوم هُناك وإنما لتشبيه نصر ليس يبرح سبتونا
فساروا بلا مهلٍ إلى جانبِ العُلى على حد سيف في سما المجد مسموتا
طريقٌ به الأخطار والوعر والظَّما ويعتاض ذكر الله عن جوعهِ قوتا
ولكنهُ يفضي إلى كُل راحة وسعد على الآباد يا سعد من يؤتى
إذا رمتَ في وصفِ الطريق تمثلاً فخذ در مصراع وكمله ياقوتا
تُريدين إدراك المعالي رخيصة وبالعسِر غالي الحسن ما زال منعوتا
وللقومِ في تلك الطريق منازل إذا عددت ألف ولكن مبتوتا
سريعاً بعونِ الله يقطع بعضهم بيوم وعامٍ أو بسبعينَ ملفوتا
إذا ما التفات شاب ذاك ولم يكن هوى سالك متأصل القطع مسحوتا
وما قطعت إلاَّ بتوفيق ربنا فيا ربّ وفق واعف ما كان ممقوتا
ومن تلك عشر فاستمع رمز شرحها واصغ لتنبيهِ ولا تكُ مشتوتا
فتوبتهم عن غفلةٍ ما وصبرهم جهاداً لكي تحيا الفتى يلتقي الموتا
بحكمِ القضاءِ استسلامهم في توكل سكونا كما مع غاسل سكن الموتى
فما لم يقدره القضا فهو فائت وما كان مقدوراً فليسَ يرى فوتا
وما الفقر إلاَّ الفخر والعز والغنى مدى الدهر يبقى ليس ذلكَ موقوتا
وعن رؤيةِ النَّعماء غابوا بمنعم فما الشكر إلاَّ السكر أو في الهوى حوتا
ومن شكرهم لا يستُعان بنعمة لعصيانِ مسريها فيشبهُ طاغوتا
لهم ورع عن غير مولى وزهدهم أنالَ طلاقاً ما سوى الله مبتوتا
مني وقلي كانا رجاهم وخوفهم بقربٍ وبعد مصطفى ثم ممقوتا
ومر القضا شهد الرضا ولهيبه هو الثلج ذا في ذاك ذاقوهُ ملتوتا

فدارتْ كؤوسُ بعد ذا حين شاهدوا جمالاً لمولى بالكمالاتِ منعوتا
سقاهُم جميعاً الحب في قُدس حضرة مقدسة لم تأتِ حاناً وحانوتا
ولم تسقها ليلى وسعدى وعزة ولا ذاقها من لم تذق نفسه الموتا
منزهة في السكر والوصلِ والغنى فلم تحك لاهوتا هُناك وناسوتا[1]
حياء وشوقا ثم أنساً وهيبة بقاء وقرباً بل خطاباً ولا صوتا
حبت شاربيها كل حال سنية يفوز بكل السعد من بعضها يُوتى
ثنت في ابتداء ميدان فضل عنانها وود حصان المدحِ لو كان مَفْلُوتا
وأبياتها خمسون من نظمِ موثق بقيدِ الخطايا والعلائق مكفوتا
وتمت بحمدِ الله أزكى صلاته على سيدِ الأحيا من الخلقِ والموتى

قال: ناظم هذه القصيدة غفر الله تعالى له وللمسلمين: وها أنا أنبه على شيء من شرح معاني ألفاظ هذه القصيدة، ثم أردف ذلك إن شاء الله تعالى بتكميل ما وعدت به من شرح الأحوال والمقامات المذكورات فيها من أقوال السادات الرجال. فأقول وبالله تعالى التوفيق: أيها المريد سلوك طريق العارفين الموصلة إلى حضرة القدس ورياض الأنس برب العالمين، إذا طلبت أن تقلب من ضلال ظلمة عماك صفاته النحاس، الحاكية لصفة النحاس إلى صفة جواهر هدى نور البصيرة الغاليات النفاس، فعليك بإكسير يكسر حدة طبع النفس الرديئة المجبولة على حب الحظوظ الدنيئة، المتصفة بالهوى وسائر الصفات الذميمة المبعدة عن الله عز وجل، وعن نيل العطايا الكريمة الحائلة بينها وبين أعز المطالب وأشرف المواهب العالية الغالية السنية الرضية، بصفاتها البهيمية والسبعية والشيطانية، وطينتها الأرضية فإذا كسر الإكسير صفاتها الذميمات، كساها بقلبها بسر مودع فيه وخاصية خواص الصفات الحميدات.

فإن قلت: وما ذلك الإكسير، وهل هو مفرد أو مركب؟

قلت: هو إكسير كيميا السعادة التي خص الله سبحانه بها أصفياء الله السادة، وهو مركب من عشرة عقاقير تعقر بسيف خاصيتها أرجل الطباع القباح، حتى تسقط عن محلها وتعوضها الصفات الملاح، الموصلات بفضل الله تعالى إلى الاصطفاء والصلاح، والعشرة العقاقير المذكورة الحميدة، هي ما اشتمل عليه البيت الثاني والثالث من هذه القصيدة، وهي: الفقر، والزهد، والتوبة، والورع، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرضا، فهذه إكسير الهدى الذي قلت لك في البيت الأول خذه منعوتاً، أعني موصوفاً، فضعها جميعاً فوق نحاس الضلال، عن طريق الرشد في البوطة المتخذة من طين جوهر الصدق، في حال كونك موقداً عليها بنار شجي تعلق القلب بالله، ينقلب لك جميع ذلك دراً وياقوتاً، يكون النظر إليهما لقلبك قوتاً، أعني إذا أردت أن ينقلب نحاس ضلال جهلك بمعرفة الله تعالى وبعدك عنه إلى در هدي المعارف وياقوت حكم العلم بالله مع الجلوس على بساط القرب من الملك القدوس، فاسلك هذه المقامات المذكورات مع التحقيق

(١) اللاهوت: الألوهية، وأصله لاه، بمعنى إله؛ زيدت فيه الواو والتاء مبالغة.

بالصدق واحتراق القلب بلوعة نار شجي تعلق القلب بالمحبوب. ومعنى الصدق: قيل الوفاء لله تعالى بالعمل، وقيل أن لا ترى إلا في فرض تؤديه أو فضل تعمل فيه، وقيل أقله استواء السر والعلانية، فقولي:

إذا رمت إكسيرَ الهُدى قالباً بهِ ... نحاس ضلال جوهر أخذه مَنعُوتا

رام بمعنى طلب، والمرام المطلب، والإكسير ما تنقلب به الأعيان إلى أعيان أخرى، والهدى مصدر قولك هداه الله هدى إذا وفقه لسلوك طريق الحق المفضية إلى سعادة الأبد، والشرف الحميد الممجد، والضلال نقيض الهدى وهو مصدر قولك ضل يضل إذا أخطأ الطريق المحمودة، ومال إلى طريق مذمومة، وإلى هذا المعنى أشرت بقولي:

حميد طريقي إنْ مشى بي إلى العُلى ... وإنْ مالَ بي عن نهجها فذميمُ
فمنْ سارَ في نهجِ العُلى فهو مُهتد ... ومن زاغ عنها في الضلال يهيم

ويطلق الهادي على الدليل، ومنه قول القائل:

وقل صاحب لي ضل في الرملِ قلبه ... لعلك أنْ يلقاك هاد فتهتدي

ويطلق أيضاً على العلامة والشيء المهتدي به، ومنه قول الخنساء(1) في مدح أخيها:

وإنَّ صخراً لتأتمُ الهُداة بهِ ... كأنهُ عَلَمٌ في رأسه نارُ

تعني بقولها علم: جبلا، والنحاس معروف، وكذلك الجوهر، والمعنى: إذا طلبت إكسيراً محاولاً به قلب الضلال هدي بعناية السعادة كما ينقلب النحاس جوهراً بإكسير العادة، فخذ الإكسير المطلوب في حال كونه منعوتاً، ثم نعته بقولي:

عقاقيرُ من فقرٍ وزهدٍ وتوبة ... ومع ورع صبر يكنْ مرهُ قوتا
وشكر وخوف مع رجا وتوكل ... وحُسن رضا فيما به من قضا يوتا

والعقاقير في اللغة: أصول الأدوية، واحدها عقار، خلق الله تعالى فيها خاصية ومنفعة فهذه العشرة العقاقير، وإكسير الهدى مركب من جميعها، وهي العشر المنازل من مقامات السالكين التي سيأتي شرحها إن شاء الله تعالى فيما بعد بقولي: ومن تلك عشر فاسمع رمز شرحها، ومعنى يكن مره قوتاً: أي اجعل تجرع مرارة الصبر بمنزلة القوت الذي لا غنى لك عنه، إذ القوت ما يقوم به بدن

---

(1) هي تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد (توفيت ٢٤ هـ/ ٦٤٥ م) الرياحية السلمية من بني سُليم من قيس عيلان، من مضر. أشهر شواعر العرب. أدركت الإسلام فأسلمت ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها فكان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها. أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية. لها ديوان شعر، وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعاً. الأعلام ٢/ ٨٦، وشرح الشواهد ٨٩، ومعاهد ١/ ٣٤٨، والشعر والشعراء ١٢٣، والدر المنثور ١٠٩.

الإنسان من الطعام، والصبر ما يقوّم به قلبه ويصح من الأسقام، ومن مر الصبر المذكور تجرع الغصص والشدائد ومكابدة مجاهدات النفس ومحاربات الشيطان، واحتمال الأذى من الخلق والقيام بالحق، حتى يعقب هذا القوت المر قوتاً حلواً، وغذاءً نافعاً وحياة طيبة، وتحفاً هنية وعيشة راضية وسعادة أبدية، وقولي:

فضعها معاً في بوطة الصدق موقداً بنار الشجا تأتيك درا وياقوتا

أي اجمع جميع هذه العقاقير المذكورة واجعلها في بوطة الصدق الخالص، كما يجعل الصائغ الذهب والفضة في بوطة الطين الخالص حين يستخلصهما، وليكن جعلك لها في البوطة المذكورة في حال كونك موقداً عليها بنار الشجا: أي في حال، احتراق قلبك لشجنه بتعلقه بمحبة الله عز وجل، وتأتيك دراً وياقوتاً جواب الأمر، وهو قولي فضعها، وإنما لم أحذف الياء من تأتيك لضرورة الوزن، كما في قول الشاعر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تنمي بما لاقَتْ لبون بني زياد

والمعنى: أنك إذا جعلت هذه العقاقير العشرة التي هي إكسير الهدى على نحاس الضلال في البوطة المذكورة، وأوقدت عليها بالنار المذكورة أتتك العقاقير والنحاس جميعاً منقلبة در معارف وياقوت حكم، والبوطة ظرف صغير من طين مخصوص يجعل فيه الصائغ الذهب والفضة عند سبكهما واستخلاصهما، وقد استعرت في هذا النظم للهدى جوهراً، وللضلال نحاساً، وللمقامات عقاقير، وللعقاقير إكسير، وللإكسير بوطة من الصدق، وللبوطة ناراً من الشجا، وللنار إيقاداً من الشاجي، وللمعارف دراً وللحكم ياقوتاً. وقولي:

جواهرُ لا تُلقى بكلِ خزانة ترى من رآها واله العقلِ مَبْهوتا

هو بنصب جواهر بدلاً من الدر والياقوت، ويجوز الرفع على الاستئناف: أي الدر والياقوت المذكوران هما جواهر لا توجد في خزانة من خزائن الملوك ولا غيرهم، والخزانة واحدة الخزائن تقول: خزنت المال إذا جعلته في الخزانة، كل من رأى تلك الجواهر صار واله العقل مبهوتاً، لشدة الحيرة والدهشة والفناء بالمشاهدة، قال بعض أئمة اللغة: يقال بهت الرجل بفتح الباء وكسر الهاء إذا دهش وتحير، وبهت بضم الهاء مثله، وأفصح منهما بهت كما قال الله تعالى: ﴿فبهت الذي كفر﴾ [البقرة: ٢٥٨] لأنه يقال رجل مبهوت ولا يقال باهت ولا بهيت - انتهى كلامه. وقولي:

فلو ملك ينظر لها كابنِ أدهم يرى كل ملك الأرض في الحالِ ممقوتا

أي فلو ينظر تلك الجواهر ملك من ملوك الأرض كنظر إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه إياها، لرأى ملك جميع الدنيا في الحال بعين المقت مبغوضاً حقيراً زرياً مستحق الإعراض بالقلب والقالب عنه، وصرفهما إلى الجواهر المذكورة، يقال مقته مقتاً إذا أبغضته فهو مقيت وممقوت. وقولي:

وخلى جميع الملك بالزهدِ سائحاً ولو أنهُ بالملك يشبهُ طالوتا

أي وخلى حينئذٍ جميع ملكه بسبب الزهد فيه لحقارته في عينه، ومعنى خلى ترك وانتصب سائحاً على الحال: أي وترك ذلك في حال كونه سائحاً في الفلوات القفار. متلذذاً بمناجاة الحبيب مستأنساً بالملك الغفار، نشواناً من راح الهوى خالعاً للعذار، إذ ملك جميع الأرض حقير عنده بالنسبة إلى ما رآه وأمل حصوله ورجاه، ويجوز بل يحسن أن يكون فخلى بالفاء السببية: أي رآه ممقوتاً فخلاه بسبب مقته. وقولي:

وصـارَ علـى الأيـامِ أشعـثَ ضـامـراً | يرى النُّسك جسماً منه كالعود منحوتا

أي وصار على مدى الأيام بعد الزينة والنعيم والجسم الناعم الجسيم أشعثَ ضامراً قد برت العبادة جسمه حتى صار كالعود المنحوت، وهو المبرى متصفاً بقوله ﷺ «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره». وبقوله القائل:

وكـانـت علـى الأيـامِ نفسـي عـزيـزة | فلمـا رَأَتْ صبـري علـى الـذِل ذلـتِ
ويـا ربّ ذل سـاق للنفـس عـزة | ويـا رُبّ نفـس بـالتـذلـلِ عـزت

وانتصب منحوتاً على الحال. وقولي:

وأضحـى يسلـكُ للمقـامـاتِ راقيـا | إلـى خيـرِ ملـك ليسَ يبلـى لـه يـوتـى

أشرت بذلك إلى أنه لم يقتصر على الطريق القاصرة نهايتها عن بداية طريق الرجال المدام عليها حجر الصبي بإسبال الحجاب المانع عن مشاهدات الجمال، أعني لم يعرج في سيره على طريق الزهاد والعباد، بل عدل عنها إلى سلوك طريق العارفين النجباء الأمجاد، راقياً بسلوك مقاماتها إلى شرف الملك الخطير الباقي على الآباد، الذي يخضع لصاحبه ملوك الأرض وجميع المخلوقات، فالوجود بأسره له طائع منقاد، لما أطاع الله تعالى أطاعه كل شيء، وكذلك لما استولى خوف الله تعالى عليهم بحيث فتت قلوبهم المنورات خافهم جميع المخلوقات، وإلى جميع ذلك أشرت بقولي في هذين البيتين:

وألفى ملوك الأرضِ والوحش في الفَلاَ | وطيرُ الهوى طوعاً وفي اللججِ الحوتا
وكـل الـوجـود انقـادَ طـوعـاً لـه كمـا | أطـاعَ قلـب صـارَ بـالخـوفِ مفتـوتـا

اللجج: جمع لجة، ولجة الماء معظمه، ومنه قوله تعالى: ﴿بحر لجي﴾ [النور: ٤٠] والمفتوت المكسر، يقال فت الشيء: أي كسره فهو مفتوت وفتيت. قال الزبير بن عبد المطلب[١]:

ولكنـــا خُلقنـــا إذ خلقنـــا | لنـــا الخيـــرات والمُســك الفتيــت
وصبـــر فـــي المـــواطـــن كـــل يـــوم | إذا خفـــت مـــن الفـــزع البيـــوت

---

(١) هو الزبير بن عبد المطلب بن هاشم أكبر أعمام النبي ﷺ أدركه النبي في طفولته، وكان يُعد من شعراء قريش إلا أن شعره قليل. الأعلام ٣/ ٤٢، والجمحي ١٩٥ و٢٠٥، والروض الأنف ١/ ٧٨، وسمط اللآلي ٧٤٣.

وفي معارضه قوله في هذين البيتين قلت نائباً عن لسان حال الأولياء السالكين الأصفياء المقربين. هذه الأربعة أبيات:

ولكنـــا خلقنـــا إذ خلقنـــا لنـا زاهـي المقـامـات العـوالـي
وراحَ فـي حضيـر القـدس نسقـي وخلعـات الـولايـات الغـوالـي
وصبـر فـي جهـادِ النَّفـس حتـى نـذوقَ المـوتَ فـي كسـبِ المعـالـي
معـالـي مجـد ملـك ليـسَ يبلـى ولاَ بـالمـوتِ إذ نلقـى نبـالـي

وقولي:

وقـد رمـت رمزاً فـي مقامـاتِ سـالـك ولا قـدم لـي قـط فـي السلـك مثبـوتـا

أعني أردت أن أشير إلى تنبيه ما في شرح مقامات السالكين المذكورة في هذه القصيدة على وفق هممهم العالية، مع اعترافي بالعجز عن سلوك تلك الطريق، وأنه ليس لي قدم مثبت عند أهلها أولى التحقيق، يقال ثبت قدم الرجل فهو ثابت، وثبت بضم المثلثة وتشديد الموحدة المكسورة فهو مثبت بفتحهما والتشديد، وأثبت فهو مثبت بإسكان المثلثة وفتح الموحدة. وأما منبوت فقد قال في الصحاح: يقال أنبت الله البقل فهو منبوت على غير قياس.

قلت: ولا يبعد أن يقال أيضاً أثبت قدم فلان فهو مثبوت، والمراد بثبوت القدم المذكور الاستقامة في سلوك طريقهم، وأما السلك فهو مصدر يقال سلك يسلك سلكاً وسلوكاً. وقولي:

كفـانـي انتسـابـي للكـرامِ ومـدحهـم كمـا جـاهـدوا فـي الله طـاغٍ وطـاغـوتـا

أعني انتسابي إلى مذهب السادات الكرام، ومدحي لهم وحبي إياهم على الدوام يكفيني ويوصلني إن شاء الله تعالى إلى بلوغ المرام، بل حبهم وحده كاف كما قال سيد الأنام عليه أنضل الصلاة والسلام في الحديث الصحيح المنتخب، أعني قوله ﷺ: «المرء مع من أحب» والمراد بالكرام هنا الأمجاد. قال في الصحاح المجد الكرم، وقد مجد الرجل بالضم فهو مجيد وماجد. قال: وقال ابن السكيت: الشرف والمجد يكونان بالآباء، يقال شريف له آباء متقدمون في الشرف والحسب والكرم يكونان في الرجل وإن لم يكن له آباء لهم شرف انتهى كلامه. وكما جاهدوا في الله متعلق بالمدح: أي ومدحي لهم كما جاهدوا في الله النفس والشيطان، وإليهما أشرت بقولي: طاغ وطاغوتاً، فالنفس العدو الطاغي، قال الله عز وجل: ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ [العلق: ٦] والشيطان، هو الطاغوت كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وعبد الطاغوت﴾ [المائدة: ٦٠] أنه الشيطان وقيل هو كل معبود باطل، والطاغي قيل العاتي المتجاوز عن حده البطر المستكبر على ربه. وقولي:

فثـانيهُمـا مـا قـط يمكـن قتلـه ولكـن جهـاد لا يـرى عنـهُ مسكـوتـا

أعني الثاني من المذكورين وهو الشيطان نعوذ بالله منه، لا سبيل إلى قتله والاستراحة منه بالكلية، بل لا تؤمن غائلته إلى خروج الروح، وهو عند الموت أشد وسوسة وأعظم حرصاً على الإغواء والإخراج من دين الإسلام، استجرنا بوجه الله الكريم من ذلك، وإذا كان كذلك فنحتاج إلى

جهاده على الدوام، ولا يسكت عنه ويهمل على ممر الأيام، ويكثر من الاستعاذة منه بالله عز وجل والالتجاء إليه، مع التحقق بالإيمان به سبحانه والتوكل عليه، وقد ذكر بعض الشيوخ العارفين أن الله تعالى افترض على خلقه فريضتين في آية واحدة والخلق عنها غافلون، فقيل له: وما هي؟ فقال: قال جل جلاله ﴿**إن الشيطان لكم عدو**﴾ [الأعراف: ٢٢] فوصفه بالعداوة لنا، ثم قال: ﴿**فاتخذوه عدواً**﴾ [فاطر: ٦] فهذا أمر منه تعالى لنا أن نتخذه عدواً، فقيل له: كيف نتخذه عدواً ونتخلص منه؟ فقال: اعلم أن الله عز وجل جلاله جعل لكل مؤمن سبعة حصون، قيل له: وما هذه الحصون؟ قال: الحصن الأول من ذهب وهو معرفة الله تعالى، وحوله حصن من فضة وهو الإيمان بالله تعالى، وحوله حصن من حديد وهو التوكل على الله سبحانه، وحوله حصن من حجارة وهو الشكر والرضا عن الله عز وجل، وحوله حصن من فخار وهو الأمر والنهي والقيام بهما في جميع الأحوال، وحوله حصن من لؤلؤ رطب وهو أدب النفس، فالمؤمن داخل هذه الحصون وإبليس من ورائها ينبح كما ينبح الكلب، والمؤمن لا يبالي به لأنه قد تحصن بهذه الحصون، فينبغي للمؤمن أن لا يترك أدب النفس في أحواله ولا يتهاون به في كل ما يأتي، فإن من ترك أدب النفس وتهاون به يأتيه الخذلان من فوق لتركه الأدب، ولا يزال إبليس نعوذ بالله منه يعالجه ويطمع فيه ويأتيه الخذلان من الله تعالى لتركه حسن الأدب حتى يأخذ منه جميع الحصون ويرده إلى الكفر فيخلد في النار، نعوذ بالله من جميع ذلك.

قلت: ذكر الشيخ المذكور رضي الله تعالى عنه أن في الآية المذكورة فريضتين وقد يشكل ذلك يقال ليس فيها إلا فريضة واحدة وهو قوله تعالى: ﴿**فاتخذوه عدواً**﴾ [فاطر: ٦] إذ الأمر يقتضي الوجوب عند عدم قرينة تدل على خلافه، وقد سألني بعض الناس عن الفريضة الثانية أين هي من الآية المذكورة؟ فأجبته بأن فيها فريضة علمية وفريضة عملية؛ فالأولى العلم بكونه عدواً، والثانية العمل في اتخاذ العداوة له. وذكر الشيخ المذكور أن الشيطان نعوذ بالله تعالى منه لا يزال يأخذ الحصون المذكورة حتى يرد العبد إلى الكفر فيخلد في النار، نعوذ بالله من ذلك. وما قاله في ذكر هذه الحصون في نهاية الحسن والتحقيق، ولكن قد يستولي الشيطان على بعض الحصون المذكورة دون بعض، فيرد العبد إلى الفسق دون الكفر فيستحق النار من غير تخليد. وقد لا يرده إلى الفسق ولكن يرده إلى ضعف الإيمان فلا يستحق النار، ولكن يستحق النزول عن مقام أهل الإيمان الكامل، وكل هذا التفاوت بحسب تفاوت الحصون المذكورة، فليس أخذ حصني المعرفة والإيمان كأخذ بقية الحصون المذكورة، وبقية الحصون تتفاوت أيضاً، فليس أخذ حصن الصدق والإخلاص كأخذ حصن الأمر والنهي، وكذلك سائر الحصون والكلام فيها يطول، ولكن مهما بقي حصن الإيمان وحصن التوكل الكاملين للعبد لم يقدر عليه الشيطان لقوله تعالى: ﴿**إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون**﴾ [النحل: ٩٩] وهؤلاء هم المتصفون بالعبودية الكاملة لقوله تعالى: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ [الإسراء: ٦٥] وهو المؤمنون حقاً لقوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ [الأنفال: ٢] إلى قوله تعالى: ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ [النحل: ٤٢] ثم قال سبحانه في آخر وصفهم: ﴿**أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾ [الأنفال: ٤] وقد يكون أخذ حصن واحد مؤدياً إلى الكفر وموقعاً في التخليد في النار كحصن الإيمان ولكن لا يقدر على أخذ حصن الإيمان حتى يأخذ

الحصون التي حوله إن كانت موجودة، نسأل الله الكريم التوفيق والهدى والسلامة من الزيغ والردى، وقولي:

وفـي القتـل للطـاغـي عظيـم مشقـة   عـدو حبيـب أي مـا حيلـة تـوتـى

أعني أن النفس يمكن قتلها لكن بمشقة عظيمة لا يقدم عليها إلا ماجد وفق للصبر وأيد بالنصر، وأشهد عظيم فضل العوض، وشدة العداوة والحقارة في المعوض، فهان عليه بذله وإن كان حبيباً، وأسرع إلى داعي الزهد فيه مجيباً، ووجه المشقة المذكورة في قتله ما ذكرت من كون العدو حبيباً، وفي أي ما حيلة تؤتى وجهان: أحدهما لا حيلة في ذلك تؤتى، ويكون الاستفهام على هذا الوجه استفهاماً إنكارياً. والوجه الثاني استفهام في التماس نظر دقيق في معرفة حيلة يأتونها في محاولة تحصيل الغرض الجامع بين مصلحتي الأمن من شر العدو والسلامة من قتل الحبيب، وهذا الوجه هو الظاهر الراجح، ويدل عليه ما بعده وهو قولي:

فجاءا به في القيدِ في معركِ الوغى و   لـم فـي هـوى الطغيـان يبقـوهُ مفلـوتـا

أي فرأوا أن ما ثم حيلة يأتونها مشتملة على الغرض المذكور سوى أن يأخذوه أسيراً في معرك الوغى، أعني من موضع معاركة الأقران ذوي العداوة والأضغان إذا التقت الفتيان واشتعلت الحرب بنار الضرب والطعان، ويقيدوه ولا يفلتوه ولا يتركوه باقياً على ما يهوى من الطغيان، ويهددوه بالقتل حال تقييده وإهانته وكبته، لعله يتوب توبة صادقة، وهي التوبة النصوح: أي الخالصة، ففعلوا به ذلك فلم يتب، وإلى ذلك أشرت بقولي:

فـرامـوهُ تهـديـداً علـى صـدقِ تـوبـة   فمـا تـابَ مكبـولاً مهـانـاً ومكبـوتـاً

والمكبول المُقيد، قال أهل اللغة: الكبل القيد الضخم، يقال كبَلت الأسير وكبّلته بالتشديد إذا قيدته فهو مكبول ومكبل، والمكبوت المذل المقهور المخزي، فلما تحققوا أنه لا ينفع فيه إلا القتل عزموا على ذلك وكرهوا قتله مأسوراً في أيديهم، ورأوا أن قتله في الحرب أجمل، فتركوه ليقتلوه في حال الحرب قتلاً يجمل بهم وهو في قولي:

فخلـوه كـي فـي الحـربِ يجمـل قتلـهُ   فعـادَ لقطـعِ السبـل بـالسـوءِ مَنْعـوتـا

وأول البيت بالخاء المعجمة وفتح اللام، أعني فخلوه، ويجوز بالحاء المهملة وضم اللام من حل الوثاق، فلما طلقوه رجع إلى عادته في قطع طرق الخير حال كونه موصوفاً بالسوء، وإليه الإشارة بقولي بالسوء منعوتاً، وأشرت بالوصف بالسوء إلى ما نطق به القرآن العظيم في قول الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ [يوسف: ٥٣] فلما أصر العدو المذكور على قطع الطريق أجروا عليه حكم القطاع فقتلوه، لأن حكم الشرع في قطاع الطريق أنهم يقتلون إذا قتلوا، أو لم يندفعوا في حال المحاربة إلا بالقتل، وكلا الوصفين موجود في النفس، فكم قتلت من قتيل، وكم قطعت عن الخير من سبيل، ولم تندفع بكثير ولا قليل، وإلى القتل المذكور أشرت بقولي:

فـرووا قنـا عنـد اللقـا مـن دمـائِـه　　　كقتـلٍ ببـدرٍ أو كقتـلٍ لجَـالـوتـا

أعني خضبوا رماحهم في دم العدو المذكور بقتله، فاستعرت القتل لإلزام النفس الخروج عن صفاتها وإلجائها إلى ذلك حتى خرجت عنها، واستعرت لقتلها رماحاً، وللرماح ظمأ، وللظمأ رياً بدم العدو؛ وفي استعارة الظمأ للرماح أحسن حسان رضي الله تعالى عنه حيث قال:

عـدمنـا خيلنـا إنْ لـم تـروهـا　　　تثيـر النقَـع مـوعـدهـا كـداءِ[1]

بنـارِ عـن الأعنـة مصعـدات　　　علـى أكتـافهـا الأسـل الظمـاءِ

أشار إلى سقي الأسل وهي الرماح من دماء العدو بالطعن فيهم، ولم يزل يقول إلى أن قال:

وكـان الفتـح وانكشـف الغطـاء

فكان كما قال إنجازاً للوعد من الله الكريم لنبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم بقوله عز وجل: **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾** [الفتح: ١] بعد قوله تبارك وتعالى: **﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** [التوبة: ٣٣].

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2] وقد ذكر بعضهم أن الجهاد الأكبر المذكور جهاد النفس، وكذلك قال بعض المفسرين: إنه قهر الهوى، وعلى ذلك حمل قوله تعالى: **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾** [الحج: ٧٨] وإنما قلت من دمائه بلفظ الجمع لإقامة الوزن، وقد يقال أيضاً في القتيل مخضوب بدمائه، ويحتمل فيما ظهر لي أن جمعه لكثرة خروج الدم وتعقب بعضه بعضاً، أو لكثرة الخراج وانفراد كل واحد منها بدم، ويكون تعدد دماء النفس في البيت المذكور لأجل تعدد صفاتها المذمومة المخرجة عنها قهراً، ففي كل صفة اضطروها إلى الخروج عنها خرج فيها بالطعن والضرب برماح المخالفة وسيوفها منفرد بدم، وفي قولي: «كقتل ببدر أو كقتل لجالوتا» تشبيه للنصر بالنصر الظاهر المؤيد بإعادة الله تعالى ودعوته واستئصال شأنه رأس الطغيان، مع قوة العدا وشدة شوكتهم والضعف عن مقاومتهم لولا نصر الله سبحانه، كذلك نصرهم على النفس الطاغية حتى قتلوها برماح المجاهدة وسيوف المخالفة لهواها، وألزموها الموافقة والطاعة لمولاها، والتخلي عن المساوىء بإزالة الصفات المذمومات، والتحلي بمحاسن الأدب والصفات المحمودات، والتشمير عن ساق الجد في سلوك المقامات إلى الحضرة القدسية، والفوز بالقرب والعطايا السنيات، فصارت حية بعد موتها، منيرة بعد ظلمتها، صديقة بعد عداوتها، منقادة بعد جمحها، مطواعة بعد رمحها، مطمئنة أمارة بالخير بعد سوئها وشرها، تاركة لحظوظها بعد ما طال فيها انهماكها، معظمة لشعائر الله تعالى بعد ما عظم فيها انتهاكها، مسلمة في جميع الأمور بعد ما طال فيها شدة نزاعها، سماوية بعد ما كانت أرضية بطباعها، متصفة بمحاسن الأدب الموصلة إلى أعلى الرتب، فلما رأى

---

(١) النَّقْع: الغبار المرتفع والمنتشر يثور في الجو. كداء: جبل بأعلى مكة.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٣/ ٤٩٣).

الطاغوت قتل الطاغي، والنصر العزيز والفتح المبين من الله الكريم، هرب كما هرب ببدر، وصار مشموتاً به بالظهور على النفس وعليه، وأمان الطريق منهما بالقتل والهرب المذكورين بعد أن كان شامتاً بظهورهما، وإلى ذلك أشرت بقولي:

فأضحى طريق القوم بالنَّصر آمناً ... وكان لديهم للسكينةُ تابوتا

وبقولي:

وقد هربَ الطاغوتُ في قتل طاغي ... كبدرٍ وكم من شامتٍ صارَ مشموتاً

والواو في «وقد هرب» واو الحال، وإنما قلت في قتل طاغي بإثبات الياء وتنوينها لضرورة الوزن، وذلك جائز في الشعر، والشماتة الفرح ببلية العدو، وأضحى هنا بمعنى صار، وكان لديهم للسكينة تابوتاً: أعني كأنهم في نصرهم على النفس المباردة بين أيديهم في وقت قتالهم لها التابوت الذي كانت بنو إسرائيل تقدمه بين أيديهم عند القتال فلا يقوم لقتالهم أحد، وهو الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وقد جاء في التفسير أنه كان من عود عليه صفائح ذهب نزل به آدم وفيه صور الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، وبيوت بعددهم وفي السكينة التي كانت فيه أقوال: منها ما قيل إنها ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان؛ وقيل هي مثل رأس الهر من زبرجد[1]؛ وقيل طست[2] من ذهب يغسل فيه قلوب الأنبياء: وقيل روح من الله يتكلم بما اشتبه عليهم وقيل وقال، وقيل غير ذلك، والله سبحانه أعلم.

وحكي في الصحاح عن القاسم بن معن قال: لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن إلا في التابوت، فلغة قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء. وقولي:

وما كانَ حيزوم هناك وإنما ... لتشبيه نصر ليس يبرح سبتوتا

حيزوم بفتح الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحت وضم الزاي وفي آخره ميم: اسم فرس جبريل عليه السلام. روى أن الشيطان ـ نعوذ بالله منه ـ رأى الملائكة عليهم السلام في الهواء نازلين على جبل في يوم بدر لنصرة المسلمين، وسمع جبريل عليه السلام يقول أقدم حيزوم، فنكص اللعين على عقبيه وقال: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ [الأنفال: ٤٨] بعد أن كان قال للمشركين: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ [الأنفال: ٤٨] وكان قد تصور لهم في صورة بعض شيوخ العرب، قيل في صورة سراقة بن جعشم[3] في جماعة من بني كنانة، والمعنى: أنه هذا الذي ذكرت من فرار

---

(١) الزَّبَرْجَدُ: حجر كريم ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر والأصفر.

(٢) الطست: جمع طسوت، وهي كلمة فارسية، تعني إناء من نحاس، يُستعمل لغسل الأيدي عادة.

(٣) هو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني (توفي ٢٤ هـ/ ٦٤٥ م) أبو سفيان، صحابي له شعر. كان ينزل قديداً. له في كتب الحديث ١٩ حديثاً، وكان في الجاهلية قائفاً أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر، وأسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ. الأعلام ٣/ ٨٠، والإصابة ت ٣١٠٩، وثمار القلوب ٩٣، والتاج ٦/ ٣٨٠.

الشيطان والنصر على النفس مع قولي كبدر وإنما هو مجرد تشبيه، وليس هناك حيزوم ولا جبريل ولا ملائكة نزلوا في حرب النفس المذكور، بل بتأييد الله تعالى أولياءه وعونه لهم عليها حتى قتلوها بإذهاب صفاتها المذمومة عنها، التي حجبت الخلق عن الحق، فلم يشاهدوا جمال الجلال من ذي الكمال تبارك وتعالى، نعم يجوز أن الملائكة تعينهم بالدعاء لهم بالنصر وتلهمهم مقاصد الخير التي بها يغلبون النفس. ومعنى قولي: «ليس يبرح سبتوتا» أي نصر الله تعالى لأوليائه لا يزال، ويجوز أن يعود الضمير في يبرح على التشبيه في لسان العرب، فكل من النصر والتشبيه لا يزال، وسبتوتا هو بضم السين المهملة وسكون الباء الموحدة وضم التاء المثناة من فوق مكررة ثم الواو بينهما، ومعناه دائماً طول الدهر. قال في الصحاح: والدهر يسمى السبت والسبات، وقولي:

وساروا بلا مهلٍ إلى جانب العُلى على حد سيف في سما المجد مسموتا

أي سلكوا بعد قتل النفس وانخذال الشيطان بجد في سيرهم من غير فترة ولا وقفة إلى محل الشرف الدائم والملك الأبدي والسعادة الكاملة في الدارين، في طريق يسلكون فيها على مثل حد السيف محاذياً بالطريق المذكور، سما مجد العلى، ومقابلاً به معالي الشرف، بحيث لا يميل عنه، مأخوذ من مسامتة الشيء: أي محاذاته. ويجوز أن يكون معنى مسموتاً مقصوداً. قال في الصحاح: وسمُت بضم الميم: أي قصد، وقولي:

طريق به الأخطار والوعر والظما ويعتاض ذكر الله عن جوعهِ قوتا

هو بخفض طريق بدلاً من حد سيف في البيت قبله، ويجوز رفعه على الاستئناف أي هو طريق بينت في هذا البيت بعد صعوبة تلك الطريق وتعبها، فذكرت من ذلك أربعة أشياء: الأخطار، والوعر، والظمأ، والجوع، فالوعر: عسر وصعوبة في سلوك الطريق، والأخطار جمع الخطر: وهو الإشراف على الهلاك، والأخطار في هذا البيت مشتملة على مخوفات منها: خوف القطاع وهم أربعة: النفس، والشيطان والخلق، والدنيا، وخوف الانقطاع بالآفات، وعدم الزاد الذي هو دوام ذكر الله تعالى، وخوف تلف المركوب وأعني به العقل بالاختلال، وخوف الهلاك الأعظم وهو ذهاب الدين والعياذ بالله تعالى بفساد اعتقاد ما لا يجوز في صفات الله سبحانه، كاعتقاد الحلول والاتحاد والتجسيم، أو في الدين كاعتقاد الإباحة وسقوط التكليف ثم الانقطاع المذكور مشتمل على آفات أخرى غير ما ذكرت: منها الفترة، ومنها الوقفة، ومنها وخم الطريق وهو تغير مزاج السالك بخروجه عن الاعتدال في استقامة السلوك، ومنها الإعراض، ومنها الالتفات.

قال الأستاذ إمام الطائفة أبو القاسم الجنيد قدس الله تعالى روحه: لو أقبل صادق على الله عز وجل ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة، لكان ما فاته من الله تعالى في تلك اللحظة أكثر مما ناله في ألف سنة. وسيأتي ذكر الالتفات ويحتاج إلى معرفة الاحتراز من القطاع الأربعة المذكورين؛ فالدنيا يحترز منها بالزهد فيها، وسيأتي ذكر الزهد إن شاء الله تعالى؛ والخلق بالعزلة عنهم، والشيطان بدوام ذكر الله تعالى؛ والاستعاذة بهمته والالتجاء إليه ومعرفة الخواطر ومخالفة الخاطر الشيطاني؛ وأما النفس فتحتاج في الاحتراز من شرها إلى أشياء يطول ذكرها، من دوام التضرع إلى الله تعالى في دفع

شرها، ودوام مجاهدتها بالمخالفات لها، وحملها على فعل كل محمود وترك كل مذموم، والاتصال بمحاسن الصفات، والتنقي عن مساويها، ومنعها من الحظوظ والغفلة والركون إلى الكسل والبطالة، وغير ذلك من أنواع المجاهدات والرياضات والسلوك المشتملة على المقامات، ما تفصيله يحتاج إلى تصنيف مستقل أو تصانيف، ولكن إذا وجدت أربعة أشياء في رياضتها ودامت يوشك أن تجر إلى محمود، وتوصل إلى كل خير مقصود: وهي قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، واعتزال الأنام؛ وقد ذكر هذه الأربعة الشيخ الكبير العارف بالله تعالى قطب المقامات سهل بن عبد اللّٰه رضي الله تعالى عنه بغير هذه العبارة وقال: بها صارت الأبدال أبدالاً، وحرض عليها غير واحد من الشيوخ، وقد جمعتها في بيت من قصائدي وهو هذا:

وأركـان بنيـانِ الـريـاضـةِ عـزلـة ... وجـوع وصمـت مـع سُهـاد مـداوم

وقولي:

ولكنـهُ يفضـي إلـى كـل راحـة ... وسعد على الآباد يا سعد من يوتي

أعني أن هذا الطريق مع ما اشتمل عليه من أنواع التعب والشدائد والأهوال وعظيم المشاق وكثرة الأخطار، يئول ويوصل إلى كل راحة وسعادة في الدنيا والآخرة؛ من لذة الطاعات وحلاوة المناجاة، والتنزه في رياض القرب وجنان المعارف والأسرار الربانيات، ومشاهدة الجمال والأنوار والأحوال السنيات، والملك الباقي والشرف الأبدي والسعادة الكاملة المشتملة على خير الدنيا والآخرة، فيا له من شرف ونعيم في جوار المولى الكريم، والمراد بالسعد اليمن. قال أهل اللغة: يقال سعد الرجل بالكسر فهو سعيد، وسعد بالضم فهو مسعود، والسعودة خلاف النحوسة، والسعادة خلاف الشقاوة، وأعني بالآباد جمع الأبد: أي على تعاقب الدهور بلا نهاية. وقولي:

إذا رمْـت فـي وصـفِ الطـريـقِ تمثـلاً ... فخـذْ در مصـراع وتممْـه يـاقـوتـا

التمثل بفتح التاء المثناة فوق وضم الثاء المثلثة وفتح الميم بينهما مشدداً مصدر تمثل الرجل بفتح الكل وتشديد المثلثة إذا أنشد شيئاً من الشعر مستشهداً به على صحة شيء ذكره أو ذكر عنده والمصراع في الشعر هو نصف بيت، فكل بيت مشتمل على مصراعين، والمعنى: فخذ نصف بيت يشبه الدر في حسنه وتممه ياقوتاً، أعني تمم المصراع المذكور المشبه بالدر بيتاً كاملاً بمصراع آخر مشبه بالياقوت، وانتصب ياقوتاً على التفسير لمصدر محذوف تقديره: تممه تماماً ياقوتاً، أو مفعولاً ثانياً لتمم، أو خبراً ليكون مضمرة: أي تممه بمصراع يكون ذلك المصراع ياقوتاً، وها أنا ألتمس بسط العذر ممن له معرفة بمعاني الكلام وبديعه في وصفي المصراع الأخير الذي هو من بضاعتي المزجاة[1]، وتسجى المهلهل بالياقوت لأن ضيق القافية ألجأ إلى العدول عن ذكر النحاس إلى ذكر اليواقيت النفاس، وإنما احتجت إلى تمامه بإنشاء المصراع المذكور، ولم أذكر تمام البيت المشهور لكون قافيته الحميدة مخالفة لقافية هذه القصيدة، إذ البيت بكماله:

---

(١) بضاعة مُزْجاة: قليلة مردودة تُدفع وتُرفض رغبةً عنها.

تُـريـديـن إدراكَ المعـالـي رخيصـة ولا بـدّ دونَ الشهـد مـن إبـرِ النَّحـل

فلما لم توافقني القافية قلت عوضاً من المصراع الثاني:

وبالعسر غالي الحُسن ما زالَ منعوتا

ومعنى هذا البيت مختصراً على جهة التنبيه: أن الأشياء الجليلة القدر العالية الشرف والفخر لا يوصل إليها في جميع الدهر إلا بالتعب والصبر، اللهم إلا إذا هبت نسم السعادة مهدية من حمى سعدى زاكي النشر، أو كاشفة عن مكنون مصون جمالها الغالي أستار الخدر؛ فشم، أو شاهد مجذوب بعناية الفضل إلى جانب الحمى لنيل سعادة الوصل.

ومن الشواهد التي ملأ استقاؤها للوجود في عز وصل كل غال بل في مشاهدة كل جمال عزيز محمود ما حكي في بعض تصانيف لأهل التصوف والمجاهدة والمحبة والمشاهدة عن بعض الناس، أنه أحب ابنة بعض الملوك، وحرص مدة من الدهر على أن يراها أو يسمع كلامها فلم يقدر، حتى حمل معه في بعض الأيام جواهر نفيسة وجلس تجاه قصرها مقابلة منظرها، ووضع الجواهر بين يديه وأخذ يكسرها بحجر واحدة واحدة حتى بقيت معه جوهرة عزيزة هي لنفسها، فرفع الحجر ليكسرها فأشرفت وصاحت: لم تفعل هذا؟ فقال لهذا، يعني لأجل الذي ظهر منك. وقول القائل في البيت المذكور:

تُـريـديـنَ إدراكَ المعـالـي رخيصـة

فيه إنكار لإدراكها رخيصة بل غالية الإدراك والحصول، لا يوصل إليها إلا بمشقة وعناء يطول، ولا بد من ذلك حتى في الشهد الذي منّ الله تعالى به علينا، وجعل فيه شفاء لنا به الداء يزول، مع كون النحل من أضعف الحيوانات تمنع من الوصول إليه بإبرها المحرقة حتى لا يوصل إليه إلا بنوع من المشقة، ومعنى قولي:

وبالعسرِ غالي الحسن ما زال منعوتا

أن كل ذي حسن غال ما برح موصوفاً معروفاً بعسر الإسعاف في الوصول إلى بلوغ المأمول، ثم العسر والمشقة على قدر الجمال، ولما كان جمال الحق سبحانه أعلى كل جمال، كانت مشاهدته أغلى كل نوال، ولم يوصل إلى أقصى المأمول وهو تلك المشاهدة، إلا بأقصى المشقات وهو الموت في المجاهدة.

وفي مجاهدتهم لنيل أقصى المقاصد. قلت في بعض القصائد:

دواهـي الـدهـر لا تخشـى المنـايـا إذا نـــودوا الطعـــن أو ضـــرابِ
يـــزورونـــا المنـــايـــا بـــاشتيـــاقِ يـرونَ الـوصـل فـي قطـعِ الـرقـابِ
يـرونَ المـوت فـي الهيجـاء أحلـى مـن الجـلاب فـي فيهـم مـذابِ

ولقد أحسن الشيخ العارف ابن الفارض[1] رضي الله تعالى عنه فيما نحن بصدده من كون الحياة في المشاهدة لا تحصل إلا بالموت في المجاهدة. حيث قال:

فإنْ شئتَ أنَ تحيا سعيداً فمت به　　شهيداً وإلاّ فالغرام لهُ أهلُ
فمن لم يمت في حُبهِ لم يعشْ بهِ　　ودون اجتناء النحل ما جنتِ النحلُ

يعني لا يوصل إلى اجتناء العسل اللذيذ شبهه باجتناء الثمار إلا بملاقاة جنايات مؤلمة من إبر النحل. وأحسن القائل الآخر أيضاً حيث قال:

لا تطلبنَّ حياة عند غيرهم　　فليسَ يُحييك إلا من توفاكا

يعني لا يحييك في مقام البقاء به إلا من أفناك عنك. وحاصل هذا أن حياة البقاء لا تحصل إلا بعد موت الفناء، والفناء لا يحصل إلا بقتل النفس في المجاهدة أو بجذبة من جذبات الحق تعالى.

وقال قطب الأحوال كبير الشأن أبو يزيد رضي الله تعالى عنه: من قتله حبه كانت ديته رؤيته، فجعل المشاهدة المذكورة دية القتل المذكورة، والدية لا تكون تحصل إلا بعد القتل، فلزم من جميع ما ذكرت صحة ما ذكرت في البيت المتقدم أعني قولي:

وبالعسرِ غالي الحسن ما زال منعوتاً

وعلى ذلك من الشواهد الشهيرة ما لا يسعه إلا تصانيف كثيرة وقولي:

وللقومِ في سلكِ الطريق منازل　　إذا عددت ألف ولكنْ مبتوتا

قد اشتهر فيما بين هذه الطائفة تسمية الصوفية بالقوم، فيقولون مذهب القوم وكتب القوم، وكان هذا الاسم يطلق على جمع لهم مجد ونجدة وعز ومنعة، وقد وصف الشجعان الذين سمحوا بنفوسهم طلباً للعلى أو الهدى في حرب العدى. من قال منشداً:

وإنَّ الذي حانت بفلج دماؤهم　　همُ القوم كل القوم يا أمُ سالم

والمنازل يقال لها منازل السائرين، ويقال لها مقامات السالكين، وقد عدها بعضهم ألف منام كما ذكرت؛ ومعنى قولي مبتوتاً: أي مقطوعاً، وقد بينته في البيت بعده بقولي:

سريعاً بعون اللهِ يقطعُ بعضهم　　بيوم وعام أو بسبعينَ ملفوتا

---

(١) هو عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، (٥٧٦ ـ ٦٣٢ هـ = ١١٨١ ـ ١٢٣٥ م) المصري المولد والدار الوفاة أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين بن الفارض، أشعر المتصوفين يلقب بسلطان العاشقين في شعره فلسفة تتصل بما يسمى «وحدة الوجود» اشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن ابن عساكر، ثم حُبب إليه سلوك طريق الصوفية، فتزهد وتجرد، ثم ذهب إلى مكة وعاد إلى مصر وقصده الناس بالزيارة. له ديوان شعر. الأعلام ٥/ ٥٥ ـ ٥٦، ووفيات الأعيان ١/ ٣٨٣، وميزان الاعتدال ٢/ ٢٦٦، وشذرات الذهب ٥/ ١٤٩ ـ ١٥٣، ولسان الميزان ٤/ ٣١٧

أعني يقطع مع طوله وكثرة منازله سريعان بعون الله تعالى بعضهم يقطعه في يوم بل في لحظة، بجذبة من جذبات الحق سبحانه، وبعضهم في سنة، وبعضهم في سبعين سنة، ويتفاوتون أيضاً في ذلك بتفاوت الاستعداد ومعادن القلوب: وما خلق الله سبحانه فيها من القابلية والنور والصفاء والتوفيق للصدق والإخلاص والأدب والوفاء، ومعنى قولي «بسبعين ملفوتاً» قد بينته في البيت الذي يليه بقولي:

إذا ما التفات شاب ذاكَ ولم يكنْ هوى سالك مُستأصل القطعُ مسحوتا

أعني أن بعضهم يمكث في السلوك سبعين سنة، بل أكثر إذا شاب ذلك السلوك: أي خالطه التفات إلى غير الله عز وجل بأن لا يكون هوى السالك مقطوعاً من أصله، وانتصب مسحوتاً لكونه خبر كان، وهو بالسين والحاء المهملتين يقال سحت كذا إذا لم يترك منه شيئاً قال في الصحاح يقال سحت: أي استأصلته، ويقال ومسحت مسحوت: أي مذهب قال الفرزدق[1]:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المالِ إلاّ مسحتا أو مجلفا

وقولي:

وما قطعت إلاّ بتوفيق ربنا فيا ربِّ وفّق واعف ما كانَ ممقوتا

أي ما تقطع الطريق المذكورة إلا بتوفيق الله تعالى للسلوك فيها أولاً، ثم إعانته على ذلك ثانياً، ثم جذبه للسالك حتى يتخلص من النفس بالكلية ثالثاً، وإلا بقي طول الدهر محجوباً لا يرى الملكوت، ولا يحيا بالله تعالى حتى نفسه تموت، والطريق ما يسلك فيه، ويجوز فيه التذكير والتأنيث، والتوفيق خلق قدرة الطاعة في العبد، ونقيضه الخذلان وهو خلق قدرة المعصية، وهذا التوفيق العام؛ وأما التوفيق الخاص المخصوص به الخواص، فهو الفناء عما سوى الله تعالى ثم البقاء بالله، ويحتمل أن يكون معنى «واعف ما كان ممقوتاً» تجاوز ما كان عملاً سيئاً مبغوضاً، ويحتمل أن يكون معناه: اترك ما كان ممقوتاً ولا تؤاخذنا به. وقد سمع من بعض العرب يقولون: اعف لي هذا: أي اترك، ويحتمل أن يكون معناه: واعف عما كان ممقوتاً، ويحتمل أن يكون بمعنى: اغفر اللهم اغفر لنا جميع أحوالنا التي نستحق بها المقت منك، وارحمنا برحمتك التي تصرف بها السوء عن عبادك، وتسوق بها لهم الخير من خزائن فضلك، وتفضل علينا بالفضل الذي تقرب به العبد منك وتبعده عما يبعده عنك، إنك أنت المنان الكريم ذو الفضل العظيم. وقولي:

ومن تلك عشر فاستمع رمز شرحها واصغِ لتنبيهِ ولا تكُ مشتوتا

أي ومن جملة المنازل المذكورات في طريق القوم الملوك أرباب السلوك عشر منازل معتمدة عند المحققين منهم، فاستمع إشارة أشير بها إلى شيء من كشف معناها متحرياً معنى ما قاله العارفون

---

(١) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي (انظر ترجمته في الأعلام ٨/ ٩٣، وفي خزانة البغدادي ١/ ١٠٥، ١٠٨، والأغاني طبعة الدار ٩/ ٣٢٤، والشريشي ١/ ١٤٢، ومعاهد ١/ ٤٥.

في ذلك، واصغ إلى التنبيه عليه ملقياً سمعك محضراً قلبك «ولا تك مشتوتاً» أي مشتتاً مغرق الهم غير حاضر القلب ولا مجموع الخاطر، ثم ذكرت رمز الشرح المذكور بقولي:

بتـوبتهـم عـن غفلـة مـا وصبـرهـم   جهـادا لكـي يحيـا الفتـى يلتقـي المـوتـا

ذكرت في هذا البيت من المنازل المذكورة منزلين وهما: التوبة، والصبر؛ وأشرت بقولي «عن غفلة» إلى قول بعضهم: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة: وقلت: غفلة ما ليشمل كل غفلة وإن قلت. وانتصب جهاداً على الحال: أي كي يحيا الفتى منهم يلتقي الموت حال كونه مجاهد النفس. وقد اختلف في تفسير الفتى من هو؟ على أقوال يطول ذكرها: منها ما قيل إن الفتى من ترك ماله وقام بما عليه، وقيل هو من وصل من قطعه وأعطى من حرمه وعفا عمن ظلمه، وقيل الفتى من كسر الصنم مثل إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.

قلت: وعلى هذا حسن ذكر الفتى في هذا البيت لكونه كسر نفسه، والنفس عند أهل الطريق مثل الصنم، لأن عندهم من أحب شيئاً سوى الله فهو صنم يعبده من دون الله تعالى، ومعنى الحياة والموت المذكورين أن الواحد منهم يجاهد نفسه في الله تعالى سبحانه بأنواع المجاهدات حتى يميتها بإذهاب صفاتها الذميمة، فتحيا حياة طيبة في الدنيا والآخرة ﴿ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾ [آل عمران: ١٩٥] ثم ذكرت من العشرة المذكورة منزلاً آخر وهو التوكل بقولي:

بحكـمِ القضـا استسـلامهـم فـي تـوكـل   سكوتاً كما مع غاسلٍ سكنَ الموتى

أشرت في ذلك إلى ما قال بعضهم: أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء ليس له حركة، ولا تدبير، ثم أشرت إلى أن الحركة والتدبير لا يؤثران في القضاء جلباً لما لم يقدره ولا سلباً لما قدره بقولي:

فمـا لـم يقـدرُه القضـاء فهـو فـائـت   ومـا كـان مقـدوراً فليـس يُـرى فـوتـاً

وأنشدني شيخنا وسيدنا وبركتنا الشيخ العارف بالله تعالى علي بن عبد اللّٰه الطوسي نسباً الصوفي مذهباً في أيام الحج بمنى لنفسه قوله:

مـا ثـم شـيء سـوى التّسليـم للقـدر

ثم قال لي تممه، فأفكرت في مصراع يليق بمصراعه هذا ثم قلت:

فـي كـل مـا جـاء مـن نفـعٍ ومـنْ ضـررِ

ثم أنشدت البيت بكماله وزدت عليه هذه العشرة الأبيات، وسميتها نفيس الدرر في التسليم للقدر، فقلت:

مـا ثـم شـيء سـوى التّسليـم للقـدر   في كـل مـا جـاء من نفـعٍ ومـن ضـرر
دع التقـاديـر والتـدبيـر ذاك إلـى   مـولـى عليـم حكيـم بـارىء الصـورِ
مُـدبـر الأمـر فـي الـدّاريـن مـن أزل   بـلا شـريـك علـى مـا شـاء مقتـدرِ

سلم له الأمر كن عبداً له أدب ولا تعرض هداك الله للخطرِ
إياكَ لم كان؟ أو لمْ لم يكُن؟ فله مكنون سرّ ثوى غامض القدر
بجنبهِ سل سيف الحق هيبته كم عارفِ خائفاً خلت على حذرِ
ودونه كم حجاب ساتر لبهي معارف الأولياء السّادة الغرر
نجلى لهم سافرات عن محاسنها وهم سكارى براحِ الحب والنظر
وعن سواهم ستور الحسن مُسبلة لا تكشف الدهر في بدو وفي حضر
إلا لمجذوب فضل أو لسالكهم كحد سيف لقتل النفس مبتدر
آها على حسنها الغالي ومشربها الحالي وعيش هني ناعم خطر

وفي التسليم المذكور وحسن التدبير في المولى اللطيف الخبير وذكر جميله في الخلق والتصوير أنشدوا:

تذكر جميلي إذ خلقتك نطفةً ولا تنس تصويري لشخصك في الحشا
وسلم لي التدبير واعلم بأنني أُصرّف أحكامي وأفعل ما أشا

وأنشدوا أيضاً في التسليم المذكور والسكون تحت المقدور وسرعة تقلب الدهور بإذن مدبر الأمور جل وعلا وتبارك وتعالى:

دع المقاديرَ تجري في أعنتها ولا تبيتنَ إلا خالي البالِ
ما بين غمُضة عين وانتباهتها يقلبُ الدهر من حالٍ إلى حالِ

اللهم يا حي يا قيوم ياذا الجلال والإكرام، من علينا بحسن الأدب حتى نسلم لك في جميع الأحكام، بجاه نبيك الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ثم ذكرت منزلاً آخر وهو الفقر بقولي:

الفقُر إلاّ الفخر والعز والغنى مدى الدهر يبقى ليسَ ذلكَ موقوتا

أشرت في هذا البيت إلى ما قال بعضهم أنه رداء الشرف ولباس المرسلين وجلباب الصالحين. وإلى قول بعضهم: من صح له الفقر صح له الغنى الأبد، وإليه أشرت بقولي:

مدى الدهر يبقى ليس ذلك موقوتا

أي ليس ذلك موقتاً بوقت محدود، قال أهل اللغة: يقال وقته فهو موقوت إذا بين للفعل وقتاً يفعل فيه، والتوقيت تحديد الأوقات، وكذلك في الفقر عز الأبد، لأنه مشتمل على القناعة[١]، وفيها قال القائل:

---

(١) القناعة: هي الاكتفاء بما تندفع به الحاجة من مأكل وملبس وغيرهما وهي ممدوحة ومطلوبة. انظر حديث القشيري عن القناعة برسالته ص ١٥٩ ـ ١٦٢

أفـادتنـي القنـاعـة أيّ عـز ... ولا عـزٍ أعـزُ مـنَ القنـاعـة
فخُـذ منهـا لنفسـكَ رأسَ مـالٍ ... وصَيّـر بعـدهـا التَّقـوى بضـاعـة
تحـرّ بهـا حـاليـن تغنـي عـن بخيـلٍ ... وتسعـد فـي الجنـانِ يصبـرُ سـاعـة

وفي فخر الفقر المذكور وأهله قلت:

وقـائلـه مـا المجـدُ للمـرءِ والفخـر ... فقلـتُ لهـا شـيء لبيـضِ العُلـى مهـرُ
فـأمـا بنـو الـدُّنيـا ففخـرهـم الغنـي ... كـزهـرٍ نضيـر فـي غـدٍ يبس الـزهـر
وأمـا بنـو الأخرى ففي الفقر فخرهم ... نضـارتـه تـزداد مـا بقـي الـدهـر

وفي ذلك قلت أيضاً:

لئـن كـان لـلأمـوال فخـر علـى الثـرى ... فللفقـر فخـر فـي الثُّـريـا معلـقُ
وإن أنفـقَ المثـرى ألـوفـاً عـديـدة ... فـدرهـم أهـل الفقـر يـا صـاحِ يسبـقُ

وأشرت بهذا إلى قوله ﷺ فيما رواه النسائي في سننه «سبق درهم مائة ألف درهم»[١] الحديث.

ثم ذكرت منزلاً آخر وهو الشكر بقولي:

وعـن رؤيـة النعمـاء غـابـوا بمنعـمٍ ... فما الشكُر إلاّ السكر أو في الهوىٰ موتاً

أعني سكروا بمشاهدة جمال الحبيب المحسن فغابوا به عن رؤية الإحسان، فما الشكر في الحقيقة إلا السكر براح هوى جمال المحبوب، أو يموتوا موتاً في هواه دون بلوغ المطلوب، وذلك موت الطالبين الكرام كما تقدم من إنشاد بعض أهل الحب والغرام:

أنـا إنْ مـتُ فـالهـوى حشـوَ قلبـي ... وبـداء الهـوى تمـوتُ الكـرامُ

وأشرت بقولي: «وعن رؤية النعماء غابوا بمنعم» إلى قول بعضهم: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة[٢].

قلت: فإن اعترض معترض لو قال لا يلزم من رؤية المنعم ما ذكرت من السكر أو الموت.

فالجواب: أن الشكر الحقيقي يستلزم السكر من راح المحبة عند مشاهدة الجمال، وقد يفضي إلى موت بعض المحبين الهائمين في البراري والجبال وتقرير ذلك أن من شكر المنعم تبارك وتعالى بجنانه ولسانه وسائر أركانه في ليله ونهاره، لا يزال يتقرب بالنوافل والشكر الموعود فيهما بالحب

---

(١) أخرجه النسائي (زكاة ٤٩)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٧٩.

(٢) انظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص ١٧٥ وهو للشبلي. وقال أبو بكر الوزاق: شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة. وقال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترىٰ نفسك فيه طفيلياً. (الرسالة القشيرية ص ١٧٤).

والمزيد حتى يصير من جملة المحبوبين العبيد، فإذا صار من العبيد المتحققين في العبودية حصلت له الحرية، وإذا صار حراً من رق الهوى كشف له الحجاب عن جمال المولى، فإذا شاهده سكر وهام في الفلوات، وربما اشتد به الغرام حتى مات، كما اتفق لكثير من المحبين الصادقين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ثم أشرت في ذلك أيضاً إلى ما قال بعضهم: الشكر أن لا يستعين بنعمه على معاصيه بقولي:

ومن شكرهم لا يستُعان بنعمة لعصيان مسديها فيشبهُ طاغوتا

نبهت في قولي فيشبه طاغوتا إلى أن الاستعانة بنعم المنعم على معاصيه يشبه الكفر بل هو كفر للنعم بلا شك.

ثم ذكرت منزلين آخرين وهما الورع والزهد بقولي:

لهم وَرَعٌ من غيرِ مولى وزهدهُم أنالَ طلاقاً ما سوى الله مبتوتاً

أشرت فيهما إلى قول بعض الموالي من الشيوخ أرباب الهمم العوالي: إن الورع أن يتورع عما سوى الله تعالى، والزهد أن يزهد فيما سوى الله عز وجل.

قلت: وفي هذا إشكال، أعني في تسويته بين المقامين، لأنه يؤدي إلى أن لا يكون بين الورع والزهد فرق وأن يكونا شيئاً واحداً.

والجواب في دفع: هذا الإشكال والله سبحانه أعلم، أن ترك ما سوى الله خوفاً من شبهة تدخل على التارك ورع، وترك ذلك عزوفاً عنه من غير خوف منها زهد، فافترقا وبالله التوفيق، وهذا المذكور في الورع والزهد هو الدرجة العليا فيهما كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأعني بالطلاق المبتوت المقطوع به علائق تلك المطلق قطعاً لا رجوع فيه أصلاً، ولا يؤمل صاحبه بعده وصلاً.

ثم ذكرت منزلين آخرين وهما الخوف والرجاء بقولي:

مني وقلي كانا رجاهُم وخوفهم بقربِ وبعدْ مصطفى ثم ممقوتا

والمعنى في ذلك أن الرجاء الحقيقي عندهم هو رجاء حصول مناهم، وهو القرب من الله تعالى الذي صاحبه مصطفى، والخوف عندهم هو خوف القلى، وهو متضمن للبعد الذي صاحبه ممقوت، وانتصب مصطفى وممقوتاً على الحال: أي كون صاحب القرب مصطفى وصاحب البعد ممقوتاً، أو انتصب بفعل مضمر: أي بقرب وبعد يتضمنان مصطفى وممقوتاً، وقد اشتمل هذا البيت على اللف والنشر ثلاث مرات مرتباً: فاللف الأول مني وقلى، ونشره رجاهم وخوفهم، فالرجا يعود على المنى والخوف يعود على القلى. واللف الثاني رجاهم وخوفهم، ونشره بقرب وبعد، فالقرب عائد على رجاهم، والبعد عائد على خوفهم. واللف الثالث بقرب وبعد، ونشره مصطفى ثم ممقوتاً، فمصطفى يعود على القرب، وممقوتاً يعود على البعد، ونظير هذا البيت بيت آخر لي في قصيدة

أخرى في مدح «الحاوي الصغير»[1] أعني أنه متضمن اللف والنشر ثلاث مرات، وهو هذا:

ألفاظه ومعانيه حلت وغَلَت   أجلى وأغلى من الجلابِ والدررِ

وبيت آخر في خطبة هذا الكتاب في القصيدة المسماة بالراح المختوم والدر المنظوم في مدح مشايخ الصوفية أصحاب السر المكتوم وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم وهو قولي:

بمدحِ وقدحِ علاهُم وفي العدى   أولي النفع والحرمان والعرف والنكر

مع أن بعض العلماء الفضلاء ذكر أنه تتبع الشعر قلماً يجد في بيت واحد لفاً ونشراً ثلاث مرات، قال هذا لما وقف على البيت المذكور في مدح الحاوي.

ثم ذكرت منزلاً آخر وهو المنزل العاشر وهو الرضى[2] بقولي:

ومر القضا شهد الرضا ولهيبه   هو الثلج ذافي ذاك ذاقوهُ ملتوتاً

أشرت في هذا البيت إلى قول بعضهم: الرضى سرور القلب بمر القضاء، وقول بعضهم: لا يكون الراضي راضياً حتى تسره المصيبة كما تسره النعمة. وقول بعضهم لو جعلني في الدرك الأسفل من النار كنت أشد رضى ممن في الفردوس. ومعنى البيت المذكور: أن القضاء الذي يكرهه غيرهم وهو عندهم بمنزلة الشيء الشديد المرارة كالصبر وغيره هو عندهم بمنزلة الشهد وهو العسل في الشمع، وحتى القضاء الذي يكرهه غيرهم وهو عنده بمنزلة اللهب وهو احتراق النار هو عندهم بمنزلة الثلج المعروف. وفي وضع العربية ذا للقريب، وذاك للمتوسط، وذلك للبعيد، فذا هنا إشارة إلى أقرب المذكورين وهو الثلج، وذاك إشارة إلى المتقدم ذكره وهو الشهد. وذاقوه ملتوتاً: أي طعم المذكورين اللذين هما مر القضاء ولهيبه كطعم المذكورين الآخرين اللذين هما الشهد والثلج مخلوطاً جميع أحدهما في جميع الآخر، وانتصب ملتوتاً على الحال: أي حال كون ذلك ملتوتاً، يقال لت السويق بالعسل يلته لتاً فهو ملتوت.

قلت: وليس يخفي طيب طعم المذكورين مخلوطين مع ما في أحدهما من الحرارة بما في الآخر من البرودة، بل الرضى الكامل عند القوم أطيب من المذكورين، فإن طاعمهما لو مسته النار في ذلك الحال لأذهبت حرارتها منه تلك الحلاوة، أعني لا تبقى فيه لذة العسل في حال إحراق النار له، وليس كذلك القوم أرباب الأحوال، فإنه قد اشتهر عن كثير منهم أنهم دخلوا النار ولم يشعروا بها ولم تؤثر فيهم شيئاً، وإنما كان مر القضاء ولهيبه أطيب عندهم من المذكورين، لأنهم قد استولت عليهم محبة الله تعالى وخالطت لحومهم ودماءهم وهي أحلى كل حال، واستغرقوا في مشاهدة جماله الذي

---

(١) «الحاوي الصغير في الفروع» للشيخ نجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني الشافعي المتوفى سنة ٦٦٥ وهو من الكتب المعتبرة بين الشافعية، قالوا: هو كتاب وجيز اللفظ بسيط المعاني محرر المقاصد، مهذب المباني. حسن التأليف والترتيب، جيد التفصيل والتبويب. (كشف الظنون ١/ ٦٢٥).

(٢) انظر حديث القشيري عن الرضا في رسالته ص ١٩٢ ـ ١٩٧.

لا يشبهه جمال، فغابوا به عنهم ودارت عليهم كؤوس راح الهوى فلم يحسوا بمر ولا نار، بل حسن الوجود بأسره مستهلك فيما هم فيه من المحبة والمشاهدة، وشرب العقار التي شمها وحده يسكر، كما قلت في بعض الأشعار:

وداrتْ كؤوس الرَّاح تسقي أولي الهوى ... مُداما لأهلِ الحب منْ شمها سكرُ
فأضحوا سُكارى ثم أمسوا وأصبحوا ... مدى دهرهم من سُكرهم سكر الدَّهرُ

وكما قال القائل:

فلو كنتَ من أهلِ الوجودِ حقيقة ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنت بلا حال مع الله واقفاً ... تصان عن التذكار والجن والإنس

وليس يعرف الوجود إلا من ذاقه من كل واجد كما قلت في بعض القصائد:

إذا ذُكرت وادي العقيق وجيرة ... بذي سلمٍ فاضتْ دموعُ سوابقُ
وإنْ ذكرتْ جيران سلع تمايلتْ ... بوجد وطعم الوجد يدريه ذائقُ
وحنت وأنت من جوى لوعة الهوى ... وذكر الأحبا للمُحبين شائق

وإلى وجود لذة الوجد في حال العذاب الشديد أشار قطب الأحوال العارف بالله تعالى أبو يزيد قدس الله تعالى روحه في قوله:

فكل مآربي قد نلت منها ... سوى ملذوذ وجدي بالعذابِ

قلت: ولا حاجة في ذلك إلى التطويل، فالمراد التنبيه دون استقصاء الدليل، وعلى الجملة فمر القضاء ولو بالطعن بالأسل أحلى عند أهل الرضا الكامل من لعق العسل، وأيضاً فإن من لم يبلغ هذا الحال يحب كل ما يفعله محبوبه كما قيل:

وكل ما يفعل المحبوب محبوب

قلت: وفي الرضا بالقضاء والتلذذ بالبلاء أنشد بعض المحبين شعراً:

على بابِ ليلى ما ألذ تذللي ... وأعذب تسآلي وأحلى تطفلي
بسطت لديها كف ذلي لعزها ... وقلت لها ما شئت بالعبدِ فافعلي
رمتني بسهمٍ يومَ ودّع ركبها ... تزودتهُ منها فلم تخط مقتلي
ومن عجبٍ أني جريح وكلما ... رمتني بسهمٍ إثرَ سهم يلذ لي
يلوم على ليلى خلي من الهوى ... وأين الملى القلب عشقاً من الخلي

قلت: وهذا الذي ذكرته في الرضا إنما أعني به الرضا الكامل. وقد اختلفوا في الرضا، هل هو من جملة المقامات: أو من جملة الأحوال؟ ولعل الحق ما قاله في ذلك بعض المحققين منهم أن بدايته من المقامات ونهايته من الأحوال كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى، وعندهم أن المقامات مكاسب، والأحوال مواهب.

فهذا: ما أردت التنبيه عليه في هذه المقامات العشرة المذكورة في هذه القصيدة: لمن له في هذه الطريقة وأهلها عقيدة، وسأنعطف على بعض بسط فيما بعد إن شاء الله تعالى، أعطفه على هذا المذكور، وكل القوم متفقون على أن كل من أحكم وأكمل في سلوكه المقامات، ظهرت وفاضت عليه بفضل الله سبحانه الأحوال السنيات، فلهذا عقبت المقامات بذكر الأحوال الحميدة، أعني العشرة الموعودة في هذه القصيدة: وهي: المحبة، والشوق، والهيبة، والأنس، والقرب، والسكر، والحياء، والوصول، والفناء، والبقاء، وافتتحت ذلك بفاء التعقيب في قولي:

فـدارتْ كـؤوسُ بعـد ذا حيـن شـاهـدوا جمـالاً لمـولـى بـالكمـالاتِ منعـوتـاً

أعني لما حققوا المقامات بالسلوك فيها، وأكملوها وقاموا بها حق القيام، دارت عليهم كؤوس المحبة والغرام بمشاهدة جمال ذي الجلال والإكرام. ومعنى دارت طافت وكؤوس جمع كأس، وجمعها إشارة إلى كثرة الشرب والشاربين، والكأس اسم للظرف الذي فيه الشراب، وهي مؤنثة على اللغة المشهورة التي جاء بها القرآن، وشعر أهل الفصاحة والبيان، قال الله عز وجل: ﴿**يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم**﴾ [الطور: ٢٣] وقال كعب بن زهير(١):

سقـاك أبـو بكـر بكـأس رويـة وأنهلـك المـأمـون منهـا وعلكـا

يعني بالمأمون النبي ﷺ، كانت قريش مع كفرها تسميه الأمين مع صغره، ولعمري إنه هو الحقيق بهذا الاسم، لأنه الأمين على الأسرار الإلهية، المصطفى من سائر البرية ﷺ وشرف وكرم.

وفي حقيقة المشاهدة المذكورة أقوال عند أهل الطريقة مشهورة، أحسنها إيجازاً وتحقيقاً ما قاله الأستاذ المحقق سيد الطائفة وإمامها أبو القاسم الجنيد قدس(٢) الله تعالى روحه ونوّر ضريحه: إنها وجود الحق مع فقدانك. وأوضحها مع التحقيق ما قاله الشيخ العارف بالله تعالى المحقق عمرو بن عثمان المكي(٣) رضي الله تعالى عنه، قال قولاً معناه على ما قاله الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه، أنه تتوالى الأنوار على قلبه من غير أن يتخللها ستر وانقطاع، كما لو قدر اتصال البروق، وكما أن الليلة المظلمة بتوالي البروق واتصالها إذا قدرت تصير في ضوء النهار، فكذلك

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني (توفي ٢٦ هـ/ ٦٤٥ م) أبو المضَرب، شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد. له «ديوان شعر» كان ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ وأقام يشبب بنساء المسلمين، فهدر النبي ﷺ دمه، فجاءه «كعب» مستأمناً، وقد أسلم وأنشده لاميته المشهورة فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته. الأعلام ٥/ ٢٢٦، وخزانة الأدب ٤/ ١١ و١٢، والشعر والشعراء ٦١، وجمهرة أشعار العرب ١٤٨.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٣) هو عمرو بن عثمان بن كرب (توفي ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م)، أبو عبد الله المكي، صوفي عالم بالأصول من أهل مكة. له مصنفات في «التصوف» وأجوبة لطيفة في العبارات، والإشارات. زار أصبهان ومات ببغداد. الأعلام ٥/ ٨١ ـ ٨٢، وطبقات الصوفية ٢٠٠ ـ ٢٠٥، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥، وحلية ١٠/ ٢٩١.

القلب إذا دام به دوام التجلي، ثم قال: قالوا: وإذا طلع الصباح استغنى عن المصباح وأنشدوا:

ليلى بوجهك مُشرق وظلامه في النَّاس ساري
فالناسُ في سدفِ الظلا مِ ونحنُ في ضوءِ[1] النهار

قال: وإذا صحت سماء السر عن غيوم الستر، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف انتهى كلامه. وقد تقدم شيء من تفسير المشاهدة في الفصل التاسع.

قلت: والمراد بما ذكرت أنهم لما كوشفوا بنعوت الجمال غابوا، فكأنّ الجمال أو ذا الجمال سقاهم حمى الحب، وإلى ذلك أشرت بقولي:

سقاهُم حميّ الحبّ في قدس حضرة مقدسة لم تأتِ خاناً وحانوتاً

والحميا اسم من أسماء الخمر، والجمال المذكور جمال مولى لا يزال موصوفاً بكل كمال، لا يشبه جماله جمال، استعرت لحب ذاك الجمال خمراً، وللخمر ساقيا، وللساقي كأساً، وللكأس دوراناً، وللدوران مداراً عليه شارباً، وللشارب سكراً يأتي ذكره.

قلت: والحب في اللغة يأتي ذكره أيضاً إن شاء الله تعالى، والحب عند أهل الطريق العارفين المحبين يستدعي الكلام فيه تصنيفاً مستقلاً، بل تصانيف، وسيأتي ذكر شيء من كلامهم فيه بعد إن شاء الله تعالى، وقد تقدم شيء منه في الفصل الثامن وتقدم هناك الفرق بين المحبة والمعرفة، وتقدم شيء من ذكر المعرفة أيضاً في الفصل التاسع.

والأصل في الحال الذي تبني عليه ولا تصح إلا به المحبة، كما أن أصل المقامات التوبة، فمن لا توبة له لا مقام له، ومن لا محبة له لا حال له، وإنما تنبني عليهما المقامات والأحوال بعد كمالهما كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وها أنا أقتصر هنا على قول بعضهم في محبة العبد لله تعالى قال: هي حالة يجدها العبد في قلبه تلتطف عن العبارة، تحمله تلك الحالة على التعظيم له، وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه.

قلت: وأما محبة الله جل وعز للعبد فسيأتي ذكرها، وذكر انقسام محبة العبد لله سبحانه إلى خاصة وعامة، وقولي في قدس حضرة من باب المقلوب، أعني في حضرة قدس، والقدس الطهارة، والمراد في الحضرة المطهرة وانتصب مقدسة على الحال: أي حال كون تلك الحميا مقدسة: أي مطهرة من جميع الأنجاس والأرجاس، وليست كالحميا النجسة المعروفة عند الناس، لم تأت تلك المقدسة خانا بالخاء المعجمة قال أهل اللغة: خان الذي فيه التجار.

قلت: وهو مشهور بين الناس اليوم بالفندق والحانوت واحد الحوانيت المعروفة.

---

(١) سُدَف: جمع سَدْفة: وهي الظلمة.

قلت: فإن قيل: الصواب أن يقال: لم تأت حاناً وحانوتاً بالحاء المهملة فيهما معاً.

فالجواب: أنه يلزم من ذلك التكرار وعطف الشيء على نفسه، إذا المعنى يصير لم تأت حانوتاً وحانوتاً لأن الحانة بالحاء المهملة حانوت الخمار وجمعها حانات، وأما بالخاء المعجمة فليس يلزم منه فساد، إذ هو غير الحانوت المذكور كما تقدم، وقد تباع فيه الخمر أيضاً، فيكون قولي: «لم تأتِ خاناً وحانوتاً» تنزيهاً لخمر الحب المذكور عن الخانات والحانات جميعاً بالمعجمة والمهملة، ثم أشرت إلى أن ساقي تلك الحميا ليس من محبوبات بني الدنيا المعروفات بقولي:

ولـم تسقهـا ليلـى وسعـدى وعـزّة ... ولا ذَاقَهـا مـنْ لـم تـذق نفسـهُ مـوتـا

أي ولم يذق تلك الحميا قط من لم يمت نفسه بإذهاب صفاتها الذميمة بجهاد أو جذب.

ثم ذكرت ثلاثة أحوال أخرى بقولي:

مُنزهـة فـي السكـرِ والـوصـلِ والفنـا ... فلـم تحـك لاهـوتـاً هُنـاك ونـاسـوتـا

وانتصب منزهة على الحال كما تقدم في مقدسة. والمعنى: أن السكر والوصل والفنا الحاصلات بسببها منزهات عن كل ما ينافي التوحيد، منحى عنها كل ما يقدح فيه، فلم يشبه واحد منها واحداً من الوصفين المعروفين في مذهب النصارى، نعوذ بالله من الكفر، وقد ذكرت في غير موضع من تأليفي أن اعتقاد الاتحاد والحلول كفر، والمراد بهناك في البيت المذكور مكان الشرب وهو الحضرة القدسية المذكورة وسيأتي الكلام فيما بعد في شرح الأحوال العشرة، وها أنا أشير هنا إلى شيء من ذلك مختصراً.

فأما السكر: فقال بعضهم: هو استيلاء سلطان الحال. وقال بعضهم: هو غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب وقال بعضهم: هو غيبة لوارد قوي.

وأما الوصل: فقال بعضهم: هو أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه. وقال بعضهم: هو أن يكون همه الله، وشغله في الله، ورجوعه إلى الله جل جلاله، وقد تقدم قول بعضهم: أنه مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار.

وأما الفنا[1]: فقال بعضهم هو سقوط الأوصاف المذمومة. وقال بعضهم: هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام حين تجلى ربه للجبل. وقال بعضهم: هو أن تذهب حظوظ الدنيا والآخرة إلا حظه من الله تعالى.

ثم ذكرت ما بقي من الأحوال العشرة وهي ستة بقولي:

حيـاء وشـوقـاً ثـم أنسـاً وهيبـة ... بقـاء وقـربـاً بـل خطـابـاً ولا صـوتـا

فأما الحياء: فقال بعضهم: هو وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الفناء برسالته ص ٦٧ ـ ٦٩.

وأما الشوق[١]: فقال بعضهم[٢]: هو احتراق الأحشاء وتلهف القلوب وتقطع الأكباد. وقال بعضهم[٣]: هو ارتياح القلوب بالوجد ومحبة اللقاء بالقرب.

وأما الأنس[٤]: فقال بعضهم: الأنس بالله تعالى ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة: وقيل الأنس بغير الله سبحانه يسقط عن القلب الهيبة والتعظيم، والأنس بالله تعالى كلما ازداد ازدادت الهيبة والتعظيم.

قلت: ومما يدل على اجتماع الهيبة من الله تعالى والأنس به قول الشيخ أبي حمزة الخراساني رضي الله تعالى عنه شعراً:

أراكَ وبي من هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطفِ منكَ وبالعطفِ

وأما الهيبة: فهي خشوع النفس وخضوعاً عند ظهور لائح الجلال والعظمة.

وأما البقاء[٥] فقال بعضهم: هو بقاء الصفات المحمودة بعد فناء المذمومة. وقال بعضهم: هو الذي يكون في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق بخلاف الفناء فإن صاحبه محجوب بالحق عن الخلق.

قلت: وبقي قسم ثلث وهو عكس هذا الأخير، أعني محجوباً بالخلق عن الحق وهو سائر الخلق، ما عدا صاحب البقاء وصاحب الفناء.

وأما القرب: فقال بعضهم: هو قرب العبد أولاً بإيمانه وتصديقه، ثم قربه بإحسانه وتحقيقه، وقرب الحق سبحانه من العبد بما يخصه به اليوم من العرفان، وفي الآخرة بما يكرمه به من الشهود والعيان، وفيما بين ذلك بوجوه اللطف والامتنان وقولي: بل خطاباً ولا صوتاً، أعني ليس ذلك مجرد القرب، بل خوطبوا مع القرب خطاباً من بواطنهم فهموه من غير سماع صوت، وقد يسمعون أصوات هواتف تهتف بهم من الهواء، وانتصب الأحوال الستة المذكورة في هذا البيت الثاني أعني بقولي:

حبتْ شاربيها كلّ حال سنية ... يفوزُ بكل السعد من بعضها يُوتي

أي منحت شاربيها وهو جمع شارب وإنالتها هذه الأحوال المذكورة، ويجوز خفضها على البدل من حال، ومعنى سنية: أي جليلة شريفة والحال مما يجوز تذكيره وتأنيثه: أي يفوز بكل السعادات من يعطي بعض تلك الأحوال، ثم صرفت الكلام إلى ذكر القصيدة والإيذان بانتهائها بقولي:

---

(١) قال الأستاذ القشيري: الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبة يكون الشوق. (الرسالة القشيرية ص ٣٢٩).

(٢) انظر هذا القول لأحمد بن عطاء في الرسالة القشيرية ص ٣٣٠.

(٣) انظر هذا القول لأبي عبد اللّه بن خفيف في الرسالة القشيرية ص ٣٣١.

(٤) انظر حديث القشيري عن الهيبة والأنس برسالته ص ٦٠ ـ ٦١

(٥) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٧ ـ ٦٩

ثنت في ابتدا ميدان فضل عنانها ... وودّ حصان المدح لو كانَ مفلوتا

أعني رجعت عن توجهها في مدح فضل الأولياء السادات أرباب المقامات والأحوال المذكورات بثني عنان حصان مدحهم، وهو بعد في ابتداء ميدان فضلهم الفائق الذي يعجز عن قطعه خيل المدائح السوابق، فاستعرت لفضلهم ميداناً، وللمدح حصاناً، وللحصان عناناً، وللعنان ثانياً، وهو القصيدة.

قال في الصحاح: وفرس حصان بكسر الحاء بين التحصين والتحصن. قال: ويقال إنه سمي حصاناً بأنه ضن بمائه فلم ينز إلا على كريمة، ثم كثر ذلك حتى سمي كل ذكر من الخيل حصاناً. وقولي: وود حصان المدح لو كان مفلوتاً، أعني ثنت عنان الحصان المذكور عن الجري في ميدان فضلهم المشهور، مع كون الحصان يحب أن يترك يجري في ذلك الميدان، ولا يمنع بثني العنان، ولكن منع من ذلك.

ثم أشرت إلى بيان المانع وهو قيد الخطايا والعلائق بقولي:

وأبياتها خمسونَ من نظمٍ موثق ... بقيدِ الخطايا والعلائق مكفوتا

فالحصان هنا كناية عن القلب وإشارة إلى ظلمته وعماه بسبب الخطايا وشغله بالعلائق العائقة له عن السير في الميدان المذكور، وهو ميدان من ميادين الملكوت هو موطن فضلهم المشكور، ولا يعرف ذلك الميدان إلا أهل النور والعرفان، ولا يقطعه إلا المخفون السابقون الفرسان، فلهذا وقف الحصان المكنى به عن الجنان لعدم النور البارق، وثقل العلائق اللذين كل واحد منهما كالقيد العائق، ولو أنه أفلت من الوثاق وأزيل عنه القيدان وأرخى له العنان في ذلك الميدان، لجال في تلك الأوطان وشاهد في خيامها مليحات المعارف الحسان، فأعرب عن تلك المحاسن بأحسن بيان، وقال لسان الحال: ليس الخبر كالعيان، ولكنه إذا لم يعرف تلك المنازل ينشد عنها كل عارف بها نازل، وينشد في الملاح المذكورات هذه الأبيات:

أُسائل عنْ أوطانِ غر المعارف ... وينشد عن ذاك الحمى كل عارف
يخبرُ عن تلكَ الديار وأهلها ... وحُسن ملاح في الخيام عواكف
فإن شاهدتْ عيناي يوماً خيامُها ... وغالى جمال للمُحبين شاغف
سأكشفُ عن زاهي جمال معارف ... قناع مليحات المعاني اللطائفِ
وما ليسَ من أسراره عزة ينبغي ... لمأمونه كشف فلست بكاشفِ

ثم ختمت القصيدة بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بقولي:

وتمتْ بحمدِ الله أزكى صلاته ... على سيدِ الأحيا من الخلقِ والموتى

قال في الصحاح. ساد قومه يسودهم سيادة وسودداً وسيدوه فهو سيدهم وسوده قومه، وهو أسود من فلان: أي أجل منه.

قلت: في السادة قال حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه لما قال رسول الله ﷺ لحي من الأنصار: «من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الحر بن قيس على بخل فيه»، فقال ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل. بل سيدكم عمرو بن الجموح»[1]، فسمع حسان مقالة رسول الله ﷺ فأنشأ يقول:

يقولُ رسول الله والحق قوله ... فقال لنا من ذا تعدون سيدا
فقلنا له حر بن قَيس على التي ... يبخله فينا وقد نالَ سوددا
فقال وأي الداء أدوى من التي ... رميتم بها حرا وغل بها يدا
وسود عمرو بن الجموحِ لجودهِ ... وحق لعمرو ذي النَّدى أنْ يسودا
إذا جاءهُ السؤال أنهب ماله ... وقالَ خذوهُ إنهُ عائدٌ غدا
فلو كنت يا حر بن قَيس على التي ... على مثلها عَمْرو لكنتَ المسوّدا

فتبسم رسول الله ﷺ من شعره وقال: «إن من الشعر لحكما»[2]، وروي لحكمة. وأشرت بقولي سيد الأحياء من الخلق والموتى إلى مذهب الحق وقول الجمهور في أنه أفضل الخلق مطلقاً. ومن جملة الأدلة على ذلك قوله عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] والعالم جميع المخلوقات على القول الصحيح، والمرحوم به أفضل من المرحوم، وكذلك علو مقامه ﷺ ليلة الإسراء الذي علا به على جميع مقامات الرؤساء الكرام من الملائكة والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، وكذلك مقامه المحمود الذي يحمده الأولون والآخرون في القيامة، ورجوع الخلق إليه في الشفاعة العظمى عند ترادف الدواهي العظام التي شيبت الولدان وأسكرت الأنام، قوله ﷺ: «أنا لها»[3] وقيامه بها بعد مدافعة أكابر الأنبياء لها، وتقدمه فيها بعد تأخرهم عنها، وتوجهه إليها وتوجيهه فيها، وغير ذلك مما يكثر عده من الدليل، ويخرج الكتاب من حيز الاختصار إلى التطويل، ولا حاجة إلى ذكر ذلك ولا إلى ذكر التفصيل في التفضيل، أعني بين الرؤساء من الملائكة والأنبياء، وبين جنس المَلك والبشر، فالخلاف في ذلك معروف مقرر، وإنما القصد التنبيه على ما أشرت إليه في البيت المذكور من كونه عليه أفضل الصلاة والتسليم أفضل خلق الله أجمعين، وإلى هذا المذكور أشرت حيث في مدحه أقول:

عليكَ صلاة الله يا ملجأ الورى ... إذا أقبلتْ يوم الحساب جهنمُ
وراموا شفيعاً يستغاث بجاهه ... له شرف العليا وجيه مكرمُ
وقالوا لأهل العزم في الرسل من لها ... فليسَ سواكُمِ يا أُولي العزم يعزمُ
فعنها خليلٌ والكليمُ تأخروا ... وعيسى وقبل القوم نوح وآدمَ

---

(١) أخرجه البخاري (خمس ١٥)، (مغازي ٧٣)، وأحمد بن حنبل ٣/ ٣٠٨.

(٢) أخرجه البخاري (أدب ٩٠)، والترمذي (أدب ٦٩)، وابن ماجه (أدب ٤١)، والدارمي (استئذان ٦٨)، وأحمد بن حنبل ١/ ٢٦٩، ٢٧٣، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٣٣، ٣/ ٤٥٦، ٥/ ١٢٥.

(٣) أخرجه ابن كثير في (التفسير ٨/ ٤٢١)، وفي (البداية والنهاية ١/ ١٧١).

فحين الكرام الرسل عنها تأخروا ... أتيت إليها بالندى تتقدمُ
أغثت جميع الخلق إذا كنتَ رحمةً ... تغيث جميع العالمين ليرحموا
فأنت الذي في الحشر تحتَ لوائه ... جميع البرايا للأنامِ مقدمُ

وهذه أيضاً ثلاثون بيتاً في ذلك المعنى من قصيدتي المسماة بمفاخر العليا في مدح خاتم الأنبياء ومفاخر الأرض والسما:

لنا مفخر فاقَ المفاخر كلها ... وأصبحَ مفخورٌ بهِ كلَ فاخرِ
لنا بدر حسن قد سَبَى الخلقُ كلهمُ ... وهاموا به وما بينَ باد حاضر
أنارتْ به الآفاق شرقاً ومغرباً ... ونحى ظلام الظلم داجي الدياجر[1]
سراجُ الهدى الماحي بأنوار وجهه ... ظلام الطغا بدر البدور الزواهر
مُبيد العدا الطاغين من كل ملة ... هزبر الوغى ليث الليوث الخوادرِ[2]
مليح الحلى زين الوجود مُحمد ... طراز جمال الكون تاج المفاخرِ
حوى الحُسن والحُسنى جميعاً فأصبحا ... وللخلق قد عما بزاه وماطرِ
محاسنُه يزهو الوجود بحُسنها ... وإحسانُه في كل بادٍ وحاضرِ
بملته البيضاء أتى الخلق واضعاً ... بها ما سواها من طغي كل كافر
وأظهرَ دين الحق حتى به علا ... على كل دين باطل الحكم صاغرِ
بنورِ الهُدى مع معجزات بواهر ... وبالسمر والبيض العوالي البواتر
بأيدي أسود أهل مجد ونجدة ... على سابقاتٍ كالطيورِ الطوائرِ
سرابيلهُم من نسج داود فوقهم ... كليل به مثل النّجوم الزواهر[3]
له الشرفُ المشهور في الأرض والسَّما ... ويوم به كم من سعيد وخاسِر
يقوم مقاماً يحمد الخلق فضله ... غياث الورى عند الدواهي الزواعرِ
إذا من لها قالوا تقدم عندما ... تأخرَ عنها كابر بعدَ كابرِ
له الحوض مجد والشفاعة واللوى ... إلى حوضِه كم واردٍ ثم صادر
وكل الكرام الرسل تحت لوائه ... فأكرم بهذي المكرمات الفواخرِ
وفوق السما لما سما نال رتبة ... علت رتباً للمُصطفين الأكابرِ
وأفلاكها وأملاكها أنبياؤها ... به استبشروا واستقبلوا بالبشائر
وفي سُدرة للمُنتهى كان منتهى ... مسايره جبريل خير مُساير
أميطت له حجب الجلال فجازها ... إلى مكرمات حازها ومفاخر
وبات له زاهي محياك باسماً ... نعالا فأين الفخرِ يا أم زاهر

(١) الدياجر: (ج) الديجور: الظلام أو المظلم (للمذكر والمؤنث).
(٢) الهِزَبْرُ: الأسد أو الشديد الصلب (ج) هزابر.
(٣) السرابيل: (ج) السربال: ما يلبس من قميص أو درع.

لـوجهـك تشـريـف بـأقـدامـه التـي ... مَشَتْ دون قاب فوقَ قدس حظائر[1]
بـأعلـى السَّمـا أمسـى نجيـا مقـربـا ... لـدى حضـرة فيهـا سعـادة حـاضـر
تجلـى جمـال فيـه أشـرف منظـر ... بـأشـرفِ منظـور لأشـرف نـاظـر
فيـا مفخـراً فـاقَ المفـاخـر كلهـا ... بمثلـك مـا للمُصطفـى مـن مفـاخـرِ
عليـه صـلاةُ الله مـا ضـاءَ بـارقٌ ... وسـاق الغـوادي صـوت حـادٍ وزاجـرِ
وآل وأصحـاب أولـي المجـد والنـدا ... جميـع المـلا مـن نـاصـرٍ ومهـاجـرِ
صـلاة مـع التَّسليـم فـاحَ ذكـاهمـا ... بنشـر علـى الآفـاق للمسـكِ نـاثـرِ

وهذه أيضاً عشرون بيتاً في ذلك المعنى من قصيدتي المسماة بالدر المنظم في مدح رسول الله ﷺ، وفي مفاخرتنا لجميع الأمم:

سلِّ الأمـم الأولـى تجب مـن حديثهـا ... ويسمعك إن لم تسمع الآن في النشر
لمـن خلـع العليـاء مـن خضـرٍ سنـدس ... بنسـجِ العنـايـات السـوابـق للـدهـرِ[2]
وتيجـان ملـك المجـد والفـوز كللـت ... بقضبـانِ يـاقـوت السعـادة والـدرِّ
وقصـر رفيـع السمـك فـي ذروة العلـى ... مضـيء بنـي مـن سـودد العـز والفخـرِ
وبيـضُ العلـى تختـال زهـوا بحسنهـا ... بغـالـي الحلـي والحلـي كـم خـودة بكـرِ
إذا مـا وردنـا فـوقَ نُجـب مـن البهـا ... وفودا إلـى الرَّحمـن فـي موقـفِ الحشـرِ
تـؤم لـواء البـدر أحمـد والـورى ... ورانـا استضـاءَ نـورُ أنجُمنـا الـزهـرِ
ذو الكفـر والطغيـان والظلـمِ أظلمـتْ ... بـه طـرق فـي أيـن يـذهـب لا يـدري
ومنبـر نـور فـوقـه البـدر يـرتقـي ... إلـى منصـبٍ فـوق الـورى عـالـي القـدر
وحـوض كـألبـان بلـون وطعمـه ... كشهـد كبـرد الثلـج كالمسـك فـي النشر[3]
لـه، ومقـام يحمـد الخلـق فضلـه ... إليـه عيـون الضـد تنظـر بـالشـزرِ
وعقـد لـواء الحمـد بـالنـور معلمـاً ... وفضـل سيـادات التقـدم فـي الصـدرِ
يزيـح الـدواهـي الـدهـم لمـا تـرادفـت ... عظـائمهـا والخلـق سكـرى بـلا سكـرِ
وفيهـا الكـرام الـرسـل والسـادة المـلا ... يقـولـون نفسـي للشـدائـد والـذعـرِ
وحـرم دخـل الخلـق مـن قبـل أمتـه ... محجلـة غـر لهـا حليـة الطهـرِ
لمـن كـل هـذا مـع سـواهـا منـاقـب ... مـع المكـرمـات الخـارجـات عـن الحصـر
لمـن خلفنـا أم للـذيـن وجـوههـم ... كلـون الـدجـى أم للمحجلـة الغـر[4]
إلٰهـي بجـاه المصطفـى سيـد الـورى ... إمـام الهـدى الهـادي مـن الحيـرةِ البـدرِ

---

(١) القاب: المقدار أو ما بين نصف وتر القوس وطرفه.
(٢) السُّنْدُس: ضرب من رقيق الديباج أو الحرير المنسوج الذي يتلون ألواناً.
(٣) النَّشْرُ: الرائحة الطيبة أو الرائحة عموماً.
(٤) حَجَّلَ فلان أمره: شَهَرَه. يقال: أمر أغرّ محجّل، ويوم أغر محجّل؛ أي: مشهور.

أقل عثرات واهدنا واكشف العما وعاف وسلمنا من الخزي والخسر
وصل وسلم ثم واصل تحية على أحمد ما غنت الورق والقمري(١)

انعطاف على تكميل شرح ما تقدم من شرح المقامات من الكتاب والسنة وأقوال العارفين الرجال على وجه الترتيب، وشيء من البسط من غير خروج إلى حد الإملال متحرياً في ذلك التهذيب والتحقيق، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

المقام الأول التوبة(٢)

اللهم تب علينا واغفر لنا وارحمنا إنك أنت الغفور الرحيم التواب الكريم.

اعلم أن التوبة فرض بنص الكتاب والسنة والإجماع، وردت في فرضها وفضلها الآيات الكريمات والأحاديث النبويات، قال الله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنك سيئاتكم﴾** [التحريم: ٨] الآية، وقال تعالى: **﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾** [النور: ٣١] وقال سبحانه: **﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾** [الحجرات: ١١] وقال تبارك وتعالى: **﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾** [البقرة: ٢٢٢] وقال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة»(٣) رواه مسلم. وروى البخاري أنه ﷺ قال: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه»(٤) وروى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٥) وقال هذا حديث حسن

---

(١) الوُرْق: (ج) الورقاء: الحمامة أو التي لونها كالرماد فيه سواد. القُمْرِيُّ: ضرب من الحمام مطوّق، حسن الصوت (ج) قُمْر، والأنثى قمرية (ج) قماري ويقال للذكر منه أيضاً: ساقُ حُرٍّ.

(٢) انظر حديث القشيري عن التوبة برسالته ص ٩١ ـ ٩٧.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤٢)، وابن ماجه في (السنن ٧٨، ١٠٨١)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠١).

(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ٢٣٠، ٥/ ١٥٢، ٦/ ١٣٠)، ومسلم في (الصحيح التوبة ٥٦) وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ١٩٦)، والبيهقي في(السنن الكبرى ١٠/ ١٥٣)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ٢٤٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٣٠). والألباني في(السلسلة الصحيحة ٣/ ٢٠٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ٢٧١)، (بغوي ٥/ ٦٠)، والطبري في (التفسير ١٨/ ٧٣)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٢٠).

(٥) أخرجه الترمذي في (السنن ٣٥٣٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ١٣٢، ٣/ ٤٢٥)، والشهاب في (المسند ١٠٨٥)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ٢٥٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٩٣)، والشجري في (الأمالي ١/ ١٩٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٤٤٦). والقرطبي في (التفسير ٥/ ٩٢، ٧/ ١٤٧، ٨/ ٣٨٤)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٥/ ١٩٠) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٢٥، ١٠/ ٢٥٩)، وابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٣٧)، والبغوي =

غريب. وروى النسائي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من قبل المغرب»[1] وروى أبو القاسم القشيري بإسناده عنه ﷺ أنه قال: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[2] وروى أيضاً بإسناده عنه ﷺ أنه قال: «ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب»[3].

قلت: والأحاديث في التوبة كثيرة وفي بعضها كفاية؛ والتوبة في لسان العرب الرجوع، يقال تاب: أي رجع، فهي رجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه. وللتوبة عند العلماء ثلاثة شروط: الندم على ما تقدم من الذنوب، وترك الذنب في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل. ثم يجب عليه إرضاء الخصوم بأداء الحقوق أو بالتحلل منهم في جميع المظالم، فإن عجز عن شي من ذلك فيعزم بقلبه على الخروج منه عند الإمكان، ويرجع في ذلك إلى الله سبحانه بالتضرع والابتهال في براء ذمته والدعاء للخصوم. اللهم هب لنا حقك وأرض عنا خلقك إنك كريم قدير لطيف خبير.

قال الشيوخ رضي الله تعالى عنهم: التوبة هي الأصل والأساس الذي عليه تنبني المقامات، فلا

= في (شرح السنة ٥/ ٩٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٤٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٠١٨٧، ١٠٢٥٧، ١٠٢٦٠)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٢٨٧، ٥٢٩١)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٢٤٤٩)، (ميزان الاعتدال ٤٨٢٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٨٨).

(١) أخرجه أبو داود في (السنن ٢٤٧٩)، وأحمد بن حنبل من (المسند ١/ ١٩٢، ٤/ ٩٩)، الدارمي في (السنن ٢/ ٢٤٠)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٥/ ٢٥١)، والطبراني في(المعجم الكبير ١٩/ ٣٨٧) وابن عبد البر في (التمهيد ٨/ ٣٨٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٤٦)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٣/ ٢٠٨)، والبغوي في (شرح السنة ١٠/ ٣٧١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٥٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٦٢٤٩)، والألباني في (إرواء الغليل ٥/ ٣٣)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢٠٢)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٥/ ٢٧، ٦/ ١٤٠، ٩/ ٨٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤٢٥٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٥٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٠١٤٩، ١٠١٧٤، ١٠٤٢٨)، والسيوطي في (جمع الجوامع ١٠٣٤٠، ١٠٣٤١، ١٠٣٤٢، ١٠٣٤٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٢١٠) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٩٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٠٣، ٥٠٦، ٥٢٥، ٥٨٧، ٩/ ٦٠٩، ١٠/ ٢٢٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٦٣)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٦١)، والشجري في (الأمالي ١/ ١٩٨)، والقرطبي في (التفسير ١٨/ ٢٠٠) وابن كثير في (التفسير ٥/ ٢٤١)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٥، ٣١٤)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١/ ٢٥٧، ٢٥٨)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٨٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٥١)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٦١٥، ٦١٦)، والقشيري في الرسالة القشيرية ص ٩١.

(٣) أخرجه الشجري في (الأمالي ١/ ٢٠٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/ ١٤٣٩).

يصح مقام إلا بها، ثم هي في طريق القوم متفاوتة؛ فمنها توبة العوام، ومنها توبة الخواص، ومنها توبة خواص الخواص. ثم تكلموا فيها فقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة ولا لرهبة فهو صاحب أوبة. ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ [النور: ٣١] والإنابة صفة الأولياء والمقربين، قال الله عز وجل: ﴿وجاء بقلب منيب﴾ [ق: ٣٣] والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ [ص: ٤٤] وقال ذون النون المصري رضي الله عنه: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. وقال ابن عطاء رضي الله تعالى عنه: التوبة توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة؛ فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفاً من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرمه. وقال أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه. التوبة أن يتوب من كل شيء سوى الله عز وجل، وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: دخلت على السري رضي الله تعالى عنه يوماً فرأيته متغيراً، فقلت له: ما لك؟ فقال دخل عليّ شاب سألني عن التوبة، فقلت له: أن لا تنسى ذنبك، فعارضني وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقلت إن الأمر عندي ما قاله الشاب، فقال: لم؟ فقلت: لأني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء فسكت. وقد أجابه سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه أيضاً بجواب مثل ما أجاب به السري، قال أبو نصر السراج: أشار سهل إلى أحوال المريدين المتعرضين تارة لهم وتارة عليهم. وأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين لا يذكرون ذنوبهم مما غلب على قلوبهم من عظمة الله سبحانه ودوام ذكره.

قلت: وأقوال الشيوخ في التوبة كثيرة، وهي مشيرة إلى همم عاليات وأحوال سنيات لا يقوم بها غيرهم، وقد تقدم شرح قولي في القصيدة وتوبتهم عن غفلة ما؛ أعني أدنى غفلة تقتضي عندهم التوبة، وهي التوبة الخاصة توبة الخواص، والتوبة تدعو إليها حاجة الناس على العموم، وهي مفتقرة إلى إيضاح وبيان مفهوم. وها أنا أذكر شيئاً من ذلك.

اعلم: أن للتوبة مقدمات وعلامات وثمرات وحداً وشروطاً.

فأما مقدماتها: فأولها انتباه القلب عن رقدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحال، والتعرض لسخط الله تعالى وأليم عقابه، وذكر ضعف صبره عن احتمال شديد عذابه، فيحمله ذلك على التوبة.

وأما علاماتها: فهي هجران الأخدان[١] وقرناء السوء والتوحش عنهم، وحب العزلة، وقلة الكلام، وترك الخوض، ومجانبة الفضول، وسكون الجوارح عن الحركات المذمومات، والاستكثار من العبادة، وملازمة الذكر، وإطراق الرأس وخفض الطرف، ونحول الجسم، ودفع العين، وحزن

---

(١) الأخدان: (ج) الخِدْن: الصديق الذي يكون معك ظاهراً وباطناً في كل أمر (للذكر والأنثى).

القلب، وكثرة الأسف على ما أساء وفرط وتخلف وضيع من جواهر عمره النفيسة في المخالفات والشهوات الخسيسة، وإدامة البكاء والتضرع، والجؤار[1] في طلب الإقالة آناء الليل وأطراف النهار؛ وإلى بعض علامات التائب الصادق المقبول أشرت في هذه الأبيات حيث أقول:

علـى مـا عصـى ربـهُ مـن أسـا ... يُقـاسـي احـتـراقـاً بنـارِ الأسـا

ويـذري دمـوعـاً علـى عُمـرهِ ... بجنـح الـدُجـا والضُّحـى والمسَا

ويشكـو إلـى ربـهِ مـا بـهِ ... عسـى أنْ يتـوبَ ويعفـو عسَـا

فهذه المذكورات من علامات التوبة النصوح المقبولة وهي الخالص الصادقة.

وأما ثمراتها فمنها رجوعه حبيباً للرحمن بعد أن كان حبيباً للشيطان، ودخوله في رضى المولى بعد خروجه من سخطه تعالى، وتطهره من السيئات التي كان يستحق بها العذاب الأليم، وربحه الحسنات التي ينال بها النعيم المقيم، والقرب من الحبيب المولى الكريم، ومسارعته في الخير بانبعاث جوارحه في العمل بعد أن كان بقيد الذنوب مكبولاً، وطعم لذة الطاعات وحلاوة المناجاة وصيرورة العمل بعد الرد مقبولاً، وسلامته من سيئات ربما جرت المصرّ عليها إلى الكفر والعياذ بالله تعالى، كما جاء في الكتاب المكنون ﴿**ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون**﴾ [الروم: ١٠] وعلى الجملة يصير بعد أن كان خبيثاً طيباً، وبعد أن كان مبعداً مقرباً، وبعد أن كان مبغوضاً حبيباً، وبعد أن كان المدعو غير سامع لدعائه مجيباً، وبعد الإعراض عنه الإقبال عليه، وبعد خروج نور الإيمان من قلبه رجوعه إليه، وبعد أن كان تتنحى عنه الملائكة الكرام من نتن ريحه صاروا عليهم السلام يشمون منه طيب الطاعات، كما جاء في الحديث «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[2] فكم بين الطيب والخبيث، فهذا إذا جالسته كنافخ الكير[3]، إما أن تحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً منتنة، وهذا كحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، كما جاء في الجليس الصالح والجليس السوء، وكما يعرف ذلك من

---

(١) جأر: رفع صوته بالدعاء مع تضرع واستغاثة.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/ ٣٤، ٧/ ٢١١، ٩/ ٧٥، ١٩٢)، ومسلم في (الصحيح الصيام ب ٣٠ رقم ١٦٣، ١٦٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٤٤٦، ٢/ ٢٥٧، ٢٦٦، ٢٨١، ٣١٣/٢، ٣٩٥، ٤١٤، ٤٤٣، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٦٧، ٤٧٥، ٤٧٧، ٤٨٥، ٥٠١، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥١٦، ٣/ ٤٠، ٦/ ٢٤٠) والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/ ٢٣٥، ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٠٥)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٤٠٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/ ١٢٠)، وابن السني في (عمل اليوم والليلة ٣/ ٥)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ١/ ٦١، ٢/ ٢٠١)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١٧٩، ١٨٠) وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٦٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٣/ ١٦٥، ١٨٠، ١٨١)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ١٧٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٧/ ٢١٣)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢١٢)، والخطابي في (إصلاح خطأ المحدثين ٢٠).

(٣) الكِيرُ: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإشعالها (ج) أكيار وكيرة.

اختبره، فكل هذه من ثمرات التوبة النصوح، وأكرم بها من ثمرة، فلقد عظمت منة الله عز وجل على عباده، إذ وفقهم للطاعة، وغفر للتائب الصادق منهم ذنوبَ ستين سنة وأكثر في ساعة، فيا لها نعماً جلت لا يطاق شكرها، ويا لها آلاء عظمت وجل قدرها ولا سبيل إلى شكرها والثناء على منعمها، أيها العبد التائب المتنسك إلا بإنفاق أنفاس العمر في الطاعة، مع الاعتراف بالعجز، كما قال سيد العارفين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[١].

وأما حدها: فهو ترك اختيار ذنب سبق منك مثله منزلة لا صورة، تنزيهاً لله تعالى وحذراً من سخطه، وهذا الحد حكاه الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه وأرضاه، واحترز بقوله منزلة لا صورة لتصح توبة الشيخ الهرم الذي لا يقدر على قطع الطريق والزنا، إذ لا يقدر على ترك اختيارهما لكونه عاجزاً عن فعلهما، فلا يوصف باختيار ترك ما هو عاجز عنه، ويقدر على ترك اختيار ما هو مثلهما في المنزلة من المعاصي الفرعية، وإن تفاوتت في الإثم فكلها معاص منزلتها دون منزلة البدعة، ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فتصبح توبته عنهما.

وأما شروطها: فقد تقدم أنها ثلاثة شروط. وها أنا أعيد ذكرها وأزيد في بيانها هي الندم على ما تقدم من الذنوب، وترك الذنب في الحال تعظيماً لله تعالى وحذراً من سخطه، والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي البتة. فهذه الشروط لا بد منها، وإلا فلا تصح التوبة. وأما ما ورد في الخبر «أن الندم توبة»[٢] فمحمول عند بعض العلماء على أنه معظم التوبة، كما قال ﷺ «الحج عرفة»[٣] أي معظم الحج، وعند بعضهم محمول على الندم لتعظيم الله تعالى، وخوف عقابه يبعث على التوبة النصوح، ولا يترك التوبة لخوف العود إلى المعصية، فإن ذلك من مكايد الشيطان

---

(١) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر ٥)، والترمذي (دعوات ٧٥، ١١٢)، والنسائي (طهارة ١١٩)، (تطبيق ٤٧، ٧١)، (قيام الليل ٥١)، وابن ماجه (دعاء ٣)، (إقامة ١١٧)، والموطأ (مسّ القرآن ٣١)، وأحمد بن حنبل ١/ ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦/ ٥٨، ٢٠١

(٢) أخرجه ابن ماجه (زهد ٣٠)، وأحمد بن حنبل (١/ ٣٧٦، ٤٢٣، ٤٣٣) والقشيري في الرسالة ص ٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (المناسك ب ٦٩)، والترمذي في (السنن ٨٨٩)، والنسائي في (السنن ٥/ ٢٥٦، ٢٦٤)، وابن ماجه في (السنن ٣٠١٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥/ ١٥٢، ١٧٣)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٢٦٤، ٢/ ٢٧٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٩٤) والألباني في (إرواء الغليل ٤/ ٢٥٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٨٩) والزيلعي في (نصب الراية ٣/ ٩٢، ٩٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٢/ ٢٥٥)، وابن الجوزي في (زاد المسير ١/ ٢١٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٢٠٦١، ١٢٠٦٥)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ١١١، ٥/ ٢٤٢)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٨٢٢)، والعقيلي في (الضعفاء ٢/ ٣٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٤٠)، والدارقطني في (السنن ٢/ ٢٤١) والحاكم في المستدرك ١/ ٢٦٤. ٢/ ٢٧٨)، والقشيري في الرسالة القشيرية ص ٩٢.

ووسوسته، فعسى أن يستمر في التوبة أو يموت قبل العود، فعلى العبد العزم، وعلى الله سبحانه الإعانة، وإن أثم فذلك، وإلا كان قد تخلص من ذنوبه السالفة وتظهر منها مهما وجدت شروط التوبة، وناهيك بهذا الربح العظيم والخير الكثير، ولا بد من إرضاء الخصوم بأداء الحقوق أو بالتحلل منهم في جميع المظالم كما تقدم، فلا تتم التوبة إلا بذلك.

واعلم أن الحقوق التي يجب أداؤها أو التحلل منها قسمان: أحدهما لله تعالى، وهو ترك واجب من صلاة أو صوم أو كفارة أو غيرها، فيجب قضاء ما أمكن من ذلك والقسم الثاني للعباد وهو ينقسم على خمسة أقسام: في النفس، أو في المال، أو في العرض، أو في الحرمة، أو في حق من الحقوق غير هذه المذكورات. فالخروج عن ذلك بالتمكين من القصاص في النفس أو في الدية، أو الاستحلال، وبالرد أو الاستحلال في المال، وبالاستحلال فقط في العرض إن لم يخف زيادة غيظ وهيجان فتنة إذا ذكر له ذلك، ويكذب نفسه عند من بهته، أو فسقه، أو كفره عنده، فإن خشي من ذكر ذلك له ما ذكرنا، فالرجوع إلى الله تعالى بالابتهال وللتضرع أن يرضى عنه الخصوم، والاستغفار لهم، وكذلك في الحرمة بأن خانه في أهله أو ولده أو من يتعلق به، يتضرع إلى الله تعالى ويرغب إليه أن يرضيه عنه، ويجعل له خيراً كثيراً في مقابلة ذلك، فإن أمن الفتنة والغيظ وهو نادر وبعيد جداً فيستحل منه. وأما سائر الحقوق الخارجة عن هذه الأقسام، فأعني بها ما لا يقابل بعوض كالكلب وجلد الميت والخمر المحرمة والسرجين[1] وسائر الأعيان النجسة التي يجوز اقتناؤها، فطريق الخروج عنها بالرد إن أمكن، وبالاستحلال إن لم يمكن لتلف أو غيره، ولا تغرم إذ لا قيمة لها بخلاف المال. ومن الحقوق المنع من أخذ بشفعة، أو تصرف في ولاية أو نحو ذلك من الحقوق يجب الاستحلال منه، وحيث عدم صاحب الحق في جميع هذه الأقسام فإن كان بموت رجع إلى الوارث في كل ما يورث، فإن لم يكن له وارث أو كان مما لا يورث رجع فيه إلى الله سبحانه في إرضاء الخصوم والدعاء لهم والتصدق عنهم واستكثار الحسنات لاستيفائهم في القيمة؛ وإن كان بغيبة ولم يمكن التوصل إلى البراءة فإن كان مما تدخله النيابة كالمال والحقوق المنتفع بها سلم إلى الوكيل، فإن لم يكن فإلى الحاكم وينتظر حضوره فيما عدا ذلك.

وعلى الجملة فالرجوع إلى الله عز وجل في كل ما عجز منه لموت أو غيبة أو فقر أو خوف شر أو زيادة غيظ، والمرجو من كرم الكريم تعالى إرضائه الخصوم وتعويضهم من فضله العظيم إذا علم صدق العبد في التوبة والاهتمام ببراءة الذمة في رد الحقوق ثم عجز عن ذلك من غير وجوب عليه سبحانه، بل ذلك مع وقوعه في جانب رجاء الفضل، متردد في خطر المشيئة إلى جانب خوف العدل، وهذا الخوف والرجاء في إرضاء الخصوم إنما هو بعد قبول التوبة. والخوف من عدم قبولها أشد، إذ هو من جميع خطاياه التي يستحق بها سخط الله تعالى وعظيم عقابه على يقين، لا سيما والتائب على الحقيقة يصير محبوباً لله تعالى.

---

(١) السِّرْجين: (مع) الزِّبْل.

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: وإلى أن يبلغ العاصي محلاً يجد في أوصافه أمارة محبة الله تعالى إياه مسافة بعيدة، فالواجب إذن على العبد إذا علم أنه ارتكب ما يجب عنه التوبة دوام الإنكسار، وملازمة التنصل والاستغفار؛ كما قالوا استشعار الوجل إلى الأجل.

وذكر الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه عن الإمام أبي إسحاق الإسفرائيني رضي الله تعالى عنه أنه قال: دعوت الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقني توبة نصوحاً، ثم تعجبت في نفسي وقلت: سبحان الله حاجة دعوت الله تعالى فيها ثلاثين سنة فما قضيت إلى الآن؟ فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول لي: أتتعجب من ذلك وما تدري ما تسأل، إنما تسأل الله سبحانه أن يحبك، أما سمعت قوله جل جلاله: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [البقرة: ٢٢٢] أهذه حاجة هينة؟ انتهى كلامه.

قلت: ومما يستحسن من التائب ويرشد إليه إذا كملت شروط التوبة، إن يغسل جسمه وثيابه، ويصلي أربع ركعات كما ينبغي، ويضع وجهه على الأرض، ويجعل التراب على رأسه، ويمرغ وجهه في التراب ويبكي ويتضرع في مكان خال لا يراه في ذلك إلا الله سبحانه، وأرى ذلك في البرية أليق وأحسن وأجمع وأمكن وأقرب إلى الخشوع والبكاء والنحيب، وأستر للشكاء والجؤار إلى القريب المجيب، ويتوب نم ذنوبه جميعاً ويذكرها واحداً واحداً ما أمكن، ويوبخ نفسه في تعرضها لسخط الله تعالى وأليم عقابه وعدم استحيائها منه والتعرض لفوت عظيم ثوابه، نعوذ بوجه الله الكريم من ذلك ومما نحن له أهل، ونسأله ما هو أهله من المغفرة والفضل، ويكون من دعائه: اللهم يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا تغلطه المسائل ولا يبرمه إلحاح الملحين، صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد، وأذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك برحمتك يا أرحم الراحمين. فإن استمر على التوبة فذلك علامة التوفيق والحمد لله، وإن عاد إلى المعاصي فينبغي أن يعود إلى التوبة ويكرر كما تكرر منه نقضها والخروج عنها، ولا ييأس من قبول توبته، فإن باب التوبة مفتوح، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من المغرب كما تقدم في الأحاديث، ولا ينبغي قطع الرجاء عن قبوله التوبة، فإن لكل أجل كتاباً، ولم يزل الله سبحانه على من تاب تواباً.

وقد روينا عن بعض المريدين أنه تاب ثم وقعت له فترة[1]، وكان يفكر وقتاً لو عاد إلى التوبة كيف حكمه فهتف به هاتف: يا فلان أطعتنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلناك، فإن عدت إلينا قبلناك، فعاد الفتى إلى الإرادة.

قلت: وللتوابين حكايات كثيرات شهيرات، وها أنا أقتصر منها على سبع حكايات:

الحكاية الأولى

عن ذي النون رضي الله تعالى عنه قال: بينما أنا أمشي على شاطىء النيل إذ رأيت عقرباً تدب،

---

(١) الفترة: جمع فترات، وهي حالة مرضية، أو ما بين النوبتين من الحمىٰ أو الإنكسار والضعف.

فأخذت حجراً وأردت قتلها، فهربت مسرعة، فوقفت على شاطىء النيل، فخرجت ضفدعة، فوثبت العقرب على ظهرها فعامت بها حتى خرجت بها من الجانب الآخر، فتبعتها، فلما بلغت البر نزلت عن ظهرها، فإذا برجل نائم وهو سكران وثعبان قد أقبل إليه ليلدغه، فأسرعت العقرب إلى الثعبان فلدغته لدغة تقطع الثعبان منها قطعاً، فأيقظت ذلك الرجل من نومه، فقام فزعاً مرعوباً، فلما رأى الثعبان ولى هارباً، فقلت له: لا تخف قد كفيت أمره، وقصصت عليه القصة، فأطرق برأسه ثم رفعه إلى السماء وقال: يا رب هكذا تفعل بمن عصاك، فكيف بمن أطاعك، وعزتك وجلالك لا عصيتك بعدها، ثم ولى باكياً وهو يقول:

يا راقداً والجليل يحرسهُ ... منْ كل سوء يدب في الظلمِ
كيفَ تنامُ العيون عن ملكٍ ... ومنهُ تأتي فوائد النعمِ

الحكاية الثانية

عن بعض الأكراد ممن كان يقطع الطريق وينهب الأموال قال: بينما أنا وجماعة من أصحابي جلوس وقد خرجنا لقطع الطريق وانتهينا إلى مكان فيه ثلاث نخلات واحدة منهن ليس فيها ثمر، وإذا بعصفور يحمل رطبة من نخلة مثمرة إلى رأس النخلة التي ليس فيها ثمر، حتى تكرر منه ذلك عشر مرات وأنا أنظر، فخطر بقلبي أن أقم وأنظر فقمت فصعدت النخلة فإذا في رأسها حية عمياء فاتحة فاها، والعصفور يضع الرطب فيه، فبكيت وقلت: سيدي هذه حية قد أمر نبيك بقتلها، لما أعميتها أقمت لها عصفوراً يقوم لها بالكفاية، وأنا عبدك أقر بأنك واحد أقمتني لقطع الطريق وإخافة السبيل، فوقع بقلبي. يا فلان بابي مفتوح، فكسرت سيفي ووضعت التراب على رأسي وصحت الإقالة الإقالة، فإذا بهاتف يقول: قد أقلناك قد أقلناك، فأتيت رفقاي فقالوا: مالك قد أزعجتنا، فقلت كنت مهجوراً وقد صولحت، وحكيت لهم القصة فقالوا، ونحق نصالح أيضاً فرمينا بثيابنا وسلاحنا وأحرمنا وقصدنا مكة، وأقمنا نمشي ثلاث أيام في البرية، ثم دخلنا قرية فإذا نحن بعجوز عمياء مررنا عليها، فسألتنا أفيكم فلان الكردي؟ قلنا نعم، فأخرجت إلينا ثياباً وقالت: مات ولدي وخلف هذه الثياب، فرأيت النبي ﷺ في النوم ثلاث ليالٍ يقول لي: «أعط هذه الثياب فلاناً الكردي»، قال: فأخذتها فاكتسيت بها أنا وأصحابي، ثم مضينا إلى أن أتينا مكة.

الحكاية الثالثة

عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه أنه قال وقد سئل عن أصل توبته قال: خرجت من مصر إلى بعض القرى، فنمت في الطريق وانتبهت وفتحت عيني وإذا بقنبرة[1] عمياء سقطت من شجرة، فانشقت الأرض فخرج منها

(١) القنبرة أو القُبَّرة: جنس طير من فصيلة القبريات تعيش من معظم البلاد الحارة والمعتدلة جميعها =

سكرجتان[1]، إحداهما من ذهب والأخرى من فضة في إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء ورد[2]، أو قال ماء، فأكلت من هذه وشربت من هذه، فقلت: حسبي، ولزمت الباب إلى أن قبلني.

الحكاية الرابعة

عن السيد الجليل الولي الكبير مالك بن دينار[3] رضي الله تعالى عنه، أنه سئل عن أصل توبته، فقال: كنت شرطياً، وكنت منهمكاً على شرب الخمر، ثم إني اشتريت جارية نفيسة ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتاً فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حباً وألفتني وألفتها، فكنت إذا وضعت المسكر جاءت إلي وجاذبتني إياه وهرقته على ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت، فأكمدني الحزن عليها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان وكانت ليلة جمعة بت ثملاً من الخمر ولم أصل صلاة العشاء، فرأيت كأن أهل القبور قد خرجوا وحشر الخلائق وأنا معهم، فسمعت حساً من ورائي، فالتفت فإذا أنا بتنين[4] أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعاً نحوي، فمررت بين يديه هارباً فزعاً مرعوباً، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثياب طيب الرائحة، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام، فقلت له أجرني وأغثني، فقال أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه، ولكن مر وأسرع فلعل الله سبحانه يسبب لك ما ينجيك منه، فوليت هارباً على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها فكدت أهوي فيها من فزع التنين وهو في طلبي، فصاح بي صائح ارجع فلست من أهلها، فاطمأننت إلى قوله ورجعت ورجع التنين في طلبي، فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل، فبكى الشيخ وقال أنا ضعيف، ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك، فنظرت إلى جبل مستدير فيه كوى مخرقة وستور معلقة، على كل خوخة[5] وكوة

= نافعة، أجسامها صغيرة، مناقيرها مخروطية قصيرة، أجنحتها مستطيلة، قُوتُها الحشرات والبذور البرية، لها أنواع كثيرة.

(١) السكرجة: لفظة فارسية، تعني الصحفة التي يوضع فيها الطعام.

(٢) الورد: نبات شائك من الفصيلة الوردية يُزرع لزهره، وهو أنواع وأصناف وزهره ذو أشكال وألوان مختلفة، منه ما هو ذو رائحة عطرة كالورد البلدي أو الدمشقي الذي يُستقطر منه ماء يُعرف بماء الورد، ودُهن يُسمى عطر الورد. ومنه ما لا رائحة له، ويُتخذ للزينة.

(٣) هو مالك بن دينار البصري (توفي ١٣١ هـ/٧٤٨ م) أبو يحيى من رواة الحديث. كان ورعاً يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة. توفي بالبصرة. الأعلام ٥/٢٦٠ ـ ٢٦٢، ووفيات الأعيان ١/ ٤٤٠، وحلية الأولياء ٢/ ٣٥٧.

(٤) التِّنِّينُ: ضرب من الحيات العظيمة. و(في الأساطير): حيوان أسطوري يجمع بين صفات الزواحف والطير، له مخالب أسد وجناحا نسر، وذنب أفعى. ويُتخذ في بعض البلاد رمزاً قومياً (ج) تنانين.

(٥) الخوخة: باب صغير يكون جزءاً من باب كبير. الكُوَّة: خرق في الجدار يدخل منه الهواء والضوء (ج) كوىً.

مصراعان من الذهب الأحمر مفصلة باليواقيت مكوكبة الدر، وعلى كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرت إلى الجبل هربت إليه والتنين ورائي، حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا، فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجبره من عدوه، فإذا الستور قد رفعت والمصاريع قد فتحت، فأشرف على أطفال بوجوه كالأقمار وقربت التنين مني، فتحيرت في أمري، فصاح بعض الأطفال ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه، فأشرفوا فوجاً بعد فوج فإذا بابنتي التي ماتت قد أشرفت عليّ معهم، فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي، فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمن فتعلقت بها، ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هارباً، ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي وقالت: يا أبت ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ [الحديد: ١٦] فبكيت وقلت: يا بنية وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت يا أبت نحن أعرف به منكم، قلت فأخبريني عن هذا التنين الذي أراد أن يهلكني؟ قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي، قالت: يا أبت ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت يا بنية وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة، ننظركم تقدمون علينا فنشفع لكم، فانتبهت فزعاً، فلما أصبحت فارقت ما كنت عليه وتبت إلى الله عز وجل، وهذا سبب توبتي انتهى كلامه.

قلت: وقد جاء في الحديث إن عمل الإنسان يدفن معه في قبره، فإن كان العمل كريماً أكرم صاحبه، وإن كان لئيماً عذبه: أي إن كان عملاً صالحاً آنس صاحبه وبشره ووسع عليه قبره ونوره وحماه من الشدائد والأهوال، وإن كان عملاً سيئاً فزع صاحبه وروعه وأظلم عليه قبره وضيقه وخلى بينه وبين الشدائد والأهوال والعذاب والوبال. نسأل الله الكريم التوبة والمغفرة والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، لنا ولأحبابنا والمسلمين آمين، وأنشدوا في المبادرة إلى التوبة قبل الموت:

بادرْ إلى التوبةِ الخلصاء مجتهداً ... والموت ويحكَ لم يمدد إليك يدا
فإنما المرءُ في الدنيا على خطرٍ ... إنْ لم يكنْ ميتاً في اليومِ ماتَ غدا

وأنشدوا أيضاً:

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً ... وأعقبهُ يوم عليك شهيدُ
فإنْ كنتَ بالأمس اجترحتَ إساءة ... فبادر بإحسانٍ وأنت حميدُ
ولا تبق فعل الصالحات إلى غدِ ... لعل غدا يأتي وأنتَ فقيدُ

الحكاية الخامسة

حكي أن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى علي بن المرتضى رضي الله تعالى عنه خرج يوماً من زبيد إلى نحو الساحل المعروف بالأهواب ـ بالباء الموحدة ـ ومعه تلميذ له، فمر في طريقه على قصب ذرة، فقال للتلميذ: خذ معك من هذا القصب، ففعل المريد وتعجب في نفسه وقال: ما مراد

الشيخ بهذا؟ ولم يقل له الشيخ شيئاً حتى بلغا إلى علة العبيد، فقال لهم الناس كم يأكلون الميتات ويشربون المسكرات ولا يعرفون الصلوات، وإذا بهم يشربون ويلعبون ويلهون ويطربون ويغنون ويضربون، فقال الشيخ للتلميذ، ائتني بذلك الشيخ الطويل الذي يضرب الطبل، فأتاه وقال له أجب الشيخ، فرمى بالطبل من رقبته ومشى معه إلى الشيخ، فلما وقفا بين يديه قال الشيخ للتلميذ اضربه بالقصب، فضربه حتى استوفى منه الحد، ثم قال له الشيخ: امشِ قدامنا، فمشى حتى بلغوا البحر، فأمره الشيخ أن يغسل ثيابه ويغتسل وعلمه كيفية ذلك وكيفية الوضوء ففعل، ثم علمه كيف يصلي، وتقدم الشيخ وصلى بهما الظهر، فلما فرغوا من الصلاة قام الشيخ ووضع سجادته على البحر وقال له: تقدم، فقام ووضع قدميه على السجادة ومشى على الماء حتى غاب عن العين، فالتفت التلميذ إلى الشيخ وقال: وامصيبتاه لي معك كذا وكذا سنة ما حصل لي شيء من هذا، وهذا في ساعة واحدة حصل له هذا المقام وهذه الكرامات العظام؟ فبكى الشيخ وقال: يا ولدي وإيش كنت أنا؟ هذا فعل الله سبحانه، قيل لي فلان من الأبدال توفي، فأقم فلاناً مقامه، فامتثلت الأمر كما تمتثل الخدام ووددت لو حصل لي ذلك المقام.

قلت: وهذه الحكاية وما بعدها من الحكايات مما ينبه على عظيم فعل الله المنان الجواد وقرب رحمته التي يخص بها من يشاء من العباد.

الحكاية السادسة

عن سيد الطائفة وإمامهم أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت في المسجد مرة فإذا رجل قد دخل علينا، فصلى ركعتين ثم امتد ناحية من المسجد وأشار إليّ، فلما جئته قال لي: يا أبا القاسم إنه قد حان لقاء الله تعالى ولقاء الأحباب، فإذا فرغت من أمري فسيدخل عليك شاب مغنّ فادفع إليه مرقعتي[1] وعصاي وركوتي[2] فقلت إلى مغن وكيف يكون ذلك؟ قال: إنه قد بلغ مرتبة القيام بخدمة الله تعالى في مقامي؛ قال الجنيد: فلما قضى الرجل نحبه وفرغنا من مواراته إذا نحن بشاب بصريّ قد دخل علينا فسلم وقال: أين الوديعة يا أبا القاسم، فقلت: وكيف ذلك أخبرنا بحالك، قال: كنت في مشربة بني فلان، فهتف بي هاتف أن قم إلى الجنيد وتسلم ما عنده وهو كيت وكيت، فإنك قد جعلت مكان فلان الفلاني من الأبدال، قال الجنيد: فدفعت إليه ذلك، فنزع ثيابه واغتسل ولبس المرقعة وخرج على وجهه نحو الشام.

الحكاية السابعة

عن بعضهم قال: ركبت في مركب في البحر ومعي رفيق لي، فلما سار المركب سكنت الريح، فطلبوا مرسى وقربوا المركب من الساحل، وكان إلى جنبي شاب حسن الوجه، فنزل إلى

---

(١) المُرَقَّعَةَ: من لباس الصوفية، سميت بذلك لما فيها من الرُّقع.
(٢) الرَّكوة: إناء صغير من جلد يُشرب به الماء (ج) ركاء وركوات.

الساحل ودخل بين أشجار على شط البحر ثم رجع إلى المركب، فلما غابت الشمس قال لي ولصاحبي: إني ميت الساعة ولي إليكما حاجة، قلنا ما هي؟ قال إذا أنا مت فكفناني بما في هذه الرزمة وخذا هذه الثياب التي عليّ ومخلاتي، فإذا دخلتما مدينة صور، فأول من يلقاكما ويقول لكما هاتا الأمانة فادفعاها إليه؛ فلما صلينا المغرب حركنا الرجل فإذا هو قد مات، فحملناه إلى الشط وأخذنا في غسله، وفتحنا الرزمة فإذا فيها ثوبان أخضران مكتوبان بالذهب، وثوب أبيض فيه صرة فيها شيء كأنه الكافور[1] رائحته رائحة المسك، فغسلناه وكفناه في ذلك الكفن وحنطناه بما في الصرة من الطيب وصلينا عليه ودفناه؛ فلما دخلنا مدينة صور استقبلنا غلام أمرد حسن الوجه عليه ثوب شرب، وعلى رأسه منديل ديبقي، فسلم علينا وقال: هاتا الأمانة، فقلنا له نعم وكرامة، ولكن ادخل معنا هذا المسجد نسألك عن مسألة، قال نعم، فدخل معنا المسجد فقلنا له: أخبرنا من الميت ومن أنت ومن أين له ذلك الكفن؟ فقال: أما الميت فكان من الأبدال من الأربعين وأنا بديله، وأما الكفن فإنه جاء به الخضر عليه السلام وعرفه أنه ميت، ثم لبث الثياب التي كانت معنا وديعة إليه ودفع إلينا الثياب التي كانت عليه وقال: بيعاها وتصدقا بثمنها إن لم تحتاجا إلى لبسها، فأخذناها ودفعنا السراويل إلى المنادي يبيعه، فلم نشعر إلا والمنادي قد جاءنا ومعه جماعة، فأخذونا إلى دار كبيرة وإذا فيها جماعة، وإذا بشيخ يبكي وصراخ النساء في الدار؛ فلما وصلنا إلى الشيخ سألنا عن السراويل والتكة فحدثناه الحديث، فخر ساجداً لله تعالى ثم رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي مثله، ثم صاح بأمه وقال لنا: حدثاها الحديث، فحدثناها، فقال لها احمدي الله تعالى الذي رزقك مثله؛ فلما كان بعد سنين بينما أنا واقف بعرفات إذا أنا بشاب حسن الوجه عليه ثوب خز[2]، فسلم عليّ وقال: تعرفني؟ فقلت لا، فقال أنا الشاب صاحب الأمانة الصوري ثم ودعني فقال: لولا أن أصحابي ينتظروني لأقمت معك، فمضى وتركني فإذا أنا بشيخ خلفي من أهل المغرب كنت أعرفه يحج كل سنة، فقال لي: من أين تعرف هذ الشاب فقلت هذا يقال إنه من الأربعين، فقال هو اليوم من العشرة، وبه يغاث البلاد والعباد انتهى، رضي الله تعالى عن جميع الصالحين، ونفعنا ببركاتهم والمسلمين آمين.

المقام الثاني الورع[3]

الورع في اللغة: الكف عن الشيء خوفاً. وفي الشرع كذلك مع الامتثال لأمر الله سبحانه، قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة: ١٧٢] وقال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»[4] فقال: ﴿يا أيها

---

(١) الكافور: شجر كبير من الفصيلة الغارية ينبت في الهند والصين. تتخذ منه مادة عطرية بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض تُستعمل في الطب، وهو أصناف كثيرة (ج) كوافير.

(٢) الخَزُّ: ما يُنسج من الصوف والحرير، أو من الحرير وحده (ج) خزوز.

(٣) انظر حديث القشيري عن الورع في رسالته ص ١٠٩ ـ ١١٥.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة، ٦٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٣٢٨)، وعبد الرزاق في =

الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك» رواه مسلم. وقال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن. وقال ﷺ: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينا وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»[1] الحديث رواه الترمذي أيضاً وقال حديث حسن صحيح. وقال ﷺ: «إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة على فراشي أو في بيتي فأرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها»[2] رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[3] الحديث رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.

= (المصنف ٨٨٣٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٧٦٠)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٨٤٧٢، ٨٤٧٤)، وصاحب (الأذكار النووية ١٣٦٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٤٥)، والقرطبي في (التفسير ١١/٦٩)،وابن حجر في (تلخيص الحبير ٢/ ٩٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١٦٨، ٥/ ١٠)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٣/ ١٢٨)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٤٤)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١/ ٢٦٤).

(١) أخرجه النسائي في (السنن ٧/ ٢٤٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥/ ٣٣٤)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٣٢٣، ٣٢٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٤٥٣)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٨/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في (الصحيح ٧٥١)، والبيهقي في (السنن الكبرىٰ ٥/ ٣٣٥، ٧/ ٢٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٨/ ١٨٧)، والبغوي في (شرح السنة ٦/ ١٠٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٥٠٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ١٦٥٠٩)، والبخاري في (الصحيح ٣/ ١٦٤) وصاحب (شرح معاني الآثار ٢/ ١٠).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٥١٨)، والنسائي في السنن (الأشربة ب ٤٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٠٠، ٣/ ١١٢، ١٥٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥/ ٣٣٥)، والحاكم في (المستدرك ٢/ ١٣، ٤/ ٩٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ٢٣٨، ١٠/ ١٥٢، ٢٩٥)، وفي (موارد الظمآن ٥١٢)، والألباني في (إرواء الغليل ١/ ٤٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ٢/ ٣٩٩، ٦/ ٢٣، ٧٧، ٨٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ٣/ ٧٥) والبغوي في (شرح السنة ٨/ ١٧)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٢٥)، وابن حجر في (تعليق التغليق ٧١٦، ٧١٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٧٧٣) والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ١٠٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١١٣، ٣/ ١٩١)، وابن حجر في (فتح الباري ٤/ ٢٩٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٥٨، ٣/ ١٨٨، ٥٨٩) والزيلعي في (نصب الراية ٢/ ٤٧١)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٩، ١٣٧، ٢/ ١٣)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ٣٥٢، ٨/ ٢٦٤)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢/ ٢٢٠، ٣٨٧، =

وعنه ﷺ أنه قال: «ملاك دينكم الورع» ذكره صاحب العوارف. وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه[1] قال «كنا ندع سبعين[2] باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام».

وروي عنه أنه تقيأ من طعام سأل عنه غلامه بعد أكله فقال مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم، فلما مررت بهم اليوم أعطوني هذا، فقال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه: كدت أن تهلكني، وأخذ يتقيؤه فعسر عليه إخراجه، فدعا بعس من ماء فشرب وتقيأ، فقيل له: أكل هذا من هذه اللقمة؟ فقال: نعم لو لم تخرج إلا بنفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل جسم نبت من سحت» حرام «فالنار أولى به»[3].

وقد تكلم الشيوخ في الورع فقال إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه: الورع ترك كل شبهة. وقال معروف الكرخي[4] رضي الله تعالى عنه: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم. وقال أبو سليمان الداراني[5] رضي الله تعالى عنه: الورع أول الزهد، كما أن القناعة طرف من الرضى.

وروي أنه وقع من عبد اللّه بن مروان رضي الله تعالى عنه فامس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرج، فقيل له في ذلك فقال: كان عليه اسم الله سبحانه وتعالى.

= ٧/ ٣٨٦)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٨٥)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٤٣٢، ٤/ ٢٠٣)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٤٥، ٢/ ٣٤٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١/ ٢٠٦) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٨٤)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٨٩)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ١٩٠٣)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(١) انظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص ١١٠

(٢) المراد بلفظ (السبعين) في القرآن الكريم هو مجرد المبالغة في العدد، ولهذا السبب ورد لفظ السبعين في القرآن الكريم ثلاث مرات: الأولى: ﴿في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ سورة الحاقة (٣٢)، والثانية: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ سورة الأعراف (١٥٥) والثالثة: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ سورة التوبة (٨٠). (الرسالة القشيرية ص ١١٠).

(٣) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٢٨٤).

(٤) هو معروف بن فيروز الكرخي (توفي ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م) أبو محفوظ، أحد أعلام الزهاد والمتصوفين كان من موالي الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد في كرخ بغداد ونشأ وتوفي ببغداد. اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به، ولابن الجوزي كتاب في «أخباره وآدابه». الأعلام ٧/ ٢٦٩، وطبقات الصوفية ٨٣ ـ ٩٠، ووفيات الأعيان ٢/ ١٠٤، وصفة الصفوة ٢/ ١٧٩، وتاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩، والرسالة القشيرية ص ٤٢٧، ٤٢٨.

(٥) هو عبد الرحمٰن بن أحمد بن عطية العنسي (توفي ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) المذحجي، أبو سليمان زاهد مشهور، من أهل داريّا. رحل إلى بغداد، ثم عاد إلى الشام وتوفي في بلده. كان من كبار المتصوفين له أخبار في الزهد. الأعلام ٣/ ٢٩٣، ٢٩٤، وطبقات الصوفية ٧٥ ـ ٨٢، ووفيات الأعيان ١/ ٢٧٦، وحلية ٩/ ٢٥٤ وتاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨، والرسالة القشيرية ص ٤١١ ـ ٤١٢.

وقيل حمل إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه مسك[1]، من الغنائم، فقبض على مشامه[2] وقال: إنما ينتفع من هذا بريحه، وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين.

وقيل لإبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه: ألا تشرب من ماء زمزم؟ فقال لو كان لي دلو لشربت.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقال أيضاً: الورع على وجهين: ورع في الظاهر، وهو أن لا يتحرك إلا لله. وورع في الباطن، وهو أن لا يدخل على قلبك سواه تعالى.

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: إذا أراد الكلام فعليه أن يفكر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر.

وقال بشر بن الحارث[3] رضي الله تعالى عنه: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

وقال السيد الجليل طاوس[4] رضي الله تعالى عنه وقد سئل عن شيء: أخاف إن تكلمت، وأخاف إن سكت، وأخاف أن أؤخذ بين الكلام والسكوت.

وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: الورع أن يتورع عما سوى الله تعالى.

قلت: وأقوالهم وحكاياتهم في الورع كثيرة، وهذا الذي قاله الشبلي ويحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنهما هو الدرجة العلياء في الورع؛ أعني الورع عما سوى الله تعالى. والدرجة الثانية الورع عن الحلال. والدرجة الثالثة الورع عن الشبهات. والدرجة الرابعة السفلى الورع عن الحرام الظاهر، ويا ليتنا نكون من أهل هذه الدرجة، ونستغفر الله العظيم الحليم الكريم الرحمٰن الرحيم من جميع أقوالنا وأفعالنا وحركاتنا، وسكناتنا وخطراتنا ونياتنا من جميع أحوالنا.

---

(١) المسك: نوع من الرائحة الطيبة المباركة المعروفة.

(٢) المشام: مضوع الشم منه.

(٣) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمٰن المروزي (١٥٠ ـ ٢٢٧ هـ/ ٧٦٧ ـ ٨٤١ م) أبو نصر المعروف بالحافي من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل «مرو» سكن بغداد وتوفي بها. (الأعلام ٢/ ٥٤، ووفيات الأعيان ١/ ٩٠، وتاريخ بغداد ٧/ ٦٧ ـ ٨٠، والرسالة القشيرية ص ٤٠٤).

(٤) هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء (٣٣ ـ ١٠٦ هـ/ ٦٥٣ ـ ٧٢٤ م) أبو عبد الرحمٰن من أكابر التابعين تفقهاً في الدين ورواية للحديث، وتقشفاً في العيش. وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك. أصله من الفرس، ومولده ومنشأه في اليمن. توفي حاجاً بالمزدلفة أو بمنى. الأعلام ٣/ ٢٢٤، وتهذيب التهذيب ٥/ ٨، وصفة الصفوة ٢/ ١٦٠، وحلية الأولياء ٤/ ٣، وابن خلكان ١/ ٢٣٣.

قلت: وقد روى الإمام مالك[1] رضي الله تعالى عنه في الموطأ أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بلبن فشرب منه فأعجبه، فسأل الذي أتاه به من أين هذا اللبن؟ فأخبره أنه ورد على ماء قد سماه، فإذا أنعم من الصدقة وهم يسقون، فحلبوا من ألبانها فجعلته في سقائي فهو هذا، فأدخل عمر رضي الله تعالى عنه يده فاستقاءه.

وروي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه رهن سطلاً[2] عند بقال بمكة، فلما أراد فكاكه أخرج البقال إليه سطلين وقال: خذ أيهما لك، فقال أشكل عليّ سطلي فهو لك والدراهم لك، فقال البقال: سطلك هذا وأنا أردت أن جربك، فقال لا آخذ ومضى وترك السطل عنه.

وكان المحاسبي رضي الله تعالى عليه إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس أصبعه عرق فيعلم أنه غيرحلال. وروي مثل ذلك عن جماعة منهم بشر الحافي وأبو تراب النخشبي وأبو العباس المرسي، ولهم حكايات يطول ذكرها.

قلت: ومن حكايات أهل الورع ما حكي عن بعض الصالحين أنه قال: رأيت شاباً وعليه عباءة وبيده ركوة، فقال لي إني إنسان أقصد الورع، فلا آكل إلا ما ألقاه الناس، فربما أجد قشرة شيء سبقني إليها النمل فألقيه وأتناول تلك القشرة، فهل عليّ في ذلك شيء؟ قال: فقلت في نفسي ما بقي على وجه الأرض من يتورع هذا الورع، فنظرت فإذا الرجل واقف على أرض من فضة بيضاء وقال لي: الغيبة حرام وغاب عن بصري. قيل معنى هذه الحكاية أنه لما ترك ما حجب الخلق عن الله سبحانه أكرمه عز وجل بنور الإشراق، أو قال بنور الإشراف بالفاء حتى نطق عما خطر بقلبه من الإنكار، ثم أخفاه الله تعالى عنه بشؤم الاعتراض، وهكذا سنة الله تعالى في أوليائه بسترهم عمن لا يبلغ رتبتهم ولا يصل إلى منزلتهم.

وحكي أن رجلاً كتب رقعة وهو في بيت بكراء، فأراد أن يترب الكتاب من جدار البيت، فخطر بباله أن البيت بالكراء ثم إنه خطر بباله لا خطر لهذا فترب الكتاب، فسمع هاتفاً يقول: سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه غداً من طول الحساب.

وحكي أن عبد اللّٰه بن المبارك رضي الله تعالى عنه رجع من خراسان إلى الشام لرد قلم استعاره من هناك. ورجع إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه من البيت المقدس البصرة لرد تمرة، ورجع أبو يزيد رضي الله تعالى عنه من بسطام[3] إلى همدان لرد نملة وجدها في قرطم[4] اشتراه من هناك، وقال غربتها عن وطنها.

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٢٥٧ ـ ٢٥٨، وفي تهذيب التهذيب ١٠/ ٥، وصفة الصفوة ٢/ ٩٩، وحلية ٦/ ٣١٦، وذيل المذيل ١٠٦.

(٢) السَّطْلُ: إناءٌ معدن كالمرجل، له علاقةٌ كنصف الدائرة، مركبة في عروتين (ج) أسطال وسطول (فارسية).

(٣) بسطام: بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين.

(٤) القرطم: العصفر وهو نبات زراعي صبغي، من فصيلة المركبات الأنبوبية الزهر (معجم البلدان ١/ ٤٢١).

وحكي أنه مر عيسى ابن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بمقبرة، فنادى رجلاً منهم فأحياه الله تعالى، فقال من أنت؟ فقال: كنت حمالاً فنقلت يوماً لإنسان حطباً فكسرت منه خلالاً تخللت به، فأنا مطالب به منذ مت.

ورؤي في المنام بعض المتعبدين بعد موته وكان قبل التعبد كيالاً، فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال خيراً غير أني محبوس عن الجنة؛ وقد أخرج علي من غبار القفيز أربعون قفيزاً، وقيل لآخر من العابدين الزاهدين: ما فعل الله بك؟ فقال خيراً إلا أني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها، نسأل الله الكريم المسامحة وإرضاء الخصوم، وأن يرحمنا برحمته ويعاملنا بلطفه ومغفرته وأحبابنا والمسلمين آمين.

وفي الورع قلت: سجعاً ونظماً، أما السجع فقلت: في دقيق الورع جليل العطا، والسلامة من الخطا، والفوز إذا انكشف الغطا. وأما النظم فقلت:

جليلُ العطايا في دقيق التورع ... فدقق تنلْ عالي المقام المرفعِ
وتسلم من المحظورِ في كل حالة ... وتغنم من الخيراتِ في كل موضعِ
وتحمد جميعَ السعي والفوز في غدٍ ... فسارع إليه اليوم مع كُل مسرعِ
ولا تك مثلي وانياً متخلفاً ... لجوهر عمر عز شر مضيعِ

المقام الثالث الزهد[1]

قال الله تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ [القصص: ٧٩] إلى قوله تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير﴾ [القصص: ٨٠] نسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم، وهذا نهاية المدح للزهد. وقال عز وجل: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ [الكهف: ٧] قيل معناه: أيهم أزهد في الدنيا. وقال تبارك وتعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١] وقال رسول الله ﷺ «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»[2] رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد

---

(١) انظر حديث القشيري عن الزهد برسالته ص ١١٥ ـ ١١٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤١٠٢)، والحاكم في (المستدرك ٤/٣١٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/٢٣٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٨٧)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٢٤٤٧) وابن حجر في (لسان الميزان ١/٨٢٩)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٦٦٣، ٩٤٤)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/٢٣٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/١٣٦)، والعجلوني في كشف الخفاء ١/١٢٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/١٥٦)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١٠/٥٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/٣١٣، ٤/٢١٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٣٠٩، ٩/٣٢٦، ٣٣٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٢/١١)، وابن عدي في (الكامل =

حسنة. وعنه ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا ومنطقاً فاقربوا منه فإنه يلقن الحكم»[١] وروى «يلقي الحكمة» رواه أبو القاسم القشيري بإسناده، ورواه البزار أيضاً إلا أنه قال «زهداً في الدنيا وقلة منطق» وقال ﷺ: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف»[٢] الحديث، رواه الترمذي وقال حديث صحيح. وقال ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا»[٣] رواه الترمذي وقال حديث حسن. وعنه ﷺ أنه قال: «ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان إنهما ليسمعان من على الأرض غير الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى؛ ولا آبت شمس إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً»[٤] رواه أبو بكر ابن أبي شيبة. وقال ﷺ: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز والماء»[٥] رواه الترمذي وقال حديث صحيح. وقال ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم»[٦] الحديث، رواه البخاري. وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٧] رواه مسلم. والأخبار في ذلك كثيرة، وكذا الآثار.

= في الضعفاء ٣/ ٩٠٢)، وابن عبد البر في (التمهيد ٩/ ٢١٠)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/ ٣٢٣) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٣٦)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/ ٢٤٥).

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤١٠١)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٤٥١)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٠٥٠٦) والبخاري في (التاريخ الكبير ٩/ ٩٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١٠/ ٤٠٥) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٦٧ و١٠٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٢٥)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٠٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة ٩٧)، والترمذي في (السنن ٢٣٤٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٦/ ١٩١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦١٦٤).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٢٨)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٢٤٧١)، والحميدي في (المسند ١٢٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٤١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٤٧) والألباني في (السلسة الصحيحة ١٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٧٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦١٥٢)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ٤).

(٤) أخرجه الحاكم في (المستدرك ٢/ ٤٤٥)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٣/ ١٢٢، ١٠/ ٢٥٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٣٧).

(٥) أخرجه التبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٨٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ١٦٤).

(٦) أخرجه ابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/ ١٧٩٦)، والبخاري في (الصحيح ٨/ ١١٥).

(٧) أخرجه مسلم في الصحيح (الزهد المقدمة ١)، والترمذي في (السنن ٢٣٢٤)، وابن ماجه في (السنن ٤١١٣)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ١٩٧)، والحاكم في (المستدرك ٣/ ٦٠٤، ٤/ ٣١٥)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٨، ٢٨٩)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٢٨٩)، والبغوي في (شرح السنة ١٤/ ٢٩٦، ٢٩٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤١٢، ٨/ ٨٠، ٣٩٣ ٩/ ١٤١، ١٠/ ٢٢٧)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٢٤٨٨)، والمنذري =

والزهد على قسمين: فرض، وفضل، فالفرض: الزهد في الحرام، والفضل: الزهد في الحلال. قال أهل اللغة: الزهد خلاف الرغبة، يقال زهد في الشيء وعن الشيء يزهد زهداً وزهادة، والزهيد القليل.

قلت: والدنيا جميعها في الحقيقة قليل، قال الله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ [النساء: ٧٧] وقال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي كافراً منها شربة»[١] وروي «شربة ماء» رواه الترمذي وقال حديث صحيح. وقال بعض العارفين لزاهد معجب بزهده: كم نصيبك الذي زهدت فيه من جناح بعوضة. وقال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[٢] رواه مسلم والترمذي أيضاً وقال حديث حسن صحيح.

وتكلم الشيوخ في الزهد، فقال السري رضي الله تعالى عنه: إن الله تعالى سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم.

وقال أبو يزيد رضي الله تعالى عنه: كنت ثلاثة أيام في الزهد، فلما كان اليوم الرابع خرجت منه: اليوم الأول زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث زهدت فيما سوى الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح. وقال أيضاً: الزاهد يسعطك الخل[٣] والخردل[٤]، والعارف يشمك المسك[٥]

= في (الترغيب والترهيب ٣/ ١٣٧) والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٢٣٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٥٨، ٥٢٤٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٠٨١، ٦٠٨٢، ٢٩٢٦١)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ٨٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٩٧، ٤/ ١٢٧)، وابن المبارك في (الزهد ٢١٢)، والشجري في (الأمالي ٢/ ١٦١، ١٦٣، ١٩٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٨/ ١٧٧، ١٨٥)، وفي (تاريخ أصفهان ١/ ٣٤٠)، وابن حجر في (المطالب العالية ٣١٧١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٦/ ٤٠١، ١٢/ ٤٣٢)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٤١٥، ٢/ ٤٠٩)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ٨٨٩، ٤/ ١٦٣٨)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٨٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٦٦)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ١٩١٧).

(١) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة ٦٨٦ و٩٤٣) والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٢١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦١٣٨).

(٣) الخل: جمع خلال وهو ما حمض من العصير أو الخمر.

(٤) الخردل: مفرده خردلة، وهو نبات عشبي من فصيلة الصليبيات، ينبت برياً في الحقول مع الزرع أو على حافة الطرق، حبّه صغيره جداً، يُستعمل في التوابل وهو ملين وهاضم.

(٥) المسك: نوع من الطيب من دم الظبي، والقطعة من المسك تُدعى مسكة، وهناك نباتات تسمى (مسك الروم، ومسك البر، ومسك الجن).

والعنبر[1]. وقال أيضاً: الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشطته، والزاهد فيها يسوِّد وجهها وينتف شعرها ويحرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله سبحانه لا يلتفت إليها.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: الزهد خلو اليد من الملك، والقلب من التتبع. وقيل الزهد عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

وقال أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: الزهد أن تترك الدنيا كما هي، لا تقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: الصوف علم من أعلام الزهد، فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي قلبه خمسة، أو قال رغبة بخمسة دراهم.

وسئل أبو بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه عن الزهد فقال: أن تزهد فيما سوى الله عز وجل. وقيل الطريق الذي لا خلاف فيه الزهد في الدنيا.

وقال فضيل بن عياض[2] رضي الله تعالى عنه: جعل الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد.

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: إذا أوصى إنسان بمال لأعقل الناس صرف إلى الزهاد في الدنيا.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوام. الثاني ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث ترك ما يشغل العبد عن الله سبحانه وهو زهد العارفين.

وقال سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه: أعمال البر كلها في صحائف الزاهدين.

قلت: هذا قول عارف صديق في نهاية التحقيق، وبيانه مختصراً: أن أهل الدنيا يخرج بعضهم بعض ماله في بعض أعمال البر، وهو يحب كثرة المال واتساعه، ويتعرض به للفتنة، ويشغله عن أنواع الطاعات، والزهاد خرجوا عن الكل لله تعالى بالفعل والنية بغضاً للدنيا وتفرغاً للطاعات السنية، وجمعوا بين العبادات القلبية والبدنية والمالية، واطلع الحق سبحانه على قلوبهم فلم يجد فيها حباً لغيره، فأكرمهم بقربه، ووهب لهم ما لا تفهم العقول من فضله وخيره، اللهم لا تحرمنا خيرك

---

(١) العنبر: نبات، يُعتبر نوعاً من الطيب ويسمى الزعفران.

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي (١٠٥ ـ ١٨٧ هـ = ٧٢٣ ـ ٨٠٣ م) أبو علي شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصلحاء. كان ثقة في الحديث. ولد في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها. ثم سكن مكة وتوفي بها. الأعلام ٥/١٥٣، وطبقات الصوفية ٦/١٤، وتذكرة الحفاظ ١/٢٢٥، وتهذيب ٨/٢٩٤، وصفة الصفوة ٢/١٣٤، وحلية ٨/٨٤، وابن خلكان ١/٤١٥، والجواهر المضية ١/٤٠٩، والرسالة القشيرية ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

لشرنا، وهب من فضلك العظيم لنا، واجعل بك شغلنا بجاه نبيك الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم إنك الملك المنان ذو الفضل العظيم.

قلت: والزهد يحتاج إلى بيان وتفصيل، وقد ذكر بعض العلماء فيه تفصيلاً فاختصرته، وحذفت شيئاً منه وغيرت بعض الألفاظ وزدت فيه زيادات كثيرة، وذلك التفصيل يتعلق بمهمات تدعو إليها الضرورة وهي خمسة: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاث البيت، والمنكح؛ وقد قدمت التعريف بحالي، وأنه لا قدم لي في جميع المقامات، وكذلك أعترف هنا وأعرف كل من وقف على كلامي في هذا المقام الذي هو الزهد، أني بمعزل عن جميع أبواب الزهد، ليس لي فيه نصيب أصلاً في جميع الأحوال، وأستغفر الله العظيم من أقوال بلا أفعال، وأسأله من فضله العظيم إنه هو الغفور المفضال.

المهم الأول: المطعم

والدرجة العليا فيه أن يقتصر على ما يدفع الجوع عند خوف ضرر منه من أدنى ما وجد، ولا يدخر ولا يتقيد بغداء ولا عشاء. والدرجة الثانية أن يتقيد بالغداء والعشاء، أو بالعشاء فقط ولكن لا يدخر. والدرجة الثالثة أن يدخر قوت يوم. والدرجة الرابعة أن يدخر قوت أسبوع. والدرجة الخامسة أن يدخر قوت شهر. والدرجة السادسة أن يدخر قوت أربعين يوماً. والدرجة السابعة أن يدخر قوت عام وهذه درجة ضعفاء الزهاد، ومن ابتلي بالأهل والأولاد، وليتنا نكون من أهلها، وليس وراء هذه الدرجة في الزهد شيء إلا أن لا يكون له كسب، ولا يرضى لنفسه الأخذ من الأيدي كداود الطائي(١) رضي الله تعالى عنه، فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة، فهذا لا يقدح في الزهد إلا عند من جعل التوكل شرطاً فيه.

وأما من حيث قدر الطعام فأعلى الدرجات فيه الاقتصار على لقيمات يقمن صلبه. والدرجة الثانية الاقتصار على نصف رطل في يوم وليلة. والدرجة الثالثة رطل فيهما والدرجة الرابعة مدّ، وما زاد على المد قيل لا يكون لصاحبه من الزهد في البطن نصيب.

وأما من حيث الجنس فأعلى الدرجات فيه ما يقوت من خبز النخالة ومن نبات الأرض ونحو ذلك. والدرجة الثانية خبر الشعير والذرة ونحوه. والدرجة الثالثة وهي أسفل درجات الزهد البر غير منخول، فإن نخل فقد قيل إنه يخرج عن حد الزهد ويدخل في حدّ التنعم.

وأما الأدم فأعلى الدرجات فيه الملح والبقل والخل ونحوه. والدرجة الثانية الزيت ويسير من

---

(١) هو داود بن نُصير الطائي (توفي ١٦٥ هـ/ ٧٨١ م) من أئمة المتصوفة. أصله من خراسان، ومولده بالكوفة، رحل إلى بغداد، وعاد إلى الكوفة فاعتزل الناس ولزم العبادة إلى أن مات فيها. الأعلام ٢/ ٣٣٥، ووفيات الأعيان ١/ ١٧٧، وفيه وفاته سنة ١٦٠ أو ١٦٥ هـ، والجواهر المضية ٢/ ٥٣٦، وحلية ٧/ ٣٣٥، وتاريخ بغداد ٨/ ٣٤٧.

الأدهان. والدرجة الثالثة وهي السفلى اللحم في الأسبوع مرة أو مرتين، فإذا زاد على ذلك فقد قيل إنه يخرج عن حد الزهد في البطن ويدخل في حد التنعم.

المهم الثاني: الملبس

والدرجة العليا فيه ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة من كساء أو ثوب واحد يتغطى به. والدرجة الثانية قميص وقلنسوة[١] ونعل. والدرجة الثالثة قيل يكون مع ذلك منديل وسراويل، وما زاد على هذا قيل يخرج عن حد الزهد.

وأما من حيث الجنس فأعلى الدرجات فيه المسوح الخشنة. والدرجة الثانية الصوف الخشن. والدرجة الثالثة القطن الغليظ.

قلت: وقد رأيت أن أذكر هاهنا شيئاً من كلام بعض المحققين تدعو إليه الحاجة. قال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: لبس المرقع والخشن يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها، وقد ورد «من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة»[٢]. وروى أن أمير المؤمنين علياً رضي الله تعالى عنه لبس قميصاً بثلاثة دراهم، ثم قطع كمه من رؤوس أصابعه. وروى غيره من العلماء أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان في قميصه وقيل في إزاره بضع عشرة رقعة، وأن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه كان يؤتى بالحلة قبل أن يلي الخلافة بألف درهم فيستخشنها، ويؤتى بالحلة وهو في الخلافة بأربعة دراهم أو ستة فيستحسنها بالحاء والسين المهملتين والأول بالخاء والشين المعجمتين.

قلت: وقد ذكرت في غير هذا الكتاب أنه سئل عن سبب ذلك، فقال: إن لي نفساً تواقة ذواقة كلما ذاقت شيئاً تاقت إلى ما فوقه، فلم تزل تتوق وتذوق إلى أن ذاقت الخلافة، فتاقت إلى ما فوقها فلم تجد شيئاً فوقها إلا ما عند الله سبحانه، فتاقت إلى ما عنده عز وجل، وليس تنال ما عنده إلا بترك الدنيا. هذا معنى كلامه وإن اختلف بعض ألفاظه رضي الله تعالى عنه.

قال شهاب الدين: وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلاً قال: ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والعباد والمتقشفين.

وروي أن رسول الله ﷺ لبس الصوف واحتذى المخصوف، ثم ذكر أن الأولى للفقير الأزرق؛ لأنه أرفق؛ قال: وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله بصير بصفات نفسه، متفقد خفي شهوات النفس، يلقى الله سبحانه بحسن النية في ذلك. ولحسن النية في ذلك وجوه متعددة يطول شرحها، ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته في مأكوله وملبوسه وسائر تصرفاته. قال: وللعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها لا يرون النزول إلى الرخص خوفاً من فوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الناعم.

---

(١) القلنسوة: جمع قلانس وقلانيس وقلاسي، وهي نوع من لباس الرأس، وهي على أشكال متعددة.
(٢) أخرجه أبو داود (أدب ٣).

قلت: هذا من كلامه جمعته من مواضع متفرقة.

المهم الثالث: المسكن

وأعلى الدرجات فيه أن يقنع بزوايا المساجد ونحوها، ولا يطلب مسكناً خاصاً لنفسه. والدرجة الثانية أن يطلب موضعاً خاصاً من سعف أو خوص أو ثمام[1] أو نحو ذلك. والدرجة الثالثة أن يكون بحجارة بشراء أو إجارة، ويكون على قدر حاجته من غير زيادة ولا زينة ولا مرتفع سقفه أكثر من ستة أذرع، وإلا فقد قيل إنه يخرج عن الزهد في المسكن، لأن الغرض منه دفع الحر والبرد والمطر والأعين والأيدي، وقدر الحاجة في ذلك معلوم، وما زاد فهو من فضول الدنيا.

المهم الرابع: أثاث البيت

وأعلى الدرجات فيه أن يقتصر على ما تدعو إليه الضرورة وتحصل به الكفاية من إناء مكسور من خذف ونحوه، أعني بالخذف المعروف عند الناس بالفخار. والدرجة الثانية أن يكون الأثاث بقدر الحاجة صحيحاً، ويستعمل الآلة الواحدة في أشياء كثيرة كقصعة[2] يأكل فيها ويشرب ويحفظ متاعه. والدرجة الثالثة وهي السفلى في ذلك، أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس الدون، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس أو كان مزيناً فقد قيل له يخرج بذلك من الزهد إلى الرغبة في فضول الدنيا.

المهم الخامس: المنكح

وهذا مما اختلف فيه، فقال قائلون: لا معنى للزهد في أصله ولا في كثرته. ونقل بعض العلماء أن سهل بن عبد اللّٰه رضي الله تعالى عنه ممن ذهب إلى ذلك وقال: قد حببن إلى سيد الزاهدين فكيف يزهد فيهن؟ يعني النساء. وكان سفيان بن عيينة[3] رضي الله تعالى عنه يقول: كثرة النساء ليس من الدنيا، لأن علياً رضي الله تعالى عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية: وروي وبضع وعشرون سرية وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول: خير هذه الأمة أكثرها نساء. وكان الجنيد رضي الله تعالى عنه يقول: إني أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج

---

(١) السعف: (ج) السَّعَفَة: ورقة النخل أو غُصْن النخل. الخُوص: ورق النخيل الواحدة خوصة. الثُّمامُ: عُشب من الفصيلة النجيلية، له أنواع برية تنبت في البادية وأخرى تزيينية ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص، وربما حشي به وسُدّ به خصاص البيوت، هيّن التناول.

(٢) القصعة: الصحفة الضخمة تتخذ للأكل (ج) قصاع وقصع وقصعات.

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي (١٠٧ ـ ١٩٨ هـ = ٧٢٥ ـ ٨١٤ م) أبو محمد، محدّث الحرم المكي من الموالي. ولد بالكوفة وسكن مكة وتوفي بها. كان حافظاً ثقة، واسع العلم كبير القدر. كان أعور، وحج سبعين حجة، له «الجامع» في الحديث، وكتاب في «التفسير» الأعلام ٣/ ١٠٥، وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٤٢، وصفة الصفوة ٢/ ١٣٠، وابن خلكان ١/ ٢١٠، وميزان الاعتدال ١/ ٣٩٧، وحلية ٧/ ٢٧٠، وتاريخ بغداد ٩/ ١٧٤.

إلى الطعام. وكان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله تعالى عزباً. وقال آخرون بالزهد فيه لما تعرض فيه من الآفات والشغل عن الله سبحانه. قال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: كل ما شغلك عن الله تعالى من أهل أو مال أو ولد فهو عليك شؤم. وقال أيضاً: ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشاً، أو تزوج امرأة، أو كتب الحديث. وقال أيضاً: ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته؛ وروي: على حاله. وقال أبو بكر الدقاق رضي الله تعالى عنه: آفة المريد ثلاثة أشياء: التزوج، وكتابة الحديث، والأسفار. وقال الجنيد رضي الله تعالى عنه، أحب للمريد أن لا يشغل قلبه بثلاثة وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث، والتزوج. وكان إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه يقول: من تعود أفخاذ النساء لا يفلح. وقيل لبشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه: إن الناس يتكلمون فيك، فقال ما يقولون؟ قيل يقولون إنك تارك للسنة، يعنون النكاح، فقال: قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة، وكان يقول: لو كلفت أن أعول دجاجة لخشيت أن أكون جلاداً على الجسر، يعني يكون من أعوان الولاة الظلمة.

قلت: وبلغني عن السيد الجليل الإمام الحفيل محيي الدين النواوي رضي الله تعالى عنه أنه عرض له بالنكاح، وقيل له هو سنة كبيرة ولم يبق عليك من السنة إلا هو وكلك محاسن، فقال رضي الله تعالى عنه: أخاف أن آتي بسنة فأدخل في محرمات كثيرة.

وقال الإمام الكبير العارف بالله تعالى الشهير أبو القاسم الصقليّ رضي الله تعالى عنه: امرأة في زمان الفتنة معها الدنيا كلها غالية بفلس، لأنها للدنيا خلقت فهي لا تنفك عنها، وإن أظهرت التنسك والتقوى فدينها مقرون بهواها، إن شبعت طغت، وإن جاعت تصلفت، وإن حزنت تسخطت، وإن رضيت أثمت.

وقال بعض الفقراء لما قيل له تزوج: أنا إلى تطليق نفسي أحوج مني إلى التزوج.

وسئل سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه عن النساء فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار.

قلت: قد تعارضت أقوال السلف والآثار عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بل تعارضت الأخبار عن رسول الله ﷺ في الترغيب في النكاح والترغيب عنه لقوله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»(١) الحديث. وقوله ﷺ: «تناكحوا

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/٧)، ومسلم في الصحيح (النكاح ١، ٢)، والنسائي في (السنن ٤/١٦٩، ١٧١، ٦/٥٨)، وابن ماجه في (السنن ١٨٤٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/٣٨٧، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/٢٩٦، ٧/٧٧)، والدارمي في (السنن الكبرى ٢/١٣٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/١٤٩)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٤/١٢٦)، والحميدي في (المسند ١١٥)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٠٣٨٠)، وابن حجر في (فتح الباري ٩/١٠٦، ١١٢، ١٢٠) والبغوي في (شرح السنة ٩/٣)، والمنذري في الترغيب =

تكاثروا»[1] الحديث، وقوله ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء»[2] وروي «وأنام وأمس النساء فمن يرغب عن سنتي فليس مني»[3] وقوله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[4] وقوله ﷺ: «خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ، قيل يا رسول الله وما خفيف الحاذ؟ قال الذي لا أهل له ولا ولد»[5] وعنه ﷺ أنه قال: «يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر ويكلفونه ما لا يطيق، فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك».

وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أنه قال: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر، وإن أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب، ولبسن ربط الشام وعصب اليمن، واتبعن الغناء، وكلفن الفقير ما لا يجد؛ وغير ذلك من الأخبار والآثار، وأقوال السلف الصالحين مما يطول ذكره.

قلت: والصواب أن الاختلاف في ذلك لأجل اختلاف أحوال الناس، ولا بد من تفصيل فصله علماء الباطن وعلماء الظاهر.

فأما علماء الظاهر فقالوا: إن احتاج إلى النكاح ووجد أهبته استحب له، وإن عدم الحاجة

= والترهيب ٣/ ٤٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٣٠٨٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٦/ ٣٦)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٥٤، ٤١٥)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٤٤٠٨، ٤٥٥٩٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٨٦، ٣٢٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٢٣)، والشجري في (الأمالي ٢/ ٣٤)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٤/ ٢٥٢)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٨٣٠)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٢٤٤)، والكحال في (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ٢/ ٢١).

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٧/ ٢)، والألباني في (إرواء الغليل ٦/ ١٩٣)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/ ٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (نكاح ١)، ومسلم (نكاح ٥)، والنسائي (نكاح ٤)، والدارمي (نكاح ٣) وأحمد بن حنبل ٢/ ١٥٨، ٣/ ٢٤١، ٢٥٩، ٢٨٥، ٥/ ٤٠٩.

(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٧/ ١١)، ومسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ب ٢٦ رقم ٩٧، ٩٨)، والترمذي في (السنن ٢٧٨٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ٢٠٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٩١) والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ١٣٣)، وعبد الرزاق في (المصنف ٢٠٦٠٨)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٩/ ١٣٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٣٠٨٥)، والقرطبي في (التفسير ٤/ ٢٩، ١٢/ ٣١١)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٣٩٥) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٩٨)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/ ٣٢٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٣/ ٣٥)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٠٠).

(٥) أخرجه ابن كثير في (البداية والنهاية ٦/ ٢٨٥).

والأهبة معاً، كره له، وإن وجد الحاجة وعدم الأهبة كسر نفسه بالصوم فإن لم تنكسر بالصوم استعان بالله تعالى وتزوج، وإن وجد الأهبة ولم يجد الحاجة، فإن كان مشغولاً بعلم أو عبادة كره له التزوج؛ وإن لم يكن مشغولاً بواحد منهما استحب له أن يتزوج ليكون آتيا بالسنة.

وأما علماء الباطن فقالوا: التجرد عن الأزواج والأولاد أعون على الوقت للفقير وأجمع لهمه وألذ لعيشه، ويصلح له في ابتداء أمره قطع العلائق ومحو العوائق والتنقل في الأسفار وركوب الأخطار والتجرد عن الأسباب والخروج عما هو من جملة الحجاب قالوا: والتزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص، ورجوع من التروح إلى النغص، وتقيد بالأزواج والأولاد ودوران حول مظان الاعوجاج، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة، وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة، ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله تعالى، وقيام الليل وصيام النهار، ويتسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار، ويدخل في المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل لأهل الدنيا، وأخذ الشيء من غير وجهه، واشتغال الذمة بالحقوق وتفرق الهم وغير ذلك، فلا يصلح له التزوج حتى تنصلح النفس، ويستحب إدخال الرفق عليها وذلك عندما تصير منقادة مطاوعة مجيبة لما يراد منها، مطمئنة زكية متصفة بالصفات المحمودة بعد الصفات المذمومة؛ فإذا صارت نفس الصوفي كذلك حين كمل تقواه وقهر هواه، تأهل لله كما تجرد لله بعد انشراح صدره وتفويضه إلى مولاه، أو بإشارة من الله، إلا إذا غلبت عليه نفسه، ولم تنقمع وتنكسر، واشتد توقانها والتهبت نيرانها، وتطرقت بسببها الآفات إلى المريد بكثرة فكره واشتغال قلبه، وتوالت خواطر النكاح وزاحمت باطنه، لا سيما في الصلاة والأذكار وتلاوة القرآن، فليستعن بالله أولاً، ثم بالمشايخ والإخوان، ويشرح لهم حاله ويسألهم الدعاء إلى الله سبحانه في حسن الاختيار، ويطوف على الأحياء والأموات والمساجد والمشاهد ويستعظم الأمر ولا يدخل فيه بقلة الاكتراث، فإنه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم، وقد قال الله تعالى: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم﴾ [التغابن: ١٤] ويكثر الضراعة إلى الله تعالى، والبكاء بين يديه في الخلوات، ويكرر الاستخارة ويبتهل إلى الله مجيب الدعوات وإن رزق القوة والصبر حتى يستبين من فضل الله سبحانه الخيرة في ذلك، فهو الكمال والتمام، فقد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منعاً أو إطلاقاً في يقظة أو منام.

وقد روينا أن الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه قال له بعض الصالحين: لم تزوجت؟ فقال: ما تزوجت حتى قال لي رسول الله ﷺ تزوج. وقال أيضاً: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله، ساق الله سبحانه إليّ أربع أزواج ما فيهن إلا من تنفق عليّ إرادة ورغبة، يعني اختياراً ومحبة.

قالوا: ومن صبر من الصوفية على العزوبة إلى أن بلغ الكتاب أجله تنتخب له الزوجة انتخاباً، ويهيىء الله تعالى له أعواناً وأسباباً، وينعم برفق يدخل عليه، وبرزق يساق إليه.

قلت: وأخبرني بعض الفقراء المجردين والمرتاضين المجتهدين قال تاقت نفسي إلى النكاح واشتد عليّ ذلك وتعبت، ثم ذكر كلاماً معناه أنه قصد في ذلك زيارة قبر بعض المشايخ الكبار من مسيرة عدة أيام، مؤملاً تفريج ضيقه وراجياً قضاء حاجته من الله تعالى على يديه، وهو لا يقدر على

شيء من مؤن النكاح، ولا يرضى أحد من الناس يزوجه لشدة فقره ورثاثة حاله؛ فلما صار بينه وبين قبر الشيخ مرحلة أو قال ثلاث مراحل، لقيه شخص لا يعرفه جاء من جهة قبر الشيخ؛ فسلم عليه وقال له: الشيخ يسلم عليك ويقول لك: حاجتك قد قضيت، إن شئت صل إليّ وإن شئت ارجع فلم يرجع بل استمر على قصد الزيارة، فمر في طريقه على جماعة جلوس في بلد، فعرض عليه كبيرهم بنتاً له يزوجه إياها، وما كان أحد منهم يعرفه ولا أعلم أحداً من الخلق بحاجته، وكان ذلك الذي عرض عليه الزواج صاحب دنيا وسعة والناس راغبون في زواج ابنته، فلما عرض عليه ذلك حصل عند الفقير وجد وخشوع وبكاء، فانتحب ساعة، فعند ذلك خرجت شهوة النساء من قلبه ولم يبق له فيهن رغبة، فمضى في سفره حتى أتى قبر الشيخ وبلغ مراده من زيارته والدعاء عند قبره ثم انصرف راجعاً في غاية الانشراح، وقد سكن بلطف الله تعالى ما كان به من داعية النكاح.

وحكي عن أبي عمران السدي رضي الله تعالى عنه قال: كنت بمصر في الجامع الفلاني، فخطر بقلبي التزوج وقوي عزمي عليه، فخرج من القبلة نور لم أر مثله، فإذا بيد فيها نعل من ياقوتة حمراء وشراكها[1] من زمرد[2] أخضر مرصع باللؤلؤ، وإذا بهاتف يقول هذه نعلها فكيف لو رأيتها؟ فذهب من قلبي شهوة النساء.

قلت: وهذا المهم الخامس الذي هو المنكح إذا لم يجد منه بداً فالزهد فيه كما قال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: الزهد في النساء أن تختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة.

قلت: ولكن قد لا تدفع الضرورة إلا بجميلة، فقد بلغني عن الولي الكبير الإمام الشهير إسماعيل بن محمد الحضرمي رضي الله تعالى عنه أنه قال: كل شيء قدرت على الزهد فيه إلا المرأة الحسناء والدابة النفيسة. وهذا الذي قاله في المرأة الحسناء هو الذي أجده من نفسي.

قلت: وإذا لم تندفع الضرورة بالدون ولم تسكن شدة التوقان وجولان الخاطر أصلاً إلا بجميلة، فالضرورة داعية إلى المسامحة له في ذلك، ولكن ينبغي إذا تزوجها أن يراعي أوقاته وقلبه، ويحترز من استيلاء الغفلة عليه بسبب الميل، وليكن كما قال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: دواء هذه الفتنة أن تكون للمتأهل عند المجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه، وعينان ظاهرتان يستعملهما في طريق هواه، وإلى معنى ذلك أشارت رابعة العدوية[3] رضي الله تعالى عنها حيث تقول:

---

(١) الشِّراكُ: سير النعل على ظهر القدم (ج) شرك، وأشرك.

(٢) الزُّمُرُّدُ: حجر بلوري كريم لونه يراوح بين الأخضر والأزرق. ضروبه عديدة. واحدته: زمردة. ويقال له: الزبرجد أيضاً (مج).

(٣) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية (توفيت ١٣٥ هـ/ ٧٥٢ م) أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها. لها أخبار في العبادة والنسك ولها شعر. توفيت بالقدس الأعلام ٣/ ١٠، ووفيات الأعيان ١/ ١٨٢، والدر المنثور ٢٠٢، والشريشي ٢/ ٢٣١

إنـي جعلتُـك فـي الفـؤاد مُحـدثـي وأبحـت جسمـي مـن أرادَ جلـوسـي
فـالجسـمُ منـي للجليـسِ مـؤانـس وحبيـبُ قلبـي فـي الفـؤاد أنيسـي

وعن بعض الصالحين المكاشفين قال: كنت أرى شيطاني في حال الرياضة ضعيفاً عرياناً شعثاً على أسوأ الأحوال، فإذا هممت به فر أمامي، فلما تزوجت سامحت نفسي في حق الزوجة بزعمي، فرأيته في بعض الأيام قد ظهر لي، فهممت به على العادة فلم يهرب مني ولم يلتفت إليَّ ورأيته مكتسياً، فقلت له: متى تغيرت حالتك هذه عما أعهد، فقال: مذ تزوجت أنت فتغيرت حالتك. انتهى كلامه.

قلت: ومن المسامحة المذكورة والميل إلى الرخص ما سمعت من بعض شيوخنا رضي الله تعالى عنهم قال: ما نمت جنباً ولا توسدت وسادة حتى تزوجت.

قلت: وليحذر أن يطيعها في كل ما تهوى من أمور الدنيا، فقد كان الحسن البصري[(١)] رضي الله تعالى عنه يقول: والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته في كل ما تهوى إلا أكبه الله تعالى على وجهه في النار. ولا يحملها أيضاً على الزهد بل كما قال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: لا ينبغي أن يرهق الرجل إلى الزهد أهله بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء.

قلت: وقد ذكر الشيخ شهاب الدين السهروردي أيضاً أن كل ما جاء من التعارض في النكاح إنما هو في حق من نار توقانه برد وسلام لكمال تقواه وقهره لهواه، فأما إذا خاف الفتنة فإنه يجب النكاح في حال التوقان المفرط. قال: والصوفي إذا كان متأهلاً يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار ومسامحته في الاستكثار إذا كان ضعيف الحال قاصراً على رتبة الرجال. قال: وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين في العلم أحوال في دخولهم في النكاح تختص بهم، وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والرياضات تطمئن نفوسهم وتقبل قلوبهم، لأن النفس لا تزال تخالف هواها حتى يصير داؤها دواها، وتصير الشهوات المباحة واللذات المشروعة لا تضرها ولا تغير عليها عزائمها، بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحاً وانفساحاً، ويصير بين القلب والنفس موافقة بعطف أحدهما على الآخر، ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ، كلما أخذ القلب حظه من الله سبحانه خلع على النفس الطمأنينة، فتكون مزيد السكينة للقلب مزيد الطمأنينة للنفس وينشد:

---

(١) هو الحسن بن يسار البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ = ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) أبو سعيد، تابعي كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة، وشبّ في كنف عليّ بن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان، وسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب. أخباره كثيرة، وله كلمات سائرة، وكتاب في «فضائل مكة» توفي بالبصرة. الأعلام ٢/٢٢٦، ٢٢٧، وميزان الاعتدال ١/٢٥٤، وحلية ٢/١٣١

إنَّ السمـاء إذا اكتسـتْ كسـت الثَّرى حلـلاً يـدبجهـا الغمـام الـراهـم[١]

وكلما أخذت النفس حظها تروح القلب تروح الجار المشفق براحة الجار. قلت: وللزهاد حكايات كثيرة، وها أنا أذكر منها ثلاث حكايات.

الحكاية الأولى

حكي عن يحيى بن زكريا على نبينا وعليهما الصلاة والسلام أنه شبع مرة من خبز شعير، فنام عن حزبه تلك الليلة، فأوحى الله تعالى: يا يحيى هل وجدت داراً خيراً لك من داري، أو جواراً خيراً لك من جواري؟ وعزتي وجلالي لو اطلعت في الفردوس اطلاعة لذاب جسمك ولزهقت نفسك اشتياقاً إلى الفردوس، ولو اطلعت في جهنم اطلاعة لبكيت الصديد[٢] بعد الدموع ولبست الحديد بعد المسوح[٣].

وفيمن شبع من الطعام حتى ثقل عليه حزبه ونام قلت:

وكـم مـن أكلـةٍ حَـرمَـتْ كثيـراً مـن الخيـراتِ فـي طـاعـاتِ مـولـى
ولـــذات بخلـــواتٍ تجلّـــى بهـا المـولـى وقـدْ نـاجـاهُ ليـلاً

الحكاية الثانية

قال بعض السلف، بينما عيسى ابن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام يسبح في بعض بلاد الشام، اشتد به المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه، فرفعت له خيمة من بعيد، فأتاها فإذا هو بامرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا في الكهف سبع، فوضع يده عليه ثم قال: إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى، فأجابه الجليل تعالى: مأواك عندي في مستقر من رحمتي، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا، ولآمرن منادياً ينادي: أين الزهاد في الدنيا يحضرون عرس عيسى ابن مريم ﷺ، وأنشد بعضهم:

يـا مـن يُعـانـقُ دنيـا لا بقـاء لهـا يُمسـي ويصبـحُ مغـروراً وغـراراً
هـلا تـركـتَ مـن الـدنيـا مُعـانقـة حتـى تعـانـق فـي الفـردوسِ أبكـارا

الحكاية الثالثة

حكي أنه تحارب ملكان من ملوك اليمن في قديم الزمان، فغلب أحدهما صاحبه وقتله وشرد

---

(١) دبج الشيء: نقشه وزينه. الرهمة: المطر الضعيف الدائم الصغير القطر.
(٢) الصديد: الدم المختلط بالقيح في الجرح.
(٣) المسوح: (ج) المِسْح: الكساء من شعر أو ثوب الراهب.

أصحابه، وهيئت له السرر وزينت له دار الملك وتلقاه الناس ليدخل، فبينما هو في بعض السكك يقصد دار الملك، وقف له رجل ينسب إلى الجنون فأنشد:

تسمع من الإيام إنْ كنت حازماً ... فإنَّك فيما بين ناه وآمرِ
وكم ملك قدركم التراب فوقه ... وعهدي به بالأمسِ فوقَ المنابرِ
إذا كنت في الدُّنيا بصيراً فإنما ... بلاغك منها مثل زاد المسافرِ
إذا أبقت الدنيا على المرءِ دينه ... فما فاتهُ منها فليسَ بضائِر

فقال له صدقت، فنزل عن فرسه وفارق أصحابه ورقي الجبل وأقسم على أصحابه أن لا يتبعه أحمد، فكان آخر العهد به رحمه الله تعالى، وبقيت اليمن شاغرة أياماً حتى اختير لها من عقدوا له الملك عليها، ولله در القائل في صفة الدنيا:

ألا إنَّما الدُّنيا كأحلامِ نائمِ ... وما خير عيش لا يكون بدائمِ
تأمل إذا ما نلت بالأمسِ لذة ... فأفنيتها هل أنت إلا كحالمِ

قلت: فهذا ما اقتصرت عليه من بيان الزهد في الدنيا.

وأما بيان أحكام الدنيا والآخرة وانقسامها إلى ثواب وحساب وعقاب، فقد قلت فيها هذه الأبيات الخمس:

لعمرك ما دُنياك إلاّ ثلاثة ... ثواب ومع طول الحسابِ عقاب
فمن يقتنيها من حلالٍ تنعما ... بطيبِ لذات فتلكَ حسابُ
ومنْ يقتنيها زينة وتفاخرا ... بها ومباهاة فتلك عِقابُ
ومنْ نالَ منها ما يكون تعففا ... وعوناً على الطاعات ذاك مثابُ
كذلك من في الخير أنفقها ولم ... عن الغرض يُلهه حفظها وطلابُ

قلت: ومن حقارة الدنيا أنها كما قيل: ألذ ما فيها أخس ما فيها، فسِّر ذلك بأشياء جمعتها في نظمي في هذه الأبيات السبعة:

ألذُّ العيشِ في الدُّنيا جميعاً ... أخس العيش فيها وهو غالي
فمن ملذوذها الغالي نكاح ... ومع هذا مبُال في مبالي
وشهد وهو قيء من ذباب ... شفا سُقم وأحلى كل حالي
ومسك خير طيب من دم في ... خراج ذاك يخرج في غزالي
وزاهي ملبس غالي حرير ... خرا دود تأمل ذا ببالي
فهذي أربع إن قلت لي هَلْ ... لها من خامس فاسمعْ مقالي
خلا من خمسة مركوب خيل ... ولكن فوقها قتل الرجالِ

المقام الرابع الصبر[1]

قال الله عز وجل: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ [النحل: ١٢٧] وقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقال الله تعالى: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦] وقال تبارك وتعالى: ﴿والله يحب الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦] وقال سبحانه: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠] وقال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال سبحانه: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب﴾ [ص: ٤٤] وقال سبحانه: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد: ٢٤] فهذه عشر آيات في الصبر اقتصرت عليها. وقد ذكر سبحانه الصبر في القرآن في نيف وتسعين موضعاً، وذلك لفضله وشرفه، ولأنه يحتاج إليه في جميع الأوامر والنواهي، والشدائد والمصائب، والسراء والضراء، وسائر أنواع القضاء خير أو شر، نفع أو ضر؛ فلهذا تقول الملائكة الكرام للصابرين في دار السلام: ﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾ [الرعد: ٢٤] ولا يقولون بما صليتم وصمتم وحججتم واعتمرتم وتصدقتم وجاهدتم وأمرتم ونهيتم وجعتم وعطشتم وعزمتم ومرضتم واجتنبتم المحرمات وفعلتم الطاعات وقابلتم المكروهات وقاسيتم البليات، لأن الصبر جامع هذه المذكورات وغيرها في سائر الحالات.

وقد جاء في الصبر أيضاً أحاديث صحيحات وشهيرات، من ذلك قوله ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[2] رواه البخاري. وقوله ﷺ: «ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتب له بها حسنة، ومحيت بها عنه خطيئة»[3] رواه مسلم. وقوله ﷺ: «وإن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا»[4] رواه الترمذي. وقوله ﷺ: «إن الله يقول: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة»[5] رواه البخاري؛ معنى حبيبتيه: عينيه. وقوله ﷺ: «يودّ أهل العافية أن لحومهم قرضت بالمقاريض لما يرون من ثواب الله عز وجل لأهل

---

(١) الصبر: هو حبس النفس على شيء مزعج تتحمله، أو شيء لذيذ تفارقه، وهو ممدوح ومطلوب. انظر حديث القشيري عن الصبر في الرسالة القشيرية ص ١٨٣ ـ ١٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ١٠٠)، وأبو داود في السنن (الجنائز ب ٢٧)، وابن ماجة في (السنن ١٥٩٦)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٧٢٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١٥٨)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ٣٩، ١٧٣، ١٧٥، ٢٧٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٢/ ٣٠٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٢٦٨)، والبخاري في (الأدب المفرد ٥٠٧).

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٠٧).

(٥) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ٣٧٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٦١، ٩/ ٢٨) والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٠٧).

البلاء»[1] رواه الدارقطني وقوله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[2] رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

قلت: وفي معنى قوله ﷺ: «فيبتلى الرجل على حسب دينه». قال بعض العارفين: إن الله سبحانه قسم المعرفة بين عباده، وحمل كلا من البلاء على قدر ما أعطاه من المعرفة لتكون معرفته عوناً له على حمل بلائه.

وقوله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[3] رواه الترمذي أيضاً، وقال حديث حسن صحيح. وقوله ﷺ لما مات لإحدى بناته ولدان: «لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب»[4] الحديث، رواه البخاري ومسلم وقوله ﷺ: «وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[5] الحديث، رواه البخاري ومسلم ومالك والترمذي، وقال حديث حسن صحيح، وقوله ﷺ: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»[6] رواه في كتاب الرياحين، وقال حديث صحيح، وهذه أيضاً عشرة أحاديث اقتصرت عليها في الصبر.

وهو ينقسم إلى فرض، وفضل فالفرض في القيام بالواجبات، وترك المحرمات. والفضل فيما عدا ذلك مما فعله أو تركه أو احتماله من جملة الطاعات المندوبات والآداب الحميدات. وأصل الصبر في اللغة الحبس والإمساك، يقال صبر فلان فلاناً إذا حبسه وكل من حبس لقتل أو يمين يقال قتل صبرا، واستحلف يمين صبر، وأصبره الحاكم على الشيء إذا ألزمه إياه وأمسكه وأكرهه عليه، قاله الهروي وغيره، وهو أيضاً كذلك في الشرع فإنه حبس النفس وإكراهها على العمل.

---

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الصغير ١/ ٨٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٦٤)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٠٩)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٥٥)، وابن الجوزي في (الموضوعات ٣/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٥٣، ٣٢٥٥، ٦٧٨٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ١١٦، ٨/ ١٢١، ٥٦٠، ٩/ ٥٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٩٩)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ٣١٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٢٨٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٧٧٧)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ٩١) والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٢٧٥، ٤٢٢).

(٤) اخرجه البخاري (جنائز ٣٢)، (قدر ٤) (أيمان ٩)، (مرضىٰ ٩)، (توحيد ٢، ٢٥) ومسلم (جنائز ١١، ١٣)، والنسائي (جنائز ٢٢)، وابن ماجه (جنائز ٥٣) وأحمد بن حنبل ٥، ٢٠٤.

(٥) أخرجه البخاري (رقاق ٢٠) (زكاة ٥٠)، ومسلم (زكاة ١٢٤)، وأبو داود (زكاة ٢٨) والترمذي (برّ ٧٧)، والنسائي (زكاة ٨٥)، والدارمي (زكاة ١٨)، والموطأ (صدقة ٧)، وأحمد بن حنبل ٣، ١٢، ٤٧، ٩٣.

(٦) أخرجه أحمد بن حنبل ١/ ٣٠٧.

قلت: هكذا قال بعض العلماء على العمل، والأولى أن يقال على فعل الأوامر وترك النواهي.

وللشيوخ في الصبر أقوال كثيرة معروفة شهيرة. من ذلك قول ذي النون رضي الله تعالى عنه: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقال سهل بن عبد اللّٰه رضي الله تعالى عنه: الصبر انتظار الفرج.

وقال أبو محمد الجريري رضي الله تعالى عنه: الصبر أن لا تفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما. والصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد، والصبر مع الله تعالى أشد. فسئل عن الصبر؟ فقال: تجرع المرارة من غير تعبيس؛ وقيل الصبر ترك الشكوى عند حلول البلوى؛ وقيل هو الغنى في البلوى بلا ظهور الشكوى.

وقال أبو عبد اللّٰه بن خفيف رضي الله تعالى عنه: الصبر على ثلاثة أقسام: متصبر، وصابر، وصبار.

وقال أبو عثمان رضي الله تعالى عنه: الصبار الذي عود نفسه الهجوم على المكاره.

وقال عمرو بن عثمان: الصبر هو الثبات مع الله تعالى، وتلقي بلائه بالرحب والدعة.

وقال ابن عطاء: الصبر والوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وهذه أيضاً عشرة أقوال في الصبر اقتصرت عليها.

قلت: ومن حكايات الصابرين ما حكي عن بعضهم قال: كنت بمكة حرسها الله تعالى، فرأيت فقيراً طاف بالبيت وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومر، فلما كان بالغد فعل مثل ذلك، فترقبته أياماً وهو يفعل مثله؛ فيوماً من الأيام طاف ونظر في الرقعة وتباعد قليلاً وسقط ميتاً، فأخرجت الرقعة من جيبه فإذا فيها ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨].

وحكي أن السري رضي الله تعالى عنه سئل عن الصبر، فجعل يتكلم فيه، فدبت على رجله عقرب وهي تضربه بإبرتها ضربات كثيرة وهو ساكن، فقيل له: لِمَ لم تنحها؟ فقال: استحييت من الله تعالى أن أتكلم في الصبر ولم أصبر.

وحكي عن الشيخ أبي عبد اللّٰه بن خفيف رضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بغداد قاصداً للحج وفي رأسي نخوة الصوفية ولم آكل أربعين يوماً ولم أدخل على الجنيد وخرجت ولم أشرب وكنت على طهارتي فرأيت ظبياً[1] في البرية على رأس بئر وهو يشرب وكنت عطشاناً، فلما دنوت من

---

(١) الظَّبْيُ: جنس حيوانات من ذوات الأظلاف والمجوفات القرون، من فصيلة البقريات، أشهرها الظبي=

البئر ولى الظبي وإذا الماء في أسفل البئر، فمشيت وقلت: يا سيدي مالي عندك محل هذا الظبي، فسمعت من خلفي يقال: جربناك فلم تصبر ارجع فخذ الماء، إن الظبي جاء بلا ركوة ولا حبل وأنت جئت مع الركوة والحبل، فرجعت فإذا البئر ملآن، فملأت ركوتي وكنت أشرب منها وأتطهر إلى المدينة ولم ينفد الماء، فلما رجعت من الحج دخلت الجامع، فلما وقع بصر الجنيد عليّ قال لو صبرت لنبع الماء من تحت قدمك لو صبرت صبر ساعة.

قلت: قوله وفي رأسي نخوة الصوفية: يعني حدة الإرادة وشدة المجاهدة واطراح ما سوى الله تعالى.

وحكي عن بعض المريدين أنه قال لشيخه: أشتهي أعرف صفة الطريق بمثال، فجعل الشيخ عسلاً في إناء وجعل فوقه صبراً وقال: اشرب هذا، فشرب الصبر وصبر على مرارته وأكره النفس على ذلك، ولم يزل يشربه مع مقاساة شدة المرارة وتململ النفس وتحميلها ما لا تطيق إلى أن نفذ الصبر وانتهى إلى العسل، فلما ذاقه أراد الشيخ أن يأخذ الإناء منه فقال له المريد: يا سيدي من شرب المر شرب الحلو، فقال له الشيخ: صدقت وتركه حتى شربه جميعه.

وحكي أن فقيراً مرض عند بعض المشايخ، فأمر الشيخ الفقراء بخدمته وتمريضه، فخدموه مدة من الدهر، ثم قالوا للشيخ: ما لنا قدرة على هذا، فخالف الشيخ نفسه وحلف أن لا يخدمه غيره، فصبر على خدمته إلى أن توفي، فرآه في المنام وهو يقول له: لأنصرنك بجاهي يوم القيامة كما خالفت نفسك فصبرت عليّ.

وحكي أنه حبس الشبلي وقتاً في المارستان[1]، فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ فقالوا: أحبابك جاؤوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة وأخذوا يهربون، فقال: يا كذابون لو كنتم أحبابي لصبرتم على بلائي.

وحكي عن بعضهم أنه راضٍ نفسه بالسهر وصبرها عليه حتى صار لها عادة، فأقام على ذلك ما شاء الله تعالى من الزمان، ثم غلبه النوم مرة فرأى الحق سبحانه في المنام، فكان يتكلف النوم بعد ذلك، فقيل له في ذلك؟ فقال:

رأيتُ سرور قلبي في منامي ... فأحببتُ التنعسَ والمَنَاما

وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

وإني لأستغشي وما بي غشية ... لعلَ خيالاً منك يلقي خياليا
وأخرجُ من بين الحضورِ لعلني ... أحدثُ عنك القلب في الليل خالياً

وحكي عن بعض الأولياء أنه كان في بعض الجبال الباردة، وكان يقاسي شدة من البرد في ليال

= العربي الذي يقال له: الغزال الأعفر (ج) ظِباء وأظب وظُبي.

(١) المارستان: (مع) المَصَحّة أو المستشفى (ج) مارستانات.

الشتاء، وليس عليه من اللباس ما يدفع عنه شدة البرد، فصبر على ذلك مدة حتى قبض الله سبحانه له بعض الأسود كان يأتيه إذا اشتد عليه البرد فيبرك عليه حتى يدفأ، فصبر في ذلك الجبل سنين حتى فتح الله تعالى عليه، فظهر له آيات عظيمات وأحوال سنيات.

وحكي عن بعض الفقراء المجردين أنه قام في موضع خارج بلد، وكان بعض أهل البلد يتعاهده بما يقتات به، ثم إنه وقع في تلك البلد قحط، فانقطع عنه ذلك الذي كان يأتيه بالقوت، فصبر مدة أيام ثم جاءه بعد ذلك بسفة[1] حب في كفه فأخذه منه ووقع منه حبة في الأرض، فنبتت وطلع منها سنبلة كبيرة، فتركها حتى يبس حبها، ثم قطعها وبذر ذلك الحب في الأرض في وقت الزرع، فحصل من ذلك خير كثير، ثم زرع أيضاً ما فضل عن قوته منه فاجتمع عنده من ذلك من الخير ببركة الصبر ما صار يزرع وينفق طول عمره على الوارد والصادر.

وحكي أن سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه كلمة أصحابه لما رأوا ما هو عليه من كثرة المجاهدة والجهد وقوة الصبر والعزم وشدة الخوف، فقالوا له: يا شيخ لو نقصت من هذه المجاهدة التي نراها بك نلت مرادك إن شاء الله تعالى؟ فقال لهم: كيف لا أجتهد وقد بلغني أن أهل الجنة يكونون في منازلهم فيتجلى لهم نور عظيم تضيء له الجنان الثمان من شدة ضيائه وحسن بهائه، فيظنون أن ذلك نور من قبل الرحمٰن سبحانه وتعالى فيخرون ساجدين، فينادي مناد، ارفعوا رؤوسكم ليس الذي تظنون إنما هو نور حورية[2] تبسمت في وجه زوجها فظهر من تبسمها هذا النور، فليس يا إخواني يلام من اجتهد في طلب الحور الحسان، فكيف بمن طلب المولى الرحمٰن، ثم أنشأ يقول:

ما ضر من كانت الفردوسُ منزله ... ماذا تحمل من بؤس وإقتار
تراهُ يسعى نحيلاً خائفاً وجلا ... إلى المساجدِ يمشي بين أطمار
يا نفس ما لك منْ صبرٍ على النار ... قد حانَ أنْ تقبلي من بعد إدبارِ

وأنشد ابن عطاء رضي الله تعالى عنه:

سأصبرُ كي ترضي وأتلف حسرة ... وحسبي أنْ ترضى ويتلفني صبري

وأنشد آخر:

الصبرُ يجملُ في المواطنِ كلها ... إلاّ عليك فإنُه لا يجملُ

وأنشد آخر:

صبرتُ ولم أطلع هواك على صبري ... وأخفيتُ ما بي منك عن موضع الصبرِ
مخافةَ أنْ يشكو ضميري صبابتي ... إلى مقلتي سراً فتجري ولا أدري

قلت: وهذه أيضاً عشر حكايات اقتصرت عليها في الصبر، وإنما ذكرت في الصبر عشر آيات

---

(١) السُّفَّة: القبضة من كل ما يُسف (ج) سفف.

(٢) الحورية: فتاة أسطورية تتراءى في البحار والأنهار، أو هي الحسناء.

وعشرة أحاديث وعشرة أقوال وعشرة حكايات، ولم ألتزم ذلك في سائر المقامات لأن الصبر يحتاج إليه في جميع الحالات كما قدمت في بدء الكلام في هذا المقام.

المقام الخامس الفقر[1]

قال الله عز وجل: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ [البقرة: ٢٧٣] الآية. وقال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[2] رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح. وقال ﷺ: «لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين، والفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيامة»[3] رواه مالك والقشيري. وروي «الصبراء عوض الصبر» وقال ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[4] في الرجلين اللذين قيل له: هذا من أشراف الناس، وهذا من فقراء المسلمين، رواه البخاري ومسلم.

وقد تكلم الشيوخ في الفقر فقال إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه: الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين، وقد تقدم هذا القول.

وقال عبد اللّه بن المبارك رضي الله تعالى عنه: إظهار الغنى في الفقر أحسن من الفقر.

وقال أبو حفص رضي الله تعالى عنه: أحسن ما يتوسل به العبد إلى مولاه دوام الفقر إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب قوت من وجه حلال.

وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: حقيقة الفقر أن لا يستغني بشيء دون الله تعالى.

وقال المنوحي رضي الله تعالى عنه: الفقر لا يغنيه النعم ولا تغيره المحن.

وقال أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه: نعت الفقير السكون عند العدم، والإيثار عند الوجود. وقال أيضاً: كانت المرقعات غطاء على الدر، فصارت اليوم مزابل على جيف.

وقال سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه: الفقير الصادق لا يسأل ولا يردّ ولا يحبس.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الفقر في الرسالة القشيرية ص ٢٧١ ـ ٢٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٥٣)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٥١٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٢٢، ٩/ ٢٨٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٢٤٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٣٦٣)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ٩١، ٨/ ٣٠٧).

(٣) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٨٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٢٨٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٥٨٧)، والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة ٢/ ١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٧/ ١٠، ٨/ ١١٩)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٢٢) وابن حجر في (فتح الباري ٩/ ١٣٢، ١١/ ٢٧٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٦) والقرطبي في (التفسير ١٦/ ١٣٤٧)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٥٧)، والعقيلي في (الضعفاء ٣/ ٦٩).

وسئل أبو عبد اللّه بن خفيف رضي الله تعالى عنه عن فقير يجوع ثلاثة أيام، وبعد ثلاث يخرج ويسأل، إيش يقال فيه؟ فقال مكدي: كلوا واسكتوا فلو دخل عليكم فقير من هذا الباب لفضحكم كلكم.

قال بشر الحافي رضي الله تعالى عنه: أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقير إلى القبر.

وقال أبو عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه: من فوائد الفقر وثمراته وجود ألم الجوع، والعرى والتلذذ بهما، والزيادة منهما، والمنافسة فيهما.

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: يا معشر الفقراء إنكم تعرفون بالله، وتكرمون لله، فانظروا كيف تكونون مع الله إذا خلوتم، وأنشد بعضهم:

كَفَى شرفاً أني مُضاف إليكمُ ... وأني بكُم أدعى وأرعى وأعرفُ

قلت: وقد أردفت هذا البيت بآخر فقلت:

إذا بملوكِ الأرضِ قومٌ تشرفوا ... فلي شرفُ منكم أجلّ وأشرفُ

وقيل: كان الفقراء في مجلس سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه كأنهم الأمراء.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: الفقر شعار الأولياء، وحلية الأصفياء، واختيار الحق سبحانه لخواصه من الأنبياء والأتقياء، والفقراء صفوة الله من عباده، ومواضع أسراره من خلقه بهم يصون الخلق وببركاتهم يبسط عليهم الرزق، وأنشد بعضهم:

قالوا غداً العيد ماذا أنتَ لابسهُ ... فقلتُ خلعة ساق حبه جرعا
فقرُ وصبرٌ هما ثوباي تحتهما ... قلب يرى إلفة الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أنْ تلقى الحبيب به ... يومَ التزاورِ في الثوبِ الذي خلعا
الدهرُ لي ما تم إنْ غبت يا أملي ... والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

وقيل: إن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها وقال: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا أفعل، ولله در القائل:

ولستُ بميالٍ إلى جانب الغنى ... إذا كانتِ العلياءُ في جانبِ الفقرِ

وقلت: ومن حكايات الفقراء ما حكي لنا ورويناه عن محمد بن علي الكتاني رحمه الله تعالى قال: كان عندنا بمكة فتى عليه أطمار رثة، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا، فوقعت محبته في قلبي، ففتح لي بمائتي درهم من وجه حلال، فحملتها إليه ووضعتها على طرف سجادته، وقلت إنه فتح لي ذلك من وجه حلال تصرفه في بعض أمورك، فنظر إلي شزراً(١) ثم قال اشتريت هذه الجلسة مع الله سبحانه على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضياع، والمستغلات تريد أن تخدعني عنها بهذه، وقام

---

(١) نظر شزراً: نظر بجانب عينه، مع إعراض أو غضب أو احتقار.

وبددها وقعدت ألتقطها، فما رأيت كعزه حين مر ولا كذلي حين كنت ألتقطها.

وحكي عن بعضهم أنه قال: كنا بعسقلان وشاب يغشانا يتحدث معنا، فإذا فرغنا قام إلى الصلاة يصلي، فودعني يوماً وقال أريد الإسكندرية، فخرجت معه وناولته درهيمات، فأبى أن يأخذ، فألححت عليه فألقى كفا من الرمل في ركوته، واستقى من ماء البحر عليه وقال كله، فنظرت فإذا هو سويق بسكر كثير، فقال: من كان حاله معه مثل هذا يحتاج إلى دراهمك؟ ثم أنشأ يقول:

بحقِّ الهوى يا أهل ودي تفهموا لسان وجود بالوجودِ غريبُ
حرامٌ على قلبٍ تعرَّض للهوى يكون لغير الحقِ فيه نصيبُ

وحكي عن بعض العلماء أنه أغلق على نفسه باب بيته يوم عيد، فدق عليه الباب جار له موسر، فأبى أن يفتح له، فتسور الجدار ودخل عليه البيت فوجد عنده قرصاً بارداً يابساً ليس له أدم، فدفع إليه خمسة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها، فقال له: لم تفعل هذا؟ فقال حتى أدخل الجنة قبلك بخمسمائة عام، فخرج ولم يقبل منه شيئاً.

وحكي عن بعضهم أنه قال: رأيت كأن القيامة قد قامت، ويقال أدخلوا مالك بن دينار ومحمد بن واسع[1] الجنة، فنظرت أيهما يتقدم، فتقدم محمد بن واسع، فسألت عن سبب تقدمه، فقيل لي إنه كان له قميص ولمالك قميصان، وأنشد بعضهم:

وما الفقرُ إلا أنْ يكون مجردا صبورا على الأهوالِ مجتنب الردى
سخياً تقياً ذا صلاحٍ وعفةٍ فإنْ صحَ ما قلنا فهذا هو الهُدى

قلت: وفي شرف الفقر وأهله قد قلت فيما تقدم، وسأقول فيما بعد إن شاء الله تعالى، وأقول الآن:

أرى الشرف العالي من الفقر يوضع وجيفة دنيا فوقه اليوم ترفعُ
هي الفخر عند الناس من كل أحمق يرى السعد فيها للمُباهاة يجمعُ
يُعظمها والأغنياء بحبلهم بهم يبصر الأعمى التعيس ويسمعُ
ولم يدر أنَّ الدينُ ثلثاه ذاهب إذا لغني بالتواضع يخضع
لأجل حقير من حقيرٍ لديه من حقير جناح للبعوضةِ يطمعُ
فلو كانت الدنيا جناح بعوضة كما صح عند الله تعدل أجمعُ
لما قط منها كافراً شربة سقي وملعونة ضع ما بها يترفعُ
فما الفقر إلا الفخر عند أولي النهي وصاحبه نهج النبيين يتبعُ

---

(١) هو محمد بن واسع بن جابر الأزدي (توفي ١٢٣ هـ/ ٧٤١ م) أبو بكر، فقيه ورع، من الزهاد، من أهل البصرة، عرض عليه قضاؤها فأبىٰ، وهو من ثقات أهل الحديث. الأعلام ٧/ ١٣٣، وتهذيب التهذيب ٩/ ٤٩٩، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ١٥٩ ـ ١٦١.

يجـودُ بـدنيـاه إذا أقبلـت بـدا — وليـس يـرى قـدراً لتلـك فيمنـعُ
وفـي العسر بـالـرزقِ المقـدّر قـانـع — بثـوبِ شعـار الأنبيـاء متقنـعُ
أفـرعـون أولـى قـدوة أم محمـد — عليـه صـلاة الله نعـم المشـرع
أرى الفخر بـالـدنيـا كـزهـرٍ وخضـرة — ستـذريـه ريـح بعـد يبـس وتقلـع
ولكـن فخـر الفقـر يـزداد حسنـة — ويرفع حينَ المال في الحشر يوضع
سيـدرونَ مـا بيـنَ المقـامين فـي العلى — مـن البـون أيّ نـوره يتشعشـع
وأيهمـا العـالـي وذاك بجنـة — وهـذا بـأهـوالٍ عظـام يـروّعُ
بخمـسِ مئيـن مـن سنيـن مُنعـم — بقـربٍ ولـذات بهـا يتمتـعُ
بهـا سـابـق ذاك المقـدم فـي العلـى — إلـى خيـر ملـك دائـم ليـس ينـزعُ
إلهـي بجـاهِ المُصطفـى لا حـرمتنـا — مـواهـب تُعطـي مـن تشـاء وتمنـعُ
وصحـح لنـا الفقـر الـذي ضمنـه غنـا — قلـوب عليهـا خلعـة الفتـح تخلـعُ
ونسقى كؤوس الحب في قدسٍ حضرة — ومنهـا شمـوس للمعـارفِ تطلـعُ
فتضحـى وفيهـا مشـرق النـور مشـرق — ومكنـون أسـرار مـن العلـم مـودع

المقام السادس الشكر[(١)]

قال الله عز وجل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تبارك وتعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال سبحانه: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٥ وقال تعالى: ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾ [الإسراء: ٣] وقال عز من قائل: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣] وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[(٢)] رواه مسلم. وقال ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة الحامدون الله على كل حال»[(٣)] وعنه ﷺ أنه قال: «من ابتلي فصبر، وأُعطي فشكر، وظُلم فغفر، وظلم فاستغفر، قيل فما له قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»[(٤)] ذكره في العوارف.

وتكلم الشيوخ في الشكر، فقال بعضهم: هو اعتراف اللسان بالنعمة، واتصاف البدن بالخدمة، واعتكاف القلب على بساط الشهود بإرادة حفظ الحرمة.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الشكر في الرسالة القشيرية ص ١٧٣ ـ ١٧٨

(٢) أخرجه مسلم (ذكر ٨٩) والترمذي (أطعمة ١٨)، وأحمد بن حنبل ٣، ١٠٠، ١١٧.

(٣) أخرجه الحاكم في (المستدرك ١/ ٥٠٢)، والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ١٠٣)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٩٥)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٧٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٢٨١) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٤١٠)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٦٣٢)

(٤) أخرجه أبو داود (فتن ٢) والطبراني في (المعجم الكبير ٧/ ١٦٣).

وقال بعضهم: الشكر هو الغيبة عن الشكر برؤية المنعم.

وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: الشكر رؤية المنعم، لا رؤية النعمة.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: الشكر أن لا يستعان بشيء من نعم الله سبحانه على معاصيه.

وقال أبو القاسم الصقلي رضي الله تعالى عنه: حقيقة الشكر أن لا ينفق النعمة في معصية، ولا يدخرها عن طاعة، وحده معرفة النعمة من المنعم. قال: وفرض الشكر في النعماء الحمد والثناء، وفرض الصبر في البلاء ترك الشكوى، وحقيقته ذهاب التبرم، ولا يصبر على مرارة الصبر إلا صادق، ولا يصبر على حلاوة الشكر إلا صديق.

قلت: ولهذا قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. وقال أيضاً: من لم يفهم دخول نعم الله سبحانه عليه في نزول بلواه لم يعرف هجوم نقمه في ترادف نعمه. وقال أيضاً، إنما جعلتم رهائن بلائه لتكونوا غداً أصفياء لنعمائه.

وقال أبو عثمان رضي الله تعالى عنه: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني. وقيل: حقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. وقيل حقيقته أن يرى جميع المقضى له به نعماً غير ما يضره في دينه. وقيل: حقيقته الاعتراف بالنعم للمنعم على وجه الثناء عليه بها.

قلت: والشكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح اعترافاً وثناءً وعملاً.

قلت: ومن حكايات أهل الشكر، ما حكي أنه قدم وفد على عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، وكان فيهم شاب وأخذ يخطب، فقال عمر: الكبر الكبر، فقال الشاب: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك، فقال تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلنا إليها فضلك، وأما الرهبة فقد أمننا منها عدلك، فقال عمر فمن أنتم؟ فقال: وفد الشكر، جئناك نشكرك وننصرف.

وحكي أنه قيل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه: يا أبا سعيد هاهنا رجل لم ير قط إلا جالساً وحده خلف سارية، فمضى إليه الحسن وقال: يا عبد الله أراك قد حببت إليك العزلة، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ فقال: أمر شغلني عن الناس، قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه؟ فقال: أمر شغلني عن الناس وعن الحسن، فقال له الحسن: ما ذاك الشغل يرحمك الله؟ قال: لأني أصبح بين نعمة وذنب، فرأيت أن أشغل نفسي بالشكر على النعمة والاستغفار من الذنب، فقال له الحسن: أنت يا عبد اللّه أفقه من الحسن، فألزم ما أنت عليه.

وحكي أنه لما بشر إدريس على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بالمغفرة سأل الحياة، فقيل له في ذلك، فقال: لأشكره سبحانه فإنني كنت أعمل قبله للمغفرة، فبسط الملك جناحه وحمله إلى السماء. وأنشد بعضهم في الشكر:

على العبدِ حق فهوَ لا بد فاعله وإن كبر المولى وجلت فضائلهُ
ألم ترنا نهدي إلى الله ماله وإنْ كانَ عنهُ ذا غنى وهو قابلهُ

وأنشد آخر:

أوليتني نعماً أبوح بشكرها وكفيتني كلِ الأمورِ بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وإنْ أمتْ فلتشكرنك أعظمي في قبرها

المقام السابع الخوف(١)

قال الله عز وجل: ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ [السجدة: ١٦] وقال تعالى: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال سبحانه ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ٧٥] وقال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن وقال ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(٣) رواه مسلم. وقال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»(٤) رواه البخاري ومسلم: وقال ﷺ: «إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها يا ويلها أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمع لصعق»(٥) رواه البخاري وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(٦) الحديث رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «لا يلج النار رجل بكي من خشية الله عز وجل حتى يعود اللبن

---

(١) انظر حديث القشيري عن الخوف بالرسالة القشيرية ص ١٢٤ ـ ١٣١.
(٢) أخرجه الترمذي (قيامة ١٨).
(٣) أخرجه الحاكم في (المستدرك ٤/ ٥٩٥)، وابن الجوزي في (تلبيس إبليس ٣٤٣).
(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٩/ ١٦٢، ١٨١)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٥٦)، والبغوي في (شرح السنة ٦/ ١٣٧).
(٥) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ١٠٨، ١٢٤) وأحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ٥٨)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/ ٢١)، والبغوي في شرح السنة ٥/ ٣٢٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٦٤٧) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٢٣٧٤)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٨٥).
(٦) أخرجه البخاري (كسوف ٢) (تفسير سورة ٥، ١٢)، (نكاح ١٠٧)، (رقاق ٢٧)، (أيمان ٣) ومسلم (صلاة ١١٢)، (كسوف ١)، (فضائل ١٣٤)، والنسائي (سهو ١٠٢)، (كسوف ١١، ٢٣)، والترمذي (زهد ٩)، وابن ماجه (زهد ١٩)، والدارمي (رقاق ٢٦)، والموطأ (كسوف، ١) وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٥٧، ٣١٣، ٤١٨، ٤٣٢، ٤٥٣، ٤٦٧، ٤٧٧، ٥٠٢، ٣/ ١٠٢، ١٢٦، ١٥٤، ١٨٠، ١٩٣، ٢١٠، ٢١٧، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٦٨، ٢٩٠، ٥/ ١٧٣، ٦/ ٨١، ١٦٤

في الضرع، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله تعالى ودخان جهنم»[1]، رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح: وروى القشيري بإسناده عنه ﷺ أنه قال: «رأس الحكمة مخافة الله تعالى»[2] وذكره صاحب العوارف.

وتكلم الشيوخ في الخوف فقال بعضهم: الخوف روعة من مكروه يناله، أو محبوب يفوته.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة؛ فالخوف من شرط الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ٧٥] والخشية من شرط العلم، قال الله عز وجل: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] والهيبة من شرط المعرفة، قال الله عز وجل: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال بعضهم: الخائف الذي لا يخاف غير الله.

وقال أبو الحسين النووي رضي الله تعالى عنه: الخائف الذي يهرب من ربه إلى ربه.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: الخوف توقع العقوبة مع مجاري الأنفاس. وأنشد بعضهم:

أمـــا والله لـــو علـــمَ الأنـــامُ ... لمـــا خلقـــوا لمـــا غفلـــوا نـــامـــوا
لقـــد خلقـــوا لمـــا لـــو أبصـــرتـــهُ ... عيـــون قلـــوبهـــم ســـاحـــوا وهـــامـــوا
ممـــات ثـــمَ قبـــر ثـــمَ حشـــر ... وتـــوبيـــخ وأهـــوال عظـــامُ
ليـــومِ الحشـــرِ قـــدْ عملـــت رجـــال ... فصلـــوا مـــن مخـــافتـــهِ وصـــامـــوا
ونحـــن إذا أمـــرنـــا أو نهينـــا ... كـــأهـــل الكهـــف أيقـــاظ نيـــام[3]

وقال إبراهيم بن شيبان رضي الله تعالى عنه: إذا سكن الخوف في القلب أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه: وقيل: الخائف لا يخاف لنفسه، إنما يخاف إجلالاً لله تعالى. وقيل: الخوف حركة القلب من جلال الرب. وقيل: الخوف خوف الطرد عن بابه والإبعاد عن جنابه.

قلت: ومن حكايات أهل الخوف، ما حكي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه

---

(١) أخرجه النسائي في (السنن ١٦٣٣، ٢٣١١، ٦/١٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/٢٤٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/٢٧١، ٤/٢٢٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٨٨٦) وابن حجر في (فتح الباري ١١/٣١٢).

(٢) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/٢٢٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٤٤٨، ٩/٢١١)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/١٥٨)، والشهاب في (المسند ٥٥، ١١٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٨٧٣)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٣٥٢، ٥٠٧).

(٣) أصحاب الكهف: جماعة هربوا بدينهم إليه هرباً من ظلم السلطان وناموا فيه، وقد نزل القرآن الكريم بقصتهم.

قال: سألت ربي عز وجل أن يفتح عليّ باباً من الخوف ففتح، فخفت على عقلي فقلت: يا رب على قدر ما أطيق، فسكن ذلك.

قلت: وبلغني عن بعض شيوخ اليمن رضي الله تعالى عنهم، أنه كان يخرج من عدن إلى بعض الجبال ويغلب عليه الخوف حتى يخشى على عقله، فإذا وجد ذلك دخل سوق عدن وسمع البيع والشراء ورأى الناس وما هم فيه من اختلاف الأحوال فيسكن بعض خوفه، ثم يرجع إلى الجبل فإذا غلب عليه الخوف رجع إلى السوق، ولم يزل كذلك إلى أن تمكن وقوي، فأذن له بالاجتماع والصحبة، فصحبه الناس وانتفعوا به.

قلت: وهذا مما يدل على أن مباشرة شيء من أحوال الدنيا يسلي ويذهب عنهم بعض الأحوال الواردة عليهم، ومن ذلك ما حكي عن بعضهم أنه كان إذا اشتد عليه الحال ركب الفرس أو أتى امرأته فيسكن ما به.

وحكي أنه مرض سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه، فعرض علته على الطبيب، فقال: هذا رجل قطع الخوف كبده، ثم جاء وجس عرقه ثم قال: ما علمت أن في الحنيفية مثله. وكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إذا تنفس تشم منه رائحة الكبد المشوية.

وحكي عن بعضهم قال: رأيت في تيه بني إسرائيل رجلاً قد أنحلته العبادة حتى صار كالشن[١] البالي، فقلت: ما الذي بلغ بك إلى هذه الحالة؟ فنظر إليّ متعجباً من سؤالي وقال: يا هذا ثقل الأوزار، وخوف النار، والحياء من الملك الجبار، وأنشأ يقول:

لمـا ذكـرتُ عـذاب النـار أزعجنـي ... ذاك التـذكُـر عـن أهلـي وأوطـانـي
وصرتُ في القفر أرعى الوحش منفرداً ... كمـا تـرانـي علـى وجـدي وأحـزانـي
وذا قليـل لمثلـي بعـد جـرأتـه ... فمـا عصـى الله عبـد مثـل عصيـانـي
نـادوا علـيّ وقـولـوا فـي مجـالسكـم ... هـذا المسـيء وهـذا المُجـرم الجـانـي

وحكي عن بعض السلف أنه قال: رأيت شاباً في سفح جبل عليه آثار القلق ودموعه تجري، فقلت له: من أنت؟ قال آبق[٢] من مولاه، قلت فتعود وتعتذر، قال المعتذر يحتاج إلى إقامة حجة فيكف يعتذر المقصر؟ قلت تتعلق بمن يشفع لك، فقال كل الشفعاء يخافون منه، قلت من هو؟ قال مولاي رباني صغيراً فعصيته كبيراً، فواحيائي من حسن صنعه وقبح فعلي، ثم صاح وخر ميتاً، وخرجت عجوز فقالت: من أعان على قتل البائس الحيران؟ فقلت: أقيم عندك أعينك على تجهيزه، قالت: خله ذليلاً بين يدي قاتله فعسى يراه بغير معين فيرحمه. وأنشدوا:

علـى قـدر علـمِ المـرءِ يعظـمُ خـوفـه ... فـلا عـالـم إلاّ مـن الله خـائـفُ
فـآمـن مكـر الله بـالله جـاهـل ... وخـائـف مكـر الله بـالله عـارفُ

---

(١) الشَّنُّ: القِربة الخَلَق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها (ج) شنان.
(٢) الآبق: الهارب.

وأنشدوا أيضاً:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وأنشد بعضهم:

يا راقدَ الليل مسروراً بأوله ... إنَّ الحوادثِ قد يطرقن أسحارا
إنْ كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أنْ لا تأمن النارا

المقام الثامن الرجاء[(١)]

قال الله عز وجل: ﴿**لا تقنطوا من رحمة الله**﴾ [الزمر: ٥٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقال تعالى: ﴿**من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت**﴾ [العنكبوت: ٥] وقال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي»[(٢)] وفي رواية: «غلبت غضبي» وفي رواية «سبقت غضبي» رواه البخاري ومسلم. وقال رسول الله ﷺ حاكياً عن قول الله عز وجل: «وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»[(٣)] رواه البخاري في حديث الشفاعة. وقال ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»[(٤)] رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. وقال ﷺ: «يقول الله تعالى أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة شعير من إيمان، ثم يقول أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ثم يقول وعزتي وجلالي لا أجعل من آمن بي ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن»[(٥)] رواه القشيري وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»[(٦)] رواه مسلم. وقال ﷺ: «قال الله تعالى يا ابن آدم

---

(١) انظر حديث القشيري عن الرجاء في الرسالة القشيرية ص ١٣١ ـ ١٣٨

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٦)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/ ١٢١)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ٨٧).

(٣) أخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات ١٣٠).

(٤) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٥٩٨)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٤١، ٢٤٥، ٢٥٠، ٧/ ٢٥٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١٣/ ١٢٣)، والشجري في (الأمالي ١/ ٢٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١١٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ١٦٣).

(٥) رواه القشيري في الرسالة القشيرية ص ١٣٢، أخرجه البخاري قريباً من هذا الحديث في (الإيمان ١/ ٦٨ باب تفاضل أهل الإيمان)، وكذلك مسلم في الإيمان رقم ١٨٤ باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، وأخرج أبو داود قريباً منه في الأدب رقم ٤٠٩١، ما جاء في الكبر عن عبد اللّه بن مسعود.

(٦) أخرجه مسلم في الصحيح (التوبة ١١)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٠٩)، وعبد الرزاق في =

إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك، ولا أبالي»[1] الحديث رواه الترمذي. وقال حديث حسن. وقال ﷺ: «لله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها»[2] الحديث، رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرب بالله شيئاً دخل النار»[3] رواه مسلم.

وأما حقيقة الرجاء فقال بعضهم: تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل، كما أن الخوف تألم القلب بسبب توقع مكروه أو فوات محبوب في المستقبل، والفرق بين الرجاء والتمني: أن التمني يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد، وبعكسه صاحب الرجاء، فالرجاء محمود والتمني معلول.

وتكلم الشيوخ في الرجاء فقال شاه الكرماني رضي الله تعالى عنه: الرجاء حسن الطاعة. وقيل: رؤية الجلال بعين الجمال. وقيل: قرب القلب من ملاطفة الرب وقيل: سرور الفؤاد بحسن الميعاد.

وقال أبو عبد اللّه بن خفيف رضي الله تعالى عنه: الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو.

وقال أبو علي الروذباري[4] رضي الله تعالى عنه: الخوف والرجاء هما كجناحي الطائر، إذا

= (المصنف ٢٠٢٧١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٠٢٢٦) والبغوي في (شرح السنة ٥/ ٧٧) والبيهقي في (الأسماء والصفات ٥٥) وصاحب (الأذكار النووية ٣٥٩)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٩٥٠).

(١) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢١٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٣٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٤٢٧، ٨٩٠٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ١٧٧)، وصاحب (الإتحافات السنية ٤٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٢١٧)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٩٥١، ١٢٧).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ١٨٣، ١٠/ ٥٦٠)، والبخاري في (الصحيح ٨/ ٩) ومسلم في (الصحيح التوبة ب ٤ رقم ٢٢)، (بغوي ٢/ ١٢١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٧٠، ٢٣٧٧) وابن حجر في (فتح الباري ١٠٩/ ٤٢٧)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٢٧٨، ٦/ ٤٢٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٥٢٩).

(٣) أخرجه مسلم (إيمان ١٥٠ ـ ١٥٣)، (زكاة ٣٢، ٣٣)، والبخاري (علم ٤٩)، (جنائز ١)، (توحيد ٣٣) (رقاق ١٣، ١٤)، (استقراض ٣)، (بدء الخلق ٦)، (استئذان ٣٠) ، والترمذي (إيمان ١٨) والنسائي (صلاة، ١)، (جهاد ١٨)، وابن ماجه (ديات، ١) (أدب ٥٨)، (زهد ٣٧)، وأحمد بن حنبل ١/ ٣٧٤، ٣٨٢، ٤٢٥، ٤٤٢، ٢/ ١٧٠، ٣٦٢، ٤٢٦، ٣/ ٧٩، ١٥٧، ٢٤٤، ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٧٤، ٣٩١، ٣٩٢، ٤/ ١٤٨، ١٥٢، ٢٦٠، ٣٢٢، ٣٤٥، ٣٤٦، ٤٠٤، ٤١٦، ٥/ ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٦٠، ٢٨٥، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٣، ٦/ ٢٤، ٢٩، ٤٤٧، ٤٥٠).

(٤) هو أحمد بن محمد الروذباري، أبو علي (توفي ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م) بغدادي أقام بمصر ومات فيها، =

اسنويا استوى الطائر وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

قلت: ومن حكايات أهل الرجاء ما روي واشتهر من أبي عبد اللّٰه الحسين بن عبد اللّٰه بن سعيد رحمه الله تعالى قال: كان يحيى بن أكثم[(١)] القاضي صديقاً لي فمات، فكنت أشتهي أن أراه في المنام فأقول له ما فعل الله بك، قال فرأيته يوماً في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي، إلا أنه وبخني فقال: يا يحيى خلطت علي في دار الدنيا، فقلت أي رب اتكلت على حديث حدثني أبو معاية المصري عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنك قلت إني لأستحيي أن أعذب ذا شيبة في النار»[(٢)] فقال: قد عفوت عنك يا يحيى صدق نبيي ألا إنك خلطت عليّ في دار الدنيا.

قلت: ونحو هذا ما حكي لي عن بعض من أعرفه، أنه رأى بعض الفقهاء ممن أعرفه أيضاً بعد موته، وكان من الوكلاء على باب القاضي، وكنت أراه كثيراً ما يقرأ القرآن في المصحف ويمسح به وجهه، ثم حج في آخر عمره ومات بمكة، قال الراوي: فقلت له ما فعل الله بك؟ فقال: قال لي يا شيبة السوء جئتني بالذنوب الموبقات[(٣)]، فقلت يا رب ما هكذا بلغني عنك، قال فما الذي بلغك عني؟ قلت الكرم، قال اذهب فقد غفرت لك.

وحكي عن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه قال: كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف لي، حتى إذا كانت ليلة ظلماء شديدة المطر خلا المطاف، فدخلت للطواف وكنت أقول: اللهم اعصمني، فسمعت هاتفاً يقول: يا ابن أدهم أنت تسألني العصمة وكل الناس يسألون العصمة، فإذا عصمتكم فلمن أرحم، وفي رواية: «فعلى من أتكرم»؟.

وحكي عن بعضهم أنه مر يوماً بسكة، فرأى قوماً أرادوا إخراج شاب من المحلة لفساده، وامرأة تبكي قيل إنها أمه، فرحمها فتشفع له إليهم وقال: هبوه مني هذه المرة، فإن عاد إلى فساده فشأنكم به؛ فوهبوه منه فمضى؛ فلما كان بعد أيام اجتاز بتلك السكة فسمع بكاء العجوز من وراء ذلك الباب، فقال في نفسه لعل الشاب عاد إلى فساده، فنفي من المحلة، فدق عليها الباب وسألها عن حال الشاب، فخرجت وقالت إنه مات، فسألها عن حاله فقالت: إنه لما قرب أجله قال لي: لا تخبري الجيران بموتي، فلقد آذيتهم فإنهم يشمتون بوفاتي ولا يحضرون جنازتي، وإذا دفنتيني فهذا خاتم لي مكتوب عليه بسم الله فادفنيه معي، فإذا فرغت من شغلي فتشفعي لي إلى ربي، قالت

صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء والطبقة، وكان أعلم المشايخ في الطريقة (الرسالة القشيرية ٤١٦).

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٨/ ١٣٨، وفي وفيات الأعيان ٢/٢١٧، وفي طبقات الحنابلة ١/ ٤١٠.

(٢) رواه القشيري في الرسالة ص ١٣٨، قال: قال في الكنز ١٥/ص ٦٧١ أخرجه الخطيب عن جرير وابن النجار والخليلي والرافعي وأبو الشيخ عن أنس.

(٣) الموبقات: المعاصي والذنوب والمهلكات واحدها: موبقة.

ففعلت وصيته فلما انصرفت عن رأس قبره سمعت صوته يقول: انصرفي يا أمه فقد قدمت على رب كريم، وأنشد بعضهم:

إذ أمسى وسادي من تراب ... وبت مُجاور الرّب الرحيم
فهنوني أصيحابي وقولوا ... لك البُشرى قدمت على كريم

وأنشد آخر:

إلهي لا تُعذبني فإني ... مقُر بالذي قد كانَ مني
فكم من زلة لذوي الخطايا ... عفوت وأنت ذو عفو ومن
يظن الناس بي خيراً وإني ... لشرُّ الناس إنْ لم تعفِ عني
وما لي حيلة إلا رجائي ... لعفوكَ إنْ عفوتَ وحسن ظني

وأنشد الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوكَ سُلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنتهُ ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما

المقام التاسع التوكل(١)

قال الله عز وجل: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة: ٢٣] وقال تعالى: ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] قال الطبري: أي كافيه ومنجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة إذا فوض أمره إليه. وقال الحسن: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] أي من وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه. وقال رسول الله ﷺ في السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»(٢) رواه مسلم. وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(٣) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

---

(١) انظر حديث القشيري عن التوكل في الرسالة القشيرية ص ١٦٢ ـ ١٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٧/ ١٦٣، ١٧٤، ٨/ ١٢٤)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤)، والترمذي في (السنن ٢٤٤٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٨٧، ١٠/ ٥٦٧)، وأبو عوانة في (المسند ١/ ٨٦).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٢٩٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٦٨٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٨٨)، وابن المبارك في (الزهد ١٩٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٢٣٤)، (بغوي ١/ ٤٤٠)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٣١٠)، وابن كثير في (التفسير ٨/ ٢٠٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٢٣٩، ٢٦٠).

وقال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[١] الحديث؛ رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. وعنه ﷺ: «أنه أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال: كل باسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه»[٢]. رواه الترمذي.

قال أهل اللغة: التوكل إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم التكلان وهذا الحد اللغوي موافق لما حده به علماء الشرع.

وقال الإمام المحاسبي رضي الله تعالى عنه: التوكل اعتماد القلب على الله سبحانه فيما يحب العبد ويكره ويرجو ويخاف دون الأسباب؛ ولا يعتمد على سبب دون الله تعالى.

وتكلم الشيوخ في التوكل فقال المحاسبي أيضاً: حقيقة التوكل الاعتماد على الله تعالى بإزالة الطمع عما سوى الله عز وجل، وترك تدبير النفس في الأغذية، والاستغناء بالكافية، وموافقة القلب لمراد الرب سبحانه، والقعود في ظل العبودية، واللجأ إلى الله تعالى، ووقوع اليأس مما سوى الله عز وجل.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة. وقال أيضاً وقد سئل عن التوكل: خلع الأرباب، وقطع الأسباب، فقال السائل: زدني؛ فقال: إلقاء النفس في العبودية، وإخراجها من الربوبية. وقال ابن مسروق رضي الله تعالى عنه: التوكل الاستسلام لجريان القضاء والأحكام.

وقال سهل رضي الله تعالى عنه: أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد، ولا يكون له حركة ولا تدبير.

وقال بعضهم وقد سئل عن التوكل: لو أدخلت يدك في فم التنين حتى تبلغ الرسغ[٣] لا تخاف مع الله تعالى غيره. وقيل: الغني والعز يجولان في قلب المؤمن، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل استوطناه، يعني وإن لم يجدا فيه توكلاً رحلا عنه.

وفي معنى ذلك قلت:

يجولُ الغنى والعز في قلب مؤمن ... فإنْ ألفيا جوف القلوب توكلا
أقاما فأمسى العبدُ بالله ذا غنى ... عزيزاً وإنْ لم يلقياهُ ترحلا

---

(١) أخرجه الترمذي (قيامة ٢٥٩، وأحمد بن حنبل ١، ٢٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ١٨١٧)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٨/ ١٣٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٨٣٤٢)، وصاحب (الأذكار النووية ٢١٠)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/ ٣٨٦).

(٣) الرُّسغ: مفصل ما بين الكف والساعد، وما بين الساق والقدم (ج) أرساغ وأرسغ.

وقال أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: للمتوكل ثلاث درجات. التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض؛ فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه. وقال أيضاً: التوكل بداية، والتسليم وسط والتفويض نهاية. وقال أيضاً: التوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص الخواص.

قلت: وهذا كلام نفيس عزيز في التوكل والتسليم من كلام الفقيه العالم الشيخ الكبير العارف بالله تعالى محمد بن حسين البجلي المعروف في عواجة في أرض اليمن رضي الله تعالى عنه قال: إذا كان الله سبحانه كافي المتوكلين فالرجوع إلى غيره جهل وإذا كان الله ولي المؤمنين فتدبيره لهم وعليهم فيما يجريه لهم أصلح، وإذا كان الله غالباً على أمره فالتسليم له أولى، والتوكل ثقة الباطن، واكتفاؤه بتدبير المتكل عليه وقلة النظر معه، أو قال: وترك النظر معه فيما يجري بغير لم وكيف؟ إذا كان أعرف بالأمور وأدرى بتدبيرها وما إليه مصيرها، والمسلم علم من طريق التوحيد أن الأمر كله لله، وأنه أوجد الأشياء لما شاء، فسلم نفسه وما يتعلق بها لله، لا اعتراض له عليه في شيء من الأمر، وإليه يرجع الأمر كله، فهو إذن منطرح على بساط حسن الثقة بالله، راجع في جميع أموره إلى الله، ليس على باطنه وظاهره ربانية لغير الله، لو قطع بالبلاء لم يشهد فيه غير المبتلى، ولم يره بلاء يوجب الصبر؛ بل يراه المستحق عليه الذي لأجله أوجد، والعاقل لا ينكر تقاضي ما عليه من الحق عن طلبه، فهو غير مرتاب من الأمور قبل جريانها ولا متبرم منها في حال جريانها وكم، لا والله سبحانه حامل عن المسلم كلفة ما أراده به من البلاء عند عدم التفاته إلى غيره، إذ قال تعالى في قصة إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩] فحفظه فيها منها، فكيف لا يحفظ المسلمين في البلاء من وقوع مس البلاء أليس الله بكاف عبده، ألا وإن من أعلى التسليم أن لا تختار الخروج من أمر أنت فيه دينياً كان أو دنيوياً حتى يكون هو الذي يختاره منه له، ولا تميز في الأمور بين المصلحة وغير المصلحة؛ لأن ذلك منازعة منك في العلم، والله تعالى يقول: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢١٦] فمتى يعلم من يقول الله تعالى فيه أنه لا يعلم، ومتى يجري أمر غير صالح ممن هو كامل العلم والحكمة، فلذلك يترك أهل التدبير، وجروا مع المقادير، وسلموا الأمر إلى اللطيف الخبير. انتهى كلامه. وأنشد بعضهم في الندب إلى التوكل والإعلام بكون القدر لا ينفع منه الحذر هذين البيتين:

متى ما يرد ذو العرش أمراً بعبده ... يصبهُ وما للعبدِ ما يتخيرُ
وقد يهلك الإنسان في وسط أمنهِ ... وينجو بحمد الله من حيث يحذرُ

وقال بعض العلماء: الناس في التوكل على ثلاثة أقسام: القسم الأول: قوم سلموا نفوسهم لله فلم يجلبوا لها نفعاً ولا دفعوا عنها من الضر دفعاً، وطردوا ذلك في كل شيء من الضرورات وغيرها، ولم يتحفظوا من عدو ولا سبع، ولا تسببوا لنفوسهم بسبب من الأسباب. القسم الثاني قوم تسببوا في الضرورات دون غيرها جلباً ودفعاً ضراً ونفعاً، وهذه الطريقة عليها الجمهور من الأنبياء والأولياء. القسم الثالث: قوم دخلوا في الأسباب كلها في الضرورات وغيرها لكن مع اعتمادهم على المسبب دون السبب.

قلت: ومن حكايات المتوكلين، ما حكي بالإسناد عن أبي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه قال: دخلت البادية مرة فأصابني فاقة. فرأيت المرحلة من بعيد، فسررت بأن وصلت، ثم أفكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره، فآليت أن لا أدخل المرحلة إلى أن أحمل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفيرة وواريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتاً في نصف الليل عالياً: يا أهل المرحلة إن لله ولياً حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه، فجاء جماعة وأخرجوني وحملوني إلى القرية.

وحكي بالإسناد أيضاً عن أبي حمزة الخراساني رضي الله تعالى عنه أنه قال: حججت سنة من السنين، فبينما أنا أمشي في الطريق إذا وقعت في بئر، فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت والله لا أستغيث، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيها أحد فأتوا بقصب وبارية وطمسوا رأس البئر، فهممت أن أصيح، ثم قلت في نفسي إلى من هو أقرب منهما وسكت، فبينما أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدنى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك منه، فتعلقت فأخرجني، فإذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف، فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أنْ أكتم الهوى ... وأغنيتني بالفهم منك عن الكشفِ
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرك باللطفِ
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما ... تبشرني بالغيب أنكَ في الكفِ
أراكَ وبي من هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطفِ منكَ وبالعطفِ
وتحيي محباً أنتَ في الحبِ حتفهُ ... وذا عجب كون الحياة مع الحتفِ

قلت وأول هذه الأبيات في بعض الكتب:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى

وهو أنسب من أكتم، وهذه الحكاية قد اشتد إنكار ابن الجوزي فيها على أبي حمزة المذكور، وأن هذا الذي فعله لا يجوز، وقد أجبت عن ذلك في خاتمة كتاب روض الرياحين، وأنه صدر عنه ذلك، وقد منح يقينا كاملاً، وقلبا مشاهداً، وحياء حاجزاً له وحاجزاً عليه أن يلتفت إلى غير مولاه، أو معه سواه.

وقد قال الخليل لجبرائيل عليهما الصلاة والسلام لما عرض له في الهواء وهو يهوي إلى النار له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال فسل ربك؟ فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي. والعجب منه كيف ينكر على من يرى مولاه الذي بيده ملكوت كل شيء أقرب إليه مما سواه، كما لم يستغث بالعبد الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً من العبيد، هذا وأبياته المذكورة ناطقة بما ذكرت، وذلك قوله: «نهاني حيائي منك». وقوله:

تراءيت لي بالغيبِ حتى كأنما ... تبشرني بالغيب أنك في الكفِ

وقد ذكرت هنالك أن المنكر على هؤلاء القوم لو حصل له بعض ما حصل لهم ما أنكر عليهم، وبسطت الكلام معه هنالك في هذه الحكاية وحكايات أخرى أنكر عليهم فيها، ولقد أحسن القائل:

يـا لائمـي لا تلمنـي فـي هـواهُ فلـو   عـاينـتَ منـهُ الـذي عـاينـت لـم تلـمِ

وحكي عن أبي الحسين الديلمي رحمه الله تعالى قال: وصف لي إنسان أسود بأنطاكية يتكلم على القلوب فقصدته، فلما رأيته أبصرت معه شيئاً من المباحات يريد أن يبيعه، فساومته وقلت له بكم تبيع هذا؟ فنظر إلي ثم قال: اقعد حتى أبيع هذا وأعطيك شيئاً من ثمنه فإنك جائع منذ يومين، قال وكنت جائعاً منذ يومين، فتغافلت عنه كأني لم أسمع ما قال، وذهبت عنه وساومت غيره، ثم عدت إليه وقلت له بكم تبيع هذا؟ فنظر إلي وقال: اقعد فإنك جائع منذ يومين حتى إذا بعنا أعطيناك من ثمنه شيئاً، قال: فوقع في قلبي منه هيبة، فلما باع ذلك أعطاني شيئاً ومضى ومضيت خلفه لعلي أستفيد منه شيئاً يقوله، فالتفت إليّ وقال: إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله تعالى إلى أن يكون لنفسك فيها حظ فتحجب عن الله، ومن علم أن الله سبحانه كافيه لا يستوحش من إعراض الخلق عنه، ولا يستأنس بإقبال الخلق عليه ثقة بأن الذي قسم له لا يفوته وإن أعرضوا عنه، والذي لم يقسم له لا يصل إليه وإن أقبلوا عليه.

وحكي عن إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه أنه قال: رأيت في طريق الشام شاباً حدثاً حسن المراعاة، فقال لي هل لك في الصحبة؟ فقلت: إني أجوع، فقال: إن جعت جعت معك، فبقينا أربعة أيام ففتح علينا بشيء، فقلت: هلم فقال اعتقدت أن لا آخذ بواسطة، فقلت: يا غلام دققت، فقال: يا إبراهيم لا تبهرج فإن الناقد بصير ما لك والتوكل، ثم قال: أقل التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات فلا تسمو نفسك إلا إلى من إليه الكفايات. وأنشدوا في التوكل:

حقيقـةُ العبـدِ عنـدي فـي تـوكلـهِ   سكـون أحشـائـه مـن كـن مطلـوب
وأنْ تـراه لكـل الخلـق مطـرحـاً   يصـون أسـراره عـن كـلِ مصحـوب

وأنشد بعضهم في كون رؤية المبتلي في البلاء يهون بها العناء:

وخفـف عنـي مـا ألاقـي مـن العنـا   بـأنـك أنـت المبتلـى والمـدبـرُ

وحكي عن الشيخ يوسف بن حمدان رضي الله تعالى عنه قال: خرجت إلى مكة على طريق البصرة ومعي جماعة من الفقراء، وفيهم شاب كنت أغار عليه من حسن صحبته، ومراعاة حاله، واشتهاره بذكر ربه عز وجل، ودوام مناجاته؛ فلما وصلنا المدينة اعتل الشاب علة شديدة وانفرد عنا، فسرت إليه مع جماعة من أصحابنا تتعرف خبره؛ فلما رأيناه وشدة ما به قال بعض الجماعة: لو أحضرنا له طبيباً ينظر إليه ويصف له علته فلعله يكون عنده دواؤه، فسمع الشاب مقالتهم فتبسم من ذلك وقال: يا مشايخي وأحبائي ما أقبح المخالفة بعد الموافقة، من أراد الله تعالى له حالاً وأراد هو حالاً غيره أليس قد خالف الله تعالى في إرادته؟ قال فخجلنا من كلامه، فنظر إلينا وقال: إن الأمراض والأسقام فيها تطهير وتكفير وتذكير، ثم أنشأ يقول:

بيــــــدِ الله دوائـــــــي ويعلــــــــمُ الله دائـــــــي
إننـــي أظلـــمُ نفســـي بـــاتبـــاعـــي لهـــوائـــي
كلمـــــا داويـــــت دائـــــي غلـــــب الـــــداء دوائـــــي

وحكي عن بعضهم أنه قال: رأيت فتى في طريق مكة يتبختر في مشيه كأنه في صحن داره، فقلت له: ما هذه المشية يا فتى؟ قال هذه مشية الفتيان خدام الرحمٰن، وأنشد:

أتيـــهُ بـــكَ افتخـــاراً غيـــر أنـــي أذوبُ مـــن المهـــابـــةِ عنـــد ذكـــركَ
ولـــو أنـــي قـــدرت لمـــتّ شـــوقـــاً وإجـــلالاً لأجـــل عظيـــم قـــدركَ

فقلت له: وأين دارك وراحلتك؟ فنظر إليّ منكراً لقولي ثم قال: يا هذا أرأيت عبداً ضعيفاً قصد مولى كريماً ثم حمل إلى بيته طعاماً وشراباً؟ لو فعل ذلك لأمر الخدم بطرده عن بابه، إن المولى جلت قدرته لما دعاني إلى القصد إليه رزقني حسن التوكل عليه، ثم غاب عني.

وحكي أن عابداً اعتكف في المسجد ولم يكن له معلوم، فقال له إمام المسجد: لو اكتسبت لكان خيراً لك وأفضل، فلم يجبه حتى عاد عليه القول ثلاثاً، فقال له في الرابعة: بجوار المسجد رجل يهودي قد ضمن لي في كل يوم رغيفين، فقال إن كان صادقاً في ضمانه فقعودك في المسجد خير لك، فقال يا هذا لو لم تكن إماماً تقف بين يدي الله عز وجل وبين عباده مع هذا النقص في التوحيد لكان خيراً لك، تفضل ضمان يهودي على ضمان الله عز وجل.

وأنشدوا في هذا المعنى للإمام علي كرم الله تعالى وجهه:

أتطلـــبُ رزق الله مـــنْ عنـــد غيـــره وتصبـــحُ مـــن خـــوفِ العـــواقِـــبِ آمنـــا
وتـــرضـــى بصـــرّافٍ وإنْ كـــان مشـــركـــاً ضميـــناً ولا تـــرضـــى بـــربـــك ضـــامنـــا

وحكي عن مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه أنه قال: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، وإذا بشاب يمشي في الطريق بلا زاد ولا ماء ولا راحلة، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام، فقلت أيها الشاب من أين؟ قال من عنده، قلت وإلى أين؟ قال إليه: قلت وأين الزاد؟ قال عليه، قلت: إن الطريق لا تقطع إلا بالزاد والماء فهل معك شيء؟ قال نعم قد تزودت عند خروجي بخمسة أحرف، قلت وما هذه الخمسة الأحرف؟ قال قوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ قلت وما معنى كهيعص؟ قال: أما قوله تعالى: «كاف» فهو الكافي، وأما «الهاء» فهو الهادي، وأما «الياء» فهو المروي، وأما «العين» فهو العالم، وأما «الصاد» فهو الصادق، فمن كان مصاحباً كافياً وهادياً ومروياً وعالماً وصادقاً لا يضيع ولا يخشى ولا يحتاج إلى حمل الزاد والماء. قال مالك: فلما سمعت هذا الكلام نزعت قميصي على أن ألبسه إياه، فأبى أن يقبله وقال: أيها الشيخ، العرى خير من قميص الفنا، حلالها حساب، وحرامها عقاب. وكان إذا جنه الليل رفع وجهه نحو السماء وقال: يا من تسره الطاعات ولا تضره المعاصي، هب لي ما يسرك واغفر لي ما لا يضرك، فلما أحرم الناس ولبوا قلت لم لا تلبي؟ فقال: يا شيخ أخشى أن أقول: لبيك فيقول: لا لبيك ولا سعديك ولا أسمع كلامك ولا أنظر إليك، ثم مضى فما رأيته إلا في منى وهو يقول:

إنَّ الحبيب الذي يرضيه سفك دمي | دمي حلال له في الحلِ والحرم
والله لو علمت روحي بمن علقت | قامت على رأسها فضلاً عن القدم
يا لائمي لا تلمني في هواه فلو | عاينت منهُ الذي عاينتَ لم تلمَ
يطوفُ بالبيتِ قومٌ لو بخارجهِ | بالله طافوا لأغناهُم عن الحرمَ
ضحى الحبيب بنفسي يوم عيدهم | والناس ضحوا بمثل الشاء بالغنمَ
للناس حجٌ ولي حج إلى سكني | يهدي الأضاحي وأهدى مهجتي ودمي

ثم قال: اللهم إن الناس ذبحوا وتقربوا إليك، وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي فتقبلها مني، ثم شهق شهقة فخر ميتاً رحمه الله تعالى. وإذا قائل يقول: هذا حبيب الله، هذا قتيل الله قتل بسيف الله، فجهزته وواريته، فبت تلك الليلة مفكراً في أمره، فرأيته في منامي، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: فعل بي كما فعل بشهداء بدر، قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بمحبة الجبار رضي الله تعالى عنه.

وحكي أنه خرج بعض المريدين في طلب الرزق، فسعى حتى تعب، فوجد خربة فجلس يستريح، فبينما هو يتصفح الجدران إذ نظر في بعضها لوحاً من رخام أخضر مكتوباً فيه بخط أبيض هذه الأبيات:

لما رأيتُك جالساً مستقبلاً | أيقنت أنَّك للهموم قرينُ
ما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ | أبدا وما هو كائنٌ سيكونُ
سيكونُ ما هو كائنٌ في وقتهِ | وأخو الجهالة متعب محزونُ
فلعل ما يخشاه ليس بكائن | ولعل ما يرجوهُ سوف يكونُ
يسعى الحريص فلا ينال بحرصه | حظاً ويحظى عاجز ومهانُ
فارفض لها وتعرّ من أثوابها | إنْ كانَ عندك للقضاءِ يقينُ
هون عليك وكن بربك واثقاً | فأخو التوكل شأنه التهوينُ
طرح الأذى عن نفسِه في رزقه | لما تيقنَ أنهُ مضمونُ

قال: فقرأها ورجع إلى منزله ولم يهتم في رزق بعدها.

المقام العاشر الرضى(١)

قال الله عز وجل: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [المائدة: ١١٩] وقال سبحانه: ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢] وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى بعدله وقسطه ـ وروي: بحكمته ـ جعل الروح والفرج في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك

(١) انظر حديث القشيري عن الرضا في الرسالة القشيرية ص ١٩٢ ـ ١٩٧.

والسخط»[1] وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا»[2] وعنه ﷺ: «إن عظم الجزاء على عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»[3] وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: أي شيء أفضل من ذلك؟ قال أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»[4] رواه الترمذي: وقال حديث حسن صحيح. وعنه ﷺ أنه قال: «بينما أهل الجنة في مجلس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم، فقال يا أهل الجنة سلوني، قالوا نسألك الرضى عنا، قال رضائي أحلكم داري وأنيلكم كرامتي، هذا أوانها فسلوني، قالوا نسألك الزيادة، قال فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر أزمتها زمرد أخضر وياقوت أحمر، فجاؤوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها، فيأمر الله سبحانه بأشجار عليها الثمار، وتجيء جوار من الحور العين وهن يقلن: نحن الناعمات فلا نبأس[5]، ونحن الخالدات فلا نموت، أزواج قوم كرام مؤمنين، ويأمر الله عز وجل بكثبان من مسك أبيض أذفر[6]، فتثير عليهم ريحاً[7] يقال لها المثيرة، حتى تنتهي بهم إلى جنة عدن وهي قصبة[8] الجنة، فتقول الملائكة يا ربنا قد جاء القوم، فيقول

---

(١) أخرجه العراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٣٣٧، ٣٤٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/٢٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ب ١١ رقم ٥٦)، والترمذي في (السنن ٢٦٢٣)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/٢٠٨)، والبغوي في (شرح السنة ١/٥٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٩) والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٩)، والقرطبي في (التفسير ٦/٣١٧)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٩٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/٢٨٣)، والشهاب في (المسند ١١٢١)، (بغوي ١/١٣٠)، والبغوي في (شرح السنة ٥/٢٥٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٥٦٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٨٠٢، ٦٨٢٣)، والقاضي عياض في (الشفا ٢/٤٥٨)، والشجري في (الأمالي ٢/٢٨٢).

(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/١٤٢، ٩/١٨٤)، ومسلم في الصحيح (الجنة ٩)، والترمذي في (السنن ٢٥٥٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣/٨٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٤١٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٦٢٦)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٣١٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/٦٤٩)، وصاحب (الإتحافات السنية ١٤٤)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/١٣٨، ٣٤٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٢٨٧)، وابن كثير في (التفسير ٤/١١٨)، وابن المبارك في (الزهد ١٢٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/٢٥٧)، (بغوي ١/٣٢٧)، والطبري في (التفسير ١٠/١٢٦) والقرطبي في (التفسير ١٨/١٤٢)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢٢١، ٥٠٢).

(٥) نبؤس: لا تجد عندنا غلظة أو فظاظة.

(٦) مسك أذفر: أي جيد أو فائح الرائحة وشديدها.

(٧) يقصد بالريح الرائحة.

(٨) قصبة الجنة: وسطها.

سبحانه وتعالى: مرحباً بالصادقين مرحباً بالطائعين، قال فيكشف الحجاب عنهم فينظرون إلى الله تعالى، فيتمتعون بنور الرحمٰن حتى لا ينظر بعضهم بعضاً[١]، ثم يقول الله تعالى ارجعوا إلى القصور بالتحف، قال فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضاً، فقال رسول الله ﷺ ذلك قوله تعالى: ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾ [فصلت: ٣٢] رواه القشيري[٢] وغيره.

قال في الصحاح: الرضى مصدر رضيت، يقال رضيت عنه، ورضيت به، ورضيت عليه، بمعنى فهو مرضي. وقد قيل: مرضو به على الأصل، وأرضيته عني ورضيته بالتشديد إذا عملت في إرضائه بجهد، واسترضيته فأرضاني إذا طلبت منه الرضا فوافقني، وعلى هذه الأوجه كلها يكون الرضى الموافقة والقبول للأمر بسهولة من غير تكلف.

وتكلم الشيوخ في الرضى، فقال أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه: الرضى سرور القلب بمر القضاء، وقد أشرت إلى هذا القول فيما تقدم.

وقال أبو عبد ٱللَّه بن خفيف رضي الله تعالى عنه: الرضى سكون القلب إلى أحكامه سبحانه، وموافقة القلب بما رضي واختار.

وسئلت رابعة رضي الله تعالى عنها: متى يكون العبد راضياً؟ فقالت إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة. وقد أشرت إلى هذا القول أيضاً فيما مضى.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: أرجو أن أكون عرفت طرفاً من الرضى لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضياً.

وقال بعضهم: لو جعلني في الدرك الأسفل من النار كنت أشد رضى ممن في الفردوس، وقد تقدم هذا أيضاً.

وقال أبو محمد رويم[٣] رضي الله تعالى عنه: الرضى استقبال الأحكام بالفرح.

وقال أبو عبد ٱللَّه المحاسبي رضي الله تعالى عنه: الرضى سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقال ابن شمعون رضي الله تعالى عنه: الرضى بالحق، والرضى عنه، والرضى له؛ فالرضى به

---

(١) الاشتغال كل منهم بتمتعه بذلك.

(٢) الحديث: قال في كنز العمال ١٤/٦٤٨ رقم الحديث ٣٩٧٧٨: رواه ابن النجار، وقال في مجمع الزوائد ٧/٩٨ رواه البزار وفيه الفضل بن عيسى ضعيف، رواه القشيري في الرسالة القشيرية ص ١٩٣.

(٣) هو رويم بن أحمد بن يزيد بن رويم (توفي ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م)، صوفي شهير، من جلة مشايخ بغداد، كان مقرئاً وفقيهاً على مذهب داود. (الأعلام ٣/ ٣٧، والرسالة القشيرية ص ٣٩٠، وفيها وفاته سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م).

مدبراً ومختاراً؛ والرضى عنه قاسماً ومعطياً والرضى له إلهاً ورباً.

وسئل أبو سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه: هل يجوز أن يكون العبد راضياً ساخطاً؟ قال نعم يجوز أن يكون راضياً عن ربه، ساخطاً على نفسه.

وقال أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: ليس الرضى أن تحس بالبلاء، إنما الرضى أن لا تعترض على الحكم والقضاء.

وقيل: كتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري[1] رضي الله تعالى عنه: أما بعد، فإن الخير كله في الرضى، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر.

وقيل للحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله تعالى لم يتمن غير ما اختار الله تعالى له.

وقيل ليحيى بن معارف رضي الله تعالى عنه: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به يقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت. وقال أيضاً: يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فيرضى فيما عمل، ويخلص فيما يعمل.

وقال أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضى هل هو من الأحوال، أو من المقامات؟ فأهل خراسان قالوا: الرضى من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل، ومعناه يؤول إلى أن يتوصل إليه العبد باكتسابه. وأما العراقيون فإنهم قالوا: الرضى من جملة الأحوال، وليس ذلك كسباً للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال. قال: ويمكن الجمع بين اللسانين، فيقال: بداية الرضى مكتسبة للعبد وهو من المقامات، ونهاية من جملة الأحوال وليست بمكتسبة.

قال: وتكلم الناس في الرضى، فكل عبر عن حاله وشربه، فهم في العبارة عنه مختلفون، كما أنهم في الشرب والنصيب من ذلك متفاوتون. فأما شرط العلم، فالذي لا بد منه فالراضي بالله هو الذي لا يعترض على تقديره.

وحكي رضي الله تعالى عنه أن المشايخ قالوا: الرضى باب الله الأعظم. وفسر ذلك بأن من أكرم بالرضى فقد لقي بالترحيب الأوفى وأكرم بالتقريب الأعلى.

وقال شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: الرضى يحصل لانشراح القلب وانفساحه، وانشراح القلب من نور اليقين، قال الله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على

---

(١) هو عبد اللّه بن قيس بن سليم (توفي ٤٤ هـ/ ٦٦٥ م) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ١١٤، وفي طبقات ابن سعد ٤/ ٧٩، وفي الإصابة ت ٤٨٨٩، وفي حلية ١/ ٢٥٦

نور من ربه﴾ [الزمر: ٢٢] فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر، وانفتح عين البصيرة، وعاين حسن تدبير الله سبحانه، فينتزع التسخط والتضجر، لأن انشراح الصدر يتضمن حلاوة الحب، وفعل المحبوب بموقع الرضى عند المحب الصادق، لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه.

قلت: فإن قيل إذا كان الراضي يتألم بالبلاء عند من جعل الرضى مقاماً، فما الفرق بينه وبين الصابر؟

قلت: يحتمل الفرق بينهما من وجهين: أحدهما أن الراضي يتألم بالبلاء مع الصبر عليه والفرح به، والصابر يتألم به من غير فرح به، والوجه الثاني أن الصابر وإن صبر على البلاء فإنه يحب زواله، والراضي لا يحب ذلك، والله تعالى أعلم.

وحكي بالإسناد عن أبي علي الدقاق رضي الله تعالى عنه، أنه غضب رجل على عبد له، فاستشفع العبد إلى سيده إنساناً فعفا عنه، فأخذ العبد يبكي، فقال الشفيع لم تبكي وقد عفا عنك؟ فقال السيد: إنه يطلب الرضى ولا سبيل له إليه، إنما يبكي لأجله.

قلت، ومن حكايات الراضين ما حكي أنَّ الربيع بن خثيم رضي الله تعالى عنه قيل له في منامه: إن فلانة السوداء زوجتك في الجنة؛ فلما أصبح سأل عنها فدل عليها فإذا هي ترعى غنماً، فقال لأقيمن عندها فأنظر عملها، فأقام عندها لا يراها تزيد على الفريضة، فإذا أمست جاءت إلى عنز لها فحلبت ثم شربت ثم حلبت ثم سقته، فقال لها في اليوم الثالث: يا هذه لم لا تسقيني من غير هذه العنز؟ فقالت: يا عبد اللّه إنها ليست لي، قال: فلم تسقيني من هذه؟ قالت، إن هذه منحتها أشرب من لبنها وأسقي من شئت، فقال: يا هذه ليس لك من العمل أكثر مما أرى؟ قالت: لا، إلا أني ما أصبحت ولا أمسيت على حال قط فتمنيت سواها رضاً بما قسم الله تعالى، فقال: يا هذه أعلمت أني رأيت في المنام أنك زوجتي في الجنة؟ قالت: فأنت الربيع بن خثيم؟ قال: نعم، قيل للراوي: كيف علمت ذلك؟ قال: لعلها رأت في منامها مثل ما رأى.

قلت: ما قاله الراوي صحيح لا محتمل، ولكن لا ينحصر ذلك في المنام، بل يجوز أن يكون كشف لها في اليقظة بأن قيل لها ذلك، فسمعت أو أشهدت فرأت في حال سكر الأحوال الواردة عليهم المشهورة عنهم، وقد أخبرني بعضهم أنه قيل له في اليقظة زوجتك في الجنة فلانة من الصالحات المشهورات.

وحكي أن النوري رضي الله تعالى عنه أصابته علة، وأصابت الجنيد رضي الله تعالى عنه علة أيضاً، فأخبر الجنيد عن حاله ولم يخبر النوري، فسئل عن ذلك. وقيل له: لم لا تخبر كما أخبر صاحبك؟ فقال: ما كنا نبتلى ببلوى فيوقع عليها اسم الشكوى ثم أنشأ يقول:

إنْ كنـــتَ للسقـــمِ أهـــلاً ... فـــأنـــتَ للشكـــرِ أهـــلا
عـــذب فلـــم يـــقَ قلـــب ... يقـــول للسقـــمِ مَهْـــلا

فأعيد ذلك على الجنيد فقال: ما كنا شاكين، ولكنا أردنا أن نكشف عن القدرة فينا، ثم أنشأ يقول:

أجـــلّ مـــا منـــك يبـــدو لأنـــــهُ منـــكَ جـــلا
وأنــــت يـــا أنـــس قلبـــي أجـــلّ مـــن أَنْ تجـــلا
أفنيتنـــــي عــــن جميـــعِ فكيـــفَ أرعـــى المحـــلا

فبلغ ذلك الشبلي رضي الله تعالى عنه، فأنشأ يقول:

محنتـــي فيـــك أننـــي لا أبـــالـــي بمحنتـــي
يـــا شفـــاي مـــن السقـــام وإن كنـــت علتـــي
تبـــت دهـــراً فمـــذ عـــرفـ ـتـــك ضيعـــت تـــوبتـــي
قـــربكـــمُ مثـــلَ بعـــدكُـــم فمتـــى وقـــت راحتـــي

وحكي عن السري رضي الله تعالى عنه، أنه رأى الحق سبحانه وتعالى في النوم أوقفه بين يديه وقال له: يا سري خلقت الخلق كلهم فادعوا محبتي، فخلقت الدنيا فاشتغل من كل عشرة آلاف تسعة آلاف عني بالدنيا، وبقي ألف، فخلقت الجنة فاشتغل بالجنة عني من الألف تسعمائة وبقي مائة، فسلطت عليهم شيئاً من البلاء، فاشتغل عني من المائة تسعون بالبلاء وبقي عشرة، فقلت لهم: أنتم لا للدنيا أردتم، ولا في الآخرة رغبتم، ولا من البلاء هربتم، فماذا تريدون؟ قالوا إنك لتعلم ما نريد، فقلت إني أنزل عليكم من البلاء ما لا تطيقون ولا تحمله الجبال الرواسي أفتثبتون لذلك؟ فقالوا أليس أنت الفاعل بنا قد رضينا، بك نحمل وفيك نحمل ولك نحمل ما لا تطيقه الجبال، فقلت لهم: أنتم عبيدي حقاً.

وفي رواية أخرى: خلقت الخلق فادعوا كلهم محبتي، فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر، فخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر وبقي معي عشر عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا للدنيا أردتم، ولا في الآخرة رغبتم، ولا من البلاء هربتم، ثم ذكر نحو ما في الرواية الأولى.

وحكي عن بعض الصالحات أنها عثرت فدميت أصبعها فضحكت، فقيل لها في ذلك، فقالت: شغلني سرور الأجر، أو قالت: سرور النعمة عن ألم المصيبة.

وحكي أنه رؤي سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه بعد موته في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال شعراً:

نظـرتُ إلـى ربـي عيـانـاً فقـال لـي هنيئاً رضـاي عنـك يـا ابـن سعيـد
لقـد كنـتَ قـوامـاً إذا أظلـم الـدُّجى بعبـــرةِ مُشتـــاقٍ وقلـــب عميـــد
فـدونـكَ فـاختـر أي قصـرٍ تـريـدهُ وزرنـي فـإنـي عنـك غيـر بعيـد

قلت: قد انتهى الكلام في المقامات العشرة وتم شرحها، وها أنا أبتدىء إن شاء الله تعالى بشرح الأحوال العشرة المتقدم ذكرها.

وقال أهل المعرفة رضي الله تعالى عنهم: الحال[1] معنى يرد على القلب من غير اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو اهتياج، فالأحوال مواهب؛ والمقامات مكاسب؛ والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مربي، وفي حاله قالوا: الأحوال كاسمها، يعنون أنها كما تحل في القلب تزول في الوقت، وشبهوها بالبروق، وسمي الحال حال لتحوله، والمقام مقاماً لإقامته واستقراره، وهو ما يتحقق العبد بمنازلته من الآداب، ويتوصل إليه بنوع تصرف ومقاساة تكلف، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له.

وشرطه: أن لا يرتقي من مقام حتى يستوفي أحكام ذلك المقام.

وقال بعضهم: لا يكمل له المقام الذي هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه، فينظر من مقامه العالي إلى ما دونه، فيحكم أمر مقامه.

وقال بعض المحققين وهو الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: والأولى أن يقال والله تعالى أعلم: الشخص في مقامه يعطى حالاً من مقامه الأعلى الذي سوف يرتقي إليه، فبوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه، ويتصرف الحق فيه كذلك. ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقي أو لا يرتقي، فإن العبد بالأحوال يرقى إلى المقامات والأحوال مواهب يرقى إلى المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالموهبة، ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائل الأحوال.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رضي الله تعالى عنه يقول في معنى قوله ﷺ «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله عز وجل في اليوم سبعين مرة»[2] أنه كان ﷺ أبداً في الترقي من أحواله، فإذا ارتقى عن حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها، فكان يعدها غيناً بالإضافة إلى ما حصل فيها، فأبداً كانت أحواله ﷺ في التزايد، ومقدورات الحق سبحانه من الألطاف الإلهية لا نهاية لها، وإذا كان حق الحق

---

(١) انظر حديث القشيري عن الحال في الرسالة القشيرية ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، أحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢١١، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧، ٨/ ٢٩٩، ٩/ ٥١٧، ٥٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٤٣)، (بغوي ٦/ ١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٦٣) وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

تعالى العز والوصول إليه بالتحقيق محالاً، فلا معنى يوصل إليه تعالى إلا في مقدوره سبحانه ما هو فوقه بقدر أن يوصل إليه، وعلى هذا يحمل قولهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: وقد يكون الشيء بعينه حالاً، ثم يصير مقاماً: ويرتقي إلى أحوال أخر فوق ذلك، وهي طوارق تطرقه، وتسمى اللوائح والطوالع والبوادة، فإذا دامت هذه الطوارق ارتقى إلى أحوال أخر فوق هذه ألطف منها، فإذا دامت تلك أيضاً ارتقى إلى أحوال أخر أعلى وأشرف وهكذا أبداً.

قلت: وإذا تقرر هذا، فأول الأحوال المحبة[١]، وقد جاءت في الكتاب والسنة، قال الله عز وجل ﴿فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤] وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، كما يكره أن يقذف في النار»[٢] رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه: وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته: ولئن استعاذ بي لأعيذنه»[٣] روي استعاذ بي واستعاذني بالنون وبالياء، وآذنته بالحرب معناه: أعلمته بأني محارب له وقال ﷺ: «إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فتحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[٤] رواه البخاري ومسلم. وفي رواية مسلم قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[٥] ثم ذكر كذلك في البغض وقال في آخره: «ثم توضع له البغضاء في الأرض» وفي رواية الإمام مالك في الموطأ قال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً قال لجبريل عليه السلام: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم يقول جبريل للملائكة عليهم السلام: إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله تعالى عبداً، قال مالك: لا أحسبه قال في البغض إلا

---

(١) انظر حديث القشيري عن المحبة في الرسالة ص ٣١٧ ـ ٣٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/ ١٠، ١٢، ٩/ ٢٥)، والبغوي في (شرح السنة ١/ ٤٩)، والقاضي عياض في (الشفا ٢/ ٤٤)، والساعاتي في (منحة المعبود ٣٠)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ٥٥، ٨٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣١٠، ٩/ ٦١٠)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢٠٨)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٩٦٧٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩١٢، ٣٠٧٦١).

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٤١).

مثل ذلك»[1] وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[2] رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح. وفي موطأ الإمام مالك رضي الله تعالى عنه بإسناده الصحيح: «فيقول الله تبارك وتعالى وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»[3] وقال ﷺ: «المرء مع من أحبّ»[4] وفي رواية: «قيل للنبي ﷺ الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال: المرء مع من أحب» رواه البخاري ومسلم.

وقال بعض أهل اللغة: الحب اسم لصفاء المودّة، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، وقيل الحباب: ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلى هذا المحبة غليان القلب وفورانه عند العطش، والاهتياج إلى لقاء المحبوب. وقيل هو من الحب الذي فيه الماء لأنه يمسك ما فيه فلا يسع غير ما امتلأ به. وقيل غير ذلك مما يطول ذكره. قال الجوهري: والحب بضم الحاء المحبة، وكذلك الحب بالكسر، والحب أيضاً الحبيب مثل خدن وخدين، يقال أحبه فهو محب ويحبه بالكسر فهو محبوب.

وقد تكلم الشيوخ في المحبة فقال الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: الحب حبان: عامّ، وخاص. فالحب العام مفسر بامتثال الأمر، وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعماء، وهذا الحب مخرجه من الصفات، ولكسب العبد فيه مدخل، وهو معدود من المقامات. وأما الحب الخاص، فهو حب الذات عن مطالعة الروح، وهذا الحب الذي فيه السكران، وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه، وهذا الحب يكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل، وهو مفهوم من قول النبي ﷺ: «أحب إليّ من الماء البارد» لأنه كلام عن وجدان روح يلتذ بحب الذات، وهذا الحب الخاص هو أصل الأحوال السنية وموجبها، وهو في الأحوال كالتوبة في المقامات، فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضى والتوكل وغير ذلك، ومن صحت محبته الخاصة تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك. قال رضي الله تعالى عنه: وحيث أشرقت على المحبوب أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها. قال والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسية؛ فالزهد يصفيه عن الرغبة، والتوكل يصفيه عن قله الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضى يصفيه عن ضربان عرق المنازعة، والمنازعة لبقاء جمود في النفس ما أشرقت عليها شموس المحبة الخاصة فبقي ظلمتها وجمودها، فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها.

قلت: يعني فلا يبقى من صفات النفس شيء تصفيه المقامات إذا أشرقت شمس المحبة على

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (برّ ٣٨)، والترمذي (زهد ٥٣)، والدارمي (رقاق ٤٤)، والموطأ (شعر ١٣)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٧، ٣٢٨، ٣٣٨، ٣٧٠، ٥٣٣، ٥٣٥، ٣/ ٨٧، ٤/ ١٢٨، ٣٨٦.

(٣) أخرجه الموطأ (شعر ١٦)، وأحمد بن حنبل ٥/ ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٧.

(٤) سبق تخريجه.

نفس محبوب مجذوب بجذبة من جذبات الحق سبحانه. قال: والتقلب في أطوار المقامات لعوام المحبين، وطي بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون. قال: وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة، كما أنكروا الرضى وقالوا ليس إلا الصبر.

قلت: هذا بعض كلامه في المحبة جمعته من مواضع متفرقة.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: المحبة حالة شريفة شهد الحق سبحانه بها للعبد وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق تعالى؛ والمحبة على لسان العلماء الإرادة. قال: وليس مراد القوم، يعني طائفة الصوفية بالمحبة الإرادة، فإن الإرادة[1] لا تتعلق بالقديم[2] سبحانه، اللهم إلا أن يحمل على إرادة التقرب إليه والتعظيم له ونحن نذكر من تحقيق هذه المسألة طرفاً إن شاء الله تعالى.

فمحبة الحق سبحانه وتعالى للعبد، إرادته لإنعام مخصوص عليه[3]، كما أن رحمته إرادة الإنعام عليه، فالرحمة خاص من الإرادة، والمحبة أخص من الرحمة، فإرادة الله تعالى أن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام تسمى رحمة، وإرادته بأن يخصه بالقربة والأحوال العلية تسمى محبة، وإرادته سبحانه صفة واحدة، فبحسب تفاوت متعلقاتها تختلف أسماؤها، فإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضباً، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة، وإذا تعلقت بخصوصها تسمى محبة، ثم ذكر أقوالا كثيرة وكلاماً طويلاً في المحبة من جهة اختلاف الناس فيها ومن حيث أصلها في موضع اللغة واشتقاقها قال في أثناء ذلك: فأما ما عدا هذه الجملة مما هو المعقول من صفات محبة الخلق كالميل إلى الشيء والاستئناس بالشيء، وكحالة يجدها المحب مع محبوبه من المخلوقين فالقديم سبحانه وتعالى منزه عن ذلك.

وأما محبة العبد لله تعالى، فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم له وإيثار رضاه. وقلة الصبر عنه والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره بقلبه، وليس محبة العبد له سبحانه متضمنة ميلاً ولا احتظاظاً: كيف وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والدرك والإحاطة، والمحب يوصف بالاستهلاك في المحبوب أولى منه بأن يوصف بالاحتفاظ، ولا توصف المحبة بوصف ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة[4] انتهى اختصار كلامه في المحبة.

وقال أبو عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء.

---

(١) الإرادة الخاصة بالعبد.

(٢) بناء على أثرها التخصيص، فلا تتعلق بالقديم، كما لا تتعلق بالمستحيل.

(٣) أي لإنعام على العبد مخصوص بدرجة رفيعة، كحفظه وتقريبه له، وعداوته لمن عاداه.

(٤) فعدم وصفها بذلك، أو تحديدها بكون: إما لعسرة أو لكونها ضرورية.

وقال المحاسبي رضي الله تعالى عنه، المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سراً وجهراً؛ ثم علمك بتقصيرك.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: المحبة لذة، ومواضع الحقيقة دهش.

وقال أبو بكر الكتاني رضي الله تعالى عنه: المحبة الإيثار للمحبوب.

وقال أبو القاسم النصراباذي[1] رضي الله تعالى عنه: المحبة مجانبة السلو على كل حال.

وقال أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه: المحبة هتك الأستار، وكشف الأسرار.

وقالت رابعة رضي الله تعالى عنها: محب الله تعالى لا يسكن حنينه وأنينه حتى يسكن مع محبوبه.

وسئل أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه عن الحبيب والخليل، فقال: ليس من طولب بالتسليم كمن بادر بالتسليم، ثم أنشد:

وكم رمت أمرٍ أخرت لي بانصرافهِ ... وما زلت بي مني أبر وأرحما
عزمت على أنْ لا أحس بخاطرٍ ... من القلب إلا كنت أنت المُقدما
أنْ لا تراني عندما قد نهيتني ... لأنك في قلبي الكبير المُعظما

وقال المحققون منهم: المحبة استهلاك في لذة، والمعرفة شهود في حيرة؛ وفناء في هيبة وقد تقدم هذا القول. وقيل المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب. وقيل: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب. وقيل: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه. وقيل الميل الدائم بالقلب الهائم. وقال بعضهم: حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك.

وسئل أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه عن المحبة، فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب.

وقال أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: أشار في هذا إلى استيلاء ذكر المحبوب حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلا ذكر صفات المحبوب، والتغافل بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها.

وقال شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: قيل هذا على معنى قوله تعالى: «فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً» ثم ذكر كلاماً دقيقاً لا يفهمه كل أحد، وقال في آخره: وهذا الذي عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله» لا بنزاهة النفس وكمال التزكية، يعني المحب

(١) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرآباذي (توفي ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م) شيخ خراسان في وقته صحب دلف الشبلي وأبا علي الروذباري والمرتعش. وجاور بمكة المكرمة حرسها الله تعالى وكان عالماً بالحديث كثير الرواية (الرسالة القشيرية ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨).

يستعد للمحبة، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية؛ ولكن سنة الله جارية أن يزكي نفوس أحبابه بحسن توفيقه وتأييده؛ وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب روحه بجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق، ويكون ذلك عنده رتبة في الوصول، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك لكون عظيم أمر الله غير متناه، وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذي يسكن نيران شوقه. قال: ولولا باعث الشوق رجع قهقرى وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه، ومن ظن من الوصول غير ما ذكرنا أو تخايل له غير هذا القدر فهو متعرض لمذهب النصارى في اللاهوت والناسوت. قال: وإشارات الشيوخ في الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين. وخلاصة الذكر على القلب، وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا. وقيل: المحبة ظاهر وباطن؛ ظاهرها اتباع رضى المحبوب، وباطنها أن يكون مفتوناً بالحبيب عن كل شيء فلا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه.

قلت: وقد تقدم شيء من هذه الأقوال في الفصل الثامن، وتقدم هناك قول الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه في المسألة التي جرت في المحبة بمكة أيام الموسم، بعد أن تكلم الشيوخ فيها ثم قالوا له: هات ما عندك يا عراقي. وكان أصغرهم فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال في صفة المحب: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفاء شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين.

قلت: ومن حكايات المحبوبين، ما حكي عن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه قال: حججت على الوحدة فجاورت بمكن فكنت إذا جن الليل دخلت الطواف وإذا بجارية تطوف وتقول:

أبى الحب أنْ أخفِي وكم قد كتمتهُ ... فأصبحَ عندي قد أناخَ وطنبا
إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكرهِ ... وإن رمت قرباً من حبيبي تقربا
ويبدو فأفنى ثم أحيي به له ... ويُسعدني حتى ألذ وأطربا

قال فقلت لها: يا جارية أما تتقين الله تعالى في مثل هذا المكان تتكلمين بهذا الكلام؟ فالتفتت إليّ وقالت يا جنيد:

لولا التُّقى لم ترني ... أهجر طيبَ الوسن[1]
إنَّ التُّقى شردني ... كما ترى عن وطني
أفرُ من وجدي به ... فحبهُ هيمني

ثم قالت: يا جنيد تطوف بالبيت أم برب البيت؟ فقلت أطوف بالبيت، فرفعت رأسها إلى

---

(١) الوسن: النعاس.

السماء وقالت: سبحانك سبحانك ما أعظم مشيئتك في خلقك، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار، ثم أنشأت تقول:

يطـوفـونَ بـالأحجـار يبغـونَ قـربـة ... إليـك وهـم أقسـى قلـوبـاً مـن الصخـرِ
وتـاهـوا فلـم يـدروا مـن التيـهِ مـن هـم ... وحلـوا محـل القـرب مـن بـاطـنِ الفكـرِ
فلو أخلصوا في الود غابت صفاتهم ... وقـامـت صفـات الـود للحـقِ بـالـذكـرِ

قال الجنيد: فغشي عليّ من قولها، فلما أفقت لم أرها رضي الله تعالى عنها.

وحكي عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه قال: لقيت امرأة في تيه بني إسرائيل عليها مدرعة من شعر، وخمار من صوف، وفي كفها عكاز من حديد، فقلت: السلام عليك ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام، ما للرجال وخطاب النساء: عافاك الله، فقلت: أخوك ذو النون المصري، قالت: مرحباً حياك الله بالسلام، قلت: ما تصنعين هٰهنا؟ فقالت: كل ما أتيت إلى بلد يعصى فيه الحبيب ضاق عليّ ذلك البلد، فأنا أطلب بقعة طاهرة أخر عليها ساجدة لله تعالى أناجيه بقلب ذاب من شدة الشوق إلى لقائه، قلت: ما سمعت أحداً يذكر الحبيب أحسن من ذكرك، فأي شيء المحبة؟ فقالت: سبحان الله أنت الحكيم الواعظ وتسألني؟ أول المحبة يبعث على الكد الدائم حتى إذا وصلت أرواحهم إلى أعلى الصفا جرّعهم من محبته لذيذ الكؤوس ثم صرخت وخرت مغشياً عليها، فلما أفاقت قالت:

أحبُـكَ حُبيـن حـبُّ الهـوى ... وحبـاً لأنـكَ أهـل لـذاكـا
فـأمـا الـذي هـو حـب الهـوى ... فشغلـي بـذكـركَ عَمـنْ سـواكـا
وأمـا الـذي أنـتَ أهـلٌ لـهُ ... فكشفـك لـي الحجـب حتـى أراكـا
ولا حمـد فـي ذا ولا فـي ذاك لـي ... ولكـن لـك الحمـد فـي ذا وذاكـا

وحكي عن بعضهم قال: رأيت كهلاً في الطواف قد أجهدته العبادة، وبيده عصا وهو يطوف معتمداً عليها، فسألته عن بلده فقال خراسان، ثم قال لي: في كم تقطعون هذا الطريق؟ قلت في شهرين أو ثلاثة، قال: أفلا تحجون كل عام؟ فقلت: وكم بينكم وبين هذا البيت؟ قال لي الحاكي عنه فذكر مدة طويلة، قال: فقلت هذا والله هو الفضل المبين والمحبة الصادقة، فضحك وأنشأ يقول:

زرتُ من هويتُ وإنْ شطت بكَ الدارُ ... وحـالَ مـن دونـه حجـب وأستـارُ
لا يمنعـكَ بعـد عـن زيـارتـه ... إنَّ المحـبَ لمـن يهـواهُ زوّارُ

وأنشد بعضهم في المحبة:

بيـن المحبيـنَ سـر ليـسَ يغشيـه ... خـط ولا قلـم عنـه فيحكيـهِ
نـار يقـابلـه أنـس يمـازجـه ... نـور يخبـرهُ عـن بعـض مـا فيـهِ
شـوقـي إليـه ولا أبغـي بـه بـدلاً ... هـذا سـرائـر كتمـانـي تنـاجيـهِ

وحكي أن الشيخ العارف بالله تعالى ابن الفارض رضي الله تعالى عنه دخل في أيام بدايته مدرسة في ديار مصر، فوجد شيخاً بقالاً يتوضأ من بركة فيها بغير ترتيب، فقال له: يا شيخ أنت في هذا السن وفي هذه البلدة وما تعرف تتوضأ؟ فقال له: يا عمر أنت ما يفتح عليك بمصر، فجاء إليه وجلس بين يديه وقال له: يا سيدي في أيّ مكان يفتح عليّ؟ فقال بمكة، فقال يا سيدي وأين مكة مني؟ فقال له هذه مكة، فأشار بيده نحوها فكشف له عنها، فأمره الشيخ بالذهاب إليها في ذلك الوقت، فوصل إليها في الحال وأقام بها اثنتي عشرة سنة، ففتح عليه ونظم فيها ديوانه المشهور، ثم بعد المدة المذكورة سمع الشيخ المذكور يقول: يا عمر تعالى احضر موتي، فجاء إليه فقال له: خذ هذا الدينار فجهزني به، ثم احملني فضعني في هذا المكان وانتظر ما يكون من أمري، وأشار إلى مكان في القرافة[1] تحت العارض، وهو الموضع الذي دفن فيه ابن الفارض، قال: فكشف لي عن ذلك فعاينته؛ ولم أزل معايناً له حتى فرغت من تجهيزه، فحملته ووضعته فيه، فنزل رجل من الهواء فصلينا عليه، ثم وقفنا ننتظر ما يكون من أمره، وإذا الجو قد امتلأ بطيور خضر، فجاء طائر كبير منها فابتلعه ثم طار، قال: فتعجبت من ذلك، فقال لي ذلك الرجل: لا تعجب من هذا فإن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترعى في الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش أولئك شهداء السيوف، وأما شهداء المحبة فأجسادهم أرواح، رضي الله تعالى عنهم أجمعين؛ ونفعنا والمسلمين ببركتهم آمين.

قلت: وفي هذا المعنى نظمت هذه القصيدة، وسميتها «لباب اللب في مدح شهيد الحب».

قتيلُ الهوى في مذهب الحب والفقر	بلا عوض حاشاهُ من طلبِ الأجرِ
سوى رؤية المحبوب في ساعة اللقا	إذا ما قتيل السيف عوّض في الحشرِ
فشتان ما بين المقامين في العلى	وبين شهيد الحبِ والسيف في القدرِ
فما طالب مولى له طال شوقه	وفي حُبهِ قد مات خال عن الصبرِ
كطالب مطعوم الجنان وشربها	وملبوسها والخيل والحور والقصرِ
إذا كنتَ حظي والأنامُ حظوظهم	أياديكَ ما نالوا نعيمي ولا فخري
كفى شرفاً موت المحب صبابة	بمولى وفضلاً جلّ قدراً عن الحصرِ
ويكفيهِ خمس من فضائلهِ بها	بلوغ المنى عيشاً ومجداً على الدهرِ
قتيلُ جمال قد ودوه برؤية	ووصل وقُرب والتنادم والسرِ
تميز عن غير بهذي وغيرها	وشاركُه فيما له نالَ من أجر
بل ازدادَ تفضيلاً بكل فضيلة	بها شركة من غير جحد ولا نكرِ
فإنْ كانَ روح من شهيدِ سيوفهم	بجناتِ خلدٍ جوف طير بها خضرِ

(١) القرافة: خطة بالفسطاط من مصر كانت لبني غصن بن سيف بن وائل من المعافر، وهي اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين وتُرب للأكابر (معجم البلدان ٤/ ٣١٧).

فـروحُ شهيـد الحُـب أيضـاً وجسمـه | بـأجـوافها قـد نعمـا ليسَ فـي القبـر
كــذاك روينــا عــن رجــال لــه رأوا | بـأبصارهـم جوف القرافةِ من مصرِ
وممــن رأى ذاك الإمــام الــذي جـلا | لنـا مـن مليحـاتِ المعـارفِ كـم بكـر
ونحـى خمـاراً كـاشفـاً عـن محـاسـنِ | بها هامَ كم صب وكم حار من فكرِ
بحــور معــانيهــا جــلا درّ نظمــه | سقي مشربا بالشعر لم يسق في شعرِ
عزيم الهوى حلف الغرام ابن فارض | لدى عارض قد شاهد السابق الذكر
رأى شيخَـهُ البقـال إذ مـاتَ بـالعـاً | لـه طـائر في الجوِ من جملة الخضر
وقـد كـان ذاك الشيخ من قبلِ مشعراً | بـذاك وأوصـى بـانتظـار لمـا يجـري
هنيئـاً لمـن فـي مـوتـه كـانَ خـدرُه | حواصل تلك الطير يا حُسن ذا الخدرِ
تطيــرُ بــهِ مــن نخلـة نحـو نخلـة | وغصــن إلـى غصـنِ ونهـر إلـى نهـرِ
وتـــرعـــى بجنـاتِ النعيـمِ نعيمُهـا | وتجنـي لمـا تختـار مـن طيـب الثمـرِ
وتـأوي إلـى عـالـي قناديـل علقـت | لدى العرش من غالي اليواقيت والدر
بـدار بهـا مـا لا رأت عيـن نـاظـر | ولا سمعـت أذن ولا جـال فـي فكـرِ
فهـا هـي لبـاب اللـب تمدح فـي عـلا | معاني شهيد الحب ذي الفضل والفخرِ
مقصـرة فـي مـدح عـالـي فخـاره | قـد التمسـت مـن فضلـه البسط للعـذرِ
نفضلـــه فـــوقَ المعظـــم فضلـــه | شهيـد سيـوف فـي قتـال أولـي الكفـرِ
وللصحـب نستثني الكـرام أولـي النـدى | نجـوم الهُـدى أسـد العـدى السـادة الغـرِ
فقــد فضلـوا بعــد النبييــن للــورى | أتـى للنجـومِ الفضـل مـنْ صُحبة البـدرِ
عليـــه صـــلاة الله ثـــم ســـلامـــه | يضـوعـان طَـول الـدهـر بـالطيـب النشـرَ
وفـي الآل والأصحـاب فـاح ذكـاهمـا | شذا ما شدت ورقاء وما غرد القمري
وتمــت ومســك الحمــد لله ختمهــا | ثـلاثيـن نـافـت عشـرهـا سنـة الـوتـر

[الحال الثاني: الشوق][1] قال الله عز وجل: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ [العنكبوت: ٥] قال الشيخ أبو عثمان المغربي[2] رضي الله تعالى عنه: في هذه الآية تسلية للمشتاقين؛ معناه إني أعلم أن شوقكم إليّ غالب، وأنا أجلت للقائكم أجلاً، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه. وقال سبحانه حاكياً عن قول موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: «وعجلت إليك رب لترضى» قال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: معناه شوقاً إليك، فسره بلفظ الرضى. وعن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ما

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٢٩ ـ ٣٣٣.
(٢) هو أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي (توفي ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م) واحد زمانه لم يوصف قبله مثله صحب ابن الكاتب وحبيب المغربي وغيرهما، ولقي النهرجوري وابن الصائغ وغيرهم. مات بنيسابور وأوصى بأن يصلي عليه أبو بكر بن فورك. (الرسالة القشيرية ص ٤٣٤).

علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضى والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر وأسألك نعيماً لا يبيد» وفي رواية: «لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وشوقاً إلى لقائك في غير ضراء مضرة». وفي رواية: «ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، اللهم اجعلنا هداة مهتدين»[1].

قلت: وقد تكلم الشيوخ في الشوق، فقال أبو العباس بن عطاء رضي الله تعالى عنه: الشوق احتراق الأحشاء وتلهب القلوب وتقطع الأكباد، وقد تقدم هذا القول.

وقال أبو عبد اللّٰه بن خفيف رضي الله تعالى عنه: الشوق ارتياح القلوب بالوصل، ومحبة اللقاء بالقرب، وقد تقدم أيضاً هذا القول.

وقال أبو العباس أحمد بن أبي الخير الصياد رضي الله تعالى عنه: الشوق غصن من أغصان المحبة، ليس بقائم الذات في نفسه، وهو غليان السر من كثرة حرقة نار المحبة، فيهيج العبد عند ذلك فيسمى شوقاً. وقال أيضاً: الولي ريحانة في الأرض تهب روائحها في قلوب المريدين فيشتاقون بها إلى الله تعالى.

وقال بعضهم: الشوق ينشأ بين الأحشاء يسنح عن الفرقة فإذا وقع اللقاء طفى، وإذا كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب لم يطرقها الشوق.

وفرق بعضهم بين الشوق والاشتياق بأن الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والاشتياق لا يزول باللقاء، وفي معناه أنشدوا:

ما يرجع الطرف عنهُ عند رؤيتهِ حتى يعود إليها الطرفُ مشتاقاً

وقيل شوق أهل القرب أتم من شوق المحجوبين ولهذا أنشدوا:

وأعظمُ ما يكون الشوق يوماً إذا دنتِ الخيامُ من الخيامِ

وقال بعضهم: إن المشتاقين يحسون حلاوة الموت عند وروده لما قد كشف لهم من روح الوصول حلى من الشهد.

وقال أبو عثمان رضي الله تعالى عنه: علامة الشوق حب الموت مع الراحة.

---

(١) أخرجه النسائي في (السنن ٣/ ٥٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٦٤)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٥٢٤)، الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٧٦، ٧٨، ٩/ ٦٠٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٦١١، ٥٠٨٦)، وابن تيمية في (الكلم الطيب ١٠٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٤٩٧)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٨٦٠)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٥٠٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٢٩٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٠/ ٢٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ١٢٠).

وقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

وقال بعضهم: قلوب المشتاقين منورة بنور الله تعالى، فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض، فيعرضهم الله تعالى على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إليّ أشهدكم أني إليهم أشوق.

وسئل أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: من أيّ شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟ فقال إنما يكون ذلك سروراً به ووجداً من شدة الشوق إليه.

وقال أبو يزيد رضي الله تعالى عنه: لو أن الله سبحانه حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما تستغيث أهل النار من النار.

وقال أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: من الأحوال السنية في المحبة الشوق، ولا يكون المحب إلا مشتاقاً أبداً، لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن وراء ذلك أوفى منها وأتم. قال: ثم هذا الشوق الجاذب عنده ليس هو كسبه، وإنما هو موهبة خصّ الله تعالى بها المحبين.

وقال أحمد بن أبي الخواري[1] رضي الله تعالى عنه: دخلت على أبي سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه فرأيته يبكي، فقلت ما يبكيك رحمك الله؟ قال ويحك يا أحمد، إذا جن هذا الليل وافترش أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، أشرف الجليل جل جلاله عليهم وقال: بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى مناجاتي وإني مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم، يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذي أراه فيكم، هل أخبركم مخبر أن حبيباً يعذب أحباءه بالنار، بل كيف يجمل بي أن أعذب قوماً إذا جن عليهم الليل تملقوني، فبي حلفت إذا وردوا يوم القيامة عليّ أن أسفر لهم عن وجهي، وأبيحهم رياض قدسي.

وقيل: أوحى الله سبحانه إلى داود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ، وانقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين إليّ.

وقيل: جاء بعضهم إلى عبد اللّه بن منازل، بالنون والزاي وضم الميم قبلهما، رضي الله تعالى عنه وقال: رأيت في المنام كأنك تموت إلى سنة، فلو استعددت للخروج، فقال عبد اللّه بن منازل: لقد أحلتنا على أمد بعيد أعيش أنا إلى سنة. لقد كان لي أنس بهذا البيت الذي سمعته من هذا الثقفي، يعني أبا علي:

يا منْ شكا شوقه من طولِ فرقته   اصبر لعلك تلقى من تحبُ غدا

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن أبي الخواري (توفي ٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م) من أهل دمشق، صحب أبا سليمان الداراني وغيره (الرسالة القشيرية ص ٤١٠).

قلت: ومن حكايات المشتاقين، ما حكي عن شقيق البلخي[1] رضي الله تعالى عنه قال: رأيت في طريق مكة مقعداً يزحف على الأرض، فقلت له: من أين أقبلت؟ قال من سمرقند[2]، قلت فكم لك في الطريق؟ فذكر أعواماً تزيد على العشرة؛ فرفعت طرفي أنظر إليه متعجباً، فقال لي: يا شقيق ما لك تنظر إليّ؟ فقلت متعجباً من ضعف مهجتك وبعد سفرتك، فقال لي: يا شقيق أما بعد سفرتي فالشوق يقربها، وأما ضعف مهجتي فمولاي يحملها، يا شقيق أتعجب من عبد ضعيف يحمله المولى اللطيف؟ وأنشد يقول لعله يستعده:.

أزورڪُـم والهـوى صعـب مسـالكُـه ... والشـوق يحمـل مـن لا مـالَ يحملُـه
ليـسَ المحبُ الـذي يخشـى مهـالكـه ... كـلا ولا شـدة الأسفـار تبعـدهُ

وحكي عن بعض الصالحين قال: رأيت في الطواف شاباً غلاماً نحيف الجسم دقيق الساقين وهو يبكي ويقول: يا شوقاه لمن يراني ولا أراه، فقلت له من هو؟ فأنشد:

ولـي حبيـبٌ بـلا كيـف ولا شبـه ... ولـي مقـام بـلا ربـعٍ ولا خيـمِ
أتيـتُ مـن دارِ عشـق لا أمثلهـا ... من عند من لـم أطق وصَفاً لـهُ بفـمِ

قاله ثم غشي عليه زماناً، فحركناه فوجدناه قد مات رضي الله تعالى عنه.

وحكي أنه كان سالم الحداد رضي الله تعالى عنه من الأبدال، وكان يتردد إلى فتح الموصلي رضي الله تعالى عنه، وكان إذا سمع الأذان يتغير لونه ويصفر ويضطرب ثم يثب ويترك الجانوت مفتوحاً، وأنشد:

إذا مـا دعـي داعيكُـم قمـت مسـرعـاً ... مُجيبـاً لمـولـى جـل ليـس لـه مثـلُ
أجيـبُ إذا نـادى بسمـعٍ وطـاعـة ... وفـي نشـوة لبيـك يـا مـن لـه الفضـلُ
ويصفـر لـونـي خيفـةً ومهـابـة ... ويرجـع لـي عـن كـل شغـل بـه شغـلُ
وحقكـم مـا لـذ لـي ذكـر غيـركُـم ... وذكـر سـواكـم فـي فمـي قـط لا يحلـو
متـى تجمـع الأيـام بينـي وبينكُـم ... ويفـرحُ مشتـاق إذا جمّـع الشمـلُ
فمـن شـاهـدتْ عينـاهُ نـور جمـالكُـم ... يمـوتُ اشتيـاقـاً نحوكُـم قـط لا يسلـو

وأنشد بعضهم:

مـا يعـرف الشـوق إلاَّ مـن يكـابـدهُ ... ولا الصَّبـابـة إلا مـن يُعـانيهـا

---

(١) هو شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي (توفي ١٩٤ هـ/ ٨١٠ م) أبو علي زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان، ولعله أول من تكلم في علوم الأحوال (الصوفية) بكور خراسان. وكان من كبار المجاهدين استشهد في غزوة كولان، (الأعلام ٣/ ١٧١، وطبقات الصوفية ٦١ ـ ٦٦، والشعراني ١/ ٦٥، وميزان الاعتدال ١/ ٤٤٩، والرسالة القشيرية ص ٣٩٧).

(٢) سمرقند: بلد مشهور معروف بما وراء النهر، وهو قصد الصفد مبنية على جنوبي وادي الصفد مرتفعة عليه. (معجم البلدان ٣/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

وأنشد بعضهم أيضاً:

وما صبابةُ مُشتاق له أمل إلى اللقاءِ كمشتاقٍ بلا أملِ

وأنشد آخر:

يريحني إليك الشوق حتى أميل من اليمين إلى الشمالِ
كما مال المعاقر عاودتُه حميا الحب حالاً بعد حالِ

يعني بالمعاقر الذي شرب العقار وهي الخمر.

[الحال الثالث والرابع: الأنس والهيبة[1]] قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه هما فوق القبض والبسط، وكما أن القبض فوق رتبة الخوف، والبسط فوق رتبة الرجاء، فالهيبة أعلى من القبض، والأنس أتم من البسط[2]، وحق الهيبة الغيبة، وكل هائب غائب: ثم يتفاوتون في الهيبة حسبت تفاوتهم في الغيبة فمنهم ومنهم وحق الأنس صحو بحق فكل مستأنس صاح، ثم يتباينون حسب تباينهم في الشرب، قال أهل المعرفة: أدنى محل الأنس أن لو طرح في لظى لم يتكدر عليه أنسه.

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: كنت أسمع السري رضي الله تعالى عنه يقول: قد يبلغ العبد إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر، فكان في قلبي منه شيء حتى بان لي الأثر كذلك.

قلت: ومما يشهد لصحة ذلك قوله عز وجل: ﴿فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن﴾ [يوسف: ٣١] جاء في التفسير أنهن لم يشعرن بقطع أيديهن، وهذا في محبة مخلوق، فكيف في محبة الخالق سبحانه؟ وكذلك يشهد له ما سيأتي من قطع رجل بعضهم في الصلاة ولم يشعر بقطعها؛ وكذلك ما اشتهر من إدخال بعضهم يده في النار وأخذه الحديدة المحماة وهو لا يشعر.

وكذلك ما اشتهر عن بعضهم أنه قال: دخلت على الشبلي وهو ينتف اللحم من حاجبيه بمنقاش[3]، فقلت يا سيدي إنه تفعل هذا بنفسك ويعود ألمه إليّ، فقال ويحك ظهرت إليّ الحقيقة ولست أطيقها، فأنا أدخل الألم على نفسي لعلي أحس به فيستر ذلك عني، فلا وجدت الألم ولا تستر ذلك عني ولا لي به طاقة.

قلت: وقد تقدم أن الأنس ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة، وهذا قول الجنيد رضي الله تعالى عنه.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الأنس أتم من البسط: أي أعلى منه مستوى، فالهيبة ناشئة من القبض الناشيء من الخوف والأنس ناشيء من الرجاء، لأن من خاف الله تعالى وعرف تقصيره في حق الله انقبض قلبه وبقي مشغولاً بالله فتحصل له الهيبة منه، ومن أول وصوله إلى خير انبسط قلبه وبقي مشغولاً بالله فيحصل له الأنس به.

(٣) المنقاش: ما يُنقش به (ج) مناقش ومناقيش.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: هو انبساط المحب إلى المحبوب. قيل معناه قول الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿أرني كيف تحيي الموتى﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقول الكليم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿أرني أنظر إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقول الواسطي رضي الله تعالى عنه: لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها.

وقال مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه: من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره.

وقال أبو سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه: الأنس مجاذبة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب.

وقال شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: وقد يكون من الأنس الأنس بطاعة الله تعالى وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربان، وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منه، ولكن ليس هو خال الأنس الذي يكون للمحبين. قال والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن، وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى، وقطع الأسباب والعلائق، ومحو الخواطر والهواجس. قال وحقيقته عندي: كبس الوجود بثقل لائح العظمة، وانتشار الروح في ميادين الفتوح. قال: ومن الأنس خضوع النفس المطمئنة، ومن الهيبة خشوعها، والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح. انتهى كلامه.

قلت: ومن حكايات أهل الأنس بالله الحكاية المشهورة عن أبي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه قال: تهت في البادية مرة، فكنت أقول:

أتيــه فــلا أدري مــن التيــه مــن أنــا　　سوى ما يقولُ الناسُ فيّ وفي جنسي
أتيــهُ علــى جــن البــلاد وإنسهــا　　فلما لم أجد شخصاً أتيهُ على نفسي

قال فسمعت هاتفاً يهتف بي ويقول:

أيا مـن يـرى الأسبـاب أعلـى وجـوده　　ويفـرحُ بـالتيـهُ الـدنـي وبـالأنسـي
فلـو كنـتَ مـن أهـل الـوجـود حقيقـة　　لغبتَ عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنــتَ بــلا حــالٍ مــع الله واقفــاً　　تصــانُ عــن التـذكـارِ للجـن والإنـسِ

قلت: وهذان البيتان الأخيران قد تقدم ذكرهما، وإنما أعدتهما لكونهما من تمام الحكاية المذكورة.

وحكي عن ذي النون رضي الله تعالى عنه أنه قال: رأيت في جبل لبنان في كهف رجلاً أبيض الرأس واللحية، أشعث أغبر نحيفاً نحيلاً وهو يصلي، فسلمت عليه بعدما سلم، فرد عليّ السلام، وقام إلى الصلاة فما زال راكعاً وساجداً حتى صلى العصر، ثم استند إلى حجر فجعل يسبح ولا يكلمني، فقلت له رحمك الله ادع الله عز وجل لي، فقال لي آنسك الله بقربه، فقلت زدني، فقال يا بني من آنسه بقربه أعطاه أربع خصال: عزاً من غير عشيرة، وعلماً من غير طلب، وغنى من غير مال،

وأنساً من غير جماعة، ثم شهق شهقة فلم يفق إلا بعد ثلاثة أيام، ثم قام فتوضأ وسألني كم فاته من صلاة فأخبرته، فقال:

إنْ ذكــرَ الحبيــب هيــجَ شــوقــي ... ثــم ذكــر الحبيــب أذهــلَ عقلــي

وقد استوحشت من ملاقات المخلوقين وأنست برب العالمين انصرف عني بسلام.

قلت: ومن حكايات أهل الهيبة، ما حكي عن بعضهم قال: احتبس على أهلي خروج الولد، فمضيت إلى الشيخ أبي الحسن الدينوري رضي الله تعالى عنه بجام[1] أتبرك بخطه فيه؛ فلما كتب بسم الله الرحمٰن الرحيم انفلق الجام وسقط الشيخ مغشياً عليه، فأتيته بجام آخر فكان منه ما كان من الأول، ثم جئته بثالث ورابع وخامس، فقال: يا هذا اذهب إلى غيري، فلو جئتني بما أمكن أن تجيء به لم يكن إلا ما رأيت، فإني عبد إذا ذكرت مولاي ذكرته بهيبة وحضور.

قلت: ومن حكايات أهل الأنس والهيبة معاً، ما حكى لي ثلاثة من السادات الصالحين المنقطعين إلى الله تعالى في البراري والجبال من كثرة مخالطة الأسود وإتيانها إلى بعضهم، فأما بعضهم فقلت له: كيف كان حالك مع الأسود؟ فقال: أليست هيبة الله فكنت أسد الأسود، وكانت إذا رأتني هربت.

قلت: فإن قيل: فما في هذا من الأنس بالله والهيبة له؟

قلت: من أنس بالله أنس به كل شيء، ومن هاب الله تعالى هابه كل شيء وذلك معروف.

[الحال الخامس: القرب[2]] قال الله عز وجل ﴿واسجد واقترب﴾ [العلق: ١٩] وقال رسول الله ﷺ مخبراً عن قول الله تبارك وتعالى: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»[3] الحديث وقال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه في سجوده»[3] وفي رواية «وهو ساجد».

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوي بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب.

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: ما ازداد أحد من الله تعالى قربة إلا ازداد هيبة.

---

(١) الجامُ: (مؤ): إناء للشراب والطعام من فضة ونحوها، وقد غلب استعمال في قدح الشرب (ج) جامات.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٠ ـ ٨٢.

(٣) سبق تخريجهما.

وقال أبو محمد سهل بن عبد اللّٰه رضي الله تعالى عنه: أدنى مقام من مقامات القرب الحياء.

وقال أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه: أما القرب بالذات فتعالى الملك العظيم عنه، وأنه متقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار، ما اتصل به مخلوق ولا انفصل عنه حادث مسبوق، جلت الصمدية عن قبول الفصل والوصل، فقرب هو في نعته محال، وهو تداني الذوات، وقرب هو في نعته واجب، وهو قرب بالعلم والرؤية. وقرب هو جائز في وصفه يخص به من عباده، وهو قرب الفعل باللطف.

قلت: وهذا القول بديع الحسن والتحقيق، وقد تقدم قول بعضهم وهو الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: هو قرب العبد أولاً بإيمانه وتصديقه، ثم قربه بإحسانه وتحقيقه؛ وقرب الحق سبحانه من العبد بما يخصه به اليوم من العرفان وفي الآخرة بما يكرمه به من الشهود والعيان، وفيما بين ذلك من اللطف والامتنان. وقال: أول رتبة في القرب القرب من طاعته والاتصاف في دوام الأوقات بعبادته، فأما البعد فهو التدنس بمخالفته والتجافي عن طاعته، فأول البعد بعد عن التوفيق، ثم بعد عن التحقيق، وأنشد بعضهم:

أراني بعيد الدار لم أقرب الحمى   وقدْ نصبتُ للساهرينَ خيام
علامة طردي طول ليلي نائم   وغيري يرى أنَّ المنامَ حرامُ

وأنشد آخر:

وكم من بعيد الدَّار وهو مواصل   وآخر داني الدَّار وهو بعيدُ

وأنشد آخر:

يكل تداوينا فلم يشف ما بنا   على أنَّ قربَ الدار خير من البعدِ

قلت: وقد أشرت إلى معنى قوله هذا: وإن البعد قد يراد للتسلي عن الهوى، للضعف عن حمله في محمل القرب، ولكن ذلك لا يفيد، بل كلما بعد يتجدد الغرام ويزيد، كما تقدم في القصيدة المسماة «بالراح المختوم والدر المنظوم» حيث قلت:

أماطت حجاباً عن بهاءِ جمالها   فهمنا سكارى في المهامه والقفرِ
نروم التسلي عن هواها ببعدُها   وكل جمال في الوجودِ بها يغري

أعني وكل ما يعدنا في المهامه والقفار، عن الدار التي شربنا بها العقار، شاهدنا من جمال مصنوعات الحبيب، ما يزيدنا به غراماً على غرام ونحيباً على نحيب، لأن جمال المصنوع يدل على جمال صانعه وكماله تعالى.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: ومن تحقق بقرب الحق فأدونه دوام مراقبته إياه، لأن عليه رقيب التقوى، ثم عليه رقيب الحفاظ والوفاء، ثم رقيب الحياء. وأنشدوا:

كان رقيباً منك يرعى خواطري   وآخر يرعى ناظري ولساني

فما رمقت عيناي بعدك منظراً ... بسواك[1] إلا قلت قد رمقاني
ولا بدرت من فيّ دونكَ لفظة ... بغيرك[2] إلا قلت قد سمعاني
ولا خطرت في السر بعدك خطرة ... لغيرك إلا عرّجا بعناني
وإخوان صدق قد سئمت حديثهُم ... وأمسكتُ عنهم ناظري ولساني
وما الزهدُ أسلى عنهم غير أنني ... وجدتك مشهودي بكل مكان

قلت: وفي قوله: «وجدتك مشهودي بكل مكان» فوائد ما ذكرت في قولي: «وكل جمال في الوجود بها يغري» وقد قال بعضهم في المراقبة المذكورة، هي مراعاة السر بملاحظة الحق تعالى مع كل خطرة.

وروي أن الشيخ الكبير العارف بالله أبا علي السناط رضي الله تعالى عنه كان إذا خرج من مكة للعمرة[3] يأخذ طريقاً غير طريق الناس، وينشد:

أعيني مهاة القفر عني إليكما ... لليلي علينا بالفلاةِ رقيب

قلت: شبه مستحسنات الدنيا بعيني المهاة المستحسنتين المشبه بهما العيون الحسان في لسان العرب أهل البيان، وقوله «عني إليكما» أي ابعدا عني فلا حاجة لي في رؤيتكما، فعلى رقيب حبيب جماله نهاني عن الالتفات إليكما، وقد سألني بعض الأصحاب أن أزيد عليه بيتاً آخر، فاعتذرت وقلت إذا يكون هذا البيت من ذهب والذي أقوله من خشب، فألح علي فأجبته إلى ذلك على حسب ما اتفق منشداً هذه الأبيات الثلاثة:

أمرّ طريقاً باللوى إنْ مررتها ... بوادي النَّقا خوف الرقيب أغيبُ
فإنْ نظرتْ عيناي يوماً إليكُما ... غضضتهما كيلا يغار حبيبُ
فحسبي حبيب في الفؤادِ مخيم ... وعيش لليلي عن سواه يطيبُ

قلت: والبيت الأول من الثلاثة مشتمل على معنى عدوله عن طريق الناس، وعلى قوله عني إليكما، وعلى العلة المقتضية للبعد عنهما، وهي نظر الرقيب، ولما حسن استعارته للمستحسنات العينين المستحسنتين حسن ذكرى للوى والنقا، إذ بقر الوحش لا يكون إلا في الفيافي والقفار المشتملة عليهما، ولما كان البيت الأول من الثلاثة فيه علة مشعرة بالنقص في الحب وهو قولي: «خوف الرقيب أغيب» إذا الغيبةِ عن سوى المحبوب لأجل خوفه نقص في حبه، أردفته بالبيت الثاني منتقلاً من مقام الخوف إلى مقام الغيرة، وهو قولي: «كيلا يغار حبيب» ثم رأيت في مقام الغيرة أيضا علة دون علة الخوف، وهي ترك النظر من أجل غيرة الحبيب وذلك نقص أيضاً في الحب، فأردفتهما

---

(١) في الرسالة القشيرية ص ٨١: يسوؤك.
(٢) في الرسالة القشيرية ص ٨١: لغيرك.
(٣) العُمْرة: أفعال مخصُوصة تسمى بالحج الأصغر، وأفعالها أربعة: الإحرام، والطواف، والسعي بين الصفا والمروة، والحَلْق، وليس لها وقت معين ولا وقوف بعرفة (ج) عُمَرٌ.

بثالث مشعر بكمال الحب المقتضي الإعراض عما سوى المحبوب مطلقاً من غير علة حيث قلت:

فحسبي حبيب في الفؤادِ مخيمٌ وعيش لليلي عنْ سواه يطيبُ

أي يكفيني حبيب مقيم حبه في قلبي ليس يبرح عنه فيلتفت إلى غيره، وعيشه الذي يطيب لي عن كل عيش سواه يكفيني عن كل عيش أسمع به أو أراه.

قلت: ومن حكايات أهل القرب ما حكى يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: رأيت أبا يزيد رضي الله تعالى عنه في بعض مشاهداته من صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزاً على صدور قدميه، رافعاً أخمصيهما مع عقبيه[1] عن الأرض، ضارباً بذقنه على صدره، شاخصاً بعينيه لا يطرف؛ قال: ثم سجد عند السحر فأطال، ثم قعد فقال: اللهم إن قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء، وطي الأرض وانقلاب الأعيان، حتى عد نيفاً وعشرين نوعاً من كرامات الأولياء، فرضوا منك بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك، ثم التفت فرآني فقال يا يحيى، قلت نعم يا سيدي، قال مذ متى أنت هٰهنا؟ قلت مذ حين، فسكت، فقلت يا سيدي حدثني بشيء، فقال أحدثك بما يصلح لك، أدخلني الحق سبحانه في الفلك السفلي، قد وروني في الملكوت السفلي وأراني الأرض وما تحتها الثرى، أدخلني في الفلك العلوي وطرق السموات، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك، فقلت ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إياه، فقال أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي صدقاً، لأفعلن ولأفعلن، فذكر أشياء، قال يحيى: فهالني ذلك وعجبت منه، فقلت يا سيدي لم لم تسأله المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت؟ قال فصاح في صيحة وقال اسكت، ويلك غرت عليه مني، لا أحب أن يعرفه سواه.

وأنشد بعضهم هذا المعنى:

ولا تذكرا إلى العامرية إنني أغارُ عليها من فمِ المُتكلم

[الحال السادس: الحياء[2]] قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى**﴾ [العلق: ١٤] وقال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء، قالوا إنا نستحي يا رسول الله، قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[3].

---

(١) الأخمص: باطن القدم الذي يرتفع عن الأرض. العَقِبُ: عظم مؤخر القدم، وهو أكبر عظامها (ج) أعقاب.

(٢) الحياء: هو ما يمنعك عما يضرك، وسببه ملازمة من يستحيا منه كأهل العلم والأدب، وثمرته الأمن من المقت والعذاب وخفة الحساب، وهو ممدوح ومطلوب. انظر حديث القشيري عن الحياء برسالته ص ٢١٤ ـ ٢١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٤٥٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٨٧)، والحاكم في =

قال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: وهذا الحياء العام وهو من المقامات؛ وأما الحياء الخاص فهو من الأحوال، ومنه نقل عن عثمان رضي الله تعالى عنه أنه قال: إني لأغتسل في البيت المظلم فأنطوي حياء من الله تعالى.

قال: وقال السري رضي الله تعالى عنه: إن الحياء والأنس يطوفان بالقلب، فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطا وإلا رحلا.

ثم قال شهاب الدين السهروردي: والحياء إطراق الروح إجلالاً لعظيم الجلال، والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال، فإذا اجتمعا فهو الغاية في المنى والنهاية في العطاء.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: الحياء ذوبان بقاء الحشا لاطلاع المولى.

قلت: وقد تقدم أن وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك وهذا قول ذي النون رضي الله تعالى عنه، وقال أيضاً: الحب ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق.

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: إن العباد عملوا على أربع درجات على الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء؛ وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء، لما علم أن الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما يستحي العاصون من سيئاتهم.

وقال الشيخ أبو بكر الوراق[1] رضي الله تعالى عنه: ربما أصلي ركعتين فأنصرف عنهما وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء.

وقيل لبعضهم: عظني، فقال: حسبك من الموعظة علمك بأنه سبحانه يراك، فقال له المخاطب: ما تأمرني، فقال: اطلاعه عليك في جميع الأحوال لا تنسه.

وقال بعضهم: الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائماً عند نظر الله عز وجل إليهم. وقيل: الحياء على وجوه: حياء الجناية[2] كآدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لما قيل له: أفراراً منا؟ فقال: بل حياء منك يا رب.

= (المستدرك ٤/ ٣٢٣) والطبراني في (المعجم الكبير ٣/ ٢٤٦، ١٠/ ١٨٨)، وفي (المعجم الصغير ١/ ١٧٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٦٠٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٦٤)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٤) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٥، ٣/ ٤٠٠، ٤/ ٢٣٩)، والشجري في (الأمالي ٢/ ١٩٧) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٢١٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ١٣٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/ ٣٥٨، ٤/ ٢٠٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٢١، ٩/ ٣٢٨، ٣٢٩) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٧٨١، ٥٧٥٢، ٥٧٥٣، ٤٧٢٧٩)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ١٠٤).

(١) هو أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي، أقام ببلخ وصحب أحمد بن خضرويه وغيره. له تصانيف في الرياضة. (الرسالة القشيرية ص ٤٤٠).

(٢) وهي الإخلال (بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

وحياء التقصير كالملائكة عليهم السلام يقولون: ما عبدناك حق عبادتك، وحياء الإجلال كإسرافيل عليه السلام تسربل بجناحيه حياء من الله عز وجل، وحياء الكرم كالنبي ﷺ كان يستحيي من أمته أن يقول اخرجوا، فقال الله عز وجل: ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ [الأحزاب: ٥٣] وحياء حشمة[١] كعلي رضي الله تعالى عنه حين سأل المقداد[٢] رضي الله تعالى عنه حتى سأل رسول الله ﷺ عن حكم المذي[٣] لمكان فاطمة رضي الله تعالى عنها؛ وحياء الاستحقار كحياء موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام قال: إنه ليعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحي أن أسألك يا رب، فقال الله سبحانه وتعالى: سلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك، وحياء هو حياء الرب سبحانه، يدفع إلى العبد كتاب مختوم بعد ما عبر الصراط، فإذا فيه فعلت ولقد استحييت أن أظهر عليك فاذهب فإني قد غفرت لك.

وفي هذا الحياء المذكور قال يحيى بن مُعاذ رضي الله تعالى عنه: سبحان من يذنب العبد فيستحي منه. وقال الفضيل رضي الله تعالى عنه: خمس من علامات الشقاوة: قسوة القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

قلت: ومن حكايات أهل الحياء ما حكي أنه رؤي رجل خارج المسجد، فقيل له لم لا تدخل المسجد فتصلي؟ فقال أستحيي منه أن أدخل بيته وقد عصيته.

وحكي عن كعب الأحبار[٤] رضي الله تعالى عنه قال: انطلق رجلان من بني إسرائيل إلى مسجد من مساجدهم، فدخل أحدهما وجلس الآخر خارجاً، فجعل يقول: ليس مثلي يدخل بيت الله وقد عصيت الله، فكتب صديقاً.

قال: وأصاب رجل من بني إسرائيل ذنباً فحزن عليه وجعل يجيء ويذهب ويقول: بم أرضي ربي، بم أرضى؟ فكتب صديقاً.

وحكي عن بعضهم قال: خرجنا ليلة فمررنا بأجمة[٥] وإذا رجل نائم وفرسه عند رأسه يرعى، فحركناه وقلنا له أما تخاف تنام في هذا الموضع المخوف وهو مسبع[٦]، يعني كثير السباع، فرفع رأسه وقال: أنا أستحيي منه أن أخاف غيره، ووضع رأسه ونام.

---

(١) قد يرجع حياء الحشمة إلى حياء الإجلال.

(٢) المقداد بن الأسود الكندي البهراني الحضرمي (٣٧ ق هـ ـ ٣٣ هـ/ ٥٨٧ ـ ٦٥٣ م) صحابي، أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام، أصله من حضرموت. سكن المدينة المنورة، له ٤٨ حديثاً (الرسالة القشيرية ص ٢١٧).

(٣) المذي: هو سائل يخرج من الرجل بعد خروج المني بفترة قصيرة.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ٥/ ٢٢٨، وفي تذكرة الحفاظ ١/ ٤٩، وحلية ٥/ ٣٦٤ ثم ٦/ ٣.

(٥) الأجمة: جمع أجمات وآجام وهي مأوى الأسد، أو الشجر الكثير الملتف.

(٦) مكان تكثر فيه السباع.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: عظ نفسك، فإن اتعظت وإلا فاستحيي مني أن تعظ الناس.

وحكي أن ابن السماك رضي الله تعالى عنه وعظ يوماً فأعجبه وعظه، فلما انصرف إلى منزله ونام سمع قائلاً يقول هذه الأبيات:

يـا أيهـا الـرجـل المعلـم غيـره ... هـلا لنفسـك كـان ذا التَّعليـم
تصفُ الدواء من السقامِ لذي الضنا ... ومـن الضَّنـا والـداء أنـتَ سقيـمُ
وأراك تلقـح بـالـرشـاد عقـولنـا ... صفـة وأنـت مـن الـرشـاد عـديـمُ
ابـدأ بنفسـك فـانههـا عـن غيهـا ... فـإذا انتهـت عنـه فـأنـتَ حكيـمُ
لا تنـه عـن خلـق وتـأتـي مثلـهِ ... عـارٌ عليـك إذا فعلـتَ عظيـمُ

فلما استيقظ حلف أن لا يعظ شهراً.

[الحال السابع: السكر[١]] قال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: السكر استيلاء سلطان الحال، والصحو العود إلى ترتيب الأقوال وتهذيب الأفعال.

قال: وقال الواسطي رضي الله تعالى عنه: مقامات الواجدين أربعة: الذهول، ثم الحيرة، ثم السكر، ثم الصحو، كمن سمع بالبحر فدنا منه ثم دخل فيه ثم أخذته الأمواج، فعلى هذا من بقي عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر، ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح، فالسكر لأرباب القلوب، والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب.

قلت: وقد تقدم أن السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب، وهذا قول الشيخ أبي عبد اللّه بن خفيف رضي الله تعالى عنه.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: الصحو رجوع إلى الإحساس بعين[٢] الغيبة، والسكر غيبة بوارد قويّ، وله زيادة على الغيبة من وجه، وتكلم على ذلك ثم قال: والغيبة قد تكون للعباد بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة ومقتضيات والخوف والرجاء، والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد، فإذا كوشف العبد بنعت الجمال، حصل السكر وطرب الروح وهام القلب[٣]، وفي معناه أنشدوا:

فصحوكَ من لفظي هو الوصل كله ... وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢) في الرسالة القشيرية ص ٧١: بعد.

(٣) هام القلب: أي سقط التميز بين ما يؤلم وما يلذ له، فالتجليات الجمالية وشهود الصفات الكمالية إذا استولت على العبد بحيث لا يشهد سوى الحق، تصير الأشياء بالنسبة إليه شيئاً واحداً، فحينئذٍ لا يميز بين الأشياء الغلبة رؤية ما للحق عليه.

فمـــا مـــلّ ســـاقيهـــا ولا مـــلّ شـــاربٌ عقـــار لحـــاظ كـــأســـهِ يسكـــر القلبـــا[1]

قال: ومن كان محقاً في حاله كان محفوظاً في سكره، والشكر والصحو يسيران إلى طرف من التفرقة، فإذا ظهر من سلطان الحقيقة علم فصفة العبد النور والقمر[2]، وفي معناه أنشدوا:

إذا طلـــــعَ الصبـــــاحُ لنجـــــمٍ راحَ تســـــاوى فيـــــه سكـــــران وصـــــاحـــــي

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا**﴾ [الأعراف: ١٤٣] هذا مع رسالته خر صعقاً وهذا مع صلابته وقوته ظل دكا منكسراً، فالعبد في حال سكره يشاهد الحال، وفي حال صحوه بشرط العلم، إلا أنه في حال سكره محفوظ لا يتكلفه، وفي صحوه متحفظ بتصرفه، والصحو والسكر بعد الذوق والشرب.

قلت: ومن حكايات أهل السكر، ما حكي أنه كان الشيخ الكبير العارف سيدي أحمد بن الرفاعي قدس الله تعالى روحه يقرأ القرآن وهو شاب على الشيخ العارف علي ابن القارىء الواسطي رضي الله تعالى عنه، فصنع شخص طعاماً ودعا إليه الشيخ علي ابن القارىء وأصحابه وجمعاً آخرين من المشايخ والقراء وغيرهم، فلما أكلوا من الطعام وكان معهم قوال، فشرع يغني بدف[3] في يديه وسيدي أحمد جالس عند نعال القوم، ونعل الشيخ ابن القارىء معه، فلما طاب القوم واستراحوا وتواجدوا وثب سيدي أحمد إلى القوال وخسف الدف الذي كان معه، فالتفت المشايخ إلى الشيخ ابن القارىء وناقروه فيما صدر من سيدي أحمد وقالوا له: هذا صبي ما لنا معه مطالبة، المطالبة عليك، فقال لهم الشيخ ابن القارىء: اسألوه فإن أتى بالجواب وإلا عليّ المطالبة، فالتفتوا إليه وقالوا: لم كسرت الدف، فقال لهم: أي سادة نرجع إلى أمانة القوال يخبرنا بما خطر بباله، فإيش قال اتبعناه، فسألوا القوال عما خطر بباله فقال: إني كنت بارحة أمس عند أقوام يشربون، فسكروا وتمايلوا كتمايل هؤلاء المشايخ، فخطر لي أن هؤلاء كأولئك، فلم يتم خاطري حتى قام هذا الصبي وخسف الدف، فعند ذلك نهض المشايخ إلى سيدي أحمد وقبلوا يده واعتذروا إليه.

قلت: وإنما تمايلوا بشراب المحبة الذي أشار إليه الشيخ الكبير العارف أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه لما قيل له: ما شراب الحب، وما كأس الحب؛ ومن الساقي وما الذوق، وما الشرب، وما الري، وما السكر، وما الصحو؟ فقال: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب، والكأس هو اللطف الموصل إلى أفواه القلوب، والساقي هو المتولي الخصوص الأكبر والصالحين من عباده وهو الله سبحانه العالم بالمقادير ومصالح أحبابه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظي بشيء منه نفساً أو نفسين ثم أرخى عليه الحجاب فهو الذائق المشتاق، ومن دام له ذلك ساعة أو

---

(١) في الرسالة القشيرية ص ٧١: اللبا.

(٢) في الرسالة القشيرية ص: عُلم أن صفة العبد الثبور والقهر.

(٣) الدُّفّ: آلة للطرب تُصنع على هيئة إطار من خشب خفيف يُشد عليه جلد رقيق، وقد يكون بجوانبه صنوج نحاسية، وهو من آلات الإيقاع. (ج) دفوف.

ساعتين فهو الشارب حقاً، ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله تعالى المخزونة فذاك هو الري، وربما غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدري ما يقال ولا ما يقول، فذاك هو السكر، وقد تدور عليهم الكؤوسات وتختلف لديهم الحالات ويردون إلى الذكر والطاعات ولا يحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات، فذاك وقت صحوهم واتساع نظرهم ومزيد علمهم، فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون في ليلهم، وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون. انتهى كلامه.

وقال بعض الشيوخ الكبار العارفين: المحبة أخذة من الله قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقدس كمال جلاله، ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب، فيسقى كل منهم على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة والله سبحانه يتولى ذلك، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء الأكابر من المقربين والصديقين العارفين، فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد بالذوق وبعد بالشرب وبعد بالري وبعد بالسكر بالمشروب، ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى: كما أن السكر أيضاً كذلك. انتهى كلامه.

وفي السكر برؤية الكأس قلت:

حميا برؤيا كأسها سكر ناظر	فكيفَ بمن من تلك بالكاسِ يشربُ
بها شاربُ للراحِ كل مشاهد	جمال جلال ليس عن ذاك يحجبُ

وقد أشرت أيضاً إلى ذلك وإلى أن الحميا المذكورة معصورة من كرم نور الجمال معبراً عن السادات العارفين حيث قلت فيما تقدم نائباً عن لسان الحال:

شربت حمياً الحب في قدسٍ حضرة	وأكرم بها في حضرة القدس من خمرِ
لنا عُصرت من كرم نور جمال من	سقانا وقد غبنا وحرنا فما ندري
سكرنا بها من شمها قبل شربها	نشاوي بريـاها إلى آخر الدهرِ
أو السكر جاء من رؤية الكأس أو أتتْ	به رؤية الساقي إلينا ذوي السكرِ

وقلت أيضاً في أخرى في ذلك المعنى:

جمال حميا حبهِ منْ يشمها	يميل به قبل ارتشافِ المغارف
فهم بين مُشتاق وباكٍ وضاحكٍ	سروراً وصراخ وراج وخائف
لذكر اللقاء والهجر والوصلِ والجفا	وقرب وبعد ناشر جمع لافف

وهذان البيتان مشتملان على المقابلة واللف والنشر مرتباً، فالأول من البيت الثاني يعود على الأول من البيت الأول، والثاني من الثاني على الثاني من الأول، وكذا الثالث على الثالث وهلم جرا إلى السادس، فمشتاق للقاء، وباك للهجر، وضاحك للوصل، وصراخ للجفا، وراج للقرب، وخائف للبعد، وقولي ناشر جمع لافف فيه معنيان: أحدهما أن البعد ناشر للجمع اللاف: أي اللازم للفرقة، أو إرادة البعد موجبة للفرقة، فكأنها نشرت تلك الجمعية: أي فرقتها. والمعنى الثاني إشارة

إلى صنعة اللف والنشر في هذين البيتين. وفي شراب المحبة المذكورة أنشدنا الشيخ السيد الجليل المشهور ناصر الدين لوالده الشيخ الكبير العالم الرباني ذي المقام الرفيع العالي إبراهيم بن معضاد الجعبري رضي الله تعالى عنهما:

أحنّ إلى لمع السراب بأرضكم ... فكيفَ إلى ربعٍ به مجمع الشرب
فوا أسفي دونَ السراب وإنني ... أخاف بأنْ يقضً على ظمئي نحبي
ومذ بان ذاك الركبُ عني لم أزل ... أعفر مني الخد في أثر الركب

[الحال الثامن: الوصول] قال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: العلماء أربعة: تائب، وزاهد، ومشتاق، وواصل، فالتائب محجوب بتوبته، والزاهد محجوب بزهده، والمشتاق محجوب بحاله، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء.

قلت: وقد تقدم أن الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار. وهذا قول أبي الحسين النوري رضي الله تعالى عنه، وقد تقدم أيضاً: الواصلون في ثلاثة أحرف: همهم الله، وشغلهم الله، ورجوعهم إلى الله. وهذا قول أبي يزيد رضي الله تعالى عنه وقول بعضهم: أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاطر لغيره صانعه، وقد ذكرت معنى الوصول من كلام الإمام العارف المحقق الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه في النوع الثاني من الفصل الثاني من هذا الكتاب لأمر اقتضى ذكره هناك، فانظر ثم تجد كلاماً عزيزاً نفيساً.

قلت: ومن حكايات أهل الوصول، ما حكي عن السريّ رضي الله تعالى عنه أنه اجتمع ببعض العارفات، فكان له معها مخاطبات ومساءلات، ولم يكن عرفها ولا عرفته قبل ذلك، قال: فقلت لها يا جارية، فقالت لبيك يا سري، فقلت من أين عرفتيني؟ قالت ما جهلت مذ عرفت، ولا فترت مذ خدمت، ولا انقطعت مذ وصلت، وأهل الدرجات يعرف بعضهم بعضاً، قلت أسمعك تذكرين المحبة، فلمن تحبين؟ قلت لمن تعرف إلينا بنعمائه، وجاد علينا بجزيل عطائه، فهو قريب إلى القلوب، مجيب لطلب المحبوب وأنشدت تقول:

ألبستني ثوبَ وصلٍ طابَ ملبسهُ ... فأنت مولى الورى حقاً ومولاي
كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
ومن غص داوى بشرب الماء غصته ... فكيفَ يصنع من قد غصَ بالماء
قلبي حزينٌ على ما فاتَ من زللي ... والنفس في جسدي من أعظم الداء
والشوق في خاطري مني وفي كبدي ... والحب مني مصون في سويدائي
إليك منك قصدت الباب معتذراً ... وأنت تعلم ما ضمنه أحشائي

وحكي عن خير النساج قال: كنا في المسجد فجاء السبلي رضي الله تعالى عنه في سكره، يعني في حال ورد عليه، فنظر إلينا ولم يكلمنا، وهجم على الجنيد رضي الله تعالى عنه وهو جالس في بيته وعنده زوجته، فأرادت أن تستتر فقال لها الجنيد لا عليك هو غائب لا علم له بك، فصفق الشبلي على رأس الجنيد، وأنشأ يقول:

عودوني الوصال والوصل عذب ورموني بالصدِ والصد صعبِ
زعموا حينَ عاينوا أنَّ ذنبي فرط حبي لهم وما ذاك ذنبِ
لا وحسن الخضوع عند التلاقي ما جزا منْ يحب إلاّ بحبِ

فاهتز الجنيد وقال: هو ذاك يا أبا بكر، فخر مغشياً عليه، ثم بعد ساعة بكى الشبلي، فقال الجنيد لامرأته: استري عنه فقد أفاق.

وأنشد آخر:

ما عودوني أحبائي مقاطعة بل عودوني إذا قاطعتُهم يصلوا

وقلت في بعض القصائد بعد ذكري نعيم أهل الجنة من الحور والقصور، وسائر التحف والسرور، وكمال ذلك بالنظر إلى الملك الغفور شعراً:

أيا ساعةَ فيها السعادات تجتلي على وجهها در العنايات ينشُر
ويا ساحة فيها المفاخر ترتقي علاها وخلعات الكرامات تنشرُ
سألتكُما بالله هل مع أحبة لنا فيكما يومَ التزاورِ محضرُ
وهَلْ أنعمت نعمي بنعمان باللقا لنا أم نوت في سرمد الدهر تهجر
فإنْ واصلتنا فالمكارم وصفها وإنْ قاطعتنا نحن أدنى وأحقر

[الحال التاسع والعاشر: الفناء والبقاء][1] قال الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة، فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات، وهذا تقتضيه التوبة النصوح، وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل، وهذا تقتضيه تزكية النفس، وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه، ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد، فيغلب كون الحق سبحانه على كون العبد، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر، وفناء باطن، فالفناء الظاهر هو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً إلا بالحق سبحانه، ثم يأخذ في المعاملة مع الله سبحانه وتعالى بحسبه، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياماً لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له، فعل الحق تعالى فيه، ويقيض الله سبحانه له من يطعمه ويسقيه، كيف شاء وأحب، وهذا لعمري فناء لأنه فني عن نفسه وعن الغير نظر إلى فعل الله بفناء فعل غير الله، والفناء الباطن أن يكاشف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولي على باطنه أمر الحق تعالى حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس، وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق، ثم قال بعد كلام كثير في الفناء: ويكون من أقسام الفناء أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله تعالى، وينتظر الإذن في كليات أموره ليكون في الأشياء

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٧ ـ ٦٩.

بالله سبحانه لا بنفسه فتارك الاختيار منتظرا لفعل الحق فان، وصاحب الانتظار لإذن الحق في كليات أموره راجعاً إلى الله تعالى بباطنه في جريانها فان، ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد، لا منتظراً للفعل ولا منتظراً للإذن، هو باق، والباقي في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق، والفاني محجوب بالحق عن الخلق، والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال، والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال، وصار بالله عز وجل لا بالأحوال، وخرج من القلب فصار مع مقلبه لا مع قلبه. انتهى كلامه، وهو كلام عزيز نفيس من إمام عارف محقق.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه بعد كلام طويل في الفناء والبقاء: ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً، ولا رسماً ولا طللاً، يقال إنه فني عن الخلق وبقي بالحق، ففناء العبد عن أحواله الذميمة وأفعاله الخسيسة بعدم هذه الأفعال، وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم، فإذا فني عن الأخلاق والأحوال والأفعال فلا يجوز أن يكون ما فني عنه من ذلك موجوداً، وإذا فني عن نفسه وعن الخلق فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين، ولكنه لا علم له بهم ولا به، ولا إحساس ولا خبر انتهى كلامه.

قلت: هذا الذي ذكره الإمام أبو القاسم المذكور من عدم إحساسه بنفسه وبالخلق محمول على بعض أقسام الفناء، لا أن كل فان كذلك على الإطلاق، ويدل على ذلك قوله أولاً: ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً ولا رسماً ولا طللاً ومفهوم ذلك أن من لم يستول عليه سلطان الحقيقة الاستيلاء المذكور لا يلزم أن يتصف بعدم الإحساس المذكور؛ وقد علم ذلك فيما تقدم من كلام الإمام شهاب الدين المذكور، أعني قوله: وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه.

وقد ذكر بعضهم أن من جملة الفناء ما جرى من موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام عندما تجلى ربه للجبل.

وقال شهاب الدين المذكور: ومن الإشارة إلى الفناء ما روي أن عبد اللّٰه بن عمر رضي الله تعالى عنهما سلم عليه إنسان وهو في الطواف فلم يرد عليه، فشكاه إلى بعض أصحابه، فقال له: كنا نترايا الله سبحانه في ذلك المكان.

قلت: وقد ذكر أهل السلوك أن أقسام الفناء ثلاثة، وإليها أشار قائلهم:

وقـوم تـاه فـي أرضٍ بقفـر   وقـوم تـاه فـي ميـدانِ حُبـهِ
فـأفنـوا ثـم أفنـوا ثـم أفنـوا   وأبقـوا بـالبقـاء مـنْ قـربِ ربـهِ

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: فالأول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق، ثم فنائه عن صفات الحق بشهود الحق، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجوه الحق تعالى وتقدس.

قلت: وهذا أيضاً كلام نفيس من إمام محقق.

ومن حكايات أهل الفناء: ما حكي عن مسلم بن يسار[1] رضي الله تعالى عنه أنه كان في الصلاة، فوقعت أسطوانة في الجامع انزعج لهدتها أهل السوق، فدخلوا المسجد فرأوه في الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقوعها.

قلت: وأعظم من هذه الحكايات ما حكي عن عروة بن الزبير[2] رضي الله تعالى عنهما، أنه قطعت رجله وهو في الصلاة ولم يحس بذلك، وكان قطعها بسبب أكلة[3] حدثت فيها، فقال الحكماء إن لم تقطع رجله مات منها، فقالت أمه رضي الله تعالى عنها: دعوه حتى يدخل في الصلاة ثم اقطعوها؛ ففعلوا به ذلك ولم يشعر لقوة استغراقه في الله تعالى وفنائه بالكلية.

قلت: وقد حكى الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه في بعض تصانيفه نحواً من هذه الحكاية عن بعض المشايخ، إلا أنه قطعت رجله في حال السماع.

قلت: ومن حكايات أهل البقاء ما حكي عن يحيى بن معاذ الرازي رضي الله تعالى عنه، أنه كتب إلى أبي يزيد رضي الله تعالى عنه: إنني سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب إليه أبو يزيد غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روي بعد ولسانه خارج وهو يقول هل من مزيد، وأنشدوا في المعنى:

عجبتُ لمنْ يقول ذكرت ربي ... وهل أنسى فأذكر ما نسيتُ
شربتُ الحبَ كأساً بعد كأسٍ ... فما نفد الشراب ولا رويتُ

قلت فهذا ما اختصرت عليه في شرح هذه القصيدة، وقد كررت شرح المقامات المذكورات، فيها أربع مرات: مرة قبل القصيدة بنحو من ورقة نثراً موجزاً في نحو ثمانية أسطر؛ ثم نظمته في القصيدة ثانياً في تسعة أبيات، ثم شرحته ثالثاً شرحاً مختصراً في نحو ثلاث ورقات، ثم بسطته رابعاً منعطفاً على تكميله بين الكتاب والسنة وأقوال الشيوخ العارفين صفوة الأمة في نحو ثلاث كراريس، وكذلك الأحوال كررت شرحها مرتين مختصراً ومبسوطاً.

وقد رأيت أن أردف القصيدة المذكورة المشتملة على العشرين من المقامات والأحوال المشكورة، بقصيدة مشتملة على عشرين من الخصال الحميدة، منها العشرة المقامات المتقدم ذكرها، وعشرة أخرى مما يحتاج إليه السالك غيرها، وهي هذه القصيدة المسماة بتشبه نفوس البرايا في

---

(١) هو مسلم بن يسار الأموي بالولاء (توفي ١٠٨ هـ/ ٧٢٦ م) أبو عبد اللّه، فقيه، ناسك من رجال الحديث. أصله من مكة، سكن البصرة، فكان فقيهاً، وتوفي فيها. الأعلام ٧/ ٢٢٣، وتهذيب التهذيب: ١٠/ ١٤٠، وحلية ٢/ ٢٩٠.

(٢) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ٢٢٦، وفي ابن خلكان ١/ ٣١٦.

(٣) الأَكَلَةُ: مرض يحس معه صاحبه برغبة في حك جسمه.

تعويدها بالمطايا، ونيل الأولياء السادات في مخالفات العادات عالي المقامات وغالي الكرامات، فقلت والله سبحانه الموفق:

نفوسُ البرايا كالمطايا يقودُها ... إذا عوّدت في كل شيء تطاوعُ
فنفسك عودها حميداً من التُّقى ... وعلم وآداب لها الزهد رابعُ
وصبر وشكر والتوكل والسخا ... ومع ورع فقر به العبد قانع
ومع عزلة ذكر وسابق توبة ... وخوف وعيد وهو في العفوِ طامع
وصدق وإخلاص وحُسن استقامة ... وكُن راضياً فيما بك الحق صانعُ
وخاتمة العشرين زين خصالها ... تواضع فللعبدِ التواضع رافعُ
فهذى قليل من مقامات سالك ... لسلاكها نور مدى الدهر لامع
وما سارها إلا جواد مضمر ... سريع مريد للعلائقِ قاطعُ
طريق لسادات لهم عند قطعها ... وصال لمجموع السعادات جامعُ
ملوك بجناتِ المعارفِ عيشهم ... هنيٌّ وأنوارٌ عليهم سواطعُ
وأسرار عيب أودعت في قلوبهم ... لهم كل شيء خاضع ثم طائعُ
بحضرة قدس قربوا ثم شاهدوا ... جمالاً فهاموا عند ما فيه طالعُ
سُكارى بلا خمر حيارى بلا عمى ... مراض بلا سقم وما العذل نافعُ
صفات تجلت للقلوب فحيرت ... عقولاً وفاضت للعيون مدامعُ
إلٰهي بجاه القوم منّ تفضلا ... على اليافعي فالفضل عنك واسعُ
وصل على تاج العلي سيد الملا ... غياث البرايا للخلائق شافعُ

قلت: وها أنا أشير إلى شيء من شرح ما لم يتقدم شرحه في القصيدة التي قبلها على وجه الاختصار، فأقول والله سبحانه ولي التوفيق:

قولي نفوس البرايا كالمطايا يقودها ... إذا عودت في كل شيء تطاوع

النفوس جمع نفس، وفي ماهية النفس أقوال لا حاجة إلى التطويل بتعدادها: منها قول بعض العارفين إنها لطيفة مودعة في هذا القالب، هي محل الأخلاق المذمومة. والبرايا: الخلق جمع بريه مهموز وغير مهموز على خلاف معروف في ذلك وفي اشتقاقه والمطايا جمع مطية وهي أيضاً معروفة كثيرة الاستعمال في لسان الفصحاء، قال عباس بن مرداس[١].

---

(١) العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي (توفي نحو ١٨ هـ/نحو ٦٣٩ م) من مضر، أبو الهيثم، شاعر فارس، من سادات قومه. أمه الخنساء الشاعرة. أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم قبيل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم ويُدعى فارس العُبيد. وكان بدوياً قحاً، وإذا حضر الغزو مع النبي ﷺ لم يلبث بعده أن يعود إلى منازل قومه. مات في خلافة عمر: جُمع ما بقي من شعره في ديوان. الأعلام ٣/٢٦٧، وشرح شواهد المغني ٤٤، وتهذيب التهذيب ٥/١٣٠، والإصابة ت ٤٥٠٢.

إذ ما أتيتَ على الرسولِ فقل لهُ حقا عليك إذا اطمأن المجلسُ
يا خيرَ من ركبَ المُطي ومن وطي فوقَ التراب إذا تعد الأنفسُ

وكذلك بقية ألفاظ البيت المذكور معروفة، أعني القود والتعويد والمطاوعة، والمعنى في كذلك تشبيه النفوس بالمطايا في كون كل واحدة منهما إذا عودت شيئاً أطاعت وانقادت إليه، وإن كانت قبل ذلك جموحاً عاصية كما قيل:

هي النفس ما عودتها تتعود

وفي ذلك قلت:

تعود فُعالُ الخير مع كل فاعلٍ بتبديدِ طبع للتبدلِ قائلِ
فنفسُ الفتى إنْ راضها مهرة بها بجاهٍ وعزٍ واكتسابِ فضائلِ
وإنْ لم يرضها كلب مزبلة بها هلاك وذل واكتساب رذائل

قلت: ومن جملة انقياد المطايا وطاعتها، ما حكى بعض العلماء أن فأرة جرت خطام بعير فتبعها ولم يزل يمشي بعدها إلى أن دخلت جحرها، فوقف لما لم يقدر يدخل فيه.

قلت: وهذا من جملة عظيم لطف الله الكريم بعباده في تسخير الأنعام لهم وتذليلها إلى أن بلغت في التذلل والانقياد إلي هذا الحد، وقد ذكر سبحانه وتعالى امتنانه على عباده بذلك في غير موضع من كتابه العزيز كقوله عز وجل: ﴿وذللناها لهم﴾ [يس: ٧٢] وقوله تبارك وتعالى معلماً لنا ذكر نعمة والثناء عليه، والتنزيه له في معرض التعظيم لعظمته والاعتراف بالعجز، وانقياد كل شيء لقدرته جل وعلا: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف: ١٢] وقولي:

فإنْ عودوها الخيرَ جاءتْه عادة وإنْ عودوها الشر جاءت تسارعُ

أعني أن النفوس إذا عودت فعل الخير جاءته مجيئاً يصير لها عادة مستمرة يشق عليها تركها، لأن الله تعالى قد أجرى العادة بتأثير العادة، وإن عودت الشر جاءت إليه مسارعة لأمرين: أحدهما ما جبلت عليه من الأوصاف الذميمة المحتاجة في إزالتها وتبديلها بالأوصاف الحميدة إلى الرياضة والمجاهدة الشديدة، والثاني ما ذكرت من تأثير العادة وقولي:

فنفسك عودها حميداً من التُّقى وعلم وآداب لها الزهد رابعُ

أول هذا البيت منصوب بإضمار فعل، فإذا كانت النفس كما ذكرت فعود نفسك وصفاً حميداً من جميع هذه الخصال الحميدة، ثم ذكرتها إلى آخرها في خمسة أبيات من غير التزام ترتيب بينها لعسر إقامة الوزن في مراعاة الترتيب، وقد اشتمل هذا البيت المذكور على أربع خصال منها، وهي التقى، والعلم، والأدب، والزهد. فأما الزهد فقد تقدم شرحه في شرح القصيدة المتقدمة، وأما الثلاث

فلعمري أنها تحتاج في بيان تفضيلها وتفصيلها وإيضاحها الوافي وشرحها الشافي إلى تصنيف مستقل بل كل واحد منها يحتاج في ذلك إلى ذلك، وها أنا أنبه في هذا المختصر عليها بألفاظ يسيرة على مقتضى ترتيبها في هذه القصيدة.

[فأولها: التقى][1] اعلم أن تقوى الله تعالى هي القطب الذي عليه مدار السعادة، والأصل الذي لا يصح البناء إلا عليه في العادة، والسعادة محلها العاقبة، وقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨] والأصل الذي يصح عليه بناء العمل حتى يتم ويقبل هو تقوى الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: ٢٧].

قلت: ولعمري أن هذا الأصل المذكور، هو الأصل الذي لا ينهدم البناء عليه على تعاقب الدهور، إذ هو أصل الدين الذي صاحبه لا يزال يرتقي في رياض السرور والنعم، ويرتقي في مراقي أعلى الشرف والكرم، المباينين لنعيم الدنيا وشرفها الحقير الزائل الذي قال وأحسن فيه القائل:

أرى طالب الدنيا وإنْ طالَ عمره ... ونالَ من الدنيا سروراً وأنعما
كبانٍ بنى بنيانه فأتمهُ ... فلما استوي ما قد بناهُ تهدما

قلت: وناهيك في شرف التقوى قوله عز وجل: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] وكونها وصية رب العالمين لعباده الأولين والآخرين، قال سبحانه ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ [النساء: ١٣١] وسبباً لمخرج العبد من كل محذور به غير المتقي ينعطب ورزقه من غير تعب ولا هم من حيث لا يحتسب، قال الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٢] وعن أبي سعيد الخدري[2] رضي الله تعالى عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أوصني، فقال: عليك بتقوى الله، فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله فإنه نور لك»[3] وقال ﷺ: «اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[4] رواه الترمذي وقال حديث حسن.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٠٤ ـ ١٠٩.

(٢) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي (١٠ ق هـ ـ ٧٤ هـ/ ٦١٣ ـ ٦٩٣ م) أبو سعيد صحابي، كان من ملازمي النبي ﷺ وروى عنه أحاديث كثيرة. غزا اثنتي عشرة غزوة. وله ١١٧٠ حديثاً توفي في المدينة. الأعلام ٣/ ٨٧، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤٧٩، وصفة الصفوة ١/ ٢٩٩، وحلية ١/ ٣٦٩.

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ٨٢)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٥٣٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٩٩، ٢٣٣)، وابن كثير في (التفسير ٨/ ٥٧)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٧/ ٣٩٣).

(٤) أخرجه الترمذي في (السنن ١٩٨٧)، وأحمد بن حنبل (٥/ ١٥٣ و٢٣٦ و١٥٨ و١٧٧)، والدارمي في (السنن ٢/ ٣٢٣)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٥٤) والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ١٩٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٣٧٨) وابن كثير في (التفسير ٢/ ١٧٧، ٢٨٩٤)، والزبيدي في (إتحاف =

وفي بعض نسخه المعتمدة: حسن صحيح. وعن أنس[1] رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ «سئل من آل محمد؟ فقال كل تقي»[2].

وقد تكلم الشيوخ في التقوى، فقال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: التقوى جماع الخيرات، وحقيقة التقوى التحرز بطاعة الله تعالى عن عقوبته، يقال اتقى فلان بترسه.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: أصل التقوى اتقاء الشرك، ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعده اتقاء الشبهات، ثم تدع بعده الفضلات.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ [آل عمران: ١٠٢] أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال أبو علي الردياني[3] رضي الله تعالى عنه: التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: التقي من لا يدنس ظاهره بالمعارضات، ولا باطنه بالعلالات[4]، ويكون واقفاً مع الله تعالى موقف الاتفاق.

وقال أبو العباس بن عطاء رضي الله تعالى عنه: للتقوى ظاهر وباطن، فظاهره مخافة الحدود، وباطنه النية والإخلاص.

وقال أبو عبد اللّه محمد بن سهل رضي الله تعالى عنه: من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[5] رضي الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه أنه قال: سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأنبياء[6].

قلت: ومن حكايات أهل التقى، ما تقدم عن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه، أنه رجع

= السادة المتقين ٥/ ٥١٢، ٨/ ٥١٨، ٥٧٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٦٢٩، ٤٣٢٩٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٧٦).

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٢/ ٢٤ ـ ٢٥، وطبقات ابن سعد ٧/ ١٠، وتهذيب ابن عساكر ٣/ ١٣٩.

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٧/ ٦٩، ١٠/ ٢٦٩)، والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ١١٥)، والقاضي عياض في (الشفا ٢/ ١٨٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ١٨٣)، وابن كثير في (التفسير ٣/ ٥٩٢).

(٣) في الرسالة القشيرية ص ١٠٦: قال أبو بكر محمد الروذباري.

(٤) في الرسالة القشيرية ص ١٠٦: بالعلامات.

(٥) علي بن أبي طالب (٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ/ ٦٠٠ ـ ٦٦١ م) هاشمي قرشي. رابع الخلفاء الراشدين وأول العشرة المبشرين. وابن عم النبي وصهره. ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء وأول الرجال إسلاماً. ولد بمكة. (الرسالة القشيرية ص ١٠٨).

(٦) في الرسالة القشيرية ص ١٠٨: الأتقياء.

من بيت المقدس إلى البصرة[1] لرد تمرة، وسبب ذلك ما حكي واشتهر عنه أنه قال: بت ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس، فلما كان بعض الليل نزل ملكان فقال أحدهما لصاحبه من هاهنا؟ فقال الآخر إبراهيم بن أدهم، فقال ذلك الذي حط الله درجة من درجاته، فقال لم؟ فقال لأنه اشترى من البصرة تمراً فوقعت تمرة من تمر البقال على تمره، قال إبراهيم فمضيت إلى البصرة، واشتريت تمراً من ذلك وأوقعت تمرة على تمره، ورجعت إلى بيت المقدس[2]، فبت في الصخرة في الصحن، فلما كان بعض الليل إذا أنا بملكين نزلاً من السماء، فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال إبراهيم بن أدهم ذلك الذي رد إلى مكانه ورفعت درجته.

وحكي أن أبا يزيد رضي الله تعالى عنه غسل ثوبه في الصحراء مع صاحب له، فقال صاحبه نعلق الثياب في جدران الكروم، فقال لا تغرز الوتد في جدار الناس، فقال نعلق في الشجر: فقال لا إنه يكسر الأغصان، فقال نبسطه على الإذخر[3]، فقال لا إنه علف الدواب لا تستره عنها، فولى ظهره إلى الشمس والقميص على ظهره حتى جف جانب، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر.

وحكي أن ابن سيرين اشترى أربعين جباً[4] سمناً، فأخرج غلامه فارة من جب، فسأله من أي جب أخرجتها؟ فقال: لا أدري، فصبها كلها.

وأنشد ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه:

ولا عيـش إلاّ مـع رجـال قلـوبهـم ... تحـنُ إلـى التقْـوى وتـرتـاحُ بـالـذكـرِ

قلت: وقد أشار بعض الناس إلى قوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٢] بهذين البيتين:

ومــنْ يتــقِ الله يجعــل لــهُ ... كمـا قـال مـن أمـرهِ مخـرجـا
ويـرزقـهُ مـن حيـث لـم يحتسـبْ ... وإنْ حـل ضيقـاً بـه فـرجـا

وقلت في بعض القصائد بيتين: الأول منهما مشتمل على مضمون البيتين المذكورين جميعاً، وعدد كلماته كعدد كلمات الآية الكريمة، ولكن أين كلام الخلق من كلام الخالق سبحانه وتعالى، ففضل كلام الله كفضل الله على سائر خلقه، وهما هذان:

---

(١) البصرة: مرفأ في العراق على شط العرب، ومنه يصدّر بترول العراق بحراً. ازدهرت في القرن التاسع أيام العباسيين. وكان مع الكوفة مهداً للدروس اللغوية العربية، وهي مسقط رأس حسن البصري والأشعري والحريري. (الرسالة القشيرية ص ١٠٨).

(٢) بيت المقدس: مدينة في فلسطين يقدسها اليهود والمسيحيون فيحجون إليها من جميع الأقطار (الرسالة القشيرية ص ١٠٧).

(٣) الإذخر؛ العشب الأخضر.

(٤) في الرسالة القشيرية ص ١٠٦: حبَّاً، الحب: نوع من المكاييل، كان يستعمل قديماً وهو بمقدار جرة كبيرة أو خابية.

عليك بتقوى الله يخرجك من ردى | ويرزقكَ من غيبٍ وأنتَ مروح
هي العروةُ الوثقى هي الخير كله | هي الربحُ كل الربحِ يا مترنح

وقلت أيضاً في بعض القصائد:

ألا إنَّ تقوى الله خير بضاعة | لصاحبها ربح به ليسَ يخسرُ
وطاعته للمُتقي خير حرفة | بها يكسب الخيرات والسعي يشكر
وإذا أصبح البطال في الحشر نادماً | يعضُ على كف أسى يتحسرُ
وطوبى لمنْ يُمسي ويصبحُ عاملاً | على كل شيء طاعة الله يؤثرُ
بها يعمر الأوقات أيامَ عُمرهِ | يُصلي ويتلو للكتاب ويذكرُ
ويأنسُ بالمولى ويستوحش الورى | ويشكر في السر وفي الضر يصبرُ
ويسلو عن اللذات بالدون قانع | نقي لهُ قلب نقيّ منورُ
حزين نحيل جسمه ضامرَ الحشا | يصومُ عن الدنيا على الموتِ يفطرُ
ويرتاح شوقاً للأحبة واللقا | وخديه من فرط الغرام يعفرُ
إذا ذكرتْ جنات عدنٍ وأهلها | يذوبُ اشتياقاً نحوها ويشمرُ
ويعلو جواد العزم أدهم سابقاً | وأبيض مجنوباً عن النور يسفرُ(١)
فأدهم يسقى ماء عين وأبيضا | لصبر على قطع الفيافي يضمرُ
ويركضُ في ميدانٍ سبق إلى العلا | ويسري إلى نيلِ المعالي ويسهرُ
فمجد العلا ما ناله غير ماجد | يخاطر بالروح الخطير فيظفرُ
وإني إلى أمر أنا فيه آمر | لأحوج من غيري إليه وأفقرُ

قلت: والمراد بالجواد الأدهم الليل، وبالأبيض المجنوب النهار.

وفي تقوى أهل المراقبة والحضور، والمجاهدة المفضية إلى كشف الحجاب والقرب من الأحباب والمشاهدة، أنشدني الشيخ الجليل جمال الدين الحويزاي رضي الله تعالى عنه لنفسه:

فلو في التُّقى أحسنت يا نفس عفة | فروج هواك عن فجورِ التفرقِ
تمثل روح القدس في الحالِ ملقيا | عليك كشوفات بنفخٍ محققِ

قلت: فهذا ما اقتصرت عليه من الكلام في التقوى مع أني كما قيل:

وغير تقي يأمرُ الناسَ بالتُّقى | طبيب يُداوي الناس وهو عليلُ

[والثانية من الثلاث الخصال المذكورات: العلم] قد تظاهرت الدلالات من الآيات الكريمات والأحاديث النبويات وإجماع علماء لأقطار من البوادي والأمصار في جميع الأعصار على فضل العلم وشرفه، ويكفي مما جاء في ذلك قوله عز وجل: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾

---

(١) الأدهم من الخيل والإبل وغيرها: الأسود.

[آل عمران: ١٨] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله سبحانه: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ [المجادلة: ١١] وقول رسول الله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء»(١) وقوله ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»(٢) وقوله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت يصلون على معلمي الناس الخير»(٣) وقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»(٤) وقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» وفي رواية «على أمتي»(٥).

قلت: وقد تقدم في الفصل التاسع قول الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: إن الإشارة إلى العالم المذكور في هذا الحديث ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعناق، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين، ثم قال في أثناء كلامه: وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٢٢٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٣/ ١٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٧١، ٣٣٨، ٤٥٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٨٦٧٩)، والقرطبي في (التفسير ٤/ ٤١، ١٣/ ١٦٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٨/ ٣٣٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٢٢، ٨٣) وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٢٤)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٣٠، ٢٤٧)، والسهمي في (تاريخ جرجان ٣٣٦).

(٢) أخرجه الألباني في (السلسلة الضعيفة ٦٦٦)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٠)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٤٧)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٨٣)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٧٨٦)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١١٣).

(٣) أخرجه السيوطي في (جمع الجوامع ٥٠٩٧)، والشجري في (الأمالي ١/ ٥٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١١)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله ١/ ٣٨).

(٤) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٦٨٢)، وابن ماجة في (السنن ٢٢٣)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٨٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٧٩، ٨١، ٨٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٨٧٩٥)، والقرطبي في (التفسير ١٧/ ٣٠٠)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧) وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٦٥)، والخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه ١/ ١٧).

(٥) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٦٨٥)، والدارمي في (السنن ١/ ٧٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ٢٧٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ٢٥١)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٥٣٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ١٠١)، والشجري في (الأمالي ١/ ٥٣، ٥٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٧٩، ٧/ ٢٥٧، ٨/ ٤٠١، ٤٠٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧، ٣/ ٢٢٠)، والقرطبي في (التفسير ٨/ ٢٩٦)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢١)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ١/ ٦٩)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ٥٢٦).

الفتوى والأحكام من بعضهم، يعني من بعض الصحابة. قال: والعلماء الزاهدون بعد الأخذ مما لا بد لهم منه، يعني فرض العين، أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنواراً تهيأت بها لإدراك العلوم، وصار العالم الرباني راسخاً في العلم. هذا كلامه بحروفه، وقد تقدم في الفصل المذكور كما ذكرت؛ وتقدم هناك أيضاً قوله: وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يبعد تحصيلها مع محبة الدنيا والإدلال بحقائق التقوى، وربما كان محبة الدنيا عوناً على اكتسابها، لأن الاشتغال بها شاق على النفوس، فجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة؛ حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف وسهر الليل، والصبر على الغربة والأسفار وتعذر الملاذ، وعلوم هؤلاء القوم: يعني الصوفية، لا تحصل مع محبة الدنيا، ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى، ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى، قال الله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [البقرة: ٢٨٢] انتهى. وهو أيضاً كلامه بحروفه. وإنما أعدت ذكر ذلك في هذا المكان أيضاً من أجل ذكر فضل العلم ها هنا، وذكر بعض الأحاديث الواردة في ذلك، وذكرته هناك من أجل الجواب عن السؤال عن العلماء بالله والعلماء بأحكام الله أيهم أفضل، واستدللت ثم على أفضلية العلماء بالله، أعني الأولياء العارفين بستة أدلة: ثلاثة عقلية، وثلاثة نقلية.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله عالي المقام، أستاذ الطريقة ركن الشريعة والحقيقة أبو القاسم الصقلي رضي الله تعالى عنه في كتاب الأنوار: خاصة الله من الناس أهل الإيمان، وخاصة أهل الإيمان العلماء وخاصة العلماء العارفون، وخاصة أهل المعرفة العقلاء، وهم العلماء بالله العاملون بأمر الله ونهيه، وإن قلت روايتهم، وقل في العلم نطقهم، وخمل في الناس ذكرهم، فبالإيمان تناول النجاة من النار، وبالعلم تنال الدرجات في الجنان، وبالمعرفة يقربون في المقعد الصدق؛ وبالعقل يفهمون عن الله الإشارة ويؤذن لهم في الشفاعة.

وقال أيضاً: ركعة من عارف أفضل من ألف ركعة من عالم، ونفس من أهل حقيقة التوحيد أفضل من عمل كل عارف وعالم.

وقال أيضاً: قل أن يخلو العالم بالأمر والنهي من الفخر والخيلاء ومحبة الشرف والذكر في المجالس حتى تقع له الحقيقة وهي الدرجة الثانية في المعرفة، وقل أن يخلو العارف بربه ومعرفة شرع دينه من الفلتة والفترة عن الذكر حتى يقع له علم الحقيقة وهي الدرجة الثانية في العلم، فإذا خرج من علم الأمر والنهي وهو العلم الأول الواجب على الخلق تعلمه إلى المعرفة باليقين وهي المعرفة الثانية، والأولى هي معرفة التصديق وبها قوام الإيمان، والثانية تحقيق اليقين، فإذا درج منها إلى علم التوحيد في حقيقة العلم بالله تعالى صحبه علم التقصير في كل واجب وترغيب وترهيب وتعبد وعبودية واستعباد ومعلوم ومقام ورتبة وموهبة وكرامة، وهذا هو العالم الذي يستغفر له ما في البر والبحر من رطب ويابس، ويستغفر له طير السماء وسكان الهواء وعمار أطباق العلا.

وقال أيضاً: كل مصدق بهذا العلم فهو من خاصة الحق، وكل من فهمه بعد التصديق فهو

خاص من الخاصة؛ وكل معبر عنه ناطق به فذاك النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا ينزف.

وقال أيضاً: من رأيتموه يزدري بالأولياء وينكر مواهب الأصفياء فاعلموا أنه محارب لله تعالى، مبعود مطرود عن حقيقة قرب الله.

وقال أيضاً: الفرق بين حال العالم بالأمر والعارف بالله أن العالم يدعوك إلى إقامة الفرض ورعاية الحد، والعارف يدعوك إلى الحياء والمراقبة، لأن حال العالم الورع والخشية، وحال العارف الشوق والمحبة.

وقال أيضاً: العلماء بالأمر أدلاء على طريق الحق لله، والعلماء بالله مرشدون على محجة الحقيقة إلى الله تعالى، ومن هاهنا ارتفع العلماء، بالأمر على أهل الإيمان درجات، وشرف العلماء بالله على العلماء بالأمر مقامات، لأن العالم بالله قد أحكم أمر الله ونهيه، وزاد بالمعرفة واليقين والتصبر في الدين والبصيرة في الدنيا والآخرة، فزهد في الدنيا بالحقيقة، ورضي عن الله، فتوكل على الله بالثقة به، واختار مولاه على كل شيء سواه والعالم بالأمر محبوس على حظه من الدنيا، محجوب بخوف الفقر منها، فإما أن يخرجه الحرص والرغبة إلى الحسد والبغي والذكر والشرف، فيصير حاملاً حجته على نفسه مطالباً بحق الله سبحانه عليه فيما علم، وإما أن يؤديه إلى التقاطع والتدابر والبدع والأحداث، أو يلقيه على حاله سالماً، أو يتلافاه الله تعالى بالورع والخشية والزهد والإنصاف والتضحية، فيلحق بدرجات العلماء بالله تعالى.

وقال أيضاً: لم يخرج الله سبحانه إماماً للصديقين حتى يجمع له العلمين في الظاهر والباطن، ويجعله هادياً مهدياً في الآخرين.

وقال أيضاً: إذا وقع لطالب العلم محبة الحظوة خف عليه طلب العلم وإنفاق المال فيه، وإذا وقع للمريد محبة الإشارة ثقل عليه طلب العلم وخف عليه بت الدنيا.

وقال أيضاً: تعرف هذه الأمة في الجنة بإشراق الوجوه، وتعرف أهل المعرفة منهم بالنور والجمال وحسن الهيئة، وتعرف أهل العلم بالله منهم بالنور والجمال وحسن الهيئة وارتفاع التيجان ومناطق العز الموشحة بنور العرش.

قلت: جميع ما ذكرته من كلامه هذا في فصل العلم بالله وأهله جمعته من مواضع متفرقة من كتابه المذكور: أعني كتاب الأنوار الذي تعظمه الكبار، وقد كان وقع بيني وبين بعض الفقهاء الصالحين من أصحابنا الشافعية منازعة في العارفين بالله من هم فذكر أنهم علماء الظاهر وعدد جماعة منهم، وربما عد الإمام محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه منهم، فقلت له بل هم علماء الباطن وعددت جماعة منهم معروف الكرخي وسري السقطي وأبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنهم، ثم افترقنا فلما كان بعد مدة أخرى أخبرني بعض الأخيار من أصحابه عنه أنه رأى الإمام النووي المذكور في المنام، وذكر له ما وقع بيني وبينه من المنازعة، فقال له: صدق، هم العارفون بالله تعالى ونحن العلماء العالمون بحكم الله تعالى، أو قال بشرع الله، أو كما قال رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

قلت: وإذا علم هذا فالأفضل بعد العلم بالله علم الفقه، لقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1] ولعموم حاجة الخلق إليه، ولكون معرفة العبادة وأحكام الشرع متوقفة على معرفته، والعلم بالله سبحانه تتوقف معرفته على معرفة المعبود وأسمائه وصفاته، ويحصل به كمال اليقين والإيمان وحياة القلب وابتهاجه بنور العرفان، وغير ذلك مما لا يمكن التعبير عنه باللسان.

قلت: ويكفيك في التفاوت بين فضل العلمين كون أحدهما صاحبه سكران بمحبة الله، والآخر صاحبه سكران بمحبة الدنيا، ثم العلم على قسمين: وهبي، وكسبي، والسكبي من حيث الجملة ينقسم إلى أقسام كثيرة أوضحتها وبينت حدودها وأحكامها في خاتمة كتاب سراج التوحيد، وبينت في آخر الباب الثاني في كتاب الإرشاد ما يجب تعلمه على المكلفين من العباد، ومن الأولى في حقه الاشتغال بفروض الكفايات، أو الاشتغال بنوافل العبادات، وقسمت الناس في ذلك إلى خمسة أقسام.

وقد روي عن الخضر عليه السلام أنه قال: العلماء كل من يخشى الله وكذلك قيل في قوله تعالى: ﴿إنا يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] أن المراد العلماء بالله، ومنه الحديث: «أعلمهم بالله أشدهم له خشية»[2].

وعن السيد الجليل سفيان بن عيينة رضي الله تعالى عنه أنه قال: أجهل الناس من ترك العمل ما يعلم، أعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى.

قال الإمام العارف بالله تعالى المحقق شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه بعد ذكر قول الإمام سفيان المذكور: وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم، لا يغرنك تشدقه واستطالته وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة فإنه جاهل: وليس بعالم إلا أن يتوب الله تعالى عليه. هذا بعض كلامه.

وقال السيد الكبير الولي الشهير العالم بالله تعالى الخبير الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه، كان العلماء ربيع الناس إذا رآهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنياً، وقد صاروا اليوم فتنة للناس.

وعنه أيضاً أنه قال: العلم والعالم طبيب الدين، والمال داء الدين، فإذا جر الطبيب الداء إلى نفسه فكيف يداوي غيره. وفي هذا المعنى أنشدوا البعض الفضلاء:

---

(١) أخرجه البخاري (علم ١٠)، (خمس ٧)، (اعتصام ١٠) ومسلم (إمارة ١٧٥)، (زكاة ٩٨، ١٠٠) والترمذي (علم ٤) وابن ماجه (مقدمة ١٧)، والدارمي (مقدمة ٢٤)، (رقاق ١) والموطأ (قدر ٨)، وأحمد بن حنبل ١/ ٣٠٦، ٢/ ٢٣٤، ٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١.

(٢) أخرجه البخاري (أدب ٧٢)، (اعتصام ٥)، ومسلم (فضائل ١٢٧، ١٢٨)، والدارمي (مقدمة ٣٢)، وأحمد بن حنبل (٦، ٤٥، ١٨١).

إنْ زادَ مالك لم تزددْ به قنعا وإنْ زادَ علمكَ لم تزدد به وجعا
باشرتَ دنياك مسروراً بلذتها وقد تركت التقى والزهد والورعا
وكيف ينفعُ علم منك سامعةُ ولا يراكَ بذاكَ العلم مُنتفعا

قلت: وقد شبه الله سبحانه وتعالى من لم يعمل بعلمه في محكم الآيات بالكلب والحمار اللذين هما أخس الحيوانات.

وعن السيد الجليل الإمام الحفيل الحسن البصري رضي الله تعالى عنه أنه قال: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا.

وفي فضل الفقه وأهله العاملين به قلت في القصيدة المسماة بالدر المنظوم في تقسيم أحكام العلوم وتفضيل الفقه وذم علم النجوم:

أيا سائلي عن خيرِ ما يتعلم من العلم تاج للمعالم مُعلم
جميع علوم الدين يعظم قدرها ولكن قدر الفقه أعلى وأعظمُ
فذاكَ عمادُ الدين حقاً ومن يرد به الله خيراً علم دين يفهمُ
ولكما بالعلم يحمد عامل ويرفع في الدارين قدراً ويكرم
وجملة أنواع العلوم كثيرةٌ ولكن من أنواعها ما يذمُ
وأحكامها لا شك ترجع كلها إلى خمسة فيما به الشرع يحكم
ففرض ومندوب حميدان معهما مُباح ومكروه كذاك محرُمُ
كعلم نجوم ذمهُ الشرع محتو على الكفر فارفضْ ما يقولُ المنجمُ
نفي منهج التوحيد ما في صفاتها سوى ما به القرآن بالنطق مفهمُ
ثلاث خصال فاهتداء وزينة يزاهي بها هاوي الشياطين ترجمُ

ولله در القائل:

على قدرِ علمِ المرء يعظمُ خوفُه فلا عالم إلاَّ من اللهِ خائفُ
فآمن مكر الله باللهِ جاهل وخائف مكر الله بالله عارفُ

قلت: وقد تقدم هذان البيتان في مقام الخوف، ولكن أعدتهما في هذا الموضع لكونه لائقاً بهما لاشتماله على ذكر العلم، وقول الخضر عليه السلام: العلماء كل من يخشى الله تعالى.

قلت: ومن حكايات فضل العلماء العاملين ما أخبرني به بعض الصالحين.

قلت: عن بعض الأولياء المشهورين أنه رأى الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه تحت سدرة المنتهى.

وحكي عن الربيع بن سليمان رحمه الله تعالى أنه قال: رأيت الإمام الشافعي بعد وفاته في المنام فقلت له: يا أبا عبد اللّٰه ما صنع الله تعالى بك؟ قال أجلسني على كرسي من ذهب، ونثر عليَ اللؤلؤ الرطب.

ورؤي الشيخ الإمام أبو إسحاق الشيرازي رضي الله تعالى عنه في المنام بعد وفاته وعليه ثياب بيض وعلى رأسه تاج، فقيل له ما هذا البياض؟ فقال شرف الطاعة، قيل والتاج؟ قال عز العلم.

قلت: ومما حكي واشتهر ورويناه عن الشيخ العارف بالله تعالى أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه، أنه رأى النبي ﷺ في النوم باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي رضي الله تعالى عنه وقال: أفي أمتكما حبر كهذا؟ قالا لا.

وقال الشيخ العارف بالله تعالى أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه لما ذكر الغزالي: أنا لنشهد له بالصديقية العظمى.

وفي السيرة المشهورة للشيخ الكبير العارف بالله تعالى اليمني الشهير المعروف بالصياد رضي الله تعالى عنه بالإسناد، أنه رأى في بعض الأيام وهو قاعد أبواب السماء مفتحة وإذا بعصبة من الملائكة قد نزلوا إلى الأرض ومعهم خلع خضر ودابة من الدواب، فوقفوا على رأس قبر من القبور وأخرجوا شخصاً من قبره وألبسوه الخلع وأركبوه على الدابة وصعدوا به إلى السماء، ثم لم يزالوا يصعدون من سماء إلى سماء حتى جاوز السموات السبع كلها وخرق بعدها سبعين حجاباً، قال فتعجبت من ذلك وأردت معرفة ذلك الراكب، فقيل لي هذا الغزالي، ولا علم لي في أين بلغ انتهاؤه.

قلت: وأخبرني بعض الصالحين من ذرية الشيخ أبي الحسن بن حرزهم، بكسر الحاء المهملة وسكون الراء وبعدها زاي بالضبط المحقق، والمعروف بين الناس ابن حرازم أنه لما وقف أبو الحسن المذكور على كتاب الإحياء نظر فيه وتأمله ثم قال: هذا بدعة مخالف للسنة، وكان مطاعاً في جميع بلاد المغرب، فأمر بإحضار كل ما فيها من نسخ الإحياء، وطلب من السلطان أن يلزم الناس ذلك، فأرسل السلطان إلى جميع النواحي ونودي فيها: لعنة الله على من عنده شيء من كتاب الإحياء ولا يحضره، فأحضر الناس ما عندهم من ذلك، واجتمع الفقهاء ونظروا فيه ثم أجمعوا على إحراقه يوم الجمعة، وكان اجتماعهم يوم الخميس، فلما كانت ليلة الجمعة رأى أبو الحسن المذكور في المنام كأنه دخل من باب الجامع الذي عادته يدخل منه، فرأى في ركن المسجد نوراً، وإذا بالنبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما جلوس والإمام أبو حامد الغزالي قائم وبيده كتاب الإحياء، فقال يا رسول الله ﷺ هذا خصمي ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهما إلى أن وصل إلى النبي ﷺ فناوله كتاب الإحياء وقال: يا رسول الله انظر فيه، فإن كان بدعة مخالفاً لسنتك كما زعم تبت إلى الله تعالى، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل لي من بركتك، فأنصفني من خصمي، فنظر فيه ﷺ ورقة ورقة إلى آخره ثم قال: والله إن هذا شيء حسن ثم ناوله أبا بكر فنظر فيه كذلك ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق يا رسول الله إنه لحسن، ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ثم قال كما قال أبو بكر رضي الله تعالى عنهما، فأمر ﷺ بتجريد أبي الحسن من ثيابه وضربه حد المفتري، فجرد وضرب، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط وقال: يا رسول الله إنما فعل هذا اجتهاداً في سنتك وتعظيماً، فغفر له أبو حامد عند ذلك؛ فلما استيقظ من منامه وأصبح أعلم أصحابه بما جرى له، ومكث قريباً من شهر وجعاً من ذلك

الضرب؛ ثم نظر بعد ذلك في الإحياء فرآه مرأى آخر، وفهمه فهماً خلاف الفهم الأول، فرآه موافقاً للكتاب والسنة، ورأى النبي ﷺ مسح على ظهره بيده المباركة الكريمة، فشفي جسمه وقلبه بعد خمسة وعشرين يوماً، ثم فتح عليه بعد ذلك ونال من المعرفة بالله تعالى والحظ العظيم ما نال بفضل الله الكريم. وصحبه الشيخ أبو مدين فرباه ثم قال له: قد فتحت لك ستة أقفال وبقي السابع يفتحه لك الشيخ أبو يعزا؛ بفتح الياء المثناة من تحت والعين المهملة والزاي المشددة، فاذهب إليه فذهب، فلما رآه الشيخ أبو يعزا قال له: أقال لك الشيخ أبو الحسن إني أفتح لك القفل السابع؟ ها أنا أفتحه لك بإذن الله ففتحه له ففتح عليه، وكان من عظم أمر الشيخ أبي مدين وعظم شأنه ما كان رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بهم.

قلت: وقد روينا ذلك مختصراً أخبرني به الشيخ شهاب الدين بن الميلق الشاذلي رضي الله تعالى عنه قال: أخبرني به الشيخ ياقوت الشاذلي قال: أخبرني به الشيخ أبو العباس المرسي الشاذلي قال: أخبرني به الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وزاد فيه قال: ولقد مات يوم مات وأثر السياط ظاهر على جسمه.

قلت: فإذا كان الإمام أبو حامد رضي الله تعالى عنه قد باهى به ﷺ موسى وعيسى عليه وعليهما الصلاة والسلام، واستحسن تصنيفه، وجلد من طعن فيه في المنام المذكور، وشهد له بالصديقية العظمى، فهل يبغضه ويطعن فيه إلا كل تعيس مشؤوم مخذول محروم، ولولا أن هذا الشيخ المذكور أدركه اللطف بالتوبة والهداية، وتشفع فيه الصديق وسبقت له العناية، لكان يموت على ذلك الحال، ويلقى العقاب الشديد والنكال، فنسأل الله الكريم التوفيق وحسن الخاتمة، والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولأحبابنا والمسلمين آمين.

قلت: واستحسانه ﷺ لما في الإحياء يشهد بحسن علوم الصوفية ويكون عقيدة الإمام أبي حامد وما وافقها من عقائد العلماء والمشايخ حقاً.

قلت: وله فضائل يتعذر حصرها ذكرت شيئاً منها في غير هذا الكتاب.

وحكي عن بعض أصحاب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه أنه رآه بعد موته وهو يمشي ويتبختر في مشيته، قال فقلت له: يا أخي أي مشية هذه؟ قال مشية الخدام في دار السلام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وألبسني نعلين من ذهب، وقال لي هذا جزاء قولك القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وقال يا أحمد قم حيث شئت، فدخلت الجنة فإذا بسفيان الثوري رضي الله تعالى عنه له جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة وهو يقرأ هذه الآية: ﴿**الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين**﴾ [الزمر: ٧٤].

قلت: ولهؤلاء المذكورين وغيرهم من العلماء العاملين ما يطول ذكره، بل ويتعذر حصره من الفضائل. من ذلك ما رأيت في المنام بعض العلماء اليمانيين من شيوخنا بعد موته لابساً حلة[١]، وفي ساقيه خلخالين[٢] نصف كل واحد منهما ذهب والنصف الآخر فضة في جهة الطول، وليس

---

(١) الحُلَّة: الثوب الجيد الجديد أو الرداء والبنطال من جنس واحد وهو ما يسمونه (الطقم).
(٢) الخلخال: حلية كالسوار تلبسها المرأة في رجلها (ج) خلاخيل.

بينهما لحمة ولا انفصال أصلاً، أعني الذهب والفضة وهما يحيران العقل بحسنهما، وهو يتبختر في مشيته، فانتبهت وكأني إلى الآن أجد حلاوة حسنهما، وسألت بعض الصواغ هل يمكن الصيغة على هذه الصفة المذكورة؟ فقال ما نقدر ولا يمكن ذلك، ولا بد أن يبقى بينهما فصل ظاهر، فعلمت أنه لا يقدر مخلوق على صنعة الخالق القادر سبحانه وتعالى. وقد أول بعض أهل العلم ذهب الخلخالين المذكورين بالكتاب، والفضة بالسنة، وهو تأويل حسن.

[والثالثة من الثلاث الخصال المذكورات: الأدب[1]] قال الله عز وجل: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧] قيل حفظ آداب الحضرة. قال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها ﷺ، أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس في الإعراض والإقبال أعرض عما سوى الله، وتوجه إلى الله، وترك وراء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها، والسموات والدار الآخرة بحظوظها، فما التفت إلى ما أعرض عنه، ولا لحقه الأسف على الفائت في إعراضه، وقال في أثناء كلامه: ثم فر من الله تعالى حياء منه وهيبة وإجلالاً، وطوى نفسه بفراره في مطاوي انكساره وافتقاره، لكيلا تنبسط النفس فتطغى، والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع، ومتى نالت قسطا من المنح واستغنت طغت، والطغيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط في البسط يسد باب المزيد، فموسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام صح له في الحضرة أحد الطرفين، ما زاغ ببصره وما التفت إلى ما فاته متأسفاً بحسن أدبه، ولكن امتلأ من المنح، واسترقت النفس السمع، وتطالعت إلى القسط والحظ؛ فلما حظيت استغنت وطفح عليها ما ضاق عنه نطاقها، فتجاوز الحد من فرط البسط وقال ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣] فمنع ولم يطلق في فضاء المزيد، وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما أفضل الصلاة والتسليم، وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية. انتهى كلامه مختصراً.

وقال سبحانه وتعالى ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فقهوهم وعلموهم وأدبوهم.

وروت عائشة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله ﷺ قال: «حق الولد على والده أن يحسن اسمه، ويحسن موضعه، ويحسن آدابه»[2] وعنه ﷺ أنه قال: «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن»[3] وعنه ﷺ أنه قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[4] وفي رواية «ثم أمرني بمكارم

---

(١) انظر حديث القشيري عن الأدب في الرسالة القشيرية ص ٢٨٣ ـ ٢٨٨.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٣١٧، ٣١٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٥١٩١، ٤٥١٩٢، ٤٥١٩٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ١٩٩)، والقرطبي في (التفسير ١٨/١٩٥). وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/ ١٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ١٩٥٢)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/١٥٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٧٢).

(٤) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٧٢)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٣٢٧)، والفتني في =

الأخلاق» وقال: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قيل: ومن الأدب قوله ﷺ: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»(١) ولم يقل رأيت. وقول عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ [المائدة: ١١٦]. ولم يقل لم أقل. وقول أيوب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ [الأنبياء: ٨٣] ولم يقل ارحمني.

وقد قيل: حقيقة الأدب اجتماع خصال الخير.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه في طاعته إلى الله عز وجل.

قلت: وبلغني أن بعضهم قال: المشارقة وصلوا إلى الله سبحانه بحسن الأدب، والمغاربة وصلوا إلى الله تعالى بذبح النفوس.

قلت: وكأن هذا القائل أشار إلى أن الغالب على المشارقة الدخول في جميع الحركات بالأدب البالغ مع عدم المبالغة في المجاهدة، والغالب على المغاربة شدة المجاهدة البالغة مع عدم المبالغة في الأدب، وإلا فكل من الفريقين لا يخلو من كلا الخصلتين المذكورتين، أعني أن أهل الأدب البالغ لا يخلون من المجاهدة، وأهل المجاهدة البالغة لا يخلون من الأدب.

وقال ابن المبارك رضي الله تعالى عنه: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم. وقال أيضاً: قد أكثر الناس في الأدب ونحن نقول هو معرفة النفس. وقال أيضاً: من تهاون في الأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقال أيضاً: أدب الخدمة أعز من الخدمة.

وقيل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه: قد أكثر الناس في علم الآداب فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً؟ فقال: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك.

وسئل ابن سيرين رضي الله تعالى عنه: أي الآداب أقرب إلى الله تعالى؟ فقال: معرفة بربوبيته، وعمل بطاعته، والحمد لله على السراء، والصبر على الضراء.

وقال أبو نصر السراج رضي الله تعالى عنه: الناس في الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب. وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح وحفظ الحدود، وترك الشهوات. وأما أهل

= (تذكرة الموضوعات ٨٧)، والألباني في (السلسة الضعيفة ٧٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣١٨٩٥).

(١) أخرجه ابن كثير في (البداية والنهاية ٦/ ٢٩٩).

الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور ومقامات القرب.

وقال أبو محمد الجريري رضي الله تعالى عنه: منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسي في الخلوة، فإن حسن الأدب مع الله تعالى أولى.

وقال السري رضي الله تعالى عنه: صليت وردي[1] ليلة من الليالي، ومددت رجلي في المحراب، فنوديت يا سري هكذا تجالس الملوك؟ فضممت رجلي ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلي أبداً.

وقال الجنيد رضي الله تعالى عنه: فبقي ستين سنة ما مد رجله ليلاً ولا نهاراً.

قال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل. وقال أيضاً: ترك الأدب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط ردّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة الدواب.

وقال يحيى بن مُعاذ رضي الله عنه: إذا ترك العارف أدبه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين.

وقال أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: كان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: لا يستند إلى شيء، فكان يوماً في مجمع فأردت أن أضع له وسادة خلف ظهره، فقال لا أريد الاستناد، فتأملته بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شيء.

وقال أبو عثمان الحيري[2] رضي الله تعالى عنه: الصحبة مع الله سبحانه بدوام الهيبة والمراقبة، ومع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، ومع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة، ومع الأهل بحسن الخلق، ومع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً، ومع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم.

قلت: وكلام أبي عثمان هذا حسن نفيس، وهو مع كونه مذكوراً في باب الصحبة فهو في الحقيقة يرجع إلى الأدب مع كل مصحوب، فلهذا ذكرته مع أقوالهم في الأدب.

وقال أبو قاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب.

وقال أبو عثمان: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب.

قلت: هذا أبو عثمان المغربي وليس هو الحيري المذكور قبله.

وقيل مد أبو العباس بن عطاء رجله بين أصحابه وقال: ترك الأدب بين أهل الأدب أدب.

---

(١) الوِرْدُ: النصيب من القرآن أو الذِّكر.

(٢) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري (توفي ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م). كان من الري ويقيم في نيسابور صحب شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي، ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني على أبي حفص الحداد وأقام عنده، وتخرج به، وزوجه أبو حفص ابنته، وعاش بعد أبي حفص نيفاً وثلاثين سنة. (الرسالة القشيرية ص ٤٠٧).

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: ويشهد لهذا ما روي أن النبي ﷺ كان عنده أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فدخل عثمان رضي الله تعالى عنه، فغطى فخذه ﷺ وقال: «ألا نستحي من رجل تستحي منه الملائكة»[1] نبه ﷺ على أن حشمة عثمان رضي الله تعالى عنه وإن عظمت فالحالة التي كانت بينه وبين أبي بكر وعُمر رضي الله تعالى عنهما كانت أصفى وفي قريب من معناه أنشد:

فـــيّ انقبــاض فحشمـــة فـــإذا صــادفــتَ أهــلَ الــوفــاء والكــرمِ
أرسلــت نفســي علــى سجيتهــا وقلــت مــا قلــت غيــر مُحتشــمِ

وقيل: لما ورد الشيخ أبو حفص رضي الله تعالى عنه العراق جاء إليه أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه، فرأى أصحاب أبي حفص وقوفاً على رأسه يأتمرون لأمره لا يخطي أحد منهم، فقال يا أبا خفص أدبت أصحابك أدب الملوك، فقال يا أبا القاسم ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن.

وقال أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه: ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة يسقط معها أدب الشريعة، وآداب الشريعة حلية الظاهر، والله سبحانه لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب.

وقال أبو عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه: الزم الأدب وحدك من العبودية[2] ولا تتعرض لشيء فإن أرادك له أوصلك إليه.

قلت: ومن حكايات أهل الأدب ما حكي عن أبي عبيد القاسم بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة، وربما كنت أستلقي وأمد رجلي، فجاءتني عائشة المكية رضي الله تعالى عنها فقالت لي: يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم، اقبل مني كلمة لا تجالسه إلا بأدب وإلا يمحى اسمك من ديوان القرب.

قال أبو عبيد: وكانت من العارفات.

وحكي عن بعضهم أنه أراد أن يمد يده في الصلاة إلى أنفه، فقبض على يده.

وحكي عن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه قال: جاءني بعض الصالحين يوم جمعة فقال لي ابعث معي فقيراً يدخل عليّ سروراً ويأكل معي شيئاً، فالتفت فإذا أنا بفقير شهدت فيه الفاقة، فدعوته وقلت له امض مع هذا الشيخ وأدخل عليه سروراً فمضى؛ فما لبث أن جاء الرجل وقال: يا أبا القاسم لم يأكل ذاك الرجل إلا لقمة وخرج، فقلت لعلك قلت كلمة جفاء عليه، فقال لم أقل

---

(١) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة ٢٦)، وأحمد بن حنبل ١/٧١، ٦/٦٢، ١٥٥، ٢٨٨

(٢) العبودية: هي تذلل وتبرء من الحول والقوة في عبادته، وأصلها العبادة وهي القيام بالفعل بالمطلوب شرعاً.

شيئاً، فالتفت فإذا أنا بالفقير جالس، فقلت لم لم تتمم عليه السرور؟ فقال: يا سيدي خرجت من الكوفة وقدمت بغداد ولم آكل شيئاً، وكرهت أن يبدو سوء أدب مني من جهة الفاقة في حضرتك، فلما دعوتني سررت إذ جرى ذلك ابتداء منك، فمضيت وأنا لا أرضى له الجنان، فلما جلست على مائدته ما أكلت سوى لقمة وقال: كل فهذا أحب إليّ من عشرة آلاف درهم، فلما سمعت هذا علمت أنه دني الهمة، فتطرفت أن آكل طعامه، فقال الجنيد: ألم أقل لك إنك أسأت أدبك معه؟ فقال: يا أبا القاسم التوبة، فسأله أن يمضي معه ويفرحه.

وحكي عن بعضهم أنه قال: دخلت على السري رضي الله تعالى عنه، فرأيته يكنس بيته بخرقة ويتمثل بهذين البيتين:

وما رمت الدخول عليه حتى ... حللتَ محلةِ العبد الذليلِ
وأغضيت الجفون على قَذَاها ... وصنتَ النفسَ عن قالٍ وقيلِ[1]

وقال ابن عطاء رضي الله تعالى عنه: الأدب الوقوف مع المستحسنات، قيل وما معناه؟ فقال أن تعامل الله سبحانه بالأدب سراً وعلناً، فإذا كنت كذلك كنت أديباً، وإن كنت أعجمياً[2]، ثم أنشد:

إذا نطقتْ جاءت بكل ملاحةٍ ... وإنْ سكتتْ جاءتْ بكل مليحِ

ثم ذكرت من العشرين الخصلة المذكورة ستاً مع تضمن سابعة غير معدودة من العشرين بقولي:

وصبر وشكر والتَّوكل والسخا ... ومع ورع فقر به العبد قانعُ

فخمس منها قد تقدم شرحها وهي: الورع، والصبر، والشكر، والفقر، والتوكل.

[الخصلة السادسة: السخاء][3] قال الله عز وجل ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [الحشر: ٩] وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة، والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل»[4].

---

(١) القذى: ما يتكون في العين من رمص وغمص وغيرهما.
(٢) الأعجمي: غير الفصيح. والأعجم: من ليس بعربي وإن أفصح بالعجمية.
(٣) انظر حديث القشيري عن السخاء في الرسالة القشيرية ص ٢٤٧ ـ ٢٥٤.
(٤) أخرجه الترمذي في (السنن ١٩٦١)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٧/ ١٢٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٢٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ١٩٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٥٩٢٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٤٠)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٣٨١)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٢٤٣)، وابن الجوزي في (الموضوعات ٢/ ١٨٠ ـ ١٨١). وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ١٣٩)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ١٤٥)، والسيوطي الحلبي في (اللآلىء المصنوعة ٢/ ٤٨، ٤٩)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة =

قال بعض أهل العلم: ولا فرق على لسان العلم بين الجود والسخاء، ولا يوصف الحق سبحانه بالسخاء لعدم التوقيف.

قلت: وحكايات الأسخياء كثيرة، وها أنا أذكر شيئاً منها مقسماً له أقساماً فأقول: السخاء على ثلاثة أقسام: سخاء بالنفس، وسخاء في الدين، وسخاء بالدنيا.

فمن السخاء بالنفس ما حكي واشتهر عن أبي الحسين النوري رضي الله تعالى عنه، أنه لما سعى بالصوفية إلى بعض الخلفاء أمر بضرب رقابهم، فأما الجنيد فتستر بالفقه وكان يفتي على مذهب أبي ثور، وأما الشحام والرقام والنوري فقبض عليهم وبسط النطع[1] لضرب رقابهم: فتقدم الشيخ أبو الحسين المذكور فقال السياف: أتدري إلى ما نبادر؟ فقال: نعم، قال: وما يعجلك؟ فقال أوثر أصحابي بحياة ساعة، فتحير السياف وأنهى الأمر إلى الخليفة، فتعجب الخليفة ومن عنده من ذلك، فكان القاضي عنده، فاستأذن الخليفة أن يذهب إليهم ليبحث معهم ويختبر حالهم، فأذن له الخليفة في ذلك، فأتاهم وقال: يخرج إليَّ واحد منكم حتى أبحث معه، فخرج إليه أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه، فألقى عليه القاضي مسائل فقهية، فالتفت عن يمينه ثم التفت عن يساره ثم أطرق ساعة ثم أجابه عن الكل، ثم أخذ يقول: وبعد فإن لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا بالله، وسرد كلاماً أبكى القاضي؛ ثم سأله القاضي عن التفاته فقال: سألتني عن المسائل ولا أعلم لها جواباً، فسألت عنها صاحب اليمين، فقال: لا علم لي ثم سألت عنها صاحب الشمال، فقال: لا علم لي، فسألت قلبي فأخبرني قلبي عن ربي فأجبتك بذلك فأرسل القاضي إلى الخليفة إن كان هؤلاء زنادقة فليس على وجه الأرض مسلم.

قلت: ومن هذا القسم الحكاية المشهورة، حكاية الجماعة الذين أصابهم العطش والجراح في بعض المغازي، فأتى أحدهم بماء وهو في آخر رمق، فسمع أنين آخر بجنبه، فأشار للساقي أن يسقيه، فسمع ذاك أيضاً أنين آخر بجنبه، فأشار للساقي أن يسقيه، ثم كذلك الآخر، ولم يزالوا يؤثر كل واحد منهم من قرب منه إلى أن عادت الشربة في دورانها إلى الأول فوجده الساقي قد مات، فذهب بها إلى الثاني فوجده أيضاً ميتاً، ثم كذلك الباقون كلما جاء إلى واحد منهم وجده قد مات والشربة باقية على حالها.

قلت: ومن هذا القسم أيضاً المجاهدون في سبيل الله الذين سمحوا بنفوسهم لله عز وجل، وقد تقدم أن الجهاد الأكبر جهاد النفس، وما ورد في ذلك عن رسول الله ﷺ، وما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] ولا شك أن بذل النفس في الله تعالى هو السخاء الكامل، ولله در القائل:

= ٤٨٣)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٦٣، ٦٤)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٣٥٢، ٢٣٥٣).

(١) النّطع: بساط من جلد، كثيراً ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (ج) أنطاع ونطوع.

فنافس ببذلِ النفس فيها أخا الهوى　　فإنْ قبلتها منك يا حبذا البذل
فمنْ لم يجد في حب نعم بنفسهِ　　وإنْ جاد بالدُّنيا إليه انتهى البخل

قلت: ومن السخاء بالنفس سخاء من سلم نفسه لمحتاج إليها لخدمة أو بيع وانتفاع بثمنها، كما حكي عن الخضر عليه السلام ورحمة الله وبركاته أنه فعل ذلك وفعله أيضاً بعض السادات وغيره من المشايخ السالكين.

وإذا قال الفقيه هذا لا يجوز، فالجواب: أن المشتري جاهل بحرية المبيع، والبائع يعلم أن البيع باطل، والذي قبضه على جهة الثمن قد وثق ممن سلم نفسه له للبيع أنه يخدم المشتري خدمة تساوي الثمن وتنيف عليه، وعلم منه الرضا في التسليم والخدمة؛ وكل ما يلحقه من ضرر، والذي سلم نفسه أيضاً قد وثق بالله سبحانه، وعلم من الله بنور الله أنه سيجعل له فرجاً ومخرجاً بإطلاق المشتري له بصورة عتق، كما وقع فيما روي عن الخضر عليه السلام، وفيما رويناه عن بعض المشايخ السادات أنه سأله شخص شيئاً وشكا عليه حاله، وكان الشيخ على فاقة شديدة في سياحته، فقال للسائل: ما عندي ما أعطيك، ولكن خذني وبعني وانتفع بثمني، فقال له: وتفعل ذلك؟ قال: نعم، فأخذه ثم قال الشيخ: ما يتم هذا حتى تضع في عنقي حبلاً وتقودني، ففعل به ذلك ثم سار به، فلقي شخصاً فباعه منه بمائتين وخمسين درهماً، فلما صار المشتري أطلقه بصورة إعتاقه، فلقي الشيخ شخصاً آخر، فشكا إليه أيضاً ذلك الشخص حاله وضرورته، فسلم له نفسه كما سلم للأول، فمشى به وباعه بمائتي درهم، ثم أطلقه المشتري الثاني أيضاً كالأول وذهب، فجاء شخص ثالث إلى الشيخ بلحم نصف شاة وما تحتاج إليه من الملح والسكين والقراعة، وقطع له اللحم وقرع له النار، ثم ذهب وخلاه، ولم يسأله الشيخ عن شيء، بل أوقد النار وشوى اللحم وأكل، ثم مضى لطريقه حياه الله في فتوته المشهورة ومكارمه المشكورة.

وكذلك بلغني أن بعض الفقراء سلم نفسه لإنسان يستخدمه مدة من الزمان، وأخذ منه عوضاً على ذلك نحواً من ثلاثمائة درهم دفعها إلى الفقراء، ثم أقام في خدمة ذلك الإنسان حتى وفى المذكورة.

وحكي أنه دخل بعضهم على بشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه في يوم شديد البرد وقد تعرى من الثياب وهو ينتفض، قال: فقلت له: يا أبا نصر الناس يزيدون في مثل هذا اليوم في الثياب وأنت قد نقصت؟ فقال: ذكرت الفقراء وما هم فيه ولم يكن لي ما أواسيهم به، فأردت أن أواسيهم بنفسي.

قلت: وإنما يقدر على السخاء بالنفوس المحبون ولهذا قال الشيخ العارف بالله تعالى يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: الزهد يورث السخاء بالمال، والحب يورث السخاء بالروح.

وقال الشيخ العارف بالله تعالى أبو القاسم الصنقلي رضي الله تعالى عنه: السخاء بالعرض في سبيل الحق شاهد لزوال الشح عن أهل الأموال؛ والسماحة بالروح في ذات الله تعالى شاهد لذهاب البخل عن أهل الإرادة.

قلت: وأما السخاء في الدين، فمنه ما حكي عن السري رضي الله تعالى عنه أنه خرج يوم عيد فاستقبله رجل كبير الشأن، فسلم السري عليه سلاماً ناقصاً، فقيل له: هذا رجل كبير الشأن، قال: قد عرفت، ولكن روى مسنداً أنه: «إذا التقى المسلمان قسمت بينهما مائة رحمة تسعون لأبشهما» فأردت أن يكون معه الأكثر.

قلت: والفقهاء لا يرون الإيثار بالقرب والفضائل، وهذا الذي فعله السري ونوى فيه ما ذكر لا يقدر عليه إلا من عرف نفسه وأماتها في الله تعالى، فلم يبق لها عنده قدر وزهد في حظوظ الدارين إلا حظه من الله تعالى، وآثر أخاه المسلم وأحب له أكثر مما يحب لنفسه، وهذه لعمري حلية سنية تحلت بها نفس زكية، ولا تحسبن أيها الواقف على هذا الكلام أنه من فعل هذا زهد في رحمة الله وفي حظه من الله وقربه منه، فمن له بصيرة يعلم أن الله سبحانه بهذه النية سيعطيه ما لا يوصل إليه بعمل، وليس يقدر على هذه النية كل أحد حتى يقال إن ذلك يؤدي إلى ترك البشاشة والود والتآلف بين المسلمين وتفويت مقصده ﷺ في التآلف المذكور.

وحكي عن ذي النون رضي الله تعالى عنه أنه قال: بينما أنا أسير في جبل أنطاكية إذا أنا بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة صوف فسلمت عليها فردت عليّ السلام، ثم قالت: ألست ذا النون المصري؟ قلت: عافاك الله، كيف عرفتني؟ فقالت: عرفتك بمعرفة حب الحبيب، ثم قالت: أسألك عن مسألة، قلت: سلي، قالت: أي شيء السخاء؟ قلت: البذل والعطاء، قالت: هذا سخاء في الدنيا، فما السخاء في الدين؟ قلت: المسارعة إلى طاعة رب العالمين، قالت: فإذا سارعت إلى طاعة المولى فهو أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد منه شيئاً، ويحك يا ذا النون، إني أريد أن أطلب منه شيئاً منذ عشرين سنة فأستحي منه مخافة أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجرة، ولكن أعمل تعظيماً لهيبته وعز جلاله، ومرت وتركتني رضي الله تعالى عنها.

قلت: وأما السخاء بالدنيا فها أنا أذكر منه شيئاً يسيراً.

فمن حكايات الأسخياء بالدنيا، ما حكي عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه سأله رجل شيئاً فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وقال: ائت بحمال يحمل لك، فأتى بحمال فأعطاه الحسن طيلسانه وقال: يكون أجرة الحمال من قبلي.

وحكي أنه أراد رجل أن يضارّ عبد اللّه بن عباس رضي الله تعالى عنهما، فأتى وجوه البلد وقال: يقول لكم ابن عباس تغدوا عندي اليوم، فأتوه فملؤوا الدار، فقال: ما هذا؟ فأخبر الخبر، فأمر بشراء الفواكه في الوقت، وأمر بالخبز والطبيخ وأصلح أمراً، فلما فرغوا قال لوكلائه: أيوجد لنا كل يوم مثل هذا؟ فقالوا: نعم، قال: فليتغد عندنا هؤلاء كل يوم.

وحكي أنه خرج عبد اللّه بن جعفر الطيار[1] رضي الله تعالى عنهما إلى ضيعة له، فنزل على نخيل

---

(١) هو عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي (١ ـ ٨٠ هـ = ٦٢٢ ـ ٧٠٠ م)=

قوم وفيها غلام أسود يعمل فيها إذ أتى الغلام بقوته، ودخل كلب الحائط فدنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكله، وعبد الله ينظر، فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال: هو ما رأيت، قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنما جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده؛ قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: يلومونني على السخاء وهذا أسخى مني، فاشترى الغلام والحائط وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام ووهب له الحائط وما فيه.

وحكي أنه قيل لقيس بن سعد بن عبادة[١] رضي الله تعالى عنهما وكان من الأسخياء، هل رأيت أحداً أسخى منك؟ فقال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة، فحضر زوجها فقالت: إنه نزل بك ضيفان، فجاء بناقة فنحرها وقال: شأنكم، فلما كان الغد جاء بأخرى ونحرها وقال: شأنكم، فقلنا: ما أكلنا من التي بالبارحة إلا اليسير، فقال: إني لا أطعم ضيفاني الغاب[٢]، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة والسماء تمطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه، فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتموني ثمن قراي[٣]، ثم إنه لحقنا وقال: لتأخذنه أو لأطعننكم برمحي، فأخذناه وانصرف.

وحكي أن الإمام الشافعي لما قدم من صنعاء إلى مكة كان معه عشرة آلاف دينار، فقيل له نشتري بها ضيعة، فضرب خيمة خارج مكة وصب الدنانير، فكل من دخل عليه أعطاه قبضة، فلما جاء وقت الظهر قام ونفض الثوب ولم يبق شيء. وقيل: إن أمه قالت له: ولو دخلت ومعكَ درهم ما سلمت عليك.

وحكي أنه لقي رجل من أهل منبج[٤] رجلاً من أهل المدينة، فقال: ممن الرجل؟ فقال: من أهل المدينة، فقال: لقد أتانا منكم رجل يقال له الحكم بن المطلب فأغناني، فقال المدني: وكيف أغناكم وما أتاكم إلا في جبة صوف؟ فقال: ما أغنانا بمال، ولكنه علمنا الكرم، فعاد بعضنا على بعض حتى استغنينا.

= صحابي ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها. وهو أول من ولد بها من المسلمين وأتى البصرة والكوفة والشام وكان كريماً يُسمى بحر الجود. وللشعراء فيه مدائح، وكان أحد الأمراء في جيش عليّ يوم «صفين» ومات بالمدينة. الأعلام ٤/٧٦، والإصابة ت ٤٥٨٢، والمحبر ١٤٨، والجمحي ٥٣٣.

(١) هو قيس بن سعد بن عبادة (توفي ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م) أنصاري خزرجي مدني. وال صحابي من دهاة العرب وأجوادهم. صحب علياً في خلافته. له ١٦ حديثاً. (الرسالة القشيرية ص ٢٤٩).

(٢) الغاب والغبيب: اللحم البائت.

(٣) القِرا: ما يُقَدَّم للضيف.

(٤) في الرسالة القشيرية ص ٢٤٨: منبج: منطقة في محافظة حلب بسورية. ومنبج مدينة قديمة تقع شمالي شرقي حلب. حكمها الشاعر أبو فراس الحمداني ٩٤٧ م، وفيها أسره الروم وذهبوا به إلى القسطنطينية.

وحكي أنه بعث رجل إلى جبلة بجارية وكان بين أصحابه، فقال: قبيح أن أتخذها لنفسي وأنتم حضور، وأكره أن أخص بها واحداً منك وكلكم له حق وحرمة، وهذه لا تحتمل القسمة وكانوا ثمانين، فأمر لكل واحد بجارية أو وصيف.

وحكي أنه كان بعضهم يتلطف في إدخال الرفق على إخوانه، ويضع عندهم ألف درهم، فيقول: أمسكوها حتى أعود إليكم، ثم يرسل إليهم أنتم منها في حل.

وحكي أنه دخل بعض الشيوخ دار بعض أصحابه من الفقراء، فوجده غائباً وباب بيت له مقفل، فقال: صوفي وله باب بيت مقفل، اكسروا القفل، فكسروه وأمر بجميع ما وجده في الدار والبيت وأنفذه إلى السوق وباعوه، وأصلحوا وقفاً من الثمن وقعدوا في الدار، فدخل صاحب المنزل ولم يمكنه أن يقول شيئاً، فدخلت امرأته بعدهم الدار وعليها كساء، فدخلت بيتاً ورمت بالكساء وقالت: يا أصحابنا هذا أيضاً من جملة المتاع فبيعوه، فقال الزوج لها: لم تكلفت هذا باختيارك؟ فقالت: اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شيء ندخره عنه.

وحكي أن امرأة سألت الليث بن سعد رضي الله تعالى عنه سكرجة[١] عسل، فأمر لها بزق[٢] من عسل، فقيل له في ذلك، فقال: إنها سألتني على قدر حاجتها، ونحن نعطي على قدر نعمتنا.

وقال ابن المبارك رضي الله تعالى عنه: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل، ولله در القائل في الترغيب في السخاء بالنفوس في سبيل الله، وبالدنيا في التوكل على الله:

لئنْ كانت الدُّنيا تعد نفيسة ... لدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن كانت الأرزاق قسماً مقدراً ... فقلة سعي المرء في الرزق أجملُ
وإن كانت الأجسادُ للموت أنشبت ... فقتل امرىء في الله بالسيف أفضلُ
وإن كانت الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل

ولله در القائل في مدح الأسخياء:

وهم ينفقون المال في أول الغنى ... ويستأنفون الصبر في آخر الضر
إذا نزل الحي الغريب تقارعوا ... عليه فلم يدر المقل من الثري

ولله در القائل الآخر:

تعوَّد بسطَ الكف حتى لوانه ... ثناها لقبضٍ لم تطعهُ أناملهُ
ولو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتقِ الله سائلهُ

ولله در القائل في ذم بعض البخلاء:

---

(١) السكرجة: لفظة فارسية، تعني الصحفة التي يوضع فيها الطعام.
(٢) الزِّقُّ: وعاء من جلد يُتخذ للماء أو للشراب (ج) أزقاق وزقاق.

ودونَ رغيفـــه قلـــع الثنـــايـــا   وحـــرب مثـــل وقعـــة يـــوم بـــدر
إذا كســـر الـــرغيـــف بكـــى عليـــه   بكـــا الخنســـا إذا فجعـــت بصخـــر

ولله در القائل الآخر:

تحلـــى بـــأسمـــاء الشهـــور فكفـــه   جمـــادى ومـــا ضمـــت عليـــه المُحـــرم

قلت: وأما الخصلة التي أشرت إليها ولم أعدها مع العشرين فهي القناعة[1]، مفهومة من قولي:

ومـــع ورعٍ فقـــر بـــهِ العبـــد قـــانـــعُ

وقد جاء في فضل القناعة الكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال الله عز وجل: ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة**﴾ [النحل: ٩٧]. قال كثير من أهل التفسير الحياة الطيبة في الدنيا: القناعة. وقال رسول الله ﷺ فيما رواه القشيري مسنداً «القناعة كنز لا يفنى»[2] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اجعل رزق آل محمد قوتاً»[3] رواه البخاري ومسلم، وفي رواية: «كفافاً». وقال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما أتاه»[4] رواه مسلم والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وقال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»[5] رواه البخاري ومسلم، والعرض بفتح العين المهملة والراء: المال.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٥٩ ـ ١٦٢

(٢) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ١/ ٣٦١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٥٩٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة ١٢٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ١٦٨، ١٧٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/ ١٩٦)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٦٥)، الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٥٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٥٨٩، ٤/ ١٦٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٦٧، ٣٦١، ٤/ ١٣٠)، (بغوي ٧/ ٢٦٠)، وابن كثير في (التفسير ٤/ ٥٢١، ٦/ ٥١٠، ٨/ ٤٤٩)، والقرطبي في (التفسير ١٠/ ٤١٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ١٢٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٣٢)، والبغوي في (شرح السنة ١٤/ ٢٤٥) والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٢٩٠)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٩).

(٥) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١١٨)، ومسلم في الصحيح (الزكاة)، والترمذي في (السنن ٢٣٧٣)، وابن ماجه في (السنن ٤١٣٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٤٣، ٢٦١، ٣١٥، ٣٩٠، ٤٣٨، ٤٤٣، ٥٣٩، ٥٤٠)، والحميدي في (المسند ١٠٦٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٥٨٩)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٢٥٢٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٦٧٠)، وابن المبارك في (الزهد ٣٥٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٥٩، ٨/ ٢٨٩)، وابن عبد البر في (تجريد التمهيد ٨٨٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٧)، (بغوي ٧/ ٢٦٠)، وابن حجر في (المطالب العالية ١٢٧٧، ١٢٧٨، ٣١٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٣٦١)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٧١)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ١٨، ٢٧٦، =

قلت: وروى مسلم حديثاً عن النبي ﷺ قال فيه: «فمن أخذه» يعني المال «بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع»(١) وهذا بعض الحديث. وروى القشيري بإسناده عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»(٢). وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه فأبى أن يأكل وقال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير»(٣).

قلت: وأما حقيقة القناعة في اللُّغة، فهي الرضا بما قسم الله سبحانه. قال في الصحاح: والقناعة بالفتح الرضا بالقسم، يقال: قنع الرجل بكسر النون يقنع قناعة فهو قنع وقنوع، وأقنعه الشيء إذا أرضاه. وقال بعض أهل العلم: يكون منه قانع، وأنشد للبيد:

فمنهــم سعيــد آخــذ بنصيبــهِ ومنهُـم شقـي بـالمعيشـةِ قـانـعُ

قلت: وهذا الذي ذكره لبيد إنما ذكرته للاستشهاد، على أنه يقال في قنع بالشيء قنع وقنوع وقانع أيضاً. وأما ما ذكره لبيد من السعادة والشقاوة فليس بصحيح؛ بل هذا كلام المفتونين بحب الدنيا، يقولون فلان سعيد وفلان شقي، إشارة إلى الغنى والفقر، وإنما يقول هذا من أعمى الله تعالى قلبه، فلم يعرف فضل الفقر وشرفه الذي اختاره الله تعالى، يعني لأصفيائه من أنبيائه وأوليائه، واغتر بالمال وانتشار الدنيا الذي زواه الله تعالى عن الأحباء من الأنبياء والصالحين، وبسطه للأعداء من الكفار والطاغين، وإنما الصحيح قول القائل:

= ٣٨٩)، وابن كثير في (التفسير ٨/٤٤٩)، والقرطبي في (التفسير ٥/ ٣٤٠، ١٢/ ٢٤١)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/٩٩). والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٣٢، ٤/١٩٨)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٩/ ١٦٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٢٤١)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ١٨٦٦، ١٨٩٨)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٢٠).

(١) أخرجه البخاري (وصايا ٩)، (زكاة ٥٠)، (رقاق ١١)، ومسلم (زكاة ٩٦، ٩٨، ١٢١)، والترمذي (قيامة ٢٩)، (زهد ٤١)، والنسائي (زكاة ٥٠، ٨٦، ٩٣)، وابن ماجه (فتن ١٨)، والدارمي (زكاة ٢٣)، (رقاق ٣٧)، وأحمد بن حنبل ١/ ٣٨٧، ٣/ ٧، ٤٣٤، ٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٨، ١٠١، ٥/ ٢٤، ٦٧، ٦٨، ٦/ ٣٦٤، ٣٧٨، ٤١٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤٢١٧)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ٣١٨)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٦٠)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٥٦٠)، المتقي الهندي في (كنز العمال ٤٣٤٩٨)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٩٣٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء، ١٠/ ٣٦٥). وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ١٦٨)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/ ٣٠٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٣٣)، والخرائطي في (مكارم الأخلاق ٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (أطعمة ٢٣).

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقيّ هو السعيدُ

وفي مدح الفقر والقناعة وغيرهما قلت في بعض القصائد:

فيرتاحُ قلبي للتخلي عن الورى ... وسيح البراري والتقى والتجردِ
وطيبة عيش بانفراد وخلوة ... وأُنس بمولى والتذاذ التعبد
وراحة فقر ثم عزّ قناعة ... وذاك الغنى لا المال في عقل مهتدِ
ترى شرف العلياء للفقر في غدٍ ... بذا صحت الأخبار في كل مسند
وذو المال محبوس الحساب مقاسياً ... شدائد أهوال وروعات مرعد
هنيئاً لأهل الفقر سبق إلى لقا ... نعيم وسعد في الجنان وسودد

وقلت: وقد شرحت القصيدة المشتملة على هذه الأبيات في جزء سميته (بهجة البدور في مدح الحور، ونسبة الفخر إلى الفقر المشكور).

وها أنا أذكر منه شيئاً يسيراً مما يتعلق بالقناعة والفقر المذكورين في قولي:

وراحةُ فقر ثم عزّ قناعة ... وذاكَ الغنى لا المال في عقل مُهتد

أما القناعة، فلأن فيها عزّ النفوس وراحة القلوب، وإليه الإشارة بقولي: «وذاك الغنى لا المال» مشيراً بذلك إلى قوله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»(1). وقوله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً»(2) الحديث.

قلت: وهذا الهلع هو الفقر، ويدلك هذا على أن الفقراء الزهاد هم الأغنياء في الحقيقة، والأغنياء الراغبون في الدنيا هم الفقراء، ولا شك أن القناعة فيها العزّ والغنى لاستغناء صاحبها عن الخلق، وتركه التردد إلى أبناء الدنيا، والخدمة والتخضع لهم طمعاً في مالهم، وغير ذلك من الأسباب الداعية إلى التذلل لأهل الدنيا والمداهنة لهم والمراءاة، وغير ذلك مما فيه ذل الدين وفساده.

وأما الفقر، ففيه الراحة في الدنيا والأخرى، والشرف الجسيم عند من يرضى به ويعرف قدره، لا سيما في الأخرى، وأما الراحة في الدنيا فلأن الأغنياء يتبعون في جمع المال وفي حفظه وفي ذهابه، والفقراء يستريحون من جميع ذلك، ولهذا قال بعضهم: الزهاد استعجلوا الراحة في الدنيا قبل الأخرى.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٣٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٣٦٨)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٢٤٨٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ٥/ ٢٠٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٤)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٩٦٢٣)، الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٥٧)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١٠٥، ٦/ ٣٧٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٥٥)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ٢٧، ٢٠/ ١٦٩)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٤١٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٧٧).

وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه: نحن والله الملوك، طلب أبناء الدنيا الراحة في الدنيا فأخطأوا، ولو علموا أن الملك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيف.

وأما مدح الفقر في الأخرى فقولي:

تـرى شـرف العليـاء للفقـر فـي غـدٍ ... بـذا صحـت الأخبـار فـي كـل مسنـدِ

البيت المتقدم مع ما يليه وذلك للأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك، ويكفي منها حديثان، قوله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[١] وقوله ﷺ: «قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون»[٢] يعني أصحاب المال.

قلت: وناهيك بهذين الحديثين شرفاً للفقراء، وأشرت بقولي:

لقـاء نعـم فـي الجنـانِ وسـودد

إلى أنهم سبقوا إلى النعيم والشرف جميعاً قبل الأغنياء بزمن طويل، لا يوم ولا يومين ولا شهر ولا شهرين، ولا سنة ولا سنتين، بل خمسمائة سنة مثل عمر من عمر من الأغنياء خمسين سنة عشر مرات، مع أن ساعة واحدة في الجنة خير من عمر الدنيا كله كما في الحديث الصحيح: «إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[٣].

قلت: وهذا فضل السبق بالدخول وحده، وأما السبق بعلو الدرجات فليس بمحدود بزمان بل مخلد مؤبد، فانظر رحمك الله تعالى كم بين الشرفين، أعني شرف الأغنياء في الدنيا الذي يعدونه شرفاً، وشرف الفقراء في الأخرى من التفاوت العظيم في نفس الشرف وفي زمانه وفي مكانه، وانظر كيف انعكس الأمر بحكمة الله تعالى، أعني كان الأغنياء في الدنيا في نعيمها وعزّها، والفقراء فيها في شيء من التعب والذل بعضهم بالاختيار وبعضهم بالاضطرار، وفي الأخرى الفقراء في الجنة ونعيمها وعزها والأغنياء في تعب الحساب الشديد؛ والذل والهوان، والأهوال العظيمة، والروعات المرعدة للقلوب المشيبة للولدان، وإلى ذلك أشرت بقولي:

وذو المـال محبـوس الحسـاب مقاسياً ... شـدائـد أهـوال وروعـاتِ مـرعـد

فظهر أن شرف الغنى يذهب ويزول، وشرف الفقر يزداد حسنه طول الدهور، وإلى ذلك أشرت فيما تقدم حيث أقول:

وقـائلـة مـا المجـد للمـرء مـا الفخـر ... فقلـتُ لهـا شـيء لبيـضِ العُلـى مهـرُ
فـأمـا بنـو الـدنيـا ففخـرهُـم الغنـى ... كـزهـرِ نضيـر فـي غـد ييبـس الـزهـرُ
وأما بنـو الأخـرى ففي الفقـر فخـرهـم ... نضـارتـه تـزداد مـا بقـي الـدهـرُ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه ابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٤١٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ١٤١).
(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٣٠١٣)، والحاكم في (المستدرك ٢/ ٢٩٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٢٧٦).

قلت: وها أنا أقتصر هنا على هذا القدر اليسير من الفضل الكثير للفقر ذي الفخر الشهير، وإنما ذكرت هذا القدر هنا ردًّا لقول لبيد، وإلا فليس هذا موضع ذكر فضل الفقر على الغنى، فإن ذلك يستدعي تصنيفاً مستقلاً، وقد قال الله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦]. وقال عز وجل: ﴿زهرة الحياة الدُّنيا لنفتنهم فيه﴾ [طه: ١٣١] الآية. وقال ﷺ: «إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة»[١] الحديث؛ وغير ذلك من الآيات الصريحات والأحاديث الصحيحات، وقد تقدم في أول هذا الفصل العاشر شيء من ذلك.

وتكلم الشيوخ في القناعة فقال بشر الحافي رضي الله تعالى عنه: القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن.

وقال أبو بكر المراغي رضي الله تعالى عنه: العاقل من دبر الدنيا بالقناعة والتسويف.

وقيل لأبي يزيد رضي الله تعالى عنه: بم وصلت إلى ما وصلت؟ قال: جمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القناعة، ووضعتها في منجنيق[٢] الصدق، ورميت بها في بحر اليأس فاسترحت.

وقال أبو عبد اللّه بن خفيف رضي الله تعالى عنه: القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء بالموجود.

وقيل: الفقراء أموات إلا من أحياه الله تعالى بعز القناعة. وقيل: وضع الله سبحانه خمسة أشياء في خمسة مواضع: العز في الطاعة، والذل في المعصية، والهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي، والغنى في القناعة.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: من قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

قلت: ومن حكايات أهل القناعة، وما حكي واشتهر عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، أنه أرسل إليها معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما بمائة ألف درهم، ففرقتها جميعاً ثم أفطرت على خبز وزيت، فقال لها الجارية: لو اشتريت لنا بدرهم لحماً؟ فقالت: لو ذكرتني لفعلت.

وحكي أنه رأى رجل حكيماً يأكل مما تساقط من البقل[٣] على رأس ماء، فقال: لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا، فقال الحكيم: وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ١٥٢، ٨/ ١١٧)، ومسلم في الصحيح (الزكاة ٣٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٩٩، ٥/ ١٥٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٨٩)، الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤/ ١١، ٨/ ١٤٥)، والبغوي في (شرح السنة ١/ ٩٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ٥٥) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ١٨٦)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٥/ ٦٥، ٧/ ٢٣٤)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٤/ ٣٦٦).

(٢) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت ترمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها. (ج) منجنيقات، ومجانق، ومجانيق.

(٣) البقل: العشب عامة.

وحكي أنه جاء إنسان إلى الجنيد رضي الله تعالى عنه بخمسمائة دينار وعنده جماعة كثيرون، فوضعها بين يديه وقال يفرقها على هؤلاء، فقال: ألك مال غير هذا؟ قال: نعم لي دنانير كثيرة، فقال: أتريد غير ما تملك؟ قال: نعم، قال الجنيد: خذها فإنك أحوج إليها منا ولم يقبلها، وأنشدوا في القناعة:

اقتنــع بــالقليــل تحيــا غنيًّــا — إن مــن يطلــب الكثيــر فقيــرُ
إنَّ خبـز الشعيـر بـالمـاء والملـح — لمــن يطلــب النَّجــاة كثيــرُ

وأنشدنا بعض الصالحين:

لكسـرة مـن جـريـش الخبـز تشبعنـي — وشـربـة مـن قـدح المـاء تـروينـي[1]
وخـرقـة مـن خشيـن الثـوب تكفينـي — حيــا وإن مــتُ تكفينــي لتكفينــي

وأنشد بعضهم تيها:

حـذفـتُ فضـول النفـس حتى رددتهـا — إلـى دون مـا يـرضـى بـه المُتعفـف
وأملـت أن أجـري خفيفـاً إلـى العُلـى — فـإن رمتُـم أن تلحقـوا بـي فخففـوا
لأبتـذلـن النفـس حتـى أصـونهـا — وغيـري فـي قيـد مـن الـذل يـرسـفُ

ثم ذكرت من العشرين الخصلة المذكورة خمساً أخرى بقولي:

ومـع عـزلـة ذكـر وسـابـق تـوبـة — وخـوف وعيـد وهـو فـي العفـوِ طامعُ

فثلاث خصال منها قد تقدم شرحها، وهو التوبة، والخوف، والرجاء، وإليه الإشارة بقولي: «وهو في العفو طامع» وأشرت بقوله: «وسابق توبة» إلى أن التوبة أول المقامات وأصلها كما تقدم، بقي العزلة والذكر.

فأما العزلة، فقد وردت السنة في فضلها والندب إليها، وحرض عليها جميع الشيوخ السالكين العارفين بالله تعالى، المرشدين إلى الله عز وجل.

فمن الأحاديث الواردة في فضلها، ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: «قال رجل: أيّ الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى، قال: ثم من؟ قال: ثم رجل يعتزل في شعب من شعاب يعبد ربه». وفي رواية: «يتقي الله ويدع الناس من شره»[2]. وروى الترمذي عن عقبة بن عامر[3] رضي الله تعالى عنه قال: «قلت: يا

---

(١) الجريش: المجروش من الحبوب وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري (جهاد ٢)، (رقاق ٣٤)، ومسلم (إمارة ١٢٢، ١٢٧)، وأبو داود (جهاد ٥)، والترمذي (فضائل الجهاد ٢٤)، والنسائي (زكاة ٧٤)، (جهاد ٧)، وابن ماجه (فتن ١٣)، والدارمي (جهاد ٦)، وأحمد بن حنبل ١/٢٣٧، ٣١٩، ٣٢٢، ٢/٤٤٣، ٣/١٦، ٣٧، ٥٦، ٨٨، ٤٦١، ٤٧٧، ٤/٢٣٤).

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٤/٢٤٠، والإصابة ت ٥٦٠٣، وحلية ٢/٨، وجمهرة الأنساب ٤١٦.

رسول الله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[1] قال الترمذي حديث حسن. وقال ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[2] رواه مسلم. قال العلماء: والمراد بالغني غنيّ النفس كما جاء في الحديث الصحيح.

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: من أراد أن يسلم له دينه، ويستريح بدنه وقلبه، فليعتزل الناس، فإن هذا «زمان وحشة، فالعاقل من اختار فيه الوحدة.

قال سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا وهلك فيما هلكوا. وقال أيضاً: والله الذي لا إلٰه إلا هو لقد حلت العزلة في زماننا. وقال بعض الأئمة بعده: إن كانت حلَّت في زمانه فقد وجبت في زماننا.

وقيل لابن المبارك رضي الله تعالى عنه: ما دواء القلب؟ فقال: قلة الملاقاة.

وقال أبو بكر الوراق رضي الله تعالى عنه: وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلّة، وشرهما في الكثرة والاختلاط.

وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه: الزم الوحدة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجدار حتى تموت.

وقال يحيـى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: الوحدة جليس الصديقين.

وقال أبو عبد اللَّه الرحملي رضي الله تعالى عنه: ليكن خدنك الخلوة، وطعامك الجوع، وحديثك المناجاة، فإما أن تموت، وإما أن تصل إلى الله تعالى.

وقال أبو القاسم الصقلي رضي الله تعالى عنه: علامة المقبول المرتضى في هذا الزمان رعاية الفرض، والصمت، والهرب من المعارف، والدعاء للأمة بالصلاح، والتخفيف من الكثرة والعيلة، والتحري في الملبس، وسد الجوعة. قال هذا بعض كلامه، قال في آخره: فطوبى[3] ثم طوبى لمن لم يعرفه أهل الزمان ولا عرفهم، فإما هارب عنهم، أو متحمل للأذى والجفاء منهم.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: الخلوة صفة أهل الصفوة، والعزلة من أمارات الوصلة، ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه.

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٤٠٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٤٤٧، ١١/٣٠٩)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٩٦)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢/٩)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٨/٢٧١)، والقرطبي في (التفسير ١٠/٣٦١)، والشجري في (الأمالي ٢/١٩٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٥٢٤، ٤/٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٣٣٩، ٧/٤٥٠، ٩/٢١٤).

(٢) أخرجه مسلم (زهد ١١).

(٣) الطوبىٰ: الحسنى والخير وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال، وغنى بلا فقر.

قال: ومن آداب العزلة أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده لكيلا يستهويه الشيطان بوسواسه، ثم يحصل من العلوم الشرعية ما يؤدي به فرضه، ليكون بناء أمره على أساس محكم. والعزلة في الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة، والتأثير لتبديل الصفات لا للتنائي عن الأوطان، ولهذا قيل: من العارف؟ قالوا كائن بائن، يعني كائن مع الخلق بائن عنهم بالسر.

وقال أبو عثمان المغربي رضي الله تعالى عنه: من اختار الخلوة على الصحبة ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، وخالياً من جميع الإرادات إلا رضى ربه، وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذا الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية.

وقيل: إذا أراد الله سبحانه أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة، وأغناه بالقناعة، وبصره بعيوب نفسه، فمن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا والآخرة.

وقال رجل لبشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه: أوصني بوصية، فقال له: عليك بلزوم بيتك، وترك ملاقاة الناس، فقال له الرجل: بلغني عن الحسن رضي الله تعالى عنه أنه قال: لولا الليل وملاقاة الإخوان ما كنت أبالي متى مت، فقال بشر: رحم الله الحسن لقد كان الظن به خلاف هذا، ثم أنشد:

يا مَنْ يسرّ برؤيةِ الإخوان ... مهلاً أمنت مكايدَ الشيطان
خلت القلوب من المعادِ وذكره ... وتشاغلوا بالحرص والخسران
صارت محاسن من يرى وحديثهم ... في هتكِ مستور وخُلف قُران

وأنشد آخر:

ولما بلوت النَّاس أطلب صاحباً ... أخا ثقة عند ارتكابِ الشدائد
تفكرت فالدنيا رخاء وشدة ... وناديت في الأحياء هل من مساعدِ
فلم أر فيما ساءني غير شامت ... ولم أر فيما سرني غير حاسدِ

وأنشد آخر:

وما زلت إذ لاحَ المشيبُ بمفرقي ... أُفتشُ عن هذا الورى ثم أكشفُ
فما أنْ عرفتُ الناس إلا ذممتُهم ... جزى الله خيراً كل من لست أعرفُ

وقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: ليكن بيتك الخلوة، وطعامك الجوع، وحديثك المناجاة، فإما أن تموت بدائك، وإما أن تصل إلى دوائك.

وأنشد بعضهم:

سألتُ طبيبي عن دوائي فقال لي ... تموت فتنجو أو تعيش فتحزنا
فإنْ متُ من وجدي ظفرت بجنتي ... وإنْ عشِت محزوناً كتبتك مُحسناً
كذا سنتي في أهل ودي وصفوتي ... فإنْ كنت مشغوفاً تأهب لقربنا
فقلت مليكي ليس لي ما أريدهُ ... فجُد لي بما يرضيك يا غاية المنا

قلت: ومما يتعلق بالعزلة ما رأيت في منامات يطول ذكرها، ومختصرها أني رأيت كأنّ الفضيل رضي الله تعالى عنه قال لي: إذا أردت طريقنا فأذب هذه الشحمة وفارق الخلق؛ ورأيت كأن الشيخ أبا الغيث رضي الله تعالى عنه قال: من لم يلزم العزلة دهكه الخلق واندهك دينه؛ وكان هذا المنام قريباً من تأليف هذا الكتاب؛ ورأيته قبل ذلك بمدة يسيرة هو والفقيه إسماعيل الحضرمي رضي الله تعالى عنهما في ليلة واحدة، فقال أحدهما لي: ما فتح عليّ إلا بعد الخمسين، فقلت له: يا سيدي هذا بدء الفتح أم كماله؟ فقال: يا ولدي إذا جاء فضل الله جاء مرة واحدة، ففهمت أنه يعني بذلك الجذبة من الحق سبحانه للعبد.

وقال لي بعض شيوخنا قريباً من التاريخ المذكور بعد موته كلاماً معناه: إن سمعت مني لم تشتغل إلا بنفسك بعد أن رأيته رضي الله تعالى عنه وهو في مسجد سيدنا الفقيه محمد بن أحمد الدهيتي المشهور بالبصال، وكان قوله هذا إليّ عقب تردد وقع لي في اشتغال بعض الطلبة بشيء من العلم، بعدما طال التماس جماعة كثيرين مني ذلك.

وكذلك سألت الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه في بعض منامات رأيته فيها: هل الاشتغال بالعلم أفضل، أم الانفراد والاشتغال بالله سبحانه؟ فقال: الفقهاء يقولون الاشتغال بالعلم أفضلية، ولم يفتني بأفضلية ذلك في نفس الأمر بل أضاف ذلك إلى قول الفقهاء، والله سبحانه أعلم.

وقال لي أيضاً شيخنا وسيدنا الشيخ علي بن عبد اللّٰه الطواشي نسباً بعد موته رضي الله تعالى عنه ولجماعة من الفقراء لا أعرفهم: الحقوني ثم قام، فقلت له نحن بعدك بقليل، فمر سريعاً حتى غاب عن أعيننا، ثم تبعته فوجدته في مسجد عال في مدينة عجيبة، فقام وتلقاني وعانقني وفرح بي فرحاً شديداً وأجلسني إلى جانبه، ولا أدري هل هذا لحوق بالموت أو لحوق بالزهد في الدنيا والانقطاع إلى الله تعالى، وهذا أيضاً قريب من التاريخ المذكور.

ورأيت أيضاً فيما تقدم كأن إنساناً شرع يمدح العزلة ويذم الخلطة، فقلت له: قد قالوا المخالطة أفضل لمن يسلم فيها، فقال: ومن الذي يسلم في المخالطة؟ انتهى ذلك، نسأل الله الكريم التوفيق.

قلت: وينبغي للمعتزل أن يحرص على حضور الصلوات في الجماعات، فإن تضرر بالخروج فليلتمس إنساناً يصلي معه في الخلوات، ولا يصلي وحده فتفوته الفضائل العظيمة والدرجات العاليات، اللهم إلا أن تدعو الضرورة والمصلحة الظاهرة إلى الاعتزال في المواضع البعيدات كالجبال والأودية والفلوات، فالمرجو من كرم الله سبحانه حينئذٍ أن يضاعف أجره كما يضاعفه في الجماعات، أو يقيض له من يصلي معه من الملائكة والصالحين، كما جاء عن بعضهم في بعض الروايات.

ومما أنشدوا في العزلة في البراري:

أخـس النـاس بـالإيمـان عبـد ... خفيـف الحـاذ مسكنـة القفـارُ
لـه فـي الليـل حـظ فـي صـلاةٍ ... ومـن صـومٍ إذا طلـعَ النهـارُ

وقـوت النـاس يـأتـي فـي كفـاف ... وكـان لـه علـى ذاك اصطبـارُ
وفيـه عفـة وبـه خمـول ... إليـه بـالأصـابـع لا يشـارُ
وقـلّ البـاكيـات عليـه لمـا ... قضـى نحبـا وليـسَ لـه يسـار
فـذلـك قـد نجـا مـن كـل شـر ... ولـم تمسسـهُ يـوم البعـث نـار

وأنشدوا أيضاً:

ومشتـت العـزمـات لا يلـوي علـى ... أهـلٍ ولا مـال ولا جيـران
ألـفَ السَّـرى حتـى كـأن رحيلـه ... للبيـن رحلتُـه إلـى الأوطـان

قلت: ومن حكايات المعتزلين في الأودية والشعاب ورؤوس الجبال، ما حكي عن ذي النون رضي الله تعالى عنه أنه قال: رأيت في بعض سواحل الشام امرأة، فقلت من أين أقبلت؟ فقالت من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلت وأين تريدين؟ قالت إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فقلت صفيهم لي، فأنشأت تقول:

قـوم همـومُهـم بـالله قـد علقـتْ ... فمـا لهُـم همـم تسمـو إلـى أحـدِ
فمطلـب القـوم مـولاهـم وسيـدهَـم ... يـا حُسـن مطلبهـم للـواحـد الصمـدِ
مـا أن ينـازعهـم دنيـا ولا شـرف ... مـن المطـاعـم واللـذات والـولـدِ
ولا لبـاس لثـوب فـائـق أنـق ... ولا لـروح سـرور حـل فـي بلـدِ
فهـم رهـائـن غـدران وأوديـة ... وفـي الشـوامخِ تلقـاهـم مع العـددِ

وحكي عن محمد بن رافع رحمه الله تعالى قال: أقبلت من بعض بلاد الشام، فبينما أنا في بعض الطريق رأيت فتى عليه جبة من صوف وبيده ركوة فظننته موسوساً فقلت من خلقك؟ فاصفرّ لونه حتى كأنه صبغ بالزعفران[1]، ثم قال: خلقني من لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، فقلت له دلني على عمل يقربني إلى الله عز وجل؟ فقال: يا أخي قد نظرت في جميع العبادات فلم أر أرفع، أو قال أنفع من الفرار من الناس وترك مخالطتهم، يا أخي رأيت القلب عشرة أجزاء؛ فتسعة مع الناس، وجزء مع الدنيا، فمن قوي على الانفراد حاز تسعة أجزاء من القلب، ثم غاب عني فلم أره رضي الله تعالى عنه.

وحكي عن بعض الصالحين أنه قال: دخلت الخلوة في أيام بدايتي، وعاهدت الله سبحانه أني لا آكل شيئاً إلا بعد أربعين يوماً، فمكثت نيفاً وعشرين يوماً، واشتدت بي الفاقة والضرورة، فخرجت من الخلوة ولم أشعر بنفسي إلا وأنا في السوق، وإذا بفقير يتمنى في السوق يقول، تمنيت على الله رطل خبز حواري[2] ورطل شواء ورطل حلواء، قال فكنت أستثقله وهو يطوف بالسوق ويمر عليّ

(١) الزعفران: نبات بصلي عطري معمر من الفصيلة السوسنية، منه أنواع برية، ونوع زراعي صبغي طبي مشهور. زهره أحمر إلى الصفرة (ج) زعافر.
(٢) الحُوّراي: لُباب الدقيق الأبيض.

ولا يكلمني، وأنا أقول في نفسي والله إن هذا ثقيل يتمنى هذه الشهوات العزيزة وأنا أطلب كسرة يابسة ما حصلت لي، فلما كان بعد ساعة حصل له الذي تمناه، فجاءني به وأعطانيه، وعصر بأذني وقال: من هو الثقيل الذي نقض العهد وخرج من الخلوة لأجل الشهوة، أو الذي يطلب له من الطيبات النفاس ما يرد عليه القوة والحواس؟ ثم قال: إن الذي يريد أن يطوي الأربعين يطويها بالتدريج ولا يثبها وثبة واحدة فيثور عليه كلب الجوع ويهيج، ثم قال: لا تعد إلى هذا المذهب وتركني وذهب، هذا معنى الحكاية وإن اختلف بعض ألفاظها رضي الله تعالى عن جميع الصالحين ونفعني بهم والمسلمين.

قلت: وأما الذكر[1] فقد ورد في فصله من الكتاب والسنة وأقوال المشايخ العارفين والعلماء العالمين ما حصره يتعذر ولا يسعه هذا المختصر، وها أنا أذكر قطرة من بحر زاخر، يفوز بجواهره كل لسان ذاكر وقلب حاضر، قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١] وقال سبحانه: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ [آل عمران: ١٩١] وغير ذلك من الآيات الكريمات الصريحات في التحريض على الذكر. وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم»[2] الحديث، رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «سبق المفردون، قالوا وما المفردون؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[3] رواه مسلم. وقال ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى، قال ذكر الله»[4] رواه الترمذي. قال الحاكم أبو عبد اللّه في

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢١ ـ ٢٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٩/١٤٧)، ومسلم في (الصحيح ٢٠٦١ و٢٠٦٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣/٢١٠، ٢٧٧)، (بغوي ١/١٢٦)، والسهمي في (تاريخ جرجان ٥٠٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/١٤٩، ١٩٥) والبغوي في (شرح السنة ٥/٢٤، ٢٧٣)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٤/٣٨٨، ٥/٢٢) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١١٣٥، ١١٣٦، ٥٨٤٥)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٤٥٠) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٦/٢٣٢٧)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٢٠٩)، وصاحب (الإتحافات السنية ٧٠، ٧٦، ٧٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/٥، ٦، ٧، ٨/٣٣٣، ٩/١٦٩، ١٠/٢٧٧)، وابن كثير في (التفسير ١/٣١٣، ٢/٧٣)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٩/٢٧)، وابن أبي الدنيا في (حسن الظن ٢ و٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الترمذي في (السنن ٣٣٧٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/١٩٥)، وابن ماجة في (السنن ٣٧٩٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٦/٣٩٧)، والحاكم في (المستدرك ١/٤٩٦)، وصاحب (الأذكار النووية ١٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/٢٩٦)، والتبريزي في (مشكاة =

كتابه المستدرك على الصحيحين: هذا حديث صحيح الإسناد. وقال ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1] رواه مسلم. وقال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل وما رياض الجنة؟ قال حلق الذكر»[2] وغير ذلك من الأحاديث الصحاح والحسان.

وقد ذكرت نبذة من ذلك في كتاب الإرشاد مما يتعلق بفضل الذكر مطلقاً ومعيناً في شيء من أذكار مخصوصة: منها قوله ﷺ: «أفضل الذكر إلٰه إلا الله»[3] رواه الترمذي، وقال حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه أيضاً، وقوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمٰن سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[4] رواه البخاري ومسلم. وقوله ﷺ: «أحب الكلام

= المصابيح ٢٢٦٩) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٦٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٧)، والبغوي في (شرح السنة ٥/ ١٥)، والسيوطي في (الحاوي للفتاوي ٢/ ٢١)، وابن عبد البر في (التمهيد ٦/ ٥٨)، (بغوي ٥/ ١٩٥)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٤٢٢)، وابن تيمية في (الكلم الطيب ١) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٣٩٥)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢/ ١٢).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ب ١١ رقم ٣٩)، والبغوي في (شرح السنة ٥/ ١٠) والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١٥٠)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٤٠٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٠٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٨٢٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٢٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٨)، وصاحب (الأذكار النووية ١٨).

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ٣٥٠٩، ٣٥١٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ١٥٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١/ ٣٢٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٧٢٩، ٢٢٧١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٢٤٠، ٥/ ٦، ١٧٣، ٨/ ٣٢٢)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٩٠، ١٠/ ٢٥٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١٥٢)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٧٢٩٤) وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ٢٦٨، ٣٥٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ١١٢) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٤، ٢٩٦)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٢٦)، وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ٢٣٩)، والشجري في (الأمالي ١/ ٦١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٨٨٤، ٢٠٧٣٩، ٢٨٦٩٥)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٦/ ٢١٤٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/ ٩٥)، والخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه ١٢، ١٣)، (تحذير ٢٠٤).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٣٣٨٣)، وابن ماجه في (السنن ٣٨٠٠)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٤٩٨، ٥٠٣)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٢٣٢٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٤١٥)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٣٨)، (بغوي ٤/ ١٩٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٠٧)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٠٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٥)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٨٠) والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١١، ١٥٥، ٦/ ٦٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٤٨)، وابن عبد البر في (التمهيد ٦/ ٤٣).

(٤) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١٠٧، ١٧٣، ٩/ ١٩٩)، ومسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ب ١٠ رقم ٣١) والترمذي في (السنن ٣٤٦٧) وابن ماجه في (السنن ٣٨٠٦)، وأحمد بن حنبل في =

إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت»[١] رواه مسلم. وقوله ﷺ: «من قال لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يومه مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه»[٢] رواه البخاري ومسلم. وقوله ﷺ: «من قال سبحانه الله وبحمده في يومه مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[٣] رواه البخاري ومسلم أيضاً. وقوله ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة»[٤] رواه الترمذي وقال حديث حسن. وقوله ﷺ: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشراً»[٥] رواه مسلم. وقوله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الٓمٓ حرف ولكن أقول ألف حرف ولام حرف وميم حرف» رواه مسلم. وقوله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع به وهو عليه شاقّ له أجران»[٦] رواه البخاري ومسلم. وقوله ﷺ في «قل هو الله أحد: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[٧] رواه البخاري.

= (المسند ٢/ ٢٣٢) والبغوي في (شرح السنة ٥/ ٤٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ١٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٤٢٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٠/ ٢٨٩، ٣/ ٤٤٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٠٧، ٢٠٤٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٧١)، (بغوي ٥/ ٢٠٥، ٧/ ٢٨) والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٢٩٨)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٨/ ١٥٩)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٩٩)، وصاحب (الأذكار النووية ١٦)، وابن كثير في (التفسير ٨/ ٢٩)، والقرطبي في (التفسير ١/ ٦٧)، وابن تيمية في (الكلم الطيب ١٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١/ ٤٠٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٠٦، ٥٦٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٠١).

(١) أخرجه ابن ماجه (أدب ٥٦)، وأحمد بن حنبل ٥، ١٠، ١١، ٢٠، ٢١.

(٢) أخرجه البخاري (بدء الخلق ١١)، (دعوات ٦٥)، ومسلم (ذكر ٢٧)، والترمذي (دعوات ٥٩، ٦٢) وابن ماجه (دعاء ١٤)، والموطأ (قرآن ٢٠)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٣٠٢، ٣٧٥، ٤/ ٢٢٧.

(٣) أخرجه الموطأ (قرآن ٢١)، والترمذي (دعوات ٥٩)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٣٠٢، ٣١٠، ٣٧٥، ٥١٥.

(٤) أخرجه الترمذي (دعوات ٥٩)، وابن ماجه (أدب ٥٦).

(٥) أخرجه النسائي (أذان ٣٧)، (سهو ٥٥)، وأحمد بن حنبل ٢، ١٦٨، ٣٧٢، ٣٧٥، ٤٨٥.

(٦) أخرجه أبو داود في (السنن ١٤٥٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ٤٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢/ ٢٦٠)، والبغوي في (شرح السنة ٤/ ٤٣٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٢٦٧).

(٧) أخرجه البخاري (أيمان ٣)، (فضائل القرآن ١٣)، (توحيد ١)، ومسلم (مسافرين ٢٥٩، ٢٦١) وأبو داود (وتر ١٨)، والترمذي (ثواب القرآن ١٠،١١)، والنسائي (افتتاح ٦٩)، وابن ماجه (أدب ٥٢)، والدارمي (فضائل القرآن ٢١، ٢٢، ٢٤)، والموطأ (قرآن ١٧) وأحمد بن حنبل ٢/ ٤٢٩، ٣/ ١٥، ٢٣، ٣٥، ٤٣، ٤/ ١٢٢، ٦/ ٤٠٤.

قلت: وهذا المختصر لا يحتمل إيراد ما ورد في ذلك، ولا هو موضع لذلك، وإنما ذكرت هذه الأحاديث اليسيرة الجليلة القدر على جهة البركة والتنبيه على سعة الفضل وعظيم الأجر.

والذكر في الأصل خلاف الغفلة، والمقصود منه ذكر القلب، فإن انضاف إليه ذكر اللسان فهو أفضل وأكمل، وأما ذكر اللسان وحده فقليل الجدوى، لكن الاستدامة على ذلك تكون سبباً لذكر القلب.

وتكلم الشيوخ فيه؛ فقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: الذكر منشور الولاية، فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل. وقد تقدم هذا القول.

وقال سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادي عبدي ما أنصفتني، أذكرك وتنساني، أدعوك إليّ وتذهب إلي غيري، وأذهب عنك البلايا وأنت منعكف على الخطايا، يا ابن آدم ما تقول غداً إذا جئتني؟

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: من ذكر الله ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله سبحانه عليه كل شيء، وكان له عوضاً عن كل شيء.

وسأل الواسطي رضي الله تعالى عنه عن الذكر فقال: الخروج عن ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر.

وقال بعضهم: ذكر الله تعالى بالقلب سيف المريدين، به يقاتلون أعدائهم، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم.

وقيل: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرع كما يصرع الإنسان إذ دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون ما لهذا؟ فيقال قد مسه الإنس.

وقد تقدم قول بعضهم: لو خرج مني نفس بغير ذكر الله لذبحت نفسي، وقول بعضهم: ذكرت الله ثلاثين سنة فكنت أسمع الذكر عشر سنين من لساني، وعشر سنين من قلبي، وعشر سنين من الكون.

وسئل الشيخ أبوعثمان رضي الله تعالى عنه فقيل له: نذكر الله ولا نجد في قلوبنا حلاوة، فقال احمدوا الله سبحانه على أن زين جارحة من جوارحكم بطاعته.

وقال أبو بكر الكتاني رضي الله تعالى عنه: لولا أن ذكره فرض عليّ لما ذكرته إجلالاً له، مثلي يذكره ولم يغسل فمه بألف توبة متقبلة عن ذكره.

وأنشد بعضهم:

مـــا إنْ ذكـــرتـــك إلا هـــم يلعنتـــي ... قلبـي وسـري وروحـي عنـد ذكـراكـا
حتـى كـأنَ رقيبـاً منـك يهتـف بـي ... إيــاكَ ويحُــك والتــذكــار إيــاكــا

وأنشد:

مـــا إنْ ذكـــرتكُـــم إلا نسيتكُـــم ... نسيـــان إجـلال لا نسيـــان إخـــلالِ
إذا تـــذكـــرت مـــن أنتـــمُ وكيـــف أنـــا ... أجللتُ ذكراكُم حين يجري على بالي

وأنشد الشبلي رضي الله تعالى عنه:

ذكـــرتـــك لا أنـــي نسيتـــك لمحـــة ... وأيسـر مـا فـي الـذكـر ذكـر لسـانـي
وكـدت بـلا وجـد أمـوت مـن الهـوى ... وهــامَ علــيّ القلــب بــالخفقــانِ
فلمـا أرانـي الـوجـد أنـك حـاضـري ... شهــدتــك مــوجــوداً بكــل مكــانِ
فخــاطبــتُ مــوجـوداً بغيـر تكلـم ... ولاحظــت معلــومــاً بغيــر عيــانِ

وأنشد أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه:

ذكـــرت ولـــم أذكـــر حقيقـــة ذكـــره ... ولكـن بـذكـري الحـق يبـدو فـأنطقُ
إذا مـــا بـــدا ذكـــر لـــذكـــر ذكـــرتـــهُ ... يغيبنـــي عـــن ذكـــرٍ ذكـــر فـــأغـــرقُ

قلت: وقد اختلف العلماء في القدر الذي يصير به الإنسان من الذاكرين الله كثيراً، فروينا عن الإمام أبي الحسين الواحدي رضي الله تعالى عنه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إذا ذكر الله في أدبار الصلوات وغدواً وعشياً وفي المضاجع وكلما استيقظ من نومه وكما غدا وراح من منزله.

قال: وقال مجاهد لا يكون من الذاكرين الله تعالى كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

وسئل الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح رضي الله تعالى عنه عن القدر الذي يصير به من الذاكرين الله كثيراً؟ فقال: إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساء، وفي الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهاراً، وهي مبينة في كتاب عمل اليوم والليلة، كان من الذاكرين الله تعالى كثيراً، والله تعالى أعلم.

قلت: وقد تقدم اختلاف أئمة اللغة في قوله ﷺ: «سبق المفردون» الحديث المتقدم. وقول ابن الأعرابي يقال فرّد الرجل بشد الراء إذا تفقه واعتزل الناس وخلا بنفسه مراعياً لأمر الله ونهيه. وقول ابن قتيبة: هم الذين هلك أقرانهم من الناس وبقوا وهم يذكرون الله. وقول الأزهري: هم المتحلون عن الناس بذكر الله لا يخلطون به غيره. وقيل غير ذلك. وتقدم في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «هم الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (تطوع ١٨)، (وتر ١٣)، ومسلم (ذكر ٤)، والترمذي (دعوات ٥)، وابن ماجه =

قلت: ومن حكايات الذاكرين، ما حكي أبو محمد الجريري رضي الله تعالى عنه قال: كان بين أصحابنا رجل يكثر أن يقول الله الله، فوقع يوماً على رأسه جذع، فانشج رأسه ووقع الدم فانكتب على الأرض الله الله.

وحكي عن حامد الأسود رحمه الله تعالى قال: كنت مع إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه في سفر، فجئنا إلى موضع به حيات كثيرة، فوضع ركوته وجلس وجلست، فلما برد الليل وبرد الهواء خرجت الحيات، فصحت بالشيخ فقال اذكر الله، فذكرت فرجعت، ثم عادت فصحت به، فقال مثل ذلك: فلم أزل إلى الصباح في مثل تلك الحالة، فلما أصبحنا قام ومشى ومشيت معه، فسقطت من وطائه[1] حية عظيمة قد تطوقت، فقلت ما أحسست بها؟ قال لا، منذ زمان ما بت أطيب من البارحة.

وحكي عن ذي النون رضي الله تعالى عنه قال: بينما أنا أسير في بلاد الشام، إذا أنا بعابد قد خرج من بعض تلك الكهوف، فلما نظر إليّ تستر عني بين تلك الأشجار ثم قال: أعوذ بك يا سيدي ممن يشغلني عنك، يا مأوى العارفين، وحبيب التوابين ومعيذ الصادقين، وغاية أمل المحبين، ثم صاح واغماه من طول البكاء، واكرباه من طول المكث في الدنيا، سبحان من أذاق قلوب العارفين حلاوة الانقطاع إليه، فلا شيء ألذ عندهم من ذكره والخلوة بمناجاته، ثم مضى وهو يقول قدوس قدوس؛ فناديته أيها العابد قف لي، فوقف وهو يقول: اللهم اقطع عن قلبي كل علاقة، واجعل شغله بك دون خلقك، فسلمت عليه وسألته أن يدعو لي، فقال خفف الله عنك مؤن نصب السير إليه، وأداك إلى رضاه حتى لا يكون بينك وبينه علاقة، أو قال: أوصلك إلى مقام الأحباب، وكشف لك عن جمال جلال الحجاب، قال: ثم سعى بين يدي كالهارب من السبع رضي الله تعالى عنه. وحكايات الذاكرين كثيرة، وقد اقتصرت منها على هذه الألفاظ اليسيرة.

ثم ذكرت من الخصال العشرين أربعاً أخرى بقولي:

وصدق وإخلاص وحسن استقامة ... وكن راضياً فيما بك الحق صانعُ

قد تقدم تفسير الرضى بقي الصدق والإخلاص والاستقامة.

قلت: وناهيك بهذه الثلاث الخصال العزيزة الشريفة [الأولى منها: الصدق][2] قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٩] وقال سبحانه: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال عز وجل: ﴿فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ [محمد: ٢١] وقال رسول الله ﷺ «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى

= (إقامة ١٧٥)، والدارمي (فضائل القرآن ٣٠)، وأحمد بن حنبل ٣، ٧٥.

(١) الوطاء: خلاف الغطاء؛ أي: ما تفترشهُ.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٢١٠ ـ ٢١٤.

يكتب عند الله صديقاً؛ وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[١] رواه البخاري ومسلم، وفي رواية مسلم «وما يزال الرجل» وفي لفظ آخر «العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وما زال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» ورواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، ورواه مالك في الموطأ باختلاف بعض ألفاظه، وقال ﷺ: «من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[٢] رواه مسلم. وقال ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يفترقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»[٣] رواه البخاري ومسلم.

والصدق في اللغة: الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، وخلافه الكذب، قاله الجوهري في الصحاح، والصدق في الشرع يشمل الصدق في النية، والصدق في الأقوال، والصدق في الأفعال.

وتكلم الشيوخ فيه، فقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: أقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق من صدق في أقواله، والصديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله. قال: والصدق تالي درجة النبوة، قال الله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

قلت: وهكذا ذكر الشيوخ العارفون درجة الصديقية ليس فوقها إلا درجة النبوة، وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ٣٠)، ومسلم في الصحيح (البر والصلة ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥) وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٨٤، ٤٣٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٩٦، ٢٤٣)، والدارمي في (السنن ٢/ ٢٩٩)، والحاكم في (المستدرك ١/ ١٢٧)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٥٠٧)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٢٩٠)، وابن كثير في (التفسير ٤/ ١٧٠)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٦٥٩)، (بغوي ١/ ٣٧٨) وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٨/ ٣٧٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٨٥٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥١٩، ١٠/ ٦٧، ٨٥) والقرطبي في (التفسير ٨/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (إمارة ١٥٤)، وأبو داود (وتر ٢٦) والترمذي (فضائل الجهاد ١٩)، والنسائي (جهاد ٣٦)، وابن ماجة (جهاد ١٥)، والدارمي (جهاد ١٥).

(٣) أخرجه البخاري (بيوع ١٩، ٢٢، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٤٧)، ومسلم (بيوع ٤٣، ٤٦، ٤٧) وأبو داود (بيوع ٥١)،و الترمذي (بيوع ٢٦)، والنسائي (بيوع ٤، ٨، ٩، ١٠، ٨٢)، وابن ماجه (تجارات ١٧)، والدارمي (بيوع ١٥)، والموطأ (بيوع ٧٩) ، وأحمد بن حنبل ٢، ٤، ٩، ٥٢، ٥٤، ٧٣، ١٣٥، ٣١١، ٣/ ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٢٥، ٥/ ١٢، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٣.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: الصدق أن تكون كما ترى من نفسك، أو ترى من نفسك كما تكون.

وقال إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه.

قلت: وقد تقدم هذا القول. وقال عبد الواحد بن زيد رضي الله تعالى عنه، الصدق الوفاء لله تعالى بالعمل، وقد تقدم هذا القول أيضاً.

وقال سهل رضي الله تعالى عنه: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

وقال يوسف بن أسباط رضي الله تعالى عنه: لأن أبيت ليلة أعامل الله سبحانه بالصدق أحب إليّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله تعالى.

وقال المحاسبي رضي الله تعالى عنه: الصادق الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق، ولا يحب اطلاعهم على شيء من حسن عمله، ولا يكره اطلاعهم على السيء من عمله. هذا مختصر من كلامه.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: الصدق سيف ما وضع على شيء إلا قطعه.

وسئل فتح الموصلي رضي الله تعالى عنه عن الصدق، فأدخل يده في كير الحداد وأخرج الحديدة المحماة ووضعها على كفه وقال: هذا هو الصدق. وقال بعضهم: الصادق تحت خفارة صدقه.

قلت: يعني إذا ارتكب المهالك عن صدق حماه صدقه عن الهلاك، وانقلب ذلك الهلاك نجاة بإذن الله تعالى، كما انقلبت النار برداً وسلاماً بقوله عز وجل: ﴿قلنا: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩].

قلت: ومن ذلك قضية فتح الموصلي هذه المذكورة، وقضية أحمد بن أبي الحواري حين دخل التنور(١) وفيه النار، وقضية سفيان الثوري في التخلص من اللزوم لما طلبه المهدي. وقضية أبي عمرو الزجاجي في التخلص من اللص، وقضية بعضهم في التخلص من الأسود، وغير ذلك مما يطول ذكره بل يتعذر حصره من قضيات ووقائع وقعت للصادقين والصديقين رضي الله تعالى عنهم أجمعين في حكايات مشهورات ثابتات بالأسانيد الصحيحات وها أنا أذكر شيئاً يسيراً منها محذوف الأسانيد اختصاراً.

ومن ذلك ما حكي عن الشيخ أحمد بن أبي الحواري رضي الله تعالى عنه، أنه عاهد شيخه أبا سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه لما صحبه أن لا يخالفه في شيء، فلما كان ذات يوم جاء وهو مشغول القلب، فقال له يا أستاذ قد حمي التنور فلم يكلمه، فكرر عليه ذلك مراراً فلما أكثر عليه وهو

---

(١) التَّنُّورُ: ضرب من الكوانين يُخبز فيه، أعلاه أضيق من أسفله (ج) تنانير.

في شغل عنه قال له: اذهب فادخل فيه، فذهب من عنده ودخل في التنور، فلما كان بعد ساعة قال الشيخ أبو سليمان: الحقوا أحمد فإنه عاهدني أن لا يخالفني في شيء، فجاؤوا إليه وأخرجوه من التنور ولم تضره النار.

قلت: وإنما لم تضره النار لأنه دخل فيها وهو مشتمل برداء الصدق الواقي من مكروه الدار. وقد أجبت عن ذلك في غير هذا الكتاب فقلت: الجواب عن هذا أنه علم بقوة يقينه أن مراعاته للعهد المذكور وقيامه بالوفاء به يدفع عنه كل مخوف محذور، وكسى حالاً من الله تعالى هو به عن حرارة النار مستور.

ومن هذا الصدق المذكور ما حكي أن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبا سيعد اليمني الحضرمي رضي الله تعالى عنه، كان يأتي في بدايته إلى الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير الفقيه الإمام رفيع المقام أبي الذبيح إسماعيل بن محمد اليمني الحضرمي شيخ شيوخنا، وقد تقدم ذكره في أول الكتاب قدس الله تعالى روحه ونور ضريحه، فإذا جاءه قام له، ولا يقوم للفقهاء إذا أتوه، فقالوا له: يأتيك الفقهاء الكبار ولا تقوم لهم وتقوم لهذا الفقير؟ فقال لهم ما تدرون ما عند هذا الفقير، ثم قال لهم لو أمرتكم أن تثبوا جرف هذا البئر أكنتم تفعلون؟ قالوا لا والله ما نلقي بأيدينا إلى التهلكة، فقال لأبي سعيد المذكور يا محمد لو أمرتك بذلك ماذا كنت تفعل؟ فقال يا سيدي وعزة المعبود لو أمرتني بذلك ما رأيت إلا بياض قدمي.

قلت: يعني أنه يبادر إلى امتثال أمره في الحال، ويتزل في البئر على رأسه لا على قدميه مبالغة في الأدب وابتذالاً للأعز الغالي في طاعة المولى.

كما قال المحب الموالي:

والله لـو علمـتْ روحـي بمـن علقـتْ ... قـامـتْ علـى رأسهـا فضـلاً عـن القـدم

قلت: ومن حكايات أهل الصدق أيضاً، ما حكي عن السيد الجليل الإمام الحفيل الذي يغني عن مدحه شهرة فضله واستفاضة صدقه في قوله وفعله، سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه أنه قال: طلبت في أيام المهدي فهربت، فأتيت اليمن وكنت أنزل في حي وآوي إلى مسجدهم، فسرق في ذلك الحي، يعني الذي نزل فيه، قال فاتهموني، فأتوا بي إلى معن بن زائدة، وكان قد كتب إليه في طلبي وقيل له؛ إن هذا قد سرق متاعنا، فقال لم سرقت متاعهم؟ فقلت ما سرقت شيئاً، فقال لهم تحولوا لأسائله: ثم أقبل عليّ فقال لي: ما اسمك؟ فقلت عبد اللّه بن عبد الرحمن، فقال يا عبد اللّه بن عبد الرحمن نشدتك بالله لما نسبت لي نسبك، قلت أنا سفيان بن سعيد بن مسروق، قال الثوري؟ فقلت الثوري، قال أنت بغية أمير المؤمنين، قلت أجل، فأطرق ساعة ثم قال: ما شئت فأقم وارحل متى شئت، فوالله لو كنت تحت قدمي ما رفعتها.

قلت: ولسفيان مع المهدي وغيره وقائع مشهورة، منها ما حكى أبو نعيم رضي الله تعالى عنه

في الحلية[1] أنه قال للمهدي: كم أنفقت في حجتك؟ فقال لا أدري، قال لكن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنفق في حجته ستة عشر ديناراً واستكثرها؛ وفي بعض الروايات أنه قال له: اتق الله واعلم أن عمر بن الخطاب أنفق في حجته ستة عشر ديناراً ينهاه عن الإسراف في بيت مال المسلمين. وفي رواية أخرى قال سفيان: دخلت على المهدي بمنى، فلما سلمت عليه بالإمرة قال لي: أيها الرجل طلبناك فأعجزتنا، ونحمد الله الذي جاء بك فارفع إلينا حاجتك، فقلت: قد ملأت الأرض ظلماً وجوراً فاتق الله وليكن منك في ذلك غيرة، فطأطأ رأسه ثم رفعه وقال: رأيت إن لم أستطع رفعه؟ قال فقلت تخليه وغيرك، قال فطأطأ[2] رأسه ثم قال: ارفع إلينا حاجتك، قلت: أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم، فطأطأ رأسه ثم قال: أيها الرجل ارفع حاجتك، فقلت وما أرفع؟ حدثني إسماعيل بن خالد قال: حج عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال لخازنه كم أنفقت؟ فقال: بضعة عشر ديناراً، وأرى هاهنا أموالاً لا تطيقها الجبال.

وحكى غير واحد من الأئمة، أنه لما حج أبو جعفر المنصور بعث بالخشابين قدامه وقال: حيثما وجدتم سفيان الثوري فخذوه، وفي رواية فاصلبوه، فوصل الخشابون إلى مكة ونصبوا الخشب، فوجدوا سفيان الثوري ورأسه في حجر الفضيل بن عياض ورجلاه في حجر سفيان بن عيينة رضي الله تعالى عن الثلاثة، فقالا له خوفاً عليه وشفقة لا تشمت بنا الأعداء، فقام ومشى إلى الكعبة ومس ثيابها وقال: ورب هذه البنية لا يدخلها أبو جعفر، يعني المنصور، فقيل مات أبو جعفر ولم يدخلها.

قلت: وقد قيل إنه لزم سفيان رضي الله تعالى عنه بأستار الكعبة في الملتزم وقال مقالته المذكورة، فزلقت رجلي راحلة أبي جعفر في الحجون[3] فوقع من ظهرها ومات فخرج سفيان وصلى عليه.

قلت: وكذلك حكاية سفيان في جواب كتاب هارون الرشيد إليه، حكاهما الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه وغيره، مع أنه قد نقل غير واحد من الأئمة أن سفيان الثوري توفي قبل خلافة الرشيد.

وقال الإمام أبو حامد: قيل لما تولى هارون الرشيد الخلافة قصده العلماء بأسرهم إلا سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه، وكان بينه وبينه إخوة وصحبة فاشتاق إليه هارون وكتب إليه: بسم الله

---

(١) كتاب «حلية الأولياء في الحديث» للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد اللّه الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ مجلد ضخم، وهو كتاب حسن معتبر يتضمن أسامي جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة الأعلام المحققين والمتصوفة والنساك وبعض أحاديثهم وكلامهم وصدر ذكر الخلفاء إلى تمام العشرة في الترتيب ثم جعل من سواهم إرسالاً لئلا يستفاد منه تقديم فرد على فرد لكنه أطال فيه بالأسانيد وتكرير كثير من الحكايات وأمور أخر منافية لموضوعه. (كشف الظنون ١/ ٦٨٩).

(٢) طأطأ الشيء: خفضه.

(٣) الحجون: موضع بمكة.

الرحمن الرحيم، من عبد اللّه هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان، أما بعد يا أخي، فقد علمت أن الله تعالى آخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله، واعلم أني واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك، ولم أقطع منها ودك، منطو لك على أفضل المحبة والإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى لأتيتك ولو حبوا لما أجد لك في قلبي من المحبة، واعلم يا أبا عبد اللّه أنه ما بقي من إخواني ولا من إخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني، وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبد اللّه ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته، فإذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل، فلما كتب الكتاب دفعه إلى عباد الطالقاني وأمره بإيصاله وأن يصغي بسمعه وقلبه دقيق الأمر وجليله، قال فلما وصل الكوفة وجده في مسجده، قال عباد: فلما رآني من بعيد قام ومشى وقال: أعوذ بالله السميع العليم، وأعوذ بك اللهم من طارق يطرقنا إلا بخير، قال: فنزلت بباب المسجد، فقام يصلي ولم يكن وقت صلاة، قال فربطت فرسي ودخلت فسلمت، فما رفع أحد من جلسائه رأسه وردوا السلام، قال: فبقيت واقفاً ما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس، وقد علتني من هيبتهم الرعدة فرميت بالكتاب إليه، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه، فركع وسجد وسلم ثم أدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه بيده ثم دحاه إلى من كان خلفه وقال: بعضكم يقرؤه، فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسه ظالم بيده، قال عباد: فمد بعضهم يده إليه كأنه حية تنهشه، ثم قرأه وسفيان يسمع ويتبسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا للظالم في ظهره، فقيل يا أبا عبد اللّه إنه خليفة، فلو كتبت له في قرطاس نقي؟ قال: اكتبوا للظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له ما نكتب؟ فقال اكتبوا: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من العبد الميت سفيان بن سعيد الثوري إلى العبد المغرور بالآمال والأماني هارون الذي سلب حلاوة الإيمان. أما بعد، فإني كتبت إليك أعلمك أني قد صرمت حبلك، وقطعت ودك، وقلبت موضعك، وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك، بما هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته بغير حكمه، ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني، حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك، أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى، يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله، والمجاهدون في سبيل الله، أم ابن السبيل؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك؟ فشد يا هارون متزرك[1]، واعدد للمسألة جواباً وللبلاء تجفافاً؛ واعلم أنك سوف تقف بين يدي ربك الله الحكم العدل، فابك لنفسك إذا سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظلاماً وللظالمين

---

(١) المتزر: كساء يغطي النصف الأسفل من البدن.

إماماً، يا هارون قعدت على السرير ولبست الوثير وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويضربون من شربها، ويزنون ويجلدون الزاني، ويسرقون ويقطعون السارق، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟ فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله سبحانه: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات: ٢٢] أين الظلمة، وأعوان الظلمة؟ فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت إمامهم ولهم سابق وإمام إلى النار: كأني بك يا هارون قد أخذت بضيق الخناق ووردت المشاق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك، وتزداد بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة؛ فاحتفظ بوصيتي، واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها؛ واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت في النصح غاية، فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ في أمته، وأحسن الخلافة عليهم؛ واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك، وكذلك الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وأنت ممن خسر دنياه وآخرته، وإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه، والسلام.

قال عباد: فألقى إلي الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي، فناديت يا أهل الكوفة، فأجابوني، فقلت ياقوم من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله؟ فأقبلوا إلي بالدنانير والدراهم، فقلت لا حاجة لـي في المال، ولكن جبة صوف وعباءة قطوانية، قال فأتيت بذلك، ونزعت ما كان عليّ من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين، وأقبلت أقود البرذون[1] الذي كان معي وعليه السلاح الذي كنت أحمله، حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلاً، فتهزأ بي كل من كان على باب الخليفة، ثم استؤذن لي، فلما دخلت وأبصرني على تلك الحال قام وقعد، ثم قام قائماً وجعل يلطم على رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسل، ما لي والدنيا والملك يزول عني سريعاً، قال: ثم ألقيت الكتاب كما دفع إليّ، فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر على وجهه ويقرأ ويشهق؛ فقال بعض جلسائه: لقد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين فلو وجهت إليه فأثقلته في الحديد وضيقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره، فقال هارون: اتركوا سفيان يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه؛ إن سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه. قال: ولم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله تعالى.

قلت: وهذه الحكاية المذكورة كبيرة على هذا المختصر، لكن دعاني إلى وضعها فيه ما اشتملت عليه من الموعظة الحسنة، والنصيحة البالغة، والصدق الكامل، والألفاظ الجزلة، والزجر الشديد للظلمة وأعوانهم، مع عدم المبالاة بهم، لقوة اليقين وشدة الخوف لله سبحانه.

---

(١) البرذون: من كان غير أصيل من الخيل والبغال (ج) براذين. والبراذين حيوانات عظيمة الخلقة جافيتها غليظة الأعضاء قوية الأرجل، كبيرة الحوافر وهي جلدة على السير في الشعاب والوعر.

وقد رأيت أن أردفها بموعظة السيد الجليل الشيخ الكبير العارف بالله الشهير الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه لهارون الرشيد أيضاً، على ما حكي غير واحد من أهل العلم في تصانيفهم عن الفضل بن الربيع قال: حج هارون الرشيد فبينما أنا نائم بمكة، إذ سمعت قرع الباب، فقلت من هذا؟ قال أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعاً، فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ لأتيتك، فقال ويحك، قد حاك في نفسي شيء، فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت هاهنا سفيان بن عيينة، فقال امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال له خذ لما جئناك له رحمك الله، فحدثه ساعة، ثم قال له عليك دين؟ قال: نعم، قال اقض دينه، فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً انظر لي رجلاً أسأله، فقلت هاهنا عبد الرزاق بن همام، فقال امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت عليه الباب، فقال من هذا؟ فقلت أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي لأتيتك، فقال خذ لما جئناك له رحمك الله تعالى، فحادثه ساعة ثم قال أعليك دين؟ قال نعم، قال يا فلان اقض دينه، ثم انصرفنا، فقال لي ما أغنى عني صاحبك شيئاً انظر لي رجلاً، فقلت هاهنا الفضيل بن عياض، فقال امض بنا إليه: فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها، قال اقرع الباب فقرعته، فقال من هذا؟ قلت أجب أمير المؤمنين، فقال ما لي ولأمير المؤمنين: فقلت سبحان الله أما عليك طاعته، فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف هارون إليه، فقال يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله، فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي في قلب تقي، فقال له خذ لما جئناك له رحمك الله، فقال إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد اللَّه ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة[1] فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ، فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة؛ فقال له سالم بن عبد اللَّه: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت؛ وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك؛ وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت، وإني لأقول لك هذا وإني لأخاف عليك أشد الخوف في يوم تزل فيه الأقدام، فهل معك، يرحمك الله، مثل هؤلاء من يشير عليك، أو يأمرك بمثل هذا؟ قال: فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير

---

(١) هو رجاء بن حيوة بن جرول الكندي (توفي ١١٢ هـ/ ٧٣٠ م) أبو المقدام، شيخ أهل الشام في عصره من الوعاظ الفصحاء العلماء. كان ملازماً لعمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة. واستكتبه سليمان بن عبد الملك. وهو الذي أشار على سليمان باستخلاف عمر وله معه أخبار. الأعلام ٣/ ١٧، وتذكرة الحفاظ ١/ ١١١، وتهذيب التهذيب ٣/ ٢٦٥، وحلية الأولياء ٥/ ١٧٠، وابن خلكان ١/ ١٨٧، وابن خلدون ٣/ ٧٤.

المؤمنين، قال تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا، ثم أفاق فقال: زدني رحمك الله، فقال بلغني يا أمير المؤمنين أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكى إليه، فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، فإن ذلك يطرد بك إلى باب الرب نائماً ويقظان؛ إياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد ومنقطع الرجاء؛ قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له ما أقدمك؟ قال خلعت قلبي بكتابك، لا وليت لك ولاية حتى ألقى الله، فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال له زدني رحمك الله تعالى، فقال يا أمير المؤمنين: إن عباساً عم رسول الله ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال له: أمّرني، فقال له النبي ﷺ: «يا عباس يا عم النبي ﷺ نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تأمرن على أحد فافعل»، فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال له: زدني رحمك الله تعالى؛ قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة»[1] فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال له: عليك دين؟ قال نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي؛ قال فقال إنما أعني دين العباد، قال إن ربي لم يأمرني بهذا، إن ربي أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره فقال سبحانه: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ [الذاريات: ٥٦] قال، فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها وتقو بها على عبادة ربك، فقال: يا سبحان الله أنا أدلك على النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك، ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده؛ فلما أن صرنا على الباب قال لي هارون: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين اليوم. قال: فبينما نحن كذلك إذ دخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا هذا قد نرى سوء ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال تفرحنا به؟ فقال مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه وأكلوا لحمه فلما سمع هارون هذا الكلام قال نرجع فعسى أن يقبل المال، قال فدخل، فلما علم فضيل خرج فجلس على تراب في السطح على باب الغرفة، وجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلم يجبه، فبينما هما كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف رحمك الله فانصرفنا.

قلت: وهذه الحكاية المشهور تعرفك ما بين علماء الباطن العارفين بالله تعالى، وبين علماء الظاهر من الفرق، أعني ما كان من الفضيل مع هارون، وما كان من الشخصين اللذين دخل عليهما هارون قبله، وما جمع في قوله وفعله من الصدق والورع والزهد والخوف من الله تعالى، والخشوع والعبادة والنصح والصبر وعدم المبالاة بالسلطان، والعلم بالله تعالى وبسيرة الصالحين والخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

قلت: ومن حكايات الصادقين أيضاً، ما حكي عن أبي عمرو الزجاجي رضي الله تعالى عنه أنه

---

(١) أخرجه ابن سعد في (الطبقات الكبرى ٤/ ١/ ١٨)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥/ ٩٦).

قال: ماتت أمي فورثت داراً، فبعتها بخمسين ديناراً وخرجت إلى الحج فلما بلغت بابل استقبلني واحد وقال: إيش معك؟ فقلت في نفسي الصدق خير، ثم قلت خمسين ديناراً، فقال ناولنيها، فناولته الصرة فعدها فإذا هي خمسون، فقال لي خذها فلقد أخذني صدقك، ثم نزل عن الدابة وقال اركبها، فقلت لا أريد، فقال لا بد وألح فركبتها، فقال وأنا على أثرك، فلما كان العام المستقبل لحق بي ولازمني حتى مات رحمه الله تعالى.

قلت: وحكى لي بعض الفقراء الصادقين المجتهدين الصالحين قال: غضبت على نفسي يوماً فقلت لها: اليوم أرميك في المهالك، وكنت في موضع قريب من الأسود فجئت واضطجعت بين شبلين صغيرين، ثم أقبل أبوهما بعد ساعة وهو حامل في فيه لحماً، فلما رآني وضعه من فيه وجلس بعيداً مني، ثم أقبلت أمهما وهي حاملة لحماً أيضاً، فلما رأتني رمت اللحم وصاحت وحملت عليّ، فتلقاها الأسد بيده ومنعها، فجلست ولم يتحركا فمكثا ساعة، ثم جاء الأسد أبوهما يمشي قليلاً قليلاً، فأخذهما بلطف ورماهما إلى أمهما واحداً بعد واحد.

قلت: وهذا من عجيب لطف الله سبحانه بأوليائه، وحمايته للصادقين أهل ولايته رضي الله تعالى عنهم.

وحكي أنه دخل إبراهيم بن دوحة مع إبراهيم بن شيبة[1] البادية، فقال إبراهيم بن شيبة[1]: اطرح ما معك من العلائق، قال فطرحت كل شيء إلا ديناراً، فقال لي إبراهيم: لا تشغل سري اطرح ما معك قال فطرحت الدينار، فقال إبراهيم اطرح ما معك من العلائق، فتذكرت أن معي شسوعاً[2] فطرحتها، فما احتجت في الطريق إلى شسع إلا وجدته بين يدي، فقال ابن شيبة: هكذا من عامل الله سبحانه بالصدق.

قلت: وفي الصادقين الرجال أحسن الذي قال:

أنت بالصدقِ قد خبرتَ رجالاً … قد أطالوا البكا إذا اللَّيلُ طالا
وملأت القلوب منهم بنورٍ … من نفيسِ اليقين يا منْ تعالى
وتوليتهم وكنتَ دليلاً … وكسوت الجميع منهمُ جمالا
فإذا ما الظلامُ جنّ عليهم … وصلوا بالكلالِ منهم كلالا
عفروا بالترابِ منهم وجوهاً … ذاكَ للهِ خشيةً وابتهالا[3]
هجرت للمنام منهم عيون … فاستطار المنامُ عنهم فزالا
إنما لذة البُكا لمُريدٍ … أسلم الأهل والديار وجالا
خاضعاً باكياً حزناً ينادي … يا كريماً إذا استقيلَ أقالا

---

(١) في الرسالة القشيرية ص ٢١٣: ستنبة.
(٢) الشسوع: مفردها الشسع، هو زمام للنعل بين الإصبع الوسطى والتي تليها.
(٣) عفر الشيء: مرّغه في العفر (العفر: ظاهر التراب، أو التراب).

وفي معارضة قوله: «إنما لذة البكا لمريد» قلت:

إنما لذةُ الهوى لرجالِ ... شاهدوا من كمال مَوْلى جمالاً

[الخصلة الثانية من الثلاث المذكورات: الإخلاص[1]].

قال الله عز وجل: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ [البينة: ٥] وقال سبحانه: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين﴾ [النساء: ١٤٦] وقال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كان هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2] رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «إنك لن تخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة الحديث»[3] رواه البخاري ومسلم أيضاً. وقال رسوله الله ﷺ «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[4] رواه مسلم «وسئل ﷺ الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[5] رواه البخاري ومسلم. وعنه ﷺ: «أنه سئل عن

---

(١) انظر حديث القشيري عن الإخلاص في الرسالة القشيرية ص ٢٠٧ ـ ٢١٠.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/ ٢، ٨/ ١٧٥، ٩/ ٢٩)، وأبو داود في (السنن ٢٢٠١)، والترمذي في (السنن ١٦٤٧)، والنسائي في السنن (الطهارة ب ٥٩)، (الإيمان والنذور ب ١٩) وابن ماجه في (السنن ٤٢٢٧)، والشهاب في (المسند ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١/ ٤١، ٢١٥، ٢٩٨، ٢/ ١٤، ٦/ ٣٣١، ٧/ ٣٤١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١٠/ ٥٦)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ٣٤٥)، وابن عبد البر في (التمهيد ٧/ ١٠٦، ٩/ ٢٠١). وصاحب (شرح معاني الآثار ٣/ ٩٦)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ٣٤٢، ٨/ ٤٢)، (بغوي ١/ ٤٣١)، والحميدي في (المسند ٢٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٩)، والبغوي في (شرح السنة ١/ ٤٠١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١)، وابن المبارك في (الزهد ٦٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٨٠، ٣٨١، ٣/ ١٠٠، ١٣٧، ٥/ ٢٤٥، ٢٤٦)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ١/ ٥٥)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٣٥١)، والشجري في (الأمالي ١/ ٩)، وابن كثير في (البداية والنهاية ١٠/ ١١٨، ١١/ ٥٥، ١٤/ ١٨٠)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله ٣/ ٩٦)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ٢٤٤، ٦/ ١٥٣، ٩/ ٣٢٦)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/ ١٥، ٢٢٧)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٣٦٢).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٧٦٣)، والبخاري في (الصحيح ٢/ ١٠٣، ٥/ ٨٧، ٢٢٥)، ومسلم في الصحيح (الوصية ٥)، والبغوي في (شرح السنة ٥/ ٢٨٣)، وابن عساكر في تهذيب (تاريخ دمشق ٦/ ١٠٣)، والربيع بن حبيب في (المسند ٢/ ٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (برّ ٣٢)، وابن ماجه (زهد ٩)، وأحمد بن حنبل ٢، ٢٨٥، ٥٣٩.

(٥) أخرجه البخاري (علم ٤٥)، (جهاد ١٥)، (خمس ١٠)، (توحيد ٢٨)، ومسلم (إمارة ١٤٩ ـ =

الإخلاص ما هو؟ قال ﷺ: سألت جبريل عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي»[1] رواه القشيري وغيره مسنداً.

وتكلم الشيوخ في الإخلاص، فقال الشيخ الإمام الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله تعالى عنه: الإخلاص خروج الخلق من معاملة الرب، وقصد القلب بالعمل لله تعالى، والنظر إلى ثواب الله تعالى، لا يريد بذلك حب محمدة ولا كراهية ذم.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: الإخلاص التوقي عن ملاحظة الخلق، والصدق التنقي عن مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وقال أبو عثمان المغربي رضي الله تعالى عنه: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال؛ وهذا إخلاص العوام، وإخلاص الخواص ما يجري عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد، فذلك إخلاص الخواص. وقال أيضاً[2]: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

وقال أبو بكر الدقاق رضي الله تعالى عنه: نقصان كان مختص في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله سبحانه أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلصاً لا مخلصاً.

وقال حذيفة المرعشي رضي الله تعالى عنه: الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وقال السري رضي الله تعالى عنه: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله سبحانه وتعالى.

وقال الفضيل رضي الله تعالى عنه: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما.

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: الإخلاص سر بين الله تعالى وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

= ١٥١). وأبو داود (جهاد ٢٤)، والنسائي (جهاد ٢١)، وابن ماجه (جهاد ١٣)، وأحمد بن حنبل ٤/ ٣٩٢، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤١٧.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٤) والقشيري في الرسالة ص ٢٠٨، والقزويني في مسلسلاته عن حذيفة.

(٢) في الرسالة القشيرية ص ٢٠٩: قال أبو عثمان الحيري.

وقيل: الناس موتى إلا العالمين، والعالمون نائمون إلا العاملين، والعاملون مغرورون إلا الخائفين، والخائفون هالكون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم.

وقال أبو محمد رويم رضي الله تعالى عنه: الإخلاص من العمل هو الذي لا يدبر صاحبه عوضاً من الدارين، ولا حظاً من الملكين.

وقيل لسهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد.

قلت: وكلام الشيوخ في ذلك كثير وفيما ذكرته كفاية.

وروي عن مكحول[1] رضي الله تعالى عنه أنه قال: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وحكي عن بعضهم قال: دخلت على سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه يوم جمعة قبل الصلاة، فرأيت حية في بيته، فجعلت أقدم رجلاً وأؤخر رجلاً، فقال: ادخل لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شيء يخافه، ثم قال: هل لك في صلاة الجمعة؟ فقلت: بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة، فأخذ بيدي فما كان إلا قليل حتى رأيت المسجد، فدخلنا وصلينا الجمعة، ثم خرجنا فوقف ينظر الناس وهم يخرجون، فقال: أهل لا إله إلاّ الله كثير، والمخلصون منهم قليل.

قلت: ومن حكايات المخلصين ما حكي عن بعضهم أنه كان يتعبد سرًا ويخفي حاله، فاطلع على حاله بعض الناس فقال: اللهمَّ إنما كانت الحياة تطيب حيث كانت المعاملة بيني وبينك، فأما إذا اطلع على ذلك غيرك فلا حاجة لي بالحياة، اللهمَّ اقبضني إليك الساعة، فقبضه الله تعالى إليه في تلك الساعة وهو ساجد رضي الله تعالى عنه.

وحكي عن بعضهم أنه كان يسأل الله تعالى أن يكرمه ويستره، فقام ليلة لإحيائها فنظر إليه بعض أصحابه فرأى فوق رأسه قنديلاً معلقاً من النور يشعشع لناظريه، فقيل له في ذلك، فأنشد:

يا صاحبَ السرّ إن السر قَدْ ظهرا ... ولا أريد حياة بعدَ ما اشتهرا

ثم سجد فقبض أيضاً في سجوده رضي الله تعالى عنه.

---

(١) هو مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل (توفي ١١٢ هـ/ ٧٣٠ م) أبو عبد اللّه الهذلي بالولاء فقيه الشام في عصره، من حفاظ الحديث. أصله من فارس، ومولده بكابل ترعرع. بها وسُبي، وصار مولى لامرأة بمصر، وأعتق، وتفقه، ورحل في طلب الحديث إلى العراق فالمدينة، وطاف كثيراً من البلدان واستقر في دمشق وتوفي بها. الأعلام ٧/ ٢٨٤، وتذكرة الحفاظ ١/ ١٠١، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢٨٩، وحلية ٥/ ١٧٧، ووفيات الأعيان ٢/ ١٢٢.

وحكي عن ذي النون رضي الله تعالى عنه أنه قال: بينما أنا أدور في بعض جبال اللكام[١]، وإذا برجل قائم يصلي والسباع حوله ربض[٢]، فلما أقبلت نحوه نفرت عنه السباع، فأوجز في صلاته وقال: يا أبا الفيض لو صفوت لطلبتك الوحوش وحنت إليك الجبال، قال: فقلت: ما معنى قولك لو صفوت؟ قال: تكون لله سبحانه خالصاً حتى يكون لك مؤيداً، قال: فقلت: ففيم الوصول إلى ذلك؟ قال: لا تصل إلى ذلك حتى تخرج الخلق من قلبك كما خرج الشوك منه، فقلت: هذا والله شديد عليّ، فقال: هذا أيسر الأعمال على العارفين.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: اللهمَّ اجعلنا من الذين تاهت أرواحهم في الملكوت، وكشف لهم حجب الجبروت[٣]، فخاضوا في بحر اليقين، وتنزهوا في زهر رياض المتقين، وركبوا في سفينة التوكل، وأقلعوا بشرائع التوسل، وساروا بريح المحبة في جداول قرب العزة، وحطوا بشاطىء الإخلاص فنبذوا الخطايا، وحملوا الطاعات برحمتك يا أرحم الراحمين.

قلت: ومما يتعلق بالإخلاص أيضاً، ما حكي في كتاب العقائق في الحقائق، أنه لما هبط آدم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام من الجنة إلى الأرض، زارته غزالة؛ وذكر بعض المفسرين أنه زارته جميع السباع، قال: فأعطى تلك الغزالة قطعة مما عليه من ورق الجنة، فلما أكلتها أورثها الله سبحانه وتعالى المسك، فلما رجعت إلى صواحبها من الغزلان قلن لها: من أين لك هذا؟ فأعلمتهنّ، فقلن: ونحن أيضاً نذهب إلى آدم نزوره حتى يحصل لنا مثل ما حصل لك، فأتين آدم ﷺ فأعطاهن مما أعطاها، فأكلن ذلك فلم يحصل لهن ما طلبن من المسك، فرجعن إلى آدم على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام وسألنه عن سبب ذلك؟ فقال: حتى أسأل جبريل عن ذلك، فلما نزل عليه السلام إليه ﷺ سأله، فقال: حتى أسأل الله تبارك وتعالى عن ذلك، فسأل الله سبحانه عن ذلك، فقال عز وجل: قل له إن تلك الغزالة جاءته مخلصة في زيارتها فأورثتها ذلك المسك، وصواحبها زرنه لأجل المسك فلم أورثهن ذلك انتهى.

قلت: هذا معنى الحكاية وإن اختلف بعض ألفاظها، ومن هذا المعنى ما بلغني عن بعض المشايخ أنه زاره أناس، فقال واحد منهم: أشتهي أن يطعمني الشيخ، كذا وكذا وقال آخر: أشتهي أن يطعمني كذا وكذا، وكذلك الباقون، إلا واحداً منهم فإنه لم يطلب سوى خاطر الشيخ؛ فلما وصلوا إليه وسلموا عليه أحضر لكل واحد منهم شهوته التي طلب، ثم خلا بذلك الواحد الذي طلب خاطره، فحصل له من السر والبركة ما لم يحصل لأصحابه، فعاتبوا الشيخ في تخصيصه دونهم، فقال رضي الله تعالى عنه: أعطيت كل واحد منكم شهوته انتهى. اللهمَّ يا حنان يا منان، يا حي يا قيوم،

---

(١) للكام: هو الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور. (معجم البلدان ٥/ ٢٢).

(٢) ربضت الشاة ونحوها: طوت قوائمها ولصقت بالأرض.

(٣) الجبروت: صيغة مبالغة بمعنى القدرة والسلطة والعظمة.

يا ذا الجلال والإكرام، منّ علينا بالإخلاص الذي مننت به على عبادك الخواص، بجاه نبيك الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، إنك الملك المنان ذو الفضل العظيم.

[الخصلة الثالثة: الاستقامة][1] قال عز وجل: ﴿إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلاً من غفور رحيم﴾ [فصلت: ٣٠]. وقال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[2] رواه مالك في الموطأ وقال بعضهم: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت له: روي عنك أنك قلت شيبتني هود، فما الذي شيبك منها، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال: لا، ولكن قوله: ﴿فاستقم كما أُمرت﴾ [هود: ١١٢] وقال الصديق رضي الله تعالى عنه في معنى قوله تعالى: ﴿ثم استقاموا﴾ [فصلت: ٣٠] لم يشركوا. وقال الفاروق رضي الله تعالى عنه: لم يروغوا[3] روغان الثعالب. وقال الواسطي رضي الله تعالى عنه: الخصلة التي كملت بها المحاسن وبعقدها قبحت المحاسن الاستقامة.

قلت: ولما كانت المحاسن تكمل بها حسن قولي: وحسن استقامة.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: الاستقامة لها ثلاث مدارج: أولها التقويم، ثم الإقامة، ثم الاستقامة؛ فالتقويم من حيث تأديب النفوس، والإقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار.

وقال الإمام أبو بكر بن فورك رضي الله تعالى عنه: السين في الاستقامة سين الطلب: أي طلبوا من الحق سبحانه أن يقيمهم على توحيدهم، ثم على استدامة عهودهم وحفظ حدودهم.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، قال: فمن أمارات استقامة أهل البداية أن لا يشوب

---

(١) انظر حديث القشيري عن الاستقامة في الرسالة القشيرية ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٢) أخرجه ابن ماجة في (السنن ٢٧٧، ٢٧٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ٢٧٧، ٢٨٢)، والدارمي في (السنن ١/ ١٦٨)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١/ ٨٢، ٤٥٧)، والحاكم في (المستدرك ١/ ٣٠)، ومالك في (الموطأ ٣٤)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢/ ٩٨، ٧/ ٢٨)، وفي (المعجم الصغير ١/ ١١، ٢/ ٨٨)، التبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٩٢)، وابن كثير في (التفسير ٥/ ٤٥٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٩٦)، وابن المبارك في (الزهد ٣٦٧)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١/ ٢٩٣)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ٢١٤)، والساعاتي في (منحة المعبود ٤٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٤٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ١٦٢، ٥٥٧)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ٩٥)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ١٦٨)، وابن عبد البر في (الاستذكار ١/ ٢٦٢).

(٣) راغ: حاد عن الطريق، وذهب هكذا وهكذا مكراً وخديعة.

معاملتهم فترة، ومن أمارات استقامة أهل الوسائط أن لا يصحب منازلهم وقفة، ومن أمارات استقامة أهل النهاية منازلتهم أن لا يداخل مواصلتهم حجبة.

وقال بعضهم: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة. وقيل: الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر.

قلت: ومن حكايات أهل الاستقامة ما حكي عن الأستاذ أبي القاسم الجنيد، أنه رضي الله تعالى عنه قال: لقيت شابًا من المريدين في البادية تحت شجرة أم غيلان، فقلت: ما أجلسك هاهنا؟ فقال: حالي افتقدته، قال: فمضيت وتركته؛ فلما انصرفت من الحج إذا أنا بالشاب قد انتقل إلى موضع قريب من الشجرة، فقلت: ما جلوسك هاهنا؟ قال: وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع الذي نال فيه مراده.

ثم ذكرت الخصلة التي هي تمام العشرين وزينتها بقولي:

وخاتمة العشرين زين خصالها تواضع فللعبد التواضع رافع[1]

قد تظاهرت النصوص من الكتاب والسنة وأقوال العلماء الأئمة في مدح التواضع وذم الكبر، وأجمعت على ذلك الأئمة، قال الله عز وجل: ﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ [الفرقان: ٦٣] قيل معناه متواضعين متخاشعين. وقال سبحانه: ﴿أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال سبحانه حاكياً قول لقمان في وعظه لابنه: ﴿ولا تصر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا﴾ [الإسراء: ٣٧]، ومعنى تصعر خدك: أي تميله وتعرض عن الناس تكبراً عليهم، والمرح التبختر. وقال تعالى: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبّر جبّار﴾ [غافر: ٣٥]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[2] رواه مسلم. وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[3] رواه مسلم أيضاً. وإلى هذا أشرت بقولي: «تواضع فللعبد

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٤٤ ـ ١٥١

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الجنة ٦٤)، وأبو داود في (السنن ٤٨٩٥)، وابن ماجه في (السنن ٤١٧٨، ٤٢١٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ٢٣٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٤٧١٩)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٧/ ٣٦٥)، وابن جحر في (فتح الباري ١٠/ ٤٩١، ١١/ ٣٤٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٧٢٢، ٥٧٢٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٥٥٨)، والبخاري في (الأدب المفرد ٤، ٦، ٤٢٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/ ١١٤، ٢٠٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٩٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢/ ١٧)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ١٦٨)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٥٧٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٣١٦)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٨٩٨)، وصاحب (تاريخ واسط ٢٨٢).

(٣) أخرجه البغوي في (شرح السنة ٦/ ١٣٣).

التواضع رافع» وقال ﷺ: «لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أهدى إليّ كراع أو ذراع لقبلت»[1] رواه البخاري. وقال ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبّرون، وقالت الجنة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار أعذب بك من أشاء، ولكلكما ملؤها»[2] رواه مسلم. وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[3] الحديث، رواه مسلم أيضاً. وسئلت عائشة رضي الله تعالى عنها: «ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة» رواه البخاري.

قلت: قولها: «في مهنة أهله» أي في خدمة أهله فيما يعرض لهم من الحوائج كما سيأتي.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يعلف البعير، ويقمّ البيت[4]، ويخصف[5] النعل ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معه إذا أعيى، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته إلى أهله من السوق، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدياً، ولا يحقر ما دعي إليه ولو إلى حشف التمر[6]، وكان هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، حميد المعاشرة طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوسة، متواضعاً من غير مذلة جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، ولم يتجشأ قط من شبع، ولم يمد يده إلى الطمع صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبارك وشرف وكرم».

روى أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشيع الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف»[7].

وعن قدامة بن عبد اللّه العامري رضي الله تعالى عنه قال: «رأيت النبي ﷺ بمنى على جمل وتحته رحل رثّ، فلم يكن ضرب ولا طرد، ولا إليك إليك» وفي رواية: «وهو يقول اللهمَّ اجعله حجًا لا رياء فيه ولا سمعة»[8].

وقال عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما: رأيت عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه وعلى

---

(١) أخرجه البغوي في (شرح السنة ٦/ ١٠٥).
(٢) أخرجه ابن كثير في (التفسير ٧/ ٣٨٢)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ١٥٨).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) يقم البيت: يكنسه.
(٥) يخصف النعل: يصلح الحذاء.
(٦) حشف التمر: أردأ أنواع التمر، أو التمر اليابس الفاسد.
(٧) أخرجه ابن ماجه (زهد ١٦).
(٨) أخرجه ابن ماجه (مناسك ٤).

عاتقه قربة[1] ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة، فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها.

وقال أبو نصر السراج رأى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه وهو أمير المدينة وعلى ظهره حزمة حطب وهو يقول: طرقوا لأمير المؤمنين.

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لا يسجد إلا على التراب، وكان يكتب ليلة شيئاً وعنده ضيف، فكاد السراج ينطفىء، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال: لا، ليس من الكرام استعمال الضيف، قال: فأنبه الغلام؟ قال: لا هي أول نومة نامها، فقام إلى البطة[2] وجعل الدهن في المصباح، فقال الضيف: قمت بنفسك يا أمير المؤمنين! فقال: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر.

وقال الفضيل رضي الله تعالى عنه: أوحى الله سبحانه إلى الجبال إني مكلم على واحد منكن نبيًا، فتطاولت الجبال وتواضع طور سيناء، فكلم الله تعالى عليه موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام لتواضعه.

وقال مجاهد[3] رضي الله تعالى عنه: لما أغرق الله سبحانه قوم نوح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام شمخت الجبال وتواضع الجودي[4]، فجعله الله سبحانه قراراً لسفينة نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

وتكلم الشيوخ في التواضع فقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: خفض الجناح، ولين الجانب.

وقال ابن عطاء رضي الله تعالى عنه: قبول الحق ممن كان. وقال أبو عبد اللّه الرازي رضي الله تعالى عنه: التواضع ترك التميز في الخدمة.

وقيل لأبي يزيد رضي الله تعالى عنه: متى يكون العبد متواضعاً؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه.

وقال مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه: لو قيل ليخرج شر من في المسجد ما سبقني إلى الباب أحد.

---

(١) القِربة: وعاء من جلد يُخرز من جانب واحد ويتخذ لحفظ اللبن أو الماء ونحوهما (ج) قرب وقربات.
(٢) البطة: إناء على شكل البطة يوضع فيه الدهن والزيت (ج) بط وبطط.
(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٥/ ٢٧٨.
(٤) الجودي: جبال في إقليم بهتان على بعد ٤٠ كم شمالي شرقي جزيرة ابن عمر من دجلة من أعمال الموصل، ترتفع عن سطح البحر ٤٠٠٠ م قيل: إن سفينة نوح حطت عليها بعد الطوفان. (الرسالة القشيرية ص ١٤٦).

وقال الفضيل رضي الله تعالى عنه لشعيب بن حرب: يا أبا صالح إن كنت تظن أنه أشهد الموسم شر مني ومنك فبئس ما ظننت.

وقال سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه: أعز الخلق خمسة أنفس: عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سني.

قلت: إنما قال سفيان هذا، لأن هذه الخصال الخمس شريفة، ومع شرفها ووجودها في الخمسة المذكورين نادر، لأن الغالب على الأصناف الخمسة خلافها، وفي حسن حب الزهد والفقر وكونه بالعلماء أحسن، وقبح الجاه والمال وكونه بهم أقبح قلت في بعض القصائد:

ألا إنَّ حُـب المـال والجـاه زينـة قبيـح بـأهـل العلـم ذلـك أقبـح
كمـا أنَّ حـب الـزهـد والفقـر عفـة مليـح بهـم أزهـى وأبهـى وأملـحُ

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه فيما نقله الأئمة عنه في مناقبه: ولا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيم زهدهم الله تعالى فيه، وزهدهم فيما رغبهم الله تعالى فيه.

وقال: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام.

وقال: التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

وقال: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله.

وقال: من سام بنفسه فوق ما تساوى رده الله سبحانه إلى قيمته، ومن أحب أن يفتح الله تعالى قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه، واجتناب المعاصي، وتكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل. وفي رواية: فعليه بالخلوة، وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب.

وقال: والمراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغائن.

قال: زينة العلم الورع والحلم.

وقال: لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل إليه، فأخلص علمك ونيتك لله عز وجل.

وقال: للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك.

وقال: الكيس العاقل هو الفطن المتغافل.

وقال: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم.

وقال: من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

وقال: من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غداً.

وقال: من ولي القضاء فلم يفتقر فهو لص.

وقال: الانبساط للناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط.

وقال: من أحب أن يقضي الله سبحانه له بالخير، فليحسن الظن بالناس.

وقال: من سمع بأذنه كان حاكياً، ومن أصغى بقلبه كان واعيًا، ومن وعظ بفعله كان هادياً.

وقال في وعظه أخاً له في الله تعالى: الدنيا عمرانها إلى الخراب صاير، وساكنها إلى القبور زاير، وشملها على الفرقة موقوف، وغناؤها إلى الفقر مصروف، الإيسار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فأفزع إلى الله، وارض برزق الله، لا تستسلف من دار بقائك في دار فنائك، فإن عيشك فيء زائل، وجدار مائل، وأكثر من عملك، وقصر من أملك.

قلت: فهذا من جملة ما روى العلماء عنه مما يطول ذكره من الكلام النفيس والحكم النادرة، ويدل على أنه من أولي القلوب المنورة العامرة، المتجافية عن دار الغرور، والمستعدة للدار الآخرة، وهو القائل رضي الله تعالى عنه:

ومن يذُق الدُّنيا فإني طعمتها ... وسيق إلينا عذبُها وعذابها
فلم أرها إلاّ غروراً وباطلاً ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فإنْ تجتنبها كنتَ سلماً لأهلها ... وإنْ تجتذبها نازعتك كلابُها

وقال إبراهيم بن شيبان رضي الله تعالى عنه: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة.

وقال عبد اللّه بن المبارك رضي الله تعالى عنه: التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: التكبر على من تكبر عليك بماله تواضع.

وقال بشر الحافي رضي الله تعالى عنه: سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم.

وقال أيضاً: رأيت عليًا رضي الله تعالى عنه في المنام، فقلت له: يا أمير المؤمنين عظني، فقال: ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً لثواب الله تعالى، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالى، فقلت: زدني، فقال: قد كنت ميتاً فصرت حياً وعن قليل تصير ميتاً، فدع بدار الفناء بيتاً، واعمر بدار البقاء بيتاً.

وقال أبو القاسم الصقلي رضي الله تعالى عنه: أعظم آفة دخلت الأغنياء محبة تواضع الفقراء لهم، وهو ذهاب دين الفقراء، وبطلان ثواب الأغنياء.

قلت: وإنما يتواضع للأغنياء من الفقراء أحد رجلين: إما جاهل بقدر الفقر داخل فيه بالاضطرار غابط للأغنياء بما هم فيه، فهذا الأغنياء خير منه إذا ما اتقوا؛ وإما عارف بقدر الفقر ولكن

فيه ضعف اليقين، وقلة الثقة بالله تعالى والصبر على الضرّ، فتحمله الضرورة على التواضع لهم لنيل ما رزقه الله تعالى على أيديهم. وقد رأيت من هذا القسم الثاني فقيراً يقدم لبعض الأغنياء نعله فعظم عليّ ذلك ثم زجرته فيما صدر عنه، فقال: تبت إلى الله.

قلت: ومن حكايات المتواضعين وذم المتكبرين، ما حكي أنه بلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، أن ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فصاً[١] بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتماً من درهمين واجعل فصه حديداً صينياً، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدره ولم يتعد طوره. وقومت ثيابه رضي الله تعالى عنه وهو يخطب باثني عشر درهماً، وكانت قباء[٢] وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

وحكي أنه مشى عبد اللّه بن محمد بن واسع رضي الله تعالى عنه مشياً لا يحمد، فقال له أبوه: تدري بكم اشتريت أمك، بثلاثمائة درهم وأبوك لا أكثر الله في المسلمين مثله أبا، وأنت تمشي هذه المشية.

وحكي أنه مر الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما بصبيان معهم كسر خبز فاستضافوه، فنزل وأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم وكساهم وقال: اليد لهم، لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه.

وحكي عن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه أنه قال: ما سررت في إسلامي إلا ثلاث مرات: مرة كنت في سفينة وفيها رجل مضحاك كان يقول: كنا نأخذ العلج[٣] في بلاد الترك هكذا، وكان يأخذ بشعر رأسي ويهزني، فسرني ذلك لأنه لم يكن يجد في تلك السفينة أحداً أحقر في عينه مني. والثانية كنت عليلاً في مسجد، فدخل المؤذن وقال: اخرج، فلم أطق، فأخذ برجلي وجرني إلى خارج المسجد. والثالثة كنت بالشام وعليّ فرو، فنظرت فيه فلم أميز بين شعره وبين القمل لكثرته فسرني ذلك.

وفي حكاية أخرى عنه أيضاً: ما سررت بشيء كسروري يوماً كنت جالساً فجاء إنسان وبال عليّ.

وحكي عن بعضهم قال: رأيت في الطواف إنساناً بين يديه شاكرية يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل شيئاً، فتعجبت منه، فقال لي: أنا تكبرت في موضع تتواضع الناس فيه، فابتلاني الله تعالى بالتذلل في موضع يرتفع فيه الناس.

وفي التواضع قلت في بعض القصائد:

---

(١) الفص: بتثليث الفاء. جمعه فصوص، وهو ما يركّب في الخاتم من الأحجار الكريمة والمولدون يسمونه قلب الخاتم.

(٢) القباء: جمع أقبية، وهو ثوب يُلبس فوق الثياب، والمولدون يسمونه قنباز.

(٣) العِلج: الشديد الجافي من الرجال (ج) علوج وأعلاج.

تـواضـع وشمـر والـزمْ الفقرَ واجتهـد ونفسـك جـاهـدهـا عسـى هـي تفلـحُ
متـى تُـدرك العليـاء والعـزم بـارد وهـل بـارد العـزم العـزائـم ينجـحُ
بعِ النفس بـالعلياء واسم إلى العُلى تنـلْ بـالمعـالـي كـل غـال وتـربـح
فمَـا فـاز بـالمجـد الأثيـل مـن الـورى سوى من لدى الأهوال بالنفس يسمح
فـأمـا جبـان عـزّت النفـس عنـده فـذاك الـذي بـالـذل يمسـي ويصبـح
تعـرض لنفحـات الإلٰـه وبـابـه أدم قـرعـه فـالبـاب يـوشـك يفتـحُ
فـإن جزت يـومـاً مـا بـربـعٍ لعـزّة ولاحَـتْ خيـام نـورهـا يتـوضـحُ
فطفْ بالخيام البيض من أيمن الحمى وطـرفـك فـي سكـانهـا يتصفـحُ
لعلـى تجلـي الحسـن يبـدو خـلالهـا وذات الجمـال الغـال للطـرافِ تسنـحُ
عسـاكَ بـذاكَ الحـي تبقـى مقـربـاً بحضـرة مـن تهـواهُ تمسـي وتصبـحُ
وكـأس حميـا الحـب بـالأنـس والصفـا تـروحُ بحـاليهـا عليـك وتسـرحُ

وقلت أيضاً في أخرى:

أحـنُ ارتيـاحـاً للمـزابـل لا إلـى قصـورٍ وفـرش بـالطـراز تـوشـح
وأمنـحُ ودي للمسـاكيـن صـافيـاً أجـالسهـم والهجـر للغيـر أمنـحُ
ففـي ذل نفسـي عـزهـا وبمـوتهـ ـا أحياه لأجل الغال بالدون أسمحُ

قلت: ولما كان التواضع حسناً، ومن الكبار ذوي المحاسن أحسن، ختمت به الخصال الحسنة التي يزداد صاحبها به حسناً على حسن، ولهذا كان سيد المصطفين وأكبرهم جلالة أكثرهم تواضعاً ﷺ.

وفي ذلك قلت في قصيدة مخمسة:

لمـا سمـا فـي سمـاء العُلـى جـلالتـه تـواضعـت عنـدمـا هـالـت شجـاعتـهُ
للخـلِ ليـن ولـلأعـداء صـلابتـه نـافـى الطغـى أوعـدت كسـرى مهـابتـه
فـوق التُّـراب مـع المسكيـن مبتـذل

بحضرةِ القدس كاسات الوصال سقت حبـاً وحجـب جـلال للحظـي حـرقـت
سعـادة يـالهـا الحُسنـى بهـا سبقـت راقَ بـراقـا لا علـى رتبـة خلقـت
لـواحـد الـدهـر مـا ثـان لتلـك يلـي

مُحمـد سيـد السَّـادات سـائلـة منـهُ البـرايـا شفـاعـات فنـائلـة
مُثبـت القلـب والنِّيـران صـائلـة ومُنقـذ الخلـق والأهـوال هـائلـة
لكُـل قلـب إلـى الحلقـومِ مُنحفـل

رامـت فـراراً وأنـى يحصـل الهـرب يـومـاً دنـا فيـه كـل الخلـق واقتـربـوا
لفصـل حكـم لجبـار بـه غضـب وهـم سُكـارى ولا خمـر لهـا شـربـوا
بحكـون فـي الحـال حـال الشَّـارب الثمـل

راموا شفيعاً لخطبِ للأنام دهى وهُم كل بنفس عنْ سواهُ سهى
لسادةِ الرسل قالوا من يقوم بها وقول لكل كرام الرسل لست لها
وكنت أهلا لها يا أكرم الرُّسلِ

يا كعبةُ المجدِ بحر الجود شمس هدى يا مذهبا من كلا الدَّارين كل ردأ
يا مالي الكون معروفاً وفيض ندا كن شافعاً للعبيدِ اليافعي غدا
مع الأحباء يا غوثاً لذي أملِ

أنتَ الذي باللوى خص الإله إذا ما تحته من كرامِ الرسل ذاكَ وذَا
والطيب من نشرك الزاكي الأنام حذا صلاة قرب وتسليم عليك شذَا
فاحا على خير قبرِ بالجمالِ ملي

ثم ذكرت أن هذه الخصال العشرين الحميدة قليل من مقامات السالكين بقولي:

فهذي قليل منْ مقاماتِ سالك لسلاكها نور مدى الدَّهر لامع

وإنما كانت قليلاً لأن بعضهم عدها ألفاً كما تقدم، وقولي «لسلاكها نور» إشارة إلى ما يترتب عليها من الأحوال المتضمنة للأنوار، ثم أشرت إلى أنها لا تقطع إلا بالرياضة والمجاهدة للنفس وكثرة الجوع والعطش وقطع العلائق الشاغلة وسرعة السير بقولي:

وما سارها إلا جواد مُضمر سريح مُريد للعلائقِ قاطع

أي ما قطعها من السالكين فيها إلا مريد مرتاض سريع السير خال من العلائق العائقة كما لا تقطع المفازة البعيدة المعطشة من الخيل العاديات إلا الجواد المضمر، وأعني بالمريد الطالب المبتدي في السلوك، المحتاج إلى تربية الشيوخ السالكين المنتهين العارفين، وأكثر المشايخ قالوا: الإرادة ترك العادة. وقال بعضهم: حقيقتها نهوض القلب في طلب الحق سبحانه: ولهذا يقال إنها لوعة تهون كل روعة.

قلت وأربعة أبيات بعد هذا البيت المذكور بعض ألفاظها تقدم شرحه وبعضهم ظاهر وقولي:

سُكارى بلا خمر حَيَارى بلا عمي مراض بلا سُقم وما العزل نافعُ

أشرت بذلك إلى أوصاف المحبة إلا قولي: «حيارى بلا عمي» فإنه إشارة إلى وصف المعرفة، وقد تقدم الكلام فيهما. وفي سكر المحبة وحيرة المعرفة المذكورين قلت هذه الأبيات في بعض القصيدات:

إذا أنتَ لم تُكشف قناع المعارف وتشهد صفات حَيَّرت كُل عارفِ
وتشرب من الرَّاح التي من يشمها تميل به قبل ارتشاف المغارفِ
وتضربُ لك الأكوان في حين تجتلى عرائس أنوار بدت المعارفِ
وتنثرُ على النادي الذي در حكمة ويخلعُ عليك الحقُ صغر المطارفِ

ونطنب بوادِ طور قلب مقدس خيام نديم بالمعاني اللطائفِ
فدعوى الهوى دع للذين ارتياحهم إلى الحق يا مَنْ تاحَ نحو المعالفِ
سكارى بمولاهم وأنتَ بجيفةٍ فقسْ رحماً بالباز عند التناصفِ

قلت: وكلما قويت المعرفة اشتدت الحيرة في معرفة الله سبحانه، ولكن الحيرة في معرفة الله تعالى هي عين الهداية وليست كالحيرة التي هي عدم الاهتداء، وقد جمعت بين الحيرتين المذكورتين في بيت من قصيدة حيث قلت:

ما حارَ في نورها ركب فتاه بلى في حُسنها ركبها يا حارِ قَدْ حاروا

وكذلك جمعها القائل:

وما احترتُ حتى اخترت حُبك مذهباً فوا حيرتي إنْ لم تكُن فيكَ خيرت

وقولي:

صفاتُ تجلَّتْ للقلوبِ فحيرت عقولاً وفاضَتْ للعيونِ المدامع

هو بنصب صفات بكسر التاء التي كسرها علامة النصب بدلاً من جمالاً في البيت الثالث قبله، والحيرة وفيض العيون بالمدامع راجعان أيضاً إلى المعرفة والمحبة، وتخصيص القلوب بالمشاهدة والعقول بالحيرة ظاهر، وقولي:

إلهي بجاهِ القوم من تفضلا على اليافعي فالفضلُ عندكَ واسعُ

قد تقدم تفسير القوم، ولا شك أن لهم عند الله سبحانه الجاه الرفيع، وبهم يغيث العباد في جميع البلاد، ويدفع بهم عنهم البلاء وإلا لفسدت الأرض، كما قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله﴾ [البقرة: ٢٥١] الآية، ومن تفضلا، أي جد عليه بمحض الفضل الذي أنت له أهل لا بثواب عمل منه، فليس له عمل يثاب عليه، ففضلك واسع ليس له نهاية. واليافعي نسبة إلى قبيلة معرفة في بلاد اليمن بيافع راجعة في نسبها إلى حمير الذين منهم سيف بن ذي يزن وسائر ملوك اليمن في قديم الزمن وقولي: «وصلِّ على تاج العلى سيد الملا» العلى المجد والشرف، والملا الرؤساء الأشراف، وقد تقدم تفسير السيادة؛ والأدلة على سيادته ﷺ للخلق وشفاعته لهم مشهورة في الأحاديث الصحيحة، وباقي ألفاظ البيت معروفة. وإنما توسلت بالأولياء في هذه القصيدة لكونها في مدحهم، وأيضاً قد جرت العادة أن من له حاجة قد يتوسل بوجيه وفوقه من هو أوجه منه، ثم يتوسل ذلك الوجيه بالأوجه إلى من يراد منه قضاء الحاجة، كما يتوسل إنسان من الرعية بالأمير، والأمير يتوسل بالوزير، والوزير يشفع عند السلطان في قضاء حاجة ذلك الإنسان، فلذلك نحن نتوسل إلى الله الكريم بنبينا عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقد نتوسل بالأولياء في نادر من الأوقات، في قضاء بعض الحاجات والأولياء يتوسلون بالنبي المكرم ﷺ، فيشفع عند الله عز وجل، فيسمع سبحانه شفاعته بفضله ويقبل.

وفي شفاعته وشيء من مناقبه ومحاسنه قلت في بعض القصائد:

عليك صلاةُ الله يا أكرم الورى ومن هو في الدَّارين للخلقِ نافعُ

لـه المجـدُ نعـل والمعـالـي شـراكهـا وبحـر النـدى كـف ونهـر أصـابـعُ
وفي الحشر حوض والشفاعة والورى وللـرسـلِ مِقْـدام وللخلـقِ شـافـعُ
رؤوف رحيـــم مُشفـــق مُتعطـــف حليـم كـريـم خـاضـعُ متـواضـعُ
بخلـقٍ وخُلـق كـاملـيـن فخلقـه عـلاه البهـا والخلـق للخلـقِ واسـع
غيـاث لملهـوفٍ وغيـث لنـاجـعٍ لـديـن الهـدى بـان وللكفـر قـالـع
مُحمـد المُختـار مـن آل هـاشـم لـه نُسـبٌ فـي ذروة المجـد نـابـع
سـلالـة مجـد مـن لـؤي بـن غـالـب إلـى أصلـهِ الفخـر المـؤثـل راجـعُ
مقـر النـدى مفنـي العـدا علـم الهـدى جـلاً الصـدا مـن وجهـه النـور لامـع
أضـاءتْ بـه الظلمـاء وافتخـرَ الـورى طـراز جمـال للمحـاسـنِ جـامـعُ

قلت: قد تناهي المقال في شرح ما ذكرته من المقامات والأحوال على حسب ما اقتضاه الحال، وقد كنت وعدت بالإشارة إلى شيء من كلام العارفين السادات في بعض الرياضات والمجاهدات في البدايات بعد الفراغ من ذكر شيء من كلامهم في المقامات والأحوال المذكورات في النهايات، فها أنا أشرع في ذلك مع اعترافي بكوني غير عامل، واستغفاري من كل قول لست لمضمونه بفاعل، إشارة إلى شيء من كلام العارفين أهل المشاهدة في مخالفة النفس والمجاهدة، مفتتحا ذلك بشيء من القرآن العظيم ومن حديث النبي الكريم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم.
قال الله عز وجل: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] وقال سبحانه: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات: ٤٠] وقال رسول الله ﷺ: «لما سئل عن أفضل الجهاد: كلمة عدل عند سلطان جائر»[١] وسئل ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال الجهاد في سبيل الله، قيل ثم ماذا؟ قال حج مبرور»[٢]. رواه البخاري ومسلم. وروي عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) أخرجه القرطبي في (التفسير ١٢/ ٩٩)، وابن كثير في (التفسير ٣/ ١٥٥).
(٢) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد ٢٢٠، ٢٢٦، ٣٠٥)، والنسائي في (السنن ٦/ ١٩) وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ١٥٠، ١٦٣، ٤٥١، ٦/ ٣٧٢)، والدارمي في (السنن ٢/ ٣٠٧) والبيهقي في (السنن الكبرى ٦/ ٨١، ٢٧٣، ٩/ ٢٧٢، ١٠/ ٢٧٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٨٩)، والزيلعي في (نصب الراية ٤/ ٧٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ١٤٨) والبغوي في (شرح السنة ٩/ ٣٥٣)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٤٢، ٦/ ٣٥٦) والألباني في (السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٧٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩) والبخاري في (التاريخ الكبير ٨/ ٣٧)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٩٤)، وأبو عوانة في (المسند ١/ ٦٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٣٣٨٣)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ٥٩ ٣/ ٢٠٧، ٥/ ٢٧٨، ٢٧٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٤٢٠، ١٢٣٩٤، ٤٤١٥٨) وابن حجر العسقلاني في (تغليق التعليق ١٩١٥)، والخرائطي في (مكارم الأخلاق ١٩، ٦٠) وسعيد بن منصور في (السنن ٢٣٤١)، وابن الجارود في (المنتقى ٩٦٩).

«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1] وقد تقدم هذا في شرح القصيدة، وتقدم قول بعضهم أنه جهاد النفس، ولذلك قال بعض المفسرين: هو قهر الهوى، وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨].

قلت: وإذا لم يقهر الهوى ويملك، بل هو قهر صاحبه وملكه حتى اتبعه، فإنه يصده عن الحق. قال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى، وطول الأمل؛ فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[2].

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة، وقال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال أيضاً: من لم تكن له في بدايته قومة لم تكن له في نهايته جلسة.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة.

وقال أبو عثمان المغربي رضي الله تعالى عنه: من ظن أنه يفتح عليه شيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها إلا بلزوم المجاهدة فهو في غلط.

وقال أبو يزيد رضي الله تعالى عنه: كنت ثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمس سنين كنت مرآة قلبي، وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا في وسطي زنار ظاهر، فعملت في قطعه ثنتي عشرة سنة، ثم نظرت فإذا في باطني زنار، فعملت في قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطع، فكشف لي فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتي، فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

وقال الحسن القزاز رضي الله تعالى عنه: بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء: أن لا يأكل إلا عند الفاقة، ولا ينام إلا عند الغلبة، ولا يتكلم إلا عند الضرورة.

وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات: أولها يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة، والثانية يغلق باب العز ويفتح باب الذل، والثالثة يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد، والرابعة يغلق باب النوم ويفتح باب السهر، والخامسة يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر، والسادسة يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

وقال أبو علي الروذباري رضي الله تعالى عنه: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق وأمروه بالكسب.

وعن بعضهم أنه سأله ولده شيئاً يشتري به شهوة، فأجابه بأن ذلك ما يخصه، فقال عن إذنك أذهب أستقرضه، فقال: نعم أستقرضه من نفسك فهي أولى من أقرض.

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٣/ ٤٩٣).
(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٢٣٨).

قد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

إذا شئت أنْ تستقرضُ المال مُنفقاً على شهواتِ النفس في زمن العسرِ
فسل نفسك الإنفاق من كيس صبرها عليك وإرفاقاً إلى زمن اليسرِ
فإن فعلت كنت الغنى وإنْ أبتْ فكل متوع بعدها واسع العذرِ

وأنشد بعضهم:

إذا طالبتكَ النفس يوماً بشهوةٍ وكانَ عليها للخلاف طريق
فخالفْ هواها ما استطعتَ فإنما هواها عدو والخلافُ صديقُ

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه: إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء: ضعف النية بعمل الآخرة، والثاني صارت أبدانهم رهينة بشهوتهم، والثالث غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل، والرابع آثروا رضى المخلوقين على رضى الخالق سبحانه والخامس اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ وراء ظهورهم، والسادس جعلوا قليل زلات السلف حجة لأنفسهم ودفنوا أكثر مناقبهم.

وقال أيضاً: ما أعز الله سبحانه عبداً بعز هو أعزّ له من أن يذله على ذل نفسه، وما أذل الله تعالى عبداً بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه.

وقال السريّ رضي الله تعالى عنه: إياكم وأغنياء الجيران وقراء الأسواق وعلماء الأمراء.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: إذا أراد الله سبحانه بالعبد خيراً أوقعه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء.

وقال أبو عبد الله بن خفيف رضي الله تعالى عنه: الإرادة استدامة الكد وترك الراحة. وقال ربما كنت في ابتداء أمري أقرأ في ركعة واحدة عشرة آلاف قل هو الله أحد، وربما كنت أقرأ في ركعة واحدة القرآن كله، وربما كنت أصلِ من الغداة إلى العصر ألف ركعة.

وقال بعضهم: كيف يفلح من ألف الراحة. وقال آخر منهم: متسل لا يفلح وملتفت لا يصل. ومن لا يعرف الزيادة من النقصان، فكل أوقاته نقصان.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات.

وقال إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه: ما هالني شيء قط إلا ركبته.

وقال أبو الحسن الوراق رضي الله تعالى عنه: كان أجلّ أحكامنا في بداية أمرنا الإيثار بما يفتح علينا، وإنا لا نبيت على معلوم، ومن استقبلنا بمكروه فلا ننتقم منه لأنفسنا، بل نعتذر إليه ونتواضع له، فإذا وقع في قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته والإحسان إليه حتى تزول.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: وينبغي للمريد أن يكون له في كل شيء نية لله تعالى، حتى في أكله وشربه وملبوسه، فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله، ولا ينام إلا لله،

لأن هذه كلها الرفاق أدخلها على النفس، فإذا كانت لله تعالى لا تستعصي النفس وتجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص، وإذا دخل في شيء من رفق النفس لا لله بنية صالحة صار ذلك وبالاً عليه. قال: وقد ورد في الخبر «من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر، ومن تطيب لغير الله سبحانه جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة»[1] قال: فالمؤيد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأقواله، ولا يسامح نفسه أن يتحرك بحركة أو يتكلم بكلمة إلا لله تعالى، ويقف من الأشياء كلها على الضرورة، فإن كل شيء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول، ثم يجر إلى تضييع الأصول وإنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، حكي هذا القول عن سفيان، ثم قال: ونستعين بدوام الافتقار إلى الله تعالى، فبذلك ثبات قدمه، وهذا الافتقار مع الأنفاس لا يستبد بحركة ولا يستقل بكملة دون الله تعالى، ودون الافتقار إليه فيها، فإن خلت عن مراجعة الله تعالى والافتقار إليه فيها فلا تعقب خيراً قطعاً، علمنا ذلك وتحققناه. قال: ولا ينبغي للمبتدي أن يعرف أحداً من أرباب الدنيا، فإن معرفته لهم سم قاتل، وقد ورد «الدنيا مبغوضة الله تعالى، من تمسك بحبل منها قادته إلى النار» وما حبل من حبالها كأبنائها والطالبين لها والمحبين لها فمن عرفهم انجذب إليها شاء أم أبى انتهى كلامه مختصراً مجموعاً من مواضع متفرقة.

قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: «الرجل على دين خليله» وقد ورد أيضاً: «إياكم ومجالسة موتى القلوب» والمراد بهم الأغنياء، كذا روي مفسراً.

وقال سهل رضي الله تعالى عنه: لما خلق الله تعالى الدنيا، جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين مكرمة.

وقال أبو حفص رضي الله تعالى عنه: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً؛ ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضى عن نفسه، والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف: ٥٣] وقال أيضاً: النفس ظلمة كلها، وسراجها سرها، ونور سراجها التوفيق فمن لم يصحبه في سره توفيق من ربه كان ظلمة كله وقال أيضاً: ما أسرع هلاك من لم يعرف عيبه، فإن المعاصي بريد الكفر.

وقال أبو عثمان المغربي رضي الله تعالى عنه: لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئاً، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل ٢، ١١٢.

قلت: وفيمن يرى عيب غيره ويعمى عن عيب نفسه كما هو الغالب على الناس أنشد بعض الأكياس:

أرى كـل إنسـان يـرى عيـب غيـرهِ ويَعمْـى عـن العيـب الـذي هـو فيـه
ولا خيـر فيمـنْ لا يـرى عيـب نفسـهِ ويعمـى عـنْ العيـبِ الـذي بـأخيـهِ

قلت: ومن حكايات المجاهدات ومخالفة النفس في سائر الحالات، وما حكي عن الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه قال: أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد ما كنت أجد من الحلاوة، فأردت أن أنام فلم أقدر عليه، فقعدت فلم أطق القعود، ففتحت الباب وخرجت، فإذا رجل ملتف في عباءة مطرح على الطريق، فلما أحس بي رفع رأسه وقال: يا أبا القاسم إلى الساعة، فقلت قد فعل يا سيدي من غير موعد، فقال بلى سألت محرك القلوب أن يحرك لي قلبك، فقلت قد فعل فما حاجتك؟ فقال متى يصير داء النفس دواها؟ فقلت إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواها، فأقبل على نفسه وقال: اسمعي فقد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات، فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد، فقد سمعت وانصرف عني ولم أعرفه ولم أقف عليه.

وحكي عن أبي محمد المرتعش أنه قال: حججت كذا وكذا حجة على التجريد، فبان لي أن ذلك كان مشوباً بحظي، وذلك أن والدتي سألتني يوماً أن أستقي لها جرة ماء فثقل ذلك على نفسي فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كانت لحظها وشرب لنفسي، إذ لوكانت فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع.

وحكي عن الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه في مناقبه أنه قال: مكثت خمساً وعشرين سنة متجرداً سائحاً في بوادي العراق وخرابه، وأربعين سنة أصلي الصبح بوضوء العشاء، وخمس عشرة سنة أصلي العشاء ثم أستفتح القرآن وأنا واقف على رجل واحدة ويدى في وتد[1] مضروب في حائط خوف النوم حتى انتهي إلى آخر القرآن عند السحر، وكنت أمكث من الثلاثة الأيام إلى الأربعين يوماً ولا أجد ما أقتات به، وكان النوم يأتيني في صورة فأصيح عليه فيذهب، وتأتيني الدنيا وزخارفها وشهواتها في صور حسان وقباح فأصيح عليها فتفر هاربة، وأقمت في البرج المسمى الآن ببرج العجمي إحدى عشرة سنة، وبطول إقامتي فيه سمي برج العجمي، وكنت عاهدت الله سبحانه فيه أن لا آكل حتى ألقم ولا أشرب حتى أسقى، فبقيت فيه أربعين يوماً لا آكل شيئاً، فبعد الأربعين جاء رجل ومعه خبز وطعام، فوضعه بين يدي ومضى وتركني، فكادت نفسي تقع على الطعام من شدة الجوع، فقلت والله لاحلت عما عاهدت ربي تبارك وتعالى، فسمعت صارخاً من باطني ينادي الجوع فلم أرتع له، فاجتازني الشيخ أبو سعد فسمع الصارخ، فدخل عليّ وقال: ما هذا يا عبد القادر؟ قلت: قلق النفس، وأما الروح فساكنة إلى مولاها عز وجل، قال تعال إليّ، ومضى وتركني على حالي، فقلت في نفسي ما أخرج من هذا إلا بأمر، فجاءني أبي العباس الخضر عليه السلام وقال: قم

(١) الوتد: قطعة من خشب أو حديد تثبت في الأرض أو الجدار يُشد بها حبل ونحوه (ج) أوتاد.

وانطلق إلى أبي سعد، فجئته وإذا هو واقف على باب داره ينتظرني وقال لي: يا عبد القادر ألم يكفك قولي لك تعالى إليّ حتى أمرك الخضر بما أمرتك به؟ ثم أدخلني داره فوجدت طعاماً مهيئاً، فجلس يلقمني حتى شبعت، ثم ألبسني الخرقة بيده، ولازمت الاشتغال عليه، وكنت قبل ذلك في سياحاتي، فأتاني شخص ما رأيته قبل فقال لي: هل لك في الصحبة؟ قلت نعم: قال بشرط أن لا تخالفني، قلت نعم، قال اجلس هنا حتى آتيك، وغاب عني سنة ثم عاد إليّ وأنا في مكاني، فجلس عندي ساعة ثم قام وقال: لا تبرح من مكانك حتى أعود إليك، وغاب عني سنة أخرى ثم جاء وأنا في مكاني، فجلس عندي ساعة ثم قام وقال: لا تبرح من مكانك حتى أعود إليك، فغاب عني سنة أخرى ثم عاد ومعه خبز ولبن، فقال لي أنا الخضر، وقد أمرت أن آكل معك فأكلنا، ثم قال: قم فادخل بغداد، فدخلنا جميعاً، فقيل للشيخ من أين كنت تقتات في تلك السنين الثلاث؟ قال من المنبوذات.

قلت: بالروايات، وقد روي عن الشيوخ السادات من المجاهدات الشديدات العديدات، والحكايات الشهيرات التي حكاها العلماء والثقات، ورووها بالأسانيد الصحيحات في كثير من المصنفات، ما يخرج عن الحصر، ذكرت منه في هذا الكتاب قطرة من بحر.

وقد تقدم قول أبي يزيد رضي الله تعالى عنه: كنت ثنتي عشرة سنة حداد نفسي إلى آخره. وقيل له: ما أشد ما لقيت في سبيل الله؟ فقال: لا يمكن وصفه، فقيل له ما أهون مالقيته نفسك منك؟ فقال أما هذا فنعم: دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة.

وقال أيضاً: رأيت ربي عز وجل في المنام فقلت كيف أجدك؟ قال فارق نفسك وتعال.

وقال بعضهم: وقفت على باب قلبي عشرين سنة ما جاز به شيء لغير الله إلا رددته. وقال آخر: لو خرج مني نفس بغير ذلك الله لذبحت نفسي.

وعن سهل رضي الله تعالى عنه أنه كان قوته في السنة بدرهم شعير بغير ملح ولا أدم.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات. وقيل له: ممن استفدت هذه العلوم؟ فقال من جلوسي بين يدي الله عز وجل ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة وأشار إلى درجة في داره.

وروي أن السري رضي الله تعالى عنه أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علة الموت.

وقال بعضهم: طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزايل.

قلت: ولم يزل الشيوخ العارفون بالله تعالى يأمرون المريدين بمباشرة الأشياء التي فيها كسر النفوس بل ذبحها، ولا يزالون يعتادونها حتى يهون عليها فعلها، بل حتى يعود مرها حلوها مما يختار بنو الدنيا الموت دونها، وذلك بحسب ما يراه الشيوخ الربانيون، فمن المريدين من يأمره الشيخ بالسؤال على الأبواب وفي الأسواق، ومنهم من يأمره بخدمة الفقراء في المواضع القذرة والأشغال

الدنيئة، كتنظيف الكنيف[1] من البول والقذارة؛ وكنس القمامات، وغسل النجاسات: وحفظ النعال، وسياسة الدواب؛ ومنهم من يأمره بحمل الأشياء الدنيئة والتردد إلى الأسواق وحمل السلع منها ومعاناة كل ما هو على النفوس شاق.

ومن ذلك ما حكي واشتهر عن بعض المشايخ الكبار، أنه أراد أن يصحبه بعض أرباب المناصب الكبار من الفقهاء ممن يركب البغلة النفيسة ويعظم، ويمشي خلفه العلماء والخدام، فأمره الشيخ أن يشتري للفقراء حاجة من السوق ويحملها بنفسه ماشياً، ففعل ثم رده إلى السوق لحاجة أخرى كذلك، ثم أخرى بعد أخرى إلى أن انكسرت نفسه وماتت فقربه الشيخ وصار من خواص أصحابه وأكثرهم زهداً وفقراً، وأكثرهم فضلاً وقدراً.

قلت: والمجاهدات والرياضات في البدايات تدخل في أبواب يطول عدها، وتحتاج إلى همم يهول جدها، ومختصر ذلك أنهم ألزموا نفوسهم الإقبال على الله سبحانه والإعراض عما سواه، وأن تكون خطراتهم وإراداتهم ونياتهم وأفعالهم وأكلهم وشربهم ولباسهم ونومهم ونطقهم وصمتهم ونظرهم وفكرهم واستماعهم واجتماعهم وافتراقهم وسائر حركاتهم وسكناتهم كلها لله عز وجل: وأن يقتصروا على حد الضرورة فيما لا بد للنفس منه، وألزموها قلة المنام وقلة الطعام وترك الكلام واعتزال الأنام، والتحلي بالصفات الحميدات، والتخلي عن الصفات الذميمات، وألزموها دوام المراقبة، وهي دوام نظر العبد إلى الله تعالى وعلمه في كل نفس أن الله سبحانه ناظر إليه ومطلع عليه، واستغراق الأوقات بذكر الله ومجانبة الكسل والبطالة وترك الشهوات، حتى أن منهم من أقام أربعين سنة وأكثر وأقل يتشهى شهوة ويمنع نفسه منها، ومنهم من أقام في البرية في مكان واحد عدة سنين بارزاً للحر وللبرد والمطر الثلج وغير ذلك من الشدائد والعناء إلى أن ظفر ببلوغ المنى، فكأن تلك الشدائد ما كانت، ولذات الوصال ما زالت، وفي بلوغ هذا المأمول أنوب عن لسان حالهم وأقول:

وما ضرنا ما نالنا منْ كريهةٍ	إذا ما بلغنا بعدها غاية المُنى
كأن لم يكُن ما نالنا منْ شدائدٍ	وما زالَ ما نلنا من الوصلِ والهَنا
ظفرنا بملكِ الملوكِ حقيقة	كما قال في ذلك ابن أدهم مُعلنا
أخي نحنُ والله الملوك بفقرنا	لنا الملك في الدارين والعز والغنا
نولي ونعزلُ والملوك جميعُهم	لنا خدم والذل يجزون والعنا

قلت: قد اشتهر عن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه هذا الذي ذكرته، أعني قوله: «نحن والله الملوك» فيما حكي إبراهيم بن بشار رحمه الله تعالى قال كنت مع إبراهيم بن أدهم في سفر ذات ليلة وليس معنا شيء نفطر عليه، فرآني مهموماً حزيناً، فقال لي يا إبراهيم بن بشار ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعم في الدنيا والآخرة؟ لا يسألهم الله عز وجل يوم القيامة عن حج ولا زكاة، ولا عن صلة رحم ولا عن مواساة، وإنما يسأل ويحاسب هؤلاء المساكين أغنياء في الدنيا أذلة

---

(١) الكنيف: حظيرة من خشب للإبل والغنم تقيها الريح والبرد. أو هو المرحاض (ج) كنف.

في الآخرة، لا تغتم ولا تحزن فرزق الله تعالى مضمون سيأتيك، نحن والله الملوك الأغنياء نحن الذين تعجلنا الراحة في الدنيا لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله سبحانه، ثم قام إلى صلاته فما لبثنا غير ساعة وإذا برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير، فوضعه بين أيدينا وقال: كلوا يرحمكم الله: فلما سلم إبراهيم من صلاته قال: كل يا مغموم؛ يا حزين، فجاء سائل فقال أطعموني، فأخذ ثلاثة أرغفة وتمراً ودفعه إليه، وأعطاني ثلاثة أرغفة وأكل رغيفين وقال: المواساة من أخلاق المؤمنين.

قلت: لي في رياضات السادات الرجال أقوال أقولها بغير أفعال، من ذلك قولي في بعض القصيدات هذه الأبيات:

فترياق تَقْوى مع سفوف رياضة ... ومع غارقونَ الذكر مغلي عزائم
مراهم أسقام القلوب نوافع ... بها برء معلول وإيقاظ نائم
وإنْ كانَ بنيانُ الرياضةِ عزلة ... وجوع وصمت مع سُهاد مداوم

وقولي في أخرى بعد ذكر شيء من محاسنهم:

خلال علا منها إخالك خاليا ... تبهرجُ في زورِ الدعاوى بزائفِ[1]
مساويك حالي في مساويك كلنا ... عبيد الهوى للنفسِ غير مخالفِ
نأى مسلكاً عن صامتٍ ضامرِ الحشا ... عزيل البرايا للسهادِ مُحالفِ
بذي صارت الأبدال في قول سهلهم ... بلا شك أبدالاً بحور المعارف
ملوك البرايا ليسَ يشقى جليسهم ... لهم بيض رايات العلى في المواقف

أعني بهذه الخصال الأربع التي هي قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، واعتزال الأنام صارت الأبدال أبدالاً في قول سهل بن عبد اللّٰه رضي الله تعالى عنه. كما تقدم في شرح القصيدة وقولي في أخرى:

بذلّ أنيلوا العز والجهد راحة ... وفقرِ غني والحزن كل مَسرّة
وطيب عيش بالطَّوى ثم بالظما ... شراب كؤوس جاليات هنية
بجناتِ وصل في رياض معارف ... لهم ذللت منها قطوف تَدلَّت
جنوا من جناها زاكياً لا يذوقه ... من الخلق إلا كل نفس زكية
تَسلَّت عن الدُّنيا وماتت عن الهوى ... وغسلها في موتها ماء دَمعة
وصلت عليها صالحات فعالها ... وقد كُفنت في بيضِ أثواب توبة
وشيلت على نعش انتعاش إلى الفنا ... بقبر خمول شق في أرض غُربة
وقومها في البعث باعث عقلها ... وحاسبها في كل مثقال ذرَّة
وألزمها تمشي صراط استقامة ... دقيقاً كحد السيف إن عنه زلت

---

(١) البهرج: الباطل أو الزائف من الدراهم أو الرديء من الأشياء.

هَوَتْ جوف نار الهجر والبعد والقَلَى ... وإنْ ثبتت سارتْ لجناتِ وصلة
ونالت مُناها والسعادات كلها ... فيا سعد نفس أدركت ما تمنت

وقد تقدمت هذه الأبيات وإنما أعدتها لأجل المجاهدة المذكورة.

قلت: قد اقتصرت على هذه الألفاظ فيما وعدت به من الإشارة إلى شيء من كلامهم في المجاهدة والارتياض، وقد كنت وعدت أيضاً بأجوبة عن أشياء صدرت عنهم، وها أنا أبتدي بذلك مستهدياً ومستعيناً بالله عز وجل ومستعيذاً به من الخذلان الزيغ والزلل.

الجواب الأول

وبالله التوفيق عما وقع من بعض المشايخ أهل التحقيق من الشطحات المستنكرات عند من لا يعرف السكرات، أعني سكرات راح الهوى التي سقاها جمال المحبوب للأحباب شموس الهدى في حضرة القدس على بساط الأنس بكاس الندا، يغدو بها سكارى إلى الحشر غداً، وفيها وفيهم قلت منشداً هذه القصيدة المسماة بالدر المنضد في جيد الملاح في بيان حسن المقصد من المشايخ أهل الصلاح، والجواب عما صدر منهم من الشطح، والذب عنهم للطاعنين فيهم أولى القدح: وأولها:

سلامٌ على قومٍ شموس الهُدى غدا ... بهم في الهوى سكر إلى حشرهم غدا
أدار عليهم كَأس راح محبة ... جمال سقي الأحباب لما لهمُ بدا
بها هامَ بعض في البراري وبعضُهم ... به وله ظنوا جنوناً فقيدا
وبعض عن الأكوانِ بانَ وبعضهم ... به جاوزَ الإسكارَ حدا فعربدا
فسلّ عليه الشرع سيفا حمى به ... حدوداً فرى الحلاج ماض مُحدداً
فماتَ شهيداً عندكُم من محقق ... ولم عندهم يخرج عن القوم مُلحدا
ولكن فتى بسطام موفي بحالهِ ... حمى عن عنايات عزيزاً مُمجدا
وبعض بأمر قوله قدمي على ... رقابِ جميع الأولياءِ مسوّدا
وبعض له التأويل في الشطح ظاهر ... وبعض لتعريف ونصح ليقتدى
مولى على التصريف في الملك حاكم ... وبدر به في ظلمة الليل يهتدى
كما قال مولانا وشيخ شيوخنا ... أبو الغيث ذو التصريف والمجد والندا
مشيراً بنظم في جواب منازع ... يسمى ابن علوان ولياً وسيدا
إلى أنه في وقته الأرض والسما ... له فيهما التصريف بالإذن مُفردا
وبعض إلى التخريبِ مال مستراً ... لكيلا يرى فيه الصلاح فيحمدا
يداوي لقلب في حرامِ مُحققا ... كجسم وبل أولى جوازاً مؤكدا
لأن سقام الجسم أجر ورحمة ... وبالصد سُقم القلب للدينِ مُفسدا
كما فعلَ الخوّاص في لبسِ خلعة ... ابن ملك بحمام لغسل تجردا
ليدعوهُ لصائم يذهب شهرة ... فلا قط يدعى صالحاً مُتعبدا

ولكن بالاستغفارِ يستدركونهُ ... وغفر لمن قد سبهم فيه واعتدى
وللقومِ أغراض صحاح جميلة ... وما صدقهم يعدو عن الحقِ مَقْصدا
فمن كانَ موسوماً لنشو ينالهُ ... بميسم حرمان من الخير والهدى
عدواً لأصحاب الطريقة منكراً ... عليهم وفيها طاعناً ومفنداً
فذاك الذي ما فيه للطب حيلة ... ولو كان بالتوفيق للخير مُرشدا
تبصر في بحث يريه بناؤه ... على الصدق والحق القويم مُشيدا
عزائم دينَ من كتابٍ وسنةٍ ... وعقدا بعقل ثم نقل مؤيدا
وشغلا بإقبال على الله وحده ... وإعراضهم عما سوى الله سَرْمدا
وكل حميد منْ حلى قربه اجتلوا ... وكل ذميم عنهمُ صارَ مُبْعدَا
فمنْ كان هذا دينهُ وصفاتُه ... فما قول خصم يسمع الحال منشدا
هل الدين إلاَّ الشغل باللهِ وحده ... وذو الدين إلا من يدوم موحدا
وهل قط عيش غير عيش أحبة ... جنوا من هنا وصلا نعيما مُخلدا
وهل فتية إلاَّ رجال تقربوا ... بأنفُسهم قتلا لتحيا وتَسْعدا
معادن أسرار بحار معارف ... مطالع أنوار جلاء لذي الصدا
ملوكَ الورى كلُ الملوك تهابهم ... ترى خوفهم للهِ للخلقِ مرعدا
بشرقٍ وغربٍ جردوا لسيوفهم ... مُقيمين برهاناً على منهج الهُدى
إلى أن لهم كل الأئمة سلموا ... وجاؤوا اعتقاداً نحوهم وتوددا
وأمسوا حواليهم كباراً كأنهُم ... صغار حوالي من يؤدب مُرشدا
ولو أنهم كانوا على باطلٍ لقوا ... سيوفاً تخلى لحم كل مبددا
فهذا جوابي سوف يأتيك شرحهُ ... إذا ما التقى الإنصاف سلمه العدا
عدا سادة غر ملاح أحبة ... حلاهم حلت للنظم دراً مُنضدا
وأضَحْت بها الأكوان تزهو ... عرائس تجلى للأنامِ على المَدَى
غدت في الحلى تختالُ زهواً بحُسنها ... وراح بها كَل الوجود منجدا
كروضٍ بوشي من ربيع مدبج ... ترى الحُسن في ألوانه مُتجددا
كأنّ نجوماً أو قناديل أسرجت ... بكل مكان نورها قد توقدا
كان السما بالزهر فوقَ الثرى غدت ... وذاكَ الثرى بالزهر فوقَ السَّما غدا
بلِ الأرض زانتها نجومُ هداية ... لدينٍ بهم دفع الشدائد والرَّدا
بهم قد حلت بل قد سَمَتْ للسما وفي ... قناديل أرواح لدى العرش مَنْجدا
عليهم من الرَّحمن أزكى تحية ... تكرر ما غنى حمامٌ وغَرْبدا

قلت: وانتصب مسجدا بحلت: أي وحلت بأرواح الأولياء المعلقة بساق العرش مسجدا زاهراً بأنوار القناديل المعلقة فيه. وقد أخبرني بعض الأولياء الكبار من أهل اليمن أنه أول ما فتح عليه كشف

له عن عالم الملكوت[1]، فشاهد من جملة ما أشهد قناديل معلقة بالعرش، ثم أعلم أن تلك القناديل أرواح الأولياء رضي الله تعالى عنهم.

قلت: وها أنا أشير إلى شرح الجواب المذكور بشيء من بسط المنظوم بالمنثور، فأقول وبالله سبحانه التوفيق:

اعلم وفقنا الله تعالى وإياك لفهم الحق واتباعه، وجعلنا جميعاً ممن انتفع به ونفع الغير بانتفاعه، أن القوم رضي الله تعالى عنهم وردوا بحراً ليس له ساحل، وكل أحد من المنكرين عليهم من ذلك المورود ماحل، ومما فيه من جواهر الحكم الأسرار والمعارف جاهل، وسقوا بكؤوس الوصل من راح المحبة التي لم يشم ريحها من لم يقض من قتل نفسه نحبه، فأخذ ينكر عليهم من لا يعرف تلك الجواهر التي لا يعرفها إلا من هو في ذلك البحر ماهر، وصدرت عنهم ألفاظ في حال السكر، فأخذ ينكرها من لا يعرف العذر، وذلك بجهله بالأسرار التي في تلك المعارف، والراح التي في تلك المعارف، وها أنا وإن كنت جاهلاً بذلك أومن به، وأسلك في الجواب المذكور سبعة مسالك:

المسلك الأول: الاعتذار عنهم بالسكر

وذلك الشطحات الصادرات عنهم منها ما وقع منهم في حال السكر والغيبة بواردات الأحوال، والسكر بسبب مباح يسقط التكليف في الشرع بالشرط المعروف في كتب الفقه، وإلى هذا المسلك الذي هو الاعتذار بالسكر أشرت بقولي في القصيدة: «به هام بعض في البراري» إلى قولي: «به جاوز الإسكار حداً فعربدا».

المسلك الثاني: الاعتذار عنهم بصدور ذلك منهم على سبيل الحكاية عن الله عز وجل

قلت: وكل واحد من هذين المسلكين يصح أن يجاب به عن قول الحلاج أنا الحق وقول أبي يزيد إن صح عنه سبحاني، وممن حمل ذلك منهم على معنى الحكاية عن الله سبحانه الشيخ الإمام الأستاذ للأنام، شيخ الإسلام، لسان الحقيقة دليل الطريقة، العارف بالله تعالى المحقق، العالم الرباني المدقق، شهاب الدين أبو حفص عمرو بن محمد السهروردي رضي الله تعالى عنه، قال في كتابه العوارف: ومما يحكى عن أبي اليزيد رحمه الله تعالى قوله سبحاني، حاشا أن نعتقد في أبي يزيد أن يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله عز وجل. قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج رحمه الله تعالى في قوله: «أنا الحق».

وممن قال إن هذا القول صدر في حال السكر الشيخ الإمام النجيب الشريف الحسيب النسيب،

---

(١) الملكوت: الملك العظيم، أو العز والسلطان.

شيخ شيوخ الإسلام، قطب الأولياء الكرام، أستاذ الطريقة ركن الشريعة وعلم الحقيقة، ذو المجد والندى، والمفاخر الذي خضعت له رقاب الأولياء الأكابر، محيي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلاني، قال رضي الله تعالى عنه في الحلاج فيما روي عنه في كتاب مناقبه الشهيرة الثابتة بالأسانيد الكثيرة: طار طائر عقل بعض العارفين من وكر شجرة صورته، وعلا إلى السماء خارقاً صفوف الملائكة كأنه كان بازياً من بزاة الملك محيط العينين بخيط ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ [النساء: ٢٨] فلم يجد في السماء ما يحاول من الصيد، فلما لاحت له فريسته رأيت ربي ازداد تحيره في قول مطلوبه ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ [البقرة: ١١٥] عاد هابطاً إلى خضرة خطة الأرض، طلب ما هو أعز من وجود النار في قعور البحار، فلفت بعين عقله فما شاهد سوى الآثار، فكر فلم يجد في الدارين مطلوباً سوى محبوبه، فطرب فقال بلسان سكر قلبه أنا الحق، وترنم بلحن غير معهود، صفر في روضة الوجود صفيراً لا يليق، لحن بصوته لحناً عرّضه لحتفه، نودي في سره: يا حلاج اعتقدت أن قوتك بك قل الآن نيابة عن جميع العارفين حسب الواحد إفراد الواحد، قل يا محمد أنت سلطان الحقيقة، أنت إنسان عين الوجود، على عتبة باب معرفتك تخضع أعناق العارفين، في حي جلالتك توضع حياة الخلق أجمعين. انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه.

وقولي: «به جاوز الإسكار حداً فعربدا» فيه إشارة إلى قول الشيخ أبي الغيث رضي الله تعالى عنه: هداك الله إلى شرب ماء عين من حسا منها حسوة واحدة عدم عقله، وإن كان أكثر مما ذكرناه ادعى الربوبية، ودل على ضعفه لأن من كان قبلنا كان بهذا الوصف، ولكن لباس ثوب العبودية لنا أكمل وأجمل، وذلك أقصى ما نروم ونطلب.

قلت: وممن قال به أيضاً وقبله ولم يخرجه من جملة الصوفية جماعة من المشايخ الكبار، المحققين العارفين بالله تعالى أولي الأنوار، منهم الشيخ أبو العباس بن عطاء، والشيخ أبو عبد اللّه بن خفيف، والشيخ أبو القاسم النصراباذي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وأثنوا عليه وصححوا له حاله، وحكوا كلامه وجعلوه أحد المحققين، حتى قال أبو عبد اللّه بن خفيف الحسين بن منصور عالم رباني: وإلى ذلك أشرت بقولي في القصيدة:

ومـاتَ شهيـداً عنـدكُـم مـن مُحقـقٍ ... ولـم يخـرج عنـدهـم عـن القـومُ ملحـدا

أي لم يخرج في الاعتقاد إلى مذهب الإلحاد بقول الحلول والاتحاد، فقد نقل هذا جماعة من المشايخ الكبار والعلماء الأخيار في تصانيفهم، ونقول أيضاً إن أكثر المشايخ لم يثبتوا له قدماً في التصوف ولم يقبلوه، ولم يتخذوا عنه.

وقولي في القصيدة «فر الحلاج ماض محدداً» أي قطعه سيف الشرع حال كونه ماضياً محدداً، ولكن حذفت الياء من ماض لضرورة الوزن.

ومن كلامه رحمه الله تعالى: الحق إذا استولى على سر عبد ملكه الأسرار فيعاينها ويخبر عنها. وسئل عن الصوفي فقال: واحد في الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحداً. وسئل عن التصوف وهو مصلوب فقال: أهو ما ترى. وقال إذا دام البلاء بالعبد ألفه، وأنشد:

تمكــن منــي الصبــر حتــى ألفتــه وأسلمني حُسن العزاء إلى الصبرِ

وقال خادمه: لما كانت الليلة التي وعد بقتله من الغد، قلت له يا سيدي أوصني.

فقال عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك، فلما كان من الغد وأخرج للقتل قال: حسب الواحد إفراداً لواحد له، ثم خرج يتبختر في قيده وهو يقول:

نــديمــي غيــر منســوب إلــى شــيء مــنَ الحيــفِ
سَقَــانــي مثــل مــا يشــرب كفعــلِ الضيــفِ بــالضيــفِ
فلمــا دارت الكــاســاتُ دعــا بــالنطــعِ والسيــفِ

ثم قال: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ [الشورى: ١٨] ثم لم ينطق بعد ذلك حتى فعل به ما فعل. وقال: لو لم يبعث الله محمداً لم تكمل الحجة على جميع الخلق، وكان يرجى للكافر النجاة من النار. وقال لرجل من المعتزلة: لما كان الله تعالى أوجد الأجسام بلا علة، كذلك أوجد فيها صفاتها بلا علة، وكما لا يملك العبد أصل فعله، كذلك لا يملك فعله. وقال المريد هو الخارج عن أسباب الدارين. وقال: من أسكرته أنوار التوحيد حجبته عن عبادة التجريد، بل من أسكرته حقائق التجريد نطق عن حقائق التجريد، لأن السكران هو الذي ينطق بكل مكتوم.

وقال القناد: لقيت الحلاج يوماً في حالة رثة، فقلت له كيف حالك؟ فأنشأ يقول:

لئـنْ أمسيـتُ فـي ثـوبـي عـديـم لقـدْ بليـا علـى حـرّ كـريـم
فـلا يُحـزنـك إنْ أبصـرتَ حـالاً تغيـرَ فـيّ عـنْ حـالٍ قـديـم
فلـي نفـس ستتلـفُ أو سترقـى لعمـرِ الله فـي أمـرٍ جسيـم

قلت: وله كلام يطول ذكره ويجلّ قدره، وأشعار لطيفة ومعان ظريفة، ولكن في كلامه ما يدق فهمه على بعض الأفهام، ويوهم ما لا يجوز اعتقاده من القول بالحلول، والله سبحانه العليم، ولا ينبغي أن يعتقد ذلك فيه، وللتأويل فيه مجال كما قدمت في الصريح المفهوم، فما ظنك بالشيء الموهوم.

قلت: ومن جملة أشعاره اللطيفة التي تحتاج إلى تأويل وشرح طويل، قوله في كتابه إلى أبي العباس بن عطاء:

كتبـت ولـم أكتـب إليـكَ وإنمـا كتبـتُ إلـى نفسـي بغيـرِ كتـاب
وذلـك أنَّ الـروح لا فـرقَ بينهـا وبيـن مجيئهـا بفصـلِ خطـاب
فكـلُ كتـاب صـادر منـك وارد إليـك فـلا تحتـاج رد جـواب

قلت: وكذلك أبو يزيد إن صح المحكى عنه، ولم يقله على معنى الحكاية عن الله سبحانه، فهو محمول على أنه قاله في غلبة السكر، فله السكرات المشهورة والأحوال المشكورة، وهو الملقب

بقطب الأحوال، وربما لقبه بعض هذه الطائفة بسلطان العارفين؛ ولقب سهل بن عبد اللّه بقطب المقامات وبحجة الله على العارفين؛ ولقب الجنيد بقطب العلوم وبسيد الطائفة وبتاج العارفين. وجلالة أبي يزيد وعلو همته ومناقبه يطول ذكرها بل يتعذر حصرها، وإلى ذلك أشرت بقولي في القصيدة:

ولكن فتى بسطام موتي بحاله   حمى عن عنايات عزيزاً ممجدا

ومما أنشد رضي الله تعالى عنه:

غرست الحُب غرساً في فؤادي   فلا أسلو إلى يوم التَّنادي
جرحت القلب مني باتصالٍ   فشوقي زائدُ والحبُّ بادي
سَقَاني شربة أحمى فؤادي   بكأسِ الحُب من بحرِ الودادِ

المسلك الثالث: الاعتذار عنهم بالأمر

أعنى بأن من الشطح المذكور ما أمروا به فصدر عنهم امتثالاً للأمر، ويكون ذلك الأمر تنويهاً بفضلهم وبياناً لعلو شأنهم، وتعريفاً للجاهل بكبر قدرهم، وإرشاداً إلى التعليق بهم والتوسل برفيع جاههم وغير ذلك من المصالح، ومن ذلك ما روي في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر المتقدم ذكره رضي الله تعالى عنه من طرق كثيرة، بروايات شهيرة عن جماعة من المشايخ الأكابر العلماء الأفاضل والأخيار الثقات؛ واشتهر واستفاض حتى في الجهات البعيدات أنه قال في مجلسه وهو على الكرسي يتكلم على الناس: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وإلى ذلك أشرت بقولي وبعض بأمر قوله قدمي على رقاب جميع الأولياء مسوداً وكان في مجلسه حينئذٍ عامة مشايخ العراق؛ وروي أنهم كانوا نحواً من خمسين، وروي نيفاً وخمسين شيخاً منهم الشيخ أبو النجيب السهروردي، والشيخ قضيب البان الموصلي، والشيخ أبو السعود أحمد بن أبي بكر العطار وغيرهم من المشايخ الكبار المعدودين، وروي من طرق كثيرة عن خلائق من الأولياء أنه لم يبق أحد من الأولياء في ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين في جميع آفاق الأرض إلا حنا له رقبته إلا رجل بأصبهان، فإنه لم يفعل فسلب حاله.

وروي أن الشيخ أبا النجيب السهروردي رضي الله تعالى عنه طأطأ رأسه حتى كاد يبلغ الأرض وقال: على رأسي على رأسي على رأسي قالها ثلاثاً.

وكان من جملة من حنا له رقبته من الغائبين الكبار المشهورين الشيخ أبو مدين، والشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فأما سيدي أحمد فرووا عنه أنه كان جالساً يوماً برواقه[1] بأم عبيدة: فمد عنقه وقال على رقبتي، وفي رواية أنه قال: وحميد منهم، فسئل عن ذلك فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد قدمي هذه على رقبة كل ولي لله.

---

(١) الرّواق: البيت من الشعر يحمل على عمود واحد طويل في وسطه (ج) أروقة.

وأما الشيخ أبو مدين فرووا أنه حنا رأسه يوماً وهو بين أصحابه وقال: وأنا منهم اللهم إني شهدك وأشهد ملائكتك أني سمعت وأطعت، فسأله أصحابه عن ذلك فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فأرخوا ذلك وهم في المغرب، ثم جاء المسافرون من العراق فأخبروا أن الشيخ عبد القادر قال في ذلك الوقت الذي أرخوه.

وأما الشيخ عبد الرحيم فرووا عنه أنه مد عنقه يوماً بقناء وقال: صدق الصادق الصدوق، فقيل له: ومن هو؟ فقال الشيخ عبد القادر قد قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وتواضع له رجال المشرق والمغرب فأرخوا ذلك الوقت، ثم جاء الخبر بذلك في ذلك الوقت.

قلت: وروي بأسانيد كثيرة من طرق متعددة عن جماعة من كبار المشايخ أنه لم يقل ذلك إلا بأمر.

منهم الشيخ عدي رضي الله تعالى عنه قال: إنما وضعت الأولياء كلهم رؤوسهم لمكان الأمر ألا ترى إلى الملائكة لم يسجدوا لآدم صلوات الله عليه وعليهم إلا بورود الأمر عليهم.

ومنهم الشيخ أبو سعيد القيلوي رضي الله تعالى عنه قال: قالها بأمر لا شك فيه وهي لسان القطبية. قال: ومن الأقطاب في كل زمان من يؤمر بالسكوت ولا يسعه إلا السكوت، ومنهم من يؤمر بالقول فلا يسعه إلا القول، وهو الأكمل في مقام القطبية، لأنه لسان الشفاعة.

ومنهم الشيخ علي بن الهيتي رضي الله تعالى عنه لما قال الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه مقالته تلك: صعد إليه فوق الكرسي وأخذ قدمه وجعلها على عنقه ودخل تحت ذيله، فقال له أصحابه: لم فعلت ذلك؟ فقال لأنه أمر أن يقولها وأذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء، فأردت أن أكون أول من سارع إلى الانقياد له.

ومنهم الشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضي الله تعالى عنه قيل له: هل قال الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله بأمر أو بلا أمر؟ قال بل قالها بأمر.

ومنهم الشيخ أبو محمد القاسم رضي الله تعالى عنه قال: لما أمر الشيخ عبد القادر أن يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، رأيت الأولياء بالمشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعاً، إلا رجلاً بأرض العجم فإنه لم يفعل، فتواري عنه حاله.

ومنهم الشيخ حياة بن قيس الحراني رضي الله تعالى عنه قال: قد عشنا زماناً مديداً في ظل حياة الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه، وشربنا كؤوساً هنية من مناهل عرفانه، ولقد كان النفس الصادق يصدر عنه فيستطير شعاع نوره في الآفاق استطارة النار، فيقتبس منه الأسرار أصحاب الأحوال على قدر مراتبهم، ولما أتاه الأمر بقول قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، زاد الله سبحانه جميع الأولياء نوراً في قلوبهم، وبركة في علومهم، وعلواً في أحوالهم ببركة وضعهم رؤوسهم.

قلت: وروي أيضاً بأسانيد متعددة من طرق كثيرة عن جماعة من الشيوخ الكبار أنهم أخبروا عنه

أنه سيقول مقالته تلك قبل وقوعها بسنين كثيرة، بعضهم قبل ذلك بنحو مائة سنة، منهم الشيخ عبد اللّه الجوني بالجيم وبعد الواو نون رضي الله تعالى عنه.

روى عنه الشيخ الإمام أبو يعقوب. يوسف بن أيوب الهمداني رضي الله تعالى عنه قال: سمعت شيخنا أبا أحمد عبد اللّه بن علي الجوني سنة أربع وستين وأربعمائة يقول: أشهدت أنه سيولد بأرض العجم مولود له مظهر عظيم بالكرامات، وقبول تامّ عند الكافة، ويقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وتندرج الأولياء في وقته تحت قدمه، ذلك الذي يشرف به زمانه، وينتفع به من رآه.

ومنهم الشيخ تاج العارفين أبو الوفا رضي الله تعالى عنه قال لمن حضره لما أتى الشيخ عبد القادر لزيارته وهو شاب: قوموا لولي الله، وربما تمشى إليه في وقت خطوات وكان الشيخ عبد القادر يتكرر إليه، فلما تكرر منه قوله قوموا لولي الله، قال له أصحابه في ذلك، فقال: لهذا الشاب وقت إذا جاء افتقر إليه فيه الخاص والعام، وكأني أراه قائلاً ببغداد على رؤوس الأشهاد وهو محق: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فتواضع له رقاب الأولياء في عصره، إذ هو قطبهم، فمن أدرك منكم ذلك الوقت فليلزم خدمته.

ومنهم الشيخ عقيل المنبجي رضي الله تعالى عنه، سئل يوماً عن القطب في وقته، فقال: هو في وقتنا هذا بمكة مخفي لا يعرفه إلا الأولياء، وسيظهر هنا، وأشار إلى العراق، فتى عجمي شريف يتكلم على الناس ببغداد، يعرف كراماته الخاص والعام وهو قطب وقته يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وتضع له الأولياء رقابهم ولو كنت في زمانه لوضعت له رأسي ذلك الذي ينفع الله سبحانه به من صدق بكراماته من سائر الناس.

ومنهم الشيخ علي بن وهب رضي الله تعالى عنه قال: إن الله تعالى قد نور الوجود بظهور رجل اسمه عبد القادر مظهره في العراق يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله ويقر أولياء عصره بفضله.

ومنهم الشيخ حماد الدباس رضي الله تعالى عنه، قال الشيخ أبو النجيب عبد القاهر السهروردي[1] رضي الله تعالى عنه: كنت عند الشيخ حماد بن مسلم الدباس رضي الله تعالى عنه ببغداد سنة ثلاث وخمسمائة، والشيخ عبد القادر يومئذٍ في صحبته، فجاء فجلس بين يديه متأدباً ثم قام، فسمعت الشيخ حماداً يقول بعد قيام الشيخ عبد القادر: ولهذا العجمي قدم تعلو في وقتها على رقاب الأولياء في ذلك الوقت، وليؤمرن أن يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وليقولن ولتوضعن له رقاب الأولياء في زمانه.

---

(١) هو عبد القاهر بن عبد اللّه بن محمد البكري الصديقي (٤٩٠ ـ ٥٦٣ هـ/ ١٠٩٧ ـ ١١٦٨ م) أبو النجيب السهروردي، فقيه شافعي واعظ، من أئمة المتصوفين، ولد بسهرورد، وسكن بغداد فبنيت له فيها رباطات للصوفية من أصحابه، وولي المدرسة النظامية، وتوفي ببغداد. له «آداب المريدين» و«شرح الأسماء الحسنى»، و«غريب المصابيح» الأعلام ٤/ ٤٩، ومعجم البلدان (سهرورد)، والوفيات ١/ ٢٩٩.

ومنهم رجل يقال له الغوث رضي الله عنه، روي في مناقب الشيخ عبد القادر بإسناد متعدد عن أبي سعد عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن علي بن أبي عصرون التميمي الشافعي[1] رحمه الله تعالى قال: دخلت وأنا شاب إلى بغداد في طلب العلم وكان ابن السقاء يومئذٍ رفيقي في الاشتغال بالنظامية، وكنا نتعبد ونزور الصالحين، وكان حينئذٍ ببغداد رجل يقال له الغوث، وكان يقال عنه إنه يظهر إذا شاء ويختفي إذا شاء، فقصدت زيارته أنا وابن السقاء والشيخ عبد القادر وهو يومئذٍ شاب، فقال ابن السقاء ونحن في الطريق: اليوم أسأله عن مسألة لا يدري لها جواباً، فقلت: أنا أسأله عن مسألة فأنظر ما يقول فيها، فقال الشيخ عبد القادر: معاذ الله أن أسأله شيئاً أنا بين يديه إذن أنتظر بركات رؤيته، فلما دخلنا عليه لم نره في مكانه، فمكثنا ساعة فإذا هو جالس، فنظر إلى ابن السقاء مغضباً وقال: ويحك يا ابن السقاء تسألني عن مسألة لا أدري لها جواباً، هي كذا وجوابها كذا، إني لأرى نار الكفر تتلهب فيك ثم نظر إليّ وقال: عبد اللّه أتسألني عن مسألة لتنظر ما أقول فيها، هي كذا وجوابها كذا، لتخرنّ عليك الدنيا إلى شحمتي أذنيك بإساءة أدبك، ثم نظر إلى الشيخ عبد القادر وأدناه منه وأكرمه وقال: يا عبد القادر لقد أرضيت الله ورسوله بأدبك، كأني أراك ببغداد وقد صعدت على الكرسي متكلماً على الملأ وقلت: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وكأني أرى الأولياء في وقتك وقد حنوا رقابهم إجلالاً لك، وغاب عنا لوقته فلم نره بعد. قال: فأما الشيخ عبد القادر فإنه ظهرت أمارات قربه من الله عز وجل، وأجمع عليه الخاص والعام وقال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وأقرت الأولياء بفضله في وقته، وأما ابن السقاء فإنه اشتغل بالعلوم الشرعية حتى برع فيها وفاق فيها كثيراً من أهل زمانه، واشتهر بقطع حجة من يناظره في جميع العلوم، وكان ذا لسان فصيح وسمت[2] بهي؛ فأدناه الخليفة منه وبعثه رسولاً إلى ملك الروم، فرآه الملك ذا فنون وفصاحة وسمت، فأعجب به وجمع له القسيسين[3] والعلماء بدين النصرانية وناظروه فأفحمهم[4] عجزاً، فعظم عند الملك، ثم رأى بنتاً للملك حسناء ففتن بها، وسأل أباها أن يزوجها منه، فأبى إلا أن يتنصر، فأجابه وتزوج بها، فذكر ابن السقاء كلام الغوث وعلم أنه أصيب بسببه، وأما أنا فجئت إلى دمشق وأحضرني السلطان نور الدين الشهيد وأكرهني على ولاية الأوقاف، فوليتها وأقبلت على الدنيا إقبالاً كثيراً، فقد صدق الغوث فينا كلنا. انتهى كلامه نسأل الله الكريم من فضله العظيم، ونعوذ به من سخطه وعذابه الأليم، ونسأله حسن الأدب معه ومع كتابه المبين وأنبيائه والمرسلين والملائكة المقربين وسائر عباده الصالحين، ونسأله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، لنا ولأحبابنا وللمسلمين آمين، بجاه نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ١٢٤، ووفيات الأعيان ١/ ٢٥٥، والسبكي ٤/ ٢٣٧.

(٢) السّمت: الطريق والمذهب. أو حسن القصد والمذهب في الدين والدنيا.

(٣) القسيسون: جمع القسيس: القسّ: من كان بين الأسقف والشماس، وهو خادم دين المسيحيين وإمامهم في أمور عبادتهم.

(٤) أفحم الخصم: أسكته بالحجة.

قلت: ومما يتعلق بما نحن بصدده، ما أخبر به جماعة من المشايخ الكبار أهل الكشف والأنوار والمعارف والأسرار عن هبة الحال لما قال الشيخ عبد القادر ذلك المقال، منهم الشيخ أبو سعيد القيلوي رضي الله تعالى عنه، لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، تجلى الحق عز وجل على قلبه، وجاءته خلعة من رسول الله ﷺ على يد طائفة من الملائكة المقربين، وألبسها بمحضر من الأولياء من تقدم منهم ومن تأخر، الأحياء بأجسادهم والأموات بأرواحهم وكانت الملائكة ورجال الغيب حافين بمجلسه واقفين في الهواء صفوفاً، حتى اشتد الأفق بهم ولم يبق ولي في الأرض حتى حنى عنقه.

ومنهم الشيخ بقاء رضي الله تعالى عنه قال: لما قال الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، قالت الملائكة: صدقت يا عبد الله.

ومنهم الشيخ أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنهما، روي عن الشيخ عدي أنه لما ذكر بين يديه الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه قال: بخ بخ[1] ذاك قطب الأرض وضعت ثلثمائة ولي لله وسبعمائة غيبي ما بين جالس في الأرض ومار في الهواء أعناقهم له في وقت واحد حين قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله. قال الراوي: فعظم ذلك عندي، ثم بعد مدة أتيت أم عبيدة لأزور الشيخ أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه، فذكرت له ما سمعت من الشيخ عدي، فقال صدق الشيخ عدي.

ومنهم الشيخ ماجد الكردي، والشيخ مطر رضي الله تعالى عنهما، روى عن الشيخ ماجد أنه قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، لم يبق لله ولي في الأرض في ذلك الوقت إلا حنا عنقه تواضعاً له واعترافاً بمكانته، ولم يبق ناد من أندية صالحي الجن من جميع الآفاق في ذلك الوقت إلا وفيه ذكر ذلك، وقصدته وفود صالحي الجن من جميع الأقطار، مسلمين عليه وتائبين على يديه، وازدحموا في بابه. قال الراوي: فأتينا إلى الشيخ مطر لزيارته، وفي أنفسنا إعظام ما سمعنا من الشيخ ماجد، فلما دخلنا عليه رحّب بنا وقال: صدق أخي الشيخ ماجد فيما أخبركم به عن الشيخ عبد القادر.

ومنهم الشيخ مكارم رضي الله تعالى عنه قال: أشهدني الله عز وجل أنه لم يبق أحد ممن عقد له لواء الولاية في أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولاً بين يدي الشيخ عبد القادر، وتاج الغوثية على رأسه، ورأى عليه خلعة التصريف العام النافذ في الوجود وأهله ولاية وعزلاً، معلمة بطرازي الشريعة والحقيقة وسمعه يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، ووضع رأسه وذلل قلبه له في وقت واحد حتى الأبدال العشرة. قال الراوي: قلت: ومنهم الشيخ بقاء، والشيخ أبو سعيد القيلوي، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ عدي بن مسافر[2]، والشيخ موسى

---

(١) بَخْ: كلمة تقال في المدح والرضا بالشيء، وتكرر للمبالغة فإن وصلت كسرت ونونت (بخٍ بخٍ).
(٢) هو عدي بن مسافر بن إسماعيل الهكاري (٤٦٧ ـ ٥٥٧ هـ/ ١٠٧٤ ـ ١١٦٢ م) شرف الدين أبو =

الزولي والشيخ أحمد بن الرفاعي والشيخ عبد الرحمٰن الطفسونجي، والشيخ محمد بن عيد البصري والشيخ حياة بن قيس الحراني، والشيخ أبو مدين المغربي رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ومنهم الشيخ خليفة رضي الله تعالى عنه، وكان كثير الرؤيا للنبي ﷺ، روى عنه الشيخ أبو القاسم بن أبي بكر بن أحمد بن سعادات البتدنيجي رحمه الله تعالى أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله قد قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فقال صدق الشيخ عبد القادر، وكيف لا وهو القطب وأنا أرعاه.

قلت: فهذه نبذة يسيرة مما يتعلق بقول الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه مقالته المذكورة، وقد أضربت عن أشياء كثيرة مما يتعلق بذلك، ومما يدل على عظيم فضله وجلالة قدره؛ وحذفت الأسانيد للاختصار، ولا حاجة إليها أيضاً لكثرة ما في ذلك من الاشتهار، وقد ذكر بعض أهل العلم أن كراماته قربت من التواتر.

قلت: يعني قرب حصول العلم بوجودها من العلم القطعي الحاصل بكثرة الرواة البالغين حد التواتر المعروف لكثرة المخبرين عنها، وذكرت شيئاً منها في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وعلى الجملة فهذا الذي ذكرته من فضله وإن عظم فهو قطرة من بحر فضائله، أو غبار من رمال ساحله، وجميع هذا المذكور وإن لم تدع إلى ذكره ضرورة فيما نحن بصدده، فقد دعا إلى ذكره ثلاثة مقاصد.

[المقصد الأول]: التنبيه على عظيم فضل الله سبحانه الذي يؤتيه من يشاء، وما خص به أولياءه من القرب والمعرفة والتصريف في المملكة، والمقامات العلية والأحوال السنية، وما أفاض الله سبحانه عليهم من الأنوار وأطلعهم عليه من الأسرار، وشرف به قدرهم ورفع به ذكرهم وأكرمهم به من الكرامات العظيمات ووهبه لهم من المواهب الجزيلات، وحلاهم به من المحاسن الجميلة، وطهرهم عنه من المساوي الرذيلة، وأنالهم من الجاه الوسيع، وأسكنهم من الجناب المحروس المنيع وحباهم من المنزل العالي الرفيع، وغير ذلك مما تقصر عنه عبارة من عبر وحصره يتعذر.

[المقصد الثاني]: دفع وهم من توهم لجهله بأولياء الله تعالى وفساد قلبه، أن الشيخ عبد القادر قال تلك المقالة بحظ نفس، وهوى كامن في باطنه، يظن أن أصفياء الله تعالى مثله منطوون على خبث الضمائر، ومتصفون بالصفات الرذائل، نعوذ بالله العظيم من الخذلان وسوء الظن بأولياء الله تعالى أهل العرفان، فإن من قرب هذا التقريب، وعرف هذا التعريف، ومكن هذا التمكين، وصرف هذا التصريف، وخضع له أكابر الأولياء هذا الخضوع، ورجع إليه العارفون بالله تعالى هذا الرجوع وزفته العناية هذا الزفاف المشعر بعظيم جلالته، وضرب له الوجود بمعازف السرور عند رؤية طلعته،

الفضائل، من ذرية مروان بن الحكم الأموي، من شيوخ المتصوفين، تنسب إليه الطائفة العدوية. كان صالحاً ناسكاً مشهوراً، ولد في بيت قار، وجاور بالمدينة أربع سنوات، وبنى زاوية في جبل الهكارية فانقطع للعبادة، وتوفي ودفن بها. الأعلام ٤/ ٢٢١، ووفيات الأعيان ١/ ٣١٦، وكرامات الأولياء ٢/ ١٤٧، وشذرات الذهب ٤/ ١٧٩.

ورقص الكون جميعه طرباً لظهور ولايته، وحمل بين يديه علم القطبية، وتوج بتاج الغوثية، وألبس خلعة التصريف العام النافذ في جميع الوجود، ومشت أكابر الأولياء من الصديقين والبدلاء تحت ركابه بأمر الإله المعبود، واشتهرت في الوجود كراماته وجمعه بين علمي الظاهر والباطن، يستحيل أن يكون قال ذلك بحظ نفس وهوى كامن، والله تعالى يقول في محكم آياته: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤].

[المقصد الثالث]: أن شيوخ اليمن الأكابر منهم والأصاغر، يرجع أكثرهم في لبس الخرقة إلى الشيخ عبد القادر، فلما رجعت شيوخنا إليه دعاني ذلك إلى ذكر شيء من مناقبه والثناء عليه، وأما ما يذكر عنه من الاعتقاد فسيأتي في خاتمة الكتاب عن بعض من أطلعهم الله تعالى على بواطن العباد، أنه رجع عنه إلى مذهب الجمهور الذي عليه الاعتماد، فإذا علم جميع ما ذكرته من علو شأنه، وما خص به من النصيب الطائل، فاعلم أنه رضي الله تعالى عنه قد أشار إلى ذلك في نظمه، إذ هو القائل:

مـا فـي المناهـلِ منهلٌ مُستعـذب	لا ولـي فيـهِ الألـذّ الأطيـبُ
أوفـى الـوصـال مكـانـة مخصـوصـة	إلاّ ومنـزلتـي أعـز وأقـربُ
وهَبَتْ لـي الأيـام رونـق صفـوهـا	فحلـت منـاهلهـا وطـابَ المشـربُ
وغـدوت مخطـوبـاً لكـل كـريمـة	لا يهتـدي فيهـا اللبيـبُ فيخطـبُ
أنـا مـن رجـالٍ لا يخـاف جليسهـم	ريـب الـزمـان ولا يـرى مـا يـرهـب
قـوم لهـم فـي كـل مجـد رتبـة	علـويـة وبكـل جيـش مـوكـبُ
أنـا بلبـل الأفـراح أمـلا دوحهـا	طـربـاً وفـي العليـاء بـاز أشهـبُ
أصبحـتُ لا أمـلاً ولا أمنيـة	أرجـو ولا مـوعـوده أتـرقـبُ
أضحتْ جيوشُ الحب تحتَ مشيئتي	طـوعـاً ومهمـا رمتـه لا يعـزبُ
مـا زلـت أرتـع فـي ميـاديـن الـرضـا	حتـى وهبـت مكـانـة لا تُـوهـب
أضحـى الـزَّمـان كحلـة مـرقـومـة	تـزهـو ونحـن لهـا الطـراز المـذهـب
أفلَـتْ شمـوس الأوليـن وشمسنـا	أبـدا علـى فلـك العلـى لا تغـرب[١]

قلت: هذا البيت الأخير يحتاج إلى تأويل ومحمل سالم من قادح غير لائق بجلالة الشيخ عبد القادر ومحاسن آدابه وجميل مقاصده، وفي ميدان معناه اتساع لمجال التأويل والعاقل لا يسلك الطريق الضيق مع اتساع السبيل، والمحتاج إلى تفسير لائق وللحال مطابق ثلاثة ألفاظ من البيت المذكور: اللفظ الأول قوله: «شمسنا إلى من يعود» الضمير في شمسنا، هل يختص بالمتكلم لقوله: «أنا بلبل الأفراح» وقوله: «ما زلت» إلى قوله: «حتى وهبت مكانة لا توهب» أو الضمير يعود على الطائفة، أعني أصحاب الطريق السالكين إلى الله تعالى المكاشفين بأسرار الحقيقة وهم مشايخ الصوفية لقوله:

---

(١) أفلت الشمس: غابت.

أنـا مـن رجـالٍ لا يخـاف جليسهـم ريـب الـزَّمـان ولا يَـرَى مـا يـرهـبُ

أي: الرجال الذين صحبتهم وربوني حتى حصل لي معهم نهاية المطلوب، ويكون المعنى: وشمسنا أيتها الطائفة، وهذا التأويل أوسع مسلكاً من الأول وأسلم منه قادحاً وأقل مؤاخذة، أو يعود الضمير بتأويل بعيد إلى هذه الأمة الذاكرين الله تعالى لقوله ﷺ: «هم القوم لا يشقى جليسهم»[1] الحديث الوارد الصحيح في القوم المجتمعين على ذكر الله، ويكون المعنى: وشمسنا أيتها الأمة، أو أيها القوم الذاكرون الله فيه ثلاثة احتمالات، أرجحها الأول من حيث سياق الكلام وقوة القرينة الدالة عليه والثاني أرجح من حيث اشتراك الطائفة في الوصف المتمدح به وشمول اسم المعرفة لجميع العارفين، وبقاء نور شمس المعرفة في الوارث من كل موروث منهم أبداً. اللفظ الثاني قوله: «أفلت شموس الأولين» هل المراد بالأولين من تقدم زمانه من الشيوخ على زمانه، أو من تقدم زمانه من بعد الصحابة على زمن طائفة الصوفية، أو من تقدم في نظيره وزمانه على زمان الذاكرين الله تعالى من هذه الأمة مع بعد هذا الأخير كما تقدم في نظيره؟ فيه ثلاث احتمالات أيضاً عائدة على الثلاثة الأول، كل واحد من هذه مفهوم من واحد من تلك اللفظ. الثالث قوله: «أفلت شموس الأولين» وقوله في آخر البيت: «لا تغرب» هل المراد بأفول شموس الأولين غروبها بموتهم، فليس أحد يهتدي بنورها بعد موتهم، وشمسنا يهتدى بنورها بعد موتنا لا تغرب أبداً من سماء مجدنا الباقي بعدنا الموروث منا إرثاً بعد إرث على تعاقب الدهور، وبالولادة المعنوية عن إلقاح النور إشارة منه إلى عدم انقطاع الأخذ عن أتباعه التائبين عنه، بل يبقى ذلك مع الجاه الوسيع والشرف الرفيع، والمراد أن بطلوع شمسنا أفول شمس من قبلنا لا بموتهم، وشمسنا لا تغرب بطلوع شمس من بعدنا أبداً فيه احتمالان، ويكون الغروب على الاحتمال الثاني بمعنى الاستتار والانمحاق لغلبة صفة أحد شيئين على صفة الآخر على معنى قول القائل:

فـإنَّـك شمـسٌ والملـوكُ كـواكـبٌ إذا طَلَعـتْ لـم يبـدِ منهـنّ كـوكـبُ

وقد بلغني عن بعض شيوخ اليمن الكبار أنه بشر بولي يظهر بعده وقال: يكون شمس زمانه لكن لا كشموسنا، فظهر كما ذكر رضي الله تعالى عنه، ولما أنشد الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه الأبيات المذكورة، أجابه الشيخ أبو المظفر الواعظ المعروف بجرادة رحمه الله تعالى منشداً:

بـكَ الشهـورُ تهنـى والمـواقيـت يـا مَـنْ بـألفـاظـهِ تغلـو اليـواقيـتُ
البـازُ أنـت فـإن تفخـر فـلا عجـب وسـائـر النـاس فـي عيني فـواخيـتُ
أشـمُّ مـن قـدميـك الصـدق مُجتهـدا لأنـه قـدم فـي نعلـهِ الصيـتُ

المسلك الرابع: الاعتذار عنهم بإرادة النفع للخلق

أعني من الشطح ما يكون سبباً لمصالح العباد ونفعهم، وعرفوا ذلك بإعلام الله تعالى لهم بإلهام أو كشف أو سماع خطاب أو غير ذلك من وجوه التعريفات.

---

(١) أخرجه البخاري «دعوات ٦٦»، والترمذي (دعوات ١٢٩).

ومن ذلك ما روي واشتهر واستفاض وتواتر في بلاد اليمن وما قرب منها أن الفقيه الإمام عالي المقام وصاحب الكرامات العظام الولي الكبير العارف بالله تعالى الشهير أبا الذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي رضي الله تعالى عنه قال: من قبل قدمي دخل الجنة، ولم يزل يقبل قدمه كل من رآه من الأكابر والأصاغر من المشايخ والعلماء وغيرهم من كل باد وحاضر.

ومن ذلك أيضاً ما اشتهر عن السيد الجليل الشيخ الكبير إمام الطريقة ولسان الحقيقة العارف بالله تعالى أحمد بن الجعل اليمني رضي الله تعالى عنه، أنه التزم الشفاعة لمن رآه ومن رأى من رآه، حيث يقول في أبيات له من جملتها هذان البيتان:

شافعٌ نافع مُحب قديماً ... في جميع المُحبين والإخوان
ملتزم للأنام بالشد مني ... من رآني ورأى من رآني

ومن ذلك أيضاً قول بعض المشايخ السادات أصحاب الكرامات: شفعت في القرن الذي أنا فيه، ومن هذا كثير، وكل هذا داخل تحت قولي في القصيدة:

وبعض لتعريف ونصح ليقتدى

المسلك الخامس: الاعتذار عنهم بتأويل ظاهر

ومن ذلك ما اشتهر عن بحر الحقائق معدن الأسرار والمعاني الدقائق، شيخ الشيوخ الأكابر، السيد الجليل إمام العارفين المشهور، أبي الغيث بن جميل رضي الله تعالى عنه، أنه جاء إليه جماعة من الفقهاء فقال لهم: مرحباً بعبيد عبيدي، فاستعظموا منه ذلك ورجعوا منكرين عليه، فلقوا شيخ الطريقين وإمام الفريقين إسماعيل بن محمد الحضرمي المتقدم ذكره، فذكروا له ذلك فقال: صدق أنتم عبيد الهوى والهوى عبده، وإلى هذا أشرت في القصيدة بقولي:

وبعض له التأويل في الشطحِ ظاهرُ

المسلك السادس: الاعتذار عنهم بالإذن في التصريف

أعني صرفهم الحق تعالى في المملكة، فتصرفوا فيها وحكموا بما أراهم الله سبحانه، فنفذ ذلك بإذنه ومشيئته، فإذا قال بعض الأمراء لبعضهم: أخرج من بلادي، فأجابه بقوله: بل بلادي أنا إن كان ولكنها ملك يزول ملكه، وعن قريب يكون هلكه، عاجز لا يستطيع للهلاك دفعاً، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، فقد ولانيها ملك الملوك الذي يرجع الأمر كله إليه، والذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، كان صادقاً إذا كان كذلك مولى من قبل الحق سبحانه، وكذلك لو نازعه من هو دونه من الأولياء في ولاية التصريف في المملكة، أو ادعى أنه أعلى منه مقاماً، أو أنه جاوز مقامات الأولياء، جاز أن ينكر عليه قوله، ويدعي ذلك لنفسه إذا كان فيه صادقاً محقًّا.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن من ذلك قول الشيخ أبي الغيث المشهور مشيراً إلى التصريف

المذكور فالأرض أرضي والسماء سمائي، لما كتب إليه الشيخ الكبير العارف معدن الأسرار والمعارف، أحمد بن علوان رضي الله تعالى عنه من بعض جبال اليمن بهذين البيتين:

جزت الصفوف إلى الحروف إلى الهجا ... حتى انتهيت مراتب الإبداع
لا باسم ليلى استغنت على السّرى ... كلا ولا لبني ترد شراعي

فأجابه الشيخ أبو الغيث معارضاً لقوله في هذين البيتين ببيتين الثاني منهما:

وحباني الملك واجْتَبي ... فالأرضُ أرضي والسَّماءُ سمائي

وإلى هذا أشرت بقولي في القصيدة:

مشيراً بنظم في جواب منازع ... يسمى ابن علوان ولياً وسيّدا
إلى أنه في وقته الأرض والسما ... له فيهما التصريف بالإذن مفردا

قلت: وقوله هذا يستعظمه من سمعه، وقوله في البيت الأول أعظم، فلهذا تركت ذكره، إذ الأفهام قاصرة عن بلوغ مرماه في فهم معناه، وها أنا أشير إلى معنى البيت المذكور مع ما قدمت له من التمهيد والتقريب، فمعنى قوله: «وحباني الملك» إلى آخره، أي أعطاني ملك الأرض والسماء ولاية التصريف فيهما بطريق النيابة لما علمه فيّ من توفيقه لي، لموافقتي مراده في أحكامه المسفرة عن وجه الحق المبين المبتسمة عن مكنون در حكمة الحكيم العليم، وحفظه إياي من الزيغ والميل عن سواء الصراط المستقيم، وإلى هذا أشرت في القصيدة بقولي:

مولى على التصريف في الملك حاكم ... ويدربه في ظلمة الليل يهتدي

قلت: ولو قال أمير ولاه سلطان بلاد أو صرفه فيها يولي ويعزل ويقطع ويصل: هذه البلاد بلادي، لم يكن هذا مستنكراً، وقد اشتهر عن السيدين الجليلين الشيخين الكبيرين العارفين بالله تعالى إمامي عصرهما وملكي زمام زمانهما الشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي، والفقيه محمد بن حسين البجلي المشهورين في غواجه من بلاد اليمن رضي الله تعالى عنهما، أنهما سمعا خطاباً من قبل الحق سبحانه: إذا شئتما أن تفعلا شيئاً فافعلا ولا تستأذناني، وهذا بعض الخطاب المذكور.

قلت: وجلالة قدر الشيخ أبي الغيث وعلو مقامه وعظيم شأنه مشهور، واتساع علمه وكثرة عمله وحسن طريقه مذكور، وكثرة كراماته وقوة حاله وقلبه الأعيان معروف، وبصبغة الناس ونقلهم من الصفات الدنية إلى الصفات السنية موصوف، وأكابر الشيوخ وأفاضل العلماء يغرقون في طرف بحره، وخيلهم السباق تخسر في ميدان السباق دون إدراك شأوه، فليس أحد كان يظهر له منه في كلامه إنكار، إلا ويكشف له في الجواب عنه الخمار، عن محاسن المعارف والأسرار، حتى يريه من جمال مليحات المعاني الأبكار، ما يدهش العقول ويحير الأفكار، فليس لأحد في حق ولايته مطعن، ولا تحقيق كلامه وإن عظم شطحه مقال، ولا في بحر علمه غوص ولا في ميدان فروسية حاله مجال:

تقلد سيفَ الحق للضرب والقنا ... لطعن بيمناه ولا قط يطعنُ
يقي جسمه درع من الحق نسجها ... وترس من الحالي الحصين مُحصن

ولو برز في ميدان شطحه غريزة لابتدرته السيوف بالضرب، وأسرعت إليه الأسنة بالطعن والألسنة بالثلب[1]، ولكنه لم يزل محموداً طريقته في الشرق والغرب، وفي هذا المعنى قلت أيضاً:

تتبع طريق الشيخ فخر شيوخنا ... أبي الغيث هل تلقى بها قط شلبا
وهل منشبا من قدم دهر ترى امرأ ... إلى يومنا في عرضه قط مخلبا
ولكنْ ما زالَ الثنا الدّهر عنهما ... جميلاً بحمد الله شرقاً ومغربا

قلت: وأما بيته الأول الذي أعرضت عن ذكره، فلا ينبغي أن يذكر أصلاً، فإن غور بحره عميق صعب المخرج، ومرقاة تأويله عسرة ليس لها مدرج، اللهم إلا لغواصٍ في بحار المعارف والأسرار، وأرّاق إلى معالي على علم التأويل بمعارج الأنوار، فمن وقف على البيت المذكور فماذا يقول في السيد المشكور؟ فإذا لم يجد بدا من التأويل فينبغي أن يحمل على أحد خمسة محامل: الأول أن يكون قاله في حال السكر والغيبة: والثاني أن تكون الأسماء المذكورة في البيت المذكور بمعنى الأسرار؛ وتكون أسراراً مخصوصة: أي أسرار أصحابي وكل من اقتدى بي وانتسب إليّ أو نال سراً من جهتي إنما حصلت له بسراية سري الذي وضعه الله تعالى فيّ إليهم بواسطة حكمة وحكمته وفضله ورحمته. والثالث أن يكون بمعنى الصفات: أي حصل للذين تزكوا بتربيتي وتربية كل شخص ينسب إليّ تحلى بحليتي وتخلق بأخلاقي، اكتسبوا ذلك من جهتي بواسطة فضل الله تعالى عليّ وعليهم. والرابع أن يكون بمعنى البركات: أي كل من حصل له بركة من المذكورين، فإنما ذلك من بركتي حصل بواسطة رحمة الله تعالى لنا جميعاً والخامس أن يكون بمعنى النيابة عن الحق سبحانه في التصرف المار المأذون له فيه، فالأحكام التي تصرف فيها صدرت عنه بواسطة الإذن له، ونفوذ المشيئة ومساعدة العناية السابقة، وأحاكم النائب وتصرفاته منسوبة إليه في العرف.

قلت: وهذه المحامل الخمسة إنما هي المصراع الآخر من البيت المذكور، وإنما المصراع الأول وقوله:

حلاني الملك المهيمن باسمه

هو بمعنى قول حسان رضي الله تعالى عنه:

وشق له من اسمه كي يجله ... فذو العرش محمود وهذا مُحمدُ

ويكون مراده باسمه تعالى المغيث وهو أبو الغيث.

وأما البيتان اللذان أرسل بهما إليه الشيخ أحمد بن علوان المذكوران ففي تأويلهما أيضاً صعوبة، وكأنه أشار والله تعالى أعلم بقوله: «حزت الصفوف» إلى أنه جاوز مقامات الأولياء، أو جاوزه صفوف الملائكة، وقوله: «إلى الحروف» يحتمل أنه أراد إلى علم الحروف والأسماء، وقوله:

---

(١) ثلبه: لامه أو أشدّ اللوم، أو تنقصه وعابه وآخذه بلسانه.

«إلى الهجاء» يحتمل أنه أراد إلى الاطلاع على الأسرار، وقوله: «حتى انتهيت مراتب الإبداع» فيه ما فيه، وينبغي أن يحمل على أحد ثلاثة محامل: أحدها التصرف بالإذن فيما شاء الله بقدرة الله، وقد تقدم في الفصل الثاني من هذا الكتاب أن الخوارق للعوائد يجوز جميعها في كرامات الأولياء بشرط عدم التحدي بالنبوة. والثاني بلوغه إلى مقام اطلع فيه على تكوين الخلق واختراعهم، أو سماع صريف[1] القلم الذي أمر بكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وهذه المقامات المشار إلى بلوغها في هذا البيت إنما يبلغ إليها بالروح والعلم بطريق الكشف لا بالجسد والعلم بطريق النقل. والثالث حمل ذلك على صدوره منه في حال سكر الحال وقوله في البيت الثاني.

لا بـاسـم ليلـى استعنـتُ علـى السرى　　　كَـلاّ ولا لبنـى تـردّ شـراعـي

فيه أيضاً ما فيه: وينبغي أن يحمل على الاستغناء عن الاستعانة بالمشايخ، أشار إلى أنه صار مستقلاً بنفسه في التصرف مأذوناً له فيه، لا يحتاج في طريق سراه إلى شيخ يدله، ولا شيخ يحمل عنه شراع مركبه الساري في بحر المعارف، ويقله لا بنفسه ولا بريح نفسه، وهذه استعارة بعد استعارة قبلها. وكناية عن كناية عن المقصود، ومعنى ذلك مرقياً أنه لا يحتاج مركبه إلى ملاح يمسك السكان، عارف بمسالك البحر ومواضع الأخطار، ولا إلى بحار يرفع الشرع، وهو يحمله حتى يبلغه الأوطار؛ بل نور معرفته يمسك سكان مركبه ويدله الطريق، وهوى محبته يحمل شراع المركب في بحر المعارف والتحقيق، ويكون ذكره لليلى ولبنى استعارة وكناية عن البحارين والملاح الذين هم كناية عن الشيوخ، فالربان الذي هو الملاح كناية عن الشيخ المربي. أو يحمل ذلك كله على أنه قاله في حال السكر.

المسلك السابع: الاعتذار عنهم بالتخريب

وهو أن يفعل من يظن به الصلاح وعمارة الباطن شيئاً يوهم خراب باطنه وعدم صلاحه، وذلك بأشياء كثيرة، ويدل فعل كل واحد منها على تهاونه بالدين، كما سيأتي في الجواب الثاني إن شاء الله تعالى. وأما التخريب بالشطح الذي هو المقصود هنا، فهو أن يتكلم بكلام عظيم يدعي فيه حالاً عظيماً فوق ما يظن به، بحيث يسقط من القلوب ويساء الظن به ليحصل مقصوده في نفي الصلاح عنه، وإلى ذلك أشرت في القصيدة بقولي:

وبعـض إلـى التخـريـب مـالَ تستُـرا　　　لكيـلا يـرى فيـهِ الصَّـلاح فيحمـدا

قلت: وشطحات المشايخ كثيرة جداً، ولكن إذ قد عرفت هذه المسالك السبعة التي أجبت بها في الاعتذار عنهم، فكلما بلغك عن أحد منهم من شطح فاحمله على أحد المحامل التي ذكرتها على حسب ما يليق بحاله تسلم وتغنم إن شاء الله تعالى.

---

(١) صريف القلم: صوته.

الجواب الثاني

في الاعتذار عما صدر عن بعضهم من التخريب المقتضي للإنكار

أقول وبالله سبحانه التوفيق: اعلم أن مذهب التخريب مبني على إظهار المساوي وإخفاء المحاسن، وأنواع التخريب كثيرة والمخربون كثيرون، ولا يزالون يتعاطون ما يؤدي إلى إساءة الظن بهم وسقوطهم من قلوب الخلق ورميهم لهم بالعظائم، لا يحتفلون بمدح الخلق ولا بذمهم استجلاباً لكمال الإخلاص، واستبراء للنفس من شوائب الشرك الخفي الذي لا يسلم منه إلا الخواص، لا يبالي أحدهم بكونه بين الخلق زنديقاً[1] إذا كان عند الله صديقاً؛ فبعضهم يوهم الناس أنه لا يصلي ولا يصوم، وهو يصلي ويصوم في الباطن فيما بينه وبين الله تعالى وقد شوهد منهم كثير يصلون في الخلوات ولا يصلون بين الناس، وبعضهم إذا نام عند الناس يوهمهم أنه نائم ويخرج إلى بعض المزابل يوهمهم أنه يبول وليس به بول ولا نوم، بل يصلي الصبح بوضوء العشاء، وبعضهم يصلي بين الناس ولكن لا يرى في الصلاة، يحتجب عن الناس بحالة إخفاء للمحاسن كما تقدم، وبعضهم يكشف عورته بين الناس، وبعضهم يشتم الناس بالألفاظ القبيحة، وبعضهم يجعل قصبته بين رجليه ويعدو عليها كأنها فرسه؛ وبعضهم يشتمل ببعض الحرف الدنيئة؛ وبعضهم جاء بعض الملوك يزوره في عسكره فاستدعى بطعام وجعل يأكل أكلاً بشيعاً شنيعاً، فانصرف عنه الملك لما رأى ذلك؛ وبعضهم يأخذ شيئاً للناس حتى ينسبوه إلى اللصوصية ويزول عنه شهرة الصلاح، وإلى ذلك أشرت في القصيدة بقولي:

كما فعلَ الخواصُ في لبسِ خلعة ... ابن ملك بحمام لغسلٍ تَجرُدا

ملك هنا بسكون اللام لغة في ملك بسكرها، ومليك بالياء أحد الملوك؛ أعني ما حكي عن إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه أنه كان لا يقيم ببلدة إلا أياماً معدودة خوف الشهرة، فلما دخل بعض البلاد اشتهر فيها، فأراد أن يزيل عنه شهرة الصلاح وما يترتب عليها من الضرر، فدخل الحمام ووجد لباس ابن الملك قد نزعه ووضعه عند الحمامي ليحفظه له، فغفل الحمامي عنه فلبسه الخواص ولبس من فوقه ثيابه وخرج يمشي رويداً حتى يلحقوه وينسبوه إلى اللصوصية وتزول عنه شهرة الصلاح، فلحقوه وأخذوا منه ذلك وضربوه وسموه في البلدة لص الحمام، فقال لنفسه هٰهنا طاب المقام، وقد سأل بعض الفقهاء بعض الفقراء عن هذه القضية بعينها وقال له: أريد أن تقيم على جوازها دليلاً ظاهراً من ظاهر الفقيه، ولا أقبل ما يذكره الفقراء، فقال له الفقير: ما طلبته من الدليل حاصل، قال وما هو؟ قال: أليس يجوز في ظاهر الفقه استعمال بعض المحرمات عند بعض الضرورات كاستعمال النجاسات في المداواة؟ قال الفقيه: بلى يجوز ذلك، فقال الفقير: فكذلك في هذه المسألة داوى قلبه بهذا المحرم، فاعترف الفقيه وقال، هذا الجواب هو الفقه بعينه.

---

(١) الزِّنديق: من يبطن الكفر ويخفيه ويظهر الإيمان.

قلت: وقد زدت هذا الجواب بياناً فقلت: إذا جاز أن تداوي الأجسام من السقام بشيء أفلا يجوز أن تداوي القلوب التي هي محل المعرفة والنور بشيء محظور أولى وأبعد من المحذور؟ وشتان ما بين المرضين، فمرض الأجسام رحمة وحسنات، ومرض القلوب نقمة وهلكات، وأين هلاك الأبدان من هلاك الأديان، ففي هلاك الأديان سخط الملك الديان والبعد من الرحمٰن والقرب من الشيطان، وليس كذلك هلاك الأبدان، فظاهر أن مداواة القلب من مرض ضرر الشهرة وغيرها أولى وأحرى، ثم الأمراض إنما تداوى بأضداد عللها، فالحرارات تداوى بالبوادر، والبرودات تداوى بالحوار، فكذلك مرض شهرة الصلاح داواه الخواص بدواء شهرة الطلاح، وهذا واضح لا يحتاج إلى زيادة إيضاح، وقد نبه النبي المكرم على شرف القلب بقوله ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1] أخرجاه في الصحيحين:

قلت: وإلى شيء من هذا المذكور أشرت في القصيدة بقولي:

يـداوى القلـبَ فـي حـرام مخفـف ... كجسـم وبـل أولـي جـوازاً مـؤكـدا
لأن سقـامَ الجسـم أجـر ورحمـة ... وبـالضـدِ سقـم القلـب للـديـن مُفسـدا

إلى قولي:

فـلا قـط يـدعـى صـالحـاً متعبـدا

وقولي: «في حرام مخفف» أي لا يداو به بالتخريب بحرام مغلظ كالكبائر ونحوها.

قلت: ومع هذا يحتاج إلى معرفة فلا ينبغي أن يقرب الحرام أصلاً إلا إذا علم بنور الله سبحانه أنه إن لم يقدم على الحرام المذكور دخل عليه من الفساد والضرر أكثر مما يدخل عليه بارتكاب الحرام، ومع هذا يستدرك ذلك بالاستغفار، وبالغفر لمن ظلمه بسبب تخريبه بالسب ومجاوزة الحق الواجب عليه في ظاهر الشرع؛ وإلى ذلك أشرت في القصيدة بقولي:

ولكـن بـالاستغفـار يستـدركـونُـه ... وغفـر لمـن قـد سبهُـم فيـه واعتـدا

وفي جواز ارتكاب الحرام للتخريب بمجرد ظن دخول الفساد والضرر الراجحين على فساد الحرام والضرر عندي نظر، ويترتب على هذا سؤال فيقال: إذا تعارض مفسدتان صغرى قطعية وكبرى ظنية فأيتهما أولى بالدفع؟

قلت: وكذلك إذا حصل الغرض بالتخريب بمكروه لا يجوز بحرام.

وللمخربين حكايات كثيرة صحيحة، من ذلك: ما حكي عن الشيخ عبد العزيز المنوفي رضي الله تعالى عنه، أنه اشتهت عليه نفسه في بضع سياحاته شهوة وألحت عليه فيها، فعدل إلى بعض القرى فإذا فيها ناس مجتمعون، فدعته نفسه إلى الوقوف عليهم لينظر على أي شيء اجتمعوا، فإذا

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٥٣).

فيهم شيخ يضرب لهم بدف أو قال بطبل، قال فقلت في نفسي: ما لقي هذا لشيخ إلا هذه الصنعة؟ قال فرفعه الشيخ إليّ رأسه وقال: يا شيخ عبد العزيز حاجتك التي جئت لها حاصلة، قال: فتعجبت من ذلك وسكت. أو قال وخجلت، فلما فرغ من ذلك الشغل وقام خلوت به وقلت له: يا سيدي ما لقيت إلا هذه الصنعة؟ فقال لي: لو لقينا صنعة أخس من هذه الصنعة دخلنا فيها، ثم مشى بي إلى بيته فدق الباب، فخرجت إليه بنية له صغيرة وقالت له: يا أبت ترى حاجة الشيخ عبد العزيز قد جهزناها له، قال فمقت نفسي ونويت أني ما بقيت آكلها، فقال لها يا بنية هو قد خرج عنها، قال فبت عنده وبات معناه فقير ورد عليه فلما أصبحنا نوينا نخرج نزور من لقينا من الفقراء، فخرجنا ثلاثتنا، فلما مررنا ببعض القرى قالوا: في هذه القرية امرأة صالحة فقصدنا زيارتها ودققنا عليها الباب فخرجت إلينا وهي مستترة بثوب فوقفنا عندها، فأخرجت إلينا سبحة فأخذنا نذكر الله تعالى ونديرها بيننا، فبينما نحن كذلك إذ مسكت السبحة فما بقيت تدور، فقلنا ما لزم السبحة؟ فقال الفقير: الذي بات معنا عند الشيخ ليس في هذه السبحة شيء يذكر الله تعالى سوى هذه الحبة، وإذا هو قابض على حبة منها، ثم سأل تلك المرأة من أين لك هذه الحبة؟ فقالت أعطانيها الشيخ أبو عبد اللّٰه القرشي رضي الله تعالى عنه فقال لها أعطنيها، فقالت لا ما أعطيكها، وجذبت السبحة كلها إليها وأقفلت عليها في صندوق، فقال لها الفقير: إن لم تعطنيها أخذتها من أصلها، ثم خطف بيده شيئاً من الهواء فإذا بتلك الحبة في يده، فلما رأت المرأة ذلك قالت له: هبها لي حتى أعطيكها وأجمع لك بين الشريعة والحقيقة، فوهبها منها ثم أعادتها إليه رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

قلت يعني ملكتها في الباطن ولم تملكها في الظاهر، فهبها لي حتى أعطيكها عطية صحيحة في ظاهر الشرع فتملكها ظاهراً وباطناً.

ومن ذلك ما حكي وروي لي عن بعض السادات الفقهاء في بلاد اليمن، أنه قيل له ذات ليلة في النوم: أنت من الأبدال، فلما أصبح قال في نفسه: إذا كنت من الأبدال فما بقيت أسلم للسلطان شيئاً من المكتب، يعني من خراج الأرض الذي يكتب على أهل الحرث ويؤخذ منهم للسلطان، وكان الفقيه المذكور حراثاً، فأتى إليه أعوان السلطان الذين يجمعون الخراج وطالبوه، فأبى أن يعطيهم، فأعلموا الأمير بذلك فلاطفه الأمير في تسليم ذلك فامتنع، فقال له: يا فقيه نحن نحترمك ونبجلك وما نشتهي لك إهانة فلا تحوجنا إلى الشر والخروج إلى ما تكره، فلم يفعل، فقام مشاعلي يخدم ولاة الأمر وقال للأمير ومن عنده من كبراء الديوان: دعوني أخلو بالفقيه وأكلمه، فقالوا ما جاء منه شيء بكلامنا له يجيء بكلامك أنت، فقال خلوني وما عليكم، فقالوا دونك، فتباعد به عنهم ثم قال له: يا فقيه هم قالوا لك البارحة في النوم إنك من الأبدال، قال نعم، قال فقالوا لك إنك منهم الآن، قال لا، قال فأعطهم حقهم الذي طلبوه منك وأنت سالم حتى يجيء ذلك الوقت، فإذا جاء فحتئذٍ اقطع وصل وول واعزل، وما يكون ذلك حتى أموت أنا، فإذا مت جعلتك في مكاني، فقم الساعة وأعطهم الذي عليك لهم مثل غيرك، قال السمع والطاعة ثم قام وأعطاهم، فتعجبوا من ذلك وما دروا أنه من الأبدال السادات أولي السعادات، ستر بحمل المشعل حاله، ولم يبال بكل ما من الذل والهوان ناله: لعلمه بما في ذلك من المصالح العظام، وما له عند الله ماله.

قلت: ومن ذلك ما اشتهر بزبيد من أرض اليمن، أن بعض الكلابية كان يخرج كل ليلة وقت المغرب إلى خارج البلد بكلبين معه، فتبعه إنسان ليلة عيد مستخفياً منه، فلما وصل إلى بعض الكثبان، أخرج ثوباً من جراب[1] معه فلبسه، وبات يصلي بعد طهارة، قيل بما نبع له من ذلك المكان، ثم جاء أسد فبات يلاعب الكلبين، فلما أصبح دخل البلد بكلبيه وجعل يصيح كصياح الكلابية ومن لا يستحي، ثم اجتمع بأصحابه من الكلابية، فلما أرادوا الخروج من جملة حاشية السلطان كما جرت عادتهم في العيد قالوا له: نحب أن تقول شيئاً تغني به، يعنون شيئاً يطربون به كما جرت عادتهم في الأفراح، فقال لهم نعم ثم أنشد:

قـــدْ علـــق قلبـــي بحبـــهِ ولعـــبَ كلبـــي وكلبـــهُ

بإسكان القاف من علق والباء من لعب والهاء من آخر المصراعين معاً، وضم الباء الثانية من قوله يحبه ملحوناً مخرجاً له مخرج شعر العوام. ورُوي أنه قال: استوى حبي وحبه معرباً، فعند ذلك جاء إليه ذلك الإنسان الذي خرج خلفه ورأى منه ما رأى، فسأله الدعاء وهو يلعب مع كلابه والناس ينظرون إليهم، ففهم منه أنه قد اطلع على حاله بالليل، فلما تحقق أن حاله قد انكشف مات في الحال. وفي رواية أخرى: أن ذلك الإنسان أعلم السلطان، فاستحضره وقال: نبني لك رباطاً، فقال كيف أصلح للرباط وأنا كلاب؟ فقال له السلطان: قد رضينا بذلك، فامتنع فراجعه في ذلك مراراً، فلما رأى أنه لا يتركه قال: أمهلوني، ثم رجع إلى بيته فدعا الله تعالى أن يستره بالموت، فمات في الحال رضوان الله تعالى عليه ونفعنا به.

ومن ذلك: ما حكي عن الشيخ المشهور صفي الدين بن أبي المنصور رضي الله تعالى عنه في رسالته قال: لما جاء الشيخ الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه إلى دمشق في رسالة الخليفة إلى الملك العادل بالخلعة والطوق وغير ذلك، قال لأصحابه أريد أزور علياً الكردي، فقال له الناس يا مولانا لا ينبغي لك هذا، أنت إمام الوجود وهذا رجل لا يصلي ويمشي مكشوف العورة أكثر أوقاته، فقال لا بد لي من ذلك، قال وكان الشيخ علي الكردي مقيماً أكثر أوقاته في الجامع حتى دخل عليه موله آخر يقال له ياقوت، فساعة دخوله من الباب خرج الشيخ علي من دمشق وسكن جبانتها بالباب الصغير وما دخلها بعد ذلك إلى أن مات وياقوت فيها يحكم، فقالوا للشيخ شهاب الدين هو في الجبانة، فركب بغلته ومشى في خدمته من يعرفه موضعه، فلما وصل إلى قريب مكانه نزل وأقبل يمشي إليه، فلما رآه علي الكردي قد قرب منه كشف عورته، فقال الشيخ شهاب الدين: ما هذا شيء يصدنا عنك وها نحن ضيفانك، ثم دنا منه وسلم عليه وجلس معه، وإذا بحمالين قد جاؤوا ومعهم مأكول معتبر، فقيل لهم من تريدون؟ قالوا الشيخ علياً الكردي، فقال لهم ضعوه قدام ضيفي، وقال للشيخ شهاب الدين باسم الله هذه ضيافتك، فأكل وكان يعظم الشيخ علياً الكردي.

ومما ظهر من كرامات الشيخ على المذكور أنه دعاه رجل من أعيان دمشق يقال له بدر الدين،

---

(١) الجراب: وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه (ج) جرب وأجربة.

ودعا الفقراء المعروفين في الجامع وغيرهم فهم مجتمعون، وإذا بالشيخ علي قد جاء إلى الدار فرأى في صفة منها قوالب سكر، فقال لصاحب الدار: ارمها كلها في البركة، قال: نعم، ثم رمى الجميع في البركة فصار الفقراء يشربون الجلاب[1] ويسمعون إلى آخر النهار، ثم أكلوا وانصرفوا، ثم قال الشيخ علي لصاحب الدار اخرج، فأخرج القوالب فوجدها كلها صحاحاً لم يذهب من السكر شيء.

قلت: وقد ذكرت شيئاً من حكايات المخربين في كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين، وقد أوضحت حكمهم ومن يعتقد منهم وغيرهم من لا يعتقد وقسمتهم في ذلك عشرة أقسام في الفصل الأول من خاتمة الكتاب المذكور في جوابين مبسوط ومختصر، فمن تطلع إلى معرفة ذلك فلينظره هناك مع ما بعده من الذب عن السادات الصوفية ووصفهم بالمحاسن السنية، وما قبله من الجواب من إنكار في حكايات رويت عنهم أنكر عليهم فيها من قد حرم بركتهم ولم تلح عليه من سيما الفلاح لائحة ولا شم من راح الهوى رائحة، وأنشد بعض المخربين بالجنون:

وموهت دهري بالجنونِ على الوَرَى	لأكتم ما بي من هواهُ فما انكتُم
فلما رأيتُ الشوق والحب بائحاً	كشفتُ قناعي ثم قلت نعم نعمْ
فإنْ قيل مجنون فقد جنن الهوى	إنْ قيل مسقام فما بي منْ سقمْ

الجواب الثالث

في بيان جواز ما يصدر عنهم ويقصدونه في كثير من الأوقات من سماع[2] القول والحركات

اعلم أن الأكثرين من الشيوخ العارفين الأئمة المحققين يقولون بالسماع لكن بشروط وتفصيل، مستدلين على ذلك بقوله عز وجل: ﴿**فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقوله تعالى: ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾ [المائدة: ٨٣] وغير ذلك من الآيات والأخبار والآثار، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿**في روضة يحبرون**﴾ [الروم: ١٥] أنه السماع من الحور العين.

ها أنا أذكر شيئاً من أقوال المشايخ ذلك: قال الشيخ الجليل الإمام الحفيل الشيخ المحقق العارف المدقق الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: وقد سمع السلف والأكابر الأبيات بالألحان، فممن قال بإباحته من السلف مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه وأهل الحجاز[3] كلهم

---

(١) الجُلاَّبُ: شراب يُعقد بالسُّكر أو العسل وماء الورد (مع) فارسية. أو هو شراب يتخذ من نقيع الزبيب (مع).

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٣٥ ـ ٣٥٠.

(٣) الحجاز: بلاد في شبه جزيرة العرب، يحدها خليج العقبة شمالاً، والبحر الأحمر غرباً، ونجد شرقاً، وعسير جنوباً. وهي تنقسم إلى سلسلة جبال مشرفة على بطائح نجد وساحل تهامة.

يبيحون الغناء[1] وأما الحداء[2] فإجماع منهم على إجازته، وقد وردت الأخبار واستفاضت الآثار في ذلك.

وروي عن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع. وأما الشافعي رضي الله تعالى عنه فإنه لا يحرمه، ويجعله في العوام مكروهاً حتى لو احترف بالغناء. أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهي يردّ به شهادته، ويجلعه مما يسقط المروءة ولا يلحقه بالمحرمات.

وقال: وليس كلامنا في هذا النوع من السماع، فإن هذه الطائفة جلت رتبتهم عن أن يسمعوا بلهو، ويقعدوا للسماع بسهو، أو يكونوا بقلوبهم مفكرين في مضمون لغو.

قال: وقد روي عن ابن عمر آثار في إباحة السماع، وكذلك عن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب، وكذلك عن عمر في الحداء وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين وأنشد بين يدي النبي ﷺ الأشعار، واستنشدها، ومن المشهور الظاهر أنه دخل بيت عائشة رضي الله تعالى عنها وفيه جاريتان تغنيان فلم ينههما، ثم روي ذلك مسنداً.

وروي بإسناده أيضاً عن عائشة رضي الله تعالى عنها: «أنها أنكحت ذا قرابتها من الأنصار، فجاء النبي ﷺ فقال: أهديتهم الفتاة؟ فقالت: نعم، قال فأرسلتم من يغني؟ قالت: لا، فقال ﷺ: إن الأنصار فيهم غزل، فلو أرسلتم من يقول أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم»[3] وذكر أحاديث كثيرة بإسناده في الاستدلال على جواز السماع حذفتها اختصارا، وذكر أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة والنغم المستلذة إذا لم يعتقد المستمع محظوراً، ولم يسمع على مذموم في الشرع، ولم ينجر في زمام هواه ولم ينخرط في سلك لهوه مباح في الجملة.

قال: ثم ما يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات، ويذكر ما أعد الله سبحانه لعباده المتقين من الدرجات، ويحمل على التحرز من الزلات، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات، مستحب في الدين ومختار في الشرع.

قال: وقد جرى على لفظ رسول الله ﷺ ما هو قريب من الشعر، وإن لم يقصد أن يكون شعراً، ثم ذكر قول الأنصار رضي الله تعالى عنهم في حفر الخندق[4].

---

(١) المنقول عن مالك والحجازيين كراهته، فإن أريد بالإباحة مقابل الحرمة وبالكراهة كراهة التنزيه فلا منافاة.

(٢) الحداء: هو غناء للإبل أثناء سيرها.

(٣) أخرجه ابن ماجه في (السنن ١٩٠٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ٣٩١)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٢٨٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٩٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٠٦١٨، ٤٠٦٢٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٤٠١، ٥٤٠٣)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٥٦١٤)، وابن الجوزي في (تلبيس إبليس ٢٢٥)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٤/ ٢٩٧).

(٤) الخندق: حفر الرسول ﷺ وأنصاره أمام المدينة المنورة، وكان ذلك عام ٦٢٦ م وجعلوه حصناً =

نحـــنُ الـــذيـــن بـــايعـــوا مُحمـــدا   علـــى الجهـــادِ مـــا بقينـــا أبـــدا

وما أجابهم به ﷺ من قوله:

اللهُـــم لا عيـــشَ إلا عيـــش الآخـــرة   فـــأكـــرم الأنصـــار والمهُـــاجـــرة

ثم قال بعد ما ذكر أن سماع الأشعار بالألحان جائز، واستلذاذ القلوب بالأصوات الطيبة واسترواحها إليها مما لا يمكن جحوده، فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمال تقاسي تعب السير ومشقة الحمولة فيهون عليها بالحداء.

وقيل: إن داود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام كان يستمع لقراءته الجن والإنس والوحش والطير إذا قرأ الزبور[1]، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات من سماع قراءته.

وقال ﷺ في مدح أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود»[2] انتهى كلام الأستاذ أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه مختصراً ألفته من مواضع متفرقة.

وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير شيخ شيوخ الإسلام فريد عصره المحقق الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: إنما الاختلاف في سماع الأشعار بالألحان، فمن منكر يلحقه بالفسق، ومن متولع به يشهد أنه واضح الحق ويتحاذيان في طرفي الإفراط والتفريط، ثم روي الحديث المشهور عن عائشة رضي الله تعالى عنها «أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدفين ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه، فانتهرهما، فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»[3].

وقول عائشة رضي الله تعالى عنها: «رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة في المسجد يلعبون»[4] الحديث.

= لهم، وكان خصومهم القرشيون بقيادة أبي سفيان. وسميت المعركة التي جرت هناك (معركة الخندق).

(١) الزبور: الكتاب (ج) زُبُر، وغلب على صحف النبيّ داود عليه السلام.

(٢) أخرجه النسائي في (السنن ٢/ ١٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ٢٠، ٢٩، ٤/ ٤٧، ٢٢٥)، ومسلم في الصحيح (العيدين ب ٤ رقم ١٧، ١٩) والنسائي في (السنن ٣/ ١١٩٧)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٩٢، ١٠/ ٢٢٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٤٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٩٠)، والكحال في (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ٢/ ٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (صلاة ٦٩، ٨٢)، (عيدين ٢٥)، (نكاح ١١٤)، (مناقب ١٥)، ومسلم (عيدين ١٧، ١٨) والنسائي (عيدين ٣٥)، وأحمد بن حنبل (٦، ٨٤، ٨٥، ١٦٦، ٢٤٧، ٢٧٠).

قال: وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكي[1] رضي الله تعالى عنه ما يدل على تجويزه، ونقل عن كثير من السلف صحابي وتابعي وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

قال: وقول الشيخ أبي طالب يعتبر لوفور علمه وكمال حاله وعلمه بأحوال السلف ومكان ورعه، ويقوله وتحريه الأصوب والأولى قال: وقال في السماع حرام وحلال وشبهة، فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام، ومن سمعه بمعقول على صفة مباح من جارية أو زوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه، ومن سمعه بقلب بمشاهدة معان تدله على الدليل وتشهده طرقات الجليل فهو مباح. قال هذا قول أبي طالب المكي وهو الصحيح. فإذن لا يطلق القول بمنعه وتحريمه، والإنكار على من يسمع كفعل القراء المتزهدين المبالغين في الإنكار، ولا نفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المشتهرين به المهملين شروطه وآدابه المقيمين على الإصرار.

قال: ونفصل الأمر فيه تفصيلاً ونوضح الماهية فيه تحريماً وتحليلاً فأما الدف والشبابة وإن كان في مذهب الشافعي فيهما فسحة فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف.

قلت: والخلاف أيضاً في مذهب الشافعي معروف في الشبابة مطلقاً، وفي الدف في غير العرس والختان، ويجوز فيهما بغير جلاجل. وفي الجلاجل خلاف.

قال: وأما غير ذلك فإن كان القصائد من في ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار، ووصف نعم الملك الجبار، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار، ومن ذلك القبيل قصائد الغزاة والحجاج في وصف الغزو والحج، مما يثير كامن العزم من الغازي؛ وساكن الشوق من الحاج. وأما ما كان فيه ذكر القدود والخدود، ووصف النساء، فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك. وأما ما كان فيه من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصد مما يقرب حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين، فمن سمع ذلك وحدث عنده ندم على ما فات، أو تجدد عند عزم لما هو آت، فكيف ينكر سماعه. وقد قيل: إن بعض الواجدين كان يقتات بالسماع، ويتقوى به على الطي والوصال، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوع، فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه منشرح حاضر، وسمع الحادي يقول مثلاً:

فأما من هَوَى ليلى وحُبي ... زيادتها فإني لا أتوبُ

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى الممات، يكون في سماعه هذا ذاكراً لله تعالى.

---

(١) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي (توفي ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م) أبو طالب، واعظ زاهد، فقيه من أهل الجبل نشأ واشتهر بمكة، ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال. وسكن بغدادا فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالاً هجروه من أجلها، وتوفي ببغداد. له «قوت القلوب» في التصوف. و«علم القلوب» و«أربعون حديثاً» الأعلام ٦/ ٢٧٤، ووفيات الأعيان ١/ ٤٩١، وميزان الاعتدال ٣/ ١٠٧، وتاريخ بغداد ٣/ ٨٩، ولسان الميزان ٥/ ٣٠٠.

قال: وروت عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان عندي جارية تسمعني، فدخل رسول الله ﷺ وهي على حالها، ثم دخل عمر رضي الله تعالى عنه ففرت فضحك رسول الله ﷺ، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله ﷺ؟ فحدثه حديث الجارية، فقال لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله، فأمرها ﷺ فأسمعته».

قال: «ودخل رجل على رسول الله ﷺ وعنده قوم يقرؤون القرآن وقوم ينشدون الشعر، فقال يا رسول الله قرآن وشعر، فقال ﷺ: من هذا مرة ومن هذا مرة».

قال: ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر عليه السلام، فقال له: ما تقول في السماع الذي يختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفاء الزلال، لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء.

قال: ونقل عن ممشاد الدينوري(١) رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال ما أنكره، ولكن قل لهم يفتتحون قلبه بقراءة القرآن، ويختمون بعده بالقرآن، فقلت يا رسول الله إنهم يؤذونني وينبسطون علي فقال احتملهم يا أبا عليّ هم أصحابك. فكان ممشاد يفتخر ويقول: كناني رسول الله ﷺ.

قال: وقد ينكر السماع جامد الطبع عديم الذوق، فيقال له العنين لا يعلم لذة الوقاع، والمكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاع، وغير المصاب لا يتكلم بالاسترجاع، فما ينكر من محب قد تزيا باطنه بالشوق والمحبة، ويرى انحباس روحه الطيارة في مضيق قفص النفس الأمارة، ثم يمرّ بروحه نسيم أنس الأوطان، وتلوح له طوالع جنود العرفان، وهو بوجود النفس في دار الغربة يتجرع كأس الهجران؛ يئن تحت أعباء المجاهدة، ولا يحمل عنه سوانح المشاهدة، وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال لا يقرب من كعبة الوصال، أو قال: من كعبة وصال الأحباب، ولا يكشف له المسيل من الحجاب فيتروح بتنفس الصعداء(٢)، ويرتاح باللائح من شدة البرحاء(٣)، ويقول مخاطباً للنفس والشيطان وهما المانعان:

أيـا جبلـي نعمـان بـالله خليـا ... نسيمُ الصبا يخلص إلى نسيمها(٤)
فـإنَّ الصبـا ريـحٌ إذا مـا تنسمـت ... على قلبِ محزون تجلتْ همومُها
أجـد بـردهـا أو تشـف منـي حـرارة ... علـى كبـدٍ لـم يبـقَ إلاَّ صميمُهـا

قال: ولعل المنكر يقول: هل المحبة إلا امتثال الأمر، وهل يعرف غير هذا، وهل هناك إلا الخوف من الله تعالى؟ وينكر المحبة التي تختص بالعلماء الراسخين والأبدال المقربين. انتهى كلام

---

(١) هو ممشاد الدينوري (توفي ٢٩٩ هـ/ ٩١١ م) من كبار مشايخهم. (الرسالة القشيرية ص ٤١٣).
(٢) تنفس الصعداء: التنفس الشاق الممدود بعمق من همٍّ أو توجُّع.
(٣) البرُجاء: الشدة والمشقة.
(٤) الصّبا: ريح مهبها من مشرق الشمس ويقابلها الدبور.

الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه مختصراً مؤلفاً من مواضع متفرقة وسيأتي أيضاً شيء من كلامه في السماع الممنوع بعد إن شاء الله تعالى.

وروي أن الشبلي رضي الله تعالى عنه صاح يوماً في السماع، فقيل له: في ذلك، فقال:

لو يسمعونَ كما سمعت كلامها خروا لعزةَ ركعاً وسجوداً

وسمع أيضاً يوماً منشداً يقول:

أسائلُ عن سلْمى فهل من مُخبر يكون له علم بها أينَ تنزلُ

فصاح وقال، والله ما عنه في الدارين مخبر.

وسمع الشيخ أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه منشداً يقول:

وما زلتُ أنزلُ من ودادك منزلاً تتحيرُ الألباب دونَ نزولهِ

فتواجد وهام في الصحراء، ووقع في أجمة قصبَ[1] قد قطع وبقي أصوله مثل السيوف وكان يمشي عليها ويعيد البيت إلى الغداة والدم ويسيل من رجليه، ثم وقع مثل السكران فورمت قدماه، ومات رحمه الله تعالى.

وسمع الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه مغنية تغني:

منازلُ كنتَ تهواها وتألفها وأنتَ بها على الأيام منصورُ

فبكى وقال: ما أطيب أوقات الألفة والمؤانسة، وأوحش مقامات المخالفة والوحشة، لا أزال أحن إلى بدوّ إرادتي أوقات سعيي وركوبي الأهوال.

وعن الإمام مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال: أدركت أهل العلم ببلدنا هذا لا ينكرون السماع ولا يقعدون عنه، ولا أنكره أحد إلا غبي أو جاهل أو فدم غليظ الطبع.

مر سعيد بن المسيب[2] بدار العاصي بن وائل وجاريته، تقول:

تضوعَ مسكاً بطن نعمان إنْ مشت به زينب في نسوةٍ عطراتِ

فضرب برجله الأرض وقال: هذا مما يلذ سماعه.

---

(١) القصب: كل نبات ساقه أنابيب وكعوب. الواحدة: قصبة. ومنه ما تتخذ منه الأقلام. ومنه صلب غليظ تُعمل منه المزامير.

(٢) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي (١٣ ـ ٩٤ هـ = ٦٣٤ ـ ٧١٣ م). أبو محمد سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءاً، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر وأقضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة. (الأعلام ٣/ ١٠٢، وطبقات ابن سعد ٥/ ٨٨، والوفيات ١/ ٢٠٦ وصفة الصفوة ٢/ ٤٤، وحلية ٢/ ١٦١.

وعن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه سمع جارية تغني وتقول:

خليليّ ما بال المطايا كأنها ... تراها على الأعقابِ بالقومِ تنكصُ

فقال لابن علية وكان معه: كيف تسمع أيطربك؟ قال: لا، فقال الشافعي مالك حس.

قلت: الناس مختلفون في الحس، وأهل الحس مختلفون في الفهم: وأهل الفهم مختلفون في الذوق، وللصوفية من الحس والفهم والذوق ما ليس لغيرهم، فإذا تواجد الصادق منهم عند وجود ما لا يقتضي وجدا عند من ليس له فهمهم وذوقهم فلا ينبغي أن ينكر عليه، فلهم في كل استماع فهم واستبصار، وفي كل نظر عظة واعتبار، وفي كل سكوت أنواع من الفكر، وفي كل كلام أصناف من الحكم، وكم من مشاهيد يشهدونها، ومن مواجيد يجدونها.

وقد روي أن الشيخ أبا إسحاق الزرقاني، بالزاي المفتوحة ثم الراء الساكنة ثم القاف وبعد الألف نون ثم ياء للنسبة، المدفون في غابة قابس رضي الله تعالى عنه سمع قوّالاً يغني: فلما قال في أثناء غنائه بموشحة:

إن غنت الأخراص فللخلاخيل ... منَ الصمتِ موضع تفصيلُ

فتواجد وقام وتحرك، وخلع جميع ما عليه من اللباس ما خلا السراويل، فتعجب الحاضرون منه وقالوا: ليس في هذا القول ما يقتضي ذلك، فسألوه عن سبب ما صدر عنه، فأجابهم بجواب حسن، لست أحفظ لفظه، وها أنا أوضح معناه بشيء من البيان، وهو أن الناس في فهم معنى ذلك قسمان: إما أديب يفهم من حيث دلالة اللفظ في ظاهر العلم ومعرفة الفصيح وغيره من سائر الكلام النثر منه والأشعار، وإما عارف بالله تعالى يفهم من حيث يفهم ويكشف له من المعاني ويطلع عليه من الأسرار، وكلاهما يظهر له من معنى القول المذكور ما يحرك باطنه، ويظهر كامناً من الوجد المستور، فأما الأديب فوقع ذلك من قلبه ظاهر، لما تضمن من الحسن في دلالته على كون الجيد طويلاً والساق جليلاً، وأما العارف فلما في غناء الأخراص من المناسبة للشريعة في بث علومها والأمر بإظهارها، وما في صمت الخلاخيل من المناسبة للحقيقة في السكوت ووجوب كتمان أسرارها، وإلى معنى السؤال والجواب المذكورين أشرت في هذه الأبيات حيث قلت:

وقائلة ما وجد ذي اللّب والقلب ... على صمت خلخال وصوت من القلبِ
فقلتُ لها للقومِ فهم تميزوا ... به وعلوم ليس تدرك بالكتبِ
إذا دل من حسناء مغن وصامت ... على طولِ جيدٍ مع ضخامة ذي زغبِ
وعى القوم في جيد الشريعة مطرباً ... يغني بألحان لسامعها تسبي
وفي ساق مكنون الحقيقة صامتاً ... يسقى حمياً حب سلمى أولي القربِ

قلت: وقد يطرب أيضاً ذكر حسن الصنعة السامع ويذكره، ويشهد عند ذكره جمال الصانع، ومن لم يصل منهم إلى مشاهدة الجمال استدل بإتقان الصنعة وبداعة حسنها على الحكمة البالغة

للصانع والكمال، وشاهد جميع ما في الوجود من الحسن والإحسان لصانع حكيم جواد واحد ماله ثان، وأنشد لسان حال ذلك المشاهد ما قلت في بعض القصائد:

خليليّ هل حب وحمد يرى سوى ... لوصفين محمودين حُسن وإحسان؟
وهل يوجد الوصفان إلا لصانعٍ ... حكيم جواد واحد مالهُ ثاني؟
فكل جميلٌ أو جمال فجودهُ ... وصنعتهُ عن حكمةٍ ذات إتقان

وقال الإمام المحقق العارف بالله تعالى شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: فالسامع من الشعر بيتاً يأخذ منه معنى يذكره ربه، إما فرحاً أو خوفاً أو انكساراً أو افتقاراً، كيف تقلب قلبه في أنواع ذلك ذاكراً لربه، ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت، وتفكر في قدرة الله تعالى، وتسويته حنجرة الطائر وتسخيره حلقه، ومنشأ الصوت وتأديته إلى الأسماع، كان في جميع ذلك الفكر مسبحاً مقدساً، فإذا سمع صوت آدمي وحضره مثل ذلك الفكر وامتلأ باطنه ذكراً وفكراً كيف ينكر ذلك؟ انتهى.

وسئل الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه: ما بال الرجل يسمع الشيء وربما لا يفهم معناه فيتواجد عليه؟ فأنشأ يقول:

رب ورقاء هتوف في الضُّحى ... ذات شجو صدحت في فننِ
ذكرت إلفاً ودهراً صالحاً ... فبكت حزناً وهاجتْ حزني
فبكائي ربما أرقها ... وبكاها ربما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها ... وهي أيضاً بالجوى تعرفني[(١)]

قلت: وفي كون الشجا يثير الشجا أنشدوا قول تميم بن نويرة:

لقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السوافك
وقال أتبكي كل قبر رأيتهُ ... لقبر ثوى بين اللّوى والدكادكِ[(٢)]
أمن أجل قبر بالملي أنتَ نايحٌ ... على كل قبر أو على كل هالكِ
فقلت له إن الشجي يبعث الشجى ... فدعني فهذا كلهُ قبر مالكِ

يعني مالك بن نويرة أخاه.

وقال سيد الطائفة وإمامهم قطب العلوم وتاج العارفين الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع، لأنهم لا يسمعون إلا عن حق،

---

(١) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن.
(٢) اللِّوى: ما التوى وانعطف من الرمل أو منقطعه (ج) ألواء.

ولا يقومون إلا عن وجد. وعند أكل الطعام، فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة وعند مجاراة العلم، فإنهم لا يذكرون إلا صفة الأولياء.

وسئل ما بال الإنسان يكون هادياً فإذا سمع السماع اضطرب؟ فقال: إن الله سبحانه لما خاطب الذر[1] في الميثاق الأول في قوله تعالى: ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢] استفرغت غدوية سماع الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حرّكهم ذكر ذلك.

وقال أيضاً: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء: الزمان والمكان، والإخوان.

وقال أيضاً: كنت مع جماعة في جبل طور سينا، فنزلنا على عين ماء تحت ديرة النصارى، وكان معناه قوّال فقال شيئاً فظهر وجد الأصحاب فقاموا ورقصوا وصاحب الدير ينظر إلينا من فوق الدير وينادي ويصيح ويقول: بالله عليكم وبالدين الحنيفي إلا ما أجبتموني، فلم يلتفت إليه منا أحد من طيب الوقت، فلما سكت الجمع وقعدوا قال: من منكم الأستاذ؟ فأشاروا إليّ، فقال لي: يا أستاذ هذا الذي كنتم فيه من السماع والحركات والرقص مخصوص في دينكم أو عموم؟ فقلت لا بل خصوص بشرط الزهد في الدنيا، فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، هكذا وجت في إنجيل عيسى عليه السلام: إن خواص من أمة محمد ﷺ يتحركون عند السماع بشرط الزهد في الدنيا ويكون لباسهم الصوف والملونات، يرضون من الدنيا بالبلغة.

وقال أيضاً: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله ما تقول في السماعات التي نحضرها في الليالي، وربما تبدوا منا الحركات فيها؟ فقال ﷺ: ما من ليلة إلا وأحضر معكم، ولكن ابدؤوا بالقرآن واختموا بالقرآن.

وقيل له: لم لا تتحرك في السماع؟ فقال: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب﴾ [النمل: ٨٨] مشيراً بذلك إلى أن القويّ لا يتحرك، وإنما يتحرك ضعيف الحال، كما ذكره غيره أن حركات المريدين لضعفهم.

وقال الشيخ الكبير العارف الفائق ذو العلوم والآداب واللطائف والحقائق والورع والكرامات الغاليات، والأحوال والمقامات العاليات، أبو الفيض ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: السماع وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق.

وقال الشيخ الجليل الإمام الحفيل العارف بالله تعالى السيد الشهير أبو طالب المكي رضي الله تعالى عنه في كتابه قوت القلوب[2]: إن أنكرنا السماع مجملاً مطلقاً غير مقيد مفصل يكون إنكاراً

---

(١) الذّر: النسل.

(٢) كتاب: «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد» في التصوف لأبي طالب محمد بن علي بن عطية العجمي ثم المكي المتوفى سنة ٣٨٦ ببغداد. قالوا: لم يضف مثله في دقائق الطريقة ولمؤلفه كلام في هذه العلوم لم يسبق إلى مثله. اختصره الشيخ الإمام محمد بن خلف الأموي الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٥ وسماه «الوصول إلى الغرض المطلوب من =

على سبعين صديقاً، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتعبدين إلا أنا لا نفعل، لأنا نعلم ما لا يعلمون، وسمعنا عن السلف الصالح من الأصحاب والتابعين ما لا يسمعون.

وقيل الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي الحسن بن السالم رضي الله تعالى عنه: هل تنكر على أهل السماع شيئاً؟ فقال كيف أنكره وقد سمعه من هو خير مني، منهم عبد اللّه بن جعفر الطيار ومعروف الكرخي، وذو النون المصري، وسري السقطي والجنيد والنوري، والشبلي يسمعونه ويرتضونه رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وإنما أنكر اللهو في السماع واللعب.

وقال الفقيه الإمام العارف بالله تعالى رفيع المقام السيد الجليل ذو المجد الأثيل الورع المشكور الولي المشهور أحمد بن موسى بن عجيل اليمني رضي الله تعالى عنه، لما سئل عن سماع الصوفية: إن أبحه فلست من أهله، وإن أنكره فقد سمعه من هو خير مني.

قلت: ومفهوم جواب هذا السيد المذكور أنه مباح لأهله، وهذا هو الذي أقول به، ومع هذا أرى لمن ليس هو من أهله، ولكنه يعتقد أن يحضر سماعهم ويقعد قريباً منهم بنية صالحة وحسن أدب وإنصات وحضور قلب، ولا يتحرك إلا أن تحركه القدرة من غير اختيار.

وسئل الخواص: ما بال الإنسان يتحرك ويجد عند سماع غير القرآن ما لا يجد في سماع القرآن؟ فقال: لأن سماع القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته؛ وسماع القول ترويح فيتحرك فيه.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، مباح للزهد لحصول مجاهداتهم، مستحب لأصحابنا، يعني الصوفية، لحياة قلوبهم.

وقيل: لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة وقلب حي، فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة، وقلبه حيّ بنور الموافقة.

وقال الشيخ أبو عثمان الحيري رضي الله تعالى عنه: السماع على ثلاثة أوجه: فوجه منها للمريدين والمبتدئين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة، ويخشى عليهم في ذلك الفتنة والمراءاة. والثاني للصادقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ويسمعون من ذلك ما يوافق أوقاتهم. والثالث لأهل الاستقامة من العارفين، فهؤلاء لا يختارون على الله سبحانه فيما يرد على قلوبهم من الحركة والسكون.

قلت: يعني لا يختارون لأنفسهم شيئاً، بل واقفون مع اختيار الله تعالى لهم.

وقال الشيخ بندار بن الحسين[1] رضي الله تعالى عنه: السماع على ثلاثة أوجه: منهم من يسمع

= جواهر قوت القلوب». (كشف الظنون ٢/ ١٣٦١).

(١) هو أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازي (توفي ٣٥٣ هـ/ ٩٦٤ م) كان عالماً في الأصول، كبير الحال، صحب دلف الشبلي. مات بأرجان. (الرسالة القشيرية ص ٤٢٠).

بالطبع، ومنهم من يسمع بالحال، ومنهم من يسمع بالحق، فالذي يسمع بالطبع يشترك فيه الخاص والعام، فإن جبلة البشرية[1] استلذاذ الصوت الطيب، والذي يسمع بالحال فهو يتأمل ما يرد عليه من ذكر عتاب أو خطاب، أو وصل أو هجران، أو قرب أو بعد، أو تأسف على فائت، أو تعطش إلى آت، أو وفاء بعهد أو تصديق لوعد، أو نقض لعهد، أو ذكر قلق واشتياق، أو خوف فراق، أو فرح وصال وما جرى مجراه، وأما من يسمع بالحق فيسمع بالله والله، ولا يتصف بهذه الأحوال التي هي ممن وجه بالحظوظ البشرية، فإنها مبقاة مع العلل، فيستمعون من حيث صفا التوحيد بحق لا بحظ.

وقال بعضهم: إنما يصح السماع لمن عالج نفسه بأنواع الرياضات وتزكيته الصفات، وفطم للنفس عن المحظورات، ونزه سرائره وقلبه عن السموم والآفات، تحققت له المعرفة بالأسماء والصفات، وعند ذلك يحتمل أن يصح له أخذ السماع من المشاهدات.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله تعالى عنه: سمعت جدي يقول: المستمع ينبغي أن يستمع بقلب حي ونفس ميتة، ومن كان قلبه ميتاً ونفسه حية لا يحل له السماع.

وقال الشيخ أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: الصوت لا يدخل في القلب شيئاً إنما يحرك من القلب ما فيه.

سئل بعضهم عن السماع فقال: بروق تلمع ثم تخمد، وأنوار تبدو ثم تخفى، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها طرفة عين، ثم أنشد يقول:

خطـرة فـي السـر منـه خطـرت ... خطـرة البـرق ابتـدا ثـم اضمحـل
أزورى لـك لـو قصـدا سـري ... وملـم بـك لـو حقـا فعـل

وقيل: السماع لطف غذا الأرواح لأهل المعرفة. وقيل: حاد يحدو بأهله إلى مواطن القرب.

وسئل أبو رويم رضي الله تعالى عنه عن تواجد الصوفية عند السماع فقال: يشهدون المعاني التي تغرب عن غيرهم، فيشير إليهم إليّ إليّ، فيتنعمون بذلك من الفرح، ثم يقع الحجاب فيعود ذلك حزناً، فمنهم من يخرق ثيابه، ومنهم من يصيح؛ ومنهم من يبكي كل إنسان على قدره.

وقيل: السماع فيه نصيب لكل عضو، فما يقع على العين يبكي، وما يقع على الإنسان ويصيح، وما يقع على اليد يمزق الثياب ويلطم، وما يقع على الرجل يرقص، فقال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي الخير اليمني المعروف بالصياد رضي الله تعالى عنه: الوجد سر من أسرار الله سبحانه، تحركه رياح الأنس من بحار القدس، لا يقع على كيفية عبارة فيتفرق في الأعضاء، فما وقع في اليد كان منه التصفيق، وما وقع في الرجل كان منه الرقص، وما وقع في القلب كان منه البكاء: وما وقع في الروح كان منه الزعاق، وما وقع في سويداء السر كان منه الغشيان، هذه كلها أسرار الوجد، انتهى كلامه.

---

(١) الجِبِلَّة: الخلقة (ج) جبلات.

قلت: ومن حكايات الشيوخ أهل المقامات الرفاع المنكر عليهم في السماع، ما حكي عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي الغيث بن جميل رضي الله تعالى عنه أنه كان لا يقول بالسماع، فقدم عليه بعض الشيوخ الكبار في جمع من الفقراء في حال السماع، فأمر أهل قريته أن يخرجوا لقتالهم بالعيدان، وخرج معهم، فلما تقاربوا أخذه حال وصار يدور كأهل السماع الواجدين وترك قتالهم، فقيل له في ذلك، فقال وعزة المعبود ما درت حتى رأيت السماء دارت.

وكذلك الشيخ الكبير العارف بالله تعالى محمد بن أبي بكر الحكمي رضي الله تعالى عنه حكي أنه كان ينكر عليه بعض الفقهاء الكبار السماع، فقال له يوماً في حال السماع يا فقيه ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى الملائكة تدور في الهواء. وكذلك أنكر بعض الفقهاء على بعضهم وقال: لم تسمع الجلاجل، يعني التي في الدف، فقال والله ما أسمع جلاجل وإنما أسمعها تقول الله الله.

قلت: هذا سماع من يسمع بحق، وأما سماع من يسمع بلهو وباطل فينطق إليه اللهو بما يناسب حاله، كما روي عن السيد الجليل الكبير الولي الشهير أحمد بن موسى بن عجيل اليمني رضي الله تعالى عنه، أنه سمع بعض أهل اللهو واللعب يضربون ببعض آلات اللهو فبكى، فقيل له في ذلك، فقال: إنما أسمعها تقول: سوف تندم سوف تندم.

قلت: ومن سماع أهل الحق ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه سمع صوت ناقوس[1] فقال: أتدرون ما يقول؟ فقالوا: لا، فقال إنه يقول: سبحان الله حقاً حقاً، إن المولى صمد يبقى.

وكذلك حكي عن بعض الفقهاء كان ينكر على الصوفية سماعهم، فدخل عليه يوم بعضهم فوجده يدور في بيته، فقال له: يا فقيه مالك تدور؟ فقال: كانت مسألة أشكلت علي منذ زمان، فاطلعت الآن عليها فملئت بذلك سروراً، فلم أتمالك من الطرب أن قمت ودرت كما رأيت، فقال له: يا فقيه هذا من أجل فرحك بمسألة، فكيف تنكر على من فرح بالله سبحانه؟

قلت: كم بين الفرحين هذا فرح بالاطلاع على حكم من أحكام الله تعالى، وذلك فرح بالاطلاع على تجلي جمال الله عز وجل وكمال صفاته، مع امتلاء القلب بمحبته، والشوق إلى لقاء ذاته، والطرب بذكره الحالي، والغيبة بواردات الأحوال الغوالي، والمنازلة في المقامات العوالي، والشرب من راح محبة الجمال التي قال فيها قائلهم:

هنيئاً لأهل الدين كم سكروا بها ... وما شربوا منها ولكنهم هموا
على نفسِه فليبك مَنْ ضاَع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهمُ

قلت: وقد تقدمت حكاية في الفصل الثالث عن بعض الأكابر من أهل العلم والصلاح المشهورين من أهل اليمن، أنه كان في جهة بلاده بعض المشايخ، وكان كثير السماع هو وفقراؤه،

---

(١) الناقوس: آلة من نحاس ونحوه تُضرب للتنبيه (ج) نواقيس.

وكان أهل قريته ينكرون عليه، ويسيئون الظن به، ويكرهون سماعه كراهية شديدة، فأرادوا أن يكيدوه، فاتفقوا كلهم أو بعضهم على أن يصنعوا طعاماً ويدعوه هو وجماعته الفقراء الذين معه إلى دار قد أشرفت على الانهدام ليسمعوا ويأكلوا ذلك الطعام، ومرادهم أن تقع عليهم الدار إذا دخلوا في السماع لكثرتهم وشدة حركتهم، فلما دعوهم إلى تلك الدار خرج عنهم جميع أولئك الأشرار، ولم يبق فيها إلا ذلك الشيخ وأصحابه الأخيار، فباتوا يسمعون فيها حتى طلع النهار، فلما ارتفعت الشمس ركعوا وخرجوا، فلما تكامل وخرج أولئك الرجال التفت الشيخ إلى الدار وقال لها: هذا وقتك، فوقعت في الحال، فخسر أعداؤهم دارهم وطعامهم مع خسارة الدين ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ [آل عمران: ٥٤] وهذا مختصر الحكاية ومعناها وإن اختلف لفظها.

قلت: كذلك ما حكي واشتهر ورواه لنا أكابر عن أكابر من السادات الجامعين بين العلم والصلاح والشرف والكرامات، أن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير سيف الدين الباخرزي، بالباء الموحدة والخاء المعجمة المفتوحة ثم الراء الساكنة ثم الزاي المكسورة رضي الله تعالى عنه، أنكر عليه السماع القاضي صدر الشريعة قاضي بخارى بالقول، فلم يقبل منه، فجمع أصحابه ودخل بهم على الشيخ وأصحابه هاجمين عليهم في حال سماعهم، وبأيديهم عيدان ليضربوهم بها بزعمهم، فلما علم الشيخ بدخولهم أمر القوالين بالسكوت، فسكتوا ولم تسكت آلة السماع من الدف والقصب بل صاروا يسمعون منها أصوات الحسن والطرب ممّا كانوا يسمعون منها باستعمال القوالين، فأخذ القاضي وأصحابه الوجد، فرقصوا ثم تابوا على يد الشيخ من إنكار السماع على الفقراء. قال الراوي المشاهد لتلك الواقعة، وهو الشيخ الكبير الحسيب النسيب الشريف جلال الدين صاحب الشيخ الكبير بهاء الدين السندي صاحب الشيخ الكبير شيخ الشيوخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وإلى الآن أجد حلاوة ذلك السماع.

قلت: وكذلك حكي بالإسناد أن بعض المشايخ، وهو الشيخ الكبير العارف بالله تعالى حسين النجار السعرتي رضي الله تعالى عنه، كان مشغولاً هو وأصحابه بالسماع ليلاً ونهاراً جعلوه عادتهم وتركوا غيره من النوافل، ولم يزالوا كذلك والناس ينكرون عليهم أشد الإنكار، إلى أن حضرت وفاة الشيخ وهم يقولون: ترى على أي حالة يموت هذا الشيخ؟ وكانوا قد سعوا في منع السماع إلى السلطان، فلما توفي الشيخ وجهزوه، أرادوا أن يحملوا جنازته فلم يستطيعوا، فاجتمع على ذلك خلائق وحاولوا حملها بكل حيلة فلم يقدروا، فبلغ العلم إلى السلطان، فتعجب هو وكل من علم بذلك وتحيروا في سبب ذلك، ثم سألوا أصحاب الشيخ: هل أوصاكم الشيخ بوصية فقالوا: نعم، أوصانا أن لا نحمل جنازته إلا بالسماع، فأذن لهم السلطان في السماع حينئذٍ، فلما أخذوا في السماع ارتفعت لهم الجنازة، فذهبوا بها رافعين أصواتهم بالسماع، فلما رأى السلطان ذلك لم يمنع من السماع بعدها، وحسن ظنه وظن الناس في الشيخ، وخرج السلطان في تشييع جنازته ماشياً، وحلف أن لا يمشي إلا حافياً وكذلك القاضي، فلما وضعوا الجنازة في المصلى وصلوا عليه أرادوا حملها، فلم ترتفع لهم أيضاً لا بسماع ولا بغيره بعد أن استعانوا بالعتالين والحمالين الأقوياء؛ فسألوا أصحاب الشيخ أيضاً هل أوصى الشيخ بوصية أخرى؟ فقالوا: لا، فبينما هم كذلك، إذ أقبل رجل من صدر

البرية، فلما وصل إليهم صلى عليه، ثم سألوه من أنت؟ فقال: أنا مريد الشيخ جئت من اليمن، وكان الشيخ قد أعلمني أن جنازته تتعوق حتى أصلي عليه، وأنها لا ترتفع حتى تنشد هذه الأبيات، وأخرج ورقة من جيبه فإذا فيها:

يـا ويلتـا مـن قلبـي القـاسـي ... ومـا جـرى منـهُ علـى راسـي
الفقـرُ مـوجـود لمـن يشتـري ... وإنمـا الآفـة إفـلاسـي
إن تنكـروا دفـي وشبـابتـي ... وهـز عطفـي بيـن جـلاسـي
لا غـرو إن أفتـوا علـى علمهـم ... لأنهـم مـا شـربـوا كـاسـي

فلما أنشدت الأبيات المذكورة ارتفع النعش، فحملوه إلى أن وضعوه في قبره رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

قلت: وهذا معنى الحكاية مختصراً، وقد قدمت في الفصل حكاية الشيخ الذي امتحنه السلطان الكافر بالسم، فشربه ودخل في السماع فلم يضره بإذن الله سبحانه وتعالى، فأسلم السلطان.

وحكي عن بعضهم قال: كنت ليلة مع الأصحاب وهم مجتمعون للسماع، فلما قال القوال سمعوا وقاموا ورقصوا، فأنكرت عليهم بقلبي، فرأيت تلك الليلة في المنام كأن القيامة قد قامت، ورأيت الصوفية يجوزون الصراط راقصين والخلق قد انقطعوا عنهم، فانتبهت ونذرت مع الله تعالى نذراً أن لا أعود أنكر عليهم أبداً.

وحكي أن النجيب ابن النجيب أبا المعالي إمام الحرمين رضي الله تعالى عنه، كان يدرس يوماً بعد صلاة الصبح في المسجد، فمر عليه بعض شيوخ الصوفية وقد دعوا إلى بعض المواضع، فقال إمام الحرمين في نفسه: ما شغل هؤلاء إلا الأكل والرقص فلما رجع الشيخ من الدعوة مر عليه وقال له: يا فقيه ما تقول فيمن يصلي الصبح وهو جنب، ويقعد في المسجد يدرس العلوم ويغتاب الناس؟ فذكر إمام الحرمين أنه كان عليه غسل، ثم حسن اعتقاده بعد ذلك في الصوفية.

قلت: ومن هذا وأشباهه مما وقع للفقهاء وغيرهم مع الفقراء كثير لا يحتمل هذا الكتاب منه إلا اليسير، وقد كتب بعض الكبار من فقهاء اليمن وصلحائهم إلى بعض مشايخ اليمن ينكر عليه السماع ويقول له: لم ترقص؟ فكتب إليه الشيخ يقول: أرقص وأزيد وأنقص، وهذا الفرس والميدان يا أبا عُرَيْدان.

قلت: هو بضم العين المهملة وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحت وبالذال المعجمة.

وأخبرني بعض الفقهاء، أن فقيهاً في بلاد اليمن صنف فصولاً أنكر فيها السماع على بعض السادات من الصوفية، وتكلم فيها وطعن في زمامنا هذا، فابتلي بجذام(١) قطع جسمه، نسأل الله الكريم العفو والعافية.

---

(١) الجُذام: علة تتأكل منها الأعضاء وتتساقط.

قُلت: ومن هذا وأشباهه ما تعجز الألسن عن حصره؛ وتضيق الدفاتر عن سطره لما جاهدوا في الله سبحانه حق جهاده أيدهم بنصره، وحارب من عاداهم من سائر عباده ساعدتهم عناية المولى جل وعلا فحفظهم وتولى، ولما كان مولاهم لهم مساعداً لم يضرهم من كان لهم معانداً؛ فمن حصلت له من الحبيب الموالاة لم يبال بكل من حسده وعاداه، ولله در القائل من السادات أولي الفضائل:

ولـو أنَّ كـل العـالميـن معـانـدي   مـا ضـرّنـي يـومـاً وأنـت مُساعـدي
وإذا تـألفـت القلـوب علـى الـولا   فـالخلـق تضـربُ فـي حـديـدٍ بـاردٍ

قلت: وقد ذكرت فيما تقدم عن المشايخ العارفين رضي الله تعالى عنهم، أنه لا يجوز السماع لكل أحد.

وها أنا أذكر أيضاً شيئاً مما ينكر منه:

قال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: وأما وجه الإنكار فيه، فهو أن ترى جماعة من المريدين دخلوا في مبادىء الإرادة، ونفوسهم قد تمرنت على صدق المجاهدة، حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب، حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم، ويعلمون ما لهم وما عليهم، فيقوم أحدهم من غير بصيرة وعلم في قيامه، وذلك إذا سمع إيقاعاً موزوناً بسمع يؤدي ما سمعه إلى طبع موزون، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت والإيقاع الموزون، وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع الموزون على وجه القلب، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع، فيقوم ويرقص موزوناً ممزوجاً، بتصنع محرم عند أهل الحق، ويحسب ذلك طيبة القلب، وما رأى وجه القلب وطيبته بالله تعالى، ولعمري هو طيبة القلب، ولكن قلب ملون بلون النفس، ميال إلى الهوى، موافق للردى، لا يهتدي إلى حسن النية في الحركات، ولا يعرف صحة الإرادات، ولمثل هذا الراقص قيل: الرقص نقص لأنه رقص مصدره الطبع غير مقترن بنية صالحة، لا سيما إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرب إلى بعض الحاضرين من غير نية، بل بدلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم، وغير ذلك من الحركات التي لا يعتمدها من المتصوفة، إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد الزي والصورة، أو يكون القوال أمرد تنجذب إليه النفوس للنظر إليه، ويستلذ ذلك وتضمر خواطر السوء، أو يكون للنساء إشراف على الجمع، وتتراسل البواطن المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد، فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريمه. قال: وقد يرقص بعض الصادقين بإيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال ووجه نيته في ذلك إنما يوافق الفقراء في الحركة، فيتحرك بحركة موزونة غير مدع بها حالاً ووجداً، ثم ذكر كلاماً طويلاً قال في أثنائه: ولكن لا يليق الرقص بالشيوخ ومن يقتدي به، لما فيه من مشابهة اللهو، واللهو لا يليق بمنصبهم. انتهى الكلام..

قلت: ومن آداب السماع ما روينا عن الشيخ الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه في كتابه العوارف: أنه لا ينبغي للصادق أن يتعمد الحضور في مجمع يكون فيه سماع إلا بعد أن

بخلص النية لله تعالى، ويتوقع به مزيداً في إرادته وطلبه، ويحذر من ميل النفس لشيء من هواها، ثم يقدم الاستخارة للحضور، ويسأل الله تعالى إذا عزم البركة فيه، وإذا حضر يلزم الصدق والوقار بسكون الأطراف. قال: يتقي الصادق استدعاء الوجد، ويجتنب الحركة فيه مهما أمكن لا سيما بحضرة الشيوخ، ثم ذكر كلاماً كثيراً قال في أثنائه: فليتق الله ربّه، ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته كحركة المرتعش الذي لا يجد سبيلاً إلى الإمساك، وكالعاطس الذي لا يقدر أن يرد العطسة، وتكون حركته بمثابة النفس الذي يتنفس، تدعوه إلى التنفس داعية الطبع قهراً، ثم أشار أن الزعقات كالحركات في ذلك، يعني تكون بالاضطرار لا بالاختيار وكذلك تمزيق الثياب. قال: بل ذلك آكد لكونه إتلاف مال، وهكذا رمي الخرقة إلى الحادي لا ينبغي أن يفعل إلا إذا حضرته نية يجتنب فيها التكلف والمراءاة، وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقة إلى الحادي، فقد روي أن كعب بن زهير(١) دخل على رسول الله ﷺ المسجد وأنشده:

بـــانـــت سعـــاد فقلبـــي اليـــوم متبـــول

حتى انتهى فيها إلى قوله:

إنَّ الـــرَّســـولَ لسيـــف يُستضـــاءُ بـــه مهنـــد مـــن سيـــوفِ الله مسلـــولُ

فقال له رسول الله ﷺ: «من أنت؟» فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أنا كعب بن زهير، فرمى إليه رسول الله ﷺ بردة كانت عليه؛ فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير: بعنا بردة رسول الله ﷺ بعشرة آلاف، فوجه إليه: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً، فلما مات كعب رضي الله تعالى عنه بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفاً وأخذ البردة.

قال الشيخ شهاب الدين: وهي البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليوم.

قال: وللمتصوفة آداب يتعاهدونها، ورعايتها حسن الأدب في الصحبة والمعاشرة وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك، ولكن كل شيء استحسنوه وتواطأوا عليه، ولا ينكره الشرع لا وجه للإنكار فيه؛ قال: فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك في السماع ووقعت منه خرقة أو نازلة وجد رمى عمامته إلى الحادي، فالمستحسن عندهم موافقة الحاضرين له في كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ، وإن كان ذلك من الشباب في حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشباب في ذلك، وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين في ترك الموافقة للشباب، فإذا سكتوا عن السماع ترد إلى الواحد خرقته، ويوافق الحاضرون برفع العمامة ثم ردّها على الرؤوس في الحال للموافقة، قال: والخرقة إذا رميت إلى الحادي هي للحادي إذا قصد إعطاءها إياه، وإن لم يقصد إعطاء الحادي، فقال بعضهم هي للحادي، لأن المحرك هو، ومنه صدر الموجب لرمي الخرقة؛ وقال بعضهم: هي للجمع والحادي واحد منهم، لأن المحرك قول الحادي مع بركة الجمع، واستدل لهذا القول بما روي أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «من وقف بمكان كذا فله كذا، ومن قتل فله كذا ومن أسر فله

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٥/٢٢٦، وفي خزانة الأدب للبغدادي ٤/١١ و١٢، والشعر والشعراء ٦١

كذا»، فتسارع الشباب وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات، فلما فتح الله سبحانه على المسلمين طلب الشباب أن يجعل لهم ذلك، فقال الشيوخ: كما ظهرا لكم وردعا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، فأنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرَّسول﴾ [الأنفال: ١] فقسم النبي ﷺ بينهم بالسوية»[١].

وقيل: وإذا كان لقوال من القوم يجعل كواحد منهم، وإذا لم يكن منهم فما كان له قيمة يؤثر به، وما كان من خرق للفقراء يقسم بينهم.

وقيل: إذا كان القوال أجيراً فليس له منها شيء، وإن كان متبرعاً يؤثر بذلك.

قال: وكل هذا إذا لم يكن هناك شيخ يحكم، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويمتثل أمره، فالشيخ يحكم في ذلك بما يرى، فقد تختلف الأحوال في ذلك، وللشيخ اجتهاد يفعل ما يرى فلا اعتراض لأحد عليه، وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين، ورضي القوال والقوم بما رضوا به، وعاد كل واحد إلى خرقته فلا بأس بذلك، وإذا أصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنية له في ذلك يؤثر بخرقته الحادي.

قال: وأما تمزيق الخرقة المجروحة التي مزقها واجد صادق عن غلبة سلبت اختياره، كغلبة النفس فيمن يعتمد إمساكه، فنيتهم في تفريقها وتمزيقها التبرك بالخرقة، لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق سبحانه، وتمزيق الخرقة أثر من آثار الوجد فصارت الخرقة متأثرة بأثر رباني، من حقها أن تفدى بالنفوس وتترك على الرؤوس إكراماً وإعزازاً لقرب العهد بالدار:

تفـوح أرواح نجـد مـن ثيـابهـم عنـد القـدوم لقـرب العهـد بـالـدار

«كان رسول الله ﷺ يستقبل الغيث ويتبرك به ويقول: حديث عهد بربه»[٢].

قال: فالخرقة الممزقة حديثة العهد، فحكم المجروحة أن تفرق على الحاضرين، وحكم ما يتبعها من الخرق الصحاح أن يحكم فيها الشيخ إن خصص بشيء منها بعض الفقراء فله ذلك، وإن فرقها خرقاً فله ذلك، ولا يقال إن هذا تفريط وسرف، فإن الخرقة الصغيرة ينتفع بها في مواضعها عند الحاجة كالكبيرة.

وروي عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله تعالى عنه أنه قال: «أهدي لرسول الله ﷺ حلة حرير، فأرسل بها إليّ فخرجت فيها، فقال لي ﷺ: ما كنت لأكره لنفسي شيئاً أرضاه لك، فشققها بين النساء خمراً» وفي رواية: «أتيته فقلت: ما أصنع بها ألبسها؟ قال: لا، ولكن اجعلها خمراً بين الفواطم» أراد فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت حمزة رضي الله تعالى عنهن. قال: وهذا وجه في السنة لتمزيق الثوب وجعله خرقاً.

---

(١) أخرجه أبو داود (جهاد ١٤٤).
(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ١/٢٧٦).

ثم قال: حكي أن الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا في دعوة، فوقعت الخرقة وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبو محمد الجويني[1] وشيخ الصوفية الأستاذ أبو القاسم القشيري، فقسمت الخرقة على عاداتهم، فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرًّا: هذا سرف وإضاعة مال، فسمع الأستاذ أبو القاسم القشيري ولم يقل شيئاً حتى فرغت القسمة، ثم استدعى الخادم وقال: انظر في الجمع من معه سجادة ائتني بها، فجاءه بسجادة ثم أحضر رجل من أهل الخبرة فقال: هذه السجادة بكم تشترى في المزاد؟ قال: بدينار، قال: لو كانت قطعة واحدة كم تساوي؟ قال: نصف دينار، فالتفت إلى الشيخ أبي محمد وقال: هذا لا يسمى إضاعة مال.

قال الشيخ شهاب الدين السهروردي: والخرقة الممزقة تقسم على جميع الحاضرين من كان من الجنس أو غير الجنس؛ إذا كان حسن الظن بالقوم معتقداً للتبرك بالخرقة، واستدلّ على التعميم بكتاب عمر رضي الله تعالى عنه: إن الغنيمة لمن شهد الوقعة.

قال: ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضراً قسم له، واستدل بما روى موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: «قدمنا على رسول الله ﷺ بعد خيبر بثلاث، فأسهم لنا ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا».

قال: ويكره القوم حضور غير الجنس عندهم في السماع كمتزهد لا ذوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر، أو صاحب دنيا يحوج إلى المداراة والتكلف، أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده.

قلت: ومن كراهيتهم غير الجنس: ما حكي أن الجنيد حضر ليلة في جمع من الأصحاب في دار دعي إليها، فلما دخل الدار رأى شخصاً أجنبيًا بين الجماعة؛ فدعاه الجنيد وأعطاه بردته وقال له: امض بها إلى السوق فارهنها على منوين[2] من السكر للفقراء، فلما خرج الرجل من بينهم أغلق الباب دونه وناداه: يا فلان خذ البردة ولا ترجع إلى هاهنا، فقيل له في ذلك فقال: اشتريت ببردتي لكم صفاء الوقت في هذه الليلة بإخراج من ليس منكم من بينكم.

قلت: فهذا ما اختصرته من آداب السماع من كلام الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: وأما آداب المريد في السماع فالمريد لا تسلم له الحركة في السماع بالاختيار البتة؛ فإن ورد عليه وارد حركة فلم يكن فيه قوة فبمقدار الغلبة

---

(١) هو عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية الجويني (توفي ٤٣٨ هـ/١٠٤٧ م) أبو محمد، من علماء التفسير واللغة والفقه. ولد في جوين وسكن نيسابور، وتوفي بها. من كتبه «التفسير» كبير و«التبصرة والتذكرة» فقه. و«الوسائل في فروق المسائل»، و«الجمع والفرق» في فقه الشافعية، وله رسائل منها «إثبات الاستواء». والأعلام ٤/١٤٦ ـ ١٤٧، والوفيات ١/٢٥٢، ومفتاح السعادة ٢/ ١٨٤

(٢) مثنى المنا: كيل يُكال به السمن وغيره، أو ميزان يوزن به (ج) أمناء.

يعذر، فإذا زالت الغلبة يجب عليه العود والسكون، فإن استدام الحركة مستجلباً للوجد من غير غلبة وضرورة لم يصح؛ فإن تعود ذلك يبقى مختلف لا يكاشف بشيء من الحقائق، فغاية أحواله حينئذٍ أن يطيب قلبه. وفي الجملة أن الحركة تأخذ من كل متحرك وتنقص من حاله مريداً كان أو شيخاً إلا أن يكون بإشارة أو غلبة تأخذ عن التمييز: فإن كان مريداً أشار عليه الشيخ بالحركة فتحرك على إشارته، فلا بأس إذا كان الشيخ ممن له حكم على أمثاله. وأما إذا أشار عليه بعض الفقراء بالمساعدة في الحركة فيساعدهم في القيام، وفي أدنى ما لا يجد منه بداً مما يراعي استيحاش قلوبهم، ثم إن صدقه في حاله يمنع قلوب الفقراء من سؤالهم منه المساعدة معهم.

قال: وأما طرح الخرقة فحق المريد أن لا يرجع في شيء خرج منه البتة، اللهمَّ إلا أن يشير عليه الشيخ بالرجوع فيه فيأخذه على نية العارية بقلبه، ثم يخرج عنه بعده من غير أن يستوحش قلب ذلك الشيخ، وإذا وقع بين قوم عادتهم طرح الخرق، وعلم أنهم يرجعون في ذلك، فإن لم يكن فيهم شيخ تجب حشمته وحرمته، وكان طريق هذا المريد أن لا يعود في الخرق، فالأحسن أن يساعدهم في الطرح ثم يؤثر به القوال إذا رجعوا هم ولو لم يطرح، فإنه يجوز إذا علم من عادة القوم أنهم يعودون فيما طرحوا فإن القبيح إنما هو سنتهم في العود إلى الخرقة لا مخالفته لهم، على أن الأولى والطرح على الموافقة ثم ترك الرجوع فيه.

قال: ولا يسهل للمريد البتة التقاضي على القوال، لأن صدق حاله يحمل القوال على التكرار، أو يحمل غيره على الاقتضاء. قال: ومن تبرك بمريد فقد جار عليه، لأنه يضره لقلة قوّته، فالواجب على المريد ترك تربية الجاه عند من قال بتبركه، وإثباته، انتهى كلامه.

قلت: ومن حكايات أرباب الأحوال في السماع وأصحاب المواجيد فيه، ما حكي عن بعضهم أنه سمع على ساحل البحر، فجعل يتقلب على الماء ويمر ويجيء حتى رجع إلى مكانه.

وحكي عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الأرض في الهواء أذرعاً يمر ويجيء فيه.

قلت: ومثل هذا رويناه عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير أبي عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه.

قلت: وقد تقدمت حكاية عن بعض المشايخ، أنه قطعت رجله في حال السماع من أجل أكلة فيها ولم يشعر.

ومن المشهور ما حكي عن بعضهم أنه كان مقعداً، وكان إذا ظهر به وجد في السماع يقوم.

وحكي عن بعضهم أنه كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها.

قلت: وقد دخل كثير منهم في النار في حال السماع، وقد تقدم في الفصل الثالث أنه امتحن بعض الملوك بعض المشايخ بذلك بعدما أمر بإيقاد نار عظيمة، فأمر الشيخ أصحابه بالسماع، فلما عمل فيهم الوجد دخل بهم فيها، ثم اختطف ابناً للملك ودار به فيها ثم غابا، ففزع الملك على ولده

فزعاً شديداً، ثم ظهر وإذ؛ في إحدى يدي ابن الملك تفاحة وفي الأخرى رمانة، فقال له أبوه: أين كنت؟ قال: كنت في بستان، فأخذت منه هاتين الحبتين، فأحضر الملك كأساً مملوءة سماً تقتل القطرة منه في الحال وقال للشيخ: اشربه إن كنت صادقاً وكان مذهبكم حقًّا، فشربه الشيخ في حال السماع، فتمزقت ثيابه، فألقي عليه ثياب أخرى فتمزقت أيضاً، ثم أخرى كذلك مراراً، ثم ثبتت عليه الثياب بعد ذلك صحيحة ولم يمسه سوء أكثر من أن يرشح جسمه عرقاً؛ فأحسن الملك ظنه بالفقراء ورجع عما كان عليه من الإيذاء لهم والتهديد والوعيد الشديد.

قلت: هذا مختصر الحكاية.

وقد مات بالسماع من الفقراء خلق كثير. من ذلك موت بعضهم بسماع هذا البيت من القوال:

تقـولُ نسـاء الحـي تطمـع أنْ تـرى　　　محـاسـن ليلـى مُـت بـداءِ المطـامـعِ

وموت آخر بسماع هذا البيت:

مـا كنـتُ أعـرفُ مـا مقـدار وصلكُـم　　　حتـى هجـرتُ وبعـض الهجـرِ تـأديـبُ

وموت آخر بهذين البيتين:

دنـــفٌ يمـــوتُ بـــدائـــه　　　والمـــوت دون بـــلائـــه
إنْ عـــاشَ عـــاشَ منغصـــاً　　　أو مـــاتَ مـــات بـــدائـــه

وحكي بالإسناد عن بعضهم قال: كنا مارين على دجلة[(١)] بين البصرة والإبلة[(٢)]، وإذا بقصر حسن له منظر وعليه رجل وبين يديه جارية تغني وتقول:

فـــي سبيـــل الله ود　　　كـــان منـــي لـــك يبـــذلُ
كـــل يـــوم تتلـــون　　　غيـــر هـــذا بـــك أجمـــلُ

فإذا شاب تحت المنظرة بيده ركوة وعليه مرقعة يسمع فقال: يا جارية بحياة مولاك أعيدي:

كـــل يـــوم تتلـــونَ　　　غيـــر هـــذا بـــك أجمـــلُ

فأعادت، فقال الفقير: هذا والله حالي مع الله، وشهق شهقة خرجت بها روحه، فقال صاحب القصر للجارية: أنت حرة لوجه الله تعالى، وأعتق جميع مماليكه، وتصدق بالقصر وبجميع ماله، واتزر بخرقة وارتدى بأخرى، وذهب على وجهه فلم ير له أثر ولا سمع له خبر.

قلت: هذا مختصر الحكاية أيضاً.

وحكي بالإسناد أيضاً عن الشيخ أبي علي الروذباري رضي الله تعالى عنه قال: جزت يوماً

---

(١) الدجلة: نهر ينبع من تركيا شرقي جبال طوروس، يجري بديار بكر والموصل وبغداد، من روافده الزاب الأكبر والزاب الأصغر ونهر ديالي. يمرّ من سورية ثم من العراق. (الرسالة القشيرية ص ٣٤٦).

(٢) الأبلة: بلدة على شاطىء نهر دجلة في زاوية الخليج، وهي أقدم من البصرة قال الأصمعي: جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الأبلة، (الرسالة القشيرية ص ٣٤٦).

بقصر، فرأيت شابًا حسن الوجه مطروحاً وحوله ناس مجتمعون، فسألت عنه، فقالوا: إنه جاز بهذا القصر فسمع جارية تغني وتقول:

كبـــرتْ همـــة عبـــد طمعـــت فـــي أنْ تـــراكـــا
أو مـــا حســـب لعيـــن أنْ تـــرى مـــن قَـــدْ رآكـــا

قلت: وقد تقدمت حكاية الشيخ أبي الحسين النوري رضي الله تعالى عنه وموته بسبب سماعه هذا البيت:

مـــا زلـــتُ أنـــزلُ مـــن ودادك منـــزلاً تتحيـــر الألبـــابُ دونَ نـــزولـــهِ

وحكي بالإسناد أن شابًا كان يصحب الجنيد. فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق فقال له الجنيد يوماً: إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني، فكان إذا سمع شيئاً يتغير ويضبط نفسه حتى كان يقطر من كل شعرة من بدنه قطرة، فصاح يوماً صيحة تلفت بها نفسه.

وحكي عن أحمد بن مقاتل العكي رحمه الله تعالى قال: لما دخل ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه بغداد، اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوال، فاستأذنوه بأن يقول بين يديه شيئاً، فأذن فابتدأ يقول:

صغيـــرُ هـــواك عـــذبنـــي فكيـــفَ بـــه إذا احتنكـــا
وأنـــت جمعـــت مـــن قلبـــي هـــوى قَـــدْ كـــانَ مُشتـــركـــا
أمـــا تـــرثـــي لمكتئـــبٍ إذا ضحـــك الخلـــيّ بَكـــى

قال: فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر منه ولا يسقط على الأرض ثم قام رجل من القوم يتواجد، فقال له ذو النون: الذي يراك حين تقوم، فجلس الرجل.

قال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه. كان ذو النون صاحب إشراف وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف حيث نبهه أن ذلك ليس مقامه فقبل منه ذلك وقعد، هذا معنى كلامه مختصراً.

قلت: وحكاياتهم من هذا وأشباهه كثيرة.

ومن حكايات التأثر بالصوت الطيب بحكمة الله تعالى، ما حكي بالإسناد عن أبي بكر محمد بن داود الدينوري رحمه الله تعالى قال: كنت في البادية، فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم، فرأيت غلاماً أسود مقيداً هناك، ورأيت جمالاً ماتت بفناء البيت، فقال لي الغلام: أنت الليلة ضيف، وأنت على مولاي كريم، فتشفع لي فإنه لا يردك، فقلت لصاحب البيت: لا آكل طعامك حتى تخلي هذا العبد، فقال: هذا الغلام قد أفقرني وأتلف مالي، فقلت ما فعل؟ فقال؛ له صوت طيب، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال، فحملتها أحمالاً ثقيلة وحدا لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم، فلما حط عنها ماتت كلها، ولكن قد وهبته لك وحل عنه القيد؛ فلما أصبحنا أحببت أن أسمع صوته، فسألته ذلك، فأمر الغلام أن يحدو على جمل كان على بئر هناك ليستقي عليه، فحدا فهام الجمل على وجهه وقطع حباله، ولم أظن أني سمعت أطيب منه، ووقعت لوجهي حتى أشار إليه بالسكوت.

وحكي أنه مات بعض ملوك العجم وخلف ابناً صغيراً، فأرادوا أن يبايعوه، فقالوا كيف نصل إلى معرفة عقله وذكائه؟ فتوافقوا أن يحضروا بين يديه قوالاً، فإن أحسن الإصغاء علموا كياسته، فلما قال شيئاً ضحك الرضيع، فقبلوا بين يديه الأرض وبايعوه. وقيل: إذا تغنت الحور في الجنة توردت الأشجار.

قلت: فهذا ما اقتصرت عليه من أقوالهم في السماع وآدابهم وحكايات وجدهم فيه وأحوالهم وذكر شيء من الشروط والتفصيل. وعلى الجملة فالحق الذي عليه التعويل، أن السماع لا يجوز لكل أحد، بل لمن حدا به حادي الشوق إلى مواطن القرب في الحضرة القدسية، خالياً عن هوى النفس والصفات الدنية، وأن السماع الحقيقي لأرباب الأحوال السنية والمقامات العلية والنفوس الزكية والصفات الرضية الذين قال قائلهم.

ولما حضرنا للسرورِ بمجلسٍ — وضَاءت لنا من عالم الغيب أنوار
وطافت علينا للعوارفِ خمرة — يطوف بها في حضرة القدس خمارُ
تخامر أرباب العقول بلطفها — وتبدو لنا عند المسرة أسرار
فلما شربناها بأفواهٍ كشفنا — أضاءتْ لنا منها شموسُ وأقمارُ
رفعنا حجاب الأنس بالأنس عنوة — وجاءتْ إلينا بالبشائرِ أخبارُ
وغبنا بها عنا ونلنا مرادنا — ولم يبقَ منا بعد ذلك آثار
وخاطبنا في سكرنا عند محونا — كريم قديم فائض الجود جبارُ
وكاشفنا حتى رأيناهُ جهرةً — بأبصارِ فهم لا تواريه أستارُ

الجواب الرابع

في بيان سبب تمزقهم في البدايات، وسياحة بعضهم في البراري والفلوات، وإقامة بعضهم في المقابر وبعضهم في الخرابات

أقول وبالله تعالى التوفيق: اعلم هداك الله تعالى وإياي لسلوك الطريق الموصلة إلى الحضرة القدسية للمقربين أولي التحقيق، أن هذه الطائفة السادة لما أريد بهم التخصيص، وسبقت لهم بالتقريب السعادة، أسكن في قلوبهم المنيرة ناراً للإرادة، فاحترقوا شوقاً إلى أوطان القرب، وتمزقوا في الهوى وخرجوا عن العادة؛ فرفضوا الحظوظ من المنكح والمطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب، وجميع أنواع الدنيا والخلق، والجاه الذي رفضه أصعب، بل رفضوا جميع ما سوى الله تعالى وجعلوه وحده هو المطلب، وهجروا المنام وجانبوا الكلام، واشتعلت في قلوبهم نار الغرام، فهي في الأحشاء تتلهب، ثم تفاوتوا في الهوى وخلع العذار[1] على حسب تفاوت حرارة النار،

(١) خلع فلان عذاره؛ أي: انهمك في الغي ولم يستح منه واتبع هواه.

فمنهم من اضطرمت فيه نار المحبة فقلقلته لذعة الهوى، وأزعجته لوعة الجوى، فليس له قرار، بل هائم في البراري والقفار؛ ومنهم من سكن الخرابات بقلب عامر، ومنهم من جاور بقلب حي للموتى في المقابر، فذلك مستأنس بوحوش الفلا، وذاك ناظر إلى خراب الدنيا، وذا معتبر بمنازل الموتى.

قيل لبعضهم، من أين أقبلت؟ قال من عند هذه القافلة النازلة، قيل له ماذا قلت لهم وما قالوا لك؟ قلت لهم متى ترحلون؟ فقالوا حين تقدمون.

وسئل آخر عن إقامته في المقابر فقال: أجاور قوماً إن حضرت لم يؤذوني، وإن غبت لم يغتابوني.

وقيل لآخر: أين مأواك؟ فقال في الدار التي يستوى فيها العزيز والذليل، فقيل له أين هذه الدار؟ قال المقابر، قيل له أما تستوحش في ظلمة الليل؟ قال إني أذكر ظلمة اللحد ووشحته فتهون عليّ ظلمة الليل؛ قيل فربما رأيت في المقابر شيئاً تنكره؟ قال ربما ولكن في هول الآخرة ما يشغل عن هول المقابر.

قلت: وهؤلاء الثلاثة المذكورون وإن افترقوا في هذه المواضع فاسم التمزق لجميعهم جامع، وكل منهم يقطع الأوقات بحلاوة الطاعات ولذة المناجاة وأنس الخلوات، وتدار عليهم بشراب المحبة الكاسات، مع مزج راح الهوى بنار الجوى في بعض الساعات، خصوصاً الهائم منهم في الفلوات، وفي كل واحد منهم قلت نائباً عن لسان حاله خمسة من الأبيات، فعن لسان حال الأول قلت:

بنفسي موحشاً باهي الديار	أنيساً للفيافي والقفار
يُناجي تارة مولى تعالى	ويبكي تارة من حرِ نارِ
ثوت بين الحشا من فرطِ حُب	ترى من أهله خلع العذار
سقوا راح الهوى صرفاً وحينا	بنيران الجوى مزجِ العقار
فهو ما بين ممزوج وصرف	من اللذاتِ ليلا مع نهارِ

قلت: وتقدير البيت الأول: أفدي بنفسي شخصاً موحشاً للديار الباهية بفراقه لها مؤنساً للقفار الخالية بسياحته فيها.

وعن لسان حال الثاني قلت في بعض القصيدات نظماً تقدم إنشاد بعضه: وهو هذه الأبيات:

أحنُ ارتياحاً للمزابلِ لا إلى	قصورٍ وفرش بالطراز توشحُ
وأمنحُ ودي للمساكين صافياً	أجُالسهم والهجر للغير أمنحُ
ففي ذل نفسي عزها وبموتها	حياة لأجل الغال بالدونِ أسمحُ
لنا باعتزال للورى لذ في الهوى	جوار كلاب في المزابلِ تنبحُ
إذا في اختلاط قيل ربح فضائل	فقل نحن قوم بالسلامة نربحُ

وعن لسان حال الثالث قلت:

ونـاءَ عـن الـدنيـا وعـن صحبةِ الـورى　　وحيــد لأصحــاب القبـور مجــاورُ
مجــاورُ قــوم لا يضــرونَ جــارهــم　　وكـم نفعـوا بـالـوعـظِ مـن هـو زائـرُ
فغــائبهــم لا غيبــةَ يختشــي ولا　　يخــافُ أذاهُــم والنميمــة حــاضــرُ
يُنـاديهـم بـالله هـل فـي بيـوتكـمُ　　ظـلامُ المعـاصـي أم بهـا النـوّر زاهـرُ
فمــا ضــر ذا بيـت خـراب ومظلـم　　بـدنيـا وفـي الأخـرى مُنيـر وعـامـرُ

قلت: فهؤلاء كلهم أزعجتهم عن الخلق واردات قوية، لم تدع فيهم للاشتغال بغير الحق تعالى بقية، وهناك آخرون كأمثالنا بقيت فيهم بقايا غلبت عليهم في أوقات فسكنوا بسببها في تلك الأوقات إلى العوائد المألوفات، ثم لا تزال تتداول عليهم صروف التلوين إلى أن يأتيهم مدد من الله تعالى بالإثبات والتمكين.

قلت: واللذات التي يجدها المتمزقون في الفلوات والخرابات وبين القبور لو عرفها المتنعمون بلذات الدنيا في القصور لاحتقروا ما هم فيه من النعيم الفاني المشوب بالأكدار فضلاً عما سبقوهم إليه وحظوا به من علو الدرجات وصنوف اللذات والنعيم المقيم الهاني في دار القرار، وها أنا أنبه على التفاوت بين العيشين بقطرة من بحر لا يعرف له قعر، أعني عيس المتمزقين المذكورين، وعيش المتنمين المغرورين. فأما القسم الأول، وهو عيش المتمزقين، فأذكر لك منه شيئين: أحدهما يتعلق بالطاعات، والثاني يتعلق بالخرابات. فأما المتعلق بالطاعة فأنا أعرف بعض الناس شرع في صلاة العصر في أول وقتها في بعض البراري، ثم أذن المؤذن لصلاة المغرب وهو بعد في صلاة العصر، لما وجد من حلاوة الطاعة ولذة المناجاة. وأما المتعلق بالخرابات فلقد كان ذلك الشخص يجلس في أيام البدايات على مزبلة في بعض الأوقات تحت قصر لبعض أهل الولايات، ويجد في اللذة والحلاوة ما لا تطيقه العبارات، وذلك لنظره إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى تقلبها بعين الاعتبار، وإلى منة الله تعالى عليه بإخراجه من قلبه ما عليه بنوا الدنيا من الاغترار، فكلما نظر ما هم عليه من نعيم الدنيا وزينتها وقصورها ومركبها، وجاهها وغرورها ولهوها ولعبها، وغنائها وطربها، يمتلىء قلبه بما هو فيه لذة وسروراً، ويستقل عقولهم ويرى ذلك فتنة وغروراً، ويعلم أن جميع ذلك عن قريب سيزول، ويعظم فيه تعب الحساب ويطول، وكأنك بالمسكن وقد خلا من السكان، وكأن ما كانوا فيه من العز والنعيم ما كان، وينشد المعتبر بهم ويقول:

ركــوبُ النَّعــش أنســاهُــم ركــوبــاً　　علــى الخيــلِ العتيقــات النجــاب[1]
وليــلُ القبــر أنســاهُــم لليــلٍ　　بــه عــرس المليحــات النجــاب
وأنســاهــم لفــرش نــاعمــات　　لهــا قــد زينــوا فــرش الـتـرابِ
عــلا الــدودُ الخــدود وغــاصَ فيهــا　　أكــولا للبهيــاتِ التــراب

وأما القسم الثاني، وهو عيش المتنعمين بالدنيا ذوي الاغترار، فمعلوم ما فيه من شوب

(١) فرس عتيق: كريم أصيل رائع.

الأكدار، لا يكاد يحصل به لصاحبه هناء مع حقارته وسرعة مصيره إلى الفناء، وما يترتب عليه من طول الحساب وشدة العناء، ومقاساة أهوال تذهل العقول، وها أنا في العيشين المذكورين أقول:

أيا سائلي عن طيبِ عيشين ذقت في ... زمـانـي ربيـع والغمـام هطـول
نعيمـاً بفقـر هـانيـاً وتنعمـاً ... بـدُنيـا عـنِ الحـال الهنـي تحـول
فشتـان مـا بيـنَ النَّعيميـن فـي الهنـا ... وفيمـا إليـه الكـل بعـد يـؤل
فهـذاك سيـقَ للجنـان مثـالـه ... وهـذا وقـوف للحسـابِ يطـولُ
فمـا ضـر ذا فقـر إذا كـان سـابقـاً ... إلـى كـل خيـر ليـسَ قـط يـزول
بخمـس مئيـن مـن سنيـن مُنعمـا ... وذو المـال كـم هـول لـديـه يهـول
وإني وإنْ أمسيت فـي السبـقِ فسكـلا ... فـإنـي بمـدحِ السَّـابقيـن أقـول[1]
إذا في مجلي السبق أضحت شيوخنا ... بيـومِ رهـانِ والعتـاق يحـولُ
كفـى شـرفـاً فجـر الشيـوخ لتـابـع ... ففخـر شيـوخ القـوم فيـهِ شمـولُ
ولا سيمـا والمـرء مـع مـنْ أحبـهُ ... كـذا قـال مـولـى للـورى ورسـولُ
عليـه صـلاة الله تنفـح منـدلاً ... بـه للبـرايـا رحمـة وقبـول

قلت: وقد نجز ما وعدت به من الكلام في الرياضات والمجاهدات والأحوال والمقامات والأربعة عشر الجواب، وها أنا أشرع في باقي الموعد وهو خاتمة الكتاب نسأل الله الكريم حسن الخاتمة لنا ولأحبابنا وللمسلمين آمين.

خاتمة

مشتملة على شيء من أقوال علماء الحقيقة العارفين الربانيين المحققين السابقين المقربين، وأفعالهم الدالة على تعظيم الشريعة، وموافقة الحقيقة لها في الأصول والفروع من الفروض والسنن وكل مشروع، وفي شيء من المعارف والحكم والآداب والمحبة والأسرار والخطاب. وبيان الفرق بين الفرق المنتسبة إلى التصوف، فمن هو متحقق به ومن ليس له منه إلا مجرد الزي والانتساب. قد ذكرت عقائدهم وعقائد علماء الشريعة من أهل السنة، وكون عقائد الفريقين متوافقة في الفصل الثاني من خاتمة كتاب روض الرياحين، وها أنا أذكر ذلك هنا أيضاً مختصراً. ورويناه عن جماعة من الشيوخ الكبار العارفين بالله تعالى، بالأسانيد الصحيحة المشهورة في التصانيف في سلوكهم ومعاملاتهم المشكورة.

فعن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه قال: أول ما يحتاج إليه من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدث، فيذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته، فإن من لم يعرف ماله لم يعترف بالملك لمن

---

(١) الفسكول: الفرس الذي يجيء آخر الخيل في السباق (مع) ورجل فسكول: متأخر تابع (ج) فساكيل.

استوجبه. وقال أيضاً: التوحيد إفراد القدم من الحدث. وقال أيضاً: متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير بما له شبيه ونظير؟ هيهات هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف الخبير من حيث لا درك ولا وهم، ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان. وقال أيضاً: تفرد الحق بعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون. وقال أيضاً: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد. وسئل عن التوحيد فقال: إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أنه الأحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وعن أبي الفيض ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن التوحيد؛ فقال أن تعلم أن قدرة الله سبحانه في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وليس في السمٰوات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله تعالى، وكل ما تصوّر في وهمك فالله سبحانه بخلاف ذلك.

قلت: هذا القول جمع بين الحسن والتحقيق العزيز، مع أنه مختصر جامع وجيز.

وعن أبي محمد سهل بن عبد اللّٰه رضي الله تعالى عنه، أنه سئل عن ذات الله تعالى فقال: ذات الله عز وجل موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول، وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

قلت: وهذا القول أيضاً فائق الحسن والتحقيق والاحتراز الدقيق لمن تأمل ألفاظه.

وعن أبي الحسين النوري رضي الله تعالى عنه أنه قال لما وصف القرب من الله سبحانه وتعالى: أما القرب بالذات فتعالى الملك عنه وإنه متقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار، ما اتصل به مخلوق ولا انفصل عنه حادث مسبوق، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل؛ فقرب هو في نعته محال وهو تداني الذوات، وقرب هو في نعته واجب وهو قرب بالعلم والرؤية، وقرب هو جائز في وصفه تعالى يخص به من يشاء من عباده، وهو قرب فعل باللطف.

قلت: وهذا القول أيضاً بديع الحسن والتحقيق.

وعن أبي العباس بن عطاء رضي الله تعالى عنه أنه قال: لما خلق الله تعالى الأحرف جعلها سرًّا له تعالى، فلما خلق آدم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بث فيه ذلك السر ولم يبث ذلك في أحد من الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم بفنون الجريان وفنون اللغات، فجعلها صوراً لها، وهذا القول صريح من ابن عطاء بأن الحروف مخلوقة.

قلت: ولا يقال كما بلغني عن بعض الناس أن القول بكون الحروف مخلوقة إنما هو قول ابن عطاء فحسب، بل قول أهل مذهب الحق جميعهم من المشايخ العارفين أهل الأنوار وأئمة الأصول

النظار، وهذا معروف حتى عند الصغار، وإنما خص ابن عطاء بذكر هذا القول عنه لكونه لما تكلم على ذلك بالعبارة الصريحة أبدى فيها سراً من الأسرار المليحة، وابن عطاء هذا هو أحد الشيوخ الخمسة الذين أجمع على الاقتداء بهم الجامعين بين علمي الظاهر والباطن، وهم أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، وأبو القاسم الجنيد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء المذكور، وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي.

قلت: وها أنا أنبه أيضاً على شيء آخر، وهو أن تخصيص هؤلاء الخمسة بهذا الحكم المذكور إنما هو مخصوص بالعصر الذي كانوا فيه لا عام في جميع الأعصار، إذ المشايخ الجامعون بين العلمين المذكورين غير هؤلاء الخمسة كثير، ويدل على هذا الذي ذكرته قول القائل، وهو الشيخ أبو عبد الله بن خفيف رضي الله تعالى عنه: اقتدوا بخمسة من شيوخنا، والباقون سلموا لهم حالهم، ثم ذكر الخمسة. وأنبه أيضاً على شيء ثالث، وهو أن تخصيصه الاقتداء بالجامعين بين العلم الظاهر وهو علم الشريعة وعلم الباطن وهو علم الحقيقة، يحتمل أمره بذلك ثلاثة أوجه: أحدها الندب لا الوجوب، إذ لا خلاف بينهم أن جميع السالكين العارفين بالله تعالى يجوز الاقتداء بهم سواء حصل السلوك قبل الجذبة أو بعدها، وسواء عرفوا جميع علوم الشرع المفروضة والمندوبة، أو لم يعرفوا سوى فرض العين الذي لا بد لكل مكلف منه. والوجه الثاني أن يكون أراد الاقتداء بهم في علم الشريعة والحقيقة جميعاً. والوجه الثالث أن يكون قال ذلك اختياراً منه لقول من قال بوجوب الاقتداء، والأخذ بقول الأعلم من المجتهدين لا بقول من قال بالتخيير بينهما، والله سبحانه أعلم.

قلت: وقد خرجت بهذا البحث عن المقصود، وإليه الآن أعود.

وعن سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: إن الحروف لسان فعل لا لسان ذات، لأنها فعل في مفعول، وهذا أيضاً صريح بأن الحروف مخلوقة.

وعن أبي بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه أنه قال: جل الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف. وهذا أيضاً صريح من الشبلي أن القديم سبحانه لا حد لذاته ولا حروف لكلامه. وسئل عن قوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [طه: ٥] فقال الرحمٰن لم يزل والعرش محدث، والعرش بالرحمٰن استوى.

وعن سلالة النبوة معدن الفضائل والعلوم والفتوة جعفر الصادق[١] رضي الله تعالى عنه أنه قال: من زعم أن الله سبحانه في شيء أو من شيء أو على شيء قد أشرك بالله تعالى، إذ لو كان على شيء

---

(١) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط (٨٠ ـ ١٤٨هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٦٥ م) الهاشمي القرشي، أبو عبد الله الملقب بالصادق، سادس الأئمة الأثني عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. له «رسائل» مجموعة في كتاب، مولده ووفاته بالمدينة. الأعلام ٢/ ١٢٦، ووفيات الأعيان ١/ ١٠٥، والجمع ٧٠، وحلية ٣/ ١٩٢، وصفة الصفوة ٢/ ٩٤.

لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً. ولو كان من شيء لكان محدثاً.

وقال كثير من الأئمة الكبار من المشايخ العارفين المحققين والأصوليين النقاد المدققين: استوى معناه استولى، كما قال الشاعر:

قَدْ استوى بشر على العراقِ　　　مِنْ غيرِ سيف ودم مهراق

وقيل للشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: أعرشي أنت أم كرسيّ؟ فقال: الطينة أرضية، والنفس سماوية، والقلب عرشي، والروح كرسي، والسر مع الله بلا أين.

قلت: وهذا القول صريح في نفي الجهة عن خالق الجهات المتعالي عن الحركات والسكنات وسائر سمات المخلوقات.

وقيل للشيخ يحيى بن معاذ الرازي رضي الله تعالى عنه: أخبرنا عن الله تعالى، فقال إلٰه واحد، قيل له فكيف هو؟ فقال ملك قادر، فقيل أين هو؟ قال بالمرصاد، فقال السائل لم أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا كان صفة المخلوق، فأما صفته تعالى فما أخبرت عنه.

وقيل لصوفي: أين الله؟ قال: أسحقك الله، تطلب مع العين أين؟

وقال محمد بن حبوب خادم الشيخ أبي عثمان المغربي رضي الله تعالى عنه: قال الشيخ أبو عثمان: لو قال لك أحد أين معبودك إيش تقول؟ قلت أقول حيث لم يزل، قال: فإن قال فأين كان في الأزل إيش تقول؟ قلت أقول حيث هو الآن.

قلت: يعني أنه كما كان، ولا مكان، فهو الآن على ما عليه كان، قال: فارتضى منه ذلك. ونزع قميصه وأعطانيه.

وقيل للشيخ أبي الغيث رضي الله تعالى عنه: لما خلق الله تعالى النار أين كان؟ فقال كان أقرب إليها منها، وأقدر عليها منها. وقال أيضاً: ليس لذات الله تعالى أمام ولا خلف ولا فوق ولا تحت ولا ميمنة ولا ميسرة بحال. وقال أيضاً: إن الله ربنا تعالى شيء لا يعرف أحد منا؟ ما هو ولا أين هو يقيناً.

وقال الشيخ أبو عثمان المذكور: كنت أعتقد شيئاً من حديث الجهة، فلما قدمت بغداد زال ذلك عن قلبي، فكتبت إلى أصحابنا بمكة إني أسلمت جديداً.

وقال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني رضي الله تعالى عنه: لما قدمت من بغداد كنت أدرس في جامع نيسابور مسألة الروح وأشرح القول في أنها مخلوقة، وكان الشيخ أبو القاسم النصراباذي قاعداً متباعداً عنا يصغي إلى كلامنا، فاجتاز بنا بعد ذلك بأيام قلائل، فقال لمحمد الفر: أشهد أني أسلمت على يد هذا الرجل، وأشار إليّ.

قلت: وهذا القول من الشيخ أبي القاسم المذكور تواضع وإنصاف، ورجوع إلى الحق، واعتراف مع جلالة قدره، فإنه كان شيخ وقته، وكذلك قول الشيخ أبي عثمان السابق، وكل هذا مما

يدل على أنهم مطهرون من الحظوظ النفسية، متصفون بالصفات الزكية أهل الحضرة القدسية.

وقال الشيخ أبو بكر الواسطي رضي الله تعالى عنه: ما أحدث الله تعالى شيئاً أكرم من الروح، وهذا أيضاً صريح بأن الروح مخلوقة.

وقال أبو القاسم النصراباذي المذكور: الجنة باقية بإبقائه وذكره لك، ورحمته ومحبته لك باق بقائه، فشتان بين ما هو باق ببقائه وبين ما هو باق بإبقائه.

قلت: وهذا القول في نهاية التحقيق، فإن مذهب أهل الحق أن صفات ذات القديم سبحانه باقيات ببقائه، وأفعاله باقيات بإبقائه.

وقال أبو إسحاق إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه: انتهيت إلى رجل وقد صرعه الشيطان، فجعلت أؤذن في أذنه، فناداني الشيطان من جوفه دعني أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق.

قلت: وكذلك بلغني أنه صرع الشيطان بعض الرافضة، فنادوا له فقيهاً شافعياً أعرفه ليقرأ عليه، فقرأ ثم قال للشيطان اخرج، فقال ما أخرج عنه فإنه يبغض أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، وأهل المصروع وغيرهم من الرافضة يسمعون.

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: سئل بعض العلماء عن التوحيد، فقال: هو اليقين، قال السائل بين لي ما هو؟ فقال: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله تعالى وحده لا شريك له، فإذا عرفت ذلك فقد وحدته.

وقال الشيخ أبو علي الروذباري رضي الله تعالى عنه، وقد سئل عن التوحيد فقال: هو استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل وأفكار التشبيه والتوحيد في كلمة واحدة: ما كل تصوّرته الأوهام والأفكار فالله سبحانه بخلافه.

وقال الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: قال شيوخ هذه الطريقة على ما يدل عليه متفرقات كلامهم ومجموعاتها ومصنفاتهم في التوحيد أن الحق سبحانه موجود قديم واحد حكيم قادر عليم قاهر رحيم مريد سميع مجيد رفيع متكلم بصير متكبر قدير حي أحد باق صمد، وأنه عالم بعلم قادر بقدرة مريد بإرادة سميع يسمع بصير يبصر متكلم بكلام حي بحياة باق ببقاء وله يدان هما صفتان يخلق بهما مايشاء على التخصيص وله الوجه، وصفات ذاته مختصة بذاته، ولا يقال هي هو ولا هي أغيار له، بل هي صفات له أزلية ونعوت سرمدية، وإنه إحدى الذات ليس يشبه شيئاً من المصنوعات، ولا يشبهه شيء من المخلوقات، ليس بجسم ولا جوهر، ولا صفاته أعراض، ولا يتصور في الأوهام، ولا يتقدر في العقول، ولا له جهة ومكان، ولا يجري عليه وقت وزمان، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان، ولا تخصه هيئة ولا قدّ ولا تقطعه نهاية وحد، ولا يحله حادث ولا يحمله على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كون ولا ينصره مدد ولا عون، ولا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفك عن حكمته مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم، ولا يقال له أين ولا حيث ولا كيف. ولا يستفتح له وجود فيقال متى كان،

ولا ينتهي له بقاء فيقال استوفى الأجل والزمان، ولا يقال لم فعل ما فعل إذ لا علة لأفعاله، ولا يقال ما هو إذ لا جنس له فيتميز بأمارة عن أشكاله، يرى لا عن مقابلة، ويرى لا عن مماثلة، ويصنع لا بمباشرة ومزاولة، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، يفعل ما يريد ويدبر بحكمه العبيد، لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه إلا ما سبق به القضاء، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون، وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد أن لا يكون، خالق أكساب العباد خيرها وشرها ومبدع ما في العالم من الأعيان والآثار قلها وكثرها، ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه، ومتعبد الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه، ومؤيد نبينا ﷺ بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة، بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين والذكر، وحافظ بيضة السلام بعد وفاته ﷺ بخلفائه ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حجج الدين على ألسنة أوليائه، عصم الملة الحنيفية عن الاجتماع على الضلالة وحسم مادة الباطل بما نصب من الدلالة، وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله تعالى: ﴿**ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ [الفتح: ٢٨].

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: دلت هذه المقالات على أن عقائد مشايخ الصوفية توافق أقاويل أهل الحق في مسائل الأصول، بعد أن قال في أول العقيدة: اعلموا رحمكم الله تعالى أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، وصانوا عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، انتهى كلامه مختصراً.

وقال الشيخ أبو عبد اللَّه محمد بن إبراهيم الخبري، بفتح الخاء المعجمة وسكون الباء الموحدة وكسر الراء، الفارسي رضي الله تعالى عنه: أجمعت أئمة هذه الطريقة وسادات شيوخ الصوفية أولي الحقيقة على ما دلت عليه متفرقات أقوالهم ومجموعات أنفاسهم في مصنفاتهم في التوحيد، وتأسيسهم قواعد العقائد على أصح الأصول وأوضح السبيل، المصون عن التشبيه والتمثيل والنفي والتعطيل، لما عرفوا ما هو حق القدم وتحققوا بما هو نعت الحادث من العدم، على أن العالم بأسره جواهره وأعراضه وأجسامه لطيفه وكثيفه حادث، ومعنى العالم كل موجود سوى الله تعالى، والعالم في وجوده مفتقر إلى محدث مخصص أحدثه وخصصه بالوجود الجائز، وأن محدثه هو الله الذي لا إله غيره، الموصوف بالصفات الواجبة أزلاً وأبداً، وإن صفاته على مراتب ثلاث: المرتبة الأولى: الصفات النفسية، وهو أن الله تعالى موجود قديم واحد قيوم أحد فرد قائم بنفسه، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء. المرتبة الثانية: الصفات المعنوية، وهو أن الله تعالى حي بحياة، عالم بعلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، باق ببقاء لم يزل ولا يزال، وهذه الصفات معان قديمات كالذات قائمات بذات الله تعالى، لا يقال فيها أنها هو، ولا أغيار له، لا يشبه شيء منها شيئاً من صفات ما سواه تعالى وتقدس. المرتبة الثالثة: الصفات الفعلية المستندة إلى الصفات المعنوية حسب ما وردت في الكتب المنزلة وجرت بها ألسنة ذوي النبوة عليهم الصلاة والسلام. انتهى كلامه.

قال الشيخ الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: تعالى الله لا إله إلا هو، لا ضد له ولا ندّ له ولا شبه له ولا مثل له ولا ولد له ولا والد له ولا وزير له ولا نظير له، ولا يدرك كنه عظمته الأوهام، ولا تبلغ شأو كبريائه الأفهام، ولا يعتري ذاته المقدس التأثر والآلام والتغير والأسقام والسنة والمنام والافتراق والالتئام، جل عما يجول به الوسواس، وعظم عما تكيفه الحواس، وكبر عما يحكم به القياس، لا يصوره خيال، ولا يشاكله مثال، ولا ينوبه زوال، ولا يشوبه انتقال، ولا يلحقه فكر، ولا يحصره ذكر، قيوم أزلي، ديوم سرمدي، لا تحد أزليته بمتى، ولا تقيد أبديته بحتى، لا ينطلق عليه التعيين، ولا يتطرق إليه التأيين إن قلت أين؟ فقد سبق المكان، وإن قلت متى؟ فقد تقدم الأزمان، وإن قلت كيف؟ فقد جاوز الأشباه والأمثال والأقران، وإن طلبت الدليل فقد غلب الخير العيان، وإن رمت البيان فذرات الكائنات بيان وبرهان، أول آخر ظاهر باطن، تفانت الأوائل والأواخر في أزليته وأبديته، تفرد في الآزال بنعت العظمة والجلال، قبل الكون والمكان والدهور والأزمان والحين والأوان؛ فالمكان جواهر وأجسام خلقها، والدهر أوقات وأزمان قدرها، كل ذلك موسوم بالحدث، عرفنا المكان والزمان بتعريفه إيانا، ولو شاء كوننا ولم نعرف زماناً ولا مكاناً، وكوننا في المكان، وإن شاء كوننا ولا مكان، فعلمنا بأنا لا نكون إلا في مكان من قضايا عقلنا، وهذه القضايا هيأها لنا نعقل بها المعقول، ونعلم بها المعلوم، ولو شاء هيأ لنا غير هيأتنا؛ فعوالم قدرته غير محصورة، وغرائب مشيئته غير منكورة، وما نحن فيه من العالم بما نحن فيه من العقل والعلم عالم من عوالمه، ولا تستبعد قولي لو شاء كوننا في غير مكان، فقد كوّنَ المكان لا في مكان، إذ لو كان في مكان تسلسل فلا تحصر القدرة بعقلك، إذ العقل قوته أن يحصر الحكمة، فأما القدرة فلا يحصرها، فحدّث عن البحر ولا حرج، ومن هذا الأساس تمشت الأمور الأخروية، وعلمها من علمها، وأنكرها من عجز عقله عن إدراكها، فمن يكون المكان والمكون فيه والزمان والمقدر فيه عالماً من عوالمه، ويسيراً من عظيم قدرته، كيف يحصره الزمان والمكان، فما ظهر في عالم الملك والشهادة عالم الحكمة والعقل الموهوب لنا الذي نتصرف به موكل بهذا العالم، وهذا العالم من العرش إلى الثرى مع العقل الذي فهمه وعقله وعلمه وقسمه أجساماً وجواهر وأعراضاً عالم من عوالمه، فصور العالم وكل ما حواه، وهو العالم الذي عقله العقلاء بما فيه من الأرض والسماء والماء والنار والهواء والعرش والكرسي والجن والإنس والأفلاك والأملاك والألوان والأكوان والأجرام والاصطكاك، والشمس والقمر والنجوم إلى أعماق التخوم بالنسبة إلى العظمة الإلٰهية أقل وأحقر من خردلة بالنسبة إلى جميع العالم، ففرغ بالك عند ذلك من قياسك أنه سبحانه داخل العالم أو خارج العالم، فما أحقرك وأحقر علمك، فلو فتحت عين بصيرتك استحييت من قياسك وفكرك ووهمك وخيالك، أيها المحدود المحصور، ولا ينتج فكرك إلا محدوداً محصوراً وأيها المحيط به الجهات لا تحكم علمك إلا بالجهات، فالجهات من جملة العالم، وقد علم نسبته إلى عظمة الله جل وعز، فتبارك الله رب العالمين.

قلت: هذا الكلام من عقيدة الشيخ شهاب الدين المذكور اقتصرت منها على هذا القدر إذ استيعابها يقول.

وهذه عقيدة الشيخ الكبير شرف العارفين وإمام المعرفين أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد القرشي رضي الله تعالى عنه: الحمد لله الذي تقدست عن سمة الحدوث ذاته، وتنزهت عن الشبيه بصفة الجثث صفاته، ودلَّت على وجوده محدثاته، شهدت بوحدانيته آياته، الأول الذي لا بداية لأزليته الآخر الذي لا نهاية لصمديته، الظاهر الذي لا شك فيه، الباطن الذي ليس له شبيه، الحي الذي لا يموت ولا يفنى، القادر الذي لا يعجز ولا يعمى، المريد الذي أضل وهدى وأفقر وأغنى، السميع الذي يسمع السر وأخفى، البصير الذي يدرك دبيب النمل على الصفا العالم الذي لا يضل ولا ينسى، المتكلم الذي لا يشبه كلامه كلام موسى، كلم موسى بكلامه القديم المنزه عن التأخير والتقديم، لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع ولا بحروف ترجع، كل الحروف والأصوات والنداء محدثة بالنهاية والابتداء، جل ربنا وعلا وتبارك وتعالى، له العظمة والكبرياء، وله القدرة والسناء، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، حياته ليست لها بداية فالبداية بالعدم مسبوقة، قدرته ليست لها نهاية، فالنهاية بالتخصيص مخلوقة، إرادته ليست بحادثة، فالحادثة بالأضداد مطروقة، سمعه ليس بجارحة، فالجارحة مخروقة، بصره ليس بحدقة فالحدقة مشقوقة، علمه ليس بكسبي، فالكسب بالتأمل والاستدلال يعلم، ولا بضروري، فالضرورة على الإرادة والإلزام تلزم، كلامه ليس بصوت، فالأصوات توجد وتعدم، ولا بحروف، فالحروف تؤخر وتقدم، جل ربنا عن الشبه بخلقه، وكلّ خلقه عن القيام بكنه حقه، بل هو القديم الأزلي الدائم الأبدي، الذي ليس لذاته قدر، ولا لوجهه حد، ولا ليده زند، ولا له قبل ولا بعد، ليس بجوهر، فالجوهر بالتحيز معروف، ولا بعرض، فالعرض باستحالة البقاء موصوف، ولا بجسم، فالجسم بالجهة محفوف، هو خالق الأجسام والنفوس، ورازق أهل المجد والبوس، ومقدر السعود والنحوس، ومدير الأفلاك والشموس، هو الله الذي لا إلٰه إلا هو الملك القدوس، على العرش استوى من غير تمكن ولا جلوس، لا العرش له من قبل القرار، ولا التمكن من جهة الاستقرار، العرش له حد ومقدار، والشرب لا تدركه الأبصار، العرش تكيفه خواطر العقول وتصفه بالعرض والطول وهو مع ذلك محمول، والقديم لا يحول ولا يزول؛ العرش بنفسه هو المكان، وله جوانب وأركان، وكان الله سبحانه ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، ليس له تحت فيقله، ولا فوق فيظله، ولا جوانب فتعدله، ولا أمام فيحده، ولا خلف فيسنده؛ جل عن التحديد والتكييف والتقدير، والتأليف والتغيير والتصوير والشبيه والنظير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير السراج المنير، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله تعالى المدقق أبو القاسم الصقلي رضي الله تعالى عنه: لله عز وجل في عباده سر، وهو علم القدر الجاري عليهم وفيهم. ولهم وللعلماء بالله تعالى وبأمره ونهيه سر في درجاتهم ومقاماتهم ومراتبهم وأماكنهم، وهو علم المشاهدة عند الفناء، والمخاطبة عند البقاء. وللعارفين بالله تعالى من الأولياء والصديقين سر في أحوالهم ومقاصدهم، وهو علم الرحمة والفضل والجود والكرم والسعة والإحسان؛ فإظهار سر العارفين بالله تعالى فساد للعامة، وإظهار سر العلماء بالله فساد للخاصة، وإظهار سر الله فساد للخاصة والعامة.

وقال أيضاً: الآفات المبطلة في العلم والعمل لاحقة بأهل البدع وإن أخلصوا الدين والدعوة لمباينتهم الأصل وهو الاتباع، والآفات المفسدة لاحقة بأهل السنة ما فارقوا الصدق في الأصل والإخلاص في الفرع، وإن كانوا متبعين لم تنفعهم مفارقة أهل البدع مع الشرك الأصغر.

قلت: فجميع هذا الذي ذكرته معتقد الشيوخ العارفين الأولياء المقربين، أهل العلوم اللدنية[١] والأنوار الساطعة، ومعتقد الأئمة العالمين النظار المحققين، أهل الحجج المفحمة والبراهين القاطعة، وكلا الفريقين عددهم غير محصور، وفضلهم غير منكور، وقد ذكرت جماعة من الفريق الأول وعقائدهم التي لا تجهل.

وأما الفريق الثاني فعقائدهم في مصنفاتهم مذكورة، وفضائلهم في العلم والدين مشهورة، مثل الإمام أبي الحسن الأشعري، والإمام أبي بكر الباقلاني، والإمام أبي إسحاق الأسفرايني، والإمام أبي بكر بن فورك، والإمام النجيب ابن النجيب أبي المعالي إمام الحرمين والإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، والإمام عز الدين الرازي، والإمام ناصر الدين البيضاوي، والإمام عز الدين بن عبد السلام، والإمام محيي الدين النواوي، وغير هؤلاء العشرة الأئمة ممن لا يحصى من علماء الأمة ومن السلف والخلف من أهل السنة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، لكن بعضهم تكلم في تأويل الظواهر، وبعضهم اعتقد خلاف الظاهر ولم يتكلم في التأويل.

وممن حكى ذلك الإمام محيي الدين النواوي رضي الله تعالى عنه، مع كونه من جملة المحدثين العارفين، والفقهاء الفاضلين الورعين الزاهدين، الجامعين بين العلم والدين، حكاه في شرح صحيح مسلم في الحديث الذي قال فيه ﷺ «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[٢] الحديث. قال الإمام محيي الدين المذكور: هذا الحديث من أحاديث الصفات. وفيه مذهبان مشهوران للعلماء؛ ومختصرهما أن أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى، وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا نتكلم في تأويلها مع اعتقادنا تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق. والثاين مذهب أكثر المتكلمين وجماعة من السلف، وهو محكي عن مالك والأوزاعي رضي الله تعالى عنهما أنها تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها. فعلى هذا تأولوا هذا الحديث تأويلين: أحدهما تأويل الإمام مالك بن أنس وغيره معناه: تنزل رحمته تبارك وتعالى وأمره أو ملائكته، كما يقال السلطان كذا إذا فعله أتباعه بأمره. والثاني على سبيل الاستعارة ومعناه: الإقبال على الداعي بالإجابة واللطف، والله سبحانه أعلم، انتهى كلام الإمام النووي رحمه الله تعالى.

---

(١) علم لَدُني: علم رباني يصل لصاحبه عن طريق الإلهام (مو).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (التطوع ب ٢٢)، (السنة ب ٢٠)، والترمذي في (السنن ٣٤٩٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٦٤، ٢٦٧)، وأبو عوانة في (المسند ١/ ١٤٤)، ومالك في (الموطأ ٢١٤).

وقال الإمام حجة الإسلام أو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه: ما أسهل على العارف إرشاد الجاهل بأن يقول: إن كان المراد من النزول إلى سماء الدنيا ليسمعنا فما سمعنا، فلا فائدة في النزول، وقال أيضاً: الاستواء على العرش بطريق القهر والاستيلاء كما قال غيره من الأئمة. قال واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل ما اضطر أهل الباطل إلى تأويل قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ [الحديد: ٤] إذ حمل بالاتفاق على الإحاطة والعلم، وحمل قوله ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمٰن»[١] على القدرة والقهر، وحمل قوله ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه»[٢] على التشريف والإكرام، إذ لو ترك على ظاهره للزم منه المحال، فكذلك الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن للزم كون المتمكن جسماً مماساً للعرش إما مثله أو أكبر أو أصغر، وذلك محال، وما يؤدي إلى المحال محال، تعالى الله عن ذلك المقال.

قلت: وهذا الذي قاله حجة الإسلام هو نحو مما قاله شيخه الإمام المحقق الناقد المدقق إمام الحرمين.

وسئل الإمام البارع صاحب البرهان القاطع، إمام الحرمين المذكور رضي الله تعالى عنه ببغداد: هل الباري سبحانه على العرش؟ فقال في الجواب: خلق العرش من درة، وهو بالنسبة إلى قدرته أقل من ذرة، فكيف يكون مستقره؟

قلت: لقد أجاد بهذا الجواب الوجيز البالغ المفحم الدامغ، فالعرش وإن كان أعظم المخلوقات، فهو لا شيء في جنب عظمة الخالق عز وجل.

وقال الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام رضي الله تعالى عنه في عقيدته الجليلة المشهورة بعدما ذكر اعتقاد أهل الحق في مسائل الأصول واحتج بالمعقول والمنقول[٣] قال: هذا إجمال من اعتقاد الأشعري واعتقاد السلف وأهل الطريقة والحقيقة، نسبته إلى التفصيل الواضح كنسبة القطرة إلى البحر الطافح.

يعرفه الباحث من خلقهِ　　　وسائر النَّاس له مُنكر

---

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٨، ٩)، وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٩٩)، والطبري في (التفسير ٣/ ١٢٦)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٤١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٥٥٧).

(٢) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٤٧٤٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ١٠٨، ٣٤٤، ٤/ ٤٥١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٦/ ٣٢٨)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١١٣) وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/ ٨٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤١٧)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٢٢٣).

(٣) المنقول: علم المنقول: فاعلم من طريق الرواية أو السماع، كعلم اللغة أو الحديث ونحوهما، وهو يقابل المعقول.

غيره:

لقد ظهرتَ فلا تخفى على أحد إلاَّ على أكمه لا يعرفُ القَمَرا

قلت: وعقيدته المذكورة فائقة الملاحة بالفضيلة مشكورة، لحسن التصرف في العلوم ونجابة الفروسية في ميدان مبارزة الخصوم.

وكذلك العقيدة القدسية للإمام حجة الإسلام جمعت بين الملاحة والفصاحة، والترتيب العجيب والأسلوب الغريب، والفوائد الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، والعبارة البارعة والبراهين القاطعة، وغير ذلك من المحاسن الفائقة والمعاني الرائقة، فهاتان العقيدتان مع الاختصار من ملاح عقائد العلماء الأخيار، وعقيدتان أخريان من ملاح عقائد المشايخ الأخيار العارفين أولي الأسرار، عقيدة الشيخ أبي عبد اللّه القرشي، والشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنهما، على عبارتهما نور المعارف وطلاوتها ورونقها وحلاوتها وشرفها وجلالتها، مما ليس على عبارة علماء الظاهر.

قلت: وكذلك أصحاب هذه العقائد الأربعة المذكورات الملاح، ملاح باهجو النور، وفضلهم وجلالتهم وعلمهم وصلاحهم مشهور، وذكر ذلك يستدعي مصنفاً مستقلاً بلا مصنفات. أما الشيخان المذكوران العارفان بالله عز وجل، فما خصا به من المعارف والأسرار والأحوال والأنوار وكثرة الكرامات والبركات قد ملأ البلاد وخرج عن الحصر والتعداد. وأما الفقيهان الإمامان المذكوران، فكثرة فضائلهما وعلوّ شأنهما في العلم والدين، كذلك قد شاع في الآفاق ذكره، وتعذر عده وحصره وقد قدمت ما اشتهر في البلاد، وورويناه بالإسناد عن الشيخ الكبير أبي حسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه، أنه رأى النبي ﷺ في المنام باهى بالإمام أبي حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه موسى وعيسى وعلى نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام. وما روينا أيضاً من ضربه ﷺ المنكر عليه واستحسانه ﷺ وصاحبيه، رضي الله تعالى عنهما كتاب الإحياء المشتمل على عقيدته المذكورة في المنام العظيم الذي رآه الشيخ الكبير أبو الحسن المذكور المشهور بابن حرازم رضي الله تعالى عنه، وكذلك الإمام عز الدين بن عبد السلام رضي الله تعالى عنه، من المشهور أن النبي ﷺ أرسل إليه بالسلام مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي المذكور.

قلت: ولقد استشارني بعض فقهاء اليمن في عقيدة يعتمد عليها، فأشرت عليه بعقيدة الإمام ابن عبد السلام المذكور خوفاً عليه من عقيدة القائلين بالجهة والحروف في بعض اليمن، لما في العقيدة المذكورة من الرد عليهم والطعن فيهم، فأخبرني أنه قد أشار عليه بها الإمام المحدث أحمد بن أبي الخير اليمني رضي الله تعالى عنه، فأعجبني منه ذلك لكونه من جملة المحدثين، وطائفة منهم يعتقدون الظواهر، وقد رآه بعض الأخيار جالساً مع النبي ﷺ فلم يعرفه، فسأل النبي ﷺ عنه، فقال ﷺ: هذا من هو على سنتي حتى مات أحمد بن أبي الخير.

قلت: وناهيك بهذه الشهادة منه ﷺ له باتباع سنته وهو أشعري الاعتقاد، فلزم من جميع هذه المنامات المذكورات في رؤيته ﷺ التي هي حق كون اعتقاد الأشعرية حقاً، وسأذكر أيضاً ما يؤيد ذلك في منامات أخرى يأتي ذكرها بعد إن شاء الله تعالى.

قلت: فجميع هذا الذي ذكرته معتقد أئمتنا من الأولياء والعلماء رضي الله تعالى عنهم، وهو مذهب أهل السنة من السلف والخلف، وقد صنف أئمتنا رضي الله تعالى عنهم في ذلك مصنفات كثيرات جليلات نفيسات مبسوطات، ومختصرات معروفات مشهورات أقاموا فيها الدلائل الظاهرات والبراهين القاطعات من المعقولات والمنقولات، وهذا الكتاب عن إيرادها يضيق، بل كثرة الطعن والجدال به لا يليق، وإذ قد ذكرت عقائد أئمتنا، فها أنا أذكر الآن عقيدتي معهم على وجه الاختصار، وحذف حجج الأصوليين النظار، فأقول وبالله سبحانه التوفيق.

الذي نعتقده أن أحاديث الصفات ليست على ظاهرها، وأن لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى، ولا نقطع بتعيين تأويل منها، بل نكل ذلك إلى العليم الخبير، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وكذلك نعتقد ما اعتقده العارفون والعلماء أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استوى منزها عن الحلول والاستقرار، والحركة والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، لا يقال أين كان ولا متى كان، كان ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان، تعالى عن الجهات والأقطار والحدود والمقدار، ولا يحل في شيء ولا يحله شيء، كل يوم هو في شأن، في أفعاله لا في ذاته وصفاته، لا تهتدي عقول العقلاء إلى إدراك كنه ذاته المقدس، وصفاته العظمى، **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾** [البقرة: ٢٥٥].

وقد جمعت المسائل المعتمدة من العقائد في ثلاث من القصائد، تحريت في جمعها ما هو عند أهل الحق الصواب، وأودعت جميعها كتاباً وبعضها كتباً غير هذا الكتاب، وها أنا أذكر هنا من قصيدة خمسة عشر بيتاً مشتملة على العقيدة، وهي هذه:

علا ربنا عنْ كيفٍ أو أين أو متى ... وعنْ كل ما في بالنا ينصور
ونقص وشبه أو شريك ووالد ... وولد وزوجات هو الله أكبرُ
قديمُ كلام حين لا حرف كائن ... ولا عرض حاشا وجسم وجوهرُ
مُريد وحي عالم متكلم ... قدير على ماشا سميع ومُبصر
بسمع وعلم مع حياة وقدرة ... كذلك باقيها على الكل مصدر
وليسَ عليه واجب بل عقابه ... بعدلٍ وعن فضلٍ يثيبُ ويغفرُ
محكم شرع دون عقل وقد قضى ... بخير وشر للجميعِ مقدرُ
ورؤيته حق كذاكَ شفاعة ... وحوض وتعذيب بقبرٍ ومنكر
وبعث وميزان ونار وجنة ... وقد خلقا ثم الصّراط وتصدر
عظيمُ كرامات عن الأوليا وقد ... محا شرعنا الغالي الزكي المُطهر
شرائع كل المُرسلين وأحمد ... خيار الورى المولى الشفيع المصدر
وأصحابه خير القرون وخيرهم ... على وفق ما قد قدموا ثم أخروا
نجومُ الهدى كل عدول أولوا الندى ... فضائلهم مشهورة ليس تنكرُ

وأفضلهُم صديقهم صاحب العلا ورابعهم في الفضل ذو الفضل حيدرُ
وتخليد نار ليسَ إلاَّ لكافرٍ وقبلتنا من أمها لا يكفر
فها هي حوت مع صغرها ما عاهُ لا يرى في كثير من عقائدِ تكبرُ
عقيدة أهل الحق في خمس عشرة من النظم تجزي من لها يتدبر

قلت: وقولي: «ورابعهم في الفضل ذو الفضل حيدر» إشارة إلى المشهور الراجح عند الجمهور من أهل السنة، أن علياً رضي الله تعالى عنه هو رابع الأربعة الخلفاء رضي الله تعالى عنهم في الفضل، كما هو رابعهم في الخلافة، اقتداء بالصحابة رضي الله تعالى عنهم في تقديمهم وترتيبهم لهم في الخلافة هذا الترتيب، وإلى هذا أشرت في قصيدة أخرى مشتملة أيضاً على عقيدة أهل الحق بقولي:

وقدم أبا بكر كما للُعلى علا وبالليث ربع ذو المقام العلى على
كما قدموهمُ هم نجوم الهُدى فعنْ هداهم فلا تعدل بذلك تعدل

قلت: وهذا القول هو الذي اقتصرت على ذكره في جميع تأليفي، والقول الآخر أن علياً رضي الله تعالى عنه هو الثالث في الفضل، وعثمان رضي الله تعالى عنه الرابع، والتقديم في الخلافة له وجوه غير الأفضلية، وهذا القول ذهب إليه ذاهبون من أهل السنة أيضاً.

قلت: وعندي الآن تردد بين ترجيح هذا القول الآخر، وبين التوقف في الترجيح والإمساك عن التفضل بين السيدين الفاضلين المذكورين، كما توقف عمر رضي الله تعالى عنه فيهما وفي باقي الستة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

قلت: وقد سمعت في المنام وأنا في بعض السياحات أناساً يتجادلون في الاعتقاد في مسألة الجهة، وإذا واحد منهم يقول: إن لم يكن جهة فليس للوجود صانع، تعالى الله عن ذلك القول، ثم بعد ذلك سمعت صوت إنسان يعاقب، ثم جاء ناس فسألت بعضهم عن ذلك الذي يصرخ من هو؟ فأخبروني أنه الشخص المعتقد الجهة، الذي قال القول المذكور، ثم رأيت كأني في طريق واسع، وإذا قد دهمني بجند كأنهم عسكر سلطان ركبان على خيل وحدها أو معها هجان وهم يمسكون الناس ويمتحنونهم في اعتقادهم، فداخلني منهم خوف، وخشيت أن يمسكوني، فمروا بجنبي وقالوا لي: اثبت على اعتقادك فأنت على الحق، ولم يتعرضوا لي بمكروه، فذهب عني الروع ثم ذهبوا، فرأيت بقربي بئرين وخضرة كالبساتين أو المزارع هناك، وإذا إنسان يقول: هذا بئر فلان، وذكر بعض العلماء، ثم قال: حسب أنها أوسع، أو قال: أغزر ماء من البئر الأخرى، وأشار إلى أنه أخطأ في وهمه، ثم استيقظت فأفكرت في منامي ففهمت إشارات إلى أشياء في المنام المذكور حذفت ذكرها هنا، وبقيت متحيراً في إشارة البئرين ونسبة أحدهما إلى الرجل المذكور واختصاصه بها من بين الناس وظنه أنها خير من البئر الأخرى، ثم ذكرت بعد ساعة أن الشخص المذكور باعتقاد الجهة مشهور مخالف للجمهور، ففهمت عند ذلك معنى ذلك.

قلت: وأخبرني بعض الفقراء من الصوفية أرباب الإشارات، أنه اجتمع بجماعة من معتقدي الجهة، وذكر لهم بعض الناس في معرض المدح له، فقالوا له ذلك أشعري، قال فدخل في نفسي شيء، فرأيت النبي ﷺ في تلك الليلة في المنام، فقلت له: يا رسول الله ﷺ ما تقول في فلان؟ فقال ﷺ: أنا وهو يوم القيامة كهاتين، وأشار بأصبعيه.

قلت: وأخبرني أيضاً أنه ﷺ رأى في يده كتاباً من تأليف الشخص المذكور مشتملاً على العقيدة المذكورة، فأجازه ﷺ روايته في منام آخر مبارك طويل.

وأخبرني أيضاً بعض الأولياء أهل النور والحال المشكور أنه رأى النبي ﷺ سمى ذلك الشخص صاحب العقيدة المذكورة شيخاً ورعاً، ودعا له بالتوفيق، وأوصاه بوصية، وقال لبعض أصحابه من الفقراء والفقهاء: أوصيكم بما أوصيت به إمامكم، وذلك أيضاً في منام مبارك طويل، وهذا مختصر الجميع.

قلت: قد أشرت في هذا الكتاب إلى موافقة الحقيقة الشريعة، وذكرت شيئاً من أقوال علمائها المصرحة باتفاقها وإلى الاتفاق المذكور أشار الإمام الكبير المشهور أعني السيد الجليل عالي المقام عز الدين بن عبد السلام رضي الله تعالى عنه في قوله المتقدم، هذا إجمال من اعتقاد الأشعري واعتقاد السلف وأهل الطريقة والحقيقة نسبته إلى التفضيل الواضح، كنسبة القطرة إلى البحر الطافح، يعني بأهل الطريقة والحقيقة الصوفية، ولقد أحسن بعضهم حيث قال: المعتزلة نزهوا الله تعالى من حيث العقل فأخطأوا، والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا.

قلت: فإذا علم جميع ما ذكرته من أقوال الفريقين المصرحة باتفاق الطريقين، فاعلم أنه قد اشتهر عن بعض الأكابر، وهو الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه، أنه كان يعتقد الجهة، وقد استغرب هذا منه وعد شاذاً في ذلك عن أئمة المشرق، كما عد الإمام ابن عبد البر رضي الله تعالى عنه شاذاً في ذلك عن أئمة المغرب لكن قد أخبر الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير نجم الدين الأصفهاني رضي الله تعالى عنه، أن الشيخ الإمام العارف بالله تعالى المشهور عبد القادر الجيلاني المذكور رضي الله تعالى عنه، رجع آخراً عما كان يعتقده أولاً، ذكر ذلك لما بلغه أن السيد الجليل الإمام الحفيل ذو المجد الأثيل والوصف الحميد تقي الدين بن دقيق العيد، رضي الله تعالى عنه، تعجب من السيد الكبير الإمام الشهير الجامع بين علمي الباطن والظاهر الحسيب النسيب ذي الشرف والمفاخر محيي الدين عبد القادر المذكور في اعتقاده للجهة مخالفاً للجمهور.

قلت: ومثل الشيخ نجم الدين الأصفهاني إذا أخبر فعلى الخبير سقط المخبر، إذ هو من أهل الاطلاع ظاهراً وباطناً، لكونه من أهل النور والكشف المشهور، وكون العراق له وطناً وصحبته المشايخ هنالك والعلماء، وعقد النبي ﷺ له للولاية أحد عشر علماً، وأخبرني بالرجوع عن الاعتقاد المذكور، وبعقد الأعلام المذكورة غير واحد من أصحاب الشيخ نجم الدين المذكور عنه رضي الله تعالى عنه، ممن لا أشك والله في صدقهم.

قلت: ومن كلامه الذي في مناقبه مسطور، ما ينفي عنه ما نسب إليه من الاعتقاد المذكور، ويشهد له بجواهر الحكم ويواقيت المعارف وابتهاج النور، وهو هذا النسيج العجيب والأسلوب الغريب والدر المنثور، قال رضي الله تعالى عنه: نودي في معاقل الآفاق وفجاج الأكوان ومعالم المصنوعات، أن سلطان الصفات القديمة وملك النعوت العظيمة يريد أن يمر على مسالك العوالم، ويبدو في مشاهد الشواهد، فحدقوا عقولكم وصفوا سرائركم وقيدوا أفكاركم وغضوا أبصاركم وأحضروا بلاغتكم وكفوا مناطقكم وألسنتكم، فبرز من جناب العزة سنا بارق مجلل بالعظمة متوج بالجلال مكلل بالكمال آخذ بنواصي الأنوار، قاهر لمعاني الأسرار، فتجلى في حلل لطفه وتلطفه، ودنا بتقربه وتعرفه، له مطالع ومشارق، ولوامح وبوارق، وشواهد ومناطق، ومعارف وحقائق، وعوارف ومناشق، تجلو مطالعة الرحمٰن على العرش استوى، وتسفر مشارقه وسع كرسيه السمٰوات والأرض، وتوضح لوامعه يداه مبسوطتان، وتكشف بوارقه وهو معكم، وتبدي شواهده والسمٰوات مطويات بيمينه وتفصح مناطقه والله من ورائهم محيط، وتنادي معارفه وهو السميع البصير، وتنطق حقائقه ليس كمثله شيء، وتشهد عوارفه لا تدركه الأبصار، وتتأرجح مناشقه وقل الله ثم ذرهم، وظهرت معه بدائع صنائع القدم في أحسن صورة من بهجة الكمال البارز من حريم العزة، عليها من ملابس الجمال غرائب العجائب، فطاف به طائف من ربك في طرائق الملكوتات، ومصونات المصنوعات، ومكنونات الكائنات، فوقع الكل في مهاوي البهتة، وتاهوا في مهامه الدهشة، وإذا النداء من حضرة القدس: ألست بربكم، فقالوا بلسان الذل والخضوع في مقام الإقرار بوحدانية الإلٰهية: بلى، وأشهدهم على أنفسهم بقيام الحجة، يوم تشهد عليهم ألسنتهم، فتبع الخلائق ذلك البارق وسلكوا نحوه طرائق، فاقتفى قوم آثاره، ولم يستضيؤوا هدى من علم ولا آثاره بل حكموا العقول ومقاييسها، واتبعوا الأهوية وأباليسها، فمنهم طائفة ضلوا في تيه التمويه، ووقعوا في التجسيم والتشبيه، فأولئك الذين أهلكهم الشقاء حين ابتلى أخبارهم وأولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، ومنهم فرقة صاروا في أضاليل التعطيل، ومنهم عصابة هلكوا بأباطيل الحلول، وأغرقوا فأدخلوا ناراً، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً، ومنادي التوحيد والتنزيه ينادي في صفحات الوجود، أن سلطان الصفات القديمة وملك النعوت العظيمة أتي الآن في مقر العز والجلال، ومظل القدرة والكمال، ما انتقل إلى مكان، لم يتغير عما عليه كان، يحتجب بجلال عزته في تعالي كبريائه وعظمته، فوجم العرش من خوف البطش، إذ جعل محلاً للافتراء أو مجالاً للامتراء، وصاح بلسان الرهبة من البعد بأرباب الغيبة عن الرشد: إني منذ خلقت في دهشة الوله، ووحشة التحير، لمع لي من جناب الأزل بارق: ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] فلما صوبت نظري إلى نفسي وقع حده على جرم السماء، فانطبع فيه رقم ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ [البقرة: ٢٩] فبهت فيها نظري وشخص إليه بصري، فطمحت إشراقات أنواره إلى عالم الثرى فانتقش في طيّ مكنوناته مكتوب ﴿واسجد واقترب﴾ [العلق: ١٩] فأنا رهين غربتي، وأسير حيرتي، وقرين زفرتي، لا أسمع غير الأخبار، ولا أشهد إلا الآثار، واتبع قوم سبيل الرشاد في إشراق أنواره، ونصبوا الشرع أمامهم واتخذوا الحق إمامهم، واقتدوا بعساكر التوفيق جنداً جنداً، وسيقت إليهم ركائب التأييد وفداً وفداً،

وشموس الهداية تسري معهم، وعيون العناية ترعى مرتعهم وتجمعهم، فأوصلهم الصدق في اتباع الحق إلى مسالك التوحيد ومعاقل التمجيد، وعلت بهم الرتب إلى مقام محو الريب وسقوط الكيف والشبه والحدود، ووجوب التنزيه والإجلال لواجب الوجود، وألاح السعد لهم من بين منابع أنواره بالتنزيه وإليها درجات عظمة العز والكبرياء وراء هيبة الجلال والبقاء، أفقاً بالتوحيد مقمراً، وجواً بالتقديس مزهراً، وصبحاً بالتمجيد مسفراً، وجناباً باللطف أنيساً، ورواقاً بالعلو محروساً فرتعوا في روضات أضاءت، وجنوا ثمرات صلات اتصالات، وأرسلوا أنفاس اشتياقهم إلى حضرة وصل خلاقهم، وأودعوا كل نفس عشقاً، مع كل عشق شوق، مع كل شوق ألم، مع كل ألم حرقة، مع كل حرقة زفرة، مع كل زفرة حسرة، مع كل حسرة غصة، في طي كل غصة قصة مضمونها قد طال شوقنا إليك فعجل قدومنا عليك، فجاء الجواب طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني إلى لقائهم لأشد شوقاً، وحف هذا الجواب بنظرات من الحبيب إلى أشواق تلك القلوب، مع كل نظرة تغاضي، وفي كل نظرة تراضي، وبكل نظرة تقاضي، والتغاضي عن الهجر، والتراضي بالوصل، والتقاضي بالمشاهدة؛ فلما انقطع القريب، وغفل الرقيب، ولم يبق إلا المحب والحبيب، جذب من عالم القال إلى عالم الحال، فهو بين استهلاك في نعوت جمال المشاهدة، وفناء في عالم جمال المكاشفة، وبه الخصائص حلوة المداناة والمؤانسة، ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠].

قلت: فهذا كلامه رضي الله تعالى عنه محتوياً على التوحيد والتنزيه، مصرحاً بنفي التجسيم والتشبيه، مفصحاً بكون الحق تعالى لم ينتقل إلى مكان، ولم يتغير عما عليه كان، جامعاً بين فصاحة العبارة، وملاحة الاستعارة، وحلاوة نظم الدر في سلك معارف الأنوار، وطلاوة تناسب الكلام في سبك محاسن الأسرار:

معـارفُ ليـسَ يـدريهـا ويعـرفُهـا إلاَّ خبيـر معـانـي الحُسـن يـألفهـا
مشـاهـداً فـي حمـاهـا حُسـنَ طلعتهـا عـن المُحيـا سـتـور الحسـن يكشفُهـا

قلت: ومن كلامه أيضاً في التنزيه ونفي التشبيه: ربنا الله تعالى القريب في علوه المتعالي في دنوه، بارىء الخلق بقدرته ومقدر الأمور بحكمته، والمحيط بكل شيء بعلمه، تمت كلمته، وعمت رحمته، لا إله إلا هو، وكذب العادلون به ومن دعا له ندًّا أو اعتقد له شبيهاً أو سميًّا، وسبحان الله عدد خلقه، وزنة عرشه، ورضا نفسه، ومداد كلماته، ومنتهى علمه وجميع ما شاء وخلق وذرأ وبرأ عالم الغيب والشهادة الرحمٰن الرحيم، الملك القدوس، العزيز الحكيم، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا شبيه له ولا نظير ولا عون ولا ظهير، ولا شريك ولا وزير، ولا ند ولا مشير، ليس بجسم فيمس، ولا جوهر فيحس، ولا عرض فينتفي، ولا ذا تركيب فيتبعض، ولا ذا آلة فيمثل، ولا ذا تأليف فيكيف، ولا ذا ماهية مخيلة فيحدد، ولا طبيعة من الطبائع، ولا طالع من الطوالع، ولا ظلمة تظهر، ولا نور يزهر، حاضر الأشياء علماً من غير ممازجة، شاهد لها اطلاعاً من غير مماسة، قاهر حاكم، قادر راحم، غافر ساتر، خالق فاطر، فرد معبود، حي لا يموت، أزلي لا يفوت، أبدي الملكوت، سرمدي الجبروت، قيوم لا ينام، عزيز لا يضام، منيع لا يرام، له الأسماء الحسنى، والصفات العلى والمثل الأعلى،

والجد الأبقى، لا تتصوره الأوهام، ولا تقدره الأفهام، ولا يدرك بالقياس، ولا يمثل بالناس، ولا تكيفه العقول، ولا تحده الأذهان، جل أن يشبه بما صنعه، أو يضاف إلى ما اخترعه، محصي الأنفاس، قائم على كل نفس بما كسبت، لقد أحصاهم وعدهم عدًا، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً، يُطعِم ولا يُطعَم، يَرزق ولا يُرْزَق، يجير ولا يجار عليه، خلق ما ابتدع، لا لاجتلاب نفع، ولا لدفع ضرّ، ولا لداع دعاه، ولا لفكر حدث له، بل إرادة مجردة عن تغييرات الحدثان، فهو المتفرد بالقدرة على اختراع الأعيان، وكشف الضر، وإزالة البلوى، وتقليب الأعيان، وتغيير الأحوال، يسوق ما قدر إلى ما وقت، لا معين له في تدبير ملكه، حي بحياة غير مكتسبة، ولا مسبوقة، عالم بعلم غير محدث، ولا محجوب ولا متناه، قادر بقدرة غير محصورة، مدبر بإرادة غير بادية ولا متناقضة، حفيظ لا ينسى، قيوم لا يسهو: رقيب لا يغفل، يقبض ويبسط، يرضى ويغضب، يغفر ويرحم، أوجد وأعدم، فاستحق أن يقال له قادر، أزاح علل مخلوقاته وأبداها كاملة الوصف، فاستحق أن يقال له رب أجرى أفعال عباده على مقتضى مراده منهم، فاستحق أن يقال له إله، لا يتجدد له علم، ينافي علمه في القدم، فاستحق أن يقال له عالم على الحقيقة، لا يشابه ذاته ولا صفاته ذات ولا صفات، فوجب أن يقال ليس كمثله شيء، كل قائم فقيامه بديمومية أزله، كل حي فحياته مستفادة بأمره، إن ضرب العقل لعزته مثلاً أو جال العلم في جلاله جدلاً، وقف الفهم مللاً، ودهش الفكر كللاً، ولاح التعظيم جللاً، ولم يجد للتنزيه بدلاً، ولا عن التوحيد حولاً، وجاءت جيوش التقديس قبلاً تسلك سبل التفريد ذللاً، حجب الألباب برداء كبريائه عن معرفة كنه ذاته، حسر الأبصار بنور بقائه عن إدراك حقيقة أحديته، فإن نهضت غايات علوم الخلائق تقفو خبراً، وشخصت نهايات معارف الممالك تتلمح أثراً، تألق لها بارق من الأزل مبرقعاً بنقاب الكمال عن نقائص التشبيه، فلم يستطع مجاورة سناه، ومحقت مداركها وانفعالات قواها في اتصالات أوصاف القدم بنعوت الأبد، اتصالاً لم يزل غير مسبوق بانفصال ولا صابر إلى انفصام، وبدت من جناب القدس الأشرف هيبة تميت العلل، وانفراد يمنع التعدد، ووجود يحيل الحد، وجلال ينفي الكيف، وكمال يسقط المثل، ووصف يوجب الوحدة، وقدرة تبسط الملك، ومجد يستنفد المحامد، وعلم محيط بما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وما في قعر البحار، ومنبت كل شعرة شجرة، ومسقط كل ورقة، وعدد الحصى والرمال، ومثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وأعمال العباد وآثارهم وأنفاسهم، وما هو باين من خلقه، ولا يخلو مكان من علمه، فرجعت ليس لها علم سوى التصديق بأحديته، والإقرار أن لا أول لقدم أزليته، ولا آخر لبقاء أبديته، ولا كيف ولا مثل يدخلان في صمديته، تعرف إلى خلقه بصفات ليوحدوه، ويثبتوا وجوده لا ليشبهوه، فالإيمان يثبتها بعلم اليقين تصديقاً، والاطلاع على علم حقيقتها غيب لا مجال للعقل في إدراكه، وكلما حكاه الوهم، أو جلاه الفهم، أو تخيله العقل، أو تصوره الذهن فعظمة الله سبحانه وجلاله وكبرياؤه بخلاف ذلك، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

قلت: وإذ قد ذكرنا شيئاً من أقوال المشايخ في موافقة الشريعة في أصول السنة فلنذكر شيئاً من حكاياتهم التي وقعت لهم مع أهل البدع، ونقتصر منها في هذا الموضع على سبع من الحكايات المليحة الثابتة بالأسانيد الصحيحة.

الحكاية الأولى

ما روي بصحيح الإسناد في سيرة الشيخ العارف بالله تعالى المعروف بالصياد اليمني رضي الله تعالى عنه، أنه وقع في بعض بلاد اليمن مناظرة بين الشافعية والزيدية، وهو حينئذٍ في ذلك البلد، فقام رجل من الزيدية وقال: يا مسودة، يعني أهل السنة يخرج منا رجل ومنكم رجل ونلقيهما في بعض البيوت أربعين صباحاً فمن خرج من بعد الأربعين سلمنا لما هو عليه وأصحابه، فقال أهل السنة: والله ما نقدر على هذا الأمر فنحن أهل علم لا غير، وأما هذا الأمر فلا نقدر عليه ولا نلقي أنفسنا في التهلكة، فقال بعضهم لبعض: يا قوم الصياد في هذه المدينة فامشوا بنا إليه فهو يخلصنا من هؤلاء؛ قال: فلم أشعر بهم حتى أقبل إليّ رجل منهم، فسلم عليّ وحياني ثم قال: يا صياد معنا جماعة من الزيدية، قالوا لنا كذا وكذا، وذكر القصة، ثم قال: أنت لها يا أبا العباس، فقلت له: إذ قد رضوا بهذا الأمر فها أنا قاعد أرغم آنافهم بإذن الله تعالى، فبينما نحن كذلك، إذ أقبل الجماعة كلهم من السنية والزيدية، فاتفقوا على رجل منهم وأخلوا إليّ وله منزلاً، فدخلت أنا وهو في ذلك المنزل، فكنت في بعض البيت وهو في بعضه، ثم ملؤا لكل واحد منا مشعله وتركوه عنده.

قلت: يعني بالمشعل الركوة، هكذا يسميها أهل اليمن، ولا أدري من أين أخذوا هذه التسمية، ولعلهم يشبهونها بالمشعل المعروف الذي يحمل بين يدي الأمراء والكبراء، لأنهم كذلك يحملون ركوة كبيرة بين يدي الكبراء من الشيوخ والعلماء لأجل الوضوء والغسل، والله تعالى أعلم.

قال: فقعدنا ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع لم أشعر به حتى أقبل وجعل يقبل رأسي ويقول: يا سيدي لا تقل فيّ إلا أني كنت كافراً وقد أسلمت؛ أنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، وأشهد أن أهل السنة على الحق ونحن على الباطل، وأنا التائب إلى الله تعالى على يديك من صحبة الزيدية ومن أن أقول بأقوالهم، وأنا من أهل السنة وأهل السنة مني، ثم خرج في اليوم الرابع وأنا كرهت الخروج حتى وفيت أربعين صباحاً، ثم خرجت فاستن على يدي جمع كثير من الزيدية، وكانت تلك المدينة أكثرها زيدية. قال الراوي: فقلت له: كم كان أهل السنة؟ فقال: أقل من العشر، فرجع الكل على مذهب أهل السنة والجماعة.

الحكاية الثانية

من المشهور أن فقيهاً شريفاً من فقهاء الزيدية في جبال اليمن قال لأصحابه: أريد أن أجتمع بالفقيه ابن عجيل وأبحث معه، فإما تبعني في مذهبي، وإما تبعته في مذهبه، فقال له أصحابه: نخاف عليك من الشافعية يسحرونك، فقال: لا بد لي من ذلك، ثم سافر حتى قدم على السيد الجليل الإمام الحفيل الولي الكبير العارف بالله تعالى الشهير أحمد بن موسى بن عجيل رضي الله تعالى عنه، فقال له: ابتدىء يا شريف الحاجة التي جئت من أجلها، ما أنا فارغ لها، ولكني أكتب لك كتاباً إلى الشيخ ابن يغنم، فقال: ما جئت إلا إليك، فقال: ما عليك حاجتك تنقضي إن شاء الله تعالى، فكتب معه كتاباً إلى الشيخ العارف بالله تعالى المعروف بابن يغنم.

قلت: هو بفتح الياء المثناة من تحت والنون وإسكان الغين المعجمة بينهما، وإنما كتب له إليه ليطمئن قلبه وإلا فهو يعرف أن الشيخ المذكور لا يحتاج إلى كتاب، إذ هو ممن أطلعه الله تعالى على ما في بواطن العباد، عارف بالسؤال والجواب؛ فلما صلى الشيخ الصبح قال للفقراء: إذا قدم عليكم شريف من صفته كذا وكذا فأنزلوه في المكان الفلاني وأكرموه، فإذا سألكم عني فقولوا له هو مشغول في هذا الوقت، فإذا تفرغ فهو يقف عليك، ثم انصرف الشيخ إلى خلوته؛ فلما وصل الشريف أنزلوه في المكان الذي عينه الشيخ وضيفوه وعلفوا دابته، فسألهم عن الشيخ فقالوا له ما قاله الشيخ لهم؛ فلما كان وقت الهاجرة واشتد حر الشمس خرج الشيخ إليه، فلما قرب منه قال: مرحباً بك يا شريف، نعم الناس أنتم لو سلمتم من كذا وكذا؛ وذكر المسائل التي جاء ليناظر فيها، ولم يكن أطلع على ما في قلبه من المسائل أحداً، فقال الشريف: سبحان الله أنا ما جئت إلا حتى أبحث معكم في هذه المسائل وأظهر لكم أن الحق فيها معنا. وكان من جملة المسائل التي جاء من أجلها وذكرها له الشيخ مسألة القدر، فشرع يبحث فيها ويستدل على أن أفعال العباد ليست بخلق الله تعالى ومشيئته، بل بمشيئة العبد ما شاء فعل وما شاء ترك، فقال الشيخ رضي الله تعالى عنه: ذلك إن كان فعلك بمشيئتك فقم، أو قال: فاقعد، فلم يستطع ذلك، وذهب الشيخ وخلاه مصلوباً في الشمس لا يقدر يتحرك، فأجهده الحر واشتد به الكرب، فاستغاث بالشيخ واستغفر الله تعالى من ذنبه وتاب من مذهبه فأذن له الشيخ بالانصراف، فرجع إلى بلاده وأعلم أصحابه بما جرى له، فقالوا له: قلنا لك إن الشافعية يسحرونك.

الحكاية الثالثة

روى واشتهر واستفاض أن الشيخ الكبير الولي الشهير محمد بن زاكي المقري في حراز[1]، بفتح الحاء المهملة ثم الراء والزاي في آخره، من بلاد اليمن رضي الله تعالى عنه، قرأ عليه بعض المبتدعين القراءات السبع وحققها، واجتمع له الإتقان وحسن الصوت؛ فلما رجع إلى بلاده أعجب أصحابه تحقيقه وحسن صوته، فقالوا له: ما أحسن هذه لو كان شيخك منا، فقال: وما عليّ من ذلك، أخذت العسيلة وتركت الظرف، فبلغ الشيخ محمد بن زاكي ذلك، فقال لأصحابه: اقرأوا سورة يٰس حتى ترجع إلينا عسيلتنا، فقرأوها فذهب حفظ ذلك الشيخ وبقي لا يعرف شيئاً من القرآن أصلاً، فعرف من أين أتى، فجاء إلى الشيخ المذكور تائباً مستغفراً من مذهبه، ودخل في مذهب الشيخ المذكور وهو شافعي المذهب، ثم ابتدأ يتعلم القرآن كما يتعلم المبتدىء، وبلغ إلى خمس روايات؛ ثم مات رحمه الله تعالى.

الحكاية الرابعة

ما اشتهر عن بعض شيوخ اليمن ممن أعرفه أنه سافر إلى بعض البلاد لبعض مصالح العباد،

---

(١) حَراز: مخلاف باليمن قرب زبيد، سمي باسم بطن من حمير وهو حراز ويكنى أبا مرثد بن عوف (معجم البلدان ٢/ ٢٣٤).

فبات في مسجد في بعض نواحي اليمن فدخل عليه بعض المبتدعة من أهل ذلك البلد، فخلاه حتى نام ثم أخذ بعض ثيابه وقام يريد الخروج فلم يجد الباب، فدور له حتى تعب فلم يجده وعجز عن الذهاب، فرد الثوب فوجد الباب في الحال، فاعترف بما كان ينكر من كرامات الأولياء ذوي الأحوال رضي الله تعالى عنهم وعن جميع الصالحين، ونفعنا والمسلمين ببركتهم آمين.

الحكاية الخامسة

ما روي بصحيح الإسناد واشتهر في آفاق البلاد عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى المعروف بابن الزعب، بكسر الزاي وسكون العين المهملة وبالباء الموحدة، اليمني رضي الله تعالى عنه، أنه كان يتكرر للحج وزيارة النبي ﷺ ماشياً من أقصى اليمن، ويمدح النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله تعالى عنهما بقصيدة عند قدومه إلى المدينة الشريفة ينشدها تجاه الضريح الطيب الطاهر، فلما فرغ في بعض زياراته من إنشاد قصيدة في مدحهم جاءه بعض الرافضة والتمس منه أن يمشي معه إلى بيته على جهة الإيهام لإرادة الضيافة والإكرام فمشى معه، فلما صار في داره أخرج له عبدين فلزماه حتى قطعا لسانه، ثم أعطاه إياه وقال له: اذهب به إلى اللذين مدحتهما به ليرداه لك مكانه، فأخذ لسانه بيده وخرج متوجهاً إلى سيد الوجهاء ﷺ وشرف وكرم حتى وقف قريباً من الضريح الشريف تجاه وجه الوجيه الكريم الرؤوف بالمؤمنين الرحيم عليه أفضل الصلاة والتسليم، فشكى وبكى، فلما كان تلك الليلة رآه ﷺ في النوم وعنده صاحباه رضي الله تعالى عنهما وقد علاهم من الكآبة والحزن ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ثم قال ﷺ: «ما شاء الله أن يقول في حق قاطع اللسان المذكور»(١)، ثم أدنى الشيخ إليه وأخذ لسانه بيده المباركة الكريمة ورده مكانه، فانتبه ووجد لسانه في مكانه صحيحاً، فسافر إلى بلاده ثم عاد للحج والزيارة، فمدح النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله تعالى عنهما على عادته، فلما فرغ من المدح أتاه إنسان وطلب منه أن يذهب معه إلى بيته، فذهب معه فجاء به إلى الدار التي لا ينكر، وقال له: ادخل، فدخل واثقاً بالله سبحانه ومتوكلاً عليه، فأكرمه ذلك الإنسان وبالغ في الإكرام، فلما فرغ من أكل الطعام جاء به إلى مكان في داره وإذا فيه قرد فقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا، فقال: هذا الذي قطع لسانك مسخه الله عز وجل إلى ما ترى وأنا ولده، انتهى كلامه.

قلت: والدار التي قطع لسانه فيها معروفة بدار القاشاني، رقدت ليلة في دكة بجنبها على قصد الاستخفاء به من المعارف والبعد من الأمكنة المطروقة، فرأيت على ذلك المكان غبرة ووجدت عنده ذعرة خلاف ما كنت أجد من الأنس وحلاوة الخلوات في المزابل والخرابات، وخرج إليّ أهل تلك الدار وفي أيديهم شعل من النار، فنظروا في وجهي وقالوا: نحن سلاطين البلاد، ولا ندع أحداً يبيت عندنا حتى نعرفه، فإيش أنت؟ قلت: أنا فقير، أو قلت: أنا غريب، فقالوا: ارقد ما عليك إلا خير،

---

(١) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٠)، والبغوي في (شرح السنة ٤/ ١٩٤، ٣٧٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٣٤٨، ٣٥٣٩٨).

فأبيت أن أبيت هنالك، وقمت إلى مكان آخر فبت فيه، ثم أعلمت أن تلك الدار هي الدار المذكورة، وما كنت أعرف أنها هي ولا أن أحداً يسكنها من أمراء المدينة.

الحكاية السادسة

عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير شيخ الطريقة وإمام الحقيقة عبد الله بن علي الأسدي بإسكان السين المهملة رضي الله تعالى عنه قال: كنت أنا والصياد متواخيين بمدينة زبيد، يعني الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أحمد بن أبي الخير الصياد المذكور في الحكاية الأولى رضي الله تعالى عنه قال: وكنا معتكفين بمسجد الجامع، فلما كان آخر دولة الحبشة سمعنا بظهور علي بن مهدي وإقبال الناس عليه، وكونه يعظهم وهو في الهواء لا شيء يقله، فسمعنا به في قرية من قرى وادي زبيد، فقال لي الصياد، يا أخي سر بنا نشاهد هذا الرجل، إن كان كما زعموا صالحاً تبركنا بزيارته فتقدمت أنا وهو في يوم الأحد الثالث عشر من شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة إلى أن وصلنا إلى مكانه، فوجدنا معه خلقاً كثيراً وهو يطعمهم التمر ويقدمونهم على المآكل أفواجاً أفواجاً، وقد نصبوا له خشباً من النخل، وبنوا له على رأسه بيتاً لا يطلعه إلا بدرجة، فلما وصلنا قعدنا في طرف الناس إلى أن أكلوا جميعهم وصاح صائحهم: من كان لم يأكل قليأت، وإلا فلا يلومن إلا نفسه، فلم يجبه أحد وطلعوا إليه بغذائه، وقد أبصرنا ولم نشعر بذلك، فأشار لبعض أصحابه أن يأتينا، فأتانا وقال: أجيبوا الإمام، ثم قال: صلوات الله عليه فكرهنا، فلم يزل بنا حتى مشينا معه، فلما وصلنا إليه وسلمنا ورحب بنا وبش بشاشة عظيمة وقدم الطعام، فقلنا: ما لنا به حاجة نحن صيام ولم نأكل معه شيئاً، فقال لنا: أريد من تفضلكما أن تصحباني إلى مسجد الفاذة، فأجبناه إلى ذلك، وخرج معنا في ذلك الوقت وقد تغذى، فأخذنا طريق الساحل إلى أن وصلنا، فدخلنا المسجد جميعاً بعد صلاة الضحى، فركعنا ما شاء الله تعالى، وقعدنا وعليّ بن مهدي لم يقعد بل يطالع من الباب ساعة ومن الطاقة ساعة، فلم يزل كذلك حتى دخل فرمى نفسه في المحراب، وقال: أنا جاركما من هذا الشخص الذي وصل إلينا، فتقدمنا إلى الباب فإذا بزيلعي يمشي على البحر طويل وبيده عصا يتوكأ عليها، فلما وصل إلينا سلَّم علينا ودخل المسجد، فلما رأى علي بن مهدي زعق عليه زعقة منكرة وقال: يا شيطان يا فتان تدخل هذا المسجد، اليوم أقتلك وأخلص الناس منك، وحمل عليه بالعصا ليضربه، وكنا ندفعه عنه ونسأله بالله سبحانه أن يشفعنا فيه فقد استجار بنا، فلم نزل كذلك حتى هدأ وركع ركعتين في المسجد وودعنا وخرج يمشي على الماء في طريقه الذي جاء فيه، ورجع علي بن مهدي إلى حالته الأولى يطالع من الباب تارة ومن الطاقة تارة، فما كان بعد ساعة أخرى حتى أقبل ورمى نفسه في المحراب وقال: أنا جاركما من هذا الذي وصل إلينا.

قلت: يعني مستجيراً بكما منه.

قال: فقمنا وطالعنا وإذا برجل بدويٍّ أقبل من طريق طويل، وهو يمشي وبيده عصا؛ فلما وصل إلى المسجد سلم علينا فلما رأى عليّ بن مهدي في المحراب صاح عليه صيحة منكرة مثل الأول وقال: يا شيطان يا فتان ما تعمل في هذا الموضع، اليوم أريح الناس منك، وحمل عليه بالعصا

ليضربه، فلم نزل ندفعه عنه ونسأله بالله أن يتركه فقد استجار بنا، فلم يتركه إلا بشدة عظيمة وركع ركعتين في المسجد وودعنا ورجع في طريقه التي وصل منها، فقال علي بن مهدي: أنا أريد أن تصحباني إلى الموضع الذي وجدتماني فيه، فقال له الصياد: ما بقينا نصحبك ولا نمشي معك، فلم يزل بنا حتى أنعمنا له أن نصحبه إلى قرية الأهواب، بالباء الموحدة؛ فلما خرجنا معه إلى القرية المذكورة تركناه ورجعنا إلى زبيد في ذلك اليوم، فأقمنا بها مدة يسيرة، فلما كان في شهر رجب في سنة أربع وخمسين وخمسمائة كثرت العساكر معه، وخرج إلى قرية من قرى وادي رِمَع(١) ، بكسر الراء وفتح الميم، وظهر منه ما ظهر، وكانت عقيدته أنه يكفر بالذنب، فاستباح دماء الناس وعمل ما لا يخفى على أحد من أهل زمانه.

الحكاية السابعة

ما تقدم في الفصل الثاني من هذا الكتاب ثابتاً بالإسناد، أنه جاء جمع من الرافضة بقفتين مخيطتين إلى مجلس الشيخ أستاذ الشيوخ الأكابر قطب الأولياء محيي الدين عبد القادر رضي الله تعالى عنه وهو على الكرسي يتكلم على الناس، فقالوا له: قل لنا ما في هاتين القفتين، فنزل من الكرسي ووضع يده على إحداهما وقال: في هذه صبي مقعد، وأمر بفتحها ففتحت فإذا فيها صبي مقعد، فأمسك بيده وقال له: قم، فقام يعدو؛ ووضع يده على الأخرى وقال: في هذه صبي لا عاهة به، وأمر بفتحها وإذا فيها صبي فقام يمشي، فأمسك بناصيته وقال له: اقعد فأقعد، فتابوا عن الرفض على يده، ومات في المجلس يومئذٍ من الحاضرين ثلاثة.

قلت: ومن كلام الشيخ عبد القادر المذكور المشتمل على التنزيه ونفي التشبيه أيضاً، مع فصاحة العبارة وملاحة الاستعارة والألفاظ الفائقة والمعاني الرائقة قوله رضي الله تعالى عنه في إبراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم: كان طفل «نور إبراهيم الخليل ﷺ، مربى في مهد عطف لطف القدم، تحت ظل شجرة الكرم، يروحه روح الفضل بنسيم ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ [الأنبياء: ٥١] حين جمع القدر ذوات الذوات وأرواح النسمات في مجلس عهد ﴿وإذ أخذ ربك﴾ [الأعراف: ١٧٢] ونطق رواق ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢] فكان فصيح رشده، ولسان سعده من أول من خطب على منبر الولاء بكلمة بلى، فقرعت مسامع سره لذة ﴿سلام على إبراهيم﴾ [الصافات: ١٠٩] وطافت عليه سقاة الأزل بسلاف(٢) راح أقداح ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [النساء: ١٢٥] فانصرع متواجداً على بساط وله عشقه، لاستيلاء نشوة سكر ومقه(٣) ورمقه، ودبت حمياً الأشواق في شغاف

---

(١) وادي رمع: يتلو وادي زبيد، وهو وادٍ حارّ ضيق، أوله من أشراف حجران وغربي ذي خشران إلى وادي الشجنة ويُهريق فيه من يمينه جنوب ألهان وأنيس ومن شاليّه شمالي بلد جمع وسرية حتى يرد سحنان فسلك بين جبلين العركة وجيلان ريمة فظهر فنُوال فسقى مزارعها إلى البحر، وفي أسفل رمع موضع الماء الذي كان يسمى غسان. (معجم البلدان ٣/ ٦٨).

(٢) السُّلاف: الخمر أول ما تُعصر، وما سال وتحلَّب من عصير العنب قبل العصر، وأخلص الخمر وأفضلها.

(٣) ومقه: أحبه.

قلبه، وملك سلطان الغرام حمى لبه، وبقي مطروحاً بين تلك النسم في حظائر ﴿وأشهدهم﴾ حتى آن أوان ظهوره في سرادق الزمان في دولة نمرود بن كنعان، فنهض ينشق للحي ذلك النسيم في براري الوله، يهيم طالباً للتفرد في مجلس بلي وقد لذ له التهتك في الحب وحلا، والشوق يجدد بالي باله، والعشق يثير دفين بلباله، وخرج الخليل الجليل من المغارة وقد أضرم الوجد في قلبه ناره، فدهش ناظره فكره وعين سره إلى وجه عرائس الفلك، وقال فما دام حاله لمسامر جماله ﴿قرة عين لي ولك﴾ [القصص: ٩] وأشرقت أشعة بصيرته في عرصات الاعتبار بألمع ومض، وتألق به بارق ﴿نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ [الأنعام: ٧٥] بأحداق مشربه، ببرقان توق شوقه، بهيمان سكر عشقه، فما تراءى لعين قلبه لائح إلا خاله المطلوب، ولا بدا لناظر سره طالع إلا ظنه المحبوب:

فكلمـــا لاحَ شـــيءٌ ظـــنَ طلعتـــه   الســاقي يُخــاطبُـه فـي كفـهِ القـدحُ

والليل قد صبغ ثوب الكون بظلمته، ومد على بساط البسيطة أذيال خيمته، وبستان الفلك قد أزهر، ونور الجد قد ظهر، وثغر الفضاء قد ابتسم، ووجه الوجود قد أدهش النسيم، وجمال الأنوار قد رفعت عنه أستار السحب، ومنزه الأبصار قد قطعت دونه الحجب، والخيمة الزرقاء تجلى كالعروس كمالاً ودلالاً، والقبة العلياء كالثمل، مائس الأعطاف يميناً وشمالاً، وروضة السماء قد أينعت بزهر الكواكب، وبحر العلا قد ماج بدرر الشهب الثواقب، ومنازل النجوم قد اختلفت صفاتها في درج المشارق والمغارب، فالمشتري كالصب الغرق النشوان، أو كالمحب القلق السكران، والمريخ كجذوة نار غرام في قلبه واله مستهام، والثريا كعاشق ناحل من ألم البين، لم يبق فيه الجوى منظراً سوى الرأس والعين، والجوزاء كسرادق سلطان المحبة، وقد دخل قرية روح المحب وملك قبله، والصبا كرسول الحبيب إلى مهج الأحباب يبلغ رسالة هل من داع هل من تائب؟ هلموا إلى الباب، هذا والغرام غريم قلب المحب، والوجد حريف روح الطالب، والشوق طيف فكر الحبيب، والوله مستول على سر المريد، والعشق القديم قد ظهر على ذات إبراهيم، فبدا له جمال وجه الزهرة بحلة السنا في تلك الحضرة يشرق في أشعة ضبابه، ويرفل[1] في حلة بهائه، يسير بين مواكب الزهر في جيوش الفلك كأنه في هالة دارة كمال الملك، فقال لسان نظره لفهم فكره: إن كان هذا يتصرف في تسياره على مقتضى اختياره تصرف القادرين، وينتقل في منازل السماء كما يشاء تنقل المختارين، فسأقول له بلسان حي عن قلبي ﴿هذا ربي﴾ [الأنعام: ٧٧] وإن كان لا يملك أزمة أحواله، ويخالف مبدؤه هيأة مآله، وكان تحت حجر سابق القدر، تعتوره مختلفات الغير، ولا يدفع عن نفسه من خصمه واقع الضرر، فالمطلوب سواه يجيب من دعاه، فلما حالت عليه بين الصفين خيول الأفول، ووقع بين الجيشين عند النزول وغرق في بحر الظلمة بعد ما طفى وغاب مستترا في معاطف الأفق واختفى، اتضح لناظر فكره معنى حقيقة أمره، فقال بلسان صفاء اليقين ﴿لا أحب الآفلين﴾ [الأنعام: ٧٦] ثم طلع القمر بازغاً في برج كماله باهراً في نور جماله، قد أشرق إيوان السماء بتوقد أنوار أشعته، وبعث عساكر الأضواء بين يدي دولته، فقال هذا أجلّ سلطاناً وأرفع مكاناً، فإن سلم سيره من

---

(١) رفل: جرّ ذيله وتبختر في سيره. يقال: رفل في ثيابه؛ أي: أطالها وجرها متبختراً.

الاعوجاج والتغير والانزعاج والأفول والطلوع والتقدم والرجوع، فسأقول له بلسان فهمي عن لبي ﴿هذا ربي﴾ فلما استتر وجه بهجة معاليه بنقاب خفائه وتواريه، واختطفت أنواره يد الآفاق، واستولى على نوره المحاق، وقطع القدر علاقة وجوده بسيف العدم، وغاص في لجة الثرى غوص منهزم، ووقف مطلق دليله بمقيد تحصيله، فقال بلسان تحقيق المرسلين. ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ [الأنعام: ٧٧] ثم بدا له سلطان أضواء الشمس في جميع جيوش مهابة الإشراق، فآنس وحشة النفوس، وشرح ضيق الصدور، وفسح مد الأحداق. وضرب سرادقات مواكب أنواره في إيوان السماء، ومد رواق كتائب لألائه في آفاق الفضاء، وركب سناه على الجدي كالطراز المذهب على الحلة الزرقاء، فسجدت لجلال عزته جباه أشعة الكواكب، وعنت لكمال هيبته وجوه الطوالع والغوارب، وانهزمت من سطوة محبته عساكر النجوم الزاهرة؛ وانخسفت لجمال بهائه بدور الجواري الباهرة، فقال هذا أعظم وأكبر وأزهر وأبهر وأشرق وأحرق وأسنى وأبهى؛ فإن سلم من مجاذبات القهر في مدارج سيره، ومنازعات الغلب في مناهج أمره فسأقول له بلسان فكري عن سري ﴿هذا ربي﴾ [الأنعام: ٧٧] فلما أزمعت دولتها على النقلة والارتحال، واحتجبت برداء الأفول والزوال، وانتهبتها أيدي الغير، وكرت عليها خيول القدر، وأظلم لغيبتها إيوان الأفق، ودار حول أقطار السماء نطاق الشفق، قال حاكم اعتباره لشاهد اختباره: أرى دولة متغيرة الوصف، يجب أن يكون لها مالك سواها، ومملكة متقنة الصنع لا بد أن يكون المدبر لها مولاها، إيوان ذمردي، وكون لازوردي، ونثرت يد القدر على بساطه الأزرق جواهر النجوم، ونسجت الرياح تحته بسدي الحكمة أردية الغيوم، وليل مظلم كلجة البحر المتلاطم، ونهار مشرق كوجوه البدور والتمايم، ومهاد بسط فوق بساطه فراش الحكم، ودل بإتقان صنعه على ثبوت القدم، وليس الأزل مما تكيفه الخواطر، ولا يدخل في كمية الأعراض والجواهر، فقال لسان التوحيد لمصيب الفهم: أيها الخليل الحركات والسكون والظهور والكمون والألوان والأكوان والمثاني والمباني والمألوف والتأليف والطوالع واللوامع من أوصاف المنشآت بعد العدم، بيد إرادة القدم، فلا تقس الأفعال الأزلية على مقايس فعلك، ولا تمثل الأوصاف الأحدية بما يتراءى لعين عقلك، فناداه منادي القدم بلسان لطف عطف الكرم: يا إبراهيم سر إلى جناب العزة، والتمس التمسك بأذيال أستار القدرة، وتوجه إلى حمى الجلال الأحدي، ووقف على باب الكمال الأزلي، واقصد الخلق الفرد في تدبير مملكته، واعبد الواحد الرب المقدس عن شبه خليقته، وضع في مسيرك إليه وتعويلك عليه قدمك الأولى على رأس قصة البراءة، أو قال قنة البراءة مما يشركون، وضع الثانية على ذروة شرف ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات﴾ [الأنعام: ٧٩] فقال لسان طربه بنيل أربه: إلى متى هذا الإعراض عمن لا عليه اعتراض، وفيم هذه المقاطعة لمن له الحجة القاطعة في النفل والفرض، والمحجة اللامعة في الطول والعرض. ﴿وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾ [الأنعام: ٧٩].

قلت: فهذا ما وعدت به من أقوالهم في موافقة الشريعة في الأصول.

وأما أقوالهم وأفعالهم الدالة على تعظيم الشريعة وموافقتها جملة في الأصول والفروع من الفروض والسنن وكل مشروع، فمن ذلك: ما رويناه عن الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى

عنه أنه قال: علمنا مقيد بالكتاب والسنة. وقال أيضاً: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة. وقال أيضاً: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقال أبو الفيض ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: من علامات المحب متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله، وأوامره ونواهيه وسننه. وقال أيضاً: مدار الكلام على أربع: حب الجليل، وبغض التعليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل. وقال أيضاً: علامة العارف ثلاث: لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحكم، ولا تحمله كثرة نعم الله تعالى عليه على هتك أستار محارم الله عز وجل.

وقال أبو زيد رضي الله تعالى عنه: لو نظرتم إلى الرجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ لحدود وآداب الشريعة. وقال أيضاً في رجل شهر نفسه بالولاية، فقصد زيارته فرآه رمى بزاقه تجاه القبلة حين دخل المسجد: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه؟ أو قال على سر من أسرار الله، وانصرف ولم يسلم عليه. وقال أيضاً: جميع ما أعطي الأولياء مما أعطي الأنبياء كزق مليء عسلاً فرشحت منه رشاحة، فتلك الرشاحة هي ما أعطي الأولياء، وما في باطن الزق ما أعطي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قلت: فمن يكون هذا القول قوله، وهذا الاعتقاد اعتقاده، وهذا الأدب أدبه، كيف يقال عنه إنه قال: خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله، فإن صح هذا القول عنه: فينبغي أن يحمل على صدوره عنه في حالة السكر، أو على أنهم وقفوا ليعبروا في ذلك البحر من رأوا فيه أهلية العبور، ويمنعوا من ليس فيه أهلية، أو ليدركوا من رأوه أشرف على الغرق، أو نحو ذلك مما فيه نفع الغير، كما يقف الأفضل يشفع في دخول الجنة، ويدخل المفضول، أو على ما قال بعضهم: إن وقوفهم وقوف صدور لا وقوف ورود، وعلى كل حال ما يظن في أبي يزيد إلا ما يليق بجلاله قدره وعلو مقامه وكبر حاله، وما اشتهر عنه من تعظيم الأنبياء وشرائعهم وحسن الأدب مع الجميع، وأقواله هذه المذكورة وغيرها تشهد له بما ذكرت، وقد تقدم الجواب عنه وعن غيره من المشايخ أصحاب الشطحات في السبعة المسالك، واعتذرت عنهم هنالك، رجعنا إلى ما نحن بصدده.

وعن أبي سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه أنه قال: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة.

وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله تعالى عنه: من عمل بلا اتباع سنة فباطل عمله.

وقال أبو حفص الحداد[1] رضي الله تعالى عنه: من لم يزن أفعاله وأقواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعده في ديوان الرجال.

---

(١) هو أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد (توفي حوالي ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م) من قرية يقال لها: كورداباذ في طريق بخارى، وكان أحد الأئمة والسادة (الرسالة القشيرية ص ٤٠٦).

وقال أبو عثمان الخيري رضي الله تعالى عنه: الصحبة[1] مع الله سبحانه بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول الله ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم.

قلت: وقد تقدم قوله هذا في الأدب، وهو كلام حسن، وإنما أعدته هنا لاشتماله على متابعة السنة.

وقال أيضاً: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة، قال الله سبحانه: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ [النور: ٥٤].

وقال أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه: من رأيته يدعي مع الله تعالى حالاً يخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربن منه.

وقال أبو محمد رويم رضي الله تعالى عنه: من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام ويضيق على نفسه فيها، فإن التوسعة عليهم اتباع العلم، والتضييق على نفسك من حكم الورع، وقال أيضاً: قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية، فإن الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالب هؤلاء أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق.

وقال أبو عبد اللّٰه عمرو بن عثمان المالكي رضي الله تعالى عنه: العلم قائد والخوف سابق والنفس حرون بين ذلك جموح خداعة رواغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسقها بتمهيد الخوف يتم لك ما تريد.

وقال بعضهم: يحتاج المسافر في سفره، أو قال السالك في سلوكه، إلى أربعة أشياء علم يسوسه، وفكر يؤنسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله.

قلت: وأما قول بعض العارفين: من تولاه رعاية الحق أجل ممن تؤدبه سياسة العلم، فهو في نهاية الحسن والتحقيق، لأنه بالرعاية من الحق سبحانه يكون معلماً ومؤنساً ومحفوظاً ومحمولاً، وغير ذلك مما هو خارج عن الأربعة التي ذكرها الأول.

وقال أبو الفوارس شاه ابن شجاع الكرماني رضي الله تعالى عنه: من غض بصره عن الحرام، وأمسك نفسه عن الشهوات، وغمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال لم تخط له فراسة.

وقال أبو العباس بن عطاء رضي الله تعالى عنه: من ألزم نفسه آداب السنة نور الله تعالى قلبه

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٩٤ ـ ٢٩٨.

بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه. وقال أيضاً: كلما سئلت عنه فاطلبه في مفازة العلم، فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد، فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان.

وقال أبو إسحاق إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم.

وقال أبو محمد سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه: الفتن ثلاث: فتنة العامة من إضاعة العلم، وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق وقت فيؤخروه إلى وقت ثان. وأصل الخير سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام. والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال أبو الحسن بنان الحمال رضي الله تعالى عنه: أجل أحوال الصوفية الثقة بالمضمون، والقيام بالأوامر، ومراعاة السرّ، والتخلي من الكونين.

وقال أبو حمزة البغدادي[١] رضي الله تعالى عنه: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول الله ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله.

قلت: وقد تقدم قول أبي الحسين النوري رضي الله تعالى عنه: ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة يسقط معها آداب الشريعة، وآداب الشريعة حلية الظاهر، والله سبحانه وتعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرقي: علامة محبة الله تعالى إيسار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ.

وقال أو علي ممشاد الدينوري رضي الله تعالى عنه: أدب المريد في التزام حرمات المشايخ وخدمة الإخوان والخروج عن الأسباب، وحفظ آداب الشرع على نفسه.

وسئل أبو علي الروذباري رضي الله تعالى عنه عمن يسمع الملاهي ويقول: هي لي حلال لأني قد وصلت إلى درجة لا تؤثر في اختلاف الأحوال، فقال نعم قد وصل، ولكن إلى سقر[٢]. وسئل عن التصوف فقال: هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل وقال: كان أستاذي في التصوف الجنيد، وفي الفقه أبو العباس بن سريج، وفي الحديث إبراهيم الحربي، وفي الآداب ثعلب.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه وقد ذكر قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال: هو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وأن العارفين أخذوا الأعمال عن

---

(١) هو أبو حمزة البغدادي البزاز (توفي ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م) مات قبل الجنيد، وكان من أقرانه، صحب السري والحسن المسوحي، وكان فقيهاً وعالماً بالقراءات، وكان من أولاد عيسى بن أبان، (الرسالة القشيرية ص ٣٩٥).

(٢) سقر: علم لجهنم، والكلمة ممنوعة من الصرف.

الله سبحانه، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرذرة، إلا أن يحال بي دونها.

قلت: قوله تكلموا بإسقاط الأعمال، إن كان المراد بإسقاط الأعمال، سقوط التكاليف عنهم من الأوامر والنواهي بزعمهم فهذا زندقة ومروق من الدين بالكلية ولا يعد صاحبه من المسلمين، فضلاً عن أن يعد من الصوفية، وإن كان المراد مجرد النوافل بحيث اقتصروا على الفرائض وتركوا الفرائض فهو نقص عظيم عند المحققين الأفاضل.

ومن المشهور أن الجنيد المذكور دخل عليه بعضهم وهو في سياق الموت محضور، فسلم عليه، فأبطأ عليه في ردّ السلام، ثم ردّ عليه وقال: اعذرني فإني كنت في وردي. وروي أنه ختم القرآن في حال نزعه، وكان يوم جمعة، فقيل له في مثل هذه الساعة يا أبا القاسم؟ فقال ومن أولى مني بذلك وها هو ذا أنا تطوى صحيفتي.

وقال أبو الخير الأقطع[1] رضي الله تعالى عنه: ما بلغ أحد إلى حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، وصحبة الصالحين.

وقال أبو بكر الكتاني رضي الله تعالى عنه، وقد نظر إلى شيخ أبيض الرأس واللحية يسأل الناس: هذا رجل أضاع حق الله تعالى في صغره، فضيعه الله تعالى في كبره.

وقال أبو يعقوب النهرجوري[2] رضي الله تعالى عنه: أفضل الأحوال ما قارن العلم وقال أيضاً: الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والتقوى مركب والناس سفر.

وروى الفقيه الإمام أبو زيد المروزي عن الشيخ العارف بالله تعالى إبراهيم بن شيبان رضي الله تعالى عنهما أنه قال: من أراد أن يتعطل أو يتنطل أو يتبطل فليلزم الرخص.

قلت: وهذان اللفظان المتجانسان الأول منهما يتنطل بالياء المثناة من تحت ثم التاء المثناة من فوق ثم النون، والثاني بالباء الموحدة عوض النون، هذا من حيث الضبط وأما من حيث المعنى فالكل ظاهر إلا قوله يتنطل بالنون فالظاهر والله تعالى أعلم أن ذلك بمعنى ما سمعت من بعض العرب يقولون فلان ناطل: يعنون ليس بجيد بل ساقط، ويقولون نطل الخبز من التنور[3] إذا سقط منه. ووقع في الرماد.

---

(١) هو أبو الخير الأقطع (توفي ٣٤٠ هـ/ ٩٥٢ م) مغربي الأصل. سكن تينات، وله كرامات وفراسة حادة، وكان كبير الشأن. (الرسالة القشيرية ص ٣٩٤).

(٢) هو إسحاق بن محمد النهرجوري (توفي ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م) أبو يعقوب، من علماء الصوفية. نسبته إلى نهرجور. رحل إلى الحجاز، وأقام مجاوراً بالحرم سنين كثيراً ومات بمكة. الأعلام ١/ ٢٩٦، والرسالة القشيرية ص ٤٣٨.

(٣) التَّنُّورُ: ضرب من الكوانين يُخبز فيه، أعلاه أضيق من أسفله.

وروي عنه أيضاً أنه قال: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غيرهما فهو المغاليط والزندقة.

قلت: لقد جمع هذا الكلام بين الحسن والتحقيق البالغ الدقيق الجامع للمعاني العزيزة في الألفاظ الوجيزة.

وسئل أبو العباس السياري رضي الله تعالى عنه: بماذا يروض المريد نفسه؟ فقال بالصبر على الأوامر، واجتناب النواهي، وصحبة الصالحين، وخدمة الفقراء، وسئل أبو العباس أبو محمد عبد اللّه بن محمد الرازي رضي الله تعالى عنه: ما بال الناس يعرفون عيوبهم ولا يرجعون إلى الصواب؟ فقال: لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ولم يشتغلوا باستعماله، واشتغلوا بالظواهر ولم يشتغلوا بأدب البواطن، فأعمى الله تعالى قلوبهم، وقيد جوارحهم عن العبادات.

وقال الشيخ العارف بالله تعالى المحقق الإمام السيد الجليل المدقق أبو القاسم الصقلي رضي الله تعالى عنه: ما أكثر طلاب علم الظاهر، وما أقل من يطلب تصحيح علم الباطن، وما أزكى صلاح أهل الباطن باتباع الظاهر، وما أكثر فساد أهل الظاهر بترك معرفة علم الباطن، وما أذهب دين أهل الباطن عند مخالفة الظاهر.

وقال أبو عبد اللّه بن خفيف رضي الله تعالى عنه: ليس شيء أضر بالمريد من مسامحة النفس في الركون إلى الرخص وقبول التأويلات، وسئل عن القرب؟ فقال: قربك منه بملازمة الموافقات، وقربه منك بدوام التوفيق؟

وقال أبو بكر الطمستاني[1] رضي الله تعالى عنه: من صحب الكتاب والسنة، وتغرب عن نفسه والخلق، وهاجر بقلبه إلى الله تعالى سبحانه فهو الصادق المصيب.

وقال أبو القاسم النصراباذي رضي الله تعالى عنه: التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

وقال الشيخ أبو العباس الصياد اليمني رضي الله تعالى عنه: العارف متعلق بالحقيقة، فإن سقط وقع في الشريعة.

قلت: معناه أنه أخذ بعزائم الشريعة التي هي طريقة الحقيقة، فإن نزل عن معالي تلك العزائم الرابحة وقع في أسافل رخص الشريعة المسامحة، أي إذا لم يكن رابحاً بالغنائم بالأخذ بالعزائم، كان بالأخذ بالرخص رابحاً للسلامة من الخسران وكسب الآثام والملامة.

وقال الشيخ أبو الغيث رضي الله تعالى عنه: أنا مقيد بشعرة من الشريعة. وقال أيضاً: إني لأرى

---

(١) هو أبو بكر الطمستاني (توفي بعد ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م) صحب إبراهيم الدباغ وغيره، وكان أوحد زمانه علماً وحالاً. مات بنيسابور. (الرسالة القشيرية ص ٤٢٣).

سيف القدرة معلقاً فوق رأسي بشعرة، وإن ملت كذا وكذا قطع رأسي: وقال أيضاً في أثناء كلامه. ولا شك أن برهان السعادة متابعة النبي ﷺ على ما قد جرت به العادة فرضاً ونفلاً، وبرهان الشقاوة بترك متابعته ﷺ يقيناً. وقال أيضاً: إن نار كل مخلوق عندنا مخالفة النبي ﷺ قولاً واحداً، وجنة كل مخلوق عندنا موافقته ﷺ.

قلت: يعني أن مخالفته ﷺ علامة استحقاق الشقاوة بالنار بمقتضى العدل، وموافقته ﷺ علامة السعادة بالجنة بمحض الفضل، لا أنهما مؤثرتان فيهما، إذ قد فرغ من السعادة والشقاوة عند أهل السنة. وقال أيضاً: إذا امتلأ القلب بحب الله العظيم صارت الحياة الدنيا بالشريعة يوماً، والحياة الأخرى بالحقيقة مثلها يقيناً، فإذا ما محيت صورة الحس والمحسوس يقيناً بقي القلب الحي للحي هنا وهناك بلا علة. وقال أيضاً: إن العوام يطلبون الحظوظ بإذن الشريعة والخواص يزهدون فيها بعلم الحقيقة، وربك أعلم بمن هو أهدي سبيلاً.

قلت: لا شك أن الزهد ندبت إليه عزائم الشريعة أيضاً، ولكن الظاهر والله تعالى أعلم أنه أراد بعلم الحقيقة كشف الغطاء، ومشاهدة حقائق الأمور، ومعاينة حقارة الدنيا في جنب الأخرى، والأخرى في جنب المولى تعالى، فزهدوا فيها زهد احتقار للحقير من الحظوظ عند مشاهدة الخطير من الجمال الملحوظ، فكأنه أشار إلى الزهد الحقيقي عندهم، الذي هو الزهد فيما سوى الله تعالى.

وقال أيضاً: إن العابد متزر بثوب علم الشريعة قطعاً ورسمها فريضة، والعبد متزر بثوب علم الحقيقة قطعاً ورسمها فريضة، وصاحب العبودة متزر بثوب ترك ما يهوى لأجل الله سبحانه بلا علة. وقال أيضاً: إن القضاء والقدر والمبرم عندنا قديماً مرتبط بعلم الشرع حديثاً، وكذا الخاتمة أيضاً مرتبة بلا إلٰه إلا الله يقيناً.

قلت: السعادة والشقاوة تابعتان في ظاهر تكليف الشرع للعمل، ومرتبطتان به بحسب الصلاح والطلاح، إن كان صالحاً كان صاحبه سعيداً، وإن كان طالحاً كان شقياً، وفي باطن الأمر وواجب الاعتقاد العمل تبع لهما بحسب سابقة المكلف، إن سبقت له السعادة كان عمله صالحاً أو خاتمة عمله، وإن سبقت له الشقاوة كان عمله غير صالح أو خاتمة عمله، وكذلك كلمة لا إلٰه إلا الله في كونها تابعة ومتبوعة على ما ذكرت، وقال أيضاً: إن طاعة الله تعالى بإذن الشرع حرم سر السعادة، ومعصية الله سبحانه بخلاف الشرع حرم سر الشقاوة. وقال أيضاً: إذا كانت الشريعة بالحقيقة فالحقيقة بالشريعة، ومن لم يكن هنا فليس هناك بحال.

قلت: قوله ومن يكن واقفاً مع هذا الحكم الذي ذكرنا، أو أراد بهنا الشريعة، أي واقفاً معها فقد يشار بهنا إلى الشريعة القريبة لتعلقها بالظاهر وعالم الشهادة القريبين وبهناك إلى الحقيقة البعيدة لتعلقها بالباطن وعالم الغيب البعيدين، وقد تكون الحقيقة هي القريبة بالنسبة إلى شيء آخر.

كما قال أيضاً رضي الله تعالى عنه: إذا أتت التوبة من قبل الحقيقة فالنداء من قريب، وإن أتت من قبل الشريعة فالنداء من بعيد، وقال أيضاً: لا شك أن طلوع الشمس على كل مكان ما هو مثل طلوعها من كل مكان، لأن طلوعها على كل مكان تبقى شريعة، وطلوعها من كل مكان تبقى حقيقة.

قلت: ومن هذا قالوا: من أشهد صار كله عيناً، ومن خوطب صار كله أذناً.

وقال أيضاً في جواب أجاب به سائلاً: الجواب أن من وجد الله تعالى لم يجد غيره، وإذا جعل إماماً غضب لله، وفعل بالناس كما فعل رسول الله ﷺ فيكون ظاهره موافقاً للنبي ﷺ، وباطنه موافقاً لله تعالى.

وقال أيضاً في جواب كتاب أتاه من بعض أئمة الأشراف وقد خرج في بعض بلاد اليمن ودعاه إلى بيعته: إنا نفر مذ سمعنا قوله تعالى: ﴿له دعوة الحق﴾ [الرعد: ١٤] لم يبق لإجابة الخلق فينا متسع، وليس لأحد منا أن يشهر سيفه على غير نفسه، ولا أن يفرط في يومه بعد أمسه، هذا بعض جوابه رضي الله تعالى عنه.

قلت: وله في الحقائق كلام عظيم مؤلف في كتاب صغير الحجم كبير القدر من جواهر بحر المعارف، التي لا يعرفها إلا من دخل في ذلك البحر، وإنما ذكرت هنا من كلامه ألفاظاً يسيرة متعرضة لذكر الشريعة في التعظيم لها والموافقة لحكمها.

وقال الشيخ أبو عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه: من حفظ آداب الشريعة صار إماماً للمتقين. وقال أيضاً: من تحقق في الشريعة اطلع على أسرارها. وقال أيضاً: إنما تحقق أهل الحقيقة في الشريعة.

قلت: وممن حفظ آداب الشريعة ووفى بها فصار إماماً للمتقين وتحقق في الشريعة حتى اطلع على أسرارها من العلماء الموفقين العارفين المحققين، ذو السيرة الجميلة والمناقب الجليلة والمجد الأثيل السني، أحمد بن موسى بن عجيل اليمني رضي الله تعالى عنه.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة، لأنهم اتبعوا أقواله ﷺ، فقاموا بما أمرهم، ووقفوا عما نهاهم، ثم اتبعوا أعماله من الجد والاجتهاد في العبادة والتهجد[1] والنوافل من الصلاة والصوم وغير ذلك، ورزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال للتخلق بأخلاقه ﷺ من الحياء والحلم والصفح والعفو والرأفة والشفقة والمداراة والنصيحة والتواضع، ورزقوا قسطاً من أحواله ﷺ من الخشية والسكينة والهيبة والتعظيم والرضى والصدق والتوكل، فاستوفوا جميع أقسام المتابعة، وأحيوا سننه بأقصى الغايات.

وقال الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه: تفقه ثم اعتزل، من عبد اللّه تعالى بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، خذ معك مصباح شرع ربك، من عمل بما يعلم أورثه الله سبحانه علم ما لا يعلم. وقال أيضاً في الشريعة المطهرة: الإيمان طائر غيبي، يتزل من أفق ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ [آل عمران: ٧٤] يسقط على شجرة قلب العبد، يترنم له بلذيذ لحون ﴿يبشرهم ربهم﴾ [التوبة: ٢١] يطير في قفص صدر صاحبه إلى ﴿مقعد صدق﴾ [القمر: ٥٥] الشريعة المحمدية، ثمرة شجرة الوجود

(١) التهجد: صلاة الليل.

الملة الإسلامية، شمس أضاءت بنورها ظلمة الكون اتباع شرعه ﷺ، يعطي سعادة الدارين، احذر أن تخرج من دائرته إياك أن تفارق إجماع أهله في قلب صاحب الشرع الأعظم ودائع بدائع الحكم في أسرار صاحب الناموس الأكبر خزائن جواهر الغيب، اجعل قبول أمره طريقك إلى الله، صير كعبة عقلك مهبط أملاك كلمات أحكامه، من ماء غمام أقواله تشرب عطاش الأرواح، في عيون حياة ألفاظه يغتسل خضر العقول.

وقال أيضاً: نادى منادي الطلب: الأرواح الكائنة في القوالب أثار ساكن غرامها إلى العلا، طارت بأجنحة الغرام في فضاء المحبة، ووقعت بعد التعب على أغصان التشوق تناغت في السحر بلابلها بمطربات ألحان الحنين إلى جمال ﴿وأشهدهم﴾ [الأعراف: ١٧٢] أزعجها هبوب نسيم الغرام إلى إعادة لذاذة ﴿ألست﴾ [الأعراف: ١٧٢] خرجت بعض تلك الطيور من أقفاص الصدور تتلمح أثراً من مطارها القديم، تنتشق نسمة من مهب التكليم، تتذكر عيشها في ظل أثل الوصل، تشكو جواها بعد بعاد الأحباب، فسمعت داعي الله تعالى بلسان إنسان عين الوجود، فانتقش دعاؤه ﷺ في صفحات ألواح الأرواح، صارت دعوته ريحاً تهبّ على أغصان أشجار القلوب، اضطربت فرسان العقول في ميادين الصور غراماً بما سمعت، اهتزت الألباب بأيدي الوجه طرباً بذلك العهد صار عشقها له سرًّا من أسرار القدم، وأصبح ولهها به لطيفة من لطائف القدر.

وقال أيضاً: إذا أشرقت على النفوس الحرية أنوار الغيب، حفظت الأسرار، ارتفعت الحجب الظاهرة عن عيون بصائرها، لاحظت جمال صاحب الكون، شاهدته بصفة مرايا الأسرار كعبة كل عارف، موضع نظرات الحق تعالى منه أقرب الطريق إلى الله سبحانه لزوم قانون العبودية، والاستمساك بعروة الشريعة الإسلامية والاستقامة على جادة التقوى، علائق زهرة الحياة الدنيا حجاب يمنع من الوصول إلى ملكوت العلى، لو بلغ طفل تملك الأشد في حجر التأديب ما التفت إلى الدنيا، لكن هو بعد في مهد ﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾ [الفتح: ١١] يا غلام افتح عين عقلك لتلقى عرائس أسرار الأزل واستنشق بشم روحك هبوب نسيم لطائف القدر، إن الله عز وجل وضع تماثيل للوجود على ساحل بحر الدنيا لامتحان عيون أهل البصيرة، وسلم من الالتفات إلى زخرفها أطفال أرواح أقيمت في مهود الثياب؛ ونهيت في حجور العظمة، وأرخيت عليها أكناف آيات الأمر، وكوشفت بلطائف مخبآت القدر، وجليت عليها عرائس الغيب.

وقال أيضاً: الشرع حكم رب القضاء يشاهد حاكم الرسالة، فانفرد سلطان عزه في دولة بقاء كماله، وانقادت ملوك الحكم طائعة طية جلاله، ودانت ممالك الأحكام خاشعة لتعظيم إجلاله، وحامت أطيار البلاغة حول حماه، ورضعت أطفال العلوم بلباني هديه وهداه، ومحق سيف سطوة فطره ما خالفه وناواه، واعتصمت بحبل حمايته وثيقات عرى الإسلام، وعليه مدار أمر الدارين، بأسبابه أنيطت منازل الكون، انتهى كلامه مختصراً.

قلت: وهذا ما اقتصرت عليه من كلامهم في تعظيم الشريعة وموافقة الحقيقة لها كما ذكرت أولاً، بل هم أشد تعظيماً لها ولصاحبها ﷺ من غيرهم، لأنهم هم الذين كشف لهم عن عظيم

جلالها وبهاء جمالها، ومن عداهم مسبل عليهم الحجاب لم يشاهدوا ما شاهد الأحباب المحبون أولو الألباب.

ومن تعظيمهم المذكور ما روي عن الشيخ المعظم المشهور إمام السالكين وحجة الله تعالى على العارفين، سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه، أنه قبل لسان الإمام المحدث عن رسول الله ﷺ أبي داود صاحب السنن رضي الله تعالى عنه إجلالاً واحتراماً لما يحدث به عنه ﷺ.

ومن موافقتهم المذكورة ما روي أن الشيخ جعفر بن نصير رضي الله تعالى عنه: سأل خادم الشيخ العارف بالله تعالى ذي المعارف واللطائف المشهورة أبي بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه: ما الذي رأيت منه؟ يعني عند موته، فقال: قال لي عليّ درهم مظلمة قد تصدقت عن صاحبه بألوف وما على قلبي شغل أعظم منه، ثم قال: وضئني للصلاة، ففعلت، فنسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه، فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات، فبكي جعفر وقال: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة.

وحكي أنه لما تغيرت الحال على الشيخ أبي عثمان الجيري رضي الله تعالى عنه عند موته مزق ابنه قميصاً، ففتح أبو عثمان عينيه وقال: إن خلاف السنة في الظاهر من رياء في الباطن.

قلت. وإذا تتبعت أقوالهم وأفعالهم في متابعة السنة خرجت عن الحصر، ولنقتصر منها على هذا القدر.

فإذا علم هذا فاعلم أن المقصود الأعظم من اتباع السنة ليس هو إعطاء النفس مناها في اتباع هواها، من الحظوظ والرخص والزينة في اللباس وغيره، فقد ترك الأولياء ذلك وهم الذين بلغوا الدرجة العليا في اتباع السنة حقاً، بالمقاصد الجميلة، ورفض الدنيا، وعلو الهمة، والإقبال على الله سبحانه وتعالى، والإعراض عما سواه، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، والخروج من خلاف العلماء، وحسن الأدب، والرضا بالقضاء، ومراقبة المولى في الحركات والسكنات، واللحظات والكلمات، والإرادات والخطرات، وأنواع الرياضات والمجاهدات. وعلى الجملة اتبعوا السنة بالتحلي بكل وصف محمود، والتخلي عن كل مذموم.

وقد قيل للسيد الشهير الوالي الكبير، الذي لم يخلف بعده مثله بشهادة الخضر عليه السلام، وقال له الحق سبحانه بعد موته فيما روي عنه من رآه من السادات في المنام: لقد قبضتك يوم قبضتك وليس على وجه الأرض أحب إليّ منك: بشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه، قيل له في حياته: الناس يتكلمون فيك، فقال ماذا يقولون؟ قيل يقولون هو تارك للسنة، يعنون ترك النكاح فقال: قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة.

قلت: والدليل على اتباعه للسنة مع ذلك، ما اشتهر عنه ورواه خلائق من الأولياء والعلماء، بالأسانيد الصحيحة الشهيرة في التصانيف الكثيرة الجليلة، كرسالة الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه وغيرها، أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال يابشر، أتدري لما رفعك الله تعالى

من أقرانك؟ قلت لا يا رسول الله، قال باتباعك لستني، وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، وصحبتك لأصحابي وأهل بيتي هو الذي بلغك منازل الأبرار.

قلت: فقد شهد له خير الشهداء وسيد الأنبياء ﷺ باتباع سنته، ما كان عليه من ترك التزوج وترك اللباس والحفا والفرار من الناس وشدة التقشف، وغير ذلك من صفات المتمزقين في الله تعالى، الأكياس الذين يعدّهم من ليس عنده من السنة إلا رسمها خارجين عن الكتاب والسنة والإجماع والقياس، إذا رأى الواحد منهم متجرداً أو سائحاً أو منفرداً أو حافياً أو حاسر الرأس؛ كأن لم يسمع بسيرة أويس رضي الله تعالى عنه، الذي نوه بفضله ﷺ في جميع البلاد، وما كان عليه من التمزق والانقباض من الناس ورثاثة الحال والتجرد والانفراد؛ وكذلك مصعب بن عمير[1] رضي الله تعالى عنه في تقشفه وسيرته الزاهرة، ولبسه إهاب[2] الكبش، وموته في النمرة، وقول رسول الله ﷺ فيه لما رآه في الإهاب: «دعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون»، مخاطباً للصحابة، وكذلك قوله ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»، وقوله ﷺ: «الشعثة رؤوسهم المغبرة وجوههم»[3] الحديث، ومدحه ﷺ للشاحب الذي رفع له علم فشمر إليه في الحديث الذي أخرجه الطبراني رضي الله تعالى عنه، وغير ذلك مما يطول ذكره بل يتعذر حصره.

قلت: وإلى أمثال هؤلاء المذكورين أشار الشيخ أبو الغيث رضي الله تعالى عنه في قوله: إن الله ربنا لا يعرف أحد منا ما هو ولا أين هو يقيناً، فإن كان ولا بد من شيء هنا، فعند المنكسرة قلوبهم لأجل الله عز وجل، سود الوجوه من مر الزمان من الحياء والخشية منه هنا وغدا يوم لقائه، ومن لنا بهذا يا ندما، ونعم الشهود ونعم الشفعاء في المهمات.

قلت: وفي الحديث الذي قد اشتهر «أن أويسا يشفع في مثل ربيعة ومضر» وفي التماس الدعاء منه ندب ﷺ عمر رضي الله تعالى عنه، ثم إن هؤلاء السادات أولي السعادات قد ملئوا الوجود، وظهروا مظهراً لا يمكن فيه الجحود.

وقال الشيخ أبو عبد اللّه الجلاء رضي الله تعالى عنه: صحبت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة: أبو تراب أولهم.

قال أبو تراب رضي الله تعالى عنه: الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيثما نزل.

وقال أبو عبد اللّه القرشي رضي الله تعالى عنه: لقيت من الشيوخ قريباً من ستمائة شيخ فافتديت منهم بأربعة، ثم ذكرهم.

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٧/٢٤٨، وفي طبقات ابن سعد ٣/٨٢، والإصابة ت ٨٠٠٤، وصفة الصفوة ١/١٥٢.

(٢) الإهابُ: الجلد المغلّف لجسم الحيوان، أو ما لم يُدبغ منه (ج) أُهُب.

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/١٣٢)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/٣٦٦).

قلت: هذا وكل واحد يخبر عمن لقي أو صحب في عصره، فكيف بمن لم يلق في جميع الأعصار والأمصار؟

وقال القرشي أيضاً: لو لم ألق من الشيوخ من رأيت، لتوهمت أن الطريق ما عليه الناس اليوم، وما عند القوم من الطريق إلا الاسم.

قلت: إذا كان يقول هذا في زمانه، فكيف بزماننا وما نحن فيه من مجرد الاسم والرسم يقيناً، وما نحن فيه من مجرد التشبيه بالرسم الظاهر، يصدق قول الشاعر:

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

وقولي:

بكى دهرنا والدَّهر من قبل بسام ... على وجهه نور وفي اليوم إظلامُ
وما ذاكَ إلا أن من قبل سادة ... شموس الهُدى كانوا فبانوا وما داموا
حدا بركابِ القوم حادي رحيلهم ... لدارٍ لهم فيها نعيم وإنعامُ
فأمَستْ ديارُ القوم تبكي عليهم ... وأخلف فيها القوم من بعد أقوامُ
وأضحتْ خيامُ كالخيام ماو بها ... ملاح كأمثال الملاح وإكرام
فأنشدت في تلكَ الخيامِ تغزلاً ... بغزلانها اللاتي لها القلب مسقام
عدمنا غوالي الحسن خودات دهرها ... ومن في هواها أهل أعصارها هاموا
وأبدلنا حكم المقادير غيرها ... فقلتُ كما قد قالَ للشعرِ نظامُ
وما كنت أرضى من سُليمى بديلة ... بليلى ولكن للضرورات أحكام

وقولي في أخرى:

لأحبابنا عيش عليه يناح ... لقاء شيوخ للمُريد لقاح
أيا دهرنا المغبر مالك مظلماً ... نهارك ليل لا يليه صباح
كأنك محزون على فقد سادة ... شموس الهدى كانوا ضياءك راحوا
فأخلفهم مثلي فخلاك مثله ... حلاك حلا منها الملاح قباحُ
وأيامك الغر الزواهر قبل ذا ... حلاها بها يزهو الوجود ملاحُ
كسا الكون حُسنا والأنام سعادة ... بها بمُحياها الرضى وفلاحُ

ذكر شيء من كلامهم

في المعارف والحكم والآداب والمحبة والأسرار والخطاب

قال الشيخ العارف بالله تعالى الفقيه المعظم، معدن الأنوار والأسرار والمعارف والحكم، علم الطريقة ولسان الحقيقة أحمد بن عمر الزيلعي[1] مولداً. اليمني بلداً، رضي الله تعالى عنه: الحمد لله

---

(١) هو أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي (توفي ٧٠٧ هـ = ١٣٠٧ م) فقيه متصوف من ذرية عقيل بن أبي =

محلي القلوب الروحانية بجواهر الحكم الربانية، ورافعها عن كثائف خيال عالم الجسمانية، ومحلها في رفيع بقاع حدائق رياض مروج حضائر قدس الأولية، مجلسها على بساط انبساط أنس إدلال دهشة حيرة فناء بقائه، دوام الديمومية فبرزت لها الحقيقة في حلة نورانية لطيفة قدسية، فتقاطرت عليها منها أنوار عرفانية ذوقية كشفية، فشاهدت ولاحظت وتحيرت وغابت عن الأشكال الحسية فحييت بأنوار وأتحفت بأسرار علماً مكنوناً مصوناً عن العقول الزكية، وسقاها بكأس الوصال في مقاصير الاتصال شراباً ممزوجاً بلطائف غيبية، مديرها ساق لا ترمقه العيون ولا تحصله الظنون؛ محجوب عن الأفكار الوهمية، وهب لها نسيم من جو نجد الوجود بعرف أنفاس مسك علوم كلية، ولاح لها برق الوجود من أفق الوجود حيث لا جهة ولا مسافة ولا كيفية، فتاقت واشتاقت وسكرت ودهشت وغابت في بحر الفردانية، فناداها مناد الغيب الرباني: لا يظفر بقربنا من بقي فيه للملكوت بقية.

قلت: قد انتهى كلامه، وهو بعض خطبة كتابه المسمى بلباب ثمرة الحقيقة ومرشد السالكين إلى الطريقة، وهي خطبة فائقة حسنة رائقة بالتنزيه ونفي الجهة ناطقة.

ومن كلامه أيضاً: يا مشدوه الذهن، يا عنين الفطنة، يا مشحونا بوسواس الدنيا يا من همته بهيمية لم تنتج سعادة قط، أين همتك العلوية، ارحل بمطية همتك إلى كعبة جمعيتك، وإلى منى المنى مشعر الاستشعار والعرفان.

وقال إمام العارفين وأمان الخائفين، بحر الحقائق وكشاف أستار أسرار المحجبات الدقائق، شيخ الشيوخ السيد الجليل أبو الشموس، أبو الغيث ابن جميل رضي الله تعالى عنه: الحمد لله الملك القدوس الذي استعبد عبادة بمخالفة هوى النفوس، وأخرجها من عالم الحس والمحسوس إلى الجناب المقدس المحروس، حمداً دائماً ببقائه، ومستوجب المزيد من آلائه، والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه ومبلغ أنبائه، وعلى آله وأصحابه خير أصفيائه، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد: فإن التجافي عن دار الغرور عنوان صحة العناية، والتعرض لنفحات رحمة الله واجتماع الهمم دليل على خصوص الولاية، والاستقامة لله على ما تقدم ذكره بلا غاية ولا نهاية، كان سبباً لظهور طير الفقر من بحر الجواد إلى ساحل ﴿شاهد ومشهود﴾ [البروج: ٣] يتعلق بلسان الأزل ينفي كل والد مولود رأسه الإيمان، ولسانه القرآن، وقلبه العرفان، وشوالته نسيان ما كان، ورجلاه ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ [الرحمٰن: ١٩] ومخلبه التوكل، وقوادمه البهاء، وخوافيه الحياء، وعيناه العبرة، وحوصلته الفكرة، وسر ذاته الخشية، يرفل في حلل الأحدية ويهيش في مفازات السرمدية، بلا مكان ولا زمان، علم ذلك من علمه وجهله من جهله، ولله الحمد وبالله التوفيق.

وقال أيضاً: يجب على من نزلت به الأخلاط أول ما يبدأ به استخراج القيء بريشة خوف الفوت، ويغتسل بعد ذلك من ماء عين الندامة، ثم يقصد العزلة في كهف جبل الانقطاع، آيس من

= طالب كان صاحب قرية «المحمول»، ووفاته في «اللحية». له كتاب في التصوف سماه «ثمرة الحقيقة، ومرشد السالكين إلى أوضح طريقة». الأعلام ١/ ١٨٦، ونزهة الجليس ٢/ ٢٨٢.

الأنس بما دون الله سبحانه وتعالى، ويشرب من ماء شحوم حنظل[1] الصبر، ويتنشق بدهن أشجار الحزن، ويطعم من صحيح غذاء التوكل، ثم يكتحل بقشر عود الغرام، ولا ينام بعد ذلك حتى ينظر أنوار ثمار أشجار التوفيق، ثم يجلس على بساط قدم الصدق والتصديق، منتظراً لما يريد من عجائب إبريز التحقيق، وصحيح طول الفقر والعجز والافتقار، الذي رافق به النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ونعم الرفيق، فحينئذ يبرأ العليل ويرجع إلى ما كان خلقه أول مرة، فتكون حياته لله وموته لله لا لنفسه، بذلك جرى قلم حكم القديم المتفضل بالتأييد في محل الحضرة على المنهج العبدي والقانون الفقري، الذي فيه وجب أن لا يكون في العبد أزلاً وأبداً لنفسه ذرة، ونادى الآن لسان الفقر بوجوب ترك التدبير والاختيار لصحة الإرادة وتلقي ما يرد عليه بالرضا، والتزام ما لا يلزم حباً لله سبحانه وشوقاً إليه، كما قد وجب على من يعبده من أجله، فإذا التزم ما لا يلزم صفاه الحق تعالى للحق، وأوصله إلى ما علم أنه يصل به فيكون الحق عز وجل أوصله، لا هو وصل، وعند فعل ما يجب أيضاً على المريد اتباعه علماً ورسماً، تظهر علوم أزلية تتعلق بصفات القديم المتفضل القدوس، لا يعرف العالم بها أن الله تعالى يعصى أو يتعدى أحد مراده فإنه بكل شيء عليم.

وقال أيضاً: أيما وقت تخلى العبد عن نفسه وأهله وماله ومآله تجلى له الحق بالحق حقاً من حيث تخلى له حقيقة وشرعاً، ولله الحمد وبالله التوفيق، والسلام على من اتبع الهدى وترك المرا فيما يجب له وما يجب عليه بحكم الضرورة ﴿والله بكل شيء عليم﴾ [النساء: ١٧٦].

وقال أيضاً: إن السابق عندنا من ترك ماله وقام بما لله عليه بلا علة، والمقتصد من آثر العزلة على دنياه فرضاً، والظالم أعمى مؤثر دنياه على آخرته يقيناً، وليس ذلك من صحيح الفقر بشيء.

وقال أيضاً: إن المحب لله تعالى متعرض لإهانته قطعاً، والمحب للأخرى متعرض لكرامته قطعاً، ومحب الحبيب لله متعرض للغناء قطعاً.

وقال أيضاً: إن الله سبحانه يحب ما هو له عندنا بحق، ونحن أيضاً نحب ما هو لنا عنده حقاً، ولا شك أن القلب إذا عرف فاطره حاضره ناظره ووحده شاهده، فهو حي يقيناً، وإن لم يعرف ما ذكرناه آنفاً فهو ميت يقيناً، وليس عيش الموتى يصلح للأحياء هنا ولا هناك بحال، ولا عيش الأحياء يصلح للموتى هنا ولا هناك بحال، والله بكل شيء عليم خبير بصير بلا علة.

وقال أيضاً: أما بعد، فإنه نظرنا فيما يفسد عقول المريدين، فإذا هو في رؤية ثواب العمل، وفساد القلوب من حب الدنيا، وفساد النية من الحرص والطمع واتباع الهوى، وفساد الأرواح من حب البقاء وطول الأمل، فلهذا يجب على المريد الزهد في نفسه، لأنها هي محل العلل ومنزل الغفلة عن الله عز وجل، فإن أراد المريد إصلاح قلبه وصفاء لبه قتل نفسه بسيف الصدق، وطرحها في قبر

---

(١) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة كان ولا يزال يستعمل في الطب، ويُزرع في الحدائق الطبية.

الانقطاع، ودفنها بترك التدبير، وتلقي ما يرد عليه من القضاء بالرضا والتسليم والأنس بخيرة الله تعالى، والسكون إلى حكمه، وبالله سبحانه التوفيق.

قلت: جميع ما ذكرته من كلام الشيخ أبي الغيث في هذا الموضع وغيره من هذا الكتاب جمعته من الكتاب المجموع من كلامه المشهور عنه، غير ملتزم ترتيباً في ذلك، ما خلا ألفاظاً يسيرة رويت عنه، وليست في الكتاب المذكور.

ومن كلام الفقيه الشهير الولي الكبير العارف بالله تعالى محمد بن الحسين البجلي المتقدم ذكره وكلامه في مقام التوكل رضي الله تعالى عنه، قال رضي الله تعالى عنه: لولا وجود خواص الله تعالى مع عامة الله سبحانه فيما هم فيه من معاصي الله عز وجل لعجل الله تعالى عقوبة من عصاه، ولكن قال سبحانه: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ [البقرة: ٢٥١] تفضل سبحانه على العام بوجود الخاص ليكون ذلك سبباً لتأخر العقوبة، وربما كان سبباً لصفحها، وربما كان سبباً لتبديلها أحياناً، كما قيل:

ألا إنَّ وادي الجِزع أضحى ترابُهُ ... من المسِ كافوراً وأعوادُه رندا[1]
وما ذاك إلا أنَّ هنداً عشيةً ... تمشت وجرت في جوانبه بردا

﴿قالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم﴾ [المائدة: ١٨] دليل على أن المحبوب لا يعذب:

أساءَ فزادتهُ الإساءة حظوة ... حبيب على ما كانَ منهُ حبيبُ
يعد عليّ الواشيان ذنوبه ... ومن أينَ للوجهِ المليحِ ذنوبُ

قلت: يعني عند المحب المحبوب ما له ذنوب، والبيت الأول من البيتين الأولين ينشده كثير من الناس:

أضحى ترابه منَ المسكِ كافورا

والصواب «من المس» كما ذكرت، ويدل عليه قوله في البيت الثاني: «تمشت وجرت» أي لما تمشت فيه وسحبت عليه بردها مست ترابه بجسمها وثوبها العطرين، فعبق فيه من ريحها ما صير رائحة التراب رائحة الكافور، ورائحة العيدان ورائحة الرند وأما إنشادهم من المسك كافوراً، فلعله من المسك بفتح الميم بمعنى المس أيضاً، فصحف وقرىء بكسرها، والمس المذكور استعماله في الشعر كثير مشهور، من ذلك في الأبيات المشهورة في عزة:

ومسا تراباً طال ما مسَّ جلدها ... وظلا وبيتاً حيث بانَتْ فظلتِ

---

(١) الكافور: شجر كبير من الفصيلة الغارية ينبت في الهند والصين. تتخذ منه مادة عطرية بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض تُستعمل في الطب وهو أصناف كثيرة (ج) كوافير.
الرَّنْدُ: شجر طيب الرائحة، من الفصيلة الغارية، ينبت في سواحل الشام والغور والجبال الساحلية أو هو عود يُتبخر به.

قلت: وذكر السيد المذكور لوادي الجزع وهند، وتبدل ترابه وأعواده بالمذكورين الطيبين الرائحة لمشيها، وسحب بردها في جوانبه استعارة حسنة لتبديل إساءة العامة إحساناً لوجود الخواص فيهم بالوصف المحمود، وتضوع طيب أنفاسهم الزكية في جوانب الوجود؛ وعشية هو بضم العين المهملة تصغير عشية، والتصغير هنا أحسن وأرق للسجى، والمراد بذلك آخر النهار لما في ذلك من هبوب النسيم وحملها الروائح الطيبة، وما يوجد فيها من الروح بالعشي.

قلت: وفي التصغير للمحبة لا التحقير ينشد هذا البيت الشهير، وهو:

ولكن إذا ما حُب شيء تعلقت به أحرف التَّصغير من شدةِ الوجدِ

هذا ما اقتصرت عليه من الإشارة إلى شيء من التنبيه على شيء من معنى شيء في ألفاظ البيتين المذكورين.

ومما وجد بخط السيد الكبير إمام الفريقين وشيخ الطريقين، الوجيه المجاب عظيم الكرامات والخطاب، والمشهور فضله وفخره، الفقيه إسماعيل الحضرمي المتقدم ذكره رضي الله تعالى عنه: فارق الناس أحسن ما كانوا عليه، وتتبع خلوات الفلا في زاوية الجوع والعطش تجدني عند ذلك أنفض جراب الاهتمام، وسمعني غطيط رحال المفارقة في بيداء الثقة بي والتوكل عليّ وحنين الشوق وأنين الخوف أفلت أكوانك كلها، ونحن عندك بالفضاء وقوف، وانقطع الكلام.

وروي عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير أبي الحسن بن الضحاك القابسي رضي الله تعالى عنه أنه قال: قيل لي في نوم كاليقظة، أو في يقظة كالنوم: لا تبدين فاقة إلى غيري فأضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك وخروجك عن حدك في عبوديتك إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع إليّ منها، وتتضرع لدي بها، وتتوكل عليّ فيها، سبكتك بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً، فلا تزيفن بعد السبك، وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسي بالغنى، فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتي وحسمت أسبابك من أسبابي طرداً لك عن بابي، فمن وكلته إلى ملك ومن إليه هلك لا تركنن إلى شيء دوننا فإنه وبال عليك وقاتل لك. إن ركنت إلى العلم لبسناه عليك، وإن أويت إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال أوقفناك معه، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اغتررت بالمعرفة عليك، فأي حيلة لك وأي قوة معك فارضنا لك ربًّا حتى نرضاك لنا عبداً انتهى.

وقال ركن الشريعة وبحر الحقيقة شيخ الإسلام العارف بالله تعالى، والإمام أستاذ الشيوخ الأكابر، قطب الأولياء الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه: برقت بارقة من جناب الأزل في سماء قلوب العارفين، هب نسيم من رياض الديمومية على مشام أرواح المكاشفين، تنوعت أراييح زهر القدس على شجر أسرار المشاهدين، سافرت تلك العقول في بحر باسم لتصل غاياتها إلى ساحة ساحل جناب الرحمٰن الرحيم، فترجع غنية بجواهر فوائد ألوهية، فائزة بتحف خزائن الأزلية، ظافرة بنيل سؤال موسى على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسَّلام ليلة أرى، ناظرة على طور طلبها إلى نور سبحات تجلي معاشر العارفين، الموت في حرب حبه كل الحياة، الحياة مع غيره ولو لحظة حقيقة

الموت، إن أعمى عين عقلك عن نظر غيره في الدنيا جعل جزاءها في الآخرة **﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربّها ناظرة﴾** [القيامة: ٢٣] إن قتلك بسيف حبه في العاجل جعل ديتك في الآجل **﴿أحياء عند ربّهم يرزقون﴾** [آل عمران: ١٦٩] طافت سقاة القدم على أرواح بعض بني آدم بكؤوس شراب (ألست) في خلوة مجلس **﴿وإذ أخذ ربك﴾** [الأعراف: ١٧٢] أسكرهم الساقي لا الشراب، سكنت تلك النشوات في ذرات تلك الذوات، حتى انفلق صبح شرع أحمد ﷺ من مشرق سماء رسالته وجاءته من جناب الأزل لطائف أسرار الغيب، فنبه سكارى العشق وأيقظ نوام العقول لتذكر عهدها معه في خلوة ليلة (ألست) وطارت إليه بجناح **﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾** [طه: ٨٤] كاشف الأرواح بقوله **﴿هو الله﴾** [الحشر: ٢٣] سكن القلوب بقوله: **﴿الذي لا إلٰه إلاّ هو﴾** [الحشر: ٢٣] خوف الأسرار بقوله **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** [الحشر: ٢٢] لاطف العقول بقوله **﴿الرحمٰن الرحيم﴾** [الحشر: ٢٢] الهوية بحر يغرق فيه سابح كل عقل، وتنكسر في طلب علمه سفينة كل فكر، إن سار العقل على مطية الفكر على ساحل هذا البحر بدليل الإيقان، قذفت إليه أمواجه جواهر أسرار الأزل، وأتحفته بلطائف أنباء الغيب، وأراه نور الهداية حق اليقين، وسارت به نجائب الغاية إلى جبل قاف القرب، وغسل خضر سره في عين ماء الحياة، وأخرجه من الظلمات إلى النور، فهنالك يرى شرع الأكوان سرح عيون عقول العارفين، تكاد تخطف بلوامع بروق أنواره أبصار الواصلين، وتنقش أيدي مواشط أتباعه وجوه عرائس مقامات المقربين، ويذبح صناع ديم إدامة التأرب به وشي حلل المشاهدين، يا هذا قلبك موضع نظرات القدم، وفي فضاء صدرك تضرب خيمة القرب، لأجلك خلق الجنة والنار، بسبب معصيتك قال: **﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن﴾** [طه: ٨٢].

وقال أيضاً: أول ما يطلع في قلب مؤمن نجم الحكم ثم قمر العلم، ثم شمس المعرفة فبضوء نجم الحكم ينظر إلى الدنيا، وبضوء قمر العلم ينظر إلى الأخرى، وبضوء شمس المعرفة ينظر إلى المولى، النفس المطمئنة نجم، والقلب السليم قمر، والسر الصافي شمس؛ مقام النفس في الباب، ومقام القلب في الحضرة، ومقام السر في المجدع قائم بين يدي الحق سبحانه يلقن القلب، والقلب يلقن النفس المطمئنة، والنفس تملي على اللسان، واللسان يملي على الخلق، والرضا بالقضاء سبب تقريب القلب، ودخوله دار الفضل، وأكله من طعام الفتح، وشربه من شراب الأنس؛ أسرار القوم رواسي الأرض وأوتاد الوجود، يناجيهم منادم الأنس بأحاديث أحلى في النفوس من المنى، يقول لهم: يكون بعد هذا الضيق سعة؛ وبعد هذا الشت جمع وبعد هذه المرارة حلاوة، وبعد هذا الذلّ عزّة، وبعد هذا الفناء وجود، فحينئذٍ يستقبل وجه القرب صاحب هذا المقام، ويجعل بينه وبين الخلق حاجزاً، ويجمع في قلبه بين الحكم والعلم، والقرب نوع صنعة وخرق عادة، قلوب القوم تنظر بنور الله سبحانه إلى ما سواه يدخلهم جنة النظر إليه، فإذا نظروا في الأكوان صاحوا يا دليل المتحيرين دلّنا على أقرب الطرق إليك فيهيمون فيها ولا يصغون إلى زجل تسبيحها ولا يلتفتون إلى عوالمها، فتأتيهم يد الرأفة والمحبة، فتأخذ بأيدي قلوبهم، وتضعها في حجر اللطف وكنف الأنس ولذة القرب، وتنزع عنها ثياب السفر، وتنزلها منازلها، وتمكنها من حضرته، وتجعل لكل قلب أبواباً يرى من كلها ملكه وسلطانه وجلاله وجماله، فقلوبهم مجاري إرادته، وخزائن علمه، وصور سره، فكلما

دارت أسرارهم في مناكب دار القدر ألفت العلوم والأسرار، فصاروا جلساء ذلك البيت، ورأوا ما ثم من الخزائن والمرافق، وجاءهم البسط من كل جانب، وقوي جناحهم وطاروا إلى سرادقات ذلك الجناب وصارت برجهم، وإن سقطوا سقطوا في صحن الدار يتقلبون بين يدي رب الملك دعاة مجابون محبوبون مجذوبون، فالقلب مع الرب، والسر مع السر. إذا انفتح القلب رأى بعين السر جمال الرب وقطع الحجب، يا هذا صدور الصديقين قبور أسرار رب العالمين، فيها نجوم العلم وشموس المعارف، وبهذه الأنوار تستضيء الملائكة.

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤] حدقوا أحداق البصائر، وكشفوا براقع الغفلة عن وجوه السرائر، وقابلوا أشخاص عوالم الغيب بصقال مرايا القلوب والتقطوا جواهر المعاني من نثار عقود كلم الوحي، ورتعوا في رياض ربيع حكم القدم بفنون أفهام الأسرار واجتلوا بمواشط الأفكار عرائس أوصاف الأزل، وأحضروا بقلوب غير ملتفتة إلى القوالب، وأشهدوا بأرواح قدسية قد أنفت مساكن هذه الأشباح، وأخرجوا بعقولكم من ديار هياكل الصلصال إلى أطوار مراتب القدس، واطلبوا بنجائب الهمم جناب جلال الوحدانية، وميلوا بمشام أرواحكم إلى انتشاق نسمات روض القرآن. قال معشوق الأرواح ومحبوب القلوب وغاية آمال الطالبين إشارة صفوته إلى من خلقه ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤] كانوا نياماً في مراقد العدم، رقوداً في مهود الغيبة، فتية في كهف الكرم، فاستخرج ذرات ذوات ذواتهم سابك القدر من أجزاء الطين، وأذهب غشها بنار الاصطفاء، ونقش عليها صائغ المواهب في دار ضرب الأزل سطور (يحبهم) وقال عنهم وهم في طي العدم (ويحبونه) حديث منطق الطير، لا يفهمه إلا سليماني في الوقت، وإشارات عيون العشاق لا يفطن لها إلا مجنون ليلى الغرام، لما كتب كاتب الأزل في ديوان القدم على صفاء صقال ألواح الأرواح بقلم الاجتباء عن استمداد مداد الولاية أسطر ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤] كانت رهبان صوامع أشخاصهم في العدم، وذرر ذواتهم في أصداف أغطية الغيب، وندمي نفوسهم رقوداً تحت ظلال شجر أكنان (كن) فنبههم مؤذن القدر بهبوب نسيم (فيكون) فأشرقت ظلمة الدنيا بأضواء شموع وجودهم، وسكنت نفوسهم قصور الصور، فاختلط صفاؤها بكدرها، وامتزجت أنوارها بالظلمة العنصرية، وحلت الأرواح محل الغريب في البلد النازح، فاشتاقت إلى ما أشرقت به من جناب القدم، وحنت إلى ما أنست به من مواطن القدس، وطال عليها التنقل في الفوق والتحت، فأصبحت ذرات ذواتهم هنا طائرة في فضاء الغرام، فلما خرجوا إلى سعة ميدان القرب، ألبست يد العناية كلاً منهم ما قدر له مقدار القدر من خلع الحب، وعقد لخواصهم في خلوة الأنس ألوية ﴿يحبهم ويحبونه﴾ ونصب لقدومهم أسرة العز على ساحل بحر ﴿وسارعوا﴾ [آل عمران: ١٣٣] وأمر كاتب ديوان الأزل أن يسجل لهم سجل السعادة الكبرى وجعل ختم كتابه ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ [يونس: ٢٥] وعنوان خطابه ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] وبعثه برداً على جواد ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ [المائدة: ١٥] يا هذا سرير الأسرار ينصب في سرادق الأطوار الطينية، والأطار الطينية تلحظ بعيون اليقين نقطة خطة التوحيد، ونقطة خطة التوحيد قاعدة بناء الوجود، هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

وقال أيضاً: لما ضربت في عالم الملكوت الأعلى نوبة ﴿إني جاعل﴾ [البقرة: ٣٠] تلألأت في العلى أنوار ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [ص: ٧٢] ونشرت في السماء أعلام ﴿فقعوا له ساجدين﴾ [ص: ٧٢] وأشرقت في عالم الضياء: أشعة ﴿إن الله اصطفى﴾ [البقرة: ١٣٢] وأبرزت يد القدرة شخص آدم من كن إلى بنية سوية الهيكل، جالساً على سرير جلالته، متوجاً بتاج كرامته مرفوعاً على مرتبة خلافته، عليه ملابس الأنس والمواصلة، وعلى رأسه لواء القرب والمكالمة، نظرت إليه أعين سكان الصفيح الأعلى بأحداق الدهش، وأشارت إليه أيدي ملائكة السرادق الأسنى بأنامل التعجب، ولم يستبن لهم معاني رموز كتابة صورته، ولم يفهموا إشارات حقائق كنه بشريته، فانقطعت عبارات فصاحتهم عن فهم كنه سره، وكشف غيب علمه، وعكس القدر عليهم دعوى منزلة ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ [البقرة: ٣٠] باعتراف شاهد (لا علم لنا). ناداهم لسان العزة من جناب القدم: يا أرباب صوامع النور هذا أول نقطة قطرت من رأس قلم القدرة، على لوح إنشاء العالم الإنساني، عن استمداد مداد إرادة الأزل، وأول سهم رشق عن قوس القضاء الإلهي إلى الفضاء الوجودي، عن قوة رامي القدر الأحدي، وأول طلائع الصور، متقدماً بين يدي عساكر البشر، هذا أبو الأنبياء وعنصر الأصفياء، عقد كماله وجلاله منظم على جيد بهائه وجماله.

وقال أيضاً: ينكشف للأولياء والأبدال من أفعال الله عز وجل ما يبهر العقول، ويخرق العادات والرسوم، وهي على قسمين: جلال، وجمال، فالجلال والعظمة يورثان الخوف المقلق، والوجل المزعج، والغلة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح؛ كما روي أن النبي ﷺ كان يسمع من صدره الشريف الكريم أزيز كأزيز المرجل[١] في الصلاة من شدة الخوف لما يرى من جلال الله عز وجل، ينكشف له من عظمته تعالى وتقدس. ونقل مثل ذلك عن إبراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، وعن أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه، وأما مشاهدة الجمال فهو التجلي للقلوب بالأنوار والسرور والألطاف والكلام اللذيذ والحديث الأنيس والبشارة بالمواهب الجسام والمنازل العالية، والقرب منه عز وجل مما سيؤول أمرهم إليه، وجف به القلم من أقسامهم في سابق الدهور، فضلاً منه ورحمة، وتثبيتاً منه تعالى لهم في الدنيا إلى بلوغ الآجال للوقت المقدر، لئلا تفرط بهم المحبة من شدة الشوق إليه عز وجل، فتفطر مرائرهم فيهلكوا، أو يضعفوا عن القيام بالعبودية إلى أن يأتيهم اليقين الذي هو الموت، يفعل بهم ذلك لطفاً منه سبحانه، ورحمة ومداواة وتربية لقلوبهم ومداراة لها، إنه حكيم عليم لطيف بهم رؤوف رحيم ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول لبلال المؤذن[٢] رضي الله تعالى عنه: «أرحنا يا

(١) المرجل: القدر يُطبخ به، أو الجهاز الذي تتم به عملية توليد البخار من الماء أو من غيره.

(٢) هو بلال بن رباح الحبشي، أبو عبد الله(توفي ٢٠ هـ = ٦٤١ م) مؤذن رسول الله ﷺ وخازنه على بيت ماله، من مولدي السراة، وأحد السابقين للإسلام. وكان شديد السمرة. نحيفاً طوالاً خفيف العارضين. له شعر كثيف وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولما توفي رسول الله أذن بلال ولم يؤذن بعد ذلك. توفي في دمشق. روى له البخاري ومسلم ٤٤ حديثاً. الأعلام ٢/ ٧٣، وابن سعد ٣/ ١٦٩، وصفة الصفوة ١/ ١٧١، وحلية الأولياء ١/ ١٤٧.

بلال»[1] يعني بالإقامة، ليدخل في الصلاة لمشاهدة ما ذكرناه من الجمال. ولهذا قال ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2].

وقال أيضاً رضي الله تعالى عنه: ينبغي للفقير أن يتزيا بالعفة، أو قال: يتردى بالعفة، ويتزر بالقناعة حتى يصل إلى الحق عز وجل، ويسعى بقدم الصدق طالباً لباب القرب، مهرولاً عن الدنيا والأخرى والخلق والوجود ويحتاج يموت ألف مرة ويفنى ألف مرة حتى تستقبله عناية الحق ورأفته ورحمته، وشوقه إليه وجذباته ونظراته ومباهاته، ومواكب أرواح النبيين والمرسلين والصديقين، والملائكة تصحبه وتزفه إلى الحق، فيقرب قلبه ويصفى سره من كل محدث، ويدنو إلى الحق عز وجل، ويقرأ سابقته فيقف على كل سطر سطر وكل كلمة وكل حرف، يقف على أوقاته وأزمانه وساعاته ولحظاته، ويتيسر له أمره وما يؤول إليه، كما جذب الخوف إليه جذبه القرب عنه، ثم لا يزال ينقل من شيء إلى شيء حتى يجعل حجاباً بين يديه، منفرداً عنه، مطلعاً على أسراره، يعطي خلعة ومنطقة وتاجاً، ويشهد الملك له على نفسه أن لا يغير عليه، يوقع له بصحبة دائمة وولاية مستمرة، فلا يبقى زهد مع المعرفة يا موتى القلوب طلبكم للجنة قيدكم عن الحق سبحانه وتعالى.

وقال أيضاً: اسم الله الأعظم هو الله تعالى، وإنما يستجاب لك إذا قلت الله، وليس في قلبك غيره باسم الله من المعارف، لكن من الله عز وجل هذه كلمة تزيل الهمّ، هذه كلمة تكشف الغم هذه كلمة تبطل السم، هذه كلمة نورها يعم، الله يغلب كل غالب، الله مظهر العجائب، الله سلطانه رفيع، الله جنابه منيع، الله مطلع على العباد، الله رقيب على القلب والفؤاد، الله قاهر الجبابرة، الله قاصم الأكاسرة، الله عالم السر والعلانية، الله لا يخفى عليه خافية، من كان لله كان في حفظ الله، من أحب الله لا يرى غير الله، من سلك طريق الله وصل إلى الله، ومن وصل إلى الله عاش في كنف الله، من اشتاق إلى الله أنس بالله، من ترك الأغيار صفا وقته مع الله، اقرع باب الله إلحاء إلى جناب الله، توكل على الله يا معرضاً، ارجع إلى الله هذا سماع اسمي في دار الشقاء فكيف عند إلقاء هذا في دار المحنة فكيف في دار النعمة، هذا اسمي وأنت على الباب فكيف إذا كشف الحجاب، هذا وقد ناديت فكيف إذا تجليت، القوم في المشاهدة وأبحر الفضل إليهم واردة. المحب كالطير لا ينام في الأسحار يناجي حبيبه في خلوات الأسحار، تهب ريح القرب على قلوبهم فيشتاقون إلى ربهم.

وقال أيضاً: إن وجدت مشام روحك روح الأنس تهب عليها من رياض ربيع الكرم عند ذكر الحبيب الأعظم، فذلك من جناب لا بد يذكرك التزام شرط بيعة المحبة بحركات شمائل العهد القديم، فاضطرمت في سويد القلب نار أسف المهجور لوحشة الانقطاع، وتوقدت في صميم السر

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٣٤٠)، وابن كثير في (التفسير ٥/ ٤٥٦)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٦٥)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٣٧)، (تحذير الخواص ٣٣).

(٢) أخرجه القاضي عياض في (الشفا ١/ ١٢٠).

جمرة حرقة المحجوب لفرقة المحبوب، ونادى لسان هيمان وجد فاقد الأحبة:

علـى مثـل ليلـى يقتـلُ المـرءُ نفسـه　　ويحلـو لـه مـرُّ المنـايـا ويعـذبُ

وقال أيضاً رضي الله تعالى عنه: رأيت النبي ﷺ قبل الظهر من يوم الثلاثاء السادس عشر من شوال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فقال لي: «يا بني لم لا تتكلم؟ قلت: يا أبتاه أنا رجل أعجمي كيف أتكلم على فصحاء بغداد؟ فقال ﷺ: افتح فاك، ففتحته فتفل فيه سبعاً، وقال لي: تكلم على الناس وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» فصليت الظهر وجلست، وحضرني خلق كثير فارتج[1] عليّ، فرأيت علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه قائماً بإزائي في المجلس فقال لي: يا بني لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أبتاه قد ارتج عليّ، فقال لي: افتح فاك، ففتحته فتفل فيه ستًّا فقلت له: لِمَ لَمْ تكملها سبعاً؟ فقال: أدباً مع رسول الله ﷺ، ثم توارى عني، فقلت: غواص الفكر يغوص في بحر القلب على درر المعارف ويستخرجها إلى ساحل الصدر، فينادي عليها سمسار ترجمان اللسان فتشتري بنفائس أثمان حسن الطاعة في ﴿بيوت أذن الله أن ترفع﴾ [النور: ٣٦] قال الرواة عنه: فهذا أول كلام تكلم به على الناس على الكرسي.

وقال الرواة أيضاً: حضرنا مجلس الشيخ محيي الدّين أبي محمد عبد القادر رضي الله تعالى عنه بمنزله بمدرسة باب الأزج سنة سبع وخمسين وخمسمائة وهو يأكل بلبن، فترك الأكل وسهى سهوة طويلة ثم قال: قد فتح لقلبي الآن سبعون باباً من أبواب العلم اللدني، سعة كل باب منها كسعة ما بين السماء والأرض، قالوا: ثم تكلم في معارف أهل الخصوص كلاماً طويلاً أدهش له الحاضرون، وقلنا: ما نظن أن أحداً يتكلم بهذا الكلام من بعد الشيخ.

وروى غير واحد عن الشيخ العالم الرباني شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد السهروردي رضي الله تعالى عنه قال: اشتغلت بعلم الكلام وأنا شاب، وحفظت فيه كتباً وصرت فيه فقيهاً، وكان عمي يزجرني عنه ولا أزدجر، يعني عمه الشيخ الكبير العارف بالله أبا النجيب رضي الله تعالى عنه، قال: فأتى يوماً وأنا معه إلى زيارة الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه، وقال لي: يا عمر قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرَّسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ [المجادلة: ١٢] وها نحن داخلون على رجل يخبر قلبه عن الله عز وجل، فانظر كيف تكون بين يديه لننتظر بركات رؤيته، فلما جلسنا إليه قال له عمي: يا سيدي هذا ابن أخي عمر مشتغل بعلم الكلام، وقد نهيته عنه فلم ينته، فقال لي: يا عمر أي كتاب حفظته فيه؟ فقلت: الكتاب الفلاني والكتاب الفلاني، فأمرّ يده على صدري، فوالله ما نزعها وأنا أحفظ من تلك الكتب لفظة، وأنساني الله سبحانه جميع مسائلها، لكن وقر الله تعالى في صدري العلم اللدني في الوقت العاجل، وقمت من بين يديه وأنا أنطق بالحكم، وقال لي: يا عمر أنت آخر المشهورين بالعراق. قال: فكان الشيخ عبد القادر سلطان الطريق والمتصرف في الوجود على التحقيق.

---

(١) أرتج عليه: استغلق عليه الكلام.

وقال بعض أصحاب الشيخ شهاب الدين: جلست في خلوة عند شيخنا شهاب الدين السهروردي ببغداد أربعين يوماً، فأشهدت في اليوم الأربعين الشيخ شهاب الدين على جبل عال وعنده جواهر كثيرة وتحت الجبل خلق كثير، وبيده صاع يملأ تلك الجواهر ويبثها على الناس فيتدرون إليها، وكلما قلَّت تلك الجواهر نمت كأنها تنبع من عين، قال: فخرجت من الخلوة في آخر يومي ذلك وجئته لأخبره بما شاهدت، فقال لي قبل أن أخبره الذي رأيته حق وأمثاله معه وهو مما ماده الشيخ محيي الدين عبد القادر لي مما عوضني به عن علم الكلام، فإنه كانت له اليد المبسوطة من الله تعالى في التصرف النافذ والفعل الخارق الدائم.

قلت: وقد تقدم الكلام في عقائد المشايخ وعقيدة الشيخين المذكورين، أعني الشيخ محيي الدين عبد القادر والشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه عن الجميع وأن جميعهم موافقون في عقائدهم العلماء الأصول من أهل علم الكلام من أئمة أهل السنة رضي الله تعالى عنهم. وأما نهي الشيوخ عن علم الكلام، فالجواب عنه أنه فرض كفاية وليس بفرض عين، فلا ينبغي أن يشتغل به الفقير المتوجه إلى الله سبحانه، بل يشتغل بالله تعالى وحده بعد أن يعتقد اعتقاداً صحيحاً من غير معرفة البراهين وترتيب الأدلة في ذلك وحفظ القوانين، وبعد أن يحصل من علم الفروع ما هو فرض عين، كعلم الطهارة والصلاة والصوم، وما لا بد له منه من علم صفات القلب، وما فيها من محمود ومذموم، وما يحتاج إليه السالك مما هو منصوص في كتب السلوك عن الأئمة العارفين بالله تعالى. وعلى الجملة كل ما يحتاج إليه في معاملة الخالق تعالى ومعاملة الخلق، ويلزم الباب حتى يفتح ويحظى بالمواهب والمنح، ويشاهد الجمال والأنوار، ويطلع على المعارف والأسرار، ويخلع عليه خلعة الولاية، ويعقد له اللواء، وينصب لنفع العباد ويسمع الخطاب في كل وقت، بما يقتضيه الحال من تعليم المولى العليم، وتصريف الملك الجواد.

قلت: ومن الخطاب المذكور الذي هو عنهم مشهور وعدده غير محصور، ما روي بالإسناد عن الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه قال: حججت أول ما حججت من بغداد وأنا شاب على قدم التجريد وحدي، فلما كنت عند المنارة المعروفة بأم القرى لقيت الشيخ عدي بن مسافر وحده وهو شاب يومئذٍ؛ فقال: إلى أين؟ قلت: إلى مكة، قال: هل لك في الصحبة؟ قلت: إني على قدم التجريد، قال: وأنا كذلك، فسرنا جميعاً؛ فلما كنا ببعض الطريق إذا نحن بجارية حبشية نحيفة البدن مبرقعة، فوقفت بين يدي وحدقت النظر في وجهي وقالت: من أين أنت يا فتى؟ قلت: من العجم، قالت: قد أتعبتني اليوم، قلت: ولم؟ قالت: لأني كنت الساعة في بلاد الحبش، وأشهدت أن الله تعالى تجلى على قلبك ومنحك من وصله ما لم يمنح بمثله غيرك فيما أعلم، فأحببت أن أعرفك، ثم قالت: أنا اليوم أصحبكما وأفطر الليلة معكما، قال: فجعلت تمشي في جانب الوادي ونحن نمشي في الجانب الآخر، فلما كان العشاء إذا نحن بطبق نازل من الجو، فلما استقر بين أيدينا وجدنا فيه ستة أرغفة وخلاً وبقلاً، فقالت: الحمد لله الذي أكرمني وأكرم ضيفي، إنه يتزل عليّ كل ليلة رغيفان، فأكل كل واحد منا رغيفين، ثم نزل عليه أيضاً ثلاثة أباريق فشربنا منها ماء لا يشبهه ماء الأرض لذة

وحلاوة، ثم ذهبت عنا في ليلتها تلك وأتينا مكة؛ فلما كنا في الطواف منّ الله عز وجل على الشيخ عدي بنازلة من أنواره، فغشي عليه حتى يقول القائل إنه قد مات، وإذا بتلك الجارية واقفة على رأسه تقول: يحييك الذي أماتك، سبحان الذي لا تقوم الحادثات لتجلي نور جلاله إلا بتثبيته، ولا تستقر الكائنات لظهور صفاته إلا بتأييده، بل اختطفت سبحات قدسه أبصار العقول، وأخذت بهجات بهائه ألباب الفحول، قال: ثم إن الله تعالى وله الحمد منّ عليّ بمنازلة من أنواره في الطواف أيضاً، وسمعت خطاباً من باطني؛ وقال في آخر ما قال: يا عبد القادر اترك التجريد الظاهر، والزم تفريد التوحيد وتجريد التفريد، فسنريك من آياتنا عجباً، فلا تشب مرادنا بمرادك، ثبت قدمك بين أيدينا ولا تر في الوجود تصريفاً لسوانا يدم لك شهودنا، واجلس لنفع الناس فإن لنا خاصة من عبادنا سنوصلهم على يدك إلى قربنا، فقالت لي الجارية: يا فتى ما أدري ما شأنك اليوم، إنه ضربت عليك خيمة من نور، وأحاطت بك الملائكة إلى عنان السماء، وشخصت إليك أبصار الأولياء في مقاماتهم، وامتدت إلى مثل ما أعطيت الآمال، ثم ذهبت فلم أرها بعد.

وقال أيضاً: كنت في زمن مجاهدتي أسمع يقال لي: يا عبد القادر ما خلقت للنوم قد أحييناك ولـم تك شيئاً فلا تغفل عنا وأنت شيء.

وقال أيضاً: والله ما أكلت حتى قيل لي بحقي عليك كل، ولا شربت حتى قيل لي بحقي عليك اشرب، وما فعلت شيئاً حتى أمرت بفعله.

وقال أيضاً: كنت صغيراً في بلد أهلي، كلما هممت أن ألعب مع الصبيان سمعت قائلاً يقول لي: إليّ يا مبارك فأهرب فزعاً وألقي نفسي في حجر أمي، وإني لأسمع الآن في خلوتي.

قلت: وقد قدمت عن الشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي، والفقيه محمد بن حسين البجلي اليمانيين رضي الله تعالى عنهما، أنهما سمعا خطاباً من قبل الحق سبحانه: إذا شئتما أن تفعلا شيئاً فافعلاه ولا تستأذناني.

وقال الفقيه إسماعيل الحضرمي رضي الله تعالى عنه: قيل لي يا فقيه إسماعيل إنا مشتاقون إليك، فهل أنت مشتاق إلينا؟ أو قال: فما هذا التخلف؟ فقلت: يا رب عوقتني الذنوب فقال: قد غفرنا لك ولأهل تهامة من أجلك.

وقال صاحبه الفقيه عبد اللّه بن أبي بكر الخطيب المتقدم ذكره في الفصل التاسع من هذا الكتاب رضي الله تعالى عنه: قيل لي سل تعط، فقلت: إذن تكون العطية ناقصة، لأن السائل في محل النقص، ولكن أعطني أنت، أو قال: ما أنت أهله، أو كما قال.

وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي الخير اليمني المشهور بالصياد رضي الله تعالى عنه: خطر بقلبي الاعتزال عن الخلق والسكنى بجبل قاف، فسمعت قائلاً يقول: يا صياد أنت لنا أو لنفسك؟ فقلت: بل لكم فقال: إن كنت لنا فقف هاهنا ولك أجر رجلين من أهل جبل قاف.

وقال أيضاً: خطر بقلبي زيارة أهل جبل قاف، فجئت إلى الساحل، فصار البحر قدامي

كزمام[1] البغل، فسمعت قائلاً يقول: أخط، فقلت: لا أفعل، فقال: لم جئت؟ فقلت: لعلي أركب في السفن فأخدم فيها حتى أصل إليهم، فقال: دع هذا واخط فإن هذه كرامة لك مع ذلك لا تنقص مما أعطيت شيئاً، فقلت: إن كانت هذه كرامة لي فاجعل سرائري مطوية حتى تصل إلى ربي في هذه الساعة، فقال: قد فعلنا لك.

وقال أيضاً وهو يخبر عن أيام البداية: بينما أنا ذات ليلة في المنام، إذ بمنادٍ ينادي: يا صياد أنت تريدنا، فقلت: نعم، فقال: انقطع إلينا في المفازات.

قلت: وقد قدمت عن الفقيه إسماعيل الحضرمي رضي الله تعالى عنه نحواً من هذا وهو فارق الناس أحسن ما كانوا عليه، وتتبع خلوات الفلا في زاوية الجوع والعطش تجدني عند ذلك، إلى آخر قوله، ثم انقطع الكلام.

وقال الولي الكبير الفقيه الشهير الشيخ العارف بالله تعالى سفيان اليمني رضي الله تعالى عنه: قيل لي إذا أردتنا فاترك القولين والوجهين.

وقال إمام الطريقين وشيخ الفريقين علم العلماء وتاج الأولياء أبو عبد الله محمد بن أبي حمزة قدس الله تعالى روحه: عرج بروحي،-أو قال رفعت روحي إلى مكان قيل لي إلى ها هنا أسرى بالجسد المبارك.

قلت: وبسط الكلام في الخطاب يضيق عنه نطاق الكتاب. فإن قيل ما هذا الخطاب المذكور ينسب إلى الله تعالى، وهل يسمى كلاماً أو حديثاً، وما الفرق بين ما تسمعه الأنبياء وما تسمعه الأولياء، وما يترتب من الحكم على من جحد واحداً منهما؟

فالجواب ما قاله الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه في الفرق بين النبوة والولاية أن النبوة كلام ينفصل من الله عز وجل وحياً معه روح من الله تعالى، فينقضي الوحي ويختمه بالروح فيه قبوله، فهذا الذي يلزم تصديقه، ومن رده فإنه كافر، وأما الولاية فهي لمن ولى الله سبحانه حديثه على طريق الإلهام وينفصل ذلك الحديث من الله عز وجل على لسان الحق، معه السكينة التي في قلب المجذوب فيقبله فيسكن، فالكلام للأنبياء، والحديث للأولياء، فمن رد الكلام كفر، لأنه ردّ على الله عز وجل كلامه ووحيه وروحه، ومن رد الحديث لم يكفر، بل يخيب ويصبر وبالا عليه وينهب قلبه، لأنه رد على الحق ما جاءت به محبة الله تعالى من علم الله سبحانه في نفسه، فأودعه الحق وجعله مؤدياً إلى القلب، لأن الحديث ما ظهر من علمه الذي برز في وقت المشيئة فيصير حديثاً في النفس كالسر، إنما يرتفع ذلك الحديث محبة من الله تعالى لهذا العبد، فيمضي مع الحق إلى قلبه فيقبله القلب بالسكينة.

قلت: وهذا كلامه بحروفه وفيه الكفاية في ذلك بل النهاية، وسأذكر كلام الشيخ شهاب الدين

---

(١) الزمام: ما يُشدّ به أو المقود. وزمام النعل: سيرها.

السهروردي في ذلك أيضاً بعد إن شاء الله تعالى، وانظر كيف كرر رضي الله تعالى عنه ذكر الحق في هذا الكلام أربع مرات، فقال: على لسان الحق، ثم قال: لأنه رد على الحق، ثم قال: فأودعه الحق، ثم قال: فيمضي مع الحق، كل هذا لعلمه بأن ذلك حق ليس فيه ريب ولا تهمة ولا شبهة أصلاً، وكيف لا يكون كذلك والواحد منهم يقول: أخبرني قلبي عن ربي، ويقول أحدهم: لي قلب إن عصيته عصيت ربي. وقال شهيرهم علم الأولياء أبو العباس الخضر عليه السلام ورحمة الله وبركاته: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ [الكهف: ٨٢] مع قول الله تعالى فيه: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ [الكهف: ٦٥] وقال خاتم الأنبياء وسيد الأصفياء ﷺ حاكياً عن الله عز وجل: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»[١] الحديث. وفي لفظ آخر: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق» وفي لفظ آخر «ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً».

قلت: وعلى الجملة فهم الواقفون مع الحق في العلوم والأعمال والمقامات والأحوال والأقوال والأفعال وسائر الحركات والسكنات والإرادات والخطرات، وهم معادن الأسرار ومطالع الأنوار، والعارفون المحبون المحبوبون المقربون، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم.

وقد روي أنه كان في ناحية أبي يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنه فقيه، وكان عالم تلك الناحية، فقصد أبا يزيد وقال له: قد حكي لي عنك أعاجيب أتعجب منها، فقال أبو يزيد: وما لم تسمع من عجائبي أكثر، فقال: علمك هذا عمن وممن ومن أين؟ فقال أبو يزيد: علمي من عطاء الله، وعن الله عز وجل، ومن حيث قال رسول الله ﷺ: «من عمل بما يعلم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم» ومن حيث قال عليه الصلاة والسلام: «العلم علمان: علم ظاهر، وهو حجة الله تعالى على خلقه. وعلم باطن، وهو العلم النافع»[٢] فعلمك يا فقيه نقل من لسان إلى لسان للتعليم لا للعمل، وعلمي من الله عز وجل إلهاماً ألهمني من عنده، فقال له الفقيه: علمي بالتأكيد عن الثقات كابر عن كابر[٣] عن الرسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل، فقال أبو يزيد: يا فقيه للنبي ﷺ علم عن الله عز وجل لم يطلع عليه جبرائيل ولا ميكائيل عليهما السلام، فقال نعم، ولكن أريد أن توضح لي علمك الذي تقول هو من عند الله تعالى، فقال: أبينه لك بقدر ما يستقر في قلبك معرفته، ثم قال: يا فقيه أعلمت أن الله عز وجل كلم موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام تكليماً، وكلم محمداً ﷺ ورآه كفاحاً، وكلم الأنبياء وحياً؟ فقال: بلى، فقال: أيها الفقيه أما علمت أن كلامه للأولياء والصديقين بالإلهام منه لهم، وإلقاء فوائده في قلوبهم وتأييده لهم، ثم أنطقهم بالحكمة ونفع بهم الأمة، وفيما يؤكد ما قلته ما ألهم الله عز وجل أم موسى: ﴿أن اقذفيه في التابوت﴾ [طه: ٣٩] ثم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الدارمي (مقدمة ٣٤).

(٣) الكابر: الكبير، والرفيع الشأن والشرف. يقال: توارثوا المجد كابراً عن كابر، أي: ورثوه عن آبائهم وأجدادهم كبيراً عن كبير.

تقذفه في اليم، وكما ألهم الله سبحانه الخضر في أمر السفينة وأمر الغلام والحائط، وقوله لموسى **﴿وما فعلته عن أمري﴾** [الكهف: ٨٢] إنما هو علم الله عز وجل، قال الله تعالى: **﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾** [الكهف: ٦٥] وكما ألهم يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام في السجن فقال: **﴿ذلكما مما علمني ربي﴾** [يوسف: ٣٧] وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لعائشة رضي الله تعالى عنها: إن بنت خارجة حاملة بينت، ولم يكن استبان حملها، فولدت جارية: أو كما قال، وكما قال الفاروق رضي الله تعالى عنه وهو على المنبر بالمدينة: يا سارية الجبل، ومثل هذا كثير، وأهل الإلهام قوم اختصهم الله تعالى بالفوائد فضلاً منه عليهم وكرامة لهم، فضل الله تعالى بعضهم على بعض في الإلهام والفراسة فقام ذلك الفقيه من عنده وقال: قد أعطيتني أصلاً وشفيت صدري.

وقال ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب أعينهم، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً، وفجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عي ولا بكم، وإنهم لهم البلغاء الفصحاء العارفون بالله وبرسوله ﷺ، ثم شربوا بكأس الصفا فورثوا الصبر على طول البلا، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت: واستظلوا تحت رواق الندم، وقرؤوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع، حتى ظفروا بحب النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلى حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع، وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا في سفينة العطية وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة، ومعدن العز والكرامة.

وقال أيضاً: اللهم اجعلنا من الذين تاهت أرواحهم في الملكوت، وكشفت لها حجب الجبروت، فخاضوا في بحر اليقين، وتنزهوا في زهرة رياض المتقين، وربكوا في سفينة التوكل، وأقلعوا بشراع التوسل، وساروا بريح المحبة في جداول قرب العزة، وحطوا بساحل الإخلاص فنبذوا الخطايا، وحملوا الطاعات برحمتك يا أرحم الراحمين. وأنشد بعضهم:

ركبَ المُحبُ إلى الحبيبِ سفينة ... تجري من الخطراتِ في أمواجِ
في سرّ سرّ السرّ سرّا أقلعت ... في لج بحر زاخر عجاجِ
يا حسنها تجري به مُتفردا ... بعلومه في جنحِ ليلٍ داجِ
فالقلبُ مشكاة وفيه زجاجة ... قد علقت بسلاسلِ المنهاجِ(١)
متوقدا بالنّورِ من زيتونةِ ... تسقي سراجاً فاقَ كل سراجِ

قلت: ولما كان هذا الكتاب متعلقاً بالصوفية رضي الله تعالى عنهم، رأيت أن أذكر في هذه الخاتمة الصوفي من هو، ولم سمي بهذا الاسم، ومتى حدث ذاك والفرق بين الصوفي وغيره من الفرق المنتمية إلى الصوفية وليسوا منهم، والفرق بين التصوف والفقر والزهد، وبين الصوفي والمتصوف

---

(١) المشكاة: كل كوة غير نافذة أو ما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح.

والمتشبه على سبيل الاختصار؟ وأقدم على ذلك كله ذكر شيء مما قيل في عدد رجال الغيب المعدودين، إذ هم رؤساء الصوفية المقدمون، وانقسامهم إلى قطب وأوتاد وبدلاء ونقباء ونجباء، وقيل ومنهم العرفاء أيضاً والمختارون والعصائب.

قال بعض العارفين رضي الله تعالى عنهم: الصالحون كثير مخالطون للعوام إصلاح الناس في دينهم ودنياهم؛ والنقباء في العدد أقل منهم وهم مخالطون للخواص لمزيد أحوال الناس بهم في بركات الدين والدنيا؛ والأبدال في العدد أقل منهم نازلون في الأمصار العظام لا يكون منهم في المصر إلا الواحد بعد الواحد، فطوبى لأهل بلدة كان فيها اثنان منهم؛ والأوتاد واحد في اليمن وواحد في الشام وواحد في المشرق وواحد في المغرب، والله سبحانه وتعالى وتقدس يدير القطب في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء، وقد سترت أحوال الغوث وهو القطب عليه السلام عن العامة والخاصة غيرة من الحق تعالى عليه، غير أنه يرى عالماً كجاهل أبله كفطن، تاركاً آخذاً قريباً بعيداً، سهلاً عسراً آمناً حذراً، وكشفت أحوال الأوتاد للخاصة وسترت عن العامة، وكشفت أحوال البدلاء للخاصة والعارفين، وسترت أحوال النجباء والنقباء عن العامة خاصة، وكشف حال بعضهم لبعض، وكشف حال الصالحين للعموم والخصوص ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ [الأنفال: ٤٢] وعدة النجباء ثلاثمائة، والنقباء أربعون، والبدلاء قيل ثلاثون، وقيل أربعة عشر، وقيل سبعة وهو الصحيح، والله تعالى أعلم؛ والأوتاد أربعة، فإذا مات القطب جعل مكانه خيار الأربعة، وإذا مات أحد الأربعة جعل مكانه خيار السبعة، وإذا مات أحد السبعة جعل مكانه خيار الأربعين، وإذا مات أحد الأربعين جعل مكانه خيار الثلثمائة وإذا مات أحد الثلثمائة جعل مكانه خيار الصالحين، فإذا أراد الله سبحانه أن يقيم الساعة أماتهم أجمعين. قال: وبهم يدفع الله سبحانه عن عباده البلاء، وينزل قطر السماء انتهى. وهو بعض كلامه.

وروي عن الخضر عليه السلام أنه قال: ثلاثمائة هم الأولياء، وسبعون هم النجباء وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، وواحد هو الغوث.

وعن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه أنه قال: البدلاء بالشام، والنجباء بمصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض، والخضر عليه السلام سيد القوم.

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى في الأرض ثملاثمائة قلوبهم على قلب آدم، وله أربعون قلوبهم على قلب موسى، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، وله واحد قلبه على قلب إسرافيل. فإذا مات الواحد أبدل الله سبحانه مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله

مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلثمائة؛ وإذا مات من الثلثمائة أبدل الله مكانه من العامة، يدفع الله بهم البلاء عن هذه الأمة»[١].

وقال بعض العارفين: والواحد المذكور في هذا الحديث هو القطب وهو الغوث عليه السلام، مكانه ومكانته من الأولياء كالنقطة من الدائرة التي هي مركزها، به يقع صلاح العالم.

وقال بعضهم: لم يذكر رسول الله ﷺ قلبه في جملة الأنبياء والملائكة والأولياء، إذ لم يخلق الله عز وجل في عالمي الخلق والأمر أعز وألطف وأشرف من قلبه ﷺ؛ فقلوب الملائكة والأنبياء والأولياء بالإضافة إلى قلبه كإضافة سائر الكواكب إلى كمال الشمس.

قلت: وقد سمعت الشيخ الكبير العارف بالله تعالى نجم الدين الأصفهاني رضي الله تعالى عنه خلف مقام إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام يذكر أن الخضر عليه السلام يسأل الله عز وجل أن يقبضه إليه عندما يرفع القرآن.

قلت: والظاهر، والله تعالى أعلم، أن القطب وسائر الأولياء المعدودين وغيرهم من الموجودين في ذلك الوقت، يطلبون الموت أيضاً حينئذٍ، إذا ليس بعد رفع القرآن تطيب الحياة لأهل الخير، بل لا يبقى في الأرض خير، وما ذكرت من كون الخضر حيًّا هو الذي قطع به الأولياء، ورجحه الفقهاء والأصوليون وأكثر المحدثين، واشتهر في عامة العوام. وممن ذكر هذا أو نحوه الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح، ونقله عنه الشيخ الإمام محيي الدين النواوي رضي الله تعالى عنهما وقرره. وقد ذكرت في غير هذا الكتاب أن جماعة من الشيوخ الكبار اجتمعوا به، بل خلائق لا يحصون؛ ولم يزل الصديقون رضي الله تعالى عنهم في كل زمان يخبرون أنهم اجتمعوا به، وذلك مشهور ومستفيض عنهم، ومروي عنهم في الكتب المشهورات التي رواها العلماء والثقات.

وقد قال الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام رضي الله تعالى عنه: والله لقد أخبر عنه سبعون صديقاً أنهم رأوه بأعينهم لما سئل عن الخضر أحي هو أم ميت؟

قلت: ووالله لقد أخبرني غير واحد من الأولياء أنهم اجتمعوا به، بل والله لقد أخبروني أنه اجتمع ربي وسألني عن شيء فأجبته ولم أعرفه، لأنه لا يعرفه إلا صاحب نور، وإنما ذكرت هذا كله لما بلغني من مبالغة ابن الجوزي في إنكاره حياة الخضر: والعجب كل العجب من هذا الرجل في إنكاره الشمس ليس دونها سحاب، وجحده ما قال به الصدّيقون الأحباب أولو الألباب، وقد قدمت شيئاً من الكلام معه في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وذكرت هناك أن كلامه ينقض بعضه بعضاً، لأنه قد روي في كونه حياً أربع روايات بالأسانيد المتصلات عن علي وابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم وعن إلياس عليه السلام، وكذلك إنكاره على الأولياء من كبار الصوفية أشياء صدرت عن أحوال لا يعرفها وعلوماً لا يدريها ولا يفهمها، والعجب منه أيضاً أنه يحكي عنهم أشياء مستحسنة غريبة وكرامات وقعت لهم عجيبة يطرّز بها كلامه، ثم ينكرها عليهم في موضع آخر، وذلك يعرفه من

---

(١) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٥٥٤٩)، وابن حجر في (لسان الميزان ٤/ ٣٤٩).

وقف على كتبه كتلبيس إبليس وغيره، والكلام معه في ذلك هنا يخرجنا عن المقصود فلنثن العنان إلى ما نحن بصدده ونعود فنقول:

بيان ماهية التصوف[1]

قال أبو محمد رويم رضي الله تعالى عنه: التصوف مبني على ثلاثة خصال: التمسك بالفقر والافتقار، وللتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار. وقال أيضاً: هو استرسال النفس مع الله سبحانه على ما يريد.

وقال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه، وقد سئل عن التصوف: أن يكون مع الله تعالى بلا علاقة، وقال أيضاً: هو أن يميتك الحق تعالى عنك ويحييك به.

وقال أيضاً: التصوف ذكر مع اجتماع: ووجل مع استماع، وعمل مع اتباع. وقال أيضاً: الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح.

وقال أبو محفوظ معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق.

وقال أبو محمد سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه: الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله تعالى عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر.

وقال أبو محمد الحريري رضي الله تعالى عنه: التصوف الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني.

وقال بعضهم: التصوف أوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة.

وقال أبو حفص رضي الله تعالى عنه: التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن حفظ أدب الأوقات بلغ مبالغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول.

وقال أبو علي الروذباري رضي الله تعالى عنه: التصوف الإناخة على باب الحبيب وإن طرد. وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

وإنْ طردوني كنتُ عبداً لعبدهم — وإنْ أبعدوني زدتُ في الحبِّ والودِ
ولي عندُهم هجر كما حكم الهوى — وهم لهم وصلٌ ومنزلةٌ عندي

وقال الروذباري أيضاً: أقبح كل قبيح صوفي شحيح.

---

(١) انظر حديث القشيري عن التصوف في الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ ـ ٢٨٣.

وقال أبو تراب النخشبي رضي الله تعالى عنه: الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء.

وقال بعضهم: الصوفي يكون مع الواردات لا مع الأوراد.

وقال ذو النون رضي الله تعالى عنه وقد سئل عن التصوف: هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء، فآثرهم على كل شيء.

وقال حمدون القصار(١) رضي الله تعالى عنه: اصحب الصوفية فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير، وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه: أحسن ما قيل في هذا الباب قول من قال: هذا طريق لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل.

وعن الفقيه العالم العارف بالله تعالى إسماعيل بن محمد الحضرمي رضي الله تعالى عنه أنه قال: اجتمعت بالشيخ أبي الغيث رضي الله تعالى عنه بعد موته فقلت له: أنت الشيخ أبو الغيث؟ فقال: نعم، أنا الشيخ أبو الغيث ولي دار أريد أن أبنيها، ليدع المتصوفون تصوفهم إلا من أربع خصال: أن يكون لله لا له: وللخلق لا له، وأن لا يرفع قدمه ولا يضعها إلى في طريقة واحدة، طريقة مخالفة النفوس، وأن لا يقصد إلا مقصداً واحداً، مقصد: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ [الرحمٰن: ٧].

قلت: وأقوال المشايخ رضي الله تعالى عنهم في ماهية التصوف تزيد على ألف قول، وقد اقتصرت منها على هذه الأقوال:

ذكر ما قيل في تسميتهم بهذا الاسم
وإلى أي شيء هذه النسبة على وجه الاختصار

اعلم أنه قد اختلف في اسم الصوفي فقيل منسوب إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين رضي الله تعالى عنهم على عهد رسول الله ﷺ، وقيل إلى الصف الأولى بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله سبحانه بقلوبهم، وقيل إلى الصوف، لأن لباسه كان غالباً على المتقدمين من سلفهم لكونه أرفق وأقرب إلى الخمول والتواضع والزهد، ولكونه لباس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد جاء «أن رسول الله ﷺ كان يركب الحمار ويلبس الصوف» وعنه ﷺ أنه قال: «مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام» وعنه ﷺ أنه قال: «يوم كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام كان عليه جبة من صوف وسراويل من صوف وكساء من

---

(١) هو حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابوري (توفي ٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م) أبو صالح. صوفي، كان شيخ أهل الملامة بنيسابور ومنه انتشر مذهب الملامة، وكان عالماً فقيهاً يذهب مذهب الثوري وله طريقة اختص بها. (الأعلام ٢/ ٢٧٤، والرسالة القشيرية ص ٤٢٦).

صوف»[1]، وقيل إن عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام كان يلبس الصوف والشعر، ويأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى.

وقال الحسن البصري رضي الله تعالى عنه: لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف.

قلت: وهذا القول الثلث هو المناسب للاشتقاق اللغويّ أعني النسبة إلى الصوف.

وقيل أصل هذا الاسم صفوي من الصفا، أو من المصافاة، فاستثقل ذلك وجعل صوفياً: والله تعالى أعلم.

وقد سمعت بعض شيوخنا يقول: الصوفي من صوفي.

قلت: وفي هذا المعنى أنشد بعضهم:

تخالفَ الناسُ في الصوفي واختلفوا وكلهم قالَ قولاً غير معروفِ
ولستُ أمنح هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سُمي الصوفي

قلت: وإلى هذا أشرت فيما تقدم من الأبيات بقولي:

بمذهبهم قتلَ الغرامُ شهادة وشهد ومحقونَ الدماء مُباحِ
سلامٌ على السادات من كل صادقٍ له مسرح في معركٍ ومراحِ
صفا ثم صوفي فهو صوفي مخيم على بابِ سعدى ليس عنه براحِ

ذكر متى حدث اسم الصوفية وعرف واشتهر

روينا عن شيخ الإسلام العالم بالله تعالى الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه في كتابه الحفيل معدن الأسرار واللطائف عوارف المعارف، بإسناده إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «وقف رسول الله ﷺ يوماً على أهل الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال: أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقي منكم على النعت الذي أنتم عليه اليوم راضياً بما هو فيه، فإنه من رفقائي يوم القيامة»[2].

قال الشيخ شهاب الدين المذكور بعد ذكر هذا الحديث: وقيل كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات؛ ولا يسكنون القرى والمدن، فسموهم في خراسان شكتفية لأن شكتف اسم المغار، يعني عنده ينسبونهم إلى الماوى والمستقر. قال: وأهل الشام يسمونهم جوعية، ثم قال:

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك ١/٢٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٣٨٠)، والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة ١/٨٥)، وصاحبه (ميزان الاعتدال ٢٣٤٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٤/٢٣١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/١١٥)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ١٠٣٣) وابن حبان في (المجروحين ١/٢٦٢).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٣/٢٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٥٧٧).

والله تعالى ذكر في القرآن العظيم طوائف أهل الخير والصلاح، فسمى قوماً أبراراً، وآخرين مقربين، ثم ذكر أن منهم الصابرين والصادقين والذاكرين والمخبتين والمحسنين. قال: واسم الصوفي يشمل جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة، قال: وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ. وقيل كان في زمن التابعين.

ونقل عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه أنه قال: رأيت صوفياً في الطواف، فأعطيته شيئاً فلم يأخذ وقال: معي أربعة دوانق[1] يكفيني ما معي. قال: ويشبه هذا ما روي عن سفيان رضي الله تعالى عنه أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقائق الرياء.

قال: وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة، لأن في زمن رسول الله ﷺ كان يُسمى من صحب النبي ﷺ صحابياً لشرف صحبته ﷺ، وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة؛ وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم يسمى تابعياً، ثم لما تقادم زمان الرسالة، وبعد عهد النبوة، وانقطع الوحي السماوي، وتوارى النور المصطفوي، واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء، وتفرد كل ذي رأي برأيه، وكدر شرب العلوم شوب الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات وكثف حجابها، وكثرت العادات وتملكت أربابها، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها، تفرد طائفة بأعمال صالحة، وأحوال سنية، وصدق في العزيمة، وقوة في الدين، وزهد في الدنيا، واغتنموا العزلة والوحدة، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة، وينفردون أخرى. أسوة بأهل الصفة رضي الله تعالى عنهم، تاركين للأسباب، متبتلين إلى رب الأرباب: فأثمر لهم صالح الأعمال وسني الأحوال، وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان، كما قال حارثة: أصبحت مؤمناً حقاً، حيث كوشف برتبة في الإيمان غير ما عهد، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعهدونها فحرروا لنفوسهم إصلاحات تشير إلى معان يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف من السلف، حتى صار ذلك رسماً مستمراً، وخيراً مستقراً في كل عصر وزمان، فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به، فالاسم سمتهم، والعلم بالله تعالى صفتهم، والعبادة حليتهم، والتقوى شعارهم، وحقائق الحقيقة أسرارهم، نزاع القبائل وأصحاب الفضائل، سكان قباب الغيرة، وقطان ديار الحيرة، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله سبحانه مزيد، ولهيب شوقهم يتأجج ويقول: ﴿هل من مزيد﴾ [ق: ٣٠].

قلت: فهذا بعض كلام الإمام شهاب الدين المذكور.

وقال الأستاذ الإمام علم العلماء الأعلام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه فيما رويناه عنه في رسالته المشهورة المشكورة: اعلموا رحمكم الله تعالى أنَّ المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم

---

(١) جمع الدانق: وهو سدس الدرهم.

الصحابة، ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلفت وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة انتهى كلامه.

ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

قال الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: فمن أولئك قوم يسمون أنفسهم قلندرية تارة، وملامتية[1] أخرى. قال: وقد ذكرنا حال الملامتية، وأنه حال شريف ومقام عزيز، وتمسك بالسنن والآثار: وتحقق بالإخلاص والصدق، وليس مما يزعم المفتونون بشيء، فأما القلندري فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة القلوب حتى خرقوا العادات، وطرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا لفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصته، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، ومع ذلك متمسكون بترك الادخار، وترك الجمع والاستكثار، لا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى واقتصروا على ذلك، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة قلوبهم والفرق بين الملامتي والقلندري، أن الملامتي يعمل في كتم العبادات، والقلندري يعمل في تخريب العادات، والملامتي يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه، ولكن يخفي الأعمال والأحوال، ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه وحركاته وأموره ستراً للحال، لئلا يفطن له، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد باذل مجهوده في كل ما يتقرب به العبيد، والقلندري لا يتقيد بهيئته، ولا يبالي بما يعرف من حاله وما لا يعرف، ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس مال. والصوفي يضع الأشياء مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم يقيم الخلق مقامهم، ويقيم أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغي أن يستر، ويظهر ما ينبغي أن يظهر، ويأتي بالأمور في مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص. ثم قال: فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية، ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا إلى الصوفية، وما هم من الصوفية بشيء، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقياً تارة ودعوى أخرى ثم ذكر أن بعض هؤلاء المفتونين ينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، وهذا عندهم هو الظفر بالمرام والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصري الأفهام، ثم قال: وهذا عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، وكل حقيقة ردتها الشريعة زندقة.

---

(١) الملامتية: من مذاهب الصوفية. سئل عنه حمدون فقال: هو خوف القدرية ورجاء المرجئة.

وبعضهم يقولون بالحلول ويزعمون أنَّ الله تعالى يحل فيهم ويحل في أجسام يصطفيها، ويسبق إلى فهومهم معنى من قول النصارى في اللاهوت والناسبوت، تعالى الله عن أَنْ يحل بشيء أو يحل به شيء. ومنهم من يستبيح النظر المستحسنات إشارة إلى هذا الوهم. وبعضهم يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، لا فعل لهم مع فعل الله عز وجل، ويسترسلون في المعاصي، وكلما تدعو النفوس إليه، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة والاغترار بالله تعالى، والخروج من الملة وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام.

قال: وقد سئل سهل رضي الله تعالى عنه عن رجل يقول: أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حركت، فقال هذا لا يقوله إلا أحد رجلين: إما صديق، أو زنديق، إلا أن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أنَّ قوام الأشياء بالله تعالى سبحانه مع أحكام الأصول ورعاية العبودية، والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله تعالى وإسقاط اللائمة عن نفسه وانخلاعاً عن الدين ورسمه وبعضهم ربما كان عنده ذكاء وفطنة غريزية ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه فيتألف له في باطنه كلمات ينسبها إلى الله تعالى وأنها مكالمة الله عز وجل إياه، مثل أَنْ يقول قال لي وقلت لهُ، وهذا رجل جاهل بنفسه وحديثها جاهل بربه وبكيفية المكالمة والمحادثة، أو عالم ببطلان ما يقول يحمله هواه على الدعوى بذلك؛ ليوهم أنه قد ظفر بشيء، وكل هذا ضلال، ويكون سبب تجرئه على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين من مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد في الدنيا، فلما صفت أسرارهم تشكلت في سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة نزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ولا يكون ذلك كلاماً يسمعونه بل كحديث في النفس يجدونه موافقاً للكتاب والسنة، مفهوماً عند أهله موافقاً للعلم، ويكون ذلك مناجاة بسرائرهم، ومناجاة سرائرهم إياهم، فيثبتون لنفوسهم مقام العبودية ولمولاهم الربوبية، فيضيفون ما يحدونه إلى نفوسهم وإلى مولاهم، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله سبحانه، وإنما هو علم حادث أحدثه الله عز وجل في بواطنهم، فطريق الأصحاء في ذلك الفرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم؛ حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى، وألهموا في بواطنهم شيئاً ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث، لا نسبة الكلام إلى المتكلم، ليصانوا عن الزيغ والتحريف، انتهى كلامه مختصراً.

قلت: وقد تقدم في آخر الخطاب كلام الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه في الفرق بين النبوة والولاية وتفريقه بين الكلام الذي يسمعه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالوحي، وبين الحديث الذي يسمعه الأولياء رضي الله تعالى عنهم بطريق الإلهام، وتقدم أيضا في موافقتهم للشريعة كلام الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه في الذين قالوا بإسقاط الأعمال، وكل هؤلاء المذكورين ليسوا من الصوفية وإنما انتموا إليهم وتزيوا بزيهم، بل ليسوا من الدين في شيء.

بيان الفرق بين التصوف والفقر[1] والزهد[2]

قال الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: التصوف غير الفقر، والزهد غير الفقر، والتصوف غير الزهد، فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد، مع مزيد وإضافات لا يكون الرجل بدونها صوفياً، وإن كان زاهداً وفقيراً قال: وقيل نهاية الفقر مع شرفه بداية التصوف. قال: وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر يقولون: قال الله تعالى: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ [البقرة: ٢٧٣] هذا وصف الصوفية والله سبحانه سماهم فقراء، وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر فنقول: الفقير في فقره متمسك به متحقق بفضله، يؤثره على الغني متطلعاً إلى ما تحقق من العوض عند الله تعالى، حيث يقول رسول الله ﷺ «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[3] فكلما لاحظ العوض الباقي أمسك عن الحاصل الفاني، وعانق الفقر والقلة وخشي زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض، وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفي، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها، والصوفي يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة، فإنه ابن وقته، وأيضاً ترك الفقير الحظ العاجل اختياراً منه وإرادة، والاختيار والإرادة علة في حال الصوفي، لأن الصوفي صار قائماً في الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه، فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا في صورة غنى، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق عز وجل فيه ويدخله عليه ويعلم الإذن من الله سبحانه في الدخول في الشيء، وقد يدخل في صورة سعة مباينة للفقر بإذن الله تعالى، ويرى الفضيلة حينئذ في سعة لمكان أذن الله تعالى في ذلك، ولا يفسح في السعة والدخول فيها للصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن، وفي هذا مزلة للأقدام وباب دعوى للمدعين، وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راكب المجال ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة﴾ [الأنفال: ٤٢] فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف.

واعلم أن الفقر أساس التصوف وبه قوامه على معنى الوصول إلى رتبة التصوف طريقه الفقر، لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر، انتهى كلامه، ولم يذكر الفرق بين الفقر والزهد.

قلت: والفرق بينهما ظاهر، فإن الفقير متحل بخلى مشتملة على محاسن كثيرة لا توجد في الزاهد، من الاطراح والخمول والتمزق وخدمة الفقراء والوجد وخلع العذار والكياسة والرياضة والآداب، والتنقي من الأوصاف الذميمة كالكبر والعجب والحسد وغيرها، والتحلي بمحاسن يتعذر حصرها غير ما ذكرت. وعلى الجملة فمحاسن الزاهد بعض محاسن الفقير ومحاسن الفقير بعض محاسن الصوفي، أقول ذلك مع اعترافي بأني خال من الأوصاف الثلاثة.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الفقر في الرسالة القشيرية ص ٢٧١ ـ ٢٧٩.

(٢) انظر حديث القشيري عن الزهد في الرسالة القشيرية ص ١١٥ ـ ١١٩

(٣) سبق تخريجه.

قلت: وقد تقدم فضل الزهد والفقر في المقامات.

ومما يدل أيضاً على فضل الفقر وشرفه، ما أخبرني بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له: يا رسول الله، والله إني خائف، فقال ﷺ: «لا تخف فإنك فقير».

وكذلك أخبرني بعض الصالحين أنه قيل له في المنام في شهر رمضان: أنت تموت على حب الله وحب رسوله، وعلى الطريقة المستقيمة، قال: فقلت وما الطريقة المستقيمة؟ فقيل لي: طريقة الفقراء انتهى. اللهم أحينا وأمتنا على محبتهم، ووفقنا لسلوك طريقتهم، وأعد علينا من بركتهم وأحبابنا والمسلمين آمين.

وكذلك أخبرني بعض الفقراء أنه رأى في ليلة من الليالي الشريفات المباركات وهو نائم في المسجد الحرام جماعة يطوفون في المسجد، وبيد واحد منهم دواة وبيد آخر قلم، وكأنهم يكتبون الناس، قال: فلما وقفوا عليّ قال واحد منهم: إيش أكتب هو نائم، وقال آخر: اكتبه فقير.

قلت: هكذا قال فقير، بإسكان الراء غير معرب، وكأنهم والله تعالى أعلم يكتبون المتعبدين في تلك الليلة، فلما رأوه نائماً خالياً عن فضيلة إحياء تلك الليلة كرهوا أن يهملوه وفيه صفة أخرى عظيمة الفضيلة، أعني صفة الفقر الجليلة القدر والعظيمة الفخر الباقية على طول الدهر، وقد أشرت إلى ذلك فيما تقدم بقولي:

وأما بنو الأخرى ففي الفقر فخرهم نضارته تزداد ما بقي الدهر

بيان الفرق بين الصوفي والمتصوف والمتشبه

قال الشيخ الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه: طريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق، فالمتشبه صاحب إيمان، والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير.

وقال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: التصديق بطريقنا هذا ولاية.

وقال الشيخ شهاب الدين: ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة وآثار مستغربة عند أكثر الخلق، لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم، وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله تعالى والقرب منه والإيمان بذلك إيمان بالقدرة، ولهم علوم من هذا القبيل، فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله بمزيد عناية، فالمتشبه صاحب إيمان، والمتصوف صاحب علم، لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم، وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائرها، والصوفي صاحب ذوق، فللمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفي، وللمتشبه يعني الصادق نصيب من حال المتصوف قال: وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لا بد أن يكشف له علم بحال أعلى مما هو فيه، فيكون في الحال الأول صاحب ذوق، وفي الحال الذي كوشف به صاحب علم، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكاً، فيكون في حال الذوق صاحب قدم، وفي حال العلم صاحب نظر، وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان. ثم قال بعد كلام طويل: فالصوفي في مقام

الروح صاحب مشاهدة، والمتصوف في مقام القلب صاحب مراقبة، والمتشبه في مقام النفس صاحب مجاهدة ومحاسبة، فتلوين الصوفي بوجود قلبه، وتلوين المتصوف بوجود نفسه، والمتشبه لا تلوين له: لأن التلوين[1] لأرباب الأحوال، والمتشبه مجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال.

قلت: ومن هذا يعلم أنا أيضاً لا من المتصوفين ولا من المتشبهين، بل من المدعين الكذابين.

قال: والكل يجمعهم دائرة الاصطفاء، ثم قال الله عز وجل: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾** [فاطر: ٣٢] قال بعضهم: الظالم يجزع من البلاء، والمقتصد يصبر عند البلاء، والسابق يتلذذ بالبلاء.

وقال بعضهم: الظالم يعبد على الغفلة والعادة، والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة، والسابق يعبد على الهيبة والمنة.

وقال بعضهم: الظالم صاحب الأقوال، والمتقد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال.

قال: وكل هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفي والمتصوف والمتشبه، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح، ثم روي بإسناده إلى النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: **﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾** [فاطر: ٣٢] كل في الجنة»[2].

وقال بعضهم: الظالم الذي يحب الله عز وجل من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحب الله سبحانه من أجل العقبى، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق تعالى فيه.

قلت: أقوالهم هذه في الآية الكريمة مناسبة لأحوالهم، وأقوال المفسرين معروفة.

قال: فالمتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم، وهو مع قصوره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته، وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذي رويناه في المعنى، يعني قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»[3] عن أبي ذر الغفاري[4] رضي الله تعالى عنه قال: «قلت يا رسوله الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم، قال: أنت يا أبا ذر مع من أحببت، قلت فإني أحب الله ورسوله، قال فإنك مع من أحببت»[5].

قال شهاب الدين رضي الله تعالى عنه: سمعت شيخنا يقول: جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٧٨ ـ ٨٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ١٩٤).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ٢/ ١٤٠، وفي طبقات ابن سعد ٤/ ١٦١ ـ ١٧٥، وحلية ١/ ١٥٦.

(٥) أخرجه أبو داود في (السنن ٥١٢٦)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ١٥٦، ١٦٦)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٢٥٠٦)، والدارمي في (السنن ٢/ ٣٢٢)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٢٧).

أحمد الغزالي رضي الله تعالى عنه ونحن بأصبهان يريد منه الخرقة، فقال له الشيخ: اذهب إلى فلان، يشير إليّ، حتى يكلمك في معنى الخرقة، ثم احضر إليّ حتى ألبسك الخرقة، قال: فجاء إليّ، فذكرت له حقوق الخرقة وما يجب عليه من رعاية حقها وآداب من لبسها ومن يؤهل للبسها، فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن أن يلبسها، فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولي له، فاستحضرني وعاتبني على قولي ذلك له وقال: بعثته إليك حتى تكلمه فيما يزيده رغبة في الخرقة، فكلمته بما فتر عزيمته، فقال: الذي ذكرته كله صحيح، وهو الذي يجب من حقوق الخرق، ولكن إذا ألزمنا المبتدي بذلك نفر وعجز عن القيام به، فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيا بزيهم، فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم، وببركة مخالطته لهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرتهم يحب أن يسلك مسلكهم، ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم.

وقال شهاب الدين: فالمتشبه الحقيقي له إيمان بطريق القوم وعمل بمقتضاه وسلوك واجتهاد، على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة، ثم يصير متصوفاً صاحب مراقبة، ثم يصير صوفياً صاحب مشاهدة، فأما من لم يتطلع إلى حال المتصوف والصوفي بالتشبه، ولا يقصد أوائل مقاصدهم، بل هو على مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة في الزي والصورة دون السيرة والصفة، فليس بمتشبه بالصوفية لأنه غير محاك لهم بالدخول في بداياتهم، فإذا هو متشبه بالمتشبه يعزي إلى القوم بمجرد لبسه، ومع ذلك «هم القوم لا يشقى جليسهم»[1]. وقد ورد: «من تشبه بقوم فهو منهم» انتهى كلامه مختصراً.

قلت: ويا ليت هذا يكون حالنا.

وقال الشيخ الإمام شيخ شيوخ الإسلام، قطب الأولياء الكرام محيي الدين عبد القادر رضي الله تعالى عنه: المتصوف المبتدي والصوفي المنتهي، المتصوف الشارع في طريق الوصل والصوفي من قطع الطريق ووصل إلى من إليه القطع والوصل. المتصوف محمل والصوفي محمول، حمل المتصوف كل ثقيل وخفيف، فحمل حتى ذابت نفسه وزال هواه وتلاشت إرادته وأمانيه، فصار صافياً فسمي صوفياً فحمل، فصار محمول القدر، كرة المشيئة، مربي القدس، منبع العلوم والحكم، بيت الأمر والنور، كهف الأولياء والأبدال، وموئلهم ومرجعهم، ومستراحهم ومتنفسهم ومشربهم، إذ هو عين القلادة درة التاج منظر الرب. المتصوف مكابد لنفسه وهواه وإرادته وشيطانه ودنياه وأخراه، متعبد لربه عز وجل بمفارقة هذه الجهات الست والأشياء، وترك العمل لها وموافقتها والقبول منها، وتصفية باطنه من الميل إليها، والاشتغال بها فيخالف شيطانه ويترك دنياه، ويفارق أقرانه وسائر خلق ربه بحكمه عز وجل لطلب أخراه، ثم يجاهد نفسه وهواه بأمر الله عز وجل فيفارق أخراه، وما أعده الله تعالى لأوليائه فيها في جنته لرغبته في مولاه، فيخرج من الأكوان فيتصفى من الأحداث ويتجوهر لرب الأنام، فتقطع عنه العلائق والأسباب والأهل والأولاد فتنسدّ عنه الجهات وتنفتح في وجهه جهة الجهات وباب الأبواب، وهو الرضا بقضاء رب الأنام ورب الأرباب، وما يفعل فيه الفعال العالم بما

---

(١) سبق تخريجه.

مضى وما هو آت، والخبير بالسرائر والخفيات، وما تتحرك به الجوارح، وما تضمره القلوب، ثم يفتح تجاه هذا الباب باب يسمى باب القرب إلى المليك الديان، ثم يرفع منه إلى مجالس الأنس، ثم يجلس على كرسي التوحيد، ثم يرفع عنه الحجب ويدخل دار الفردانية، ويكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو، فانياً عن نفسه وصفاته، وعن حوله وقوته وحركاته وإرادته ومناه ودنياه وأخراه، فيصير كإناء بلور مملوء ماء صافياً تتبين فيه الأشباح، فلا يحكم عليه إلا القدر، ولا يوجده غير الأمر، فهو فان عنه وعن حظه، موجود لمولاه وأمره، فلا يطلب خلوة لأن الخلوة للموجود، فهو كالطفل لا يأكل حتى يطعم، ولا يلبس حتى يلبس، فهو مسترسل مفوض ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ [الكهف: ١٨] الآية، وهو كائن بائن بين الخليقة بالجثمان، بائن عنهم بالأفعال والأعمال، والسرائر والضمائر والنيات، فحينئذ يسمى صوفياً على معنى أنه تصفى من التكدير بالخليقة والبريات، وإن شئت سميته بدلاً من الأبدال، وعيناً من الأعيان، عارفاً بنفسه وربه، الذي هو محيي الأموات، المخرج أولياءه من ظلمات النفوس والطباع والأهوية والضلالات إلى ساحة الذكر والمعارف والأسرار والعلوم ونور القربة، ثم إلى نوره عز وجل، قال الله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ـ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ [النور: ٣٥]. فالله سبحانه تولى إخراجهم من الظلمات، وأطلعهم على ما أضمرت قلوب العباد وانطوت عليه النيات، إذ جعلهم جواسيس القلوب، والأمناء على السر والخفيات والخطرات، لا شيطان مضل، ولا هوى متبع، ولا نفس أمارة بالسوء، ولا شهوة غالبة متبعة تدعوه إلى اللذات المردية في الدركات، المخرجة من أهل السنة والجماعات، قال عز من قائل: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] فحرسهم ربي وقمع رعونات نفوسهم وضراوتها بسلطان الجبروت، فثبتهم في مراتبهم ووفقهم للوفاء بالصدق في سرهم، وبالصبر في محل انقطاعهم واضطرارهم، فأدوا الفرائض وحفظوا الحدود والأوامر، ولزموا المراتب حتى قوموا وهذبوا ونقوا وأدبوا وطهروا وطيبوا ووسعوا وزكوا وشجعوا وعودوا، فتمت لهم ولاية الله عز وجل وتولية ﴿الله وليّ الذين آمنوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله تعالى: ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] فنقلوا من مراتبهم إلى مالك الملك، فرتب لهم ذلك بين يديه، وصار نجواهم كفاحاً يناجونه بقلوبهم وأسرارهم، فاشتغلوا به عمن سواه، ولهوا به عن نفوسهم وعن كل شيء هو رب كل شيء ومولاه، فصيرهم في قبضته، وقيدهم بعقولهم وجعلهم أمناءه، فهم في قبضته وحصنه وحراسته، يشمون روح القرب ويعيشون في فسحة التوحيد والرحمة، ولا يشتغلون بشيء إلا بما أذن لهم من الأعمال، فإذا جاء وقت عمل أبدانهم دون قلوبهم، مضوا مع الحرس في تلك الأعمال كيلا تضرهم شياطينهم ونفوسهم وأهويتهم فتسلم أعمالهم من حظ الشياطين، وهنات النفوس من الرياء والنفاق والعجب وطلب الأعواض، والشرك بشيء من الأشياء، والحول والقوة، بل يرون جميع ذلك فضلاً من الله عز وجل وتوفيقاً من الله تعالى خلقاً، ومنهم بتوفيقه كسباً، لا يخرجون بغير هذه العقيدة من سنن الهدي، ثم يردون بعد أداء الأوامر وفراغ تلك الأمثال، أو قال ذلك الأمثال إلى مراتبهم التي ألزموها، فوقفوا معها وحفظوها بالقلوب والضمائر، وقد ينقلون إلى حالة بعد أن جعلوا الأمناء، وخوطب كل واحد

منهم على الانفراد في حالته ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ [يوسف: ٢٤] فلا يحتاجون فيها إلى إذن لأنهم صاروا كالمفوض إليهم أمرهم، فهم في قبضته حيث ما ذهبوا في شيء من أمورهم، فيمتلىء قلب هذا العبد بحب ربه عز وجل ونوره وعلمه والمعرفة به، فلا يسع غير ذلك وذلك أنه تعالى أقامه في هذه المرتبة على شريطة اللزوم لها، فلما وفى له بالشرط ولم يبغ عملاً ولا حركة غير ذلك وحفظه، ولم يتجاوز نقله منها إلى ملك السلطان ليهذب، فذابت تلك الغدد التي في نفسه، وهي أصول تلك الشهوات، قد صارت غدة ثابتة فيها، ثم نقله منها إلى ملك الجلال فأدب، ثم نقل إلى ملك الجمال فنقي، ثم إلى ملك العظمة فطهر، ثم إلى ملك البهاء فطيب، ثم إلى ملك البهجة فوسع، ثم إلى ملك الهيبة فربى، ثم إلى ملك الرحمة فرطب وقوي وشجع، ثم إلى ملك الفردية فعوّذ باللطف يغذيه والرأفة تجمعه فيكتنف، والمحبة تقربه والشوق يدنيه، والمشيئة تؤديه إليه، والجواد العزيز يقلبه فيقربه ثم يدنيه، ثم يمهله ثم يؤيده ثم يناجيه، ثم يبسطه منه ثم يقبضه عنه، فأينما صار وفي كل مكان حل وفي كل حال لربه فهو في قبضته، وأمين من أمنائه على أسراره وما يؤديه من ربه إلى خلقه، فإذا صار إلى هذا المحل فقد انقطعت الصفات، وانقطع الكلام والعبارات، فهذا هو منتهى القلوب والعقول، وغاية ما تبلغ حالات الأولياء إليه وتؤول، وما وراء ذلك يختص بالأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن ولاية الولي بداية النبي على الجميع صلوات الله وتحياته ورأفته ورحمته وبركاته. انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه في ذلك.

ثم ذكر بعد ذلك الفرق بين النبوة والولاية، وقد قدمت ذكر ذلك، وقد ذكر أيضاً في مواضع أن أحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نهاية مراقي أقدام الأولياء رضي الله تعالى عنهم، حيث قال في موسى عليه السلام: دبت فيه نشوات الشوق، غلب على قلبه هيمان الحب، خرقت لذة التكليم منافذ سمعه حتى وصلت إلى بصره، فطلب البصر نصيبه من النظر، ووافقه شوق القلق فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣] قيل يا موسى انظر أولاً إلى مرآة الجبل وحك ذهب نباتك على محك فإن استقر اعتبر سكونك عند حركة الصخور لهيبة التجلي، ، فمادت به أجزاء الطور عند إشراق لمعان ذلك النور، وتعطرت أشجار الوادي المقدس بنسيم القرب، وأرّجت رياض البقعة المباركة بهجة وقت الوصل، وصارت هضبات الطور حدائق لأجل التجلي، وامتلأت جنباته بالملائكة استعظاماً لقوله (أرني) وقامت أرواح الأنبياء ترصد ما يكون بعد ذلك، فسمع كلاماً لا ككلام البشر، خاطبه من ليس من جنس المحدثات، نودي من جميع آفاق جهات الوجود، صارت جملته سمعاً وبصراً، فتلفت بعين سره إلى الطور، ووقع شعاع نور عقله على موضع نور مرآة الجبل انعكست أشعة المتقادحات برق بصر الحس، ذهلت عين الفكر، خرس لسان الطبع، انقطعت أسباب الحواس، وقرأ لسان حال موسى ﴿وخشعت الأصوات للرحمٰن﴾ [طه: ١٠٢] قال المخبر عن صدق طلبه ﴿وخر موسى صعقا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قيل يا موسى معدة طبعك ضعيفة عن تناول شراب التجلي، عين الحدث لا تنفتح في شعاع شمس القدم، ورد النظر لا يطلع في شجر كانون هذا الكون «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[1] خلعة النظر في الدنيا مدخرة في خزائن الغيب لصاحب ﴿قاب قوسين﴾ [النجم: ٩] هذا

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ٣٢٤) وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ١٨٦)، والمتقي الهندي =

الشرف لا يناله من الخلائق سوى سيد ولد آدم ويتيمة عقد البشر **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾** [الأنعام: ١٥٢] مات موسى عليه الصلاة والسلام بضرب سيف **﴿لن تراني﴾** [الأعراف: ١٤٣] ثم حيي بروح (فسوف) وقام على قدم تبت إليك فرفل في حلة خلعة **﴿إني اصطفيتك﴾** [الأعراف: ١٤٤] رجع إلى أهله متبرقعاً ببرقع الغيرة أن يرى نور تلك الآثار الأغيار، قالت له صفوراء بنت شعيب عليهما الصلاة والسلام: يا كليم الله قد اشتقت إلى نظر وجهك فاكشف لي عنه البرقع لأراه، قال لها: كيف أكشف لك وجهاً قابل على صخور الطور نور (تجلى) كيف أريك روضاً فاح طيبة من رابغ **﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾** [الأعراف: ١٤٣] بقايا شراب **﴿وكلمه ربه﴾** في كؤوس وجنات سطوات هيبة **﴿جعله دكا﴾** [الأعراف: ١٤٣] في لمحات أسارير وجهي، قالت: قد رضيت أن أراه فأموت، قد هان عليّ بذل نفسي بنظرة إلى زهرات جمال وجهك. يا غلام كن في صدق طلبك كبنت شعيب عليه السلام، بع نفسك في طمع نظرة من أهل الحمى، سارع بقطع المنازل وطي المراحل بعزم مجرد من حوادث الإرادات شوقاً إلى رؤية المحبوب وولهاً بنيل المطلوب، والله ما غبن بائع نفسه بلحظة واحدة، النظر عبارة عن الرؤية بالأبصار، ولم ينله مخلوق في هذه الدار سوى صاحب المقام المحمود، والمشاهدة عبارة عن الرؤية ببصائر الأسرار، تخرج توقيع مقاماتها من ديوان **﴿يختص برحمته من يشاء﴾** [آل عمران: ٧٤] أيها المريد الصادق التائق الشائق، إن ظفرت بخلعة المشاهدة في خلوة مجلس سرك فلك الهنا، وإن لم تلقها فاستقم على جادة الصدق حتى يأتيك اليقين، وتنقل إن شاء الله تعالى إلى دار الصادقين إلى مطلوبك، وتأخذ نصيبك من رؤية محبوبك، الشجاعة صبر ساعة يا غلام كن موسوي الهيبة لا تقنع بدون (أرني) عيسوي التوحيد **﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾** [المائدة: ١١٧] أحمدي الثبات **﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾** [النجم: ١٧] أول أحوال الأنبياء نهاية مراقي أقدام الأولياء، بدأة أفعال الرسل غاية معارج همم العارفين، طوبى لك يا فقير يقع موسى عقلك في شاطىء وادي عرفانك **﴿في البقعة المباركة﴾** [القصص: ٣٠] من قربك، إن أردت أن تعرف ذلك، فاطلب دلائل تلك الآثار في ظاهر صفحات وجوه الأعمال **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾** [التوبة: ١٠٥] يا نحل العقول ارتعي في زهر هذه البساتين، واجمعي شهد المعارف من هذه الحدائق، حتى إذا مرض ولي من الأولياء بتغير مزاج المحبة قلنا لطبيب أسقام العارفين حكيم الشريعة الإسلامية صاحب الملة الحنيفية، قل بلسان قلبت به ذللت لي الفصاحة **﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾** [يونس: ٥٧] انتهى قوله رضي الله تعالى عنه مختصراً ومن كلامه في موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.

قلت: وإذ قد ذكرنا كلامه في الخليل ثم في الكليم على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والتسليم، فلنختم كلامه الدر المنظوم في السلك بقوله في الحبيب ختام الأنبياء المسك ﷺ وبارك وشرف وكرم، قال رضي الله تعالى عنه: لما أرجت مشام أرباب صوامع النور بعطر **﴿إني خالق بشراً من طين﴾** [ص: ٧١] وأشرق الملكوت الأعلى بأنوار **﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾** [البقرة: ٣٠] قيل

= في (كنز العمال ٣٩٢٠٨).

لرهبان صوامع القدس الأشرف ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: ٢٩] صار التراب مسكاً في مشامّ أصحاب ﴿يسبحون﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وجليت عروس آدم عليه الصلاة والسلام في خلع ﴿إن الله اصطفى﴾ [البقرة: ١٣٢] وسجدت الملائكة لسطوع نور ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [الحجر: ٢٩] وسمع موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم فوق روضة الطور بلبلا يترنم بلذيذ لحن ﴿إني أنا الله﴾ وأنس ساقياً يفرغ شراب القدم في كؤوس ﴿وأنا اخترتك﴾ [طه: ١٣] مادت به جنبات الطور وطربت تحته أكناف الجبل، ووقف تحت الشجرة في الوادي المقدس اشتياقاً إلى رؤية الساقي، هزت أعطافه نشوات سكره، وكتب بيد شدة تشوقه في طرس عشقه حروف (أرني) فانقلب القلم في يده فكتب ﴿لن تراني﴾ [الأعراف: ١٤٣] وسطع لعين عقله نور بارقة (تجلى) وصار الجبل جنة، ولولا نار (خرّ) قال بعد إفاقته ﴿سبحانك تبت إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣] قيل له عند انقصاء دولته يا موسى سلم قلم الرسل لصاحب ﴿ويكلم الناس في المهد﴾ [آل عمران: ٤٦] وأعطه الدواة ليكتب في كتب توحيدي ﴿إني عبد اللّٰه﴾ وينقش في صحف رسالته سطور ﴿ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦] كان تاج شرف رسول الله ﷺ ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ [الإسراء: ١] وعرضه ربه على عيون سكان السموات، وأشرق جبين جمال رسالته حين زينه بغرة ﴿أنزل على عبده الكتاب﴾ [الكهف: ١] وضوعفت الأنوار في الملكوت إلا على ليلة جلاء عروس أحمد ﷺ، فانبهرت أحداق أشخاص النور من شعاع بهاء بهجته، وغشيت أبصار الملائكة من لألاء نوره ﷺ، قيل لها يا سكان الصفيح الأعلى من المقدس الأسني، اقتبسوا من ضياء المبعوث سراجاً منيراً، فأنتم في خفارة إمام الأنبياء، استترت الشمس السماوية لظهور الشمس الأرضية، واختفت الكواكب حياء من طلوع نجم يثرب، وانطفأت الشهب بتبلج شهاب مكة، واندرجت الأنوار في شعاع نور أحمد ﷺ، وخرجت رهبان صوامع القدس الأشرف لتنظر جمال صاحب ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣] قيل له يا سيد الوجود طورك «ليلة أسري» رفرف النور و﴿الواد المقدس﴾ [النازعات: ١٦] لك ﴿قاب قوسين﴾ [النجم: ٩] البلبل الذي يرجع لك شهي اللحون ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠] مطلوب موسى قد سجل لك به سجل ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧] أنت آخر حزب كتب في ديوان الأنبياء: أنت أعظم سطر رقم في منشور ﴿تلك الرسل فضلنا﴾ [البقرة: ٢٥٣] زفت عروسك في مجلى الأفق الأعلى، فكان من بعض خلعها ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: ١٨] قد صيغ لمفرق جبين الوجود من شرفك تاج لم يصغ الأنبياء كلهم ما قدروا على عز ليلة ﴿أسرى بعبده﴾ [الإسراء: ١] ولا وجدوا نسمة من نسمات روض ﴿قاب قوسين﴾ [النجم: ٩] ولا قيل لأحد منهم كفاحاً السلام عليك أيها النبي تأخر الكل عند ﴿أو أدنى﴾ [النجم: ٩] تقدم صاحب ﴿دنا فتدلى﴾ [النجم: ٨] وجليت عليه عرائس الأكوان في خلع ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: ١٨] ما تلفت إليها بعين الاشتغال، بل تأدب بأدب ﴿ولا تمدن عينيك﴾ [الحجر: ٨٨] هذا الوادي المقدس، فأين موسى؟ هذا روح القدس، فأين عيسى ﴿وهذا مغتسل بارد وشراب﴾ [ص: ٤٢] فأين أيوب، كم سافرت العقول في ميادين الغيوب، وكم طارت الأفكار من أوكار أطوارها إلى رياض العلا تطلب نسمة من نسمات هذا الشرف الأعلى، وتطمع في نفحة من نفحات هذا الروض الأغنى، وتغلغل بالخوص في لجج كل

بحر، فما وجدت إلى ما طلبت سبيلاً؛ فنادت ألسن معارفها بلسن اعترافها يا خاتم الرسل أنت روح جسد الوجود، أنت ورد بستان الكون، أنت عين حياة الدارين، لك نظمت تمائم الوحي، على مشامّ روحك هبت نسمات عطف لطف القدم، لك عقد القدر لواء ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [الضحى: ٥] بعطر الثناء عليك أرج الملكوت الأعلى، من نور علومك أضاء مصباح الشرع، بمصابيح كلمك تشرق سموات الحكم، قامت الأنبياء خلفه صفوفاً لتأتم بجلالته في مشهد شهادتهم بتقدمه عليهم، فناداهم منادي القدر: يا أصحاب أوكار السادة، وأرباب الحجة على الخليقة هذا قمر العلاء، هذا شمس السناء، هذا تاج الأنبياء، فحدقوا أحداق البصائر في بهائه، واكشفوا براقع الأفكار عن ضيائه، تجدوه يتيمة شرف بها درر جيد الرسالة ودبج بها طراز حلة الوحي فتلوا بلسان الاعتراف ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: ١٦٤] اهـ.

إشارة إلى شيء مما شوهد من عظيم شرفه صلى الله عليه وسلم وجلالة قدره

وعلو مقامه فوق جميع مقامات الأصفياء، واستمداد الكل من نوره، وتأدب الكل معه، وما يكشف للشيوخ العارفين من العجائب وينالون من المواهب ببركته ﷺ.

من ذلك ما روي عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد البلْخي رضي الله تعالى عنه قال: سافرت من بلخ إلى بغداد وأنا شاب لأرى الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه، فوافيته يصلي العصر بمدرسته، وما كنت رأيته ولا رآني قبل ذلك، فلما سلم وأهرع الناس للسلام عليه، تقدمت إليه وصافحته، فأمسك بيدي ونظر إليّ متبسماً وقال: مرحباً بك يا بلخي يا محمد، قد رأى الله سبحانه مكانك وعلم نيتك، قال: فكأن كلامه كان دواء الجرح وشفاء العليل، فذرفت عيناي خشية، وارتعدت فرائصي هيبة، ونفضت أحشائي شوقاً ومحبة، وأوحشت نفسي من الخلق، ووجدت في قلبي أمراً لا أحسن أعبر عنه، ثم ما زال ذلك ينمو ويقوى وأنا أغالبه، فلما كان ذات ليلة قمت إلى وردي، وكانت ليلة مظلمة فبرز لي من قلبي شخصان بيد أحدهما كأس وبيد الآخر خلعة، فقال لي صاحب الخلعة: أنا علي بن أبي طالب، وهذا أحد الملائكة المقربين، وهذا كأس شراب المحبة، وهذه خلعة من حلل الرضى، ثم ألبسني تلك الخلعة وناولني صاحب الكأس، فأضاء بنوره المشرق والمغرب، فلما شربته كشف لي عن أسرار الغيوب ومقامات أولياء الله تعالى وغير ذلك من العجائب، فكان مما رأيت مقاماً تزل أقدام العقول في سره، وتضل أفهام الأفكار في جلاله، وتخضع رقاب الأولياء لهيبته، وتذهل أسرار السرائر في بهائه، وتدهش أبصار البصائر لأشعة أنواره، لا تسامته طائفة من الملائكة الكروبين والروحانية والمقربين، إلا حنت ظهورها على هيئة الراكع تعظيماً لقدر ذلك المقام، وسبحت الله عز وجل، بأنواع التقديس والتنزيه، وسلمت على أهل ذلك المقام، ويقول القائل: إنه ليس فوقه إلا عرش الرحمٰن، يتحقق الناظر إليه أن كل مقام لواصل، أو حال لمجذوب، أو سر لمحبوب، أو علم لعارف، أو تصريف لولي، أو تمكين لمقرب، فمبدؤه

ومونله وجملته وتفصيله وكله وبعضه وأوله وآخره فيه استقر، ومنه نشأ وعنه صدر، وبه كمل، فمكثت مدة لا أستطيع النظر إليه، ثم طوقت النظر إليه ومكثت مدة لا أستطيع أن أسامته، ثم طوقت مسامته، ومكثت مدة لا أستطيع أعلم بمن فيه، ثم بعد مدة علمت بمن فيه فإذا فيه رسول الله ﷺ، وعن يمينه آدم وإبراهيم وجبريل، وعن شماله نوح وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبين يديه أكابر أصحابه رضي الله تعالى عنهم، والأولياء قدس الله تعالى أرواحهم قيام على هيئة الخدم، كأن على رؤوسهم الطير من هيبته ﷺ، وكان ممن عرفت من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة والعباس رضي الله تعالى عنهم، وممن عرفت من الأولياء معروف الكرخي وسري السقطي والجنيد وسهل التستري وتاج العارفين أبو الوفا والشيخ عبد القادر والشيخ عدي والشيخ أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وكان من أقرب الصحابة إلى النبي ﷺ أبو بكر، ومن أقرب الأولياء إليه الشيخ عبد القادر، فسمعت قائلاً يقول: إذا اشتاق الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون والأولياء المحبوبون إلى رؤية محمد ﷺ يتزل من مقامه الأعلى إلى هذا المقام، فتضاعف أنوارهم برؤيته، وتزكو أحوالهم بمشاهدته ويعلو مكانهم ومقاماتهم ببركته، ثم يعود للرفيق الأعلى قال: فسمعت الكل يقولون سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، ثم بدت لي بارقة من نور القدس الأعظم، فغيبتني عن كل مشهود، واختطفتني عن كل موجود وأسقطت مني التمييز بين كل مختلفين وأقمت على هذا الحال ثلاث سنين فلم أشعر إلا وأنا في سامرا والشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه قابض على صدري وإحدى رجليه عندي والأخرى ببغداد وقد عاد إلى تمييزي وملكت أمري، فقال لي الشيخ: يا بلخي قد أمرت أن أردك إلى وجودك وأملكك حالك وأسلب منك ما قهرك ثم أخبرني بجميع مشاهداتي، وأحوالي من أول أمري إلى ذلك الوقت إخباراً يدل على اطلاعه عليّ في كل نفس، وقال لي: لقد سألت رسول الله ﷺ سبع مرات حتى طوقت النظر إلى ذلك المقام، وسبع مرات حتى طوقت مسامته، وسبع مرات حتى اطلعت على من فيه، وسبع مرات حتى سمعت المنادي، ولقد سألت الله تعالى فيك سبع مرات وسبع مرات حتى ألاح لك تلك البارقة؛ وكنت من قبل سألته فيك سبعين مرة حتى سقاك كأساً من محبته وألبسك خلعة رضوانه، يا بني اقض جميع ما فاتك من الفرائض انتهى.

قلت: ومن جملة الأنوار التي حصلت للشيوخ العارفين بالله تعالى أولي الأسرار من نوره ﷺ الباهر، ببركة متابعته ﷺ بالباطن والظاهر واستمداد أنهارهم من بحره الزاخر، وبعضهم من بعض، حصل لهم منه ﷺ النصيب الوافر، ما شوهد من نور شيخ الشيوخ الأكابر، قطب الأولياء الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه، وذلك أن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى بقاء رضي الله تعالى عنه، رأى ليلة الجمعة الخامس من شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نوراً أضاءت به الآفاق وعم أقطار الوجود، قال: ورأيت أسرار ذوي الأسرار تثب إليه، فمنها ما يتصل به ومنها ما يمنعه مانع من الاتصال به، وما اتصل به سر منها إلا تضاعف نوره، فتطلبت ينبوع ذلك النور فإذا هو صادر عن الشيخ عبد القادر، فأردت الكشف عن حقيقته فإذا هو نور شهوده قابل نور قلبه، وتقادح هذان النوران فانعكس ضياؤهما على مرآة حاله، واتصلت أشعة المتقادحات من لحظ جمعه إلى وصف

تفرقته، فأشرق بها الكون، ولم يبق ملك نزل في الليلة المذكورة إلى الأرض إلا أتاه وصافحه، قال الراوي: فأتيناه، يعني الشيخ عبد القادر، وقلنا له: أصليت صلاة الرغائب في الليلة المذكورة؟ فأنشد:

إذا نظرت عيني وجوه حبائبي ... فتلك صلاتي في ليالي الرغائب
وجوه إذا ما أسفرت عن جمالها ... أضاءت لها الأكوان من كل جانب
حرمتُ الرضى إنْ لم يكنِ باذلاً دمي ... أزاحمُ شُجعان الوغى بالمناكبِ
أشقُّ صفوف العارفين بعزمة ... تُعلي مجدى فوقَ تلك المراتبِ
ومنْ لم يوفِ الحُب ما يستحقهُ ... فذاك الذي لم يأتِ قطُ بواجبِ

وقيل له رضي الله تعالى عنه: صف لنا شيئاً مما وجدته من أحوال البداية. النهاية من هذا الأمر، فأنشد:

أنا راغبٌ فيمنْ تغرب وصفه ... ومناسب لفتى تلاطفَ لطفهُ
ومفاوض العشاق في أسرارهم ... من كل معنى لم يسعني كشفهُ
قَدْ كانَ يسكرني مزاج شرابه ... واليوم يصحبني لديه صرفه
وأغيبُ عن رشدي بأول نظرة ... واليوم أستجليه ثم أزفهُ

قلت: وقد تقدم قوله أيضاً:

ما في الصبابةِ منهل مُستعذب ... إلا ولي فيه الألذُ الأطيب
ما في الوصالِ مكانة مخصوصة ... إلا ومنزلتي أعزُ وأقرب

الأبيات المشهورة، ومن جملتها قوله:

أنا من رجالٍ لا يخافُ جليسهم ... ريب الزَّمان ولا يرى ما يرهبُ

قلت: وهؤلاء الرجال المذكورون هم الذين أشرت إليهم فيما تقدم بقولي:

ملوكُ البرايا ليسَ يشقى جليسهمُ ... لهم بيض رايات العُلى في المواقفِ
حبوا وحظوا اصطفوا ثم قربوا ... وولوا وعلوا فوقَ كل الطوائفِ

بيان فضل الطائفة الصوفية على سائر الطوائف

أقول في تقرير ذلك وبالله تعالى التوفيق: كل طائفة من طوائف الإسلام لا يخلو إما أن يكونوا أهل علم، أو عمل، أو مجموعهما أو غير هذه الثلاثة أقسام. فالقسم الرابع معلوم كونه مفضولاً بالنسبة إلى الثلاثة، وكذا القسم الأول والثاني بالنسبة إلى الثالث، لكونه جامعاً بين العلم والعمل، إذ العلم بمنزلة الشجرة، والعمل بمنزلة الثمرة، ولا تحصل ثمرة من غير شجرة، ولا خير في شجرة، بلا ثمرة. ثم العلم قسمان: علم ظاهر، وعلم باطن، وكل منهما على أقسام كثيرة كما قررت في أول الفصل العاشر، وقد قدمت في الفصل التاسع الاستدلال على كون العلم الباطن وهو العلم بالله تعالى

أفضل العلوم، وأصحابه أفضل العلماء بستة أوجه: ثلاثة عقلية، وثلاثة نقلية وأوضحت ذلك بما لا خفاء فيه على كل من وقف عليه هناك، بل مجموع الكتاب يخبر عن محاسنهم، وأنهم تحلوا بكل مليح وتخلوا عن كل قبيح، وصرحت بذلك في الفصل العاشر عند قولي: فمن المقامات التوبة والورع والزهد إلى آخره وذكرت هناك شيئاً من المحاسن التي تحلوا بها، والمساوي التي تخلوا عنها، ولا شك أن مشايخ الصوفية هم أهل العلم الباطن العلماء الربانيون، وكذلك اختصوا ببعض العلم الظاهر وهو علم السلوك إلى الله تعالى، وهو أيضاً أفضل العلوم الظاهرة لكونه موصلاً إلى أفضل المقاصد، وبعضه تشاركوا فيه وهو علم فرض الغين، وبعضهم شارك أيضاً في جميع العلوم الظاهرة، وكذلك هم أيضاً أهل العمل بلا شك، إذ هم أهل التوبة الحقيقية والورع الحقيقي والزهد الحقيقي والصبر الحقيقي والفقر الحقيقي والشكر الحقيقي والخوف الحقيقي والرجاء الحقيقي والتوكل الحقيقي والرضى الحقيقي ، وغير ذلك من المقامات، وأهل المحبة لله تعالى، والشوق إلى الله سبحانه، والأنس بالله عز وجل، والهيبة لله تعالى، والحياء من الله تعالى، والتعظيم والإجلال لله عز وجل وغير ذلك من الأحوال، وهم المقبلون على الله سبحانه، المعرضون عما سوى الله تعالى، والوالهون بذكر الله جل اسمه، والمتلذذون ببلاء الله عز وجل، والخارجون عن نفوسهم لله جل وعلا، والضابطون أنفاسهم مع الله سبحانه، والناظرون بنور الله تعالى وتقدس، والعارفون بالله تعالى، والمعروفون لعباد الله سبحانه، والواصلون والموصولون إلى الله تعالى جل اسمه، والمغاث بجاههم العباد، والمدفوع ببركتهم الفساد في جميع البلاد، فإلى كم تقول أيها الفقيه إن نفعهم لازم، ونفع الفقهاء متعدّ، والنفع المتعدي أفضل من النفع اللازم، واقفاً مع هذه الحجة تنظر إلى ذرة من الأقوال، لعلها مشوبة بشوائب مذمومات في الأعمال، لا يسلم منها إلا المخلصون الرجال، ولا تنظر إلى جبال من الأحوال والأفعال والأقوال بها دفع الفساد وصلاح العباد والبلاد، ولا تدري أن نفعهم اللازم في البداية سوف يتعدى في النهاية، ويصير الصادر من أحدهم في ساعة بل في لحظة من الخير والهدى، أنفع من الصادر من كثير من العباد طول المدا، فإن كنت لا تصدق بهذا، فما تصدق بقول رسول الله ﷺ في إخباره عن أويس رضي الله تعالى عنه، أنه يشفع في مثل ربيعة ومضر، وأنه أفضل التابعين، مع ما كان فيه من التوحش والانعزال، وما ينسب إليه من الجنون والاختلال، وما في التابعين من جلة العلماء العاملين، والأئمة الهادين.

فإن قلت: تفضيلك لطائفة الصوفية على سائر الطوائف يلزم منه تفضيل الصوفية على الصحابة.

قلت: معاذ الله وحاشا لله، بل الصحابة رضي الله تعالى عنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والملائكة المقربين، وها أنا أجيب عن قولي: «وولوا وعلوا فوق كل الطوائف» بجوابين، أحدهما أن المراد بالطوائف: الطوائف الموجودة في الزمن الذي اشتهر فيه الصوفية، كما قال الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ [الدخان: ٣٢] وغير ذلك من الآيات التي المراد بها عالمي زمان المذكورين والجواب الثاني: أن الشيخ الإمام شيخ الإسلام العالم الرباني شهاب الدين السهروردي رضي الله تعالى عنه قال فيما روينا عنه في كتابه العوارف: واعلم أن

كل حال شريف نعزيه إلى الصوفي في هذا الكتاب هو حال المقرب والصوفي هو المقرب مشيراً إلى أن المقرب صوفي وإن لم يتزيّ بزي الصوفية، ثم قال: ولا مشاحة في الألفاظ، فليعلم أنا نعني بالصوفية المقربين انتهى.

وقال غيره من المشايخ المصنفين بعد ذكر الصحابة رضي الله تعالى عنهم: اختار الصديق رضي الله تعالى عنه الفقر والزهد، وأنفق أمواله على رسول الله ﷺ وعلى الصحابة، وتجرد من الدنيا وتفرد للحق، أو قال بالحق، وهو الأصل لأهل التصوف، قال له رسول الله ﷺ: «ما خلفت لعيالك؟ قال الله ورسوله» وأسقط الوسائط والعلائق.

وروى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خل لها بخلال، إذ نظر إليه رسول الله ﷺ فقال: يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك السلام من الله عز وجل ويقول لك: أراض أنت عني في فقرك أم ساخط؟ فبكي أبو بكر رضي الله تعالى عنه ثم قال: أعلى ربي أسخط! أنا عن ربي راض، أنا عن ربي راض»[1] وفيه نزل: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾ [الحديد: ١٠].

قال: وعمر رضي الله تعالى عنه اختار الزهد والفقر، وتزيا بزي الفقراء من لبس المرقعة، حتى روي أنه رضي الله تعالى عنه كان يخطب في خلافته وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة، وقيل بضع عشرة رقعة بعضها من أدم، وكان زهده وفقره أشهر من أن يذكر.

قال: وكان عثمان رضي الله تعالى عنه مخصوصاً بالتمكين، والتمكين من أعلى مراتب المحققين، روي عنه أنه قال: وجدت الخير مجموعاً في أربعة أشياء: أولها التحبب إلى الله تعالى بالنوافل، والثاني الصبر على أحكام الله، والثالث الرضى بتقدير الله، أو قال بمقادير الله، والرابع الحياء من نظر الله.

قال: وكان اختيار عليّ رضي الله تعالى عنه الزهد والتقلل من الدنيا، روي عنه رضي الله تعالى عنه أنه أتي بمال فنظر إليه فقال: يا بيضاء ابيضي ويا صفراء اصفري وغري غيري.

وعن الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه قال: صابحنا في هذا العلم، يعني علم الحقائق، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، لو تفرغ من الحروب لنقل إلينا عنه من هذه العلوم ما لا تقوم له القلوب ثم ذكر بعد هؤلاء الأربعة خلائق من الصحابة ومن خيار التابعين ومن الفقهاء والعلماء والسلاطين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

قلت: ومع هذا، فموردهم الصافي وإن اشتركوا في وروده فالواردون متفاوتون في الشرب،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ١٠٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ١٩١)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٦٤).

ومتباينون في النصيب غير أن الكل يجمعهم دائرة الولاية، وعلى الجملة فما ظنك بقوم يقول بعضهم: لو جعلني في الدرك الأسفل من النار كنت أشد رضى ممن في الفردوس.

وقال بعضهم: لو أدخلني النار لم أحس بالألم لاختلاط محبته باللحم والدم.

وقال بعضهم: لو حجبوا في الجنة من مشاهدة الجمال لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار، وفي هذا المعنى قلت:

نعيمُ القوم في رؤيا جمال ولو كانوا بنارِ للعذابِ
إذا ما غابَ عنهمُ أحرقتهم على فقدانهِ نارُ الحجابِ
ولو في جنة كانوا استغاثوا كأن القوم في دارِ العقابِ

قلت: وفي كون هذه الطائفة أفضل الطوائف كما ذكرت قال الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه: أما بعد، فقد جعل الله سبحانه هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم، جعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق، صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية: وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية. قال: والناس إما صاحب النقل والأثر وإما أرباب العقول والفكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة، فالذي للناس غيب فلهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مفقود فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصالِ والناس أهل الاستدلال، وهم كما قال القائل:

ليلي بوجهكَ مُشرقٌ وظلامُه في الناس سَاري
فالناسُ في سدفِ الظلا مِ ونحن في ضوءِ النَّهارِ

قال: ولم يكن عصر من الأعصار في مدة الإسلام إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة؛ ممن له علو في التوحيد وإمامة للقوم، ألا وأئمة ذلك الوقت من العلماء استسلموا لذلك الشيخ، وتواضعوا له وتبركوا به، ولولا مزية وخصوصية لهم وإلا لكان الأمر بالعكس.

قلت: ومن ذلك ما روي أنه لما دخل عبد اللّٰه بن سعيد بن كلاب بغداد وصنف الكتاب الذي ذكر فيه أهل العلم على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم وعارضهم ورد عليهم، قال: هل بقي أحد؟ قالوا: هاهنا قوم يدعون مذهباً ولهم عبادة ولسان يقال لهم الصوفية، قال: فهل فيهم أحد يسفر عن مذهبهم؟ قالوا: في وقتنا هذا الجنيد بن محمد، فقصدوه وسلموا عليه وذكروا له القصة وأخبروه بمكان ابن كلاب ورده جميع المذاهب، وأنه يريد الوقوف على مذهبهم، فقال رضي الله تعالى عنه: مذهبهم إفراد القدم عن الحدوث وهجر الإخوان ومفارقة الأوطان وقطع العلائق ونسيان ما علم وجهل غير الحق تعالى، وأن يكون الله تعالى مكان الجميع؛ وأن يكون الصوفي راغباً في الله تعالى زاهداً فيما له عند الله سبحانه، فإذا كان كذلك تخطى إلى كشف العلوم والعبارة عن الوجود، فقال

ابن كلاب: هذا علم حسن والمعارضة في مثله عسرة، فإن رأيت أن تمليه لنكتبه، فقال: إن كنت أجريه فأنا أمليه، ولكن الله عز وجل مجريه؛ ثم سأله عن عدة مسائل فأجابه، فتعجب من كلامه وتحير فيه وقال: لا نحسن ما يقول، فكيف نعارضه فيه أو نجاريه؟ يهدم جميع ما نبنيه بالعقل بكلمة واحدة، فهذا الرجل منّ الله عليه.

وروي أنه قيل له: أنت تتكلم على كلام كل أحد، وهاهنا رجل يقال له الجنيد، فانظر هل تعترض عليه، فحضر حلقته وسأله عن التوحيد، فأجاب الجنيد، فتحير وقال: أعد عليّ ما قلت، فأعاده ولكن لا بتلك العبارة، فقال: هذا شيء آخر لم أحفظه فأعده عليّ مرة أخرى، فأعاده بعبارة يمكنني حفظ ما تقول فأمله علينا، فقال: إن كنت أجريه فأنا أمليه، فقام ابن كلاب وقال بفضله واعترف بعلو شأنه.

قلت: وفي معنى قول الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه قلت هذين البيتين على طريق النيابة عن لسان حال المحبوب الذي يجريه على لسانه من عجائب الغيوب ما يحيي القلوب:

وما قلتُ قولاً غير أني أعرتُها ... لساني فأومت للهوى يتكلمُ
فأسرارها منها علمت وعندما ... سكرت جليسي سرها منهُ يعلم

أعني يعلم الجليس السر المودع في القول الجاري على لسان الغائب بواسطة الهوى المشار إليه بالكلام، فالضمير في منه يعود على الهوى. والمعنى أن الله تعالى يجري على لسان صاحب الحال والأنوار ما يريد من الأسرار.

قلت: وفي مثل قلب الأستاذ أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه من القلوب التي عدمها الوجود وما أودعت من الحكم والمعارف والفضائل يصدق؛ بل يحسن قول القائل:

أنعي إليكَ قلوباً طال ما هَطَلَتْ ... سحائبُ الوحي فيها أبحر الحكم

وروي أنه اجتاز بمجلسه الفقيه الإمام الشافعي المذهب الملقب بالباز الأشهب أبو العباس بن سريج رضي الله تعالى عنه، فسمع كلامه، فقيل له: ما تقول في هذا؟ فقال: لا أدري ما أقول، ولكني أرى لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل، ومامات ابن سريج حتى اعتقد الصوفية واستحسن طريقتهم.

وقال بعضهم: حضرت مجلس أبي العباس بن سريج فتكلم في الفروع والأصول بكلام حسن أعجبت منه، فلما رأى إعجابي قال: أتدري من أين هذا؟ هذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد.

وذكر في مرقاة التصوف عن بعض المشايخ أنه قال: قال لي أبو القاسم الكعبي، يعني الكعبي المشهور من أئمة المعتزلة: رأيت لكم شيخاً ببغداد يقال له الجنيد، ما رأيت عيناي مثله، كان الكتبة يحضرونه لألفاظه والفلاسفة لدقة كلامه والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانه وكلامه ناء عن فهمهم.

قلت: وإنما كان كلامه نائياً عن كل فهم ثاقب، لأنه فائض بالعلوم الفائضة عن الفضل بالمواهب، ولسانه نائب عن لسان القدرة حين يقول ذو اقتدار على التعبير عن علوم تحير العقول

بعبارة فيها در المعارف منظم مفصلاً بجواهر الأسرار ويواقيت الحكم مشتملة على لطائف تدق عن ثواقب الأفهام المحرقة، وتجتلي عرائس جمالها بأنوار القلب المشرقة، كما قال بعض العارفين: إنما يفهم عنك من أشرق فيه مما أشرق فيك، وفي هذا المعنى قلت:

عرائس أسرار جلوها لناظر ... لرؤيتها كفؤ يرى النّور بالنورِ
جلا واجْتَلى تلك الجُنيد وشبهه ... كسهلٍ ومعروف وذي النونِ والنوري
بَدَتْ إذ أماتوا النفس حَوْر معارف ... ومن لم يمتْ ما قط ينظر للحورِ
فأحيوا ونودوا من قلوب وشاهدوا ... جمالاً بواديها المُقدس والطور
سماع حديث مُحدث محدث بها ... غراماً لنار الشوق جوف الحشا يُوري

قلت: وقد تقدمت قضية الشيخ أبي الحسن النوري رضي الله تعالى عنه لما سعى بالصوفية إلى بعض الخلفاء، وها أنا أعيدها برواية فيها زيادة على الرواية المتقدمة.

روي أنه لما سعى بالصوفية إلى بعض الخلفاء أمر بضرب رقابهم، فأما الجنيد فتستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب أبي ثور وهو إمام القوم وسيدهم في ذلك الوقت، والمتفق عليه في كل علم بالتقدم علماً وحالاً وحقيقة ومعاملة، وأما أبو الحسين النوري فقبض عليه وكان أحد أركان المذهب وسادات القوم، وممن يرجع إلى أحوال سنية وعلوم عالية وفتوة ظاهرة، وقبض معه أيضاً على أبي حمزة البغدادي، وكان أحد علماء القوم وساداتهم والمذكورين بالفتوة والتوكل، وهو الذي ورد على الجنيد من البادية فشهاه، فقال سكباجة[1] وعصيدة[2] تخليني لهما، ففعل وهيأ له منهما شيئاً وافراً، فأتى على الكل ثم قال: لا تعجب يا أبا القاسم فهذا من مكة الأكلة الثانية وقبض أيضاً على أبي بكر الزقاق، وكان أيضاً أحد سادات القوم، والمتكلمين في المعاملات بأحسن الكلام، وقبض أيضاً على الشحام والرقام وبسط النطع لضرب رقابهم، فتقدم الشيخ أبو الحسين النوري رضي الله تعالى عنه وبادر ليبدأ بضرب عنقه، فقال السياف: أتدري إلى ما تبادر؟ فقال: نعم، فقال: وما يعجبك، فقال: أوثر أصحابي بحياة ساعة؛ وفي رواية: نحن قوم بنينا مذهبنا على الإيثار، فأردت إيثار أصحابي بحياة هذه الساعة، فتحير الحاضرون وتغيروا، وأنهى الأمر إلى الخليفة، فتعجب الخليفة ومن عنده من ذلك، فرد أمرهم إلى قاضي القضاة إسماعيل بن إسحاق وكان عند الخليفة حينئذٍ، فاستأذن الخليفة أن يذهب إليهم ليبحث معهم ويختبر حالهم، فأذن له الخليفة في ذلك، فأتاهم وقال يخرج إلي واحد منكم حتى أبحث معه، فخرج إليه أبو الحسين النوري، فسأله عن أصول الدين وألقى عليه مسائل فقهية في الفرائض والأحكام، فالتفت عن يمينه ثم التفت عن شماله ثم أطرق ساعة، ثم أجابه عن الكل بأحسن جواب، ثم أخذ يقول: وبعد فإن لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله؛ وإذا نطقوا نطقوا بالله، ثم سرد كلاماً أبكى القاضي معناه: أن قيامهم وقعودهم وأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم كلها بالله تعالى، ثم سأله القاضي عن التفاته، فقال: سألتني عن المسائل ولا أعلم لها جواباً فسألت عنها

---

(١) السكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل. القطعة منه سكباجة (مع).
(٢) العصيدة: دقيق يخلط بالسمن ثم يطبخ (ج) عصائد.

صاحب اليمين فقال: لا علم لي ثم سألت صاحب الشمال فقال: لا علم لي، فسألت قلبي فأخبرني قلبي عن ربّي، فأجبتك بذلك، فأرسل القاضي إلى الخليفة، وقيل: دخل عليه وقال: إن كان هؤلاء زنادقة فليس على وجه الأرض مسلم.

قلت: الشيخ أبو الحسين المذكور قد روينا عنه كلاماً في الأصول في غاية الحسن والتحقيق، ولعل هذه المسائل التي لم يكن لها عنده جواب حتى أخبره قلبه عن ربه من المسائل النادرة من فروض الكفايات التي شغلهم عن تعلمها شغلهم بالله تعالى، وأورثهم ذلك الشغل علوماً أخرى تنال بالوهب لا بالكسب، لا يعلمها علماء الظاهر كما قال الخضر عليه السلام لموسى ﷺ: إنك على علم من علم الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم من علم الله لا تعلمه أنت، وعلم الخضر هو الذي أخبر الله عز وجل عنه بقوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ [الكهف: ٦٥] وقال له موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ﴿هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً﴾ [الكهف: ٦٦] وقد تقدم الكلام في علم الباطن والظاهر، وأن كثيراً منهم كانوا جامعين بين العلمين، وبعضهم نسي العلوم الظاهرة التي لا تلزم كل أحد للاشتغال بالله سبحانه وتعالى وامتلاء القلب بمحبته وبالعلوم الربانية وعلوم الطريقة الموصلة إلى الله عز وجل، كما قال بعضهم لما سئل عن مسألة منشداً:

نسيتُ كل طريق كنتُ أعرفهُ ... إلا طريقاً يؤدي نحو ربعكُم

قلت: ومع هذا إذا امتحن أحدهم بالمسائل الدقيقات العويصات والمشكلات الغامضات أجاب بأحسن الجواب، وحير العقول والألباب، كما تقدم، وكما سيأتي من المشهور أن الشيخ أبا الغيث رضي الله تعالى عنه كان أميًا، وكان يحضر مجلسه الفقهاء ويسألونه عن المسائل الدقيقة فيجيبهم، وكان يقرأ في المصحف كما يقرأ المقرىء، وكذلك الشيخ الصياد رضي الله تعالى عنه، وقد ذكرت في الفصل التاسع جوابه للقاضي ابن أبي عقامة وكان أميًا وكذلك تدريس الشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي، وكان أيضاً أميًا، لأصحاب الفقيه محمد بن حسين البجلي رضي الله تعالى عنهما، وكل هؤلاء المذكورين يمانيون، وكذلك قضية الشيخ أبي بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه مع الفقيه أبي عمران وأصحابه المشهورة لما امتحنوه وقصدوا إخجاله بمسألة في المستحاضة لتعطل حلقتهم بكلامه واجتماع الناس عليه، فأجاب عنها بثمانية عشر جواباً لثمانية عشر إماماً، فقام الفقيه أبو عمران وكان من أكابر الفقهاء، فقبل رأس الشبلي وقال: يا أبا بكر استفدت في هذه المسألة عشر مقالات: وفي رواية كان عندي من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل. وكذلك قضية الشيخ أبي عبد الرحمٰن حاتم الأصم[١] رضي الله تعالى عنه مع ابن مقاتل قاضي الري، ولا حاجة إلى التطويل بذكرها فهي مشهورة.

قلت: فأما إنكار ابن الجوزي في كتابه الذي سماه منهاج القاصدين[٢] الذي أنكر فيه على

---

(١) هو أبو عبد الرحمٰن حاتم بن علوان المعروف بالأصم (توفي ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م) من أكابر مشايخ خراسان، وكان تلميذ شقيق، وأستاذ أحمد بن خضرويه. (الرسالة القشيرية ص ٣٩٣).

(٢) كتاب «منهاج القاصدين» لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي المعروف بابن الجوزي (المتوفى ٥٩٧) =

الإمام حجة الإسلام الذي باهى به النبي ﷺ موسى وعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام: وقال: أفي أمتكما حبر كهذا؟ فقالا: لا، وعلى الشيخ أبي عبد الرحمٰن المذكور في إنكاره على القاضي ابن مقاتل المذكور في سعة داره وما فيها من الزينة والمتاع الحسن والثروة، وقوله: العلماء لا يلزمهم الزهد في الدنيا، فكل ذلك محاولة لتمهيد العذر لنفسه لئلا يلام فيما هو ملابسه من ذلك، وليس كلامه هذا له بنافع ولا للملامة عنه وعنا إذا نحونا ذلك النحو بدافع، إذ الميل إلى الدنيا وزينتها ومحبتها مذموم والزهد فيها محمود، وكل هذا معروف من الكتاب والسنة وإجماع الأمة بل إجماع جميع الأمم. وقد نص الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه فيمن أوصى بماله لأعقل الناس أنه يصرف إلى الزهاد في الدنيا. ونقل عنه أيضاً كثير من الأئمة في مناقبه أنه قال: ولا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله تعالى فيه وزهدهم فيما رغبهم فيه، وقد قدمت هذا عنه مع غيره من كلامه النفيس عند قولي في هذين البيتين:

ألا إنَّ حُـبَّ المـالِ والجـاه زينـةٌ قبيـحٌ بـأهـل العلـم ذلـك أقبـحُ
كمـا أنَّ حـب الـزّهـد والفقـر عفـة مليـح بهـم أزهـى وأبهـى وأملـحُ

وتقدم أيضاً قول السيد الجليل الإمام العارف المعظم عند جميع الطوائف الحسن البصري رضي الله تعالى عنه: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا. وقول السيد الكبير الولي الشهير العالم بالله تعالى الخبير الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه: كان العلماء ربيع الناس، إذا رآهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنيًّا، وقد صاروا اليوم فتنة للناس. وقوله أيضاً: العالم طبيب الدين، والمال داء الدين، فإذا جر الطبيب الداء إلى نفسه فكيف يداوي غيره؟

وقول بعض الفضلاء في ذلك:

إنْ زاد مـالـك لـم تـزدد بـه قنعـا وزادَ علمُـك لـم تـزدد بـه وَرَعـا
بـاشـرتَ دُنيـاك مسـروراً بلـذّتهـا وقـد تـركـت التّقـى والزّهـد والـورعا
فكيـفَ ينفـعُ علـم منـك سـامعـهُ ولا يـراك بـذاك العلـم مُنتفعـا

قلت: وذكر ما جاء في مدح الزهد وذم الدّنيا من الآيات الكريمات والأحاديث النبويات وأقوال العلماء من السلف والخلف وسيرة الأنبياء والأولياء وزهاد العلماء، يحتاج إلى تصنيف مجلدات كثيرة، وإنما نبهت على بطلان قول المنكر المذكور بهذه الألفاظ اليسيرة. وقد ذكرت في مقدمة كتاب روض الرياحين شيئاً من الكلام النفيس البالغ للإمام الكبير العارف بالله تعالى الخبير أبي عبد اللّه المحاسبي رضي الله تعالى عنه في الذم والزجر والتوبيخ للعلماء المائلين إلى الدنيا قال فيه: يزعمون أن أصحاب محمّد ﷺ كانت لهم أموال، فيتزين المغرورون بذكر الصحابة رضي الله تعالى عنه ليعذرهم الناس على جمع المال، وقد دعاهم الشيطان وما يشعرون، ويحك أيها المفتون، إن احتجاجك بمال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك

= وهو على أسلوب الأحياء لكنه حذف منه الأحاديث الواهية ومذاهب الصوفية التي لا أصل لها. (كشف الظنون ٢/١٨٧٨).

ليهلكك، لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة رضي الله تعالى عنهم أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة، فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه، فقد أزريت بمحمد وبالمرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه، فقد زعمت أن رسول الله ﷺ لم ينصح أمته إذ نهاهم عن جمع المال، كذبت ورب السماء على رسول الله ﷺ، بل كان للأمة ناصحاً وعليهم مشفقاً وبهم رؤوفاً. ويحك أيها المفتون: هذا عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه في فضله ونقاه وصنائعه المعروفة، وبذله الأموال في سبيل الله تعالى مع صحبته لرسول الله ﷺ وبشراه بالجنة، يوقف في عرصة القيامة وأهوالها بسبب مال اكتسبه من حلال للتعفف وصنائع المعروف، وأنفق منه قصداً وأعطاه في سبيل الله سحا منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يجيء في آثارهم حبواً، فما ظنك بأمثالنا الغرقى في فتن الدنيا، وبعد فالعجب كل العجب من كل مفتون متمرغ في تخاليط الشبهات والسحت[١]، يكالب على أوساخ الناس، ويتقلب في الشهوات والزينة والمباهاة وفتن الدنيا، ثم يحتج بعبد الرحمٰن بن عوف! انتهى مختصراً من كلامه.

قلت: وحاتم الأصم المذكور من أكابر الشيوخ العارفين بالله تعالى، ومن شيوخ الرسالة المشهورين، وقد اجتمع به الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهما وسمع كلامه وسأله فأجابه فاستحسن جوابه، ومن جعله من جملة المتعبدين فهو من المخطئين المعتدين.

رجعنا إلى ما نحن بصدده، وذلك قضية شيبان الراعي المشهور من كونه أميًّا في جوابه للإمام أحمد بن حنبل بحضرة الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهم، فغشي على أحمد لما سمع جوابه، فلما أفاق قال له الشافعي: ألم أقل لك لا تحرك هذا، وكان قد قال للإمام الشافعي: يا أبا عبد اللّه أريد أن أنبه هذا على نقصان علمه ليشتغل بتحصيل بعض العلوم، فقال له الشافعي: لا تفعل، فلم يقنع.

قلت: ومن هذا وأمثاله كثير، وقد كان الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه مع جلالته يتردد إلى بعض الصوفية العارفين، فقيل له: أتتردد لرواية عند هذا الشيخ؟ فقال: عنده رأس الأمر تقوى الله تعالى، أو قال معرفة الله تعالى.

وروي أن الإمام الأوزاعي كتب إلى إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنهما: إني أحب أن أصحبك، فكتب إليه إبراهيم: إن الطائر إذا طار مع غير جنسه من الطير طار وتركه.

وكان الإمام سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه مع كبر قدره يقول: اذهبوا بنا إلى هذه المؤدبة، يعني رابعة العدوية رضي الله تعالى عنها. وسمعته رابعة يوماً يقول: اللهمَّ إنا نسألك رضاك، فقالت: ألا تستحي أن تسأل الرضى ممن لست عنه براض.

وكان الإمام المشهور السيد المشكور عبد اللّه بن المبارك رضي الله تعالى عنه يكثر المجالسة

---

(١) السحت: الحرام، وما خبث من المكاسب كالرشوة ونحوها.

للفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه والتردد إليه، وكذلك الإمام سفيان الثوري وسفيان بن عيينة رضي الله تعالى عنهما، وغير هؤلاء الأئمة ممن لا يحصى في سائر الأمصار والأعصار.

وروي أن بعض الصوفية أخذ وقيل له أنت جاسوس، وأحضر بين يدي الوالي، فنظر إليه وقال: إيش عندك من الأخبار، فقال: عن أيّ الأخبار تسأل؟ فقال على طريق الاستهزاء: عن أخبار السماء، فقال: ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ [الرحمٰن: ٢٩] قال: فأخبار الأرض، قال: ﴿**كل من عليها فان**﴾ [الرحمٰن: ٢٦] قال: فأخبار الناس قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، فقام الوالي إليه وقبل بين عينيه واعتذر إليه.

قلت: وأخبرني بعض أصحاب الفقيه الصالح العالم العامل الإمام الفاضل عبد العزيز الديريني رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع عبد العزيز في بعض السياحات، فانتهينا إلى قبر في بعض البراري: فجلس عند ذلك القبر يبكي، فسألته عن ذلك، فقال: كان صاحب هذا القبر من أولياء الله تعالى، اتفق لي معه حكاية عجيبة، قال: فقلت: وما هي؟ قال: عرضت لي حاجة في بعض البلاد مع بعض الناس، فسافرت لتلك الحاجة وأدركتني صلاة المغرب في الطريق، فعدلت إلى مسجد، أو قال إلى هذا المسجد، وأشار إلى مسجد بقربه، فوجدت فيه فقيراً يصلي بجماعة فصليت خلفه وإذا به يلحن في قراءته، فتشوشت من ذلك وقلت في نفسي وأنا في الصلاة: أقيم هاهنا أعلم هذا الفقير كيف يقرأ في صلاته وأترك حاجتي، فهذا أولى أو هذا يتعين عليّ، فلما سلمنا من الصلاة التفت إليّ وقال: يا عبد العزيز الحق حاجتك التي جئت لها، فإن صاحبك الذي هي عنده يريد السفر، فاذهب لحاجتك وما عليك من هذا اللحن الذي سمعته والتعليم الذي نويته، قال: فتعجبت من مكاشفته، وخرجت في الحال لحاجتي بإشارته، وأسرعت في السير، فلما دخلت البلدة التي فيها حاجتي وجدت صاحبي قد ركب يريد سفراً، فلما رآني توقف حتى قضى لي حاجتي، ولو تأخرت قليلاً لفاتني مطلوبي، فازددت تعجباً من ذلك الفقير وحباً له، ونويت ملازمته والتماس بركته، فما لبث مدة يسيرة وتوفي رضي الله تعالى عنه وهذا قبره.

قلت: وبلغني عن غير واحد من الشيوخ رضي الله تعالى عنهم أنه أنكر عليهم غير واحد من النحاة بقلوبهم في أعاريب دققوا فيها حتى تحير المنكرون، ثم أنشدوا عقب ذلك في إعراب بعض الألفاظ في مواعيدهم فأعادوا تلك الألفاظ في الحال وأعربوها بوجوه من الإعراب لحنها معرب، وأعجب من ذا أن إعراب غيرها ملحون. وكذلك بلغني أن بعض المشايخ قال في أثناء كلامه في ميعاده: يا نحوي أنت نحوك ما أنت نحوي، القشر يرمى للدواب واللب لأولي الألباب، كأنه يخاطب نحوياً في جملة الحاضرين في مجلسه أنكر عليه بقلبه الغافل الذي هو إلى دوام الفكر في النحو والاستغراق فيه مائل، لا إلى الحضور مع الشيخ؛ وما يتكلم به من المعارف والحكم والأسرار التي هو بها جاهل وعن سماعها الغائب في وساوس الدنيا ذاهل.

قلت: وقد ذكرت في غير هذا الموضع قول بعض المشايخ لبعض الفقهاء، اشتغلتم بإصلاح

الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بإصلاح الباطن فخافنا الأسد، لما أنكروا عليه اللحن، فعرض لهم الأسد فطرده عنهم.

وقال بعض المشايخ أيضاً لمنكر عليه من الفقهاء في قراءته: لئن لحنت في قراءة القرآن لقد لحنت أنت في الإيمان، وذلك أنه لما أنكر عليه وخرج من عنده قصده السبع فغشي عليه من خوفه لضعف إيمانه وقلة ثقته بالله تعالى، إذ السبع كلب من الكلاب ودابة من الدواب التي لا يتحرك شيء منها إلا بإذن رب الأرباب، ولا يجري شيء من الوجود إلا بما سبق به القضاء في أم الكتاب وفي معنى ذلك قلت:

أيا مُعرباً قولاً وفي الفعل لاحناً ... كذلك في الإيمان بالعيبِ من أولى
إذا ما للحن القول من كل معرب ... لفعل وإيمان تعد راكباً جهلاً
ولحنك محظور لَدَى كل عارف ... ولا حظر بل كله في لحنهِ أصلاً
أتفخر في قشرِ الدواب وعنده ... لباب أولي الألباب أمسى له أهلاً
وفي قلب كل منكما ما يحبهُ ... ففي قلبك الدُّنيا وفي قلبه المولى

قلت: وقد تقدم قول المشايخ العارفين بالله: أقل عقوبة المنكر على الصالحين أن يحرم بركتهم، قالوا: ويخشى عليه سوء الخاتمة، نعوذ بالله من سوء القضاء.

وتقدم أيضاً قول الشيخ العارف بالله تعالى الإمام معدن العلوم والأسرار، ناصر الشريعة والحقيقة صاحب كتاب الأنوار رضي الله تعالى عنه: من رأيتموه يزدري بالأولياء، وينكر مواهب الأصفياء، فاعلموا أنه محارب لله، مبعود مطرود عن حقيقة قرب الله تعالى.

وقال الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير أبو تراب النخشبي رضي الله تعالى عنه: إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله تعالى.

وقال الشيخ الجليل العارف بالله تعالى شاه بن شجاع الكرماني رضي الله تعالى عنه: ما تعبد متعبد بأكبر من التحبب إلى الأولياء، لأن محبة أولياء الله تعالى دليل على محبة الله عز وجل.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري[1] رضي الله تعالى عنه: وقبول قلوب المشايخ لمريد أصدق شاهد لسعادته، ومن رده قلب شيخ من الشيوخ فلا محالة يرى غب ذلك ولو بعد حين، ومن خذل بترك حرمة الشيوخ فقد أظهر رقم شقاوته وذلك لا يخطىء انتهى كلامه.

قلت: وقد أدرك توفيق الله سبحانه جماعة منكرين عليهم من الفقهاء والنساك، وأنقذهم من العمى والعقوبة بعدما أشرفوا على الهلاك، فصاروا منهم معتقدين لهم ومنتسبين إليهم، بعدما طال معاداتهم لهم وإنكارهم عليهم، ومطاعنين دونهم بعد ما كانوا طاعنين فيهم.

قلت: وليس بين المنكر عليهم وبين ترك الإنكار من الفقهاء والجهال إلا أن يذوق راح المحبة

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٦٢.

التي ذاقوا عند مشاهدة الجمال، فيصير صوفيًا شاء أو أبى، ويخلع العذار وينشد لسان حاله ما قاله شارب العقار:

سقـوني وقـالـوا لا تغنـي ولـو سقـوا جبـالَ حُنيـن مـا سقـونـي لغنـت

ذكر شيء من سماحتهم

روي أنه كان على بعض الصوفية دلق من شعر، فقيل له على سبيل المطايبة: بكم اشتريت هذا؟ قال: اشتريته بالدنيا وطلب مني الآخرة فما رضيت بيعه بها.

وقال آخر: اشتريت هذه الجلسة مع الله تعالى على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضياع والمستغلات.

وروي أن أحمد بن خضرويه وأبا حامد البلخي رضي الله تعالى عنهما لما أراد الدخول في مذهب الصوفية، كتب كل واحد منهما جميع أملاكه من الضياع والدور والقرى وغيرها على رقاع فنثرها عليهم، فمن وقع في يده شيء منها ملكه. وروي أن الشبلي رضي الله تعالى عنه لما مات والده خلف ستين ألف دينار سوى الضياع والعقار وغيرها، فأنفقها على الفقراء كلها. وروي أن سهل بن عبد اللّه رضي الله تعالى عنه لما دخل في هذا المذهب كانت غلة عقاره كل يوم ألف درهم، وكان ينفقها عليهم ويتقوّت بحبتين.

وأنفق الشيخ أبو عبد اللّه المغربي رضي الله تعالى عنه عليهم خمسين ألف دينار ورثها من أبيه. وأنفق أبو الحسن القزويني مائة ألف درهم، وأنفق أبو القاسم الرازي عليهم خمسين ألف دينار.

ولما مات أبو بكر بن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه خرج عن ألف ألف وثلثمائة ألف درهم وأعطاها الشيخ أبا جعفر النيسابوري رضي الله تعالى عنه. وأنفق بعضهم على الشيخ أبي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه وأصحابه أكثر من مائة ألف دينار. وأنفق الشيخ أبو علي الروذباريّ رضي الله تعالى عنه ثلاثين ألف دينار.

وروي أن الشيخ أحمد بن خضرويه رضي الله تعالى عنه استقرض من رجل مائة ألف درهم، فقال له الرجل: إيش تعمل بها وأنتم الزهاد؟ فقال: أشتري بها لقمة وأضعها في فم فقير، ولا أجترىء أن أؤمل ثواباً، لأن الدنيا كلها جناح بعوضة، فما قدر هذه منها؟

قلت: ومن هذا وأشباهه كثير، وقد زهد كثير منهم في الملك وسائر الولايات ولا حاجة إلى ذكر شيء من ذلك، فقد علم أنهم سمحوا بالأخرى فضلاً عن الدنيا، بل بالنفوس فضلاً عن الحظوظ في البداية فضلاً عن النهاية؛ متحققين بقول القائل:

تهـونُ علينـا فـي المعـالـي نفـوسنـا ومـنْ خَطَـبَ الحسنـاء لـم يُغلهـا مهـرُ

وقول الآخر:

على مثلِ لَيْلى يقتلُ المرءُ نفسهُ

وقال الآخر:

فما غلت نظرة منكم بسفكِ دمي

قلت: لما بذلوا نفوسهم في محبة المولى بالاجتهاد والمجاهدة ظفروا من الجمال الأسنى بنيل المنى في المشاهدة؛ وجليت لهم الحقيقة في حلى معانيها الدقيقة، فاجتلوا بالهمم العالية محاسنها الغالية عندما برزت بجمالها المصون من غيب سرها المكنون، تهادى بين هاديات الهداية بزفات مواهب العناية. سئل الشبلي رضي الله تعالى عنه: هل يبلغ الإنسان بجهده إلى شيء من طرق الحقيقة أو الحق؟ فقال: لا بد من الاجتهاد والمجاهدة، ولكنهما لا يوصلان إلى شيء من الحقيقة، لأن الحقيقة ممتنعة عن أن تدرك بجهد واجتهاد؛ وإنما هي مواهب يصل العبد إليها بإيصال الحق تعالى إياه لا غير، وأنشدوا:

أسألكُم عنها فهل منْ مُخبرٍ ... فما لي بنعمٍ بعد فرقتنا علمُ
فلو كنتُ أدري أين خيَّم أهلها ... وأي بلاد الله إذ ظعنوا أموا
إذا لسلكنا مسلك الريح خلفها ... ولو أصبحتْ نعم ومن دونها النَّجمُ

قلت: وفي المواهب المذكورات قلت في بعض القصيدات:

مواهب عنْ تخصيصِ سبق عناية ... معالم أسرار وسر معالم
جواهر تُلقيها بساحل حكمة ... بحار علوم في قلوبِ عزائمِ
ببحرِ من الأسرارِ ليسَ يغوصُه ... سوى عارفٌ بالله بالغوصِ عالمُ

وفي أكفائها الخاطبين لها بالصدق والهمم العاليات والجد والمجاهدات قلت في بعض القصيدات:

حرامٌ على صبٍ يرى حُسن عزّة ... سوى كل كفء في المحبةِ صادقِ
أبت ترتضي خطابها غير ممهر ... لها الصدق للدنيا ونفس مفارقِ
فإنْ كنتَ للمهرِ الذي عز قادراً ... فنافس وسابق نحوها كلّ سابقِ
وإنْ كنتَ مثلي عاجزاً فارضَ بالدنى ... فبالدونِ يرضى الدونُ عبد العلائق
رعى الله من أمسى وأضحى مُشمراً ... لنيلِ المعالي قاطعاً كل عائقِ
إلى أنْ علا فوق المقاماتِ في العُلى ... ونال المُنى من قرب مولى الخلائقِ
فطوبى له في حضرة القدس يجتلي ... جمال جلال جل عن وصف ناطقِ
ويسقى كؤوس الوصل منْ خمرةِ الهوى ... فيهنيه ما يلقى هناك وما لقي

قلت: وقد تقدم شيء من كراماتهم في الفصل الثاني، وشيء من فضائلهم في الرابع والتاسع، بل في جميع الكتاب من سلوك المقامات والأحوال والرياضات والمجاهدات والمعارف والآداب.

وعلى الجملة فمجموع هذا الكتاب مشتمل على نبذة يسيرة من محاسن السادات الأحباب المقربين إلى تلك الحضرة، الذين لو أقسم أحدهم على الله تعالى لأبره، ومن هذا الإبرار المذكور الذي هو عنهم مشهور وعدده غير محصور، ما روي عن بعض الصالحين قال: رأيت فقيراً ورد على

بئر ماء في البادية، فأدلى ركوته فيها، فانقطع حبله ووقعت الركوة فيها، فأقام زماناً وقال: وعزتك لا أبرح إلا بركوتي أو تأذن لي بالانصراف، قال: فرأيت ظبية عطشانة جاءت إلى البئر ونظرت فيها، ففاض الماء وطفح على البئر وإذا بركوته على فم البئر، فأخذها وبكى وقال: إلٰهي ما كان لي عندك محل ظبية، فهتف به هاتف مخاطب له بهذا الخطاب: جئت بالركوة والحبل، وجاءت الظبية بتوكلها علينا ذاهبة عن الأسباب.

قال بعضهم: في هذا سقى الله تعالى الظبية المذكورة ببركة وقفة الفقير على باب انبساطه مع مولاه وإقسامه أنه لا يبرح إلا بركوته، فأبر قسمه بصورة ورود الظبية تهذيباً لأخلاق أوليائه، واهتماماً بترك الأسباب، واعتناء بالمسبب الوهاب، سبحانه وتعالى.

قلت: ومن هذه الوجاهة ما بلغني عن بعض شيوخ اليمن أنه دخل بعض المدن، فزاره أهلها وأتاه المشايخ والفقراء والفقهاء إلا واحداً منهم كبرت عنده نفسه، فسأل أهل البلد الشيخ أن يدعو لهم بالغيث، وكان زرعهم قد أشرف على الهلاك من شدة العطش، فقال لهم الشيخ: روحوا إلى الفقيه فلان يدعو لكم، فإنه ما يرى أحداً أفضل منه، وقولوا له: إن سقيت البلاد بدعائه زرته، وإلا دعوت أنا، فإن سقيت بدعائي زارني، فذهبوا إلى الفقيه وأعلموه بما قال الشيخ؛ فقال: بل يدعو هو، فإن سقيتم بدعائه زرته، فذكروا ذلك للشيخ، فدعا فلم تمس البلد إلا ريانة بالمطر والسيل، فلما رأى الفقيه ذلك أتى إليه وزاره.

قلت: وإنما أراد الشيخ بذلك تأديبه وكسر نفسه، وإعلامه بفضل الفقراء الذين جهل قدرهم.

ومنها ما بلغني عن بعض شيوخ اليمن أيضاً ممن أعرفه، أنه طلب منه بعض الناس الدعاء وهو يريد السفر، فقال له الشيخ: إن أصابتك شدة فنادني، فسافر في البحر ثم أصابتهم في وقت شدة أشرفوا فيها على الهلاك، فنادى يا الله يا ألله، فلم تزل تلك الشدة عنهم، فنادى يا رسول الله يا رسول الله، فما زالت أيضاً، فنادى ذلك الشيخ باسمه فزالت الشدة عنهم، فتعجب من ذلك، ثم لقي الشيخ فسأله عن سبب ذلك، فقال: لأنك دعوت من لم تعرفه فلم يجبك، ثم دعوتني وأنت تعرفني فأجبتك، ثم دعوت الله تعالى وأنا أعرفه فأجابني.

ومنها أيضاً ما روي عن بعضهم قال: رأيت فقيراً في البرية يمشي حافي القدمين حاسر الرأس عليه خرقتان متزر بإحداهما مرتد بالأخرى، ليس معه زاد ولا ركوة فقلت في نفسي: لو كان مع هذا ركوة وحبل إذا أراد الماء توضأ وصلى كان خيراً له ثم لحقت به وقد اشتدت الهاجرة، فقلت له: يا فتى لو جعلت هذه الخرقة التي على كتفك على رأسك تتقي بها الشمس كان خيراً لك، فسكت ومشى؛ فلما كان بعد ساعة قلت له: أنت حاف أي شيء ترى في نعل تلبسها ساعة وأنا ساعة؟ فقال: أراك كثير الفضول، ألم تكتب الحديث؟ قلت: بلى، قال: فلم تكتب عن النبي ﷺ «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1] فسكت ومشينا، فعطشت ونحن على ساحل البحر، فالتفت إليّ وقال: أنت

---

(١) أخرجه الترمذي (زهد ١١)، وابن ماجة (فتن ١٢)، والموطأ (حسن الخلق ٣)، (كلام ١٧).

عطشان؟ فقلت: لا، فمشينا ساعة وقد كظني العطش، ثم التفت إليّ وقال: أنت عطشان؟ فقلت: نعم، وما تقدر تعمل في مثل هذا الموضع فأخذ الركوة مني ودخل البحر وغرف الماء وجاءني به وقال: «اشرب»، فشربت ماء أعذب من ماء النيل وأصفى لوناً وفيه حشيش ولله در القائل:

إذا وردوا الأطلال تاهتْ بهم عجبا ... وإنْ لمسوا عوداً زها غصنهُ رطبا
وإنْ وطئوا يوماً على ظهرِ صخرة ... لأنبتت الصماء من وطئهم عُشبا
وإنْ وردوا البحرَ الأجاج لشربه ... لأصبحَ ماءُ البحرِ منْ ريقهم عَذْبا

ولله در الآخر حيث يقول مخاطباً لبعض الطاعنين فيهم:

أتقدح فيمنْ شرّف الله قدرهُ ... وما زالَ مخصوصاً به طيبَ الثّنا
رجالٌ لهم سر مع الله صادق ... ولا أنتَ من ذاكَ القبيل ولا أنا

قلت: وإلى ما خصوا به من النجابة والفتوة وشرف المعالي والندا والعلوم الربانية والأنوار التي بها في ظلم الدياجي يهتدى، والتصريف في المملكة العظيمة بالولاية الكريمة، وجعل الواحد منهم للأرض وتداً، أشرت فيما تقدم حيث قلت في مدحهم منشداً:

نجاب فتية غُر كرامُ ... من العلياء في أعلى مكانِ
بحارُ العلم أوتاد لأرضٍ ... ملوك الخلق أقمار الزمانِ

قلت: وها أنا أختم الكتاب بالقصيدة المسماة ختام نشر المحاسن والفخر الفائحة من نشر مسك الفقر، في مدح أهله ذوي الفضائل الفاضلة في الذب عنهم والمفاضلة. قال خويدم خدام السادات ملوك الفقر أولي السعادات: عبد اللّه بن أسعد اليافعي، نفعه الله تعالى بأوليائه، ووهب له من فضله جزيل عطائه وأحبابه والمسلمين آمين:

ختمتُ كتاباً فيه نشر محاسن ... لها نشر مسك الفقرِ بالطيبِ شاملُ
تحلى بها غر ملاح أحبة ... وجيهونَ سادات كرام أفاضلُ
غياثُ البرايا في الوجودِ بجاههم ... تُزالُ البلايا للأنام وسائلُ
شموسُ الهدى أهل الندا مذهبو الردى ... جلاء الصدا سم العدا أن يقاتلوا
سيوفهم عند الوغى ورماحهم ... منَ الله أسرار لهم وفضائلُ
يحاربُ مولاهم تبارك عنهم ... ومنْ ذا لحربِ الله جل يُقابلُ
لهم في المعاني والمعالي مناقب ... بها هم أولاء السابقون الأوائلُ
حلى وعلا يزهو الوجود بحسنها ... بها الكون منْ راحِ الهوى يتمايل
وما نال كلاًّ منهما غير سالكٍ ... مُحب بسيفِ الصدقِ للنفسِ قاتلُ
ومجذوب فضل بالعناية مُصطفى ... مراد ومحبوب بوصل مواصل
وليسَ سوى هذين قط ينالها ... من الخلقِ لا والله في الدهرِ نائلُ
أينَ الثريا في علاها من الثّرى ... إذا رامَ عليا مجدهم متطاولُ
فإنْ قلتَ لي فضلت في ذاك أوليا ... على الأنبيا قلتُ اعتراضُك باطلُ

هل الأنبيا إلاّ بجذب علوا وهلْ   على الأوليا إلا من الإرث حاصلُ
وهل قط أنهار من البحرِ مثله   وهل أنت إلا في جدالكَ جاهلُ
وهل منْ أساءَ الظن بالأوليا سوى   تعيس محروم مشوم يجادلُ
سأفنى لعمري في هواهُم وفي الثَّنا   عليهم وعنهم للأعادي أُناضلُ
ومن دونهم للطعن ألقى مسددا   سنانا إلى الأعدا به الطعن قاتلُ
وأركبُ منْ بُلقِ القوافي سوابقا   عتاقاً على أعدا الأحباء صائلُ
أروي ظَما سمر بأحمر خاضب   بها خاطب بيض الفضائلِ فاضلُ
وأمسي وأضحي ذا شجون بسادة   بهم مغرمٌ قلبي وعنهم أسائلُ
وإنْ لاحَ برقٌ أو نسيمٌ من الحمى   سَرَى هاج أشواقاً بها الدمع سائلُ
أحنُ ارتياحاً للأحبا ذوي الصّفا   وأهل الوفا ممنْ إذا قالَ فاعلُ
وأفدي بنفسي من فداهم بنفسه   فتى دونهم للنفس والعرض باذلُ
قليلاً يرى هذاك في حقهم ولا   به عوضاً يبغي الفتى ويحاولُ
سوى حبهم في الله والحب كافل   بحسنِ الجزا والله نعم المعامل
فقد صح أنَّ المرء مع من أحبه   فأكرم بذي حب مع الحب نازلُ
وأني لعمري قاصر ومقصر   يُحيي وما فيهم من المدح قائلُ
مُقر بأني لستُ أصلحُ خادماً   لخادمهم من جليةِ القوم عاطلْ
ولولا خلوي من محاسنهم غدا   وراح كتابي في حلا الحسن رافلُ
قرين بتأليفِ لزين مؤلف   وشين بهِ من شينهِ ذاكَ حاصلُ
فإنْ مَنّ مولانا الكريم بنورهِ   وبلغ ما من فضله العبد آمل
تلاه كتاب أو كلام به الشفا   إذا شاء ربي فائق الحسن كامل
يُريك طريق القوم وفق شريعة   مطهرة ما ثم فرق وفاصلُ
عزائمها منهاج سالكهم إلى   نهايتها تلكَ الحقيقة واصلُ
فخذهُ وجيزا ما حواهُ مطول   ببيت إلى معناه يرحلِ مائلُ
فبالله أشجار العزائم هل تَرَى   سوى ثمرها الحالي جنى ذاك عاملُ
وهلْ قطُ من لم يرق أشجار سنة   يرى ثمرها الزاكي ويجني ويأكلُ
وهل ينكرُ الحالي سوى غير ذائق   فمنكر أحوال بها ذاك جاهلُ
كذاكَ يريك الفخر في الفقر ناشراً   لأعلامه عز العُلى والفضائلُ
وناكس أعلام الغنى من مفاخر   ولم يفتخر بالمالِ إلاّ الأراذلُ
وما الفخرُ إلا الفقر عند أولي النهى   شهير قديماً وهو في اليوم خامل
ولكن غدا بالسبقِ رايات مجده   إلى جنّةِ سعد العناية حاملُ
تحلى به الغر الملا سادة الورَى   همْ الأنبيا والأوليا والأماثلُ
حلى قد كست كل الوجود جمالها   عليهمُ سلامُ الله للكلِّ شاملُ

قلت: فهذا آخر ما أردت وضعه في هذا الكتاب من نشر محاسنهم الفائقة، وإثبات كراماتهم الخارقة، وفضل سلوك الطريقة، والجمع بين الشريعة والحقيقة، والحب لهم والذب عنهم، والمناضلة لعداهم أولي العقائد الباطلة.

وأسأل الله العظيم البر الرحيم الجواد الكريم أن ينفعنا بجميع الصالحين، ويعيد علينا من بركاتهم ويحشرنا في زمرتهم تحت لواء النبي الكريم، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم، وأن ينفعنا بهذا الكتاب ويرزقنا به قبولاً وإقبالاً، ولا يجعله علينا حجة ووبالاً، وأن يغفر لنا الأقوال المخالفة للأفعال، والأفعال المخالفة لصالحات الأعمال، وسائر الحركات والسكنات، والإرادات والخطرات والنيات، وأن يجمل أحوالنا ويصلح شأننا، ويستر عوراتنا ويؤمن روعاتنا، ويصرف عنا كل سوء ووصف ذميم، ويهب لنا من كل خير ووصف حميد كريم، ويذيقنا برد عفوه وحلاوة رحمته، وينور قلوبنا بنور معرفته، ويعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، ويهب لنا من فضله العظيم وأحبابنا والمسلمين، مع اللطف الجميل الشامل للعاجل والآجل آمين.

وصلى الله على رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وسيد العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين أفضل صلوات الله، عدد معلومات الله، كلما ذكره الذاكرون، وكلما سها عنه الغافلون، وعلى جميع النبيين والمرسلين والملائكة المقربين وسائر الصالحين، وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

المقدمة ٣
ترجمة المؤلف ٤
خطبة الكتاب ٥
الفصل الأول في الجواب عن السؤال الأول ١١
الفصل الثاني في الجواب عن السؤال الثاني ١٤
النوع الأول: إحياء الموتى ١٧
النوع الثاني: كلام الموتى ٢٠
النوع الثالث: انفلاق البحر وجفافه ٢٤
النوع الرابع: انقلاب الأعيان ٢٤
النوع الخامس: علمهم ببعض الحوادث قبل وجودها والاطلاع على ضمائر الخلق ٢٦
النوع السادس: زوى وجه الأرض لهم من غير حركة منهم ٢٦
النوع السابع: انفجار الماء لهم ٢٩
النوع الثامن: كلام الجمادات والحيوانات لهم ٣٠
النوع التاسع: إبراء العلل ببركتهم ٣١
النوع العاشر: طاعة الأشياء لهم ٣٣
الفصل الثالث في الجواب عن السؤال الثالث ٣٧
الفصل الرابع في الجواب عن السؤال الرابع ٤٠
الفصل الخامس في الجواب عن السؤال الخامس ٤٧
الفصل السادس في الجواب عن السؤال السادس ٤٩
الفصل السابع في الجواب عن السؤال السابع ٥٨
الفصل الثامن في الجواب عن السؤال الثامن ٥٩
الفصل التاسع في الجواب عن السؤال التاسع ٦٤
الفصل العاشر في الجواب عن السؤال العاشر ٧٧
فصل في فضل مقامات السالكين وأهلها ٩٣
المقام الأول: التوبة ١٢٣
الحكاية الأولى ١٢٩
الحكاية الثانية والثالثة ١٣٠
الحكاية الرابعة ١٣١
الحكاية الخامسة ١٣٢
الحكاية السادسة والسابعة ١٣٣
المقام الثاني: الورع ١٣٤
المقام الثالث: الزهد ١٣٩
المهم الأول: المطعم ١٤٣
المهم الثاني: الملبس ١٤٤
المهم الثالث: المسكن ١٤٥
المهم الرابع: أثاث البيت ١٤٥

المهم الخامس: المنكح ١٤٥
الحكاية الأولى والثانية والثالثة ١٥١
المقام الرابع: الصبر ١٥٣
المقام الخامس: الفقر ١٥٨
المقام السادس: الشكر ١٦١
المقام السابع: الخوف ١٦٣
المقام الثامن: الرجاء ١٦٦
المقام التاسع: التوكل ١٦٩
المقام العاشر: الرضى ١٧٥
الجواب الأول ٢٧٨
المسلك الأول: الاعتذار عنهم بالسكر ٢٨٠
المسلك الثاني: الاعتذار عنهم بصدور ذلك منهم على سبيل الحكاية عن الله عز وجل ٢٨٠
المسلك الثالث: الاعتذار عنهم بالأمر ٢٨٧
المسلك الرابع: الاعتذار عنهم بإرادة النفع للخلق ٢٩٠
المسلك الخامس: الاعتذار عنهم بتأويل ظاهر ٢٩١
المسلك السادس: الاعتذار عنهم بالإذن في التصريف ٢٩١
المسلك السابع: الاعتذار عنهم بالتخريب ٢٩٤
الجواب الثاني في الاعتذار عما صدر عن بعضهم من التخريب المقتضي للإنكار ٢٩٥
الجواب الثالث في بيان ما يصدر عنهم ويقصدونه في كثير من الأوقات من سماع القول والحركات ٢٩٩
الجواب الرابع في بيان سبب تمزقهم في البدايات، وسياحة بعضهم في البراري والفلوات، وإقامة بعضهم في المقابر وبعضهم في الخرابات ٣٢٠
خاتمة مشتملة على شيء من أقوال وعلماء الحقيقة وأفعالهم ٣٢٣
الحكاية الأولى والثانية ٣٤٠
الحكاية الثالثة والرابعة ٣٤١
الحكاية الخامسة ٣٤٢
الحكاية السادسة ٣٤٣
الحكاية السابعة ٣٤٤
ذكر شيء من كلامهم في المعارف والحكم والآداب والمحبة والأسرار والخطاب ٣٥٧
بيان ماهية التصوف ٣٧٤
ذكر ما قيل في تسميتهم بهذا الاسم ٣٧٥
ذكر متى حدث اسم الصوفية وعرف واشتهر ٣٧٦
ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم ٣٧٨
بيان الفرق بين الصوفية والفقر والزهد ٣٨٠
بيان الفرق بين الصوفي والمتصوف والمتشبه ٣٨١
إشارة إلى شيء مما شوهد من عظيم شرفه ﷺ وجلالة قدره ٣٨٨
بيان فضل الطائفة الصوفية على سائر الطوائف ٣٩٠
ذكر شيء من سماحتهم ٤٠١